أحمد الجندي

لهو الأيام

مذكرات

سنوات المتعة والطرب والثقافة

RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

لَهْوُ الأيّام

مُذكراتُ

سَنوات المتعة والطَربَ والثقافة

THE LIGHTHEARTED DAYS

by

AHMAD AL-JUNDI

First Published in the United Kingdom in 1991

56 Knightsbridge, London SW1X7NJ

British Library Cataloguing in Publication Data

Al-Jundi, Ahmad
The lighthearted days
1. Syria Social life. Biographies
I. Title
956-91042092

ISBN 1-85513-073-4

الطبعة الاولى: آذار / مارس ١٩٩١

محتويات الكتاب

هذه المذكرات

كان المرحوم السيد فخري البارودي الشخصية الدمشقية المعروفة يقول لي بين حين وآخر: دع ربع ساعة من وقتك كلّ صباح لتكتب ما جرى لك في اليوم السابق، ليكون لك فيما بعد كتاب تُسرّ به، وكان الأمير جعفر الجزائري، رحمه الله، أمين عام مجمع اللغة العربية يقول لي أيضاً، حين كنت إلى جانبه في المجمع: اكتب هذه الحكايات القصيرة والنكات التي تحفظها فإنها تصنع لك كتاباً يذكرك به الناس.

هذه الفكرة راودتني طويلاً ولم أقدم عليها لخوفي منها، فهي عمل يتطلب صبراً وفراغاً وهمّة بينما كنت أميل إلى اللهو، وأنا لم أخلق رجلاً مجتهداً ولم اكن في يوم من الأيام محقّقاً أو باحثاً، لأن العمل الفني الأدبي من شعر ونثر قد شغلني عن كلّ شيء ما عداه، ولكنني حين قررت وبدأت الكتابة وجدتني أساق إليها بيسر وسهولة، ووجدت القلم يتخطّى الصفحات بسرعة ولذة فكنت كما وصف أندره جيد، الكاتب الفرنسي، الكاتبَ الروسيَّ دوستويفسكي في كتابته قصصه، قال: كان هذا الكاتب، إذا أمعن في الكتابة تركته شخوص القصة لتتحرك من نفسها مفترقة عنه لا تأتمر بأمره، وهكذا كنت، لقد كانت الذكريات والأحداث هي التي تملي عليّ نفسها ولم يكن لي يد في كل ما كتبت عنها، لقد كانت ذكرياتي كلّ حياتي، فكنت أصف نفسي حين التعرض لحادثة أو قصة أو نكتة تمرُّ بي، وهذا هو الذي جعل هذه الذكريات صادقة لم ألجأ فيها إلى المبالغة ولا التنميق ولا التحوير والتعديل، لقد كنت كآلة التصوير أرى وأكتب ما أرى، وربما أخطأت النظر، أو غلطت في تصوير ما أرى، ولكن ذلك كله كان مجرداً عن إرادتي منفصلاً عن تقريري.

وقد أكون كتبت ما لا يرضى عنه صاحب الفكرة أو الموضوع، ولكن ما حيلتي وهو الذي صوّر نفسه كما رأيتها ورسم شخصه كما تبيّنته، وما كنت لأكتب إلا ما شاهدت، ولم أكتب لأرضي زيداً أو عمراً، ولست مخترعاً لما رأيت وكتبت وإنما أنا كاتب أشاهد وأرى وأسجل ما أشاهده وأراه.

ولقد أسفت كثيراً لأن بعض الأحداث والقصص لم أستطع روايتها فضربت صفحاً عنها، لأنها كانت غير قابلة للإثبات، فهناك ألفاظ لا تكتب وأحداث لا تسرّ القارىء وأمور لها عواقب وعقابيل قد تضرّ بالذكريات ولا تفيدها، لكن هذه كانت قليلة جدا لم تقدّم ولم تؤخّر في وضع هذا الكتاب الذي هو «مسلسل» حياتي وشريط ذكرياتي التي عشتها وكنت هانئاً في بعضها وبائساً في بعضها الآخر.

لقد كنت كل حياتي اتجنب المشاكسة، لا لخوفي منها، بل لأنها تثيرني وتجعل من نهاري ليلاً ومن ليلي سهراً وسهداً، وإني لأحمد الله على أنني كنت أقرب إلى الناس وألصق بهم، وكنت غير مجفوٍّ ولا مُستكره، بل على العكس، لقد كنت مالئاً كرسيي، كما يقال، وكنت اتحدث فيُستمع إلى

حـديثي وأروي فتُصدّق روايتي، وهـذه الملاحظـات هي التي شجّعتني ودفعتني إلى كتـابـة هـذه الصفحات الكثيرة التي قد تغني القارىء عن السؤال إذا أراد معرفتي والتعرف إليّ.

إني أضع هذه الذكريات أمام القـارىء وأنا واثق أنـه سيلقى فيها لـذة هيِّنة ليِّنـة بعيدة عن العسر والتعب، وأنه سيجد فيها حديثاً يسليه ويطلعه على أمور لم تتوفـر له في حيـاته، إمـا لأنها قديمة أو لأنها جديدة، وقد تبدل كل جديد في هذا العصر.

وإني لأشكر في النهاية الأخوة الـذين شجعوني عـلى صنع هـذا الكتاب، والـذين قدمـوا لي ما أوحى إليّ بالكتابة والصبر عليها، لا سيما أولئك الذين تحمّلوا عبء طباعتها ونشرها وعرضها على القراء. راجياً من الله تعالى أن يوفقهم وأن يوفقني فيما أسعى إليه، والله وليّ التوفيق.

احمد الجندي

دمشق ـ ٢٠ شباط ١٩٩٠

حياتي

حين أردت أن أكتب ذكرياتي التي صحبتني منذ طفولتي الأولى تذكرت هذين البيتين للشاعر أحمد شوقي، وهما مطلع قصيدته التي رثى بها المدينة العربية في الأندلس وهما:

اختلاف النهار والليل يُنسي — اذكرا لي الصبا وأيام أنسي
وصِفا لي مُلاوةً من شباب — صُوِّرت من تصوّرات ومَسِّ

هذه المُلاوة بالنسبة إليّ هي طفولتي الأولى مُنذ ولادتي إلى اليوم الذي أكتب فيه هذه الذكريات التي هي حياتي كلها، ولقد وجدت من اللازم اللازب أن أتكلم قبل التكلم عن حياتي، بشيءٍ من الحديث عن البلدة التي ولدت فيها وهي بلدة سلمية المعروفة في الماضي والحاضر على اعتبارها الإطار الذي عشت ضمنه والمكان الذي تأثرت به عقلياً وفكرياً وجسدياً. على أن أعود بعد ذلك إلى الحديث الذي يهمني، وهو هذه الحياة التي عشتها والتي قاربت مدتها اليوم الثمانين عاماً.

١

سلمية

كانت بلدة السلمية حين ولدت فيها عام /١٩١٠/ م بلدة صغيرة المساحة والسكان، فلم يكن يتجاوز عدد سكانها أربعة آلاف نسمة أكثرهم من أبناء الطائفة الإسماعيلية الذين نزحوا من الجبل الغربي، «جبل اللاذقية»، أعني من مصياف والقدموس والخوابي ومن بعض القرى والمدن الأخرى التي كان أبناء هذه الطائفة قد لجأوا إليها لأسباب مختلفة، منها العمل وانتجاع العيش او الإنصهار والاتصال بالألوان الأخرى من هذا الشعب السوري المختلف الأشكال والأصول والألوان، كانت هذه البلدة يوم ولادتي مؤلفة من بيوت أكثرها من «اللِّبن» أعني الطين المجفف، وكانت تتألف في أكثر أقسامها من القباب المبنية على شكل مخروطيّ مع باب صغير وبعض النوافذ الصغيرة التي لا تتسع إلا للطفل الصغير، يدخل منها الهواء والنور أثناء النهار، كما كانت هناك بيوت من الحجر، بعضها بُني بشكل هندسي فني وبعضها بُني بلا نظام ولا ترتيب.

وكانت هذه البلدة تتألف من أربع حارات أو أحياء هي: الحيّ القبلي والشرقي والشمالي والغربي، وفي وسط البلدة ساحة كبيرة يقع فيها مقهى البلدة الذي كان فيما مضى داراً للبلدية. وللسلمية تاريخ قديم عريق يمكن أن نختصره على الشكل الآتي:

فسلمية، قبل كل شيء، تقع في المنطقة الوسطى من سورية وهي مع مدينتي حمص وحماه تشكل مثلثاً زاويته الأولى حمص وإلى الشمال حماه وشرقي حماه تقع السلمية، وبين حمص وسلمية خمسون كيلو متراً، وبينها وبين حماه خمسة وثلاثون كيلو متراً، فهي تقع إلى الشرق من المدينتين وعلى سيف الصحراء التي كانت تسمى بادية السماوة أو بادية بني كلب وقد أطلق عليها في السنين الأخيرة اسم «الحماد». ويحيط بالبلدة مرتفعات كثيرة متنوعة وجبال قليلة الارتفاع، وقد تناوبت عهود كثيرة وأجناس متعددة على هذه البلدة فملكها أولاً العموريون ثم الحثيون ثم الآراميون ثم الأشوريون ثم الكلدانيون فالفرس ثم الأسكندر المقدوني وقائده الذي تولّى سورية بعده وهو سيلوقوس، ثم تولى أمرها الرومان الذين ينسب إليهم سورها القديم كما تنسب إليهم الأقنية التي اشتهرت بها هذه المدينة والتي بلغ عددها حوالي ستين قناة تسير من الشرق إلى الغرب لتسقي أراضيها وتروي مزارعها، والآثار اليونانية والرومانية ما زالت باقية في البلدة على شكل أعمدة وأحجار عليها نقوش وتصاوير يونانية ورومانية، وقد سماها اليونانيون السلاميس تيمّناً بمعركة «السلاميس» اليونانية التي انتصروا فيها على الفرس، أو لأن سلمية تشبه مدينة من مدن اليونان هي مدينة سلاميس الكائنة على ساحل بحر إيجه، ولكن الذي أراه أن سلمية سميت بسلامنياس بالنسبة لمركبات ملح الطعام وملح البارود فيها «أعني كلورور الصوديوم» و«كلورور البوتاسيوم» وهذا الأخير يشكل ملح البارود الذي اشتهرت فيه هذه البلدة في أوائل هذا القرن، وأما ملح الطعام فيها فبالنسبة للسبخة التي تقع شمالي البلدة والتي كانت مصدراً من مصادر ملح الطعام في هذه المنطقة. وهناك تسمية أخرى للبلدة ولكنها أسطورية كما أعتقد فقد جاء في معجم البلدان

لياقوت الحموي (م ٣ ص ٢٤٠) أن بلدة سلمية كانت تقع قرب بلدة المؤتفكة التي نزل بأهلها العذاب فدمرت ولم يسلم منها سوى مئة نفس فنزح هؤلاء إلى سلمية فعمروها وسكنوها فسميت «سلم مئة» ثم حُرِّف الاسم إلى سلميّة، ثم اتخذها منزلاً له ولولده عبدالله بن صالح العباسي وبنى فيها الأبنية كما بنى فيها المسجد ذا المحاريب السبعة.

ولا شك أن الشيء البارز والهام في تاريخ سلمية كله هو علاقتها مع آل البيت، فأهل سلمية كما أسلفت هم منذ القديم من الفئة الإسماعيلية، ولا بد من شرح هذه النسبة التي يجهلها، مع الأسف، الكثيرون ظنّاً منهم أنها نسبة إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل. وهذا الظنّ ناشىء عن الجهل بتاريخ هذه الطوائف المختلفة، فالإسماعيلية التي نذكرها الآن منسوبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهناك القسم الثاني من الطائفة الشيعية الذين ينتسبون إلى موسى الكاظم أخي إسماعيل ويدعون بأسماء شتى، منهم الموسويون أو الاثنا عشرية ـ لأن لهم اثني عشر إماماً ينتهي عددهم بالمهدي المنتظر في بلدة سامراء العراقية، كما ويُدعون بالمتاولة أو الشيعة ومنهم الإيرانيون وغيرهم. أما علاقة سلمية بهؤلاء فهي على الشكل الآتي:

بعد أن استغلّ العباسيون الدعوة الهاشمية بأسرها من عباسية وطالبية انقلبوا على أبناء عمهم الطالبيين ونكّلوا بهم تنكيلاً كبيراً وكان أشدهم ضراوة في ذلك، الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور الذي طارد العائلة الطالبية وقتل منهم محمداً وإبراهيم ابني عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي وغير هذين. لذلك خرج الإمام محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق متخفياً عن عيون أبي جعفر المنصور من المدينة المنوّرة وذهب إلى الشرق متنقلاً بين بلدة الري من ارض فارس ونهاوند ودماوند، ولكنه لم يطمئن، لأن عيون الخليفة السفّاح كانت تلاحقه فاتجه إلى الغرب وإلى مدينة تدمر بالذات من سورية، وذلك عام ١٩١ للهجرة فاستوطنها وتوفي فيها وقبره يدعى الآن: قبر محمد بن علي، وقد خلفه في الإمامة ابنه عبدالله بن محمد، فلم تعجبه تدمر واختار بلدة السلمية لأنها كانت بلدة تجارية وفيها مياه عذبة وفيها غرباء كثيرون، في هذه البلدة كان الدعاة الإماميون برئاسة الإمام «الوفي أحمد» بن عبدالله مار الذكر، وقد سميت الدار التي كانت تقام فيها الاجتماعات: دار الدعوة، وقد كنا ونحن أطفال ندخل بعض البيوت القديمة في سلمية فننزل في أقبية عميقة فيها غرف ومياه وكل ما يلزم للسكنى، ويبدو أن هذه البيوت كانت مخابىء لهؤلاء الذين كانت الحكومة العباسية ناقمة عليهم.

ومن المهم هنا أن نذكر أن «أخوان الصفا» الذين يتحدث عنهم المؤرخون هذه الأيام ودارسو الفلسفة، قد كانوا من دعاة الإمام. ويؤكد المحفوظ من المخطوطات عند الطائفة الإسماعيلية أن أخوان الصفا هم دعاة مستورون للأئمة وأنهم كانوا في سلمية ولهم فروع في أمصار أخرى، وقد عملوا للأئمة المستورين: وفي أحمد، تقي الدين، رضيّ الدين عبدالله الذي هو والد أبي محمد المهدي الذي ذهب إلى افريقيا وبنى فيها بلدة المهدية وتفرعت عنه الدولة الفاطمية.

ولقد تعرضت بلدة السلمية، إلى كوارث كثيرة من أهمها، الزلازل التي هدمتها مراراً، وإلى غزوات البدو المحيطين بها، وأهم من ذلك غزو القرامطة الذين فتكوا بأهلها فخربت وأصبحت مرتعاً للبدو الذين طمعوا بالاستفادة من أهلها، فغادر الأهلون البلدة أو أكثرهم إلى جهات أخرى.

وفي العهد العثماني لم يكن قد تبقى من سلمية إلا سورها القديم الروماني وقلعتها التي أصبحت مركزاً لرجال الأمن على سيف البادية، وحين آن الأوان لإعمار هذه البلدة كان الإسماعيليون في الجبال الغربية قد وقع اختيارهم عليها، وقد وافقت الحكومة التركية على هذه الفكرة لأنها بلدة إسماعيلية في الأصل. وهكذا عادت سلمية ثانية لتكون بلدة وذلك في عام ١٨٤٨ م كما سنذكر ذلك.

٢ طفولة

أريد أن أنقل أخبار طفولتي اليوم إلى القارىء نقلاً صادقاً، فقد ولدت في شهر كانون الأول أو كانون الثاني، أعني في الشهر الأخير من سنة ١٩١٠ أو في الشهر الأول من سنة ١٩١١ فأنا على كل حال من مواليد هذه السنة التي دعيت سنة الثلج لكثرة ما سقط فيها من ثلج، قضى على كثير من المواسم الزراعية والحيوانية؛ وأهم ما أصيب من هذه المواسم الأغنام التي فقدت الغذاء بسبب تغطية الثلج للعشب، ولأن هذا الثلج قد تجاوز المتر ارتفاعاً فوق الأرض، وجاء شركاؤنا في الأغنام، كما رُوي لي وهم ينادون بالويل والثبور وقد مات نصف ما لدينا ولديهم من الغنم. وعلموا بولادة الطفل الذي هو أنا فابتسموا بعد العبوس وقالوا: خيراً إن شاء الله، واقترحوا أن يكون اسمي «ثُلَيْج» ولو صحّت هذه التسمية لحملت أبرد اسم في العالم.

لم يكن في البلدة قابلة قانونية، فهذا الصنف من القابلات لم يكن معروفاً ولا يدرى من أين جاءتني هذه «الدمّله» في ثديي الأيسر، كما ولدت أسمر اللون قاتمه بينما أخوتي كلهم شقر اللون أو بيض الوجوه، ولكن هذه الظاهرة لم تطل فقد جاءت إحدى الطبيبات العربيات من الحي الذي نقطنه ووضعت على الثدي ورق «الخبين» ولم يمض يوم أو بعض يوم حتى انفجر الدمل واستردت عافيتي وسقط الجلد الأسمر عني وظهرت بشرتي البيضاء وشعري الأشقر كما التمعت عيناي الزرقاوان، هذا اللون المعروف بكل عائلتنا. وتحضرني حكاية طريفة بهذه المناسبة، فقد جاء بعض النسوة من أقربائنا ليروا الطفل الذي ولد مجدداً لقريبتهم، أي والدتي، وكشفت إحداهن عن وجهي فرأت السواد والضعف فاستغربت شكلي بالنسبة لأخوتي وصرخت في وجه أمي تسألها ما هذا الولد! لا يشبه أخوته يا خسارة! وحين تغيّر كل شيء فيّ ورجعت إلى حقيقة شكلي وبشرتي البيضاء وشعري الأشقر جاءت قريبة أخرى لتراني، فرأت عجباً وشتمت قريبتها الأولى التي أشاعت عني ما أشاعت من بشاعة وسواد وضعف. كنت في طفولتي الباكرة التي أذكرها كالخيال أو لا أذكرها، محبوباً من الزائرين والضيوف وكنت «ألثغ» أي لا أحسن لفظ السين إلا ثاءً، وكانت هذه الظاهرة من دواعي حب الناس لي لذلك كانت تتخطّفني الأيدي، وكنت انتقل، كما قيل لي من حضن إلى آخر، كما كنت كثير الكلام كثير السؤال لا أدع شيئاً إلا وأسأل عنه حتى كان والدي وأخي الكبير يملّان مني وينهرانني لأمتنع عن الكلام، وحين وصلت إلى الرابعة والنصف من عمري أو الخامسة بدأت أعرف الأشياء وبدأت ذاكرتي تحتفظ بما أشاهد.

وفي هذه السنّ المبكرة بدأت أتعلم القراءة والكتابة، وأنا من الذين لا يتذكرون اليوم الذي كنت فيه أمّياً، فقد أفقت على نفسي وأنا أجيد القراءة والكتابة، ولم يكن في سلمية في تلك الأيام أي حوالي سنة ١٩١٤ و١٩١٥ مدارس ولا ما يحزنون إلا مدرسة صغيرة بناها الأتراك ودعوها بالرشدية، وهو اسم كان يطلق على المدارس قبل الابتدائية والتي عدد صفوفها لا يتجاوز الثلاثة، وما عدا هذه المدرسة فقد كان عدد من الكتاب «المشايخ» يتولى تعليم الصبيان وتهذيبهم، ولكن هؤلاء المشايخ لم يكونوا في بناء يشبه المدارس بل كانوا يدرّسون الطلاب في غرف ضمن بيوتهم ويجلسونهم على الأرض دون ترتيب أو نظام، وكان على كل تلميذ أن يأتي برغيف من الخبز أو بـ «شرك» وهو العملة الصغيرة التي كانت دارجة يومها، وقد يرد على الشيخ أيضاً بعض الهدايا من أولياء الطلاب وذلك بالمناسبات، وكانت الكتابة بالحبر الذي كان يذاب في الماء مع قلم من القصب أو قلم تُشْكَلُ برأسه ريشة من الحديد، وكان هذا الحبر كثيراً ما يندلق على ثياب التلامذة فكنت تراهم منقشين ومرقعين بآثار الحبر لا سيما في أيديهم، وكان الشيخ كثيراً ما يكون شديد المراس قوي الصوت يمسك دائماً في يده عوداً من الرمان أو غيره يضرب به الطالب المشاغب أو الذي لا يقرأ درسه أو الذي لا يحضر الرغيف أو «الشرك»؛ وكان حظّي ـ ولله الحمد ـ عند شيخ من الدراويش الهادئين واسمه الشيخ صالح عارفة، وكان بيته بعيداً نسبياً عن بيتنا وكائناً في

الحارة الشمالية، أي الحي الذي يقطن فيه أقرباؤنا الأمراء، وكان لي رفيق منهم اسمه عبدالله تامر وهو ابن أمير العائلة واسمه الأمير تامر، وهو من الشخصيات التاريخية بالنسبة لسلمية كما يأتي تفصيله، وكنت أذهب كل يوم وأعود إلى الشيخ، ولكن مواظبتي لم تكن دقيقة فكثيراً ما كنت أتعطل عن الذهاب إلى الشيخ، ومع ذلك فقد كنت أستفيد وأتعلم شيئاً فشيئاً دون أن أذكر الآن كيف بدأت أكتب وأقرأ.

أحد أهم الحوادث الكبيرة التي حدثت في تاريخ البلدة وفي تاريخ حياتي، إقدام الحكومة التركية على نفي والدي إلى البلاد التركية مع عائلته الكاملة ومعنا عائلة أخرى من أهالي السلمية، لذلك أسباب لا بد من تفصيلها:

كان رجال الحكومة التركية هم الاتحاديون الذين جاءوا بعد الإطاحة بالسلطان عبدالحميد في عام ١٩٠٩ وكان أبرز الرجال بين هذه الشرذمة ثلاثة أنفار هم: طلعة باشا الذي كان وزيراً للداخلية وهو من أصل بلغاري، وكان المسلمون البلغار يُسمون «بوماخ»، ويأتي بعده أنور باشا الذي كان تركياً أصيلاً، وكان أصله من ولاية قسطموني المعروفة وهو صهر الملك محمد رشاد المسمى باللغة التركية «داماد» أي الصهر، وكان الثالث جمال باشا وهو السفاح الذي كان أثناء الحرب قائداً للجيش الرابع الذي يسيطر على هذه المنطقة السورية حتى مصر وهو من أصل تركي كما يقال، وقد قتل في نهاية الحرب، أمّا طلعة فقد قتل في برلين حيث كان لاجئاً، وقد قتله أحد الأرمن الذين أخذوا في تلك الآونة ينتقمون من الحكام الأتراك السابقين جزاء المجازر التي قام بها الأتراك ضدهم، وقتل أنور في حرب اشترك فيها مع الأفغان وغيرهم ضد الشيوعيين الروس، أما جمال فقد قتل في موسكو حيث كان لاجئاً وقد قتله الأرمن أيضاً. كان احمد جمال السفاح هذا أسوأ رجال الاتحاديين، فقد كان حاكماً مطلقاً في سوريا ولبنان وفلسطين، وهو الذي أقدم في ٦ أيار عام ١٩١٦ على شنق الشهداء وإعدامهم من رجال سوريا ولبنان وفلسطين بتهمة وجهها إليهم بأنهم خونة للدولة العثمانية وأنهم متفقون مع الأجانب من إنكليز وفرنسيين وغيرهم، وقد فتشت مكاتب هذه القنصليات فجأة فعثر المفتشون فعلاً على بعض المراسلات التي تدين أكثر هؤلاء الشهداء، وهناك من يقول إن جمال باشا كان متفقاً مع هؤلاء الشهداء على أن يكون رئيساً لجمهورية ما أو ملكاً لملكة ما في هذه المنطقة، وعلى أن ينفصل عن الدولة العثمانية، ولكن الشهداء نكثوا بالاتفاق مما أدى إلى نقمة جمال السفاح حتى أقدم على إعدامهم لهذا السبب. كان في جملة التدابير التي لجأ إليها جمال السفاح أنه عمد إلى الكثير من وجهاء هذه البلاد وموظفيها البارزين فنفاهم إلى جهات مختلفة من بلاد الأناضول «تركية»، وكان الأرمن قد أخذوا يردون إلى هذه البلاد منفيين من بلادهم تركيا إلى سوريا، وقد قيل يومها إن القصد من ذلك هو أن يصبح الأتراك عرباً وأن يصبح المنفيون العرب أتراكاً بسكناهم في بلاد الترك، ولكن انتهاء الحرب في عام ١٩١٨ وضع حداً لكل هذه الخطط والتكهنات.

كان والدي (واسمه علي بن احمد الجندي) من مواليد قرية من قرى الإسماعيلية في منطقة الخوابي المجاورة والتابعة لبلدة طرطوس واسم هذه القرية «بحوّي»، وقد حضر إلى سلمية يوم كانت سنه أربعة عشر عاماً ليكون إلى جوار عمه إسماعيل الجندي المقيم في سلمية، وأحد وجهائها وكان لم يلد له إلا ابنتان، وقد تزوج والدي كبرى الابنتين وتزوج عمي الثانية، وفي سلمية أخذ والدي يتعلم ما يلزم للشاب في تلك الأيام فتعلم القراءة والكتابة وتعلم الفروسية فأتقنها لأن عمه إسماعيل كان أشهر فارس في تلك المنطقة، وأخذ والدي عدا ذلك يقرأ القانون ويتردد على المحكمة التي كانت من الدرجة البدائية إلى أن عين مع الزمن عضواً نتيجة لفحص أجري له ولزملائه من المرشحين للتعيين في دمشق. وقد تزوج والدي وأنجب عدداً من الأولاد. وذهب إلى عمله في المحكمة في أحد الأيام ولكنه لم يرجع بعد انتهاء الدوام، وحين سألنا عن السبب قيل لنا إنه موقوف لأمر سياسي في غرفته بالمحكمة وقد بات تلك الليلة فعلاً في المكتب الذي كان يعمل فيه، وقد علمنا في الليلة ذاتها أن والدي محكوم بالنفي إلى بلاد الأناضول مع عائلته، وأوعز إلينا بأن نهيء أنفسنا وأن نحزم أشياءنا للسفر في اليوم التالي وهكذا كان؟

كان والدي قبل أيام قرر أن يزوج ولده الكبير «محمد» فتحدث إلى والد الفتاة وهي قريبتنا من جهة أمها، وقد ووفق على الزواج من الجانبين وبعد يوم أو يومين جاء أمر النفي فجاءه والد الفتاة وأحلّه من

هذا الاتفاق وكذلك الأقرباء الذين أيدوا فكرة الاتفاق على الخطبة بمناسبة المفاجأة الخطيرة وهي النفي، ولكن والدي أبى أن يحل نفسه مما وعد وأصرّ على أن يأخذ الفتاة معنا إلى دار النفي وأدخل اسمها فعلاً في قائمة العائلة المنفية، وهناك وبعد مدة أجرى حفل الزواج ودعا له أناساً من جيراننا أولاد العرب والأتراك وكان عرساً بالغ التوفيق، وهكذا كان الوالد ميالاً بل مؤمناً بالحياة الجادة التي لا يخامرها مزاح أو هزل.

كان قد تقرر في أمر النفي أن يشركنا في ذلك رجل من الأمراء هو عميد طائفته واسمه الأمير تامر، وكان هذا الرجل شخصية جريئة مهابة، وقد أدرك بما عنده من تجربة أن ماله قد ينفعه في تفادي هذه المصيبة فذهب إلى حماه، كما رُوي، واتفق مع أحد تجارها الذين كانوا على صلة بوالي حلب التركي ـ هذا الوالي الذي كان ذا صلة حسنة مع جمال السفاح القائد، وهناك دفع من المال ما طلب منه فغيروا اسمه ووضعوا مكانه رجلاً من الأهلين يدعى الحاج موسى الجرف، وهو رجل بسيط ليس له علاقة بالسياسة، وقد تقرر أن يرافقنا طوال مدة النفي التي قضيناها.

رحلة النفي ابتدأت حين تجمع أهل البلدة في ذلك الصباح الباكر من أيام نيسان عام ١٩١٦، وكنت في السادسة من عمري وخرجت إلى باب دارنا الواسع أنظر إلى الناس وقد وقفوا تحت المطر والدموع تترقرق في عيونهم، فقد كان والدي رجلاً معروفاً برزانته ودفاعه عن الحق، كما كان معروفاً بنظافة اليد في عمله الرسمي. ولم تكن تُعرف السيارات يومئذ، فقد كانت وسائل النقل، العربات، ومنها العربات السود وهي أرقى شيء كان يومئذ، ثم العربات الخشبية الصفراء التي كانت تسمى «برجقه» وهي أدنى من الأولى وسفرها متعب مؤذ بما تصدر من ضجة واضطراب في سيرها، ثم كانت هنالك الخيل والدواب الأخرى من بغال وحمير، وقد جاء خيالة الدرك «الشرطة» لحراستنا إلى حماه، وخرج الأهلون نساءً ورجالاً، وكانت عمة والدي ما تزال حية وكانت كبيرة السن وهي أم أمير من الأمراء، وقد خرجت معنا ماشية باكية إلى ظاهر البلدة وودعت والدي وقبّلته ثم أتممنا سيرنا إلى حماه، وفي الطريق كان الأهلون من سكان قرى تلدرة والكافات يلاقوننا مودّعين ناشجين والدموع تترقرق في عيونهم، لقد كان منظراً من أفجع المناظر التي مرت في حياتي، لقد غشيتني الكآبة يومها وأنا طفل في السادسة من عمري وما تزال هذه الذكرى تراوحني حتى الآن.

وصلنا إلى حماه، تحت الإشراف طبعاً، وبقينا في حماه يومين أو ثلاثة ضيوفاً عند أصدقائنا إلى أن تيسر لنا القطار الذي سوف ينقلنا إلى حلب، لقد كانت القطارات بطيئة قديمة بالية تسير على الحطب لأن الفحم الحجري كان مفقوداً، وكانت هذه الأحطاب تؤخذ من الحراج من لبنان وسوريا وكان أخذها واقتلاع أشجارها كارثة أصابت الحراج في هذه البلاد، وهكذا فقد كانت الحرب العالمية الأولى وبالاً على تركيا التي يصح فيها قول شوقي الشاعر حين خذل الحلفاء العرب، لقد قال:

كلنا وارد السراب وكل ... حَمَلٌ في وليمة الذئب طاعم
قد رجونا من الغنيمة ربحاً ... ووردنا الوغى فكنا الغنائم

بعد يومين ركبنا القطار، وقد كان شيئاً عجيباً بالنسبة إليّ، آلة كبيرة تسير ملتوية كالأفعى وتصفر صفيراً يخلع القلوب، وما زلت أتذكر كيف كنت أمدّ رأسي من نافذة القطار لأرى الدخان يتصاعد من مقدمه ولأسمعَ صفارته وهي تئز أزيزاً مزعجاً، وقد طال السفر هذه المرة حتى مللناه، لأن الطريق طويلة بين حماه وحلب، وحين وصلنا إلى حلب كان في استقبالنا نفر من الجنود من أهالي سلمية الذين كان فيها عملهم وكانت إقامتهم في حلب.

كانت بلدة حلب بالنسبة إليّ حلماً وكان وصولي إليها ورؤيتي لأبنيتها باعثاً على الهدوء ونسيان بعض الحزن والاضطراب الذي مرّ بي من فكرة النفي والتشرد، وكان في حلب عدد من الجنود من أهل سلمية وحماه وحمص ودمشق وبقية المدن الأخرى وقد سميت هذه المجموعة «بلوك الأشراف» والبلوك باللغة التركية تعني «الكتيبة»، وقد سُموا بالأشراف لأن أكثرهم من أبناء العائلات المعروفة في بلادهم، ولكنهم لم يكادوا يصلون إلى حلب حتى انصرفوا إلى اللهو والشراب والأنس، هذه الأمور التي كانت معروفة في

حلب، فقد كانت هذه البلدة التي كانت تستقطب أغنى العائلات من إسلامية ومسيحية ويهودية، كانت عاصمة اللهو والطرب يقصدها الأغنياء والفقراء على السواء لأنها لم تكن تخلو في لياليها من مطرب كبير أو مغنية ذائعة الصيت أو راقصة مشهورة، وكانت تردها في تلك الأيام سارينا المصرية اليهودية الأصل والتي كانت تضارع أم كلثوم في أيامنا، كما كانت تقضي فيها أياماً طويلة بديعة مصابني الراقصة الشهيرة، وجميلة الذهبية، ونظيرة عنبة، وجميلة الروشن وغير هؤلاء، وقد انصرف جنود الكتيبة تلك ـ أعني بلوك الأشراف ـ إلى حياة اللهو والسهر والعربدة حتى دعاهم رؤساؤهم (بلوك الأشرار)، ومن بين هؤلاء الجنود كان الأمير كنج ابن خال والدتي، وهناك أقرباء وأصحاب كثيرون وقد عنوا بنا عناية فائقة واستأجروا لنا مكاناً نبيت فيه إلى أن يتيسر أمر سفرنا الطويل، وكان البيت ملكاً لامرأة اسمها «عائشة» وفي حي يسمى: حي قشلة الشيخ يبرق، هذه القشلة، أي الثكنة، التي سميت في الأيام الأخيرة: ثكنة هنانو باسم الوطني المعروف في تاريخنا الحديث.

وفي حلب كانت تعمل في أحد مقاصفها فنانة مصرية من أصل يهودي هي سارينا المصرية «كما كانت تدعى» ـ وقد مر ذكرها ـ وقد ذهب أخي مدعواً ليسمع غناءها، وكانت شهيرة حتى لقد قيل إن صلة كانت بينها وبين جمال السفاح، ومن غريب المصادفة أن هذه الفنانة كانت قد جاءت إلى سلمية مرة لتعمل فيها ولم تكن مشهورة يومئذ وكانت معها أمها وأختها واسمها «ملكة» وقد داهمها الثلج يومها وهو الثلج الذي كان لي الحظ أن أولد فيه. وكان أخي الكبير هذا له علاقة بها إذ كان في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من سني شبابه، وكان منعماً من الناحية المادية، فلما طالت إقامة هذه العائلة الفنية في سلمية انقطع العمل عنها بسبب الثلج وأصابتها ضائقة شديدة، فتبرع أخي لينفق عليها مع أمها وأختها، وذهبت الفنانة وقد غابت سنوات لتعود فنانة كبيرة يخطب ودها الكبراء وأصحاب المزاج، ولما دخل أخي المقهى الذي كانت تعمل فيه عرفته للوهلة الأولى وأرسلت إليه ترجوه أن يقترح الأغنية التي يريد أن تغنيها له ونزلت إليه أمام الناس فسلّمت عليه وكانت مفاجأة لأخي ورفاقه من رجال «بلوك الأشرار».

٣ في الطريق بعد حلب

بعد إقامة أيام عدة تقرب الأسبوع أُحضرت لنا سيارات عسكرية ضخمة من نوع «الكميون» ووضعنا في اثنتين منها، ومن الغريب أن السائقين فيهما كانا من الجنود الألمان الذين اشتركوا في الحرب مع الأتراك ضد الإنكليز في جبهة غزة وغيرها، وهذا الجيش المشترك كان ينوي احتلال مصر ولكنه مني بكارثة في منطقة السويس كما خسر المعركة في غزة وعاد أدراجه لا يلوي على شيء، وقد تلقّفه العرب والبدو في هذه البلاد فأثخنوا فيه وقتلوا منه عدداً كبيراً. هؤلاء الجنود الألمان الذين رافقونا ساروا بنا من حلب يتسلقون الجبال وأشهرها جبال طوروس، وقد مررنا على بلدة الإصلاحية وكانت «متصرّفية» أي محافظة، وكان محافظها السيد هاشم الأتاسي الزعيم الوطني المعروف والذي أصبح فيما بعد رئيساً لجمهورية سورية أكثر من مرة، ومررنا على بلاد كثيرة من بينها المعمورة، كما مررنا في نهاية الطريق على قرية في أعلى تلك الجبال اسمها «حسن بك». وما زلت أذكر إلى اليوم تلك المياه العذبة البيضاء المتدفقة من نبع هناك وقد نزلنا وشربنا منه حتى ارتوينا، وقد لاحظ الألمان المرافقون أن الأولاد جميعاً شقر اللون زرق العيون، فراحوا يسألوننا بالإشارة ولم نستطع التفاهم معهم، وجل ما استطعنا أن نقول لهم أننا عرب وما أظنهم سروا لهذا النبأ.

لقد لقينا في رحلتنا تلك عذاباً ومشقة كبيرين. وليتصور القارىء عائلة فيها طفل عمره سنة واحدة وطفلة عمرها ثلاث سنوات وطفل ثالث عمره ست سنوات ـ وهو أنا ـ وطفل أكبر عمره ثماني سنوات وطفل خامس تجاوز العاشرة وفتاة أكبر منه في سن الخامسة عشرة ووالدة وخطيبة أخي ووالدي الذي كان قد شارف على الخمسين من عمره. كل هذه المجموعة كانت في سيارة شحن للجيش تقيمها وتقعدها ليلاً ونهاراً حتى وصلنا إلى منتصف جبال طوروس، فوقفنا في بلدة تسمى «بوزانتي» وهي مركز هام للقطارات الآتية من تركيا والذاهبة إليها.

بوزانتي هي بلدة صغيرة تقع في سرة جبال طوروس، تحيط بها الجبال من كل جهاتها، فموقعها جميل جداً. ولكننا مررنا فيها بشهر آذار فكان البرد فيها ما زال قارساً، وحين وصلنا أنزلنا الجنود من السيارات العسكرية ووضعونا نحن وأشياءنا في بيت خشبي يرتكز على أربع عضادات ترتفع عن الأرض مقدار نصف متر، جلسنا داخل الغرفة الواسعة الخشبية وكانت قريبة من محطة القطار، وجلسنا متعبين يائسين يقطر الحزن من عيوننا ويلوح التعب على وجوهنا، وما كدنا نحن الأطفال نصل إلى الأرض حتى رحنا جميعاً في نوم عميق وكذلك والدتي وخطيبة أخي وأختي الكبيرة، بينما ظل والدي ساهراً يتأمل هذه النتيجة التي وصل إليها في بلاد لا يعرف أهلها ولا لغتها ولا يعرف الذنب الذي ارتكبه، وبعد قليل جاء المختار ومعه قائد المنطقة العسكري، ولحسن الحظ، كان هذا القائد عربياً من دمشق ومن حي الميدان ومن أسرة الشعلان المعروفة في هذا الحي، وقد سلّم على والدي بكل احترام وسأله إن كانت له مطالب واحتياجات فلبّاها له ثم توجه القائد إلى المختار التركي وقال له ما تُرجم لنا فيما بعد: احذر أن يذهب ولو ورقة صغيرة أو فنجان قهوة من أغراض هذا الرجل المنفي، ولئن علمت بشيء من هذا فلن يكون جزاؤك إلا الإعدام بمسدسي هذا، وأشار إلى مسدسه، فانخلع قلب المختار خوفاً واطمأن والدي بعض الشيء، وقد أمّنوا لنا طعامنا ونمنا تلك الليلة نوماً هادئاً لولا بعض الأحلام التي كانت تراود والدي الحزين المتألم، وفي اليوم الثاني نُقلنا إلى القطار. كان القطار من نوع قطارات الشحن وكانت العربات فيه مليئة بروث الدواب. والذي علمناه أنهم كانوا ينقلون فيه الدواب للجنود في الجبهات، ورأى والدي هذا المنظر والتفت إلى القائد العسكري ليقول له: «والله لو بقيت سنة هنا لما ركبت مع أطفالي في مثل هذا القطار الوسخ الذي قد يسبب لنا المرض»، وقد أحسن القائد الأستماع وأمر بتنظيف إحدى العربات القريبة من أول القطار فركبنا واتجهنا إلى بلدة جديدة تدعى «أفيون قره حصار»، وبعد ساعات من السير المضني

وصلناها، ووقفنا في محطتها للاستراحة. وهذه البلدة كانت مشهورة بتحضير القشدة «القشطة» التي يسميها الأتراك «قيمق»، ولأول مرة سمعنا بهذا الاسم الذي كان يستعمل أحياناً في البلاد العربية أيضاً، لقد بقينا مدة في هذه البلدة الصغيرة الواقعة على خط القطار الذاهب إلى استامبول، وفيها نعمنا بأكل القيمق واللبن الطازج الرائع والجبنة الطيبة، وكأنها بلدة مختصة بمشتقات الألبان ومستحضرات الحليب، ومن هذه البلدة سرنا بالقطار إلى بلدة «ترسوس» الشهيرة.

ترسوس، بلدة قديمة جداً، وهي بلدة صغيرة تقع بعد جبال طوروس، وقد اشتهرت بأن فيها ـ كما قيل لنا ـ مغارة أهل الكهف التي تحدثت عنها الكتب الدينية والقرآن الكريم بشكل خاص، وفيها أيضاً ولد القديس بولس أهم تلامذة السيد المسيح (ع) بعد القديس بطرس ـ وبولس الرسول هذا هو الذي كان كافراً أول الأمر ثم أصبح مؤمناً ومحارباً ومجاهداً في سبيل عقيدته الدينية، في هذه المدينة أيضاً قبر الخليفة العباسي المأمون، ولا ندري ما الذي جاء به إلى هذه الديار مع أن والده الرشيد مدفون في بلدة طوس في إيران، ويبدو أنه جاء بزيارة أو غزوة فقضى نحبه في هذه البلدة. وفي ترسوس أخذنا نتعلم أسماء الأوزان التي تغيرت الآن مع الزمن واستعيض عنها بالكيلو وحده، فهناك الرطل واسمه بالتركية «بطمان» ونصف الرطل وهو: الإقة، والأوقية واسمها «توكو»؛ وقد بطلت هذه الأسماء الآن كما قلت، وفي ترسوس تذوقنا طعم اللحم المشوي في الفرن مع السمسم وهو طعام لم أذق أطيب منه في حياتي، فإن للّحم في هذه المنطقة نكهة خاصة لا تجدها في مكان آخر، ولاحظنا شيئاً آخر في هذه المنطقة، وفي «أضنة» التي مررنا بها أيضاً وهي أكبر من ترسوس بكثير. وفي ترسوس وفي «مرسين» لاحظنا وجود أناس يتكلمون اللغة العربية بلهجة مرتبكة وبرطانة تركية، وحين سألنا عن ذلك قيل لنا إن هؤلاء من العرب الشيعة «العلويين» وهم يشكّلون امتداداً لمنطقة أنطاكية واسكندرون وكلهم عرب جعلت السياسة منهم أتراكاً.

تركنا ترسوس لننتقل إلى قطار أفضل من القطار الشحن الذي كنا فيه ولننتقل إلى مدينة كبيرة شهيرة هي بلدة قونية الشهيرة في التاريخ العربي، والمعروفة باسم «عمورية»، وهي التي ذكرها أبو تمام الشاعر العربي المعروف في قصيدته المعروفة:

السيف أصدق إنباءً من الكتب ... في حدّه الحدّ بين الجد واللعب

وهو يذكر هذه المدينة في هذه القصيدة فيقول:

يا يوم وقعة عمّورية انصرت ... عنك المنى حُفّلا معسولة الحلب

ولهذه القصيدة قصة ذكرناها ونحن في قونية، وقد حدثنا بها والدي الذي كان مولعاً بالتاريخ العربي والذي كان يحفظ الكثير من الشعر أيضاً، قال والدي:

بلدة قونية لها تاريخ في التاريخ العربي، فقد وقعت فيها معركة عظيمة هي وقعة عمورية هذه التي ثأر فيها الخليفة المعتصم العباسي بن هارون الرشيد من الروم حين استغاثت به امرأة عربية صرخت تقول: وامعتصماه حين أهانها أحد رجال الروم. وقد وصف أبو تمام حادثة الغزوة بالقصيدة البائية التي أشرت إليها آنفاً. وقونية اشتهرت في البلاد التركية وغيرها بأنها بلدة مولانا جلال الدين الرومي مؤسس الطريقة المولوية التي أخذت اسمها هذا من كلمة «مولاي» والمولى هنا هو جلال الدين الرومي الشاعر والرجل المقدس عند بعض الفئات، وهو صاحب ديوان الشعر المعروف باسم: مثنوي، وقد عرفت قبره وجامعه من الرحلات التي قمت بها في الأيام الأخيرة، وقد ألغى الأتراك الحديثون هذه الطريقة الصوفية كما ألغوا غيرها، إذ كانت تستغل في بعض الأغراض غير الدينية وهي على كل حال بدعة والبدع جميعاً لا يقرّها الدين الإسلامي كما هو معروف.

حين وصلت إلى محطة قونية لفت نظري، وأنا صغير، منظر المحطة وما فيها من زينة وبخاصة الألوان الزجاجية الخضراء التي ما زلت أتخيّل منظرها حتى الآن، وقد وقعت لي أثناء انتظارنا السفر في هذه المحطة حادثة من حوادث الطفولة، ظللنا نتحدث بها سنين طويلة، فقد كان أخي الذي هو أكبر مني واسمه ـ رحمه الله ـ سليمان، قوياً شديداً شرساً بين الأطفال، وكان له أخ أكبر منه أيضاً اسمه صبري

واختلف يومها معي ومع أخيه الثاني فضربنا نحن الاثنين حتى أبكانا، وكان والدي ـ رحمه الله ـ في حال لا تسمح له بالصبر على مثل هذه المشاكل فغضب على أخي سليمان غضباً شديداً وأمسك بيده السيكارة التي كان يدخنها ووضع نارها على يد أخي، فجن جنون والدتي لأن الولد صرخ صرخة فظيعة من الألم وتورمت يده، وكان الوالد إذا غضب وصل غضبه إلى النهاية، ولكنه لطيب قلبه سرعان ما يتراجع نادماً، وندم أصحاب هذه الطبيعة ندم عميق، لذلك عمد والدي إلى استرضاء ولده «المحروق» وتركنا نحن جميعاً في المحطة وأخذه إلى البلدة «قونية» التي تبعد مسافة كيلومترات وتناول الغداء معه إرضاءً له وعادا. وبينما كنا نتجوّل في بهو المحطة رأى والدي رجلاً يهجم علينا ويأخذ بيد والدي ليقبّلها، وإذا به أحد رجال السلمية وقد كان جندياً في تلك المنطقة مع الجنود الذين جمعهم الأتراك من أجل الحرب، وكانت مصادفة عجيبة ظل والدي يذكرها زمناً طويلاً.

ركبنا القطار في اليوم التالي بعد أن تركنا «قونية» واتجهنا صوب مدينة أخرى شهيرة من مدن الأناضول هي: أسكي شهر، ومعنى هذه الكلمة «البلد العتيق» وكان يفصلنا عنها بعدٌ شاسع هو الصحراء التي تسمى صحراء «الملح»، وقد ظل القطار يسير بنا طوال النهار والليل إلى أن وصلنا مع الفجر إلى «أسكي شهر». وأذكر أني أفقت من نومي ونظرت من نافذة القطار فوجدت مدينة أنيقة نظيفة ولحت شيئاً يسير وقد ركبه غلام صغير مثلي، وهو يسير بسرعة البرق وركضت إلى أمي أسألها عن هذا الذي أراه وأنا أصرخ مستفهماً فقالت لي: اسكت الآن إن أخوتك وأباك نائمون هذا هو «شيطان بَيُّور» يا بني، وهذا الاسم هو اسم «البسكليت ـ الدراجة» كما كان يدعونها جماعتنا بسلمية ولم تكن معروفة عندي قبل تلك اللحظة. أما أسكي شهر فلها أيضاً تاريخ في الحروب التي كانت تقوم بين العرب والروم في هذه المناطق، وقد أشار المتنبي إلى كثير من هذه المواقع في شعره الذي مدح به صديقه وبطله سيف الدولة.

وصلنا إلى المحطة الأخيرة من رحلتنا الحزينة، إلى البلدة التي خصصت لإقامتنا في المنفى، كان اسمها «بيلجك» أو «بيله جك» وهي مدينة صغيرة قديمة من المحافظات المرتبطة بإحدى الولايات كما كان الترتيب الإداري التركي في ذلك العهد، وفي هذه المدينة قبر «أرطغرل» بن عثمان سيد الترك والذي ينتسب إليه العثمانيون، بلدة تحيط بها الحراج والمرتفعات وبعض القبور من المزارات التي كان الأتراك يبجّلونها، ولا ننس هنا أن الأتراك شعب ديّن وما زال كذلك حتى الآن رغم كل الظروف والأحوال، ولقد نُقلنا بعد وصولنا إلى بيت ضخم أنيق مؤلف من طوابق أربعة، فوضعنا أشياءنا وقسمنا طوابق البيت حسب احتياجنا، لقد كان البيت ذا بابين واحد يفتح على السوق والآخر على الحي الذي كان يقع خلفنا وكان حياً مليئاً بالبيوت الخربة حديثاً، ويبدو أن الحريق قد داهم هذه البلدة منذ مدة وجيزة والحرائق كانت تقع كثيراً في بلاد تركيا، وبخاصة في مناطق استامبول وما يتبعها من المدن، ومن الغريب أن المدن كلها أو أكثرها قد بنيت هنا من الخشب، رغم أخطار الحريق، وذلك لأن الزلازل كانت دائماً تشكل الخطر الأكبر في هذه الأماكن، وأمر الخشب أسهل بالنسبة لوقع الزلازل وأخطار البناء تكون أقل، وكان أمام الطابق الأرضي للبيت حديقة فيها أشجار باسقة من التوت وغيره من الفواكه، وفي الحديقة فرن كان أهل البيت السابقون يستعملونه وفيها أيضاً دالية من العنب الجيد كانت تتسلق البيت وتدور حوله مرتين، فكانت تؤمن لنا كل احتياجنا من هذه الفاكهة في موسم العنب، ويأتي بعد ذلك الطابق الأول وكان مغلقاً ومختوماً بالشمع الأحمر، كما كان مليئاً بالأوراق الرسمية التي كانت تتناثر أحياناً، فيصل إلينا منها بعضها وعليها العلامات الرسمية من الطرر وغيرها، وقد علمنا فيما بعد أن هذا البيت الواسع كان مصرفاً مالياً لأحد الأغنياء من رجال الأرمن الذين قضت عليهم الحرب قتلاً ونفياً وتشريداً يوم كارثة الأرمن المعروفة. وأما الطابق الثاني فكان مجموعة من الغرف وكذلك الطابق الثالث، أما الطابق الرابع والأخير فكان مؤلفاً من غرفتين صغيرتين عند مدخله ثم بهو كبير واسع محاط بالنوافذ المطلة على البلدة، وحين سألنا قيل لنا إن هذا البهو كان مخصصاً لتربية دود الحرير التي كان أهل هذه البلدة يتعاطونها لمعاشهم.

٤
في بلدة المنفى

كانت بلدتنا الجديدة «بيله جك» باردة جداً فالثلوج لا تفارقها وهي قريبة من بلدة شهيرة هي «بورسة» وتبعد عنها (٤٥) كيلو متراً، وكانت فيها عين ماء كبيرة يسمونها بالتركية «قره صو» أي الماء الأسود أما المدرسة التي انتسبت إليها مع أخويّ الاثنين سليمان وصبري فكانت تسمى (أورخانية مكتبي) أي مدرسة أورخان، وهذا من أجداد الملوك العثمانيين، وقد استقرت العائلة العثمانية في بلدتنا هذه وبورسة قبل فتح القسطنطينية من قبل «محمد الفاتح» ومدرستنا كانت بتدائية وفيها معلمان، أولهما اسمه «محمد أفندي» والثاني «خليل أفندي»، وكان الاثنان يلبسان العمامة البيضاء على طريقة المشايخ وكان إلى جوار بيتنا فرن نتناول منه خبزنا الذي كان يصنع كتلاً كل واحدة تزن نصف كيلو تقريباً، فإذا أردنا الأكل قسمنا الرغيف إلى شرائح بسمك الأصبع وقد نستعملها مع الحلو يدهن بها أو في الطعام العادي، وكان خبز البلدة رائع الجودة حسناً، وبعد الفرن كان هنالك شارع طويل يخترق البلدة من شرقها إلى غربها يدعونه شارع (١٠ تموز) وأظن التسمية جاءت من تاريخ تولية السلطان محمد رشاد الذي كان الملك يوم كنا هناك، أو من تاريخ الدستور العثماني الذي أطيح بالسلطان عبدالحميد من أجله؛ وفي هذا الشارع سبيل ماء لذيذ الطعم وحاكم البلدة كان متصرفاً أي محافظاً.

كان يرافقنا في منفانا عائلات كثيرة سورية ولبنانية أولها عائلة من سلمية، كنت أشرت إليها، وكانت مؤلفة من رجل رب العائلة واسمه الحاج موسى الجرف وزوجته وولداه عزو ونايف وابنته نايفة وزوجة ابنه عزو نايفة أيضاً. كان رجلاً طيباً يلبس العباءة والقنباز ويضع على رأسه عقالاً حريرياً وكوفية، وكان رجلاً بسيطاً لكنه اسماعيليّ شديد الإيمان بعقيدته، وقد ذهب في أيامه الماضية إلى الهند للقاء الإمام «آغا خان» الذي سيأتي حديثه في هذه المذكرات بالتفصيل، كما كان الحاج هذا يرطن قليلاً ببعض الكلمات الهندية يقولها مازحاً بين حين وآخر، وقد وجد له بيتاً يسكنه بعيداً عنا لكننا كثيراً كنا نزوره في فترات. وكان من دمشق عدد من العائلات منها عائلة العسلي أسرة الشهيد شكري العسلي، فقد رافقنا زوجته التي مرضت وتوفيت في المنفى وكذلك ولده الوحيد خالد الذي لم يكن يتجاوز السنة من العمر مع عدد من أولاد عمه وأخواله، وكان معنا أيضاً من دمشق عائلة الشمعة وهم ذوو الشهيد رشدي الشمعة وكان معهم محمود الشمعة وهو رب العائلة، وكذلك كانت عائلة البخاري الدينية المعروفة، وكان سيد العائلة الشيخ سليم البخاري والد القائد العسكري المعروف نصوحي البخاري الذي أصبح فيما بعد وزيراً للمعارف في الدولة السورية كما صار مرة رئيساً للوزارة كما كان له أخ يدعى عاصم البخاري وكان أستاذاً للغة الفرنسية في مكتب غنبر الشهير بدمشق. ومن العائلات التي عاشت مجاورة لنا في منفانا عائلة آل حيدر من بعلبك وعميدهم مهدي حيدر، ومن حمص كان آل الأتاسي وكانوا كثيرين منهم: عمر الأتاسي ورضى الأتاسي وإنعام الأتاسي، وكانت معهم عائلاتهم. ومن الغريب أنه كان مع المنفيين رجل يهودي من يافا اسمه «إسحق» وكان بالغ الأبهة في لباسه وحديثه وهيئته؛ ومن الغريب أيضاً أن يرافقنا بعض المنفيين من الأتراك أنفسهم وكانوا يقيمون في بلدتنا هذه إقامة جبرية، ومنهم رجل كبير الشأن اسمه «إسماعيل حقي باشا» وكان رئيساً للوزارة سابقاً وهو ما يسمونه بالتركية «الصدر الأعظم»، ولهذا الرجل الكبير قصة طريفة مع أحد المنفيين:

كان في البلدة سوق للبيع تسمى «البازار» بالتركية فكان يجتمع فيه البائعون من جميع الأشكال وكان أهل القرى من أصحاب المواسم المختلفة ينزلون إلى السوق يوم الاثنين من كل اسبوع ليبيعوا ما يحضرونه وليشتروا من البلدة ما يلزمهم، وكان المنفيون يلتقون أحياناً في هذه السوق، وكان الباشا الذي أشرت إليه آنفاً مرة ومعه والدي يرافقه لأنه كان كبير السن ذا لحية بيضاء تغطي بعض صدره، ومد الباشا يده ليأخذ شيئاً من الجبن أو ما يشبه ذلك من يد البائعة الفلاحة، فهجم أحد المنفيين العرب

واختطف الجبنة من يدها قبل أن تصل إليها يد الباشا، وعجب والدي لهذه الصفاقة وصاح بالرجل أعد الجبنة للباشا، لقد سبقك إليها، ولكن الرجل مشى ولم يعبأ بالأمر والتفت الباشا إلى والدي يقول له متأثراً: دعه دعه دولة الحمير تنفي هكذا حمير، وقد ردّد هذه العبارة عدد من المنفيين حتى افتضح الرجل المعتدي الوقح.

كنا نذهب في الصباح الباكر إلى المدرسة ونعود عند العصر، وقد أتقنّا اللغة التركية إتقاناً عجيباً حتى لم نعد نعرف بأننا غرباء عن الأتراك وحتى كنا نتحدث بها مع الأولاد وفيما بيننا في البيت، فإذا تحدثنا مع بقية أفراد العائلة تحدثنا بالعربية لأنهم لم يتعلموا التركية، إلا كلمات قليلة. والعلم في الصِّغَر لا في الكبر، كما لا يخفى، ومن الغريب أننا نسينا هذه اللغة بعد رجوعنا إلى سلمية خلال شهر واحد وكأننا لم نتكلم التركية أبداً. وفي هذه المدرسة (الأورخانية) تعلمت مع أخوتي القراءة والكتابة، فأنا ـ كما قلت آنفاً ـ لا أتذكر الوهلة التي كنت فيها أمّياً لا أقرأ ولا أكتب. وما جعلني أتقن اللغة التركية أمر آخر أقصه عليك: كان إلى جوارنا بيت تلوح عليه أمائر الغنى السابق وكان صاحبه رجلاً أرمنياً قد كان ذا وظيفة كبيرة في القضاء، وكانت عائلته تتألف من امرأته وابنتين إحداهما وهي الكبرى تسمى «بيره جك» والثانية (أنّيك). ويبدو أن الأولاد الذكور في العائلة قد هربوا أو شُرِّدوا أو قتلوا فأمرهم مجهول حتى من أهلهم وذويهم، الأمر الذي أصاب الوالد بالمرض حتى أصبح مقعداً؛ وقد كنا نتصل بهم على حذر وهم الذين نصحونا بهذا، لأن سمعة الأرمن كانت أشد سوءاً من سمعة العرب لدى الأتراك، وجاءت في أحد الأيام الابنة الكبرى إلى بيتنا ومعها أمها تقول: لقد جاءنا إنذار هذا الصباح بأنه يجب علينا أن نختار بين أمرين، إما أن نرحل إلى إحدى المدن السورية كما ذهب بقية الأرمن، أو يكفلنا أحد المنفيين العرب من بيله جك هنا لنبقى بعهدته وتحت إشرافه ويكون هو مسؤول عنا عند السلطات. وسمع أبي كلام الفتاة فحزن أشد الحزن لهذا المصير الذي صار إليه هذا الشعب النشيط القوي والذي ذهب ضحية السياسة والخداع، وتحدث إلى رفاقه في المنفى وسرعان ما اتصل بالمسؤول التركي وتقدم بكفالة هذه العائلة في كل شيء مع الوالد المسكين والوالدة وكذلك البنتين، قالت البنتان نحن طوع أمركم ونرجو أن تقبلونا ضيوفاً دائمين عندكم أنا وأختي نتناوب في خدمتكم وخدمة الأولاد، فقد أحببناكم لما وجدناه عندكم من غيرة وحميّة لم نعهدها عند غيركم. ومن يومها أخذت الفتاتان تأتيان بالتناوب لتظلا عندنا في النهار ثم تذهبان إلى بيتهما المجاور، وقد دامت هذه الحال ـ أكثر من سنتين هما السنتان اللتان قضيناهما في تركيا، كانت كبرى الأختين بيره جك في الثامنة عشرة من العمر حنطية اللون دعجاء العينين ذات شعر أسود فاحم، وكانت أطول من أختها، أما الثانية «أنيك» فقد كانت آية في الجمال مشربة بالحمرة، يعلو رأسها شعر خرنوبي لامع وعينان سوداوان دعجاوان كلهما سحر وعطف، وكان عملهما أن تعتنيا بنا نحن الأطفال وأن تشرفا على طعامنا ونظافتنا ولباسنا وما نأخذه معنا من طعام إلى المدرسة.

ولقد اجتمع المنفيون كعادتهم في مقهى اعتادوا ارتياده وفكروا في أمر نفيهم الذي طال، وقرروا أن يتصلوا بمتصرف البلدة، وأن تتصل نساء المنفيات بامرأة المتصرف فلعل المرأة تستطيع أن تؤثر في زوجها فيسعى إلى إنهاء مدة النفي لبقية المنفيين؟ وأذكر أن والدتي كانت إحدى النساء اللاتي ذهبن مع الوفد لمقابلة زوجة المتصرف وكنت معها، فقد ارتأت أن أرافقها فلعل منظر الطفولة يكون له تأثير فيها. وذهبت معها ودخل الوفد النسائي فاستقبلتهن امرأة المتصرف بأدب بالغ وتحدثت إليهن بواسطة مترجمة تعرف العربية والتركية ولكنها كانت متحفظة في كل شيء قالته، مما يدل على أن زوجها قد أوعز إليها بأن لا تتطرف في البحث مع نساء المنفيين العرب، ولا أنسى ذلك المنظر الذي رأيت فيه أمي تشكو أمرها وبُعدها عن وطنها والدموع تنهمر من عينيها، لقد تذكرت وأنا الطفل الصغير كيف كان يأتي بعض النسوة إلينا من السلمية يشكون إلى أبي شكاواهنَّ وهن يبكين إذ كان قاضياً يستطيع أن يضر وينفع، وسبحان مغير الأحوال، لقد أصبحت المشكو إليها شاكية بحكم تصرف الزمان. كان والدي يعيش من موردين اثنين الراتب الذي كان يتقاضاه من السلطات التركية بحسب عدد نفوس عائلته وهو راتب ضئيل نسبياً، لا سيما وأن الليرة التركية قد هبطت قيمتها بسبب الحرب وضعفت جداً قوتها الشرائية، والمورد

الثـاني كان من عنـد أهلنا في سلميـة مما يـرسله إلينـا عمي من واردات الأرض التي نملكهـا والكـروم والدكاكين، كما كان يلجأ أحياناً إلى بيع بعض الملك ليرسل إلينا دراهم نستعين بها على وجودنا في المنفى.

عرضت لوالدي فكرة جديدة لا أدري كيف خطرت على باله وهـو في هذه المحنـة التي لا يعلم إلا الله متى تنتهي ومتى نعود إلى قواعدنا في وطننا. كانت الفكرة أن يدرس أولاده الثلاثة: أنا وسليمان وصبري اللغة الإنكليزية، وقد اتفق مع معلمة أرمنية قديرة باللغة الإنكليزية، والذي أتخيّله الآن أن للفتاتين اللتين كانتا تأتيان إلينا علاقة بتدبير هذه المدرّسة القديرة، وقد كان والدي يعطي المعلمة لـيرة ذهبية؛ فقـد كان احضر معه عدداً لا بـأس به من هـذه الليرات يـوم جاء إلى المنفى وكـان يقتصد بهـذه الليرات ويتـركها للحاجات الماسة. أخذت المعلمة تدرسنا، أما أنا فلم أستطـع العلم إلا قليلاً بسبب صغـر سني، وقد تعلم بشكل أفضل أخي سليمان الأكبر والذي تعلم أحسن منا هو شقيقي صبري الذي كان قـد بلغ الحـادية عشرة من العمر وكان معنا شريكاً في الدرس ابن زميلنا في المنفى واسمه نايف الجـرف وهو من سلميـة ـ كما قلت ـ وكان في الرابعة عشرة من عمره وقد تعلم جيـداً وأصبح يتكلم بعـد مدة مـع المعلمة ويتفـاهم وإياها باللغة الإنكليزية، وقد ظل هذا الشاب يتكلم الانكليزية حتى بلـغ الثمانـين أو أكثر ولم ينسَ تلـك اللغة التي كان يستعملها في بعض الأحيان في سلمية مع بعض الهنود الذين كانوا يفـدون إليها بمنـاسبة علاقة البلدة مع آغا خان الإمام الإسماعيلي والزعيم الروحي للطائفة. لقد كانت فكرة غريبة من والدي أن يفكر في موضوع كهذا، ولكنه كان مؤمناً ـ كما علمت فيمـا بعد ـ أن الحـرب ستكون وبـالاً على الأتـراك لأنهم تصرفوا تصرفاً غير معقول في دخولهم حربـاً لا ناقـة لهم فيها ولا جمـل، وان الغربيـين من الإنكليز والفرنسيين سيستولون عـلى هذه المنطقـة العربيـة، فمن المعقول أن يتعلم الإنسـان لغة هؤلاء لأن المثـل يقول: من تعلم لغة قوم أمن مكرهم.

كنت قلت في أول هذه المذكرات أن أخي خطب واحـدة من قريباتنا وحضرت الخطيبة معنـا إلى تركيـا حيث كان منفانا، وكان أخي الأكبر وهو من مواليد ١٨٩٣ قد تجاوز العشرين من عمره، وكان والدي رغم جدِّيته ورجاحته يحب ولده هذا حباً جماً لأن أخوته الذين جاءوا بعده وقبله قد ماتـوا كلهم، وقد طلب إلى والده أن يزوجه في تركيا ما دامت الخطيبة موجودة ولا يصح أن تبقى الفتاة مخطوبة سنوات طـويلة ولا يعرف إلا الله متى تتيسر لنا العودة إلى وطننا، ولكن أخي كان قـد أصبح جنـدياً وانتقـل من «بيله جـك» بلدتنا إلى استامبول حيث دخل مدرسة التدريب وتخرج برتبة مرشح.. أي ما يعادل (مساعد أول)، وأقنع أخي الوالد بأن يستأذن من عمله في استامبول ليمكث ثلاثة أيام في «بيلـه جك» ليتـزوج أثناءهـا ثم يعود إلى عمله. وهكذا كان الاتفاق. وكانت والدتي مؤيدة لولدها الحنون البكر الذي أرادت أن تفرح به دون أن تعلم ما يخبئه لها الزمان من علاقة صعبة مؤذية بينها وبينه، وأطاع الوالد وبـاشر في ترتيب العـرس لأنه لا يجوز الأمر بلا حفل واستعداد لهذا الحدث الهام، ومن الغريب أن يوافق الوالد على هذا في بلـد غريب وكيف رضي أن يضحي بالنفقات التي يتطلبها مثل هـذا الاحتفال وهـو أحوج إليـه من أجل نفقتـه ونفقة عائلته، وهذا مما يدعو إلى الاستغـراب حقاً، ولا بـدع فإن أفـراد هذه العـائلة الجنـدية قـد جبلوا عـلى التناقض في حياتهم فالمنطق عندهم يأتي بعد العاطفة دائماً، ولو كان في هذه العاطفة الضرر البالغ، ونزلت الوالدة مع الخياطة المعروفة بالبلدة وكان اسمهـا «حسنية هـانـم» وهي التي تعهدت الحفـل كله وكـانت طريفة في شكلها ولطفها، لقد كانت شقراء سمينة جداً وقصيرة كأنها الكرة مع بـراعة زائـدة في صنعتها. وقد ابتاع أبي من السوق الأقمشة الحريريـة الغاليـة للعروس وأذكـر أن عدد البـذلات كان اثنتي عشرة بذلة، كما أذكر عدداً من الأساور الذهبية والخواتم وشيئاً اسمه «الشكل» وهـو عبارة عن عشرة أو اثنتي عشرة مخمّسة ذهبية تتصـل بسلك يـوضع في العنق كـالعقد، وكـل مخمّسة سعـرها خمس لـيرات ذهبية عثمـانية فكـان منظر هـذا الشكل لافتـاً للأنظـار عند جمـاعة مثلنـا يعيشون في منفـاهم ولا يعلمون عن مصيرهم شيئاً مؤكداً؛ وحضر أخي في بذلته العسكرية وبقي ثلاثة أيام وقد دعونا للعرس عدداً من رفاقنا المنفيين ومن جيراننا الأكراد ومن بعضهم العـائلات الـروسية من زوجـات اسرى الروس في الحـرب التي دارت بينهم وبين الألمان خلال هذه الحرب الكونيـة الطاحنـة؛ وبعد ثـلاثة أيـام عاد أخي إلى استـامبول

وبقينا نحن في بلدتنا فلم نره إلا بعد أن عدنـا إلى سلمية بلـدتنا لأن أخي فـرّ من الجيش التركي كـأكثر الجنود العرب حين قامت الثورة العربية على يد الحسين بن علي وعادت زوجته معنا، ولم يلتق بها إلا بعد أن انتهت الحرب وأعلنت الهدنة عام ١٩١٨.

كان والدي كثير التدخين فقد تعلم هذه العادة منذ أن كان صغيراً في ديار العرب حيث يزرع الدخان ويتعلمه حتى الأولاد الصغار، وكثيراً ما كان يجلس على فراش سميك وبجـانبه علبـة كبيرة من الـدخان، وكان يتخذ من لفّ السكاير تسلية له خلال النهار وفي الليل، ولكن الهموم كانت كثيرة عليـه حتى ان وزنه هبط وضعفت صحته مما اضطره إلى ترك الدخان بعـد عودتـه إلى سلمية. ومن الشخصيـات التي كانت مرموقة في المنفى السيد عمر الأتاسي الذي أخذ عـلى نفسه أن يحفظ مقـامات الحـريري أثنـاء وجوده في ديـار الغربـة، وقد فعـل ذلك وحـين رجع إلى بلـدة حمص عُيِّن متصرفـاً للبلدة بـزمن الحكومـة العربيـة الفيصلية، وكان معه ابن عمه رضى الأتـاسي كما كـان معهما امـرأة كبيرة هي أم رضى هـذا ولكن اسمها الأصلي كان ام هادي، وكثيراً ما كانت تزورنا في بيتنا فتتحدث إلينـا أحاديث طـريفة جمـة وكنت أصغي إليها وأنا طفل وأقلدها أحياناً فيضحك والدي وينتهرني لأقلع عن ذلك.

في المدرسة تعلمت القراءة والكتابة ونجحت من الصف الأول إلى الصف الثاني، وحين تقررت عودتنا أعطيت شهادة تسمى «تصديق نامة» باجتياز الصف الأول إلى الثاني، وكذلك حصل على مثل ذلك أخواي كلٌ بصفّه. كانت الفواكه كثيرة في البلدة وبخاصة العنب والكرز، لقد كنا نشتري الكرز الـرخيص لكثرتـه فنقتسمه في البيت بأكوام توضع كل كومة أمام صاحبها، أما العنب فقد كانت تكفينا منه الدالية الكبـيرة التي أشرنا إليها حـين تحدثنـا عن بيتنا مـع بعض المشتريـات، ولا ننسَ أن الحكومـة قد أعطتنـا بعض الفرش والأغطية والأسرّة، بمعنى أن المنفيـين قد أصـابوا بعض العنـاية من الحكـومة في تلـك المناسبـة البائسة.

٥ العودة

كانت الحرب تتوالى أنباؤها على المنفيين العرب في منافيهم بتركية وكانوا يرون أن خلاصهم يرتبط بهذه الحرب ونتيجتها، وأن اندحار الألمان والأتراك ومن حالفهم فيه الخلاص الأكيد وقد دامت الأخبار تصف حالة التخبط عند الأتراك في الجبهة العربية من فلسطين أو السويس والحجاز، ولا سيما بعد أن أعلن الشريف حسين ثورته التاريخية من الحجاز، الأمر الذي أربك الأتراك في هذه البلاد، فقد أصبحوا غير آمنين من نتيجة حربهم، أما القضية العربية فقد أخذت أول الأمر شكل جهاد الحق، وإن كان هناك بعض الشخصيات العربية في سورية والعراق ومصر قد استنكرت أن يُطعن الأتراك في ظهرهم وهم مشغولون بحربهم مع العدو الأجنبي، وأن العرب يجمعهم مع الترك الدين والتاريخ، فليس من الدين والحق أن تقع هذه الواقعة بين الطرفين. ومن الشخصيات التي استنكرت هذا الأمر الأمير شكيب أرسلان الكاتب العربي المعروف، والذي كتب كتاباً خاصاً نشرته المجلات والجرائد والكتب وفيه يحذر الشريف حسين من خطر تراجع الإنكليز ونكثهم بعهودهم، وكذلك الشاعر أحمد شوقي الذي عبر عن رأيه في الكثير من شعره، وقد أشار إلى ذلك في قصيدته الشهيرة التي رثى بها الحسين حين توفي ومطلعها:

لك في الأرض والسماء مآتم … قام فيها أبو الملائك هاشم
قم تحدث أبا عليّ إلينا … كيف غامرت في جوار الأراقم
كلنا وارد السراب وكلٌّ … حَمَلٌ في وليمة الذئب طاعم
قد رجونا من الغنيمة ربحاً … ووردنا الوغى فكنا الغنائم

وفيها يخاطب الحسين معاتباً وراثياً له.

وهذه الأبيات تصور تصويراً رائعاً حالة العرب ووضعهم اليائس مع الحلفاء الذين نكثوا العهود والمعاهدات والاتفاقات لاهثين وراء الاستعمار الذين كانوا يعيشون عليه مستأثرين بحقوق الناس الأخرى.

كان مصطفى كمال الزعيم التركي ـ فيما بعد ـ آخر جندي خرج من هذه البلاد السورية بعد اندحار القوات التركية أمام القوات الحليفة والقوات العربية التي آزرتها ـ كما أسلفنا ـ وقد وصلت هذه الأخبار كلها إلى المنافي وعلم بها العرب فأخذوا يتأملون العودة إلى بلادهم، ومن الذين عظم أملهم بالعودة المرحوم والدي.

وفي صباح يوم من الأيام جاء والدي يتحدث إلى أمي ويقول لها: لقد شاعت أخبار بين المنفيين تؤكد أننا سنرجع بعد أيام، ولكن الرجوع مشكل، وسألته والدتي التي كانت أشد الجميع شوقاً إلى العودة قائلة: وما هو المشكل؟ وأجاب والدي، إن بلاد سوريا وما جاورها مصابة بداء «الهواء الأصفر (الكوليرا)» الخطير ومن الخير أن ننتظر بعض الزمن، وسنرجع ـ إن شاء الله ـ قريباً، وجاء بعض الجيران من الأتراك يؤكدون خبر انتشار الكوليرا في بلادنا ونصحوا إلينا أن نستأني بعض الوقت فهو أسلم لنا وللأولاد.

وبعد أيام قليلة تأكد خبر العودة، وأوعز إلينا والدنا بأن نهيء أنفسنا وما لدينا من أشياء للعودة، وكانت والدتي أكثرنا سروراً، فقد كانت دائمة الشوق والتذكر لأختها في سلمية وهي أصغر منها ولكنها كانت تحبها أكثر من أولادها، أصرت على السفر ولو كان ما يكون في سوريا من مرض أو غيره، ولم يستطع والدي أن يخالفها كما هي العادة من استجابته إلى أكثر آرائها، رغم اعترافه الدائم ببساطتها وبقصورها عن حل المشاكل المعقدة أو غير المعقدة.

جاءت الفتاتان إلى البيت فوجدتا حالة جديدة ما عهدتاها من قبل وسألت الكبيرة «بيره جك» والدتي

ما الخبر؟ فأجابتها والدتي بكل بساطة: سنسافر يا ابنتي فقد اشتاقت البلاد إلى أهلها؟ كان الخبر الذي لفظته والدتي بسهولة أشبه بالصاعقة بالنسبة للفتاة، أما أختها الأخرى فقد شهقت من الاستغراب والدهشة وتناولت أقرب كرسي فجلست عليها وهي تنظر وقد عجزت عن الكلام، وسألت الفتاة الكبرى: وكيف ذلك؟ ماذا حدث؟ وأجابتها والدتي هذه حال الدنيا يا ابنتي، لقد أخبرنا أبو محمد ـ وهو والدي ـ أن السفر بعد ثلاثة أيام، فقد صدر الأمر بإعادة كل المنفيين إلى بلادهم. وسمع والدي شيئاً من هذا الحديث وكأنه أحسَّ بالمفاجأة التي سيتركها الخبر بالنسبة للفتاتين اللتين ارتبطتا بنا عاطفياً وعائلياً وإنسانياً وأحبتا الأولاد فقد ربتاهم وأحبت والدي الذي اعتبرهما ابنتيه وكان المحامي عنهما بكل شيء حتى لو اختلفتا مع والدتي أو شقيقتي، وكانتا تأملان أن تطول مدة اللقاء، وتدخَّل والدي بالحديث فغيَّر اتجاهه، وقال لهما: ما يزال هناك وقت طويل والمرض منتشر في بلادنا ولسنا نريد أن نسرع بالعودة، واعترضت والدتي على هذا القول فأسكتها بشدة وانتهت المقابلة على هذا الشكل، ولكن الفتاتين خرجتا من البيت كعادتهما عند المساء وهما تتعثران في مشيتهما، ولما عادتا في اليوم التالي كان أثر السهر والتعب والهمّ بادياً على وجهيهما. عادت الفتاتان في اليوم التالي لتريا البيت مهيئاً ليكون خالياً، فقد حزمت الأشياء كلها فتركت للفتاتان بعض الأغراض التي لم نرد استصحابها، وأخذت الفتاتان تنظران إلى الأشياء المحزومة وعيونهما تدمع ونظرتا إلينا وقد انقطعنا عن المدرسة بحكم قرب السفر فثبت لهما كل شيء، وعندها جاء والدي فتحدث إليهما بصوت متهدّج وأخبرهما بجلية الموقف وأنه لا بد من الافتراق في نهاية الأمر والحزن غير وارد وهو شيء ضار ورجا إليهما أن تصبرا، وطلبت الفتاتان أن ترافقانا إلى المحطة فوافق والدي على ذلك وكان يشغل بالي في تلك اللحظات الحرجة شيء لا يخطر على البال وهو يتعلق بقصة كنت أنا بطلها، فقد كنت مرة عائداً من المدرسة في أيام البرد فرأيت هراً صغيراً أسود يموء وكأنه يبكي وهو يرتجف من البرد وحملته وأتيت به إلى البيت ورحبت والدتي بفكرة تربية هذا الحيوان الأليف وقالت: لعله يخلصنا من بعض الحشرات أو الفئران، وعاش الهر في البيت وكبر ولكنه كان كلما كبر ازداد شراسة وتمرداً، فقد كانت حياته أكثرها على سطوح البيوت المجاورة وفي أعلى أشجار التوت التي كانت في حديقة البيت وكان عددها خمس شجرات وبقي الحيوان عندنا إلى أن حان سفرنا.

في موعد السفر جاءت الفتاتان ومعهما أمهما ليودعننا وكان الوالد المسكين مُقعداً لا يستطيع الحركة، فأرسل يودعنا وهو حزين لفراقنا وجاءت العربتان الاثنتان فركبنا كلنا في عربة ومعنا الفتاتان وسرنا في الطريق المتعرجة إلى المحطة التي كانت تبعد عن البلدة قرابة كيلومترين، وبينما كنا نسير التفت والدي فرأى الهر يركض وراء العربة وهو يحاول التسلق إليها فلا يستطيع أثناء سيرها، وظل كذلك وهو يموء إلى أن وصلنا إلى المحطة التي اضطررنا للنوم فيها ليلة أخرى حتى يتهيأ القطار الذي سيعيدنا إلى وطننا، ووصل الهر حيث وقفنا ورأيته وأنا دامع العين يهجم حتى يصبح قريباً منا ثم ينكفىء راجعاً ليقف بعيداً ينظر إلينا وهو يحك أنفه بيده كأنه الإنسان المتردد، ولقد كرر هجماته مرات، وفي المرة الأخيرة وقف بعيداً وتمرغ بالأرض ثم وقف كالمذعور ونكس راجعاً على الطريق التي جاء منها ولم أره بعد ذلك. ان صورة هذا الحيوان الوفي ما تزال عالقة في ذهني وقد أوشكت على الثمانين من عمري، لقد كان هذا الحيوان عبرة لمن يعتبر وهي عبرة ستظل ترافقني ما دامت الحياة.

أما الفتاتان فقد نامتا معنا في المحطة ولم تجف دموعهما أبداً وحاولت الكبيرة أن تعرض علينا فكرة كانت مستبعدة، لقد رجت والدي أن يأخذهما معنا إلى حيث نذهب ولكن والدي كما قلت استغرب هذا الرجاء وطمأن الفتاتين أنه سيكاتبهما وسيعمل على استدعائهما إلى بلدنا مهما كلفه الأمر، واعتذر إليها بقضية النفي وأن له وضعاً خاصاً في هذه الظروف، ومن المؤسف المؤلم أننا لم نأخذ عنوان الفتاتين ولم نتصل بهما بعد أن عدنا وهذه خطيئة طالما لمتُ والدتي عليها بعد أن كبرت وفهمت الأمور كما ينبغي أن تفهم، تلك كانت خطيئة لم أنسها أبداً ولعلها كانت خطيئة من الجانبين.

في اليوم التالي تحرك بنا القطار وقد وقفنا على النوافذ منه والفتاتان وقفتا قريباً وهما تلوحان بأيديهما، وقد أرادتا أن نظل على النوافذ نشير إليهما حتى نختفي بالقطار وراء عطفات الطريق، وجلسنا

بعد هذه المأساة، ينظر بعضنا إلى بعض واجمين ساكتين وظللنا هكذا فترة من الزمن، وما زالت هذه الساعة المحزنة عالقة بذهني أتصورها ولا أنساها، لقد كانت الفتاتان سلوتنا وعزاءنا في غربتنا وكم كنا نادمين لأننا لم نسع إلى إحضارهما معنا أو إحضار واحدة منهما وقد كان ذلك ممكناً.

سار القطار بنا يقطع السهول والجبال إلى أن وصلنا إلى البلدة المعروفة أضنة، وكانت العائلات الأخرى ترافقنا وكان مع آل العسلي أو آل الشمعة لا أذكر، رجل يرافقهم وهو يلبس العقال والكوفية أسمر اللون وكأنه بدوي يعمل عندهم، وحين وصلنا إلى أضنة وقفنا لنبقى يوماً أو يومين كما لا أذكر وفوجئنا بخبر جديد مؤلم.

في صباح اليوم التالي نزل والدي فأحضر لنا بعض الطعام وتعرّف على بعض الأشخاص هناك، ومنهم من كان يتكلم اللغة العربية وأصلهم من العرب ولكن لهجتهم دلته على أن أصلهم من الجبل الغربي في سوريا وهو الجبل الذي نشأ فيه والدي فعرف من السؤال والحديث معهم أنهم فعلاً من العرب ومن الطائفة العلوية الذين ينتقلون من أنطاكية إلى اسكندرون إلى أضنة إلى ترسوس ويصلون حتى بلدة «مرسين» المجاورة لترسوس، وكان والدي يعلم أن في هذه المنطقة فئات من الشيعة منهم فرقة تُسمّى عند الأتراك «قزيل باش» أي الرأس الأحمر وهناك فرقة أخرى هي «يكتاش». يضاف إلى هذه الفرق الشيعة فرق أخرى من المتصوفة مثل المولوية والشاذلية والنقشبندية وغير ذلك كثير، أما الأتراك السنيّون فإن مذهبهم ـ في أكثرهم ـ المذهب الحنفي، عاد والدي إلى الفندق البسيط الذي كنا فيه ننتظر السفر فوجد موظفاً من الأمن العام يسأل عنه وحين رآه قال له: إن العائلة كلها تستطيع السفر اليوم أما أنت فستبقى هنا في أضنة تحت الإشراف السياسي.

حين سمع والدي هذا النبأ كاد أن يطير صوابه، ولا أزال أذكر أنه غضب غضباً شديداً وترقرق الدمع في عينيه ولم يكن من عادته أن يبكي أبداً مهما حدث له، ونظر إلى السماء وهو يقول: أكل هذا يا رب؟ ثم عاد إلى هدوئه وأخذ يردد عشرات المرات كلمة: لا حول ولا قوة إلا بالله. ولقد أوصلنا الموظف التركي إلى القطار وهو يقول، غداً تصيرون إلى حلب وحلب وطنكم وهناك تصبحون في مأمن من كل خطر وهكذا سرنا نحن والعائلات الأخرى وصحبنا الرجل البدوي الذي ذكرته، كان السبب في إيقاف أبي صدور قرار عن سلطات الأمن باحتجاز كل منفي لم يتجاوز الستين من العمر.

وصلنا إلى حلب ونحن لا نعرف أحداً بينما العائلات الأخرى الشامية أكملت طريقها إلى دمشق ونزلنا في المحطة ونحن لا نعرف كيف نسير، ووجدنا بعد المحطة زاوية لأحد الأبنية فجلست العائلة كلها في هذه الزاوية وكأنها عش من الطيور بينها الكبير والصغير. ولكن المصادفات غريبة وأمور الدنيا عجيبة، فلم نكد نجلس في ذلك المكان حائرين لا نعلم كيف وإلى أين نسير؟ إذا برجل يبلغ الستين من العمر وقد لبس سترة طويلة ووضع على رأسه عمامة مطرزّة «آغا باني» وقد وقف بعيداً ينظر إلينا وهو يستمع إلى أصوات الأنين والبكاء الهادىء، واقترب قليلاً وسأل والدتي التي رآها أكبر الموجودين، وقال: من أي بلد أنتم يا أخت؟

ولم تجبه والدتي، فقد منعتها الدموع من الإجابة، ولكنها تكلمت بعد قليل وهي مجهشة بالبكاء، وقالت للرجل: نحن من المنفيين يا أخي؟ لقد أبقوا زوجي في أضنة ولم يسمحوا له بالعودة إلى وطننا، وجئنا وحدنا وليس معنا رجل نستعين به ولا نعرف البلد كما لا نعرف أحداً من أهلها، وسألها الرجل: ومن أين أنتم؟ وأجابت الوالدة، نحن من سلمية قرب حماه وقد مضى علينا أكثر من سنتين في المنفى؟ واستغرب الرجل وهو يقول: في المنفى الله يخرب الدولة التركية، إنها لمأساة، ولكن يا أختاه أنا مثل عمك، قومي أنت والأولاد لتناموا عندنا فإن بيتنا قريب وأنتم أهلنا وعندي زوجة مريضة قد تجد بكم سلوة وأنساً. وقمنا جميعاً ومشينا وراء الرجل إلى بيت لا نعرف أين هو الآن وقد وجدنا زوجته المسكينة مقعدة فعلاً كما وجدنا عنده بعض الأولاد والبنات.

كان الرجل طيباً جداً، وقد أطعمنا وآنسنا، وفي اليوم الثاني تذكرت والدتي العسكر المجندين من أهل سلمية وأقربائنا أي «بلوك الأشراف» الذي أتينا على ذكره آنفاً، فاتصل الرجل بهم وحضر منهم

جماعة صحبونا إلى الفندق بعد أن حاول الرجل إبقاءنا لديه ملحّاً؟

إن من المؤسف حقاً وأنا أذكر هذه الحادثة أننا لا نذكر اسم الرجل ولم نحتفظ بعنوانه وقد نسينا حقاً كل شيء قدمه لنا من معروف وإحسان وهذه خطيئة كبرى من خطيئات الوالدة - رحمها الله - لقد سألتها عن هذا الإهمال فاعتذرت بأنها كانت في حال أشبه بالغيبوبة من كثرة ما مرّ بها، وأنها كانت تنسى كل شيء في سبيل الوصول إلى بيتها ولقاء أهلها.

بقينا في حلب يومين أو ثلاثة لا أذكر وقد أشرف على إقامتنا فيها أقرباؤنا من الجنود وسرنا من حلب إلى حماه بالقطار أيضاً، وفي حماه استقبلنا بعض أهالي السلمية من أقربائنا ونزلنا ببيت صديق لنا كان مديراً للمالية في سلمية قبل حماه واسمه أبو نديم وكانت لهذا الرجل وأسرته صلات حسنة مع أهالي السلمية، وكان كريماً مضيافاً وصديقاً مخلصاً، ومن حماه ركبنا العربات إلى سلمية وقد نمت من أول الطريق فلم أصح إلا قرب قرية تقع في منتصف الطريق هي قرية «الكافات»، فوجدت خيالة تحيط بالعربة التي نقلتنا وكان بين الخيالة عمي واثنان من أبناء عمومتنا والسيد حمدو حمود شقيق زوجة أخي، وقد استرحنا قليلاً في هذه القرية ثم أكملنا طريقنا إلى سلمية فنزلنا أول الأمر في بيت عمي ريثما يفرغ بيتنا الذي كانت تقطنه في غيابنا عائلة أرمنية.

حين وصلنا إلى حلب في عودتنا نسينا قضية المرض الوبيل «الكوليرا» ولم يلفت نظرنا إليه أحد لنتخذ الاحتياطات الوقائية ولنحتجز الأولاد في الفندق فلا يخرجون ليشتروا ما قد يخطر على بالهم من مأكولات قد تكون ملوثة بالمرض، وهذا ما كان فعلاً فقد خرجت شقيقتي المسكينة وكان عمرها سبعة عشر عاماً وخرج معها أخي الأكبر من الأخوة الصغار وهو صبري الذي مرّ ذكره في صفحات ماضية من هذه الذكريات، وحين وصلنا إلى سلمية وصلنا فرحين لم يعكر صفونا شيء، ولم نلبث يومين أو ثلاثة حتى فوجئنا بالمرض يملأ بيتنا، فقد أصيبت الفتاة بالحمى كما أصيب شقيقها صبري وأصيب أخي الصغير وكان عمره سنتين ونصف السنة بالحمى أيضاً، وكذلك خادمة أرمنية كانت تعمل عند بيت عمنا اسمها مريم وكنا انتقلنا إلى بيتنا الذي كان مؤلفاً من المنزل الخارجي ثم غرفتين بينهما إيوان، وازداد المرض تأثيراً بالفتاة وأخيها وجاء الطبيب التركي، واسمه واصف مهرولاً فقد شعر أن المرض أخذ ينتشر في البلدة ورأى المريض فخرج مصعوقاً وهو يضرب كفاً بكفّ، ويصيح أمام والدتي: كوليرا - كوليرا، ولم يبق المريضان بالفعل إلا إلى صباح اليوم التالي حين أسلما الروح كلاهما وبلحظة واحدة كما قيل لي؟ أما الخادمة الأرمنية فقد شفيت، وكذا الأخ الصغير ذو السنتين فقد شفي أيضاً وهذا من عجائب هذا المرض، ولكن الطبيب قال إن إصابة الشقيقين الكبيرين كانت أشد وأكثر تأثيراً.

كانت الحادثة الرهيبة كارثة أصابت البيت وقلبته رأساً على عقب، فقد زال السرور بالعودة إلى الوطن ليحل مكانه حزن لا يشبه الأحزان، لقد كانت كارثة حقاً، وليتصور القارىء شابين يخرجان في جنازتين من بيت واحد بعد غياب دام أكثر من سنتين ولم يمكثا بعد عودتهما إلى وطنهما إلا أياماً ثلاثة ثم يتوفيان وكأنهما أصيبا برصاصتين قاتلتين.

وانصرف الفكر بطبيعة الحال إلى الوالد الذي كان ما يزال غائباً في منفاه ينتظر الفرج وتساءل الأهل والأصحاب، ما عسانا أن نجيبه حين يسأل عن ولديه الكبيرين، أين هما؟ وأين ذهبا؟ لِمَ لا أراهما؟ ولقد فكر الجميع وبينهم عمي المسكين المحرج أمام أخيه الأكبر وخالتي المسكينة وبقية العائلة؟ لقد تقرر أن تذهب الخالة إلى القرية التي نملك فيها أرضاً، فإذا حضر الوالد وسأل عن الولدين قلنا له: إن خالتهما صحبتهما إلى القرية فإن لها عملاً سيساعدانها على قضائه، وهكذا كان.

بعد أيام ثلاثة أو أسبوع كما أظن عاد الوالد فجأة ودخل إلى البيت ليلاً وهو مستخف وحين سأل عن الولدين قلنا له إنهما في القرية مع خالتهما فسكت أول الأمر، ولكننا رأيناه يتلفت يمنة ويسرة وكأن هاجساً قد أثّر فيه، ولكنه عاد إلى هدوئه وأخذ يحدثنا كيف استطاع الحضور وأن حضوره كان هرباً، كما فعل أكثر المنفيين الذين أخذوا يتقاطرون فئة إثر فئة وبخاصة بعد أن تواترت الأخبار عن الجيش التركي والنكسات المتوالية التي أصيب بها.

قال الوالد: حُجزت في مخفر الشرطة ثم سمح لي بالإقامة الإجبارية في أضنة نفسها واستأجرت غرفة قريبة من المحطة، وقضيت في الغرفة ليلة، وتحدثت مع الشرطي المراقب فعلمت أنه من أصل عربي وكأنه عطف عليّ وحدثني هامساً بالعربية وسألني: أتريد مني خدمة ما؟ قلت له: أريد أن أعود إلى بلدي، فقد كفاني ما لقيت من النفي والتشرد، فقال لي: اصبر قليلاً وسأحضر إليك نصف الليل، وعاد الرجل ومعه بزة عسكرية عتيقة مما يلبسه الجنود فنزعت ثيابي ووضعتها في صرة صغيرة حملها الشرطي وسرت وإياه وكأني تابعه إلى أن وصلنا إلى المحطة، وفي المحطة مشينا بين القطارات إلى أن وصلنا إلى القطار الشحن الذي يريد أن يسافر إلى حلب، وكان سائق القطار قريباً للشرطي وقد تحدث وإياه بالعربية وأفهمه أني عربي ويجب أن يؤمن وصولي إلى حلب، وصعدت إلى جانب السائق وكأني معاون له وسار القطار بنا ليلاً دون أن يفطن إليّ أحد، وقد وصلت إلى حماه بعد أن أعطيت السائق العربي كل ما كان معي من دراهم ولم أترك إلا ما يوصلني إلى سلمية، نزلت في محطة حماه ولم أدع أحداً يعرفني وكنت أعرف صاحباً لي قديماً من رفاقنا في السجن يوم سجن أهل السلمية بزمن السلطان عبدالحميد، وأنا واحد من هؤلاء المسجونين فذهبت إلى بيته وكان اسمه «حمدو زهّور» وهو صديق صدوق وطرقت الباب ففتح لي ولم يعرفني أول الأمر ودخلت بيته دون استئذان وقلت له: أنا علي، فلم يفهم وسألني: علي؟ علي من؟ قلت له يا غشيم، علي الجندي، وقفز إليّ يعانقني ويبكي، ويقول الحمد لله على السلامة. وقد بقيت عنده إلى المساء، وفي المساء أحضر لي فرساً وله مثلها وسرنا من طريق «سريحين» بين البساتين حتى وصلت إلى «تل الدرة» وهنا ودّعني وودّعته شاكراً حتى وصلت إليكم. وقلنا له الحمدلله على السلامة إنها رحلة شاقة والله، أعانك الله.

والتفت بعد قليل ليسأل، ولكن صبري وفاطمة لا أراهما؟ وقلنا له إنهما مع خالتهما في تل التوت وسيحضران بعد غد، ولكنهما لم يحضرا، وقام عمي في الصباح الباكر ليتدبر أمره وفكر طويلاً ثم هداه الله إلى فكرة قام بتنفيذها ولم يكن لديه غيرها.

كان في السلمية قاض مصري الأصل أظن أصله من بلدة طنطا المعروفة فكان قارئاً شهيراً للقرآن كما علمنا منه فيما بعد، وقد ذهب ليقرأ للسلطان في استامبول وهناك سعى في وظيفة فعين قاضياً شرعياً في سلمية وكان اسمه الشيخ عبدالرحمن، وقد عاش هذا الرجل مدة طويلة في سلمية وكانت زوجته تركية الأصل فخلف منها ابنتين وولداً كان من سنيّ كما كان رفيقاً لنا واسمه محمد، وكان جميل الصوت أيضاً كوالده، لقد كان الشيخ عبدالرحمن أحسن قارىء سمعته في حياتي اداءً وصوتاً وكان صديقاً لوالدي وزميلاً في القضاء إذ كان والدي عضواً في المحكمة البدائية يوم كانت المحاكم البدائية تشكل في الأقضية ـ ولقد عاش هذا الرجل كل حياته في سلمية إلى أن خطر على باله في أيامه الأخيرة أن يعود إلى مصر، فعاد إلى بلده ولكنه لم يمكث إلا عاماً أو بعض عام حتى رجع إلى سلمية فعُيّن إماماً في الجامع الجديد وقارئاً يوم الجمعة، ولكنه لم يبق رحمه الله إلا أياماً معدودات حتى توفي في سلمية، وهكذا مات في البلد الذي أحبه والذي عاش فيه أكثر حياته رغم محاولته تركه والعودة إلى موطنه الأصلي، وما تدري نفس بأي أرض تموت؟

وكان هناك قاض آخر من زملاء والدي في عضوية المحكمة البدائية هو السيد لطفي الجندي وهو من آل الجندي الحمصيين أقربائنا وأصدقائنا وكان ظريفاً خفيف الظل يحب والدي حباً جماً.

لقد فكر عمي أن يلجأ إلى هذين القاضيين ليتوليا أمر إخبار والدى بالمصيبة التي حلت به في فقد ولديه أثناء غيابه عنهما أياماً معدودات بما لا يصدقه العقل، ذهب عمي إلى القاضيين فأخبرهما بحضور والدي وكلفهما المهمة فلبيا الطلب وجاءا معه صباحاً إلى البيت حيث كان والدي منشغل البال يتساءل عن ولديه وكأن هاجساً كان في داخله يشعره بأن هناك مصيبة قد وقعت.

ودخل القاضيان فسلّما على والدي وتحدثا طويلاً، وفجأة تحدث القاضي الشيخ عبدالرحمن وبدأ حديثه بآيات قرآنية تذكر الموت والآخرة والثواب والعقاب وكأن شيئاً لسع والدي فالتفت إليه محملقاً ينظر مستفهماً، وأكمل القاضي عبدالرحمن حديثه الديني، وسأل والدي: هل تؤمن بهذا القول يا علي

وصمت والدي ثم أجابه بأنه يؤمن بكل مـا قال، وتحـدث القاضي الجنـدي وكان أكثـر صراحة ووضـوحاً فأخبر والدي بكل ما حدث وأن الأموات لا يعدون في سلمية وبقية البلاد السورية، ولقد كان موقف والدي من أصعب المواقف، فهو لم يتعود على البكاء أبداً، وصمت وهو يبلع ريقه قليلاً وقد جف حلقه ثم أمسـك بطربوشه فرمى بـه أرضاً وقـام من مكانـه وترك البيت، دون أن يعلم أحـد إلى أين يذهب ولم يعـد حتى المساء.

في اليوم الثاني تحدث الوالد إلى الوالدة عن تفاصيل الرحلة فأفهمته أن الفتاة أخذت أخاهـا ومشت وإياه خارج محطة حلب وبينما كانت تسير انزلقت رجلها في حفرة ذات رائحة سيئة، واعتقدت الوالدة أن الفتاة والصبي قد أخذا المرض من هذه الحادثة.

لقد اصبح البيت كله تحت المراقبة الصحية في السلميـة، ونقلنا جميعـاً إلى بيت زوجة أخي، ورشت جدران البيت بالكلس، وبهذه الطريقة كانت تتخذ الاحتياطات ضد هذا المرض الوبيل.

٦ بعد العودة

بعد عودة والدي عُيّن مديراً للطابو، أي المصالح العقارية في سلمية، ولم تطل مدة هذه الوظيفة إذ سرعان ما انتقل إلى عمله الأصلي في القضاء، وأصبح عضواً في محكمة البداية، ثم معاوناً للحاكم وهو اسم وظيفة ألغيت فيما بعد، إلى أن استقرت به الحال حين اقتصرت مصلحة القضاء في سلمية على قاض واحد، وقد عين والدي لهذه الوظيفة باسم «الحاكم المنفرد» كما كان يسمى ثم أصبح حاكماً للصلح، وقد ظل في هذه الوظيفة إلى وفاته بتاريخ ٧ كانون الثاني ١٩٢٦.

كان في سلمية مدرستان الأولى هي المدرسة الرشدية وهي مدرسة حكومية أسست بأموال الطائفة الإسماعيلية الثانية لإمام الطائفة «آغا خان»، وكانت هنالك مدرسة أخرى أسسها رجل أرمني متعلم اسمه «قازاروس» وكان أستاذاً متوسطاً في العمر أنيق الملبس، يرتدي صدرية ذات أزرار براقة امتدت من جيب إلى آخر وساعة ذات سلسلة صفراء وقد وضع الرجل على عينيه نظارة وكان له ولد يعرف اللغة الفرنسية معرفة تامة، وكانت المدرسة تتألف من هذين الشخصين مع معلمين آخرين من الأرمن أيضاً يتولون تدريس الدروس قليلة الأهمية مثل الموسيقى والرياضة والأشغال اليدوية، لقد انتسبنا إلى هذه المدرسة انا وأخي الأكبر سليمان وأخذنا في الدراسة وقد أفدنا من هذه المدرسة التي كانت منظمة تنظيماً حسناً، بينما كانت المدرسة الرشدية تدار من قبل أحد المشايخ البسطاء ولم تكن الدراسة فيها تؤدي إلى نتيجة، ولم أسمع أن إنساناً تخرج فيها واستطاع أن يكمل دراسة أو أن يصنع شيئاً علمياً. ولا أدري السبب الذي زالت فيه المدرسة الأرمنية، وكل ما أذكر أن صاحبها قد ذهب من سلمية وأظنه قد انتقل إلى بيروت ولم نعد نعلم عنه شيئاً بعد تلك الفترة إلا أنني أذكر أنني التقيت بابنه واسمه يوسف الذي كان يعلمنا الفرنسية ودرس الخط، وذلك في حماه وبعد سنوات وحين رأيته عرفته لأنه لم يكن قد تغير ولما ذكرته بنفسي جن جنونه لاستطاعتي تذكره ومعرفته بعد هذه السنين الطويلة التي مرت على افتراقنا.

بعد هذه المدرسة جاءت مدرسة أخرى محل المدرسة السابقة «الأرمنية» تتألف من ثلاثة صفوف وأصبحت تشرف عليها الحكومة، وكانت المدرسة الرشدية قد صرف النظر عنها وهذه المدرسة الجديدة أحضر لها أستاذ من حمص اسمه «شكري الخوري» كان يتقن اللغة الإنكليزية، كان هذا الأستاذ أشقر اللون مشرباً بالحمرة أبيض الوجه بائن الطول ضخم اليدين والرجلين بحيث لو ضرب تلميذاً بيده لآذاه كما فعل ذلك مرات، وقد اهتم بتعليمنا اللغة الإنكليزية، كما علمنا بعض الأغاني التي كان قد تعلمها من المدارس التي درس فيها. وأذكر إلى الآن مطلع أغنية كان يرددها لنا ونغنيها معه مطلعها: «يا ربوع العلم اضحي». وكان تاجراً قديراً بمعنى أنه كان يذهب إلى حمص وما من واسطة إلا العربات «البراجق» مفرد: برجقه، وهي العربة الخشبية التي وصفتها سابقاً، وحين كان يعود، يعود ومعه كمية من الأقلام والدفاتر والمساطر والمحايات والمحابر وأشياء كثيرة غير هذه يبيعها للتلامذة ولا يعلم إلا الراسخون في العلم كم كان يربح في هذه الصفقات المدرسية.

لم يطل زمن السيد شكري الخوري الذي أشبعنا ضرباً لا علماً، فقد غادر سلمية حين انتهت السنة ثم انه ذهب إلى أميركا ولم يعد.

جاء بعد شكري المشار إليه معلم قدير مهذب عاقل اسمه: خالد المنجد.

جاء خالد المنجد من حماه وهو يلبس بذلة عادية وقد وضع على رأسه كوفية وعقالاً من القصب وقد استغربنا أن يأتي على هذا الشكل، ولكنه فضل أن يلبس الكوفية لأنها اللباس الرسمي تقريباً في السلمية فالطربوش كان قليلاً جداً. وكان هذا المعلم خريج مدرسة للمعلمين أنشئت في عهد الدولة العربية

الفيصلية، لقد كان أنيس المحضر نظيفاً حسن الخط مُهاباً عطوفاً، فإذا غضب ضرب التلامذة، إذ كان الضرب مباحاً هاتيك الأيام وكان حسن الخط، فحسن الخط كان صفة سائدة، وكان من الصفات المميزة إذ كان حُسْنُ الخط درساً هاماً في المدارس وهو من الدروس التي ألغاها تطور التعليم مثل درس قراءة القرآن والأشغال اليدوية، وكان من عادته بعد أن ينهي عمله اليومي في المدرسة أن يجلس إلى دكان يملكها رجل اسمه كامل الحمصي يبيع فيها كل ما يلزم من الطعام الجاهز كالجبن والزيتون والمخلّل والبيض والحليب والقشدة «القشطة» والشنكليش، «الجبنة السوداء» المعروفة، فكان أستاذنا المنجد يتخذ له كرسياً صغيراً يجلس إليه عصارى النهار وكنا نمر به أحياناً لنشتري حاجات البيت من المواد الغذائية فنسلم عليه ويبتسم لنا فنسر بابتسامته، وكان أكثر طعامه من هذه الدكان، ولقد بقي في سلمية، سنة أو سنتين كما أذكر وذهب إلى حماه ليعمل فيها معلماً، وقد علمت أنه عاش مدة طويلة تجاوز فيها التسعين عاماً.

بعد خالد المنجد جاءنا معلم اسمه محمد جابر، وكان شاباً لا يتجاوز العشرين إلا قليلاً أنيقاً نظيفاً يلبس البزة الكحلية دائماً وكان يلثغ في حرف الراء مما لفت نظرنا، وهو حموي تخرّج من دار المعلمين وكان مختصاً بالتاريخ أو كان ميالاً لهذا الدرس لأنه لم يكن هنالك اختصاص بعد، وقد بقي هذا الأستاذ القدير سنتين او ثلاثاً في سلمية وهو حموي الأصل من أسرة علمية معروفة ولكنه كان عصبي المزاج سريعاً إلى الضرب بالعصا أو باليد، وكما قلت سابقاً، إن ضرب الطلاب كان متعارفاً عليه وكثيراً ما كان يؤدي إلى مشاكل بين المعلمين وأهالي الطلاب، من ذلك أن هذا الأستاذ كان لديه تلميذ في الصف الذي هو أعلى من صفنا ويبدو أن هذا التلميذ تصرف تصرفاً لم يعجب الأستاذ فصفعه صفعة قوية على وجهه أثرت في عينه فاحمرت، وكان التلميذ ابن أكبر الأمراء في تلك الآونة أي من الأسرة المتنفذة في سلمية ثروةً وحكومياً، وقد حدث للمعلم من جراء ذلك إزعاج، إذ تدخل الوالد بمايسيىءللمعلموظللنا نحفظ هذه الحادثة مدة طويلة أقلع المعلم بعدها عن الضرب بعد أن درس حال البلدة وطريقة الحياة فيها.

بعد سنتين انضم إلى الأستاذ جابر معلمان آخران واحد يسمى: عز الدين العرواني وكان أيضاً من خريجي دار المعلمين وكان أستاذاً بسيطاً من حي الحاضر بحماه، وهو الحي الذي كان يحتفظ بطابعه القروي والبدوي في لباسه ولهجته وتعاطيه تجارة الأغنام والسلاح وغير ذلك، وبالفعل لقد جاءنا هذا المعلم وكان يلبس ما يسمى «الفروة» وهي سترة مبطنة بالصوف، وجاءنا مرة في الشتاء وقد لبس قبقاباً عالياً فاستغربنا أن يلجأ إلى ذلك مما سبب له ملاحظة من مدير المدرسة. أما الأستاذ الآخر فكان أكبر المعلمين الذين حضروا من حماه إلى سلمية وقد عين في سلمية لتنظيم المدرسة من جديد، وبالفعل لقد أصبحت المدرسة ابتدائية كالمدارس في البلدان الكبيرة مثل حمص أو حماه وأصبحت تحتوي على خمسة صفوف ثم صارت ذات ستة صفوف، وأصبحت تمنح الشهادة الابتدائية التي تخوّل الطالب الدخول في المدارس الثانوية وهيالتي خولتني الدخول إلى المدرسة الزراعية في سلمية كما سيأتي حديث ذلك.

إن هذا الأستاذ الذي أصبح مديراً للمدرسة: يدعى محمود الرواس كما كان يدعى «شيخ المعلمين»، إذ كان أقدم الأساتذة وكان منظماً فقد رتب المدرسة من جديد فأصبح فيها ثلاثة أساتذة هم: الرواس وجابر والعرواني، وراحت الدروس تسير بانتظام وظلت كذلك حقبة طويلة من الزمن أي حتى ذهبت فرنسا من هذه البلاد، إذ تعددت المدارس بعد ذلك وتغير كل شيء. كان مديرنا هذا جهوري الصوت يلثغ أيضاً بالراء، طويلاً مُهاباً وكان يتولى تعليم اللغة العربية والرياضيات وأشهد انه أفاد طلابه وخاصة في اللغة العربية، فقد أنجزنا في الصف السادس كتاب «الدروس النحوية» الذي أصدرته مجموعة من الأساتذة المصريين وكان هذا الكتاب واحداً من سلسلة في النحو حسب الصفوف وآخر جزء من السلسلة كان يبحث في علوم البلاغة من بديع وبيان وبلاغة ومقامة، وخرجنا في نهاية العام السادس ونحن نعرف النحو معرفة تمكننا من عدم الخطأ في الكتابة والقراءة، وكان الفضل في ذلك للمدرس الرواس ولهذا الكتاب المُتقَن.

٧ السلمية بعد عودتنا

قلنا إن سلمية مرت بعهود قديمة اختلفت عليها الدول والأمم إلى أن انتهت إلى الخراب في نهاية القرن الثامن عشر، وبقيت خراباً مدة طويلة حتى منتصف القرن التاسع عشر، حيث أعيد السكن فيها، وحيث عاد إليها ساكنوها من الطائفة الإسماعيلية التي كان موزعة في الجبال الغربية «العلويين» في ثلاث مناطق تشكل مثلثاً تتصل زواياه تقريباً ما عدا بعض الفجوات التي كان يشغلها جيرانهم العلويون، وكلمة إسماعيلية كما ذكرنا قبلاً جاءتهم من اعتمادهم إسماعيل بن جعفر الصادق إماماً لهم بدلاً من موسى الكاظم الذي اتخذه الشيعة الاثنا عشرية من متاولة وجنوبيين في لبنان والهرمل وإيران، كما اتخذ الزيديون في اليمن إمامهم زيد بن علي بن الحسين. ولا يعلم تماماً كيف وصل الإسماعيليون إلى جبال الغرب بين طرطوس وبانياس ومصياف، فقد سبقهم إلى هناك كما يُروى عشائر من التركمان وبعض الأكراد، أما الإسماعيليون فتمركزوا في ثلاثة مراكز هي مصياف والقدموس والخوابي (قرب طرطوس). وانقسمت الطائفة جغرافيا حسب هذه المدن كما انقسمت حسب العائلات التي سيطرت عليها، ففي مصياف سيطرت عائلة الأمراء من آل ملحم، وفي القدموس كانت عائلة ميرزا وفي الخوابي كانت عائلة الجندي التي تمتّ بقرابة نسائية إلى الأمراء. وفي مصياف كان راشد الدين بن سنان الداعية الإسماعيلي الشديد المراس الذي كان يمثل الإمام في هذه المنطقة والذي دعاه صلاح الدين إلى المثول بين يديه حين جاء من مصر إلى هذه البلاد بعد أن أنهى الدولة الفاطمية، وقد أبى راشد الدين أن يخضع لأمره وأرسل له أبياتاً من الشعر يستنكر فيها تعرضه له ويسخر منه ويتحداه ويقول فيها:

يا للرجال لأمر هال مفظَعُهُ	ما مر قطُّ على قلبي توقعه
قد قام(*) قفٌّ إلى قّاف(**) يضعضعه	كضفدع تحت صخر رام يقلعه
من أين أنت لضرب السيف يا لكع(***)	ما أنت إلا لمال قمت تجمعه
إنّا منحناك ثوباً للحياة فإن	كنت الشكور وإلا سوف نخلعه

ويقال، والعهدة على الراوي، أن راشد الدين حين وصل إليه رسول صلاح الدين، وكان يجلس في أعلى القلعة التي يزيد ارتفاعها على مئة متر قد أمر رجلاً من أتباعه بأن يثب ويلقي بنفسه فوثب وذهب قطعاً إلى الأرض، والتفت إلى رسول صلاح الدين يقول له: «قل لمولاك إن لديَّ ثلاثين ألفاً من الجنود كلهم مثل هذا الجندي إطاعة وتضحية». والإسماعيلية الذين كانوا تحت إمرة راشد الدين هم الذين دعوا بـ «الفدائية» أو: الفداوية على اللغة العامة وهم الذين ذكروا في قصة الملك الظاهر المعروفة، وهي قصة شعبية لا يعتمد عليها في الحقائق التاريخية، وقد امتد الخلاف بين الداعية الإسماعيلي وصلاح الدين الذي وجد من الحكمة أن يصابر وينتظر حتى يستولي على هذا المقاوم العنيد، حتى لقد تعرض في أعزاز للقتل يوم ضربه أحد الإسماعيليين فأصابه في رقبته ولولا الدرقة التي سترته لقتل صلاح الدين يومها، كما أنهم توصلوا مرة إلى خيمته فغرسوا له خنجراً كُتب عليه اسم راشد الدين وفي فراشه، مما جعل صلاح الدين يبادر إلى مصالحتهم بما عرف عنه من دهاء، أولاً للاستفادة منهم في حربه مع الصليبيين، وثانياً لاتقاء شرهم وعدم إشغال نفسه بهم، وبالفعل فقد تم الاتفاق بين الطرفين. وقد برّز الإسماعيليون في حربهم ضد الصليبيين وخاصة في اعتمادهم على الاغتيالات التي تناولت أمير طرطوس

(*) الجبل الصغير والمرتفع عن الأرض.
(* *) جبل تروي الأساطير انه اكبر الجبال وابعدها.
(* * *) اللكع: هو عديم النفع.

وأمير حمص حتى يقال إلى الآن إذا برع أحد في عمل من الأعمال: «لقد أتى برأس البرنس»، لأن الإسماعيلية كانوا يأتون برؤوس البرنسات «الأمراء» الصليبيين إلى مدنهم بعد قتلهم.

أما الأمراء من آل ملحم وغيرهم من هذه العائلة في القدموس فيقال إنهم من أقرباء صلاح الدين، وأن صلاح الدين تركهم موظفين إداريين لدى الإسماعيلية يشرفون على تنظيمهم وإدارتهم، ومن هنا جاءتهم كلمة الأمير أو «المير» كما تلفظ الآن. وجدّ هذه العائلة كان قوي النفوذ مسيطراً سيطرة تامة على الطائفة في مصياف وكان يتمتع بطاعة تامة حتى قيل انه كان يستطيع الحكم بالإعدام دون استشارة أحد، كما قيل انه كان يأمر بمن يُحكم بالإعدام أن يلقى من أعلى القلعة، وما تزال أفراد العائلة في مصياف حتى الآن باقية معروفة.

أما في القدموس فقد كانت تحكم عائلة الأمراء الذين كانوا انواعاً عديدة من هذه العائلة سموا بحسب آبائهم أو أجدادهم مثل: آل ميرزا، آل رزق، آل سلهب، آل هابيل، آل حيدر، آل أسعد، آل حمود،.... إلخ. ومن هنا جاءت كثرتهم الكاثرة فهم إلى الآن أكبر عائلة بين الطائفة الإسماعيلية لكثرة عددهم ولأنهم ما يزالون معترفاً بهم حتى الآن. ولكن العائلة أو الفرع البارز بين هؤلاء في القدموس هو فرع آل ميرزا، وشقيق ميرزا، تامر، ورغم أن التفاهم كان سائداً بين الطائفة وبين هذه العائلة، ورغم عدم وجود الخلاف بين الجانبين إلا أن آل ميرزا كانوا يمتازون بالقوة وشدة البأس وحب السيطرة والنفوذ وعدم ترك المجال لغيرهم، وهذه عادة أو طبيعة معروفة عندهم وظلت ترافقهم حتى أيامهم الأخيرة في سلمية وغيرها.

أما في الخوابي (القلعة) فقد كان فيها آل الجندي وهم الذين جاءوا مع صلاح الدين وكان عملهم في الجيش كما يبدو، وهم يشبهون في أشكالهم الأمراء إما للقرابة النسائية بين الطرفين أو لأن الطرفين من أصل واحد وفرّق بينهما الاسم بحكم انتساب هذه العائلة للعمل العسكري، وكانت إقامة العائلة في قلعة الخوابي التابعة اليوم إلى طرطوس والتي ما تزال عامرة، وقد ارتكبت هذه العائلة خطأ كبيراً إذ أقدم رجالها على التخاصم والتباغض حتى قُتلوا جميعاً بيدهم أنفسهم، وقد قُتل منهم آخر مرة أحد عشر رجلاً على باب القلعة كما يروي الثقات فجاءت الحكومة التركية فأخرجتهم من القلعة وأسكنتهم في قرية من قراهم اسمها «بحوّي»، وما تزال هذه القرية مسكناً للعائلة حتى الآن.

هذه هي العائلات التي حكمت الإسماعيلية في المدة الأخيرة وحتى النصف الأول من القرن التاسع عشر حين أجبرتهم الحكومة التركية على إعمار سلمية وترك القسم من الطائفة في أمكنتهم الأصلية في الجبل.

كانت الحكومة التركية عينت مدير ناحية كموظف إداريّ للقدموس وهو من آل هارون العائلة الوجيهة المعروفة في اللاذقية، ويبدو أن خلافاً دبّ بين هذا المدير وبين الأمير تامر عميد آل ميرزا من الأمراء، ويبدو أيضاً أن هذا المدير أراد أن يحدّ من نفوذ الأمير تامر فما كان من هذا الأخير ـ كما روي ـ إلا أن كمن مع رجاله لمدير الناحية في طريقه إلى بيته في أعلى القلعة وأطلق عليه النار فأصابه في رأسه وقتل، ودفن في المكان الذي قتل فيه أي في مقبرة القلعة، وقد عثر على جمجمته منذ سنوات ووجدت الجمجمة مثقوبة برصاصة كروية صغيرة كانت تحشى بها البنادق حشواً مع شيء من البارود، وثارت الحكومة على الأمراء من سكان القدموس فألقت القبض على عدد كبير منهم وحكمت على الأمير تامر بالقتل، ونفذت فيه الحكم فوراً ثم أصدرت أمرها إلى وجهاء هذه العائلة ومنهم الأمير إسماعيل الكبير عميد آل رزق من الأمراء بالحضور إلى مركز الناحية فألقت القبض عليهم جميعاً، وسيّرتهم إلى جزيرة أرواد حيث كان هناك سجن كبير مخصص للمجرمين الذين يعتبرون ضد النظام العام، والذي يظن أن هؤلاء قد اتصلوا بزعيم آل الجندي في منطقة الخوابي واسمه «محمد» ويلقب «أبو علي الجندي» بسبب نفيهم إلى المنطقة القريبة منه ليهيء لهم أسباب الهرب من أرواد، ولا يعرف تماماً كيف توصلوا إلى الهرب، ولكنهم هربوا فعلاً على سفينة استأجروها ونزلوا على ساحل طرطوس في مكان يعرف باسم «الغمقة»، ومن هناك صعدوا إلى بحوّي قرية آل الجندي حيث مكثوا أحد عشر شهراً مختبئين عن أعين الناس.

بعد الإجراءات التي اتخذتها الحكومة التركية ضد أمراء القدموس تقرر أن ينقل عدد كبير من هؤلاء الأمراء ومعهم عدد أكبر من رجالهم وأن تجد الحكومة لهم مكاناً يعمرونه في المنطقة الشرقية من البادية هذه، المنطقة التي كانت صحراء خالية من العمران حتى ذلك التاريخ، وقد اختارت الحكومة بعض الأشخاص من الإسماعيليين الموقوفين لاختيار المنطقة التي سوف يعمرونها، فعرضت عليهم قرية «المشرفة» الواقعة بين سلمية وحمص ولكنهم وجدوها قليلة المساحة، وحين عرضت عليهم سلمية تقبّلوها وارتضوها سكناً لهم لطيب هوائها وكثرة مياهها ولوجود القلعة الكبيرة والسور المحيط بها والتي كانت تتسع لمئات الأشخاص. وقد كان القرار الذي اتخذ بسكن سلمية في عام ١٨٤٨/ م وبزمن السلطان العثماني عبدالمجيد بن محمود. ولقد اتخذ هذا القرار نتيجة للاتصال الذي تم بين الإسماعيليين وبعض وجهاء حماه من ذوي النفوذ لدى دار الخلافة من مثل آل البرازي والشيشكلي وطيفور، وسميت البلدة الجديدة (مجيد آباد) تيمناً باسم السلطان عبدالمجيد.

من أبرز معالم سلمية التي كانت باقية من العهد القديم القلعة المؤلفة من بناء ضخم فيه غرف كثيرة اتخذت داراً للحكومة وهي في الطابق الأعلى، وتحتها كان يوجد جامع وحول القلعة من جهاتها الأربع كانت توجد أبراج أربعة، وقد اتخذ أحد الأبراج سجناً وما زال أحد جدرانه باقياً إلى الآن، وكان يوجد قريباً من القلعة وإلى الجنوب الشرقي حمام كبير من أحسن الحمامات التي عرفت بسورية بفخامته وحسن بنائه من الداخل والخارج، وقد ظل مستعملاً إلى ما قبل ثلاثين سنة فقط ويمكن استعماله حتى الآن إذا أعيد النظر فيه وأصلح بعض الإصلاح؛ وقريباً من الحمام كانت توجد زاوية كان يصلي فيها المسلمون يوم لم يكن في البلدة جامع غيرها وغير جامع القلعة، وإلى الجنوب كان يوجد الجامع الكبير وهو المسمى جامع الإمام إسماعيل، وإسماعيل هذا هو «رضيّ الدين عبدالله» وهو والد المهدي الذي ذهب إلى المغرب وبنى مدينة المهدية وأسس الدولة الفاطمية، وابنه هو المعز الذي بنى القاهرة على يد قائده الشهير جوهر الصقلي. وكان الجامع وما يزال يتألف من بهو خارجي وهو المدخل ثم الجامع الداخلي وفيه قبر الإمام إسماعيل الذي ما يزال موجوداً حتى الآن وإلى يسار هذا الجامع يوجد بناء كبير شاسع متهدّم وفيه عدد كبير من الأعمدة التي يظن أنها أعمدة يونانية ورومانية وعلى بعضها آثار صلبان ونقوش وتصاوير، ومن المهم ذكره أيضاً هو وجود بعض البيوت المغمورة بالتراب من أثر الزلازل أو أعمال التخريب المقصودة، وقد عرفنا بعضها وكانت تسمى «الباسطية» ويُنزل إليها بأدراج متعددة الدرجات، وقد كانت المياه تمر بهذه البيوت مما يدل على أنها كانت مخابىء لرجال كانوا يخشون المداهمة والاعتداء، أما خارج البلدة وإلى الغرب فتوجد سلسلة من الجبال عرفنا منها جبل عين الزرقاء بالنسبة للعين التي تنبع من تحته وتسقي الأراضي القريبة من تلك المنطقة، وهناك جبل الخضر وفيه بناء كامل وجامع صغير من الرخام فيه محراب رخامي ينسب إلى الخضر، وهو مار جرجس عند المسيحيين والأجانب، وإلى جانب هذين توجد قلعة «شميميس» الشهيرة المشرفة على البلدة وتبعد عنها حوالي /٥/ كيلومترات. ويقال عند بعض المؤرخين ان أمراء حمص في العهد اليوناني (الهلنسي) وبدء العهد الروماني وفي القرن الأول قبل الميلاد، قد بنوا هذه القلعة وكانت من بين الحصون التي بنيت لرد الهجوم من البادية إذا جاءها غائر أو معادٍ وبخاصّة البدو، وينسب بناؤها إلى آل «شميسغرام» ولكنها اليوم خربة وقد قام بتخريبها كسرى «أبرويز» حين هجم على سلمية قبيلَ الفتح الإسلامي، إلا أن الأيوبيين جددوا بناءها وأعطوها شكلها الحالي. وكان بناء «شميميس» مؤلفاً من قلعة، ثم خندق تحيط بها بئر من جهة القلعة الشرقية لتمدها بالماء عند الحاجة، يضاف إلى هذه الآثار التي عددتها عدد من الأديرة الخربة كالدير الذي في قرية تل الدرة المجاورة لسلمية والذي يطلق عليه الآن مزار «جعفر الطيار»، وإلى قرب قرية صبورة شرقي سلمية دير آخر وآثار كثيرة لا تحصى. جاءت العائلات الإسماعيلية إلى سلمية وكانت مؤلفة من ثلاث طبقات، الأمراء ـ وآل الجندي ـ ثم الذين يسمونهم بالفلاحين، ولم يكونوا فلاحين حقيقيين، بل كان منهم من يعمل في التجارة كما كانت من بينهم عائلات كان أصلها من آل المير وآل الجندي وتغيرت أسماؤها مع الزمن أو بالنسبة للمصادفة؛ فمثلاً آل زهرة وآل سفر وآل درويش، هؤلاء

كلهم ينتسبون إلى آل الجندي، وكذلك آل فطوم الذين ينتسبون إلى آل سفر أقرباء آل الجندي ومن الأمراء كان آل حيدر وآل أم أسعد وآل أصلان وهم كلهم من الأمراء.

بعد أن قتل الأمير تامر «الأول» ـ كما أسلفنا ـ بقي من ذريته ولد وحيد هو مصطفى تامر وقد حضر مع من حضر إلى سلمية بصحبة أقربائه وكان عمره سنة واحدة، وقد عاش إلى ما بعد التسعين من العمر وتزوج من السيدة فاطمة الجندي بنت محمد الجندي «أبو علي» الذي شارك الأمراء في حضوره إلى سلمية كما زوّج ابنته الثانية «شهيرة» من الأمير علي ابن الأمير سليمان ابن الأمير إسماعيل الكبير الذي يعتبر زعيماً أولاً لعائلة الأمير، أما آل ميرزا وهم المغضوب عليهم من الحكومة التركية فقد سكنوا في القلعة، وأما آل الأمير إسماعيل فقد سكنوا غربي البلدة، وأما أبو علي الجندي فقد سكن في الجهة الجنوبية وما تزال هذه البيوت قائمة مسكونة حتى الآن. إن أسرة الأمير إسماعيل كانت كثيرة العدد منها أولاده وأولاد أخيه ومنهم الأمراء سليمان وابنه علي والأمير حسين وإسماعيل الثاني والأمير ملحم والأمير حسن، وقد خلفوا أولاداً كثيرين يشكلون عائلة كبيرة حتى الآن، أما آل ميرزا فلم يحضر منهم كما قلنا إلا الأمير الطفل مصطفى تامر الذي خلف ولدين هما تامر وميرزا، وسيأتي ذكرهما مفصلاً لما لهما من علاقة بتاريخ سلمية الحديث. وأما أبو علي الجندي «محمد بن أحمد» فقد كان له ستة أولاد من زوجتين، إحداهما من الأمراء من آل هابيل، العائلة المعروفة، والثانية من طبقة الفلاحين من آل العيزوقي كما أعتقد. فالفلاحة ولدت له: علي ومحمود ومصطفى، والأميرة ولدت له أحمد «وهو جدّي من جهة والدي وإسماعيل» وهو جدي من جهة والدتي وإبراهيم. الذي مات شاباً والذي لم يخلف إلا ابنة واحدة تزوجت رجلاً من آل الضحاك ممن كانوا يساكنونا في قريتنا «بحوّي» آنفة الذكر. وحين حضر جدنا أبو علي هو والأمير إسماعيل إلى سلمية أحضر معه أربعة من أولاده هم: محمود ومصطفى وإسماعيل وإبراهيم، أما محمود ومصطفى فقد سكنا في الحي القبلي المتطرف من البلدة وسموا بالقبليين إلى الآن، وأما إسماعيل فقد سكن قريباً من القلعة وفي بيت والده أبي علي الجندي الذي كان «المنزول» في داره وقريباً منه سكن إبراهيم، وكان شاباً صغيراً، وقد شارك الأمير مصطفى تامر زوج أخته فاطمة بالتجارة ومات باكراً وعمره دون الثلاثين وقد خلف ابنة واحدة أنجبت عدداً من الأولاد لهم ذرية كبيرة الآن.

٨ تدابير وانظمة

كانت الإقامة في سلمية صعبة جداً على الوافدين الجدد، فقد كانت هذه المنطقة مرعى خصيباً للبدو ومكاناً واسعاً يروحون فيه ويجيئون ومنه كانوا يهاجمون القرى القريبة من سلمية على طريق حماه أو حمص، ولما احتلها الإسماعيليون ثار هؤلاء البدو ولكن الحكومة أسكتتهم بعنف وأعطت أهل سلمية سلاحاً ليدافعوا عن أنفسهم كما أعفتهم مؤقتاً من الضرائب ومن الجندية حتى يستطيعوا زراعة الأرض بها وإحياءها، وبعد مناوشات إفرادية واختلافات مع القبائل البدوية المحيطة بالبلدة اتفق أهل سلمية مع قبيلة «السبعة» وشيخهم ابن هديب، كما اتفقوا مع واحد من هذه العشيرة له قوته ونفوذه على الطريقة البدوية التي تسمى «الخوة»؛ وأظن أنها الأخوة في الفصحى، وشرط المتآخين هنا أن يضمن كل واحد منهما أن يدافع ويحمي صاحبه، وهكذا أصبح لأهل سلمية أخوة بين هؤلاء البدو وهؤلاء الأخوة منعوا عنهم الكثير من الشرور والعداء الدامي.

كان البدو وعشائرهم ينقسمون إلى فرعين هامين، أولهما الذين يسمون عرب الرعية وهم القبائل الصغيرة الموزعة حول السلمية وقراها وهم من البدو المقيمين في بيوتهم الشعرية ولا يرحلون إلا في الشتاء وإلى أماكن قريبة أي إلى البادية «الحماد» شرقي سلمية وهي المعروفة ببادية «السماوه» ـ كما أسلفنا ـ ومن هذه العشائر وأهمها، الحديديون والموالي، فالحديديون كانوا يسكنون في أكثرهم قريباً من حلب، والموالي كانوا ينزلون قرب المعرّة، ولكن صلاتهم كانت دائمة ومستمرة مع سلمية وكانت هاتان العشيرتان في خصومة دائمة وقد وقعت بينهما معارك كثيرة ذهب فيها عدد كبير من القتلى، أما ثاني هذين الخصمين فهم قبائل العنزة وهم كثيرون جداً وهؤلاء كانوا يسكنون بعيداً عن سلمية وكثيراً ما يصلون أيام الشتاء إلى العراق أو شرقي العراق انتجاعاً للكلأ وبخاصة في سني المحل، ومنهم السبعة ومنهم القمصة وعشائر الملحم والعمور. هذه العشائر من عنزة كانت على خصومة دائمة مع عشائر «الرولة» التي تجاور دمشق في منازلها وبخاصة في منطقة «عدرة» على الطريق الذاهب إلى حمص، وكان الرولة يغزون القبائل العنزية النازلة قرب سلمية فيستلبون منهم ما يستطيعون من أغنام وجمال يعتبرونها كسباً ويذهبون إلى بلادهم، وكان العنزة في ديار سلمية يلاقونهم ليخلصوا منهم ما يستطيعون تخليصه ثم يرجعون إلى ديارهم، وبعد مدة يغزون بلاد الرولة أخذاً للثأر وهكذا تمر الأيام بين كرّ وفرّ بين هؤلاء الأعراب الذين لم تتغير عاداتهم رغم تقدم الزمن وتغير الأحوال، ورغم ما جاء في الدين الإسلامي من منع لهذه الاعتداءات وهم كلهم يدينون بالإسلام.

«العوجا» اسم دخل في تاريخ سلمية وما يزال يستعمله البدو إذا ذكروا سلمية، فإن من عادة البدو أن تكون لكل قبيلة «نخوة»، والنخوة اصطلاح يدل على القبيلة وهو موضع فخرهم يدافعون عنه ويذكرونه كلما أُحرجوا ـ فقبيلة تقول إنها راعية البلهاء أو راعية الحيزة، ومن ذلك كلمة: راعي العوجاء، وأصل العوجا كانت ناقة لشيخ عشيرة الهديب من العنزة المجاورين لسلمية، ولبيان سبب تسمية أهل سلمية: رعيان العوجا تُذكر حادثتان اختلفتا ولا ندري أيتهما أقرب إلى الحقيقة والواقع، أما القصة الأولى فهي كما يلي:

غزت قبائل الرولة عشيرة الهديب واستاقت جمالها ومن بينها العوجا، وضرب النفير بين عشيرة الهديب ليلحق فرسانها بالغزاة لتخليص جمالهم، وهبّ معهم فرسان أهل سلمية بطبيعة الحال من الجيرة والاتفاق المعقود بين الطرفين وكان أول الواصلين إلى الغزاة فرسان السلمية الذين استرجعوا الجمال ومن بينها ناقة العوجا، فسرّ شيخ الهديب ودعا أهل سلمية بأهل العوجا أو رعيان العوجا، وقد ظل هذا اللقب نداء يفخر به أهل سلمية، ومن الطريف أن هذه القصة تذكر أن إسماعيل الجندي جدي

لأمي كان مشاركاً في هذه الغزوة واسترداد الحلال كما يسمى. أما القصة الثانية فتقول: إن عدداً من الفرسان اجتاحوا سلمية وذلك في عام ١٨٥٠ أي بعد سكناهم في البلدة بسنتين فقط وكان قائد الغزو من عرب الفدعان الذين ينزلون بجوار الرقة وشيخهم الأخير هو مجحم بن مهيد المعروف والذي كان نائباً عن عشيرته في المجالس النيابية السورية المختلفة، وقائد الغزو هذا كان اسمه «صُمَيْت بن قنيفد»، وكان لقبه راعي العوجا، وقد استاق الغزو ومواشي السلمية فلحق بهم عدد من الفرسان منهم: الأمير محمد والأمير سليمان وعلي الجندي ومصطفى دندي وعلى حسين شربا ومصطفى عبيدو، وقد استرجع فرسان سلمية ما كان غنمه الغزو منهم وأرجعوا معهم قائد الغزو ابن قنيفد أسيراً، والأصح أن يكون المشترك في الغزو من آل الجندي هو إسماعيل الجندي عميد العائلة إذ لم يكن يومها رجل معروف يسمى علياً من هذه العائلة.

وهناك تعقيب ورد على هذه القصة نراه بعيداً عن الواقع، والقصة على هذا الشكل مخالفة للتاريخ لأن الغزو كان يأتي إلى سلمية والعشائر المحيطة بها من الجهة الجنوبية أي من جهة الرولة، أما الفدعان فقد كانوا على وفاق مع قبائل عنزة المجاورة لسلمية، كما كان الفدعان خصوماً للرولة مثل الهديب، وكثيراً ما كانوا يشتركون في الغزو إلى ديار الرولة.

كانت عائلة الأمراء من الملاكين وكذلك آل الجندي، ولكن آل الجندي كانوا متوسطي الحال أو أقل من المتوسطين، وكانت العقليتان مختلفتين، لذلك كنت دائماً أصرّ على أن هناك اختلافاً في الأصل بيننا وبين الأمراء، كانوا ينأون عن العلم بل كانوا يسخرون منه ويعتبرونه مهنة الفقير المعوز، بينما كانوا يرون أن التملك هو أساس المجد والحياة، لذلك حين أمحلت الأرض لسنوات، وحين وزعت الأراضي بالقوانين التي صدرت فيما بعد وجدوا أنفسهم مفلسين من الأرض وغيرها واختلفت الحال معهم، بينما اتخذ آل الجندي خطة نفعتهم كثيراً، فقد لجأوا إلى التعلم ومن التعلم لجأوا إلى التوظيف، فكنت تجد منهم الشرطي والمعلم والجابي والكاتب في الدوائر؛ وهذه الوظائف وإن كانت ضعيفة النفوذ إلا أنها كانت تكفي وتداوي العوز فلا يحتاج أصحابها إلى الآخرين.

كان أكبر الموظفين في سلمية أربعة أشخاص، الأول هو الأمير تامر الذي كان نائباً في المجلس النيابي، وميرزا أخوه الذي كان قائمقاماً، ووالدي الذي كان حاكم الصلح - القاضي - والأمير سليمان الذي كان رئيساً للبلدية، وقد عين هؤلاء الأربعة بأمر من الملك فيصل أو من حكومته يوم ذهب الأربعة إلى حماه لاستقبال الملك حين مرّ بها يوم كان أميراً، وقد ظل هؤلاء في وظائفهم مدداً طويلة وأقرت الحكومة الفرنسية التي جاءت بعد الحكومة الفيصلية هذا التعيين. أما والدي فقد كان الوحيد الذي تعلم وظيفته بالتدريب، فقد بدأ وهو شاب كاتباً في المحكمة فاعتاد على المعاملات ثم تقدم إلى فحص كان يعقد في دمشق للذين يودون الانتساب إلى سلك القضاء من قبل لجنة خاصة تسمى «الأنجماث»، وهي نفسها التي كانت تمنح الرخصة لمن يريد أن يكون محامياً وهو لا يحمل شهادة الحقوق، أما زملاء والدي فقد كانوا أقرب إلى الأمية لأنهم لم يتعلموا إلا علماً بسيطاً في مطلع حياتهم وفي الكتّاب.

كان أول الأشخاص الأربعة الذين تسلموا مقاليد البلد، الأمير تامر، وهو ابن عمة والدي، كما أسلفت، ولقد كان أزرق العينين أشقر بائن الطول يلبس اللباس العربي من قنباز إلى كوفية وعقال ويحمل عباءة تغطي ثيابه كلها ويحمل في يده خيزرانة يستند إليها أحياناً، وكان جهوري الصوت جريئاً عاقلاً، ولكنه كان لا يحتمل من يسيىء إليه أو يتحدّى سلطته أو يحاول التقليل من هيبته، كما لم يكن سريع التنفيذ إذا أراد أمراً، بل كان متأنياً كثير التفكير يدرس الأمر ثم يعمل، تزوج ابنة خالته وأبوها من الأمراء الذين تركوا أثراً كبيراً في سلمية بوجاهته وهو الأمير علي الذي توفي قبل سنين وهو في سن الشباب، وقد ظُن أنه مات مسموماً واتهم باغتياله جماعة من أقربائه، ولكن الحقيقة أنه مات بداء السل الذي كان منتشراً في سلمية بسبب مستنقعات كثيرة كانت تغمر البلدة والتي كانت تسبب الملاريا من حشرة البرغش المعروفة، والملاريا كانت تسبب فقر الدم ثم السل؛ وتزوج الأمير تامر امرأة ثانية من غير عائلته ولكنها من عائلة حسنة معروفة وكان له ولدان من هذه وستة أولاد من ابنة خالته، وكان إذا أراد الذهاب

إلى المجلس النيابي بدمشق بصفته نائباً، لبس البذلة المدنية فإذا عاد، عاد إلى لباسه العربي، كان نيّر الفكر ولم يكن يعتقد بأكثر الأمور التي كانت تشكل العادات والمعتقدات والتقاليد في سلمية، فكان حرّ الفكر رغم بعده عن القراءة والدرس، ولقد كانت حياة هذا الرجل أسطورة بما لقي في حياته من مشاكل وأحداث، فقد تعرض لخصومات كثيرة كادت أن تودي به ولكنه خلص منها جميعاً، وقد فر من القانون حقبة من الزمن لأنه تعرض لأحكام خطيرة ولجأ إلى الصحراء والجبال ليعيش فيها وليس معه إلا فرسه وسلاحه، وكان محظوظاً بشكل يلفت النظر، فقد استطاع الخلاص من مشاكل خطيرة ليس بسبب الحظ فقط بل بسبب حكمته وتدبيره اللذين كانا يمليهما عليه عقله الرجيح. لقد استطاع وهو فار أن يملك أكبر ثروة عقارية في سلمية من قرى وبساتين ومزارع وحيوانات تناولت الأغنام والأبقار والجواميس، حتى انه يوم مات كان من أصحاب الملايين وكان لا يستطيع أن يرى من هو أعلى منه، ولكنه لم يكن سريع القرار فكان يتحمل خصمه إلى أن تمكنه منه الفرصة فيضرب ضربته وينتهي من خصمه، وقد فعل ذلك مرات في حوادث مشهورة معروفة لدى الأهلين وكان مسيطراً على عائلته كلها رغم نشوز بعضهم عنه ورغم كره بعضهم له فكان يفرض الشراء والبيع والزواج والطلاق والخصومات والمصالحات في عائلته، فلا يبقي رأياً لأحد غير رأيه. وقد حاول الجنود الأتراك مرة القبض عليه فهرب على فرسه «التامرية» ووصل إلى ساقية عريضة عميقة فقفز بفرسه فاجتاز الساقية إلى الجانب الآخر وظل الجنود وراء الساقية لا يجسرون على اللحاق به، وجاء مرة جماعة إلى قرية يريدون اغتياله فوقفوا أمام داره وهو جالس قرب فانوس مشعل وصوبوا إليه بنادقهم وأطلقوها فما كان منه إلا أن أطفأ الضوء وأصبح في الظلام وخلص من جانب البيت الآخر، وذهب مرة لاجئاً إلى جبل الدروز وكان يعرف جماعة من عائلة «زهر الدين» فمكث عندهم أياماً قليلة وفي أحد الأيام أخذ أحد أولاد العائلة وعمره أربعة عشر عاماً فرس الأمير تامر ليسقيها من ماء قريب من بيته ويبدو أنه استدار وراءها فركلته برجلها فأصابت منه مقتلاً ومات الولد على الفور واضطر الرجل إلى مغادرة المنطقة وقد صحبه والد الولد ليحميه من ثورة أهل القتيل، أما في نهاية حياته فقد كان الشخصية المرموقة في البلدة وكان له نفوذ كبير عند الجانب الفرنسي، حتى لقد أعطوه وساماً كبيراً سموه «الوسام الزراعي» تقديراً له؛ ومرض الرجل في أخريات أيامه بالقلب وعانى من المرض كثيراً وبقي مدة طويلة يتنقل بين حمص وبيروت إلى أن توفي عام ١٩٣٠.

أما الأمير ميرزا الذي كان قائمقاماً فقد كان على خلاف تام مع أخيه تامر بالشكل والخلق لقد كان أسمر يلبس البزّة الرسمية المدنية بحكم وظيفته ويضع على رأسه الطربوش، ولكنه كان من أكرم الناس يداً بحيث لم يكن يعرف قيمة للمال على عكس أخيه الذي كان يستعمل العقل في هذا الأمر بحيث يحسب لكل قرش حساباً، وكان الأمير ميرزا رجلاً بسيطاً يحب المزاح والنكتة الساخرة أحياناً، كما كان متعصباً لأبناء عائلته يعاملهم على طريقة الأرشد فالأرشد والأقرب فالأقرب وليس عنده في هذا الأمر هوادة، فأول الناس عنده هو ابنه ثم ابن أخيه ثم أقرباؤه والآخرون حسب القرب والبعد منه حتى لقد رشح نفسه للانتخاب وهو قد تجاوز الستين من العمر أَثَرةً منه وحباً لنفسه، وكان ترشيحه هذا كارثة على هذه العائلة فدمرتها مادياً، فقد ترشح ضده ابن أخيه كما ترشح ابن عمه وشقيق زوجته، وقد أنفق الثلاثة من المال ما لا يحصى واستغل الناس من الناخبين هذا الخلاف الذي لم يكن يتصور عند هذه العائلة التي ظلت كل حياتها حريصة على التماسك والتفاهم والكتمان لأمورها خاصة. كان للأمير ميرزا منزول أي مضافة يفد إليها الموظفون غالباً وبعض الأهلين، وكان مجلسه لا يخلو من طعام أو شراب يغدقه على ضيوفه بما عرف عنه من كرم، وكان إذا مشى لحقه الفقراء والمعوزون ليوزع عليهم كل ما في جيبه من دراهم، ولكن بضاعته من العلم كانت قليلة فكان يعتمد في حياته على كاتب الرسائل عنده الذي كان يتصرف بكل شيء في حال رضاه عنه. ولقد أصيب هذا الرجل المرح الضاحك بكارثة مرة، فقد اشترى سيارة كانت أول سيارة خاصة في سلمية وأحضر لها سائقاً مصري الأصل اسمه إبراهيم كان يعيش عنده مكفيّاً من كل شيء وكانت السيارات الخاصة غير معروفة في السلمية، وفي يوم من الأيام اشترى مصباحاً كبيراً استعمل في البلدة مجدداً «لوكس» يشعل بالبنزين، وأراد السائق أن يشعله ويبدو أنه زاد من نفخه

متجاوزاً الحد اللازم فانفجر المصباح وكان إلى جواره ولد القائمقام واسمه فائز وكان في الثانية عشرة من العمر فاحترق الولد رغم أنه قفز إلى البحرة التي كانت قريبة منه ولكنه توفي في اليوم التالي وقد جن جنون الوالد المسكين، وليس خافياً أن الحزن يفتك أكثر ما يفتك بالأشخاص المرحين الذين تعودوا على الضحك ولم يعرفوا الحزن والهم. لقد ظل الأمير ميرزا قائمقاماً لسلمية عشرات السنين وكانت الأمور عنده تحلّ عشائرياً وحسب التقاليد المحلية، والذي يؤخذ عليه أنه لم يجر أية إصلاحات في البلدة فلم يترك بناء أو شارعاً أو مقهى أو فندقاً وخرج من الوظيفة وكأنه لم يعمل بها في حياته.

أما الشخصية الثالثة فهو رئيس البلدية الأمير سليمان، فقد كان صاحب منزول يقال له منزول العشيرة على اعتباره منزول الأمير إسماعيل والمير سليمان جده، وكان منزوله خاصاً بالعشيرة فعلاً وبمن يرد إلى البلدة من بدو وغرباء فتجد فيه ما هب ودب، أما منزول الأمير ميرزا فكان مختصاً بالموظفين من البلدة أو غيرها، وأما منزول الأمير تامر فلم يكن مطروقاً أو مقصوداً لقلة من يوجد فيه، إذ كان الأمير تامر كثير التنقل بين أملاكه وقليلاً ما يتفرغ لمنزوله. أما المنزول الرابع وهو منزول والدي فقد كان خاصاً بأهل الحي عندنا وكان مجمعاً لعدد من الشيوخ الذين تمرّسوا بالحياة وجربوا الدنيا، وفيهم من كان مطّلعاً على التاريخ مثل شحود حسن كلثوم وفيهم القارىء الحافظ مثل سليمان الضحاك وهو من أقربائنا، وأمه ابنة عم والدي ووالدها الجندي إبراهيم ومنهم عابد دندة وعواد الشيخ حسن وهما من عقلاء البلدة.

كان الأمير سليمان وهو ابن عمة والدي وابن خالة الأميرين تامر وميرزا، قصير القامة أشقر أبيض الوجه مشرباً بالحمرة وكان بطيء الحركة لعلة وراثية أصابته في ظهره فبَطّأت حركته وقد انتقلت هذه العلة إلى أحد أولاده، فهو يشكو من ألم في ظهره أدى إلى احديدابه وإلى عجزه عن المشي مسافات طويلة. لقد كان رئيساً للبلدية ولكنه لم يعمل شيئاً في البلدية، كان يجلس في المنزول صباحاً حتى ما قبل الظهر ثم يخرج إلى البلدية التي كانت مؤلفة من غرفتين عتيقتين في منتصف البلدة يصعد إليهما بسلّم متهدّمة فإذا وصل إلى مقعده من غرفة الرئاسة، كما كانت تسمى، تحلّق حوله الضيوف من شاربي القهوة المرة، وكان أكثر من يفد إليه من بسطاء الفلاحين، فالرجل كان أميراً وديموقراطياً لا يحب الفخفخة ولا الظهور، وكان ذكياً ذكاء ملحوظاً فهو يجيد النكتة والمزاح ويكثر من التدخين وشرب القهوة وهذا كان عمله ثم يجلس ساعة أو ساعتين، يخرج بعدها ليعود إلى بيته فيتناول غداءه ثم ينام ساعة أو ساعتين ليخرج بعدها إلى المنزول فيجلس مع ضيوفه إلى ساعة متأخرة من الليل، لم يعمل الأمير سليمان في البلدية شيئاً فلم ينشىء شوارع أو مشاريع، فالقديم عنده على قدمه. وكان يعاونه في عمله ـ الشاق ـ بالبلدية عمي جد أولادي لأمهم واسمه حسين الجندي أو الجندي حسين كما كان يسمى أفراد آل الجندي، على اعتبار كلمة جندي لقباً يميز هذه العائلة عن الطبقات الأخرى من الطائفة، وكان عمي هذا تحفة تلفت النظر بهيئته، إذ كان أطول رجل في المنطقة، كان طوله يتجاوز المترين مع كتفين عريضتين وهيئة ظريفة طريفة، فقد كان أزرق العينين أشقر الشعر مُورّد الخدين جهوري الصوت وكان إذا مشى هو ورئيس البلدية يشبهان رقم (١٠) أي الواحد والصفر، لقصر هذا وطول ذاك، وكان ظريفاً يحب الدنيا بكل ما فيها، لقد كان يحب الضحك ويصنع النكتة وكان يحب الطعام ويتفنّن في طبخه وكان كريماً لا يجارى كما كان ديموقراطياً إذا خرج من داره ليذهب إلى عمله في البلدية وقف عشر مرات في الطريق يحدث هذا ويصغي إلى ذاك فتسمع قهقهته من مسافة بعيدة فيعرف أنه الجندي حسين أبو أحمد كما كان يدعى. وكان لعمي هذا الذي هو أخ الوالد غير الشقيق، فأمه من غير العائلة الجندية ولكنها من عائلة معروفة اشتهرت بميولها الدينية واطلاعاتها العلمية التي كانت معروفة في تلك الأيام، وقد خلف أربعة أولاد ذكوراً وثلاث بنات إحداهن كانت عائلتي ولكنه توفي إلى رحمة الله وهو في عنفوان الشباب لم يتجاوز الثالثة والخمسين من العمر، فقد أصيب بمرض خبيث لم يمهله إلا أشهراً.

أما الشخصية الرابعة فكان والدي، ولوالدي حديث يطول.

كـان والدي الشخصيـة الرابعـة، في الربـاعي الذي كـان يتولى إدارة قضـاء السلمية، ولكنـه كـان الشخصية العلمية لأن عمله بالقضاء عمل يحتاج إلى ثقافة حقوقية، كان والـدي قد افـادها من القـراءة والتدريب في الوظائف القضائية، وكان محباً للقراءة في التاريخ كما كان دائب الاطلاع على مجلـة الأحكام العدلية، التي تتضمن الحقوق المطبقة في القضاء السوري في ذلك العهد، وهي المجلة التي وضعتها لجنـة برئاسة الأستاذ التركي علي حيدر على المذهب الحنفي، وكثيراً ما كان يضطرني إلى القراءة في هذه المجلة لتثقيفي قضائياً. كان والدي؛ علي الجندي بن أحمد بن محمد بن أحمد الذي كـان يلقب بالأزرق لشقـرته وزرقة عينيه، وهـو ابن الجندي قبلان اقدم الشخصيات الجندية التي وصل إلينا علمها؛ وقبلان هذا لـه قصة كان يرويها الناس في منطقة الخوابي حيث كان يقطن هـذا الرجـل. فقد أصيب جدنا الأعـلى هذا بمرض ظن أهله معه أنه مات، وبالفعل فقد ظهرت عليه علائم الموت بشكـل واضح وحمـل الرجـل المتوفى على محفة من قرية «بحوّي» ليدفن في مقبرة العائلة القديمة في قلعة الخـوابي حيث كان مقـر آل الجندي جميعاً، كما اسلفنا، وكانت المسافة بين قريتنا والقلعة تحتمل اكثر من سـاعتين من المشي وفي طـريق يهبط إلى النهر ثم يصعد إلى التلال والجبال المحيطة، وحين وصل المشيعون إلى مكان يسمى «خرنـوبة الهـواء» وهو مكان ظليل وضعوا المحفة وجلسوا يستريحون وإذا بالرجل يجلس في محفته وينادي بصوت مخنـوق فركض إليه المرافقون واخرجوه وإذا به حيٌّ يرزق، وعـاد القوم إلى القـرية يبشرون أهلـه بسلامتـه، ولقد عاش هذا الرجل بعد هذه الحادثة ثلاثين سنـة قيل فيهـا انه أصبـح اكرم النـاس فيها بعـد أن كان من أبخلهم، وقبر الرجل ما زال معروفاً إلى الآن قرب قرية «مازوغا» القريبـة من «بحوّي» والتي كـانت بعض ملكه أيضاً، وكان القبر على جانب الطريق المؤدّي إلى بحوّي، فلما أريد توسيع الطـريق قام أهـل مازوغـا بنقل رفات الرجل إلى مكان آخر وبنوا له قبراً جديداً مما يدل على وداد هذه العشيرة الطيبة وحرصها على عدم نسيان رجالها.

ولد والدي علي الجندي في العام ١٨٦٨ أو ١٨٧٠ على أكثـر الأقوال وكـانت والدتـه اسمها شهـيرة، وكانت لها أختان أخريان قدجاءتا مع والدتهما، زينب «أم مصطفى» من القريـة المعروفـة «وادي العيون» التي كـان سكانها شراكة بـين العلويـين والإسماعيليـين، ولكن حوادث داميـة وقعت بين الطـائفتين وهي حـوادث كانت معتـادة، ولكن الحكومـة التركيـة تدخلت هـذه المرة واخـرجت الإسماعيليـين من القريـة والحقتهم بأقربائهم في منطقة الخـوابي الخاصـة بالإسمـاعيليين، وقـد جاءت أم مصطفى هـذه وبناتهـا الثلاث هاربات من وادي العيون إلى بحوّي.

أما أسرة أم مصطفى هذه فهي من أمراء آل شاهين وقد كانت لهم وجاهة في منطقتهم، وسيدهم كان يدعى «زغبة الشاهين». ويروي الأهلون هناك أنه كان لهم قصر بطابقين وهو بناء كان نادراً في تلك الأيام، وكان البناء مشرفاً على النهر الذي ينبـع من وادي العيون والـذي يشكل نهر الخوابي نفسـه الذي كـان يجري من وادي العيون مجتازاً تلك القرى الإسماعيلية كلها حتى يصل إلى البحر قـرب طرطـوس. وكان يقال إن آل شاهين هؤلاء كانوا يتناولون الماء من النهر بواسطـة دلو يـربطونـه بحبل يـدلونـه من نافـذة الطابق الأعلى إلى النهر ثم يسحبونه إلى البيت بدلاً من النزول إلى النهر. لقد تزوج جـدي أحمد الجنـدي إحدى البنات الثلاث، ولكنها لم تعش طويلاً ولم تلد له أولاداً فأخذ أختها وهي أم والدي، وقد ولدت مـع والدي أربع بنات أخريات، أما شقيقة جدتي الثالثة فقد تزوجها أحد المشايخ وهي العائلة الدينية الوحيدة في الطائفة فولدت رجلاً مشهوراً بين أفراد عائلته واسمه «الحاج علي» وهذا الحاج هو ابن خالة والدي.

كان والدي أسمر الوجه قليلاً رغم بياض جسده، فقد تعرض لحادثتين كادتا توديان به، أولاهما، أن وعاء من الزيت الساخن انقلب عليه وهو ابن سنة واحدة وقد أسرع إلى مداواته ولكن وجهـه تأثـر بذلـك

فاسمرّ قليلاً، والحادثة الثانية أنه أصيب بـالجدري الـذي ترك أثـراً قليلاً في وجهـه لا يظهر إلا لمن أنعم النظر فيه، وأهم من هاتين الحادثتين أن أمه ماتت قبـل أن يبلغ السنتـين من العمر فتـولت تربيتـه أخته الكبرى التي تكبره بثماني سنوات. من هذه الحوادث المتلاحقة يتبين أن هذا الوالد ـ رحمه الله ـ لاحقته الأحداث المؤلمة منذ خلقته وقد اضطر والده «أحمد الجندي» إلى الزواج من امرأة من عائلة «شربا» ـ كما أشرت إلى ذلك آنفاً ـ وهي والدة عمي «حسين» الذي ذكرته حين تحدثت عن بلدية سلمية لأنه كان أميناً لسرّها. وقد ولدت ولداً آخر هو عمي الثاني واسمه «محمد» كما ولدت ابنتين أخريين.

لم يكد والدي يبلغ الخامسة من عمـره حتى دب الخلاف بينـه وبين خـالته امـرأة أبيه فقـد كانت امـرأة بسيطـة ضخمـة الجثـة ولكنهـا كـانت صـالحـة وإن لم تستطـع تـدبـير أمـرهـا مـع والـدي، فكانت تشكوه لأبيه في كثير من المواقف وكان أبوه شديد المراس، قليل الصبر، عصبي المزاج، فكان كثيراً ما يضربه ثم يعود إلى امرأتـه فيضربها ويؤنبهـا بعد أن يكـون قد أسـاء إلى ابنه. كـانت عصبية الـوالد «جدي أحمد الجندي» غريبة وله حوادث كان يحفظها معاشروه وقد رويت لي فاستغربت الكثير منهـا، لقد ولد له من امرأته الثانية ولد سماه «إبراهيم» ولكنه لم يعش طـويلاً لأنـه غضب مرة عـلى امرأتـه غضباً شديداً فضربها بعود من الرمان كـان يحمله فطـارت قطعة من العـود أصابت الـولد في جبينـه واخترقت العظم فمات الولد بعد ساعات. وكان لديه ثور للفلاحة أراد أن يخرجه من البستان إلى مكان آخر فامتنـع الثور فأخذ يضربه بالحجارة الكبيرة حتى مات الثور بين يديه، وحادثة ثـالثة أنـه كان مـرة عند أخيـه في سلمية وكان لديه حصان سبوق قوي جميل وقد جاءت بعثة أجنبية إلى حماه مركز المتصرفية «المحـافظة» ومع البعثة قنصلها الأجنبي فطلب أن يشتري بعض الخيول ليرسلها إلى بلده، وذهب عدد من الخيالة إلى حماه يعرضـون خيلهم ومن بينهم جدّي وقـد ركب حصانـه ولما وصـل إلى عين مـاء قرب حمـاه حاول أن يجتازها وهو راكب فامتنع الحصان عن اجتيـاز الماء لأنـه كان من خيـل الباديـة التي تخاف المـاء لعدم تعودها على رؤيته، وحـاول جدي بـأساليب مختلفـة أن يدفـع الحصان لاجتيـاز الماء فلم يستطـع فوكـز الحصان بحربة حادة كانت معه في عنقه، ويبدو أن الضربة كانت قوية، ولمـا وصل إلى حمـاه كانت رقبـة الحصان قد ورمت وانتفخت وشـاهد القنصـل ذلك وتعجب ثم قـال لجدي لـولا هذه الضربـة لكان هـذا الحصان أجود هذه الجياد كلها ولاشتريته بثمن باهظ، وبالفعل لقد مات الحصان قبل أن يعود جدي من حماه.

لقد عاش والدي مع والـده العصبي الشديـد وعاش مـع خالتـه البسيطة التي لا تحسن السيـاسة فكانت حياته معذبة متألمة، وقد كان يذكر ذلك ـ رحمه الله ـ في كل مناسبـة. وتعلم القراءة والكتـابة دون أن يعلّمه أحد، فكان يرسله أبوه بالطعام للعمـال الذين يعملـون في أرضه وكـان والدي يُـرى في منتصف الطريق وقد جلس يسهل الأرض أمامه ويكتب بإصبعه على التراب حروفاً وكلمات كانت هي الكتابة الأولى له، وكان صوته جميـلاً فكان ضيـوف والده في المنـزول، ووالده صـاحب المنزول الـوحيد في القـرية ومـا جاورها، كان الضيوف يستمعون إليه وهـو يقرأ لهم قصة بني هلال وغـيرها من القصص الشعبيـة التي كانت تقرأ هاتيك الأيام.

لقد ظل والدي في عراك مع هذه الحياة الصعبة إلى أن بلغ الرابعـة عشرة من العمر، وعنـدها طفـح الكيل مع والدي ووالده وخالته وأصبحت الحياة لا تطاق فاستعانت الخالة بشقيق زوجهـا إسماعيـل وهو جدي لأمي والذي كان في سلمية كمـا اتصل بـه جدي لـوالدي لكي يـأخذ والـدي إلى سلمية لأن جـدي إسماعيل لم يكن له من ذريته ولد ذكر وكانت له ابنتـان فقط هما والـدتي وامرأة عمي حسـين، إذ كانت أولاده لا تَسْلَم له فلم يعش له أولاد غير هاتين البنتين وولد عاش قرابة السنتين كان اسمه صـالحـاً. ولقد اتخذت الاستعدادات لانتقال والدي المراهق إلى سلمية وهيئت الدواب لنقله عن طريق الجبـل الذي يمـر بـوادي العيون ثم مصيـاف ثم حماه فسلميـة. وفي يوم السفـرجاءت أخوات والـدي البنـات وهن يبكـين بأصوات عالية فأسكتن، وجاء جدي دامع العينين يودع ابنه الوحيد وولده البكر فاحتضنه باكياً.

ومشت القافلة الصغيرة هابطة من القرية إلى النهر في الطريق المعتاد لتصعد ثانيـة في جبل ثـانٍ إلى

الطريق الرئيسي وظل جدي وأصحابه من أهل القرية واقفين والدموع تغطي عيونهم إلى أن غابت القافلة وراء الجبل، وكان يوماً أسود بالنسبة لأخوات الوالد وللوالد نفسه، أما الخالة فقد تظاهرت طبعاً بالحزن ولكنها انزوت في مكان بعيد من البيت حتى لا تثير غضب الزوج في كلمة أو حركة وهو في هذه الحالة من الحزن والغضب المكبوتين.

حين وصل والدي إلى سلمية وجد الحال غير الحال فقد وجد بيوتاً واسعة وخيولاً واغناماً وأبقاراً تقتنى، ووجد سهولاً واسعة وكروماً وناساً يروحون ويجيئون في الأحياء والساحات العامة، ووجد ضيوفاً يدخلون دار عمه مختلفي الوجوه والهيئات، ووجد ابنة عمه الصغيرة المرشحة لزواجه منها كما وجد امرأة عمه وكانت من الأمراء وشقيقة الأمير سليم من كبار الأمراء الذين جاءوا من القدموس، وعاش والدي في تلك البيئة الجديدة، وكانت له عمتان واحدة عند آل تامر والثانية عند آل سليمان فكان كثيراً ما يزورهما ويتسلى مع أولادهما، وقد أعجب به كل من كان يومئذ من أقربائه، إذ كان عاقلاً متزناً بعيداً عن طبيعة الأولاد المضطربة. ولفتت نظره الجياد التي كانت في الاسطبل المجاور للبيت وهن ثلاث أو أربع من أحسن الجياد التي عرفت في سلمية سبقاً وشكلاً، كانت اثنتان منهما الأم وابنتها من الأصل:**السمحة** وهو أصل معروف وكانت الواحدة من هذه الجياد تسابق الريح وكان جدي أقدر فارس في تلك المنطقة كلها، إذ كان خيالاً ماهراً لا يجارى، وأعجبت والدي الجياد فتولى أمرها عناية وإطعاماً وسقاية، وأخذ يتعلم الفروسية حتى برع فيها وعدّ من الخيالة الشهيرين في البلدة وإن لم يبلغ شأو عمه البارع الذي لم يُقَسْ به أحد.

كان جدي إسماعيل عضواً في مجلس الإدارة في المحافظة كما عمل مدة من الزمن في القضاء، وكانت هيئته تدل على العلم والوقار فقد اشتهر بالنظافة المطلقة وكان يلبس العمة البيضاء والقنباز والجبة وكان إذا مشى المسافات الطويلة لا يتلوث نعله بالغبار أو الطين مطلقاً، فكان بذلك نموذجاً للرجل الأنيق النظيف، وقد أوعز إلى والدي بأن يثابر على الكتابة في قلم العدلية ليتعلم صنعة القضاء؛ وهكذا بدأ والدي منذ شبابه الباكر استعداده للوظائف القضائية حتى انتهى قاضياً كما أسلفت. وكان أبرز شيء في حياته احترامه لنفسه، فمنذ أن أصبح موظفاً لم يتغير فلباسه هو اللباس الرسمي ومقعده في المنزول هو الكرسي الكبير الذي لا يجلس فيه غيره وضيوفه هم أهل الفكر والخبرة وحسن الحديث، كان لا يختلط بالناس إلا قليلاً على اعتباره القاضي الذي يحكم بين الناس، ولم يكن يقبل دعوة كما لم يكن يشترك بأي فرح عام، وكان لديه اثنان أو ثلاثة من الرجال، واحد من أجل لوازم البيت وواحد لصنع القهوة، يساعد هذين بعض عمال الدائرة من آذن أو محضر، وكان يجلس في منزوله العصر ويظل حتى الساعة التاسعة أو العاشرة ليلاً فيدخل لينام، فإذا جاء الصباح قام فأشعل النار ووضع الشاي والحليب بنفسه بينما نكون نحن الأولاد والوالدة جميعاً نياماً.

لم تكن الحياة في سلمية في تلك الوهلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى وما بعدها حياة مدنية ولم يكن هنالك حجاب، وكانت النسوة يخرجن بلا حجاب يرحن ويجئن في الأزقة ويتحدثن إلى الرجال، وكان لباس المرأة يتألف من بزة عادية تختلف بحسب المناسبات من قطن إلى كتان إلى حرير، وتلبس المرأة حذاءً ضخماً بعض الشيء بالنسبة لأحذية اليوم النسائية وهو يسمى «البابوج»، أما الأحذية ذات الكعب العالي المعروفة في هذه الأيام فكانت نادرة ولم تكن تصنع إلا خارج سلمية. أما لباس الرأس فكان يسمى «الحطّه» أو «الحطاطه» بلغة سلمية، وكانت هذه تصنع من الحرير وغالباً مع القصب وتستورد من حمص خاصة ومن معامل ومناسج المسيحيين المختصين بهذه الصناعة، وربما كانت من الكتان يلف عليها غطاء يصل طوله إلى مترين يحتوى الرأس مع الحطة ويتدلّى منه طرفان يصلان إلى قرب القدمين، وكانت هذه الأغطية من الحرير القز الخالص كما كانت غالية وتستورد من الجبل الغربي فقد كان العلويون والاسماعيليون هناك مختصين بصنع هذه الأغطية.

لم تكن صناعة الأحذية معروفة في سلمية إلا النوع البدائي الذي يدعى «الصرماية» والذي كان يصنع من الجلود الرخيصة حمراء أو صفراء أو سوداء وهي لباس الفلاحين خاصة أما الأحذية الأخرى

ذات الأربطة وغيرها مثل: البوط والجزمة فكانت تستورد من حماه أو حمص. وفي يوم من الأيام نزل البلدة رجل ضخم الجثة يزن أكثر من مئتي كيلو اسمه «أبو خليل الزحلاوي»، وقد جاء من زحلة فعلاً وكان «كندرجياً» أي مختصاً بصنع الأحذية الحديثة وقد فتح محلاً لهذه الغاية وأخذ يبيع الأحذية، وانضم إليه عدد من الشباب الذين أرادوا أن يتعلموا هذه الصناعة الجديدة وتعلموها فعلاً بعد ذلك. ومن تلامذة أبي خليل الزحلاوي: الشيخ علي الخالد، وأبو علي الزير، وعبدالله زعير، وغير هؤلاء أشخاص لا أذكر أسماءهم. كان الناس في سلمية هاتيك الأيام يتزاورون بلا حاجب أو بواب، يكون أحدهم ماراً فيدخل بيت صديقه أو قريبه دون إذن أو إخبار، فليس هنالك من حجاب أو ما يسمى «دستور»، وقد وجد والدي هذه الطريقة غير صحيحة ففصل بين البيت الخارجي الذي كان للضيوف يدخلون إليه ويخرجون، وجعل باباً ثانياً يفصل البيت الحرم عن دار المنزول، وهكذا أصبح القادمون من أصحاب الشكاوى أو المصالح أو الزائرون يضطرون إلى طرق الباب المتوسط حتى يسمح لهم بالدخول، فإذا دخل بدون استئذان كان نصيبه التأنيب الشديد من الوالد، وقد تعوّد الناس على هذه العادة عندنا وأصبح أخذ الإذن عادة سرت في بيوت كثيرة من بيوت البلدة.

كان الوالد رحمه الله قاضياً بالمعنى الصحيح الواقعي لهذه الكلمة، فلم تكن تأخذه في الحق لومة لائم، كما اشتهر بالأحكام العادلة عند الرؤساء في العاصمة بحيث كانت أحكامه لا تردّ ولا تنتقض، كان حكيماً في تصريف أحكامه وقضاياه وكان الأهلون يثقون به ويهابونه ويخدمونه، لقد كنت أمشي وراءه حين يخرج إلى المحكمة وأنا طفل صغير فنمرّ في سوق الخضرة فإذا وصل والدي إلى ذلك المكان سكنت الضوضاء وانتظر البائعون حتى يمر والدي ليستأنفوا مناداتهم على بضائعهم، وكنت مرة سائراً معه فأبصر من بعيد رجلاً رمى رجلاً آخر من أقربائه وأخذ يطعنه بموسى كانت في يده، ولما أقبل والدي قيل له لقد جاء القاضي، فترك ضحيته وهرب لا يلوي على شيء، ولكنه بعد ساعة أو ساعتين حضر إلى المحكمة مرغماً لأن والدي احضره لينال جزاءه ولعلمه بأن الحق سيجري دقيقاً عند والدي.

جاء أحد الأشخاص مرة إلى منزول والدي فشرب القهوة وكان من معارف أخي الكبير. وبعد ساعة ذهب إلى حيث لا ندري، ولكنه عاد في حوالي الساعة العاشرة مساء وجلس مع من بقي من الضيوف واستغرب والدي ذلك كما استغربه أخي الذي كان حاضراً، وسأل والدي أخي عن تصرف الرجل وحضوره مرتين في ليلة واحدة، وكانت النتيجة التي اطلع عليها والدي أن الرجل سمع بقريبة له سيئة الأخلاق وذات سمعة قذرة وكانت في قرية قريبة فذهب إليها وقتلها ثم عاد ليسلم نفسه إلى القاضي، وهكذا كان فقد أرسله والدي إلى الشرطة في السجن فاستلمه الشاويش كما كان يسمى وقاده إلى السجن بانتظار محاكمته.

انقلاب هدّام

كل بلد يتعرض في تاريخه إلى أزمات سياسية أو اجتماعية أو دينية، ولكن الذي حدث في سلمية كان غريباً لا يشبه ما حدث في تاريخ المدن الأخرى. فقد يظهر مصلح اجتماعي، وقد ينشأ عظيم من علماء الدين، وقد ينشأ قائد عبقري يستولي على الحكم ويصرف الأمور كما تملي عليه عبقريته، أما أن تحدث حادثة بسيطة تقلب المفاهيم كلها من دينية واجتماعية وسياسية وعلى يد إنسان لم يتعلم ولا درس ولا عُرفت فيه عبقرية أو كفاءة نادرة، فهذا أمر غريب شاذ لا ينطبق على منطق ولا يجري على نسق معروف!؟ وهذا هو ما وقع لسلمية:

لقد كانت بلدة آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً، فجاءتها هذه الحادثة التي سوف أقصها عليك فجعلت نهارها ليلاً وصبحها مساءً وعقلها جنوناً وأنسها خوفاً واضطراباً، وقبل أن أدخل في صلب الموضوع لا بد من مقدمة:

كيف كانت: كنا أشرنا في مناسبات ماضية من هذه المذكرات إلى أن القاطنين في سلمية وفي الجبل الغربي، (أعني مصياف والقدموس والخوابي)، كلهم من الطائفة الإسماعيلية الإمامية التي تدين بوجود «إمام الزمان» الذي يصفونه بقولهم: الإمام الحاضر الموجود في كل الوجود، وهم يحفظون القول المأثور لديهم: من مات ولم يعرف إمام زمانه معرفة جلية مات ميتة جاهلية إن شاء يهودية أو نصرانية. كما عندهم قول يقول على لسان الإمام الذي يصف نفسه قائلاً: ظاهرنا إمام وباطننا غيب لا يدرك. ولا يُعلم تماماً مصادر هذه الكلمات ومن هو قائلها. والإمام إسماعيل بن جعفر الصادق هو الذي سميت به هذه الطائفة وقد اختلف بين الإسماعيلية والشيعة الاثني عشرية الذين اتخذوا موسى الكاظم أخا إسماعيل إماماً لهم واكتفوا باثني عشر إماماً آخرهم المهدي الموجود في سامراء والذي ينتظر خروجه من مدفنه ليملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً كما يقولون. وقد خلّف إسماعيل عدداً كبيراً من الأئمة منهم: محمد الحبيب ووفي أحمد وتقي محمد ورضيّ الدين عبدالله والد المهدي الذي ذهب إلى تونس وأنشأ الدولة الفاطمية وبنى مدينة المهدية.

الإمام، لا ندري كيف وجدت هذه الكلمة، فالإمام هو الذي يؤم بالناس في الصلاة، وقد قيل في أحد الأئمة من الذين كانوا يطيلون فترات الصلاة:

ربّ إمام عديم ذوق يؤم بالناس ثم يجحف
خالف في ذاك قول طه من أمّ بالناس فليخفّف

وفي القرآن الكريم: ﴿يوم يأتي كل أناس بإمامهم﴾، وقد فسر المفسرون هذا بقولهم: إن الإمام هنا هو الكتاب الذي يدين بما ورد فيه جماعته، والقرآن الكريم هو إمام المسلمين حسب هذا التفسير؛ ولكن يتبين من الأقوال التي أوردناها في أول هذه الفقرة أن الإمام شيء آخر فهو يمثل بشكل بشر ولكنه يستطيع ما لا يستطيعه البشر، وهو نفسه ينتقل من صلب إلى صلب فيكون لكل زمن من الأزمان إمامه في حالة تشبه «التقمص»، فالإمام الموجود هو الإمام الذي مات والذي مات هو الذي مات قبله حتى تصل السلسلة إلى الإمام علي وما بعده، فالسلسلة لا تنتهي والكون لا يخلو من الإمام لحظة، ولو خلا لخرب الكون، هذه هي عقيدة الإسماعيلية كما وصلت إلينا وكما حدثنا أهلنا وغيرهم من أبناء هذه الطائفة. فالإمام له ظاهر هو فيه رجل كالرجال ولكنه في حقيقته هو كل شيء. ويقول بعضهم إنه هو الله متمثلاً على الأرض بشخص، وكأن هذا الوصف قد أخذ عن الديانة المسيحية التي تجعل من الأب والابن وروح القدس شخصاً واحداً هو الإله. فالإمام إذن له «ناسوت» وهو صورته البشرية وله «لاهوت» وهو الشيء غير الظاهر والذي هو الألوهة.

هذه هي العقيدة الإسماعيلية كما فهمناها وكما فهمها غيرنا، وإن كان هنالك بعض الاختلافات في

التعابير والمصطلحات. والإمامة، أعلى من النبوة، بل النبوة تستقي نبوتها من الإمام الذي هو كل شيء؛ فالإمام علي هو المهم بالنسبة للنبي، هارون هو المهم بالنسبة لموسى، ويوسف النجار هو المهم بالنسبة للمسيح، ولكل إمام نبي في زمنه وعصره، والإمام هو الذي يملي ويوحي بكل شيء، والنبي عمله أن يبلغ ما يقوله الإمام حرفياً دون أن يكون له عمل آخر. والكتب السماوية هي كلام الإمام والأنبياء يروونها وينقلونها للناس فقط.

قلنا إن الإمام لا يمكن أن يخلو منه الكون في العقيدة الإسماعيلية، وقد كان الإسماعيليون قبل أسرة آغا خان التي اهتدى الإسماعيليون إليها، يعرفون أئمة تواترت أسماؤهم فكانوا يذهبون من بلادهم إلى تلك البلاد في مشارق الأرض وخاصة في العراق، فيقدمون للإمام فروض الولاء وغير هذه الفروض من تحف وهدايا، كما يقدّمون له خِمْسَ أموالهم التي يجمعونها في بلادهم وهم يؤوّلون في ذلك الآية القرآنية التي تقول:﴿وما غنمتم من شيء فلله خِمْسُهُ﴾.. إلخ.

وذهب الإسماعيليون آخر مرة إلى بغداد ليروا الإمام الحاضر وكان اسمه «علي أكبر» وقد حملوا معهم الهدايا والخِمْسَ من الأموال فوجدوا الإمام قد مات دون أن يخلف عقباً، ولم يجدوا إلا زوجته وكانت مهتمة بالإشراف على حمام كانت تربيه، وحين رأتهم ورأوها أرادوا أن يعودوا من حيث أتوا ولكنها صرخت في وجوههم مما اضطرهم إلى إسكاتها بقليل من المال فرضيت وأشارت عليهم بأن يبحثوا عن الإمام الجديد الذي لا تعرف مكانه، ولكن وُجد أناس من الإسماعيليين المقيمين ببغداد فلجأوا إليهم يسألونهم عن إمامهم الذي استتر بالموت كما يعتقدون فدلهم أصحابهم على رجل من عائلة منسوبة إلى آل البيت تقيم في «بومباي» المدينة الهندية المعروفة، فذهب منهم وفد إلى بومباي وقابلوا فيها رجلاً اسمه «شاه حسن علي» عرفوا فيما بعد أنه من أسرة تنتسب إلى سيدنا الحسين، لأن الإمامة يجب أن تكون في ذرية الحسين لا الحسن، وأن منشأ هذه الأسرة بلدة «محلات» الإيرانية وأنها جاءت إلى بومباي لظروف ألجأتها إليها، هذا قول من أقوال، وهناك قول أن الأسرة إيرانية تدّعي قرباً من آل البيت وأن الإنكليز الذين كانوا يحكمون الهند هاتيك الأيام يوم كانت هناك حركات تحرّرية قامت ضد الاستعمار أيدها المسلمون بالاتفاق مع الهندوس، وقد جيء بهذه العائلة الإيرانية لمقاومة الحركة الإسلامية المناوئة للإنكليز، وبالفعل فقد قتل الهنود الرجل الأول الذي قدم إلى الهند من هذه العائلة.

كان شاه حسن علي هذا رجلاً ديّناً على جانب من التقوى يلُوح عليه وقد رآه الإسماعيليون الذين جاءوا من سلمية فتأكدوا من إمامته وعادوا إلى سلمية يبشّرون الأهلين بظهور الإمام مجدداً بعد أن استتر بوفاة «علي أكبر» الآنف الذكر لأن الإمام، كما قلنا، حيّ دائماً ولا يموت، ومن هنا جاءت النظرية القائلة بأن ابن مُلجم الذي اغتال الإمام علياً رجل طيّب صاحب صفة راقية، لأن الإمام علياً استتر بواسطته حين قُتل ويوقر ابنَ مُلجم جماعةٌ من الشيعة لهذه الفكرة.

بعد شاه حسن علي جاء ولده «علي شاه» وقد تحسنت أحوال العائلة وأصبحت على شيء من الغنى، فإن الاسماعيليين الهنود كانوا يقدّمون له المال باسم الخِمْس حيث أخذوا يزنونه بالذهب والمجوهرات، وما زالت هذه الطريقة في التكريم مستعملة إلى الآن، فوريث هذه العائلة الإمام كريم خان الموجود حالياً يزان بالذهب وبالماس حتى الآن، وكان لعلي شاه هذا رأي وكلمة في السياسة البريطانية إذ كان معتمد هذه السلطة لدى جماعته.

وما تزال في الهند طائفة من الإسماعيلية غير هذه الإسماعيلية تسمى «طائفة البهرة»؛ والفرق بين الطائفتين أن إمامين من الأسرة الفاطمية وُجدا في آن واحد هما، نزار والمستعلي، وقد اختلف الاثنان ويقال إن نزاراً عمل على قتل المستعلي فاختار قسم من الإسماعيليين نزاراً إماماً لهم واختار البهرة المستعلي، والطائفتان موجودتان في الهند حتى الآن.

بعد علي شاه جاء ولده سلطان محمد شاه، وهو المسمى بآغا خان الكبير الذي عاش في هذه الأيام والذي توفي في الخمسينات من هذا القرن بعد أن عاش ثمانية وسبعين عاماً. هذا الإمام الجديد لم يكن كغيره ممن سبقه من الأسرة، إذ كان متعلماً قد تخرج من أوكسفورد الجامعة الإنكليزية المعروفة، وقد

قويت صداقته مع الإنكليز فاشترى أملاكاً في إنكلترا وفرنسا وفي أكثر مناطق أوروبا، إذ كان كثير التنقل ولم يكن يمكث في الهند إلا نادراً وفي أيام معدودة من التاريخ العربي وكان يحتفل الإسماعيليون بإمامته ويزنونه بالذهب والماس والمجوهرات الأخرى.

في زمن آغا خان هذا وجد رجل من مشايخ منطقة الخوابي اسمه الشيخ أحمد الحمد، وقد كان الرجل ذكياً وجريئاً ومقداماً كما كان ذا هيئة مقبولة، إذ كان طوالاً من الرجال أبيض الوجه يلبس العمامة البيضاء والجبة، ولكنه لم يكن على شيء من العلم اللهم إلا بعض الجمل والعبارات المأخوذة عن محيي الدين بن عربي المرجع الديني الكبير للطائفة الإسماعيلية، وعن الحلاّج وعن غير هذين من علماء الدين الذين كانوا يدينون بمذهب وحدة الوجود كالطالقاني والطوسي من علماء الإسماعيلية. وقد فكّر هذا الرجل أي الشيخ أحمد بالاتصال بآغا خان وذهب إلى الهند ومعه أقرباؤه من المشايخ مثل الشيخ سليمان والشيخ مرتضى وهما من مشايخ قرية تسمى «خربة الفرس»، وهي تقابل قرية عقرزيتي التي كان منها الشيخ أحمد، وفي الهند عقد اتفاق بين الشيخ أحمد وآغا خان على إظهار دعوة إسماعيلية جديدة فيها تطوير كثير وتعديل وتغيير.

لقد بني هذا التغيير على أن الإمام حرّ التصرف في كل شيء بهذه الدنيا حتى الدين الذي يجب أن يتطور وأن أمر الإمام هو المعتبر دون النظر إلى ما سلف وما مضى، ولهذا فقد أصدر آغا خان ما يسمى بالفرمان أي الأمر أو النظام الجديد، وذلك بأن تستبدل الصلاة الإسلامية بصلاة جديدة تقام مرتين صباحاً ومساءً، وأن يعفى الإسماعيليون من الصيام في شهر رمضان اما صلاتهم الجديدة فتكون على الشكل التالي:

توضع طاولة طولها متران في منتصف ما اسموه «جماعة خانة» ويجلس حولها المصلون دون تعيين القبلة، فالاتجاه جائز إلى أية جهة كانت وقد أوّلوا الآية القرآنية القائلة: ﴿أينما تـوجهتم فثم وجه اللـه﴾ ووراء الطاولة شيخ المسجد وهو يسمى بالهندية «المُكّي» كما يسمى خازن المال الذي يجمع الأخماس «كامريا»، ويجلس الشيخ «المكّي» وراء الطاولة ويتولى قراءة الصلاة التي كانت مزيجاً من اللغة الهندية واللغة الفارسية والعربية ثم يتلو نسب الإمام حتى يصل إلى آغا خان الإمام (الحاضر الموجود في كل الوجود) كما هو لقبه الحقيقي، ثم يقرأ بعض المصلين شيئاً من أشعار ابن الفارض وبعضاً من أشعار محيي الدين بن عربي والحلاّج، وهكذا تنتهي الصلاة صباحاً ومساءً؛ أما صلاة العيد وصلاة الجنازة فقد بقيت كما كانت عند المسلمين السنّة لم تتبدل، وقد أوعز إلى الإسماعيليين أول الأمر بترك الدخان ولكن هذا الإيعاز لم ينفذ تماماً، اتفق الشيخ أحمد على هذا الأمر مع آغا خان وصدر الفرمان المطلوب وحمله الشيخ رغم أن آغا خان كان متردّداً في إصدار هذا الأمر، فقد كان يخشى أن يثور الناس على هذا التغيير الذي يقلب وجه الديانة الإسلامية رأساً على عقب، إذ كان الإسماعيليون قبل هذا يصلون ويصومون، ولم يكن هنالك فرق بينهم وبين الإسلام السنة إلا الاختلاف على خلافة علي، إذ كان الإسماعيليون يتهمون الخلفاء أبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية ومن سار معهم بأنهم تآمروا على عليّ واستلبوا منه حقه بالخلافة، وما عدا هذه الفكرة فقد كان الإسماعيليون كالسنّة تماماً مع شيء من التقديس المبالغ فيه للإمام علي وآل البيت. والنسوة يشتركن في الصلاة كالرجال تماماً لذلك فإن المساجد الإسماعيلية كانت تبنى على شكل غرفتين كبيرتين يفصل بينهما باب، وللنساء امرأة تتولى الصلاة فيهن كالرجال. وكل مصلٍ لا بد أن يدفع شيئاً من ماله حسب تبدل العملة وتغيرها فيقدم ما يدفعه إلى المكي الذي يعطيه بدلاً من ذلك شيئاً من النقل يسمى «نجوى»، كما تقام بعض الاحتفالات من قبل أشخاص توزع فيها المرطبات والحلويات وتسمى «مشكل وإحسان» بمناسبات تهمّ القائمين بها.

وعاد الشيخ أحمد يحمل الفرمان، ولكنه عاد وحده فقد مات في الهند الشيخ سليمان والشيخ مرتضى قريباه وشريكاه في البعثة، وهنا حامت الإشاعات حول وفاة هذين الشيخين، ومنهم من اتهم الشيخ أحمد بتصريفهما أو أنها كانت مؤامرة اشترك فيها الهنود أنفسهم من الإسماعيلية لتيسير هذه الدعوة الجديدة وعدم ترك المجال لمعارضتها، والخبر الواضح الذي تناقلته الأخبار عن وفاة الشيخين أنهما اكلا خبزاً

وشربا حليباً في صباح أحد الأيام فماتا رأساً، وقيل إن بعض الحاضرين جاءوا بالحليب الذي شرب منه الشيخان فسقوا منه قطاً كان هناك فمات لتوه، مما دل القوم على أن الشيخين ماتا مسمومين، والعهدة على الراوي.

عاد الشيخ إلى موطنه الذي خرج منه في الخوابي وأعلن الطريقة الجديدة التي دعيت «صلاة الطريقة» باسمها الجديد وقد فسّرت لديهم الآية القرآنية ﴿ولو استقاموا على الطريقة...﴾ إلخ وجعلوا الصلاة القديمة الإسلامية «الشريعة» كما أسموها، والطريقة هي المرتبة الأعلى التي يصل إليها الإسماعيلي بعد أن ينتهي من الشريعة التي تعتبر نظاماً قديماً، وفي الخوابي قبل الناس بما جاء به الشيخ، وقد ساعده في هذا آل الجندي وكان جدي الجندي أحمد، سيد المنطقة ولكنه كان قد زوج ابنته للشيخ إسماعيل أخي الشيخ أحمد فارتبط جدي وعائلة الجندي كلها في تلك المنطقة مع دعوة الشيخ أحمد ومشاريعه، وهم الوحيدون الذين كانوا يستطيعون الوقوف أمام هذه الفكرة الغريبة الجديدة. وانتقل الشيخ أحمد يوالي بث دعايته الجديدة، فجاء إلى القدموس ولكن أهل القدموس رفضوا أن يقابلوه واتهموه بالكفر ومنعوه من دخول البلدة، فترك القدموس إلى مصياف وفي مصياف منع الشيخ من دخول البلدة كما جرى له في القدموس، وظل سكان هاتين المدينتين متمسكين بالشريعة الإسلامية صلاة وعبادة صحيحة. فانفتل الشيخ راجعاً وعرج على سلمية ولكنه لم يدخل البلدة، فقد خاف أن يقع له ما وقع في مصياف والقدموس فجاء إلى تلدرة، وتلدرة أكثر سكانها من أهل الخوابي الذين وافقوا الشيخ على ما جاء به فمكث في تلدرة مدة يتشمم الأخبار، واضطربت الأمور في سلمية إزاء هذا الشيخ الذي اعتبر أنه جاء بشيء يخالف الشرع والدين. وولدت المعارضة

كان ابرز المعارضين الأمير تامر الرجل العاقل، والذي يكره أن يكون له منافس في سلطته ونفوذه في سلمية، ولكن معارضة قامت ضد هذه المعارضة وهي معارضة إسماعيل الجندي خال الأمير تامر وخال الأمير ميرزا وخال الأمير سليمان وهو صهر الأمير سليم وهو عميد آل الجندي، فهو إذن بحكم القرابة الوشيجة مع هذه الجهات كان الزعيم الحقيقي لبلدة السلمية. جاء الأمير تامر إلى خاله إسماعيل الجندي يقول له والغضب يملك وجهه: «يا خالي، هذا الرجل ليس قصده الدين والصلاة، إن قصده السيطرة والنفوذ وأن يكون زعيماً عن طريق هذه الطريقة وسوف يطيعه الناس جميعاً وسنبقى أنا وأنت فارغين لا عمل لنا». ولكن إسماعيل الجندي لم يسمع هذا الحديث لابن أخته ونهره وصرفه بقوةٍ لأن إسماعيل الجندي، كما أشرنا، كان قريباً من الشيخ عن طريق مصاهرة شقيق الشيخ إسماعيل، وكانت تلك الغلطة الكبرى التي وقع فيها إسماعيل الجندي الذي كان يصلي ويصوم ويحمل الجبة والعمامة البيضاء وكأنه أحد مشايخ الأزهر، لقد انساق مع العاطفة وانخدع بكلام الشيخ أحمد الذي كان زلق اللسان قوي الحجة جريئاً إلى أبعد الحدود، وقد نظر الشيخ أحمد بدهائه الكبير إلى ما قام به الأمير تامر فعرف أن الرجل يريد أن يعارض الفكرة، فارتأى أن يسلم صندوق المال وهو مال الأخماس كله لوالد تامر أعني الحاج مصطفى تامر، وهكذا كان وهذا يعني أن الأمير تامر استولى على مال الطائفة كله عن طريق والده وأصبح مطمئناً إلى ضعف نفوذ الشيخ، وسكت الأمير تامر طبعاً إزاء خاله الذي قطع عليه الطريق وإزاء الإغراء فقد أصبح هو الذي يملك الكمثرى الناضجة كما أصبح المستفيد الأوحد من الطريقة الجديدة والشريك البارز.

لم يجرؤ الشيخ أحمد على دخول سلمية بعدما سمع اللغط والمعارضة فأخذ يرسل الرسل إلى سلمية ليجس النبض ويدرس الوضع، فعلم أن الخلافات قد سويت وأن الأمير تامر سكت وأن الأمور أصبحت سهلة فلجأ إلى طريقة فيها الكثير من الدهاء، فحين وصل إلى سلمية نزل رأساً إلى جامع القلعة وقت الظهر فصلى الجمعة مع الناس وجلس يتحدث إليهم ويفهمهم أنه ليس ضد الشرع الإسلامي ولكن الإمام هو الذي أراد هذا التغيير وهو حر في إرادته ولأن الزمن يتطلب هذا، فالصلوات الخمس كثيرة على الإسماعيليين الذين أطاعوا أمر الإمام ومن حقهم أن تخفّف عنهم وتصبح صلاتين فقط كما تقرر، ثم إن الصيام ليس بالجوع وإنما هو بصيام النفس عن المعاصي، وهذا الكلام ليس من عنديات الشيخ بل هو

مأخوذ من كثير من كتب الإسماعيلية القديمة، وهكذا اقتنع الناس بآراء الشيخ، وحين اقتنع الشيخ بأن الأكثرية الكاثرة من أبناء الطائفة قبلوا رأيه وتبعوا فكرته عمد إلى ما يلي:

لقد دعا أكبر عدد ممكن من الأهلين إلى بيت الأمير إسماعيل القديم، ولم يدعهم إلى بيته هو وهذه فكرة ذكية قصد بها حفظ مقام الأمراء، وأنهم هم الذين أقروا هذا التطور، وفي البيت «العتيق» كما كانوا يسمون بيت الأمير إسماعيل أخذ كأساً من الماء وشربه بعد أن كان صائماً في ذلك النهار من رمضان فشرب معه كل من كان حاضراً ولم يتخلف أحد، إما عن اقتناع أو عن خوف ممن اقتنع وهكذا وبلحظة من تاريخ هذه الطائفة ترك الإسماعيليون الشريعة لينتقلوا إلى الطريقة التي سنصفها لك فيما يلي:

كانت الصلاة باللغة الهندية مع بعض ألفاظ فارسية أما «النسب» الإمامي فكان في اللغة العربية، وكان من الغريب العجيب أن يصلي أناس صلاة بلغة لا يفهمون منها حرفاً، ومع ذلك فإن أحداً لم يفكر في الاعتراض على هذه الصلاة التي اعتبرت حدثاً من اغرب الأحداث التي مرت في التاريخ، فلا يوجد شعب على وجه الأرض يصلي صلاته بلغة غير لغته وبكلام لا يفهم منه شيئاً، وأن المصلين كانوا يرددون هذه الصلاة وكأنهم يحفظون نصاً إفرنسياً أو إنكليزياً لا يفهمون منه معناه ولم يحضر والدي هذا الاجتماع وتذرّع بحجة المرض عن الحضور، فقد كان الشك بدأ يخامره كما خامر الشك بعض الأشخاص الذين لم يشتركوا بالاجتماع مثل الحاج شاهين، وهو وجه من وجهاء البلدة وهو عميد آل شربا العائلة الدينية المعروفة في ديار الخوابي وكذلك بعض من آل الشيخ حسن وولده عواد وهؤلاء كانوا غير قانعين، وهناك عائلة تدعى آل الشمالي كما دعيت آل زهرة ظلت تصوم وتصلي وفقاً للشريعة الإسلامية، ذلك أن بعض العائلات الإسماعيلية قد قطنت في المدن مدة طويلة قبل أن يجري إعمار سلمية، فمنهم من كان في حماه وحمص وطرابلس والشام، فلما عادوا إلى سلمية بقوا محتفظين بشريعتهم ولم يتأثروا بالدعوة الجديدة.

١١ احداث جديدة

لم تكن العملية الجديـدة خافيـة على النـاس المجاورين، فقـد علم بها أهـالي حماه وحمص والقـرى المحيطة بسلمية وأصبحت القضية على كل شفة ولسان، وكان أهل سلمية صريحـين فهم لم يكتموا عملهم الجديد بل صارحوا الناس بـه، وأخذوا يصلـون صلواتهم التي أشرت إليهـا نساء ورجـالاً أمام مـوظفي البلدة ورجال الشرطة وأكثرهم من غـير أهالي السلميـة ومنهم السنيون المتعصبـون الذين وجـدوا في هذه الحركة كفراً صريحاً لا هوادة فيه، ووصلت هذه الفكرة إلى دار الخـلافة في استـامبول وقـد تكون وصلت إلى هناك أخبار وتقـارير حـول هذا المـوضوع فـاهتم الأتراك وهم المسلمـون المتعصبون لهـذا الأمر من ناحيتين، الناحية الدينية وهم سنيون لا يدينـون إلا للقرآن والنبي (ص)، والنـاحية الثـانية أن آغـا خان رجل هندي الجنسية والهند مستعمرة بريطانية فـالرجـل بريطـاني الجنسية، وهـذا ما خـوّل الأتراك أن يتهموا القائمين بالطريقة الجديدة بإخلال الأمن. ومن هنا جاءت الضربة التي غيرت معالم سلمية وخربت كثيراً من البيوت المعروفة. فقد ألقي القبض على الشيخ أحمد وأخيه وعلى جدّي ووالدي وعلى والد الأمـير تامر وغـير هؤلاء عدد كبـير بلغ أكثـر من ثمانـين رجلاً سيقـوا إلى سجن القلعة بـدمشق بتهمة «إخـلال الأمنية». كان والدي في السابعة والعشرين من عمره وكان جدي الـرجل المنعم المعـروف في الخمسين من العمر ـ لقد أصيبت البلدة بضربة قاضية لم تقم لها قائمة بعدها.

وإلى محكمـة الجنايـات بدمشق كـان هؤلاء يقادون من القلعـة، وكانت المحكمـة في المرجـة والنـاس ينظرون إليهم متعجبين وقد دارت على ألسنتهم أنهم خالفوا الدين وتآمروا على الدولة، وقد ظلوا عـلى هذه الحال قرابة ثلاث سنين، وبعد السجن اضطـر عدد من هؤلاء إلى البقـاء في دمشق مدة من الـزمن تحت المراقبة، في هذه المدة توفي الشيخ أحمد وأخوه الشيخ إسماعيل بعد أن حكما بالإعدام وماتا قبل أن ينفذ فيهما الحكم، أما جدي فقد أصيب بالشلل فنقل إلى المشفى في دمشق ثم عاد إلى سلمية بعد أن تهـدمت صحته وأصبح غير الشخص الذي كان معروفاً من قبل.

رُوي أن الشيخ أحمد كان يقف في المحكمة فلا ينظر إلى هيئـة المحكمة بـل كان يشيـح بوجهـه عنها ترفعاً، وقد قيل إنه أرسل مرة برقية إلى السلطان عبدالحميد يقول فيها: القانون مريض يحتاج إلى طبيب والطبيب مفقود. وحين لفظ رئيس المحكمة الحكم عليه بالإعدام أجابه الشيخ: وأنا قـد حكمت على دولتـك بالإعدام. ويقال إن حكومة السلطان عبدالحميد قـد سقطت بعد هـذا بأيـام معدودات. وتـروى عن هذا الشيخ حوادث أقـرب إلى التنبؤات ولا ندري مبلـغ ذلك من الصحـة، فقد قيـل أن جماعـة السلمية قـد صنعوا أكلاً في السجن ليأكلوا ظهراً، وذلك في وقت رمضان والناس في السجن صائمون، ويظهـر أن أحد المسجونين غاظه هذا الأمر فعمد إلى قصعة الطعام فركلها برجله وكب ما فيها وقام الجماعة ليضربوه ولكن الشيخ قال لهم: اتركوه هو سوف يقتل نفسه، ويروي هؤلاء أن الرجل وجد بعـد يوم أو يـومين معلقـاً في باب الحمام في السجن وقد شنق نفسه. لقـد اعتقد الكثـيرون من هؤلاء البسطاء أن الشيـخ يحمل سـراً كبيراً، ولم يكن الشيخ ينكر هذا فقد كان يـدّعي أنه نبي مـا دام يعمل لـلإمام الـذي هو كـل شيء ـ كما أسلفنا ـ ولقد دفن الشيخ وأخوه في مقبـرة الباب الصغـير بدمشق مـع جماعـة من أهل سلميـة والبقية الباقية أفرج عنهم بعد أن بقوا في دمشق مدة من الزمن تحت المراقبة.

بعـدما حضر والـدي إلى سلمية وقـد أنهكه السجن، كمـا حضر جدي الـذي أنهكه المـرض وغيّر من جسمه ومن عقله فأصبح مريضاً كالطفل، بعد هذا جـاء نبأ من حمـاه يطلب والدي من أجـل التحقيق في قضية تتعلق بالسجن الذي قضاه، وأدرك والدي أن في القضية ما فيها وأنهم سـوف يقبضون عليـه وقد يصل الأمر به إلى الإعدام، فقرر أن لا يستجيب للطلب! ولكن كيف؟ لقد ألقي القبض عليه مجدّداً وجـاء رجال الدرك لقيادته إلى حماه وحاول رجال الدرك أن يحضروا له عربة يركبهـا ولكن الأهلين أضربـوا عن

إعطاء عربة من عرباتهم مما اضطر والدي إلى ركوب فرسه، وكانت هذه عملية مقصودة لأن الفرار ممكن لراكب الفرس وغير ممكن لمن يوضع في عربة، ومشى والدي مخفوراً إلى أن وصل إلى قرية الكافات في منتصف الطريق وعلى عين الماء المعروفة هناك نزل الدرك ووالدي ليتغدوا وليطعموا الخيل، وبعد الاستراحة قام رجلا الدرك فوقفا في الصلاة ليصليا العصر ووجد والدي الفرصة سانحة فقفز على ظهر فرسه وأرخى لها العنان إلى الجهة الغربية ولم يكد الدركيان يلتفتان إليه حتى أصبح بعيداً عنهما، فأطلقا النار ولكنهما لم يصيباه ومشى في تلك الطريق مسرعاً وهي طريق معروفة لديه حتى اجتاز حماه، وتسلق الجبال الغربية إلى أن وصل بعد يومين إلى قرية بحوّي، وهي القرية التي ولد فيها والتي فيها أقرباؤه وأهله. ولقد بقي في هذه القرية أكثر من سنتين إلى أن سقط السلطان عبدالحميد وأعلن الدستور فعاد إلى سلمية وهدأت بعد ذلك الأحوال وكفت الملاحقات عن أصحاب الدين الجديد.

لم تكن حياة والدي مستقرة في بحوّي فقد كان يحسب للدولة حساباً كبيراً وبالفعل فقد علم مدير الناحية في قلعة الخوابي «أحمد بك المحمود» بوجوده وعلم أنه فار فراح يخبر عنه، وبدأت الملاحقات عن طريق رجال الدرك تزعج والدي وتزعج أهل القرية، وأخذ والدي من طرفه عن طريق أهل القرية يرسل الإخباريات حول مدير الناحية، إلى بانياس التي كانت مركز القائمقام وإلى اللاذقية التي كانت مركز المحافظ وراح يتهم مدير الناحية بالرشوى، ومن أقواله عنه: أنه ذهب إلى بانياس باكياً بالدموع الصفر، يعني أنه دفع الليرات الذهبية الصفراء في سبيل أن يصل إلى غايته من إلقاء القبض على والدي، ولكنه لم يستفد شيئاً، وقد طال هذا العداء بين والدي والمدير إلى أن توسط في الخلاف شقيق المدير واسمه: مصطفى آغا، فجاء إلى قرية بحوّي وصالح والدي وأنهى الموضوع بين الطرفين.

لقد تغيرت الأحوال في سلمية بعد هذه النكبة التي أصابت البلدة وتناسى الناس هذه القضية وأخذت الأحوال تعود شيئاً فشيئاً إلى طبيعتها، لا سيما وأن رجال الاتحاديين الذين وصلوا إلى الحكم في استامبول لم يكونوا يهتمون بالقضايا الدينية، وهم من شبان الطراز الجديد لذلك أسدل الستار على هذه المسألة مؤقتاً وانتهى الأمر.

حين عاد والدي إلى سلمية وبدأ العهد الجديد، عهد السلطان محمد رشاد، عاد والدي إلى وظيفته القضائية عضواً في محكمة البداية وظل كذلك في عمله الجديد إلى أن تقرر نفيه كما شرحنا هذا في الصحائف السابقة.

١٢ بعد العودة

كنت ذكرت انني انتسبت إلى المدرسة الابتدائية أول الأمر وظللت فيها حتى الصف السادس حين بلغت من العمر الثالثة عشرة.

وبعد أن انهيت المدرسة الابتدائية كان لا بد لي أن أفكر في المستقبل، هل أكمل دراستي، وأين؟ أم أسكن في البيت دون عمل ولا درس؟ فأكثر الشباب الذين كانوا في سني في ذلك الوقت، لم يكونوا يعملون أيام كان العلم وكانت المدارس شيئاً نادراً، ولكن الحظ خدمني في تلك اللحظات الحائرة فقد فطنت إلى المدرسة الزراعية في سلمية وقررت الدخول فيها، وكان فيها اثنان من أولاد عمي وأخي سليمان، وحين حاولت تقديم أوراقي للدخول صدمت بأن سني لا تسمح بذلك فتقرر أن أذهب مع عمي حسين الجندي إلى حماه لتصحيح سني كما كان النظام هاتيك الأيام وعن طريق المحكمة البدائية التي كانت ألغيت من الأقضية وأصبحت من اختصاص المتصرفيات «المحافظات». لقد كنت من مواليد ١٩١٢ فأصبحت من مواليد ١٩٠٩ وبذلك أصبحت ابن أربع عشرة سنة، فتم دخولي في المدرسة الزراعية الشهيرة التي كانت أعظم مدرسة في منطقة الشرق الأوسط، ولوجود هذه المدرسة في سلمية خاصة قصة هي:

كما قلنا إن المصلّي في السلمية حسب الدين الجديد كان يدفع شيئاً معلوماً في الصلاة لقاء ما يسمونه «المبايعة»، أي أن يعطي الشيخ المبلغ الصغير ويضع يده في يده ويأخذ منه شيئاً من النقل، قضامة، أو راحة، أو ما يشبه ذلك، وكانت تجمع هذه الأموال من أماكن الصلاة في صناديق، فلكل مسجد صندوق؛ وكان في سلمية يومئذ حوالي عشرة صناديق، ثم هنالك بعض التبرعات وبعض المبيعات التي كانت تباع في المساجد بأثمان تفوق اثمانها الحقيقية لانها تعتبر بركة، كانت كل هذه الأموال تسمى «الخمس» وكانت تجمع في كل عام أو عامين فيذهب المولجون بهذه المهمة إلى حمص أو حماه وترسل الأموال إلى آغا خان ـ الإمام ـ عن طريق أحد المصارف الأجنبية.

ولقد عرفت الدولة التركية هذه المسألة وأخذت تراقب هذه الأموال ولكنها لم تقم بشيء من الاعتراض. وكان هناك احد الذين يكرهون جماعته ممن لهم اثر بارز في المساجد، وقد أراد أن ينتقم من هؤلاء فأخبر الحكومة بأن أموالاً ستذهب من سلمية باسم آغا خان إلى خارج سورية، واغتنمها الأتراك فرصة فاقدموا على احتجاز المال وكان مقداره عشرة آلاف ليرة عثمانية ذهباً، وهو مبلغ هائل بالنسبة لتلك الأيام. إذن لقد صودر المال ووصل عن طريق التسلسل إلى وزير الداخلية يومئذ وكان «طلعة باشا» الشهير، وأحضر طلعة باشا الرجل الذي أخبر، وأعلمه انه سينتقم له من خصومه فيشردهم في كل صقع ويسجن بعضهم على أن يسكت عن هذا المال فلا يذكره بشفة ولا لسان. ولكن المخبر خاف وتلعثم وأثرت فيه الناحية الدينية وقدّر أن هذا المال مال الإمام ولا يجوز الاعتداء عليه، وقال للوزير الخطير: اسمح لي حتى أستشير الشيخ، وكان هذا الشيخ منفياً يومئذ في مدينة تركية اسمها «بورصة» معروفة، وهو أخ شقيق للشيخ أحمد صاحب الدعوة واسمه «الشيخ نصر» وحملق الوزير في المخبر حين سمع كلامه وقال له: أنا وزير داخلية الدولة العثمانية أسألك مسألة فتجيب عليها بطلب الاستشارة وركله برجله وأخرجه من دائرته وهدده بالقتل إن تحدث بهذا الأمر، هكذا رويت القصة والعهدة على الراوي أو الرواة وهم كثرة. أما المال فقد حوّل إلى متصرف حماه لبناء مدرسة زراعية في سلمية، وذلك ما حصل فقد بني البناء بالمال وصودرت مساحة من الأرض الزراعية لإجراء التجارب العلمية عليها وفتحت المدرسة حوالي عام ١٩١٠ م. وانتظاراً لانتهاء بناء المدرسة افتتحت مدرسة مؤقتة للزراعة لتلقي الدروس وقد اجتمع فيها عدد من الطلاب من سلمية وغيرها ريثما انتهت المدرسة الجديدة التي تألفت أول الأمر من بناءين كبيرين واحد للدرس والطلاب والآخر للمكاتب ولمأوى الأساتذة مع بعض الأبنية الإضافية كإسطبلات للدواب من غنم وبقر، واسطبل لدواب الفلاحة وكانت كلها من البغال التي أهديت إلى المدرسة إهداءً وفتحت المدرسة

رسمياً أثناء الحرب، ولم تكد تنتهي الحرب العالمية الأولى وتصدق الهدنة حتى هاجم العرب البدو المدرسة وأحرقوا قسماً منها واستلبوا ما فيها من مؤن وغلال ودواب. وبعد هذه المدة أعيد تأسيسها بشكل أصولي منظم على الشكل التالي:

بدأت المدرسة بطلاب عددهم ستون جلّهم من سورية وقليل منهم من لبنان وفلسطين وكان مديرها الأول السيد وصفي زكريا وهو زراعي خريج مدرسة «حلقة لي» الشهيرة في تركيا، وقبله كان مديرها تركياً اسمه «عاصم بك». كان وصفي زكريا عالماً بالزراعة كما كان رجلاً عملياً يجلس إلى الفلاحين وزارعي الخضار يسأل ويستفسر وقد كان يدرّس مادة البستنة الشجرية والبستنة الخضرية، وكان درسه مهوى الطلاب لحسن إلقائه واستطاعته التأثير في الطلاب، لكنه كان شديد الوطأة على كل من يتعامل معه حتى على الأساتذة والطلاب مما سبب له بعض المشاكل مثل الخلافات التي نشأت بين قسمين من الأساتذة وكانت سبباً في انهيار هذه المدرسة المفيدة العظيمة. لقد اختلف القسم الثاني في المدرسة وعلى رأسهم وصفي زكريا المدير ومعاونه بهجت الصابوني والدكتور صبحي القتابي وغير هؤلاءمن جهة، وكان يقابلهم القسم الحموي يتزعمه عمر الترمانيني الذي كان معلم العمليات ثم أصبح مديراً ثانياً والناظر الأول محمد علي السراج ومأمور المستودع عمر الجابي، وأخذت البرقيات ترسل في الشكاوى إلى الوزارة إلى أن جاء المحققون وحققوا مع المدير ومع بقية الأساتذة، وكانت النتيجة أن نقل وصفي زكريا إلى دائرة أملاك الدولة كما استبعد السيد بهجت الصابوني، في حين أن الحمويين بقوا في مراكزهم، وقد جاءهم أول الأمر مدير مؤقت هو السيد وجيه الجزار وهو يحمل أيضاً شهادة في الزراعة ولم يبق إلا مدة بسيطة جاء بعدها المدير الذي ظل إلى نهاية عهد المدرسة وهو السيد توفيق الأحدب الحموي الأصل وخريج مدرسة كرينيون الزراعية العليا في فرنسا.

عاش وصفي زكريا مدة في سلمية وقد سكن مع عائلته في البلدة وكان متزوجاً من عائلة طرابلسية الأصل، وكان مع زوجته أخ اسمه مصباح سمينة كان رفيقاً لي في المدرسة الابتدائية والزراعية، وقد توفي شاباً وما زال ولده أستاذاً في جامعة دمشق وهو يزورني بين حين وآخر واسمه غياث؛ وأما شقيقة مصباح الثانية فقد تزوجت من الصحفي المعروف المرحوم نجيب الريس وعاشت في دمشق. كان وصفي يخرج في الصباح الباكر من بيته وقد ركب حصانه الأزرق ولبس بزته العسكرية ذات الساعد الجلدي كالذي يلبسه الضباط ويذهب إلى المدرسة ثم يرجع بعد الظهر إلى بيته، كان طويلاً اسمر عالي الجبين مهاباً يتكلم بصوت جهوري وكان صوته في الصف يملأ القاعة وإلقاؤه كان مبعثاً للإعجاب وقد كتب بعد خروجه من المدرسة الزراعية عدداً من الكتب منها المفكرة الريفية وعشائر الشام وغيرها، لقد كان رجلاً عاملاً عالماً ولكن طبعه الجركسي القاسي كان يؤثر في رأي الناس به فيباعدهم عنه وهذا مما أثر في حياته كلها في الوظيفة وفي التعليم. أما بهجت الصابوني فقد درس في استامبول ولم يتم دراسته، وكان ظلاً لوصفي زكريا في المدرسة يأتمر بأمره كما كان مصاباً بلكنة في حديثه حين إلقاء الدرس وكان معلماً للآلات الزراعية ولم يكن موضع الإعجاب في كل شيء، أما عمر الترمانيني فكان أعجوبة في شكله النحيف جداً البارز العظام ولكنه كان عالماً ومجتهداً يقرأ ليلاً ونهاراً حتى لقد برع في اختصاصه علم «النباتات» وأصبح الوحيد في سوريا على ما أعتقد، ولكنه كان مخيفاً في سلوكه، فهو غامض السيرة غامض الحديث لا تعرف ما تأخذ منه وما تعطي، ولكنه كان جاداً في كل شيء في حياته وقد أفادنا والحق يقال فوائد لا تنسى. جاء إلى المدرسة في المدة الأخيرة ثلاثة أساتذة من خريجي فرنسا أحدهم شاكر العاص الذي لم يبق أكثر من ثلاثة أشهر ترك بعدها المدرسة ليلتحق بالثورة السورية التي اندلعت هاتيك الأيام من سنة ١٩٢٥، ولا أنسى الساعة التي دخل علينا فيها إلى الصف ليودعنا وهو آسف وسافر ولم نعد نراه إلا بعد سنين، وهو من قرية «جباتا الزيت» الكائنة في هضبة الجولان، كما أنه قريب لأحمد مريود الذي كان من أبطال الثورة السورية، أما المعلم الثاني فهو أمين ناظيف وكان من خريجي مدرسة مونبليه الزراعية في فرنسا وكان عالماً حقاً ومختصاً بدرس الآلات الزراعية وأمراض النبات، وكان لطيفاً مجتهداً صغير الجثة ناعم الصوت وقد كان درسه لنا متعة ولذة، وأما الأستاذ الثالث فهو حمدي العبجي الذي كانت تغلب

عليه اللهجة الدينية المؤمنة حتى في الزراعة وحتى قيل لنـا إنه لم يكن يشـارك في درس الكروم والأنبـذة وكان درساً مهماً في مدرسته لأن النبيد محرّم لديـه. وكان يصـوم رمضان حتى في فـرنسا وقـد استسلم أخيراً وبعد الانتهاء من وظيفته الزراعية للناحية الدينية حتى راح يدرس قواعد الدين والفقه في الجامع، وسبحان مغير الأحوال.

كان في المدرسة أيضاً ناظر يشرف على الطلاب اسمه: محمد علي السراج، وهو الأخ الأكبـر للصحفي الحموي المعروف سامي السراج الذي عاش أكثر حياته في مصر ثم عاد ليموت في حماه بعد أن عـين فيها مديراً للمركز الثقافي. كان محمد علي السراج يعرف اللغة العربية وكـان يشارك بعض الأحيـان في تدريس هذه اللغة في الدروس التي كانت تعطى في المدرسة في اللغتين العربية والفرنسية ليلاً. لقـد كانت المـدرسة الـزراعية أكثـر مدارس هـذا القطر فـائدة بمـا حوت من علـوم وأساتـذة ووسائـل للعلم والعمـل، ولكن الحكومات المتعاقبة هاتيك الأيام أهملتها فلم تعبأ بها ولم تحترم شهادتها فانهـارت شيئاً فشيئـاً حتى لم يبق من آثارها اليوم إلا مزرعة صغيرة وعدد من الطلاب قليل. كانت المدرسة الزراعية يوم دخلتها في أول تشرين الأول من عـام ١٩٢٣ تتألف من أربعـة صفوف وكـان فيها حـوالي ستين تلميـذاً منهم من يحمل شهادة الكفاءة هاتيك الأيام ومنهم من كان يحمل الابتدائية، فأصحاب الابتدائيـة يدخلـون الصف الأول وأصحاب الكفاءة يدخلون الصف الثاني. وكان النهار في المدرسة مقسماً بـين القسم النظري الـذي يدوم ثلاث ساعات يومياً قبل الظهر وآخر بعد الظهر وكل درس ساعة. أما الـدرس العملي فكـان يستمر ثـلاث ساعات ونصف وفيه يجتمع صفان من المدرسة الأول والرابع ـ أو الثاني والثـالث، فيخرج الصفـان إلى الأراضي المخصصة للتجارب في المدرسة وقد حمل كل تلميذ آلته التي سيعمل بها من فأس أو مجـرفة أو مرّ وغير ذلك، وكثيراً ما كنا نخرج للحصاد أو للفـلاحة فـإذا صار وقت الظهـر اجتمعنا جميعـاً في قاعـة الطعام وخرجنا للاستراحة لنستأنف عملنا، إما في الحقل أو في الصف حسب البرنامج، فإذا جـاء المساء دخلنا إلى غرفة المطالعة لنمكث فيها ساعة أو ساعة ونصف ثم نخرج للعشاء، وبعـد العشاء إلى المطـالعة ثم نخرج إلى المنامة، وأشهد لقد كان النظام مسيطراً عـلى المدرسـة سيطرة تـامة، فقـد عرفت عـدداً من المدارس الليلية لكني لم أشهد نظاماً مطبقاً كما شاهدت في هذه المدرسة العظيمة التي كانت معهداً علمياً أفضل بكثير من تلك المدارس التي كانت الحكومة تتولاها، فخريج الزراعـة كان لا يفـوته علم من العلـوم حتى اللغات مع أنها لم تكن مقبولة الشهادة في الجامعة بل كان طـلابها مضطـرين للانتسـاب للوظـائف الزراعية التي استولوا عليها كلها بحكم اختصاصهم.
أن يقدم تقريره مساء كل يوم لمدير المدرسة.

الشيء الذي كان يؤخذ على هذه المدرسة الرائعة أنها كانت تقبل الطلاب بسهولـة فلم تكن تسأل عن أخلاقهم، فكان يرد إلى المدرسة بعض من لا أخلاق لهم فتقوم المشاكل بين الطلاب من جهة وبين الإدارة من جهة أخرى، وكانت المدرسة لا تتسامـح في شيء ولكنها لم تكن تستطيـع التأثـير أمام كثـرة الطلاب، فكانوا يشربون ويلعبون الورق خارج المدرسة طبعـاً والمراقبـة من هذه النـاحية كـانت مفقودة، ثم كـانت المدرسة لا تدقق كثيراً في الدرجة العلمية التي يتمتع بها طالب الانتساب فأكثرهم كان من الذين تأخـروا في صفوفهم فأرسلهم أهلهم وكأنهم يرسلونهم تأديباً لبعد المدرسة ولوقوعهـا فيما يشبـه الباديـة في رأي هؤلاء الآباء.

١٣ حياة جديدة

كان والدي قاضياً للصلح وكان يشكو من بعض السعال نتيجة كثرة تدخينه في شبابه ونتيجة للأحداث التي تعرض لها، فقد كانت حياته ـ رحمه الله ـ سلسلة من التعب: وفاة أمه وهو صغير، والجدري الذي أصابه والحريق الذي أصاب وجهه وهو طفل يحبو، والخالة التي جاءته ولم يتفق وإياها في حياتهما، حياته الصعبة مع عمه العصبي المزاج، السجن والأمراض التي أصابته في السجن من تيفوس وغيرها ثم الفرار إلى المنطقة الغربية ثم المنفى، ثم موت ولديه وهو غائب في يوم واحد. لقد جمع يوماً الأيام التي ارتاح بها فبلغت سبع سنوات فقط أي من عام ١٩١٨ وهو الذي رجع فيه من المنفى إلى العام ١٩٢٦ الذي توفي في الاسبوع الأول منه اي في ٧ كانون الثاني ١٩٢٦، لقد خرج يوماً في كشف للنظر في دعوى تتعلق بأرض خاضعة للكشف وركب سيارته المأجورة وكنت معه أنا وأخي الصغير ومعنا خبير وكاتب المحكمة وأقبلت علينا سيارة، وكنا قد وصلنا إلى ما قبل قرية تلدرة في طريقنا إلى قرية قبة الكردي المجاورة والتي فيها الدعوى، وحين رأى والدي السيارة القادمة والغبار المنبعث منها أوعز لسائق سيارتنا أن يأخذ شماله بدلاً من اليمين تفادياً للغبار ولم يعلم أن القدر ينتظره في تلك اللحظة وأن سائقي السيارات هم أضعف الناس فكرا حين يجلسون وراء مقود سياراتهم، وانحرف سائقنا إلى اليسار خلافاً للأصول ولكن السيارة الأخرى ظلت تسير إلى اليمين ومعنى هذا ان الاصطدام سيقع وكان على السيارة ان تقف أو تخالف الأصول، لو كان السائق ذكياً، فينحرف إلى اليسار او كان على سائقنا أيضا أن يقف أو يسرع لتفادي الالتقاء، ولكن وقع القدر واصطدمت السيارتان، وما عشت لن أنسى ذلك الصوت الذي سمعته يومها وكانت الصدمة كلها موجهة إلى خاصرة والدي ورأيت منظراً لن أنساه في حياتي، لقد رأيت الدم يخرج من فمه ورأيته يحاول التنفس فلا يستطيع لأن الصدمة اصابته في خاصرته اليمنى، أما أنا وكنت راكباً في مقدمة السيارة فقد أصيبت يدي وكذلك اخي الصغير وأصيب أحد الخبراء برجله اليمنى، ورجعنا والموت يخيم علينا إلى البيت وحمل والدي حملا، لقد كانت هذه الضربة قاضية وبعدها لم يرزق الوالد صحة عادية وظل يشكو من هذه الضربة إلى أن لقي وجه ربه.

وفي اليوم السادس من شهر كانون الثاني عام ١٩٢٦ وكنت في مطعم المدرسة اتناول طعام الفطور، إذا بباب المطعم فتح ويطل منه المدير الثاني عمر الترمانيتي ويشير بأصبعه لأخرج إليه، وقد خرجت فأنبأني أنني مطلوب إلى سلمية لأن والدي مريض جداً، وأدركت الخطر وقد كنت أعلم أنه لن يسلم من هذه الضربة التي تعرض لها بالسيارة وبسبب الوظيفة. دخلت عليه فوجدته مسجّى في فراشه فنظر إليّ ورأيت دمعتين تتدحرجان من عينيه فهالني الامر وسمعته يتمتم بأبيات شعرية كان قد حفظها من شعر امرىء القيس وهي تمثل حالته:

وما خلت تبريح الحياة كما أُرى   تضيق ذراعي أن اقوم فالبسا

ولم أعلم كيف خطر على باله هذا البيت وهو بين الموت والحياة، وأحضر له طبيب من حماه ولكنه كان قد اخذ منه المرض كل شيء، وفي صباح اليوم التالي اي في ٧ كانون الثاني ١٩٢٦ أسلم الوالد الروح، رحمه الله، ولقد خرجت البلدة وراءه وشيعه الناس وأغلقت المتاجر كلها وسار نعشه بين الناس وهم يترحمون عليه إلى أن وُوريَ ترابه وعدنا إلى البيت بعد الدفن وكلنا حزن فوق الأحزان جميعاً.

في النهار ذاته حدث ما لم يكن في الحسبان، لقد كان أخي الكبير انفصل عن بيتنا وسكن وحده، فقد وقع خصام شديد بين عائلته والوالدة ولم لكن حلّه سهلا واقتضى الموقف أن يفترق الجانبان، وظل أخي ساكناً وحده حتى توفي والده، وفي اليوم الثاني بالذات انتقل الأخ مع عائلته إلى بيت أبيه، وجلس في المنزول مكان أبيه وصنع القهوة التي كان يفرض تأجيلها بمناسبة وفاة أبيه، وراح يتحدث ويتكلم بصوت جهوري وكأن شيئا لم يقع وقد استغرب الناس هذا التصرف، ولكن اخي كان كل شيء يُملى عليه ويظهر

أنه سمع آراء من كان حوله من بطانته ورفاقه وأن الحزن قد يسبب شماتة الأعداء. كان أكثر المشاهدين تأثراً لهذا التصرف أخي المسكين المريض سليمان، فقد كان مريضاً في السل وكان لا يرجى شفاؤه في تلك الأيام، وتحدث أخي إلى أمه وأنا أسمع وكأنني غير موجود، قال أخي لأمه: إن أخي لم يحزن على والده، لقد أصبح كلّ شيء في البيت، فهو يرى أنني لن أعيش طويلاً وسيبقى أخوتي الصغار وأنت الوالدة المسكينة، فهو سيصبح كل شيء، وهو رجل متأثر بالناس من حوله فهو لا يعمل برأي نفسه بل برأي رفاقه وأقربائه الآخرين وهؤلاء يرون رأياً غير رأيه في علاقته مع أهله.

كان أخي قاسي الطبع بشكل لا يتصور، فلم يكن يقدر أي موقف كان وربما كان في أحرج الأوقات دون أن يحسب لثورته حساباً أو نتيجة، وسرعان ما دب الخلاف، وأخذت صحة أخي بالانحدار ولطالما سمعته يهدد ويقول: لئن بقيت حياً فلن يسكن أخي هذا البيت ولكن القدر كان أقوى، فقد مات المسكين في شهر نيسان من تلك السنة نفسها أي عام ١٩٢٦ وبعد أبيه بشهرين تقريباً.

عدت بعد أيام إلى المدرسة وكنت وصلت إلى الصف الثالث، عدت وقد فقدت بشهرين والدي وأخي وهما اللذان كانا يحميانني من كل اعتداء ومن أي إنسان، وكان الرفاق في المدرسة قد خرجوا يوم وفاة أخي إلى المقبرة فوضعوا على قبره الزهور وأنشدوا نشيداً حزيناً بكى له كل من كان هناك(*)، ثم مشت الأيام.

(*) كان مطلع النشيد.

إيه يا وقت السرور   يا زمان الأفجاع

١٤ إنقاذ وخلاص

أكملت دراستي في المدرسة الزراعية بعد أن أنهيت السنوات الأربع وذلك في شهر حزيران من عام ١٩٢٧ وعدت إلى البيت لا ورائي ولا أمامي، لقد كانت سني سبع عشرة سنة، فأنا صغير على الوظيفة ومن جهة أخرى فقد كنت أكره الوظيفة، ومع ذلك فقد حاولت أن أكون موظفاً في المصرف الزراعي، إذ كان مدير المصرف في سلمية صديقاً لي ولأخي وتقدمت بطلب ولكن المدير المشار إليه كان من أصحاب الكلام الذي لا ينفذ إلى شيء. وتأتي المصادفة، فقد جاء إلى سلمية مدير المدرسة الإنجيلية بحمص «البروتستانت» جاء يفتش عن تلامذة يدخلهم في مدرسته بالأجر طبعاً وسمعت أنه اتفق مع أقربائنا أولاد الأمراء ومنهم: عبدالله تامر وعلي الأمير سليمان وبرهان الأمير حسن، فركضت إلى أخي وقلت له أحب أن أدخل في هذه المدرسة لأتقن اللغة الفرنسية ووافق أخي على اقتراحي على الفور، وقد شجعه على الموافقة صديقه التاجر الحمصي المعروف فاضل أحوش، أو فاضل نصرالله كما كانوا ينادونه، وكان رجلاً لطيفاً وكان من المهاجرين إلى أميركا الشمالية وكان يعرف شعراء وأدباء الرابطة القلمية أي جبران ونعيمة وعريضة وأبي ماضي وغير هؤلاء لكنه لم يكن متعلماً، بل كان شاباً يحب الإنفاق عن سعة ويحب السهر والطعام والطرب، لقد كان رجلاً طريفاً حقاً. ودخلت المدرسة الجديدة.

كان دخولي إلى هذه المدرسة عملية إنقاذ لي وخلاص من الحياة في بيتنا، فالبيت ران عليه الحزن بعد وفاة الوالد والشقيق، والبيت أصبح يتسم بالجد الزائد عن الحد وأصبح أخي الكبير يتصرف تصرف المالك لا تصرف الأخ لأنه كان يفهم أن الأخ الأكبر هو كل شيء بعد الوالد، وقد نسي أن هنالك أماً لها أثرها في البيت وكانت طبيعة أخي هذا تختلف عن طبيعتي في كل شيء، فهو جادٌّ إلى درجة لا تحتمل وهو بعيد عن المرح والمزاح لا سيما معنا نحن أخواته فلو استطاع لمنعنا من الابتسام أمامه لأنه الأخ الأكبر، كان مثلاً يطلب إليّ أن أسقي الضيوف القهوة بيدي مع وجود العامل المكلف بهذا الأمر، لأن تقديمي القهوة دليل على احترامه، وكنت أهزأ بهذه الاعتبارات وكان يعرف هذا عني، وبدأ الخلاف بيني وبينه على هذا الأساس مما دعاه إلى الرضى بإبعادي عن البيت ليتصرف فيه كما يريد، وربما كنت التقي معه بناحية واحدة هي حبه للشعر وللأدب، فقد كان يحفظ الكثير من الشعر والأحاديث النبوية والقصص التاريخية وكانت ذاكرته عجيبة لكن هذه كانت بلا فائدة لأنه لم يقرأ بعد سن شبابه الباكر إلا نادراً، اللهم إلا بعض الدروس باللغة العربية والتجويد والفقه التي أخذها عن الشيخ رضى المعصراني الذي كان أستاذنا كلنا في البلدة (وسيأتي الحديث عنه مفصلاً).

المدرسة الجديدة كانت واقعة في آخر مدينة حمص من الجهة الجنوبية وكانت على مرتفع كبير ولها طابقان كبيران وباحة كبيرة جداً حولها، وحين وصلت إليها وجدت أقربائي الذين سبقوني إليها، وأدخلت إلى المكان الذي سأنام فيه ولكن المدير حار في أي صف يضعني، فأنا لا أعرف الفرنسية ولكني مثقف عربياً وعلمياً ومعي شهادة زراعية تخولني أن أكون في الصفوف المتقدمة، لذلك جعل المدير دراستي على شكلين في اللغة العربية أجلس مع طلاب الصف المنتهي وفي الفرنسية مع طلاب الصفوف الدنيا لأتعلم ما يمكن تعلمه.

كان مدير المدرسة المعلم فريد مسوح، وقد كان معلماً صحيحاً، فهو حائز على البكالوريوس من الجامعة الأميركية وكان رفيقاً للشهبندر فيها (الزعيم السوري المعروف) وكان يتقن اللغة الإنكليزية خطابة وحديثاً، كما كان ملماً بكل العلوم فهو يدرّس كل الدروس التي يغيب أصحابها لعذر إداري، وذو صفات خاصة يحب النكتة والشعر والموسيقى والشراب، وكان أسمر واسع العينين ذا أنف أقنى مهاب الشكل، وقد عاش مدة في طرابلس حيث كان يعمل بالتجارة مع أبيه، وأما زوجته فمن حمص وكان له منها ولدان هما بديع ورمزي وثلاث بنات وأظن الجميع ما زالوا أحياء حتى الآن، كان يعاون المدير عدد

من الأساتذة، أولهم الأستاذ منعم جبور وكان عالماً باللغة الفرنسيـة، لأن المدرسـة كانت تـدرس اللغتين، وكان عزيز سلوم وكان يدرس اللغة الإنكليزية وهو من بلـدة القرعـون من البقاع، وكـان «بول بشـيريان» وهو أرمني ولم يكن يحسن التكلم باللغة العربية ولكنه كان أستاذاً قديراً بالرياضيات أما بقية الأسـاتذة فكانوا ثانويين وهم: ابراهيم شـاوول، ابراهيم يعقـوب، ميشيل حنـا، نديم حـزّوري وقيصر معتوق الـذي هاجر فيما بعد إلى العراق ويصبح طبيباً معروفاً، وهو من الكورة اللبنانية.

لا أدري كيف ومتى انصرفت إلى الأدب العربي والشعر وكذلك الموسيقى، فقد كنت أبعد الناس عن العلوم وبخاصة الرياضيات وأؤكد لك أنني لم أحل مسألة أو معادلة رياضية بحياتي كلها وإني لأعزو هذا الميل إلى ناحية وراثية، فالأدباء أو الميالون إلى الأدب هم أكثر رجال عائلتنا، لقد كان والدي يروي الشعر وكذلك والدتي رغم أنها لم تكن متعلمة وأخي الأكبر راوية للشعر وللتاريخ، وقد وجدت الكتب ملقاة في غرف نومنا بين أيدينا وفي بيتنا من مثل ديوان ابن الفارض وكتاب نفح الأزهار وهو مختارات شعرية رائعة وكذلك شرح المعلقات للغلاييني، وكتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد؛ وهناك كتب مخطوطات قديمة منها «الرياض النضرة» وهو كتاب إسماعيلي معروف، لقد قرأت هذه الكتب جميعها كما قرأت غيرها وحين دخلت المدرسة الزراعية تعرفت في مكتبتها على كتب زكي مبارك وطه حسين والمازني والعقاد وحسين هيكل، كما تعرفت على مجلة المقتطف والهلال التي كانت تصل إلى المدرسة. ورأيت نفسي في أول الشباب أحفظ الكثير من الشعر وبسهولة، وإن كانت مفاهيم الشعر عندي قديمة، وكان من أبرز المؤثرات في حياتي الأدبية الأولى شخص أحترمه اسمه «عبدالحكيم الملوحي».

جاء عبدالحكيم الملوحي، وهو شقيق الصحفي المعروف رشيد الملوحي، جاء من حمص ليدخل المدرسة الزراعية وكنت أنا في الصف الثالث حين انتسب إلى الصف الأول، وقد جمعتني إليه الناحية الأدبية لأني رأيته يروي بعض الشعر أمام بعض التلامذة فلفت نظري وسرعان ما صار رفيقي المفضل وصاحبي الأول، فكنا نلتقي بعد الطعام وبعد الدروس وفي الصباح والمساء، وكان هذا الرجل راوية بالفعل وما زلت أستغرب حتى الآن كيف لم يصبح أديباً مرموقاً مع أنه يملك الاستعداد اللازم لهذه المهنة، لقد كان تلميذاً في حمص مع رفاق له كلهم كانوا من الأدباء وفي جملتهم نظيم الموصلي الذي أصبح أستاذاً شهيراً في مادة الجغرافية والتاريخ، وكان المفروض أن يكون أديباً، ورفيق مراد الذي مات باكراً وحسن مراد، وكان أستاذهم تيسير ظبيا، وهو أستاذ، أديب وصحفي معروف، وقد حفظ تلامذته هؤلاء أحسن الشعر، وحين التقيت بعبدالحكيم كان راوية بالفعل فكان يروي لي الأشعار التي أحفظها وكنت ألتقطها منه حتى حفظت كل ما كان في جعبته، وما زالت هذه المحفوظات ثروتي الأدبية التي أعتز بها لأن زمن الشباب هو زمن الحفظ وما بعده أمر آخر، واليوم ورغم قوّة ذاكرتي في الماضي، لا أستطيع أن أحفظ بيتاً واحداً وقد أنساه بعد لحظات، وما زلت أذكر هذا الصديق الملوحي أطيب الذكرى، ولقد عاش موظفاً فقيراً في المصالح العقارية وتوفي وهو قائم يصلي منذ سنوات، عليه رحمة الله.

أما الأثر الثاني في حياتي فهو، في تلك الرحلة التي قام بها طلاب المدرسة الزراعية إلى جبال العلويين للاطلاع على النباتات الجبلية وللتفرج في تلك البلاد الغريبة عنا، ولقد رافقنا شقيقي الأكبر في هذه الرحلة على اعتباره خبيراً بتلك البلاد، كما رافقنا المشرف على الرحلة الأستاذ عمر الترمانيني المدير الثاني للمدرسة.

خرجنا صباحاً من سلمية إلى مصياف وفي مصياف بقينا ساعات وتناولنا غداءنا عند صديق أخي الشيخ السيد الرجل الطيب والتاجر المحترم الحاج حمدو السيد وقمنا من عند السيد لنسير إلى الغرب وقد رافقنا أحد مراقبي الحراج من أهل مصياف ليدلنا على الطريق. مشينا عصارى النهار فوصلنا إلى مكان يدعى «جب الرصافة» والجب يقع في بقعة خضراء وارفة تحيط بها الجبال من كل جهاتها فشربنا الماء القراح وأكلنا بعض ما أعطانا مضيفنا السيد، واستأنفنا سيرنا صُعُداً، وظللنا في سيرنا حتى داهمنا الظلام، ووصلنا إلى قرية في أعلى الجبال اسمها «قصّية» كانت القرية صغيرة جداً وإلى جانبها حرجة صغيرة ومزار معروف في تلك المنطقة، وبهذه المناسبة، فإن المزارات كثيرة جداً في تلك الجبال ويختار لها دائماً أجمل الأماكن. ونمنا في قصية كما أذكر على بعض الفرش والحصر لأن المختار الذي نزلنا عنده

كان فقيراً جداً ولكنه عمل ما استطاع وأتانا في الصباح بشيء من الحليب والخبز ولم يكن لديه سكر، وتركنا قرية قصية المرتفعة وهبطنا نريد قرية شهيرة معروفة هي «وادي العيون» التي تعد مركزاً هاماً في تلك المنطقة، وفيها مدير ناحية، ومنها ينبع نهر الخوابي الذي يمر بقرى الإسماعيلية ويصب قريباً من مدينة طرطوس، وصلنا عند الظهر إلى وادي العيون فجلسنا إلى جانب عين ماء دافقة وتحت شجرة من السنديان كبيرة وجاء المختار ببعض البيض المقلي وبشيء من الشنكليش «الجبن الأسود» فأكلنا هنيئاً مريئاً، وليس أطيب من الأكل في أحضان الطبيعة مع الجوع والتعب، وشكرنا الذين أطعمونا، وصاحت إحدى النسوة لو أن لديكم وقتاً لعلقنا لكم ذبيحتكم على هذه الشجرة فشكرنا المرأة وقمنا لنسير في الطريق إلى منطقة الخوابي «منطقة الإسماعيلية» وهو المكان المقصود في رحلتنا ومشينا فمررنا بقرية النيحة والنوبحة ودوير المقالي حتى وصلنا بعد ساعات من المشي المضني إلى قرية الشيخ بدر.

والشيخ بدر هذا مزار من القرون الوسطى واسمه المفصل: «الشيخ بدر الغفير بن شاكر» وقد جاءه هذا الاسم لأنه أحد أبطال قصة الملك الظاهر المعروفة في القصص الشعبي، وهذا المزار مشترك بين الإسماعيلية والعلويين وهو محترم من الجانبين، ويقال ان فيه سراً غريباً، فإن الخيل إذا كانت مقيدة ووصلت إليه فلا بد أن تفك قيودها بقدرة قادر، وقصة الملك الظاهر هذه قصة إسماعيلية كما أعتقد، وهي قصة مخترعة ليس فيها حرف واحد من الصحة والحقيقة، وبخاصة لأن الملك الظاهر بيبرس هذا كان من أعداء الإسماعيليين ومن الذين فتكوا بهم في حرب أجريت بينه وبينهم، يضاف إلى هذا بعض الحكايا غير الواقعية من سحر وشعوذة وغير ذلك وقد يكون بعض الأشخاص فيها له أصل كالشيخ معروف بن جمر مثلاً، المدفون في حلب، وابنه عرنوس المدفون في دمشق في الحي المسمى باسمه، وهناك على طريق طرطوس ـ الخوابي وقبل قرية «امّلكه» مزاران آخران مذكوران في هذه القصة هما الشيخ سعد والشيخ جمال، أما الأول فاسمه في القصة: سعد بن دبل والثاني اسمه: جمال الدين شيحه، وتروي القصة أن هؤلاء الثلاثة بدراً وسعداً وجمال الدين قد سمّمتهم امرأة في طرطوس اسمها: «شم قرين الساحرة» وكلها أخبار تحتاج إلى التثبت والتأكد.

كان مدير ناحية الشيخ بدر رجلاً من عائلة بشور المعروفة في تلك المنطقة واسمه ميخائيل، وكان ضخم الجثة متوسطاً في العمر في عينه حول، وقد أكرمنا الرجل وقام بواجبنا خير قيام وقبل العصر بقليل ودعنا مدير الناحية وسرنا، فقد أصبحنا قريبين من غايتنا وتركنا تلك العين الفياضة التي تنبع من مزار الشيخ كما تركنا الكثير من ذكريات أقربائنا الذين كانوا يستريحون عند هذه العين وهم في طريقهم إلى مصياف، وسرنا في الجبل مقدار ساعتين فوصلنا إلى جبل يشرف على وادي الإسماعيلية واسمه جبل «رأس النمر» وهبطنا من هناك مسرعين وأمامنا أخي الذي كان خبيراً بتلك المنطقة وأرسلنا الأخبار إلى «بحوّي» التي ظهرت لنا من بعيد خلال الأشجار، وهبطنا إلى أول قرية من قرى الإسماعيلية وهي «كفريّة» البلدة المشهورة بالتين والتي يقطنها أصدقاؤنا من آل عيزوق، واستقبلنا أهل هذه القرية وساروا معنا حتى وصلنا إلى النهر في أسفل الوادي فجلسنا عند نبع من الماء يصب في النهر وعلى صخرة واسعة شاسعة كأنها سطح بيت، جلسنا على تلك الصخرة وكان اسم النبع «غبيّط السكر» والغبيّط، تعني النبع في لغة تلك البلاد، وتحدث أخي للمدير وللأساتذة عن ذكرياته عند هذا النبع وكيف كان يلجأ إليه جدنا «أبو علي الجندي» الذي انتقل إلى سلمية مع من انتقل من أهل هذه البلاد. وكيف أن هذا الجد نام مرة عند الظهيرة وأفاق مصادفة فرأى حية كبيرة نامت على صدره ورفعت رأسها أمام وجهه فما كان منه إلا أن رمى بنفسه في ماء النهر مع الأفعى فخلص منها.

كان أقرباؤنا من آل الجندي قد وصلوا إلينا ومن بينهم عمي أخو والدي لأبيه وابن عمتي أحمد الجندي، وكان مختاراً لقرية بحوي ومحيي الدين وكثير غيرهم، وصعدنا إلى القرية وقد أنهكنا التعب ووصلنا إلى الصيوان الذي كان بيتنا القديم والذي أصلحه والدي حين كان لاجئاً لهذه القرية وبنى فيه غرفتين تشرف إحداهما على الوادي كله ويظهر منها البحر البعيد إلى جوار مدينة طرطوس، وجيء لنا بالطعام وكان من الذبائح على البرغل والأرز مع شيء من السمك المطبوخ ونمنا على الصيوان بأمان وكان

الشهر حزيران من عام ١٩٢٦، لقد تحدثنا في الليل أحاديث كثيرة واجتمع أكثر من خمسين شخصاً من أهالي تلك الناحية، وتحدث أخي عن ذكرياته يوم لجأ هارباً من الجندية أثناء الحرب العالمية الأولى فوصل إلى «بحوي» قريتنا هذه، كما تحدث عن الخلافات مع مدير الناحية هناك أحمد بك المحمود الذي حاول إلقاء القبض عليه كما فعل مع والدي يوم كان فاراً أيضاً.

وفي الصباح الباكر جاءتنا الأخبار أن أقرباءنا المشايخ في كفر زيتي القريبة من بحوي بانتظارنا وقد أرسلوا بعض الدواب لنستعين بها على السير إليهم، وهكذا سرنا بعد أن ودعنا أهل بحوي وشكرناهم على كرمهم واستقبالهم، ونزلنا من البيت الذي نمنا فيه ومشينا قليلاً فوصلنا إلى «عين الباردة» وهي شهيرة في تلك المنطقة وتتألف من نبع ماء يسيل من الجبل وفوقها صخرة كبيرة وحول النبع بعض الصخور الكبيرة المتناثرة وهذه العين مليئة بذكريات آبائنا وأجدادنا، وسرنا من العين بعد أن ملأنا بطوننا من مائها العذب ومررنا بالبقعة وهي منطقة جرداء على الجبل يعرف بها القادم إلى بحوي من مسافة بعيدة، ووصلنا إلى «عين الدلبة» وهي عين من أجمل وأنقى ما خلق الله، تقع على الطريق بين أشجار ظليلة وشيجة ومن هناك وصلنا إلى «مازوغا» وهي القرية التي دفن فيها جدنا القديم «قبلان» وقد مررنا بالقبر وقرأنا الفاتحة على روحه واستقبلنا فيها أصدقاء من آل السيّد وآل السامح، ومنها سرنا إلى النهر فجلسنا قليلاً ثم أخذنا بالصعود في مكان يسمى «وادي الخنازير»، ويظهر أنهم كانوا يصطادون هذا الحيوان في تلك المنطقة وكان الطريق متعباً شاقاً، ووصلنا أخيراً إلى نهاية الجبل فجلسنا تحت شجرة خرنوب كبيرة يسمونها «خرنوبة الهواء» لأن الهواء يأتيها فعلاً من جميع الجهات لموقعها المشرف المرتفع، وهي المكان الذي عاد إلى الحياة فيه جدنا قبلان، كما أسلفنا في حديث سابق من هذه الذكريات. ثم مشينا قليلاً فوصلنا إلى حرجة صغيرة فيها أشجار عالية من السنديان والمكان يسمى «شجرات النبي عزير» ولا يعلم أحد من أين جاء هذا الاسم الغريب، ولقد وجدنا أقرباءنا بانتظارنا هناك وعلى رأسهم عميد العائلة الشيخ محيي الدين الأحمد وهو ابن الشيخ أحمد الذي مرت بك سيرته حين الحديث عن الدين الجديد، وهو وارث أبيه في المقام الديني ومعه أبناء عمه وأكبرهم إبراهيم وعبدالله وهما ابنا عمتي شقيقة والدي لأمه وأبيه وهي أصغر منه بسنتين وأشبه الناس به شكلاً وصوتاً وهيئة. وصلنا إلى بيت كبير حوله أرض جرداء وهو مؤلف من منزول خارجي ثم دار كبيرة داخلية فيها عدد من الغرف الكبيرة قد وزعت بين عائلات القرية وهم كلهم في الحقيقة عائلة واحدة، ولم نكد نجلس حتى قام أخي ودعاني معه فدخلنا لنرى عمتي شقيقة والدي التي لا نعرفها والتي لم تأت إلى سلمية مطلقاً إلا بعد أن توفي والدي بسنوات. فكانت امرأة طوالاً من النساء خضراء العينين جهيرة الصوت أشبه بصوت الرجال، وقد جلسنا وإياها مدة من الزمن ثم خرجنا إلى التلامذة، وفي عقر زيتي هذه وجدنا استعداداً تاماً لاستقبال الضيوف من طعام وسرر وفرش فمكثنا فيها يومين اثنين كانا من أحلى الأيام بل كانا أحلى أيام الرحلة كلها، وهنا تبدأ القصة التي أشرت إليها في أول هذه الفقرة من الحديث.

كان في البيت عدد من النسوة اللاتي يلوح عليهن الغنى، والقرية كما لا يخفى هي مسقط رأس الشيخ أحمد الذي يعتبر مقدساً عند الفئة التي آمنت بدعوته، وفي جملة النسوة كانت فتاة في حوالي الثلاثين من العمر شقراء ذات وجه أبيض مشرب بالحمرة وذات عينين سوداوين واسعتين تشعان سحراً وتأثيراً، وكانت وسطاً في كل شيء في طولها وصحتها، كما كان صوتها ذا رنة أخاذة، وكنت قد سمعت بذكرها فيما مضى وأنها كانت مخطوبة لأحد أقربائها ولكنها رفضت الزواج منه، وحين وصلنا إلى عقر زيتي كان الرجل ما يزال يحاول الوصول إلى بغيته من الاقتران بها ولكنه لم ينجح وأصيب المسكين بحادث سيارة مات على أثره بعد أشهر. وقيل بعد ذلك أنها شبه مخطوبة لأحد أبناء عمي، ولكن هذا لم يتحقق أيضاً فإن ابن عمها الشيخ لم يوافق على هذا الزواج، وحين نظرت إليها أحسست بشيء يقربني منها، كما أحست هي بالعطف عليّ وقد كان عمري في الخامسة عشرة والفرق بيني وبينها كبير يقرب الاثنتي عشرة سنة، فكنت في تلك اللحظات أشبه بما قلته من شعر فيما بعد:

نظرت فارتمى بقلبي سهم   ورنت فالوجود عندي وهم

وأخذت أجد نفسي منساقاً وراءها أحب محادثتها والمزاح معها وكانت تتقبل ذلك كله بضحكة رائعة ورضى غامر يلوح على وجهها. لقد مكثنا يومين في ديارهم فكانا أشبه بلحنين طويلين، وذهبت لأمشي مع التلامذة إلى طرطوس وكأني اقتلعت من تلك القرية اقتلاعاً وظللت أمشي وأتلفت إلى الوراء وهي واقفة مع أهلها تودعنا إلى ان انحدرنا في وادٍ سحيق وصلنا منه إلى النهر ومن هناك مررنا بقرى عديدة حتى وصلنا إلى طرطوس.

كانت طرطوس يومها أشبه بمستعمرة إفرنسية، فكان فيها مستشار فرنسي هو كل شيء وكان فيها متصرف أعطي هذه الرتبة لأنه كان محترماً عند الفرنسيين وكان اسمه «شبلي حمادة»، كان رجلاً مهاباً جميل الهيئة ومن عائلة درزية وجيهة، وقد ظل في عمله هذا سنوات طويلة إلى ان اختلف مع أحد المستشارين واسمه «جرنياس» فسعى بنقله إلى الجزيرة، وفي الجزيرة تعرّض هذا المستشار لحادث قُتِل فيه، وحين جرى له احتفال في حلب لم يشأ شبلي بك أن يحضر الاحتفال الأمر الذي غيظ له الفرنسيون فسرحوا شبلي بك من عمله وأعيدت طرطوس قائمقامية كبقية مدن محافظة اللاذقية بعد ان كانت محافظة. حين وصلنا إلى طرطوس ذهبت مع أخي وقابلنا شبلي بك فرحب بنا كثيراً إذ كان يعرف أهلنا كلهم، كما قابلنا الشيخ عبدالله المرتضى الذي كان خطيباً للفتاة التي أشرت إليها سابقاً وقد كان كريماً حقاً، فلقد دعانا إلى الغداء ولم يقبل اعتذارنا وكان كثير الكلام في حديثه ويتحدث بلغة هي بين العامية والفصحى، وكان إسماعيلياً متطرّفاً وهو قريب جداً ومن نفس عائلة الشيخ أحمد صاحب الدعوة الجديدة، وقد ألف هذا الشيخ كتاباً أسماه «الفلك الدوّار في سماء الأئمة الأطهار» فكان كتاباً عجيباً لا أول له ولا آخر ولا يفهمه إلا الراسخون في العلم فكأنه ديوان شعر حديث، كما ألف كتاباً آخر سماه: «البرزخ» نحا فيه نفس المنحى، ولم أعد أرى أثراً لهذين الكتابين العجيبين. وانتقلنا في اليوم نفسه إلى بلدة صافيتا المعروفة فنمنا فيها ليلة وصعدنا إلى برجها لنطّلع على ما فيه من آثار، وهو برج من صنع الصليبيين كما أعتقد وقد اصبح اليوم كنيسة، ونمنا ليلتها عند امرأة لديها بيت واسع كانت تكري فيه الغرف وكان اسمها أم كاسر. ولقد قضينا تلك الليلة وفي الصباح أتتنا السيارات لتعيدنا إلى مصياف المكان الذي تركناه في بدء رحلتنا، وفي عودتنا مررنا على «مشتى الحلو» القرية المعروفة فاطلعنا على صناعة الحرير التي اشتهرت بها هذه القرية، والمخانق «جمع المخنق» الذي يربّى به القز وتناولنا غداءنا على مكان يسمى «المخاضة» قرب نبع جميل رائع اسمه «نبع الشيخ حسن»، وكان غداؤنا من السردين والبيض المسلوق والزيتون، وما أذكر أني تغديت خيراً من هذا الغداء في حياتي. لأن الطبيعة كانت تغري بالأكل وتبعث فينا الشهية قوية عارمة. ولقد مررنا في طريقنا بمنطقة خطيرة أشهرها «أكواع الملوعة»، ولكن سائقنا وأصله أرمني يسمى أندراووس كان فناناً في قيادته فوصلنا إلى مصياف آمنين بحمد الله، ومن مصياف عرّجنا على الشيخ السيّد لنودّعه وسرنا عائدين إلى المدرسة الزراعية بعد خمسة أو ستة أيام من التجوال.

لم انسَ ذكرى تلك الفتاة، ولم يخطر على بالي فارق السن بيني وبينها وأنها ما تزال مخطوبة، ولكني لم أفاتحها بشيء وظللت صامتاً ألعق جرحي كما يقولون، قررت بيني وبين نفسي أن أعود إلى تلك الديار لأراها مهما كلفني الأمر. وفي المدرسة هيأنا أنفسنا للفحص الذي سأنتقل به إلى الصف الرابع وهو الصف المنتهى. وبالفعل لقد انتهيت من هذه المدرسة بعد أربع سنوات طوال من الدرس المضني، وأشهد أني أخذت فائدة جُلّى، فقد كنا نعيش في البرية فلا يعكر هواءنا معكر وكنا نأكل الغذاء النظيف وكله من صنع المدرسة التي كانت تطعمنا أحياناً من محصولاتها، وكان الطباخ فيها رجل اسمه: نعسان أبو اسكندر، كان حموي الأصل مدمناً على الشراب جميل الصوت ولكنه كان ذا نَفَس عجيب في صنع الطعام وخاصة تلك الفطائر الحموية بالقشدة، لقد كانت أعجب شيء في تلك المدرسة. وعدت إلى البيت أفكر في كيفية الرجوع إلى الجبل وكانت العقبة الكؤود أخي الكبير، لقد أصرّ أن لا يتراجع عن رأيه في أنه لن يسمح لي بالسفر وكأنه أدرك أنني أعجبت بالفتاة، فقد كان ذكياً بالغ الذكاء وكان من العباقرة لولا عصبيته التي لا تحد. وأخذت أبحث الموضوع فأقنعت ابن عمي مصطفى بمرافقتي وقد كان موظفاً

يتقاضى راتباً يوفر منه بعض المال، فقدّرت أن وجوده يعينني في المرافقة وفي الإنفاق على الرحلة إذ لم تكن هناك كلفة بيني وبينه بسبب الصداقة المتينة التي تربطنا ببعض، ووافق ابن عمي على السفر ولكن أخي ظل مصرّاً ولجأت إلى طريقة الإملال والإضجار، فأخذت أبحث معه في السفر كل يوم وهو يثور ويغضب إلى أن أحضرت عمي إليه ولما حاول إقناعه رضي بأن يسمح لي وكانت فرصة لا توصف.

بعد يومين ركبت أنا وابن عمي وأخي يحرّق الأرّم حنقاً وغضباً مني وسرنا بالسيارة إلى حماه فتناولنا شيئاً من الطعام ثم أكملنا طريقنا إلى مصياف، وفي مصياف عرجنا على صديقنا القديم الحاج حمدو السيد الذي أنزلنا في داره تلك الليلة، وقد استأجر لنا دابتين نركبهما إلى منطقة الخوابي، وفي الصباح الباكر أعطانا شيئاً من الطعام وودعنا وسرنا على بركة الله في نفس الطريق الذي سرنا فيه أول مرة.

وصلنا إلى قريتنا التي لم تكن غايتي في الرحلة وصعدت أنا وابن عمي إلى البيت القديم الذي وصفته لك آنفاً ورحت أنتظر ان يصلني خبر من القرية التي فيها الفتاة، وكنت أقف على الصيوان العالي فأنظر إلى «البقعة» المكان الذي يرى منه القادم إلى بحوي، وكلما مر إنسان اضطرب فكري وظللت هكذا أياماً حتى جاء النبأ الصحيح، ففي صباح اليوم الثالث رأيت دابتين تسيران ومعهما رجل واحد ورأيت ابن عمتي المختار وكان معنا يشير إليهما وهو يقول أنهم المشايخ، لقد أرسلوا إلي لكي نذهب إلى عقر زيتي، وملئت فرحاً بالخبر السار، ففي عقر زيتي الطعام الشهي والحديث الطلي والحب الذي يلوح في العيون من الجميع والدعوات التي تأتي من كل بيت في القرية، وسرعان ما ركبنا الدواب أنا وابن عمي ووصلنا إلى قرية المشايخ بين الترحيب والتأهيل، وحين وصلنا أصبحت كأني واحد من اهل البيت، بينما كان ابن عمي منكفئاً على نفسه، يجلس في المنزول فلا يتحرك ولا يدخل على العائلة إلا إذا اجبر على ذلك، وقد وجده أهل ذلك البيت غريب الأطوار قد مليء خجلاً ويحسب لكل شيء حساباً، بينما كنت أنا كالعصفور النشيط من بيت إلى بيت أمازح هذا وأضاحك ذاك وكانت اكثر أحاديثي مع الفتاة التي تجشمت ما تجشمت من أجلها. ولقد مكثت أربعة أو خمسة أيام كان ابن عمي في بحوّي خلالها يلح عليّ بالعودة وكأنه لا يعرف ما بقلبي من دواعي البقاء هناك، وعدنا إلى «بحوي» وكأني عدت إلى السجن فبحوي قرية فقيرة وأقربائي كلهم فقراء، ولكنا كنا أنا وابن عمي ننفق إذ كان معنا من المال ما يكفي للإنفاق ولم يقصر الجماعة في إكرامنا لكنه كان إكراماً متناسباً مع وضعهم المعاشي والاقتصادي.

في هذه الفترة وقع لي ما لم أكن أتوقع وكان سوء حظي عاملاً كبيراً فيما وقع. لقد خرجت أنا وابن عمي إلى مكان يسمى عين البندقة وهي عين لا بأس بها تظللها شجرة كبيرة من التين، وحين وصلنا رأينا بعد قليل فتاة رائعة الجمال لفتت نظري حين لمحتها منذ أيام عند بيت المختار، ووجدتها جاءت إلى العين حيث كنا جالسين أنا وابن عمي ومعها جرّتها، وقد وضعت الجرة ولم تملأها وأخذت تتحدث مع ابن عمي حديثاً عادياً لم يلفت نظري، وقد علمت بعد أيام طويلة أن هذا اللقاء كان موعداً بين ابن عمي والفتاة، وملأت الفتاة جرّتها بعد أن جلست قرابة الساعة وعادت، ودعاني ابن عمي لنأكل شيئاً من التين المشهور المعروف في تلك الشجرة وهو من التين «الأحمر» المسمى «حمراني» وأقنعني ابن عمي أن أصعد إلى الشجرة فأقطف منها التين وألقي له به حتى يضعه في الماء ليبترد، وهكذا فعلت ولكن التين لم يكن كله ناضجاً فرحت أنتقي الناضج منه وأرمي له به وأنا مطمئن إلى ما يصنع، ولكني التفت بعدما تعبت لأرى ابن عمي قد أكل كل التين دون أن يترك واحدة منه فجن جنوني وكان بيدي بعض التين فرميته به وعدنا إلى الشجرة آكل من ذلك التين غير الناضج نكاية بابن عمي إلى أن امتلأت منه ونزلت، ثم مشينا إلى القرية، لكني لم أصل إليها إلا وأنا في حال يرثى لها من التعب والعرق وارتفاع الحرارة الشديدة التي لا عهد لي بمثلها أبداً.

اضطجعت في فراشي ورحت في سكرة من المرض العجيب وظللت نائماً إلى اليوم الثاني، وفي اليوم الثاني دخل عليّ ابن عمي فملىء رعباً وسألني لماذا أنا أصفر اللون وبخاصة عيناي؟ فقلت له: لا أدري، وكانت معه مرآة للحلاقة فنظرت في وجهي وكدت لا أعرف نفسي، كانت الإصابة بملاريا خبيثة عرفت

اسمها فيما بعد وقد سببت لي نوعاً من اليرقان فانصبت الصفراء في الدم فكان هذا اللون الأصفر الخطر، وعلمت في اليوم الثاني أن ابن عمي المختار قد وقع في المرض نفسه، وحار ابن عمي فيما يفعل وأخذنا نفتش عن دواء فلا نجد في تلك المنطقة المنعزلة عن العالم، وخطر ببالي أخي وشماتته التي كانت صحيحة؛ فقد ذكرني بها حين قدم إليّ ليصحبني إلى سلمية. ولقد حاولنا أن نحضر طبيباً فلم نهتد، وهكذا بقيت أياماً بين الموت والحياة إلى أن سمعت بأن عمتي المسكينة قد قدمت من عقر زيتي لتمريضي وللعناية بي وقد ظلت ـ رحمها الله ـ عندي عشرين يوماً، وبعد انتظار وأخذٍ ورد وسؤال وجواب اهتدينا إلى طبيب قد أنجز دراسته الطبية حديثاً في جامعة اليسوعيين ببيروتً واسمه الدكتور مدحت عرنوق وهو من أهالي قرية «متن عرنوق» ومن العائلة العرنوقية المعروفة هناك. في ذلك المساء سمعت أصواتاً وعلمت أن الدكتور قد جاء ومعه ابن عمه يرافقه وصعد إلى غرفتي وأعطاني إبرة في فخذي ودواءً آخر أعطاه لي غير هذا، ولكني أفقت في اليوم الثاني، فإذا بالحرارة قد هبطت من الأربعين إلى الثمانية والثلاثين، وفي اليوم الثاني أعطاني إبرة ثانية كما أذكر وأوصاني ببعض الوصايا وتركني ورجع إلى قريته. كان هذا الدكتور جميل الهيئة أنيقاً قد ارتدى بزة كحلية أنيقة وكانت حكمته في محلها فكان فيها الشفاء التام، ولكني قمت بعد يومين لأمشي فوجدت نفسي أقع بعد أن وقفت فإن رجلي التي تلقت الإبرة لم تحملني وكأنها فقدت حساسيتها، وقيل لي إن الإبرة أصابت أحد العروق في الفخذ فسببت ذلك، وقد ظللت أعرج أكثر من شهرين بسبب هذه الإبرة الملعونة التي كان فيها الشفاء.

ولا بد أن نتساءل هنا؟ ما الذي حدث في سلمية بعد أن تسامع الناس بمرضي الخطر، لا سيما وأن أبي وأخي قد ماتا منذ شهور؟ لقد قامت قيامة والدتي المسكينة حين سمعت بمرضي، فقد فقدت زوجها وابنها الذي هو أكبر مني بسنتين منذ شهور وجاءت إلى أخي ترجوه أن يذهب إلى بحوي لإحضاري وكان موقف أخي فظيعاً، فقد أبى أن يستجيب لها وقال: أنت التي ساعدته على السفر وأنا حاسب هذا الحساب وقد حذرتك!؟ ولكن أخي هذا كما قلت مراراً كان يثور ثم يعود بعد قليل عن ثورته ليرضي وهكذا وافقها على السفر، وبالفعل فقد جاء إلى طرطوس ووصل إلى بحوي وحين رآني في الحالة التي أنا فيها عاتبني عتاباً شديداً وأنبني تأنيباً اضطررت معه إلى السكوت، ورآني أمشي مع شيء من العرج فسألني عن ذلك وشرحت له الأمر ولكني كنت قد شفيت تماماً، ومكثنا أياماً في بحوي ثم انتقلنا إلى «عقر زيتي» وهناك رأيت التي جئت من أجلها وكأني أراها لأول مرة، وأخذت تعتني بي في طعامي وشرابي دون أن تعلم ما في ضميري لأنه لم يخطر على بالها ولا على بال أحد أنني مدلّه بحبها بالنظر لفارق السن الكبير بيني وبينها؟ كانت تحضر لي العنب الممتاز بنفسها وتشوي لي الكلاوي وبيض الغنم وقوانص الدجاج وكان أخي يمنعني من الأكل من أجل الحمية التي فرضها الطبيب عليّ، كان هذا العطف منها سبب بلائي بهذا الحب الذي لا أمل منه يرجى، إنه حب عجيب ولم أسمع من قبل حباً بلا أمل كهذا الذي منيت به، وحان يوم الفراق وهي تعاملني معاملة طفل أصغر منها بكثير وهذا العطف كان يثير النار في صدري، وجاءت ساعة الفراق فمشيت بين خوف من أخي والحزن لفراق هذه الفتاة المسكينة التي قضي عليها أن تعيش بلا زواج كل حياتها مع أنها كانت أجمل فتاة في تلك الديار.

وصلنا إلى طرطوس ولم نبق فيها طويلاً فأكملنا طريقنا إلى طرابلس، وفي طرابلس كان لأخي رفاق وأصدقاء من أيام المدرسة الزراعية يوم فتحت لأول مرة، ومن هؤلاء الأصدقاء واحد يسمى: علي اليمق وآخر اسمه عبدالستار السندروسي، وقد رحّبا بأخي ترحيباً كثيراً ودعينا إلى مكان خارج البلدة اسمه «أبو سمرة» فيه عشش صغيرة للمصطافين، لقد أخرج العشاء إلى عشة أخي عبدالستار السندروسي وكان عشاء لذيذاً؛ وأهل طرابلس مشهورون بالطعام وصنعه وخاصة الحلويات وقد بقينا يومين عدنا بعدها إلى سلمية.

١٦ عوْد إلى حمص

في المدرسة الإنجيلية أخذت ادرس قليلاً وكانت السنة ١٩٢٨ والثورة السورية ما تزال لها بقايا في حمص، وقد قتل أحد الثوار قريباً من مدرستنا إذ داهمه العسكر الفرنسيون في بيته ومعه صديقة له كما يروى، واسمه محمد الدريبي وكان شاباً شجاعاً، وقد شاهدنا محاصرة العسكر له من أعلى المدرسة في حي باب السباع، وقد قتل الرجل في غرفته بعد أن هُدمت الغرفة عليه وكان يصيح بالعسكر مخاطباً صديقته:

يا حلوة يالي بالبيت   رشيني ان كنت دليت

«رشيني: يعني اشتميني، ودليت: يعني خفت».

كانت المدرسة خليطاً من بلدان متعددة وخاصة من جهة وادي النصارى أي مرمريتا ومنطقتها، وكان الطلاب أحراراً في لباسهم فمنهم من يلبس العربي ومنهم من يلبس الفرنجي، والدراسة على الطريقة الأميركية ـ فلا توجد مقاعد وأدراج كما في مدارس الحكومة وإنما الصف عبارة عن مقاعد طويلة تسند إلى الجدار يجلس عليها الطلاب وأمامهم المعلم يلقي الدرس.

لم تمض إلا فترة بسيطة حتى صرت معروفاً في المدرسة أنني أديب وأنني أستطيع نظم الشعر، وبالفعل أخذت بالنظم ورحت أرسل أحياناً أبياتاً إلى ابن عمي مصطفى الذي كان معلماً في قرية تلدرة قرب سلمية، وحدث حادث جلب لي بعض الشهرة.

قلت انفاً إن الثورة لم تكن قد انتهت في سوريا وأرادت الحكومة الفرنسية أن تنهي الموضوع مع سوريا بالاتفاق على رجل يستطيع أن يكون وسيطاً لحل المشكلة، فاختارت رئيساً للدولة الشيخ تاج الدين الحسني. والشيخ تاج رجل معمّم كان قاضياً لدمشق كما كان تلميذاً عند والده الشهير الشيخ بدر الدين الحسني العالم الشهير بعلم الحديث، والذي دعا محل تدريسه «بدار الحديث» المعروفة في دمشق، واستغرب الناس أن يلجأ الفرنسيون إلى استغلال نفوذ الشيخ بدر الدين الديني لتعيين ابنه، وقد قدمت لهذا التعيين بمقدمة كانت مستغربة أيضاً، فقد قام الشيخ بدر الدين قبل تعيين ابنه برحلة دينية في بلدان القطر السوري، وكان يرافقه في رحلته تلميذاه المفضلان الشيخ علي الدقر والشيخ هاشم الخطيب، وبعد مدة من هذه الرحلة عين الشيخ تاج الدين رئيساً للجمهورية، وقد وصف هذا التعيين صديقي شاعر الصعاليك، كما كان يسمى، السيد فائز سلامة فقال:

أتاج الدين ما هذي السياسة   أمن دار الحديث إلى الرئاسة

بسيم مراد أصبح عبقرياً   وفوزي أمين من أهل الكياسة

وبسيم وفوزي هذان كانا صحفيين يعملان في السياسة المحلية أكثر مما يعملان في الصحافة، كانت لفوزي أمين صحيفة «النظام» وكان بسيم يشتغل عند أصحاب الصحف غالباً.

كان فائز سلامة شاعراً من نوع خاص ينظم الحوادث السياسية بكلمات بين العامية والفصحى ويضيف إليها نكتاً مستملحة خفيفة على القارىء، وهو لبناني الأصل ماروني المذهب ولكنه في دمشق كان معروفاً بالانتقال من مذهب إلى مذهب ومن دين إلى دين، ومن هنا جاءته الصعلكة وكان يعيش مما يعطى من أموال الشخصيات السياسية والصحافة ومن بعض دوائر الدولة، فكان ينظم الكراريس ويبيعها غصباً، ولكنه كان خفيف الظل فكانت طريقته هذه مقبولة من الناس، وكنت تراه فتهابه لهيئته وجدّيته حتى إذا تحدث إليك مُلِئت ضحكاً بما يرويه من نكاتٍ وبما يجود لسانه من شتائم ومسبات. ومات المسكين في عز شبابه بعد أن عاد إلى لبنان. كان جريئاً حتى أنه تربّص للسيد بهيج الخطيب وكان معاوناً لوزير الداخلية فضربه بعصاه على مرأى من الناس ولم يخش عقوبةً أو جزاءً.

ورأى الجانب الفرنسي أن يـزور الشيخ تـاج رئيس الجمهوريـة مدينـة حمص التي كانت معقـلاً من معاقل الثوار، وجاءني المدير يقول لي: أريد منك أن تلقي أبياتاً في استقبال الشيخ، وفرحت لهـذا التكليف ولكني خفت، فأنا لم أكن قد تمرّست بالشعر السياسـي خاصة، إلا قليلاً، وشجعني المـدير ونظمت أبيـاتاً أعاد النظر فيها وأضاف إليها بيتاً أو بيتين، وجاء الشيخ تاج فاستقبلته بالأبيات عـلى سلم دار الحكومـة القديمة ولا أذكر شيئاً من الأبيـات الآن ولكني أذكر أنهـا كانت في مـوضوع جـاء من أجل الإفـراج عن السجناء لسبب الثورة وأن تحل الأزمة بين سورية وفرنسا. وأذكر أن خطيباً آخر كان قد ألقى أبيـاتاً لـه بنفس الموضوع وهو الشاعر رضى صافي، وقد كان شاعراً معـروفاً في تلـك الفترة بينمـا كنت أنا مـا أزال مجهولاً، ولكن قصيدته كان لها دوي فقد أشارت إلى موضوع الخلاف الفرنسي ـ السوري، بطـريقة لبقـة شاعرية وقد جاء في هذه القصيدة:

إنّـا جنـودك مـا عملـت لخـيرنـا ... فـإذا انحـرفـت فكلنـا أخصـام
ابـن الـوليـد تـرنحـت أعطـافـه ... وفتـى أميـة سره الإقـدام

في اليوم الثاني تذكرت الشاعر رضى صافي، وكان اليوم عطلة، وهو يوم الأحد، فنزلت إلى البلدة وكنت قد تعرفت على المكتبة العربية لصاحبها: عبدالسلام السباعي وكنت قد كتبت أبياتاً وجهتها للشاعر وفيها هذا البيت الذي بقي في ذاكرتي من الأبيات كلها وهو:

ويـا رضى أنـت مـن أرضـاه في حمص ... والقلب مأواك فاسكن أوضع الرتـب

ومن الغريب أن رضى الذي توفي إلى رحمة الله منذ سنتين قد بقي هذا البيت في ذاكرته، وحين زرتـه في البيت ذكرني به ولم أكن أستطيع التحدث إليه إلا عن طريق الكتـابة لـذهاب سمعـه بتاتـاً. كان رضى صافي شاعراً موهـوباً وهـو أول الشباب في الناحية الشعـرية بحمص ولكنّ إصـابته بـالصمم قطعت عليه الطريق فنظم قليلاً، وكان مجيداً فيما نظم وصاحب موهبة فنية، كما كـان طريفـاً وفقيراً فقـد عاش عنـد خاله الذي رباه بسبب وفاة والده ووالدته وهو بعد صغير. لقد نجـح بشهادة البكـالوريـا؛ ويوم تجمعنـا وأردنـا الذهـاب إلى دمشق لإكمال الـدراسة واضطـر هو إلى طلب وظيفـة في التعليم، فلم يكن يستطيـع الإنفـاق على نفسـه في دمشق وعين معلمـاً في قريـة جب الجراح التـابعة لحمص، ونظـر إلينا ونحن نهمّ بالسفر وهو يودّعنا فقال:

سـارت مـدمشقـة وسرت مجبرحـاً ... شتـان بـين مـدمشـق ومجبـرح

ومجبرح هذه مأخوذة من «جب الجراح» كما لا يخفى، والبيت كله مأخوذ من بيت قديم هو:

سـارت مشرقـة وسرت مـغـربـاً ... شتـان بـين مشرّق ومـغـرّب

وكانت نكتة لطيفة حفظناها لرضى رحمه الله.

في المدرسة الإنكليزية كان لي رفاق من سلمية وغيرها، وكان أبرز طلابها هم طلاب بلـدة يبرود، فقـد كان منهم المجيد للإنكليزية وللإفرنسية وكان منهم **النابغون** في الرياضيات مثل: ناصر الدين حدة.

سمعنا ونحن في المدرسة أن مغنياً شاباً موهوب الصوت قد جـاء إلى حمص ليغني فيها وكنت مـولعاً بالغناء وتقليد المغنين المعروفين في تلك الفترة. وقد رافقتني هذه المزية إلى اليوم، فالغناء عندي كالطعام لا يُستغنى عنه. وكان لي صاحب من التلامـذة الحمصيين ومن عـائلة الأخـرس المعروفـة لدي وكـان اسمه زهري وهو شقيق صديقي الذي سأتعرف عليه قريباً والذي ما زال حياً إلى الآن. اتفقت مع صديقي هذا على أن نستغفل الحـارس بعد المغـرب وأن نخرج من المـدرسة لنسمـع هذا المغني وكـان اسمه «محمـد بخيت»، وكـان سيغني بمقهى اسمه مقهى الجنينـة وهو مقهى بسيط في حي «ضهـر المغـارة» أو «سـوق الحشيش» لا أذكر، ووصلنا إلى المقهى ودخلنا ننتظر قدوم المغني، وبعد قليل صعد إلى المسرح عازف عود حلبي كان اسمه أمين الحلاق، ومعه عازف كنا نسمع به وهو من القصـار جداً أي الأقـزام، وكان عـازفاً على الطنبور واسمه محمد عبدالكريم وهو من مواليد حمص ومن عشيرة «القرباط» الجوالة «النور»، وكان عازفاً لا يجارى لكنه كان فقيراً، فكان يعزف للمارة في الطريق وأمام الدكـاكين ويتقـاضى عن ذلك قـروشاً لافتاً نظر الناس بقدرته الموسيقية وبشكله العجيب الذي لم يكن يتجاوز المتر طولاً.. ووصل المغني المنتظر

وكان طويلاً أسمر سمرة حلوة جميل الصورة أنيق المظهر وصعد إلى المسرح وأمسك بعوده، وقد غنى يومها دور سيد درويش الشهير «الحبيب للهجر مايل»، كما غنى قصيدة لشوقي هي: الله في الخلق من صبٍّ ومن عانٍ، وهذا البيت مطلع لقصيدة غنى عبدالوهاب منها أبياتاً بدأها بالبيت:

قلبٌ بوادي الحمى خلفته رمقاً ... ماذا صنعت به يا ظبية البان

وهي من شعر شوقي القديم، كما غنى قصيدة للشريف الرضي منها هذا البيت المشهور:

سفينة الصبر في بحر الدموع رست ... فقال طرفي باسم الله مجراك

وقد أعجب الحمصيون بهذا المغني وخاصة بعد أن قرأ القرآن يوم الجمعة في الجامع الكبير فأجاد في قراءته وأحكام تجويده مما أدهش الناس، ولا بدع فالبخيت من عائلة دينية معروفة ومنهم أحد مشايخ الأزهر الشهيرين. وفي تلك الفترة بالذات ظهر محمد عبدالوهاب بصوته الرائع وأغانيه الشجية القديمة التي ما تزال إلى اليوم موضع الإعجاب والتطريب، ومنها أغنية: منك يا هاجر دائي، وقلب بوادي الحمى، وهما من شعر شوقي وموال: النبي حبيبك، الذي كان شيئاً جديداً بالنسبة لما سبقه في نغمة «الراست»، وذهب محمد البخيت إلى مصر ولم نسمع عنه شيئاً بعد ذلك، ولم تردنا من غنائه إلى سوريا إلا أسطوانة واحدة سجل فيها موالاً يقول فيه: يا عيني صبرك على جور الزمان وأساه، ولا ندري كيف اختفى هذا الفنان الموهوب، وقد علمنا بعد سنين أنه اختير رئيساً لنقابة الموسيقيين ثم أنه عين مشرفاً على إحدى دور السينما ليتقاضى خمسين جنيهاً فقط. ومن الذكريات أنني حين اجتمعت إلى محمد عبدالوهاب في باريس منذ سنين قليلة سألته عن هذا المغني وقلت له إنه فنان، ولكن عبدالوهاب أنكر علي هذا الوصف للبخيت وقال لي بالحرف الواحد: «ولا فنان ولا حاجة»، ولم آخذ برأي عبدالوهاب طبعاً فأنا أعرف كيف أسمع وأطرب وعبدالوهاب له براعته التي تجعله ينكر المطربين جميعاً إذا أراد وكل له رأيه.

صديق العمر

حفظت اسمه لأول مرة خطأ فكنت أذكره باسم «سميح الفاخوري» ولكن هذا الاسم صحح لي وأبدل بالاسم الحقيقي: رفيق الفاخوري، وسميح هو اسم شقيقه الأصغر المهندس المعروف، وكان سبب سماعي باسمه صديقي القديم عبدالحكيم الملوحي ـ رحمه الله ـ فقد قرأ لرفيق قصيدة نشرت في إحدى الجرائد الدمشقية يقول في مطلعها:

ما اخترت غير دياركم من دار سيّان في حلّي وفي تسياري

وقد أعجبت بالأبيات وأخذت أتحيّن الفرص لأرى هذا الشاعر الجديد الذي بدأ الناس يتحدثون عنه مادحين ومثنين، وخرجت يوم الأحد من المدرسة كالعادة وذهبت إلى المكتبة العربية محط رحالنا وموئلنا خلال إقامتي في حمص ولعشرات السنين، سألت عنه فقيل لقد خرج هو وأصحابه يتمشون ويتنزهون عند سكة الحديد، هذه السكة التي كانت حد البلدة الغربي وما بعدها كانت البساتين، فمشيت إلى هناك لأرى رفيقاً ومعه اثنان أو ثلاثة من أصحابه لا أذكر أسماءهم اليوم، وسمعته قبل أن أصل إليه يغني أغنية قديمة لعبدالوهاب وكانت يومئذ جديدة مشهورة وهي: يا حبيبي أنت كل المراد، لست أرجو منك إلا الوداد. وقد أعجبت بصوته الذي كان من الأصوات المليئة وفيها بعض الشجن والطرب ولا أذكر اليوم كيف تم التعارف، ولكنا سرعان ما أخذنا نتحدث بالغناء والشعر وكأننا متعارفان من زمن بعيد.

هذا هو صديق العمر الذي قضيت وإياه منذ عام ١٩٢٨ إلى عام ١٩٧٥ أي قرابة ستين عاماً لم نفترق خلالها إلا لأسباب الوظيفة أو السفر البعيد، فكان مرجعي في حياتي ببلدة حمص وكنت آتي حمص من اجله لأراه وكان هو يأتي إلى دمشق ليراني. ولقد كنت وإياه كأننا شخص واحد في الميل الأدبي والغناء والمزاح وحب العزلة والزهد بالمال والحياة، ولذلك كنت صديقه المفضل كما كان لي، ولهذا كثيراً ما كنا نهرب حتى من أصحابنا الدائمين لأخلو به ويخلو بي لنتحدث إما في السماع إلى اسطوانة جديدة لعبدالوهاب أو لسيد درويش أو لأبي العلا محمد أو لغير هؤلاء، وكثيراً ما كنا نقصد إلى المقاهي البعيدة التي لا تخطر على بال أحد لنتحدث فلا يعكر صفونا أحد، ورغماً من هذا كله فقد كانت بيني وبينه فروق كبيرة من حيث الطبيعة والعادات، فقد كان ـ رحمه الله ـ سوداوي المزاج لا يحب كثرة الأصحاب، وكان حريصاً على عمل ما تمليه عليه طباعه ولو كان ذلك مخالفاً لرأي غيره، ولكني أنا الوحيد الذي كنت اخالفه وأعانده فيتنازل لي عن طبعه مرغماً ويقول لي مازحاً: سأقدم لك ورقة تكتب فيها أنت ما يعجبك وما لا يعجبك حتى أسير عليها، ولكنا قضينا هذا العمر كله لم نتعاتب ولم نتقاطع ولم يتدخل في شأننا أحد إلى أن فجعني القدر بصحبته في عام ١٩٧٥ وبتاريخ ٣١ آب من ذلك العام في بلدة نائية من بلدان تركيا هي قونية التي كان يحبها ويحب موسيقاها، لقد ذهب سائحاً وحيداً بعد أن نصحه الكثيرون ومن بينهم أنا، فقد مرّ بي قبل سفره ودعاني إلى مشاركته الرحلة ولكني كنت على أهبة السفر إلى باريس، وحين عودتي بتاريخ ٩ أيلول ١٩٧٥ سمعت بالنبأ الفاجع من أهل بيتي واتصلت بصديق الطرفين درّى الأخرس فأعلمني انه خرج من المطعم بعد أن تناول غداءه وأخذ يحسب ما دفع وما بقي لديه من دراهم، ويبدو أنه سها فنزل عن الرصيف إلى الشارع وجاءت الشاحنة القاتلة المسرعة فدهسته بشكل افقده الوعي فنقل إلى المشفى وتوفي بعد ساعات في بلد لا يعرف فيه أحداً ولا يعرف لغته. كان موت رفيق موتاً لماضيّ كله، لقد بكيته ورثيته بشعر في الحفل الذي أقيم لتأبينه وكدت أعجز عن الكلام أثناء قراءتي قصيدتي لاضطرابي وحزني الشديد، وقد كان مطلع قصيدتي:

سألوني رثاءه قلت مهلاً كيف أرثي من كان فيه بقائي

لقد أصبحت حمص غير حمص بعد رفيق، بل أصبحت الحياة قاتمة سوداء بعد هذا الصديق الذي قال لي قبل أن نفترق بشهرين وكنت أنا وهو في عشاء ضاحك في أحد مطاعم حمص، قال لي: إذا مت قبلي

يا أحمد فأنا سأموت في اليـوم الثاني. هـذه الكلمة التي أراهـا أمامي كـل يوم مـاثلة وكأنها شخص من الأحياء تذكرني برفيق وبأيامي الخالية معه. كان لا يشبه أحداً فكأنه خلق وحيداً في هذه الحيـاة، وعاش وحيداً في بيته، لم يفكر في الزواج ولا في النسل، لقد كان مخلوقاً ليعمل في الشعر واللغة والمـوسيقى وهذه الثلاثة هي حياته كلها، وخَلّف مكتبة ضخمـة أهديت إلى جـامعة البعث في حمص ذكـرى له ولأدبـه. كان جميل الخط أنيقاً في كل عمل يعمله، بل أنه لم يكن يعمل إلا إذا تأكد من إتقان ما يعمـل. كنت أرسل لـه القصائد فيقرؤها بإمعان وينقدها نقد الصيرفيّ الحـاذق غير خـائف مني ولا وجل، إذ كـان صريحاً معي، وهذا ما أفادني منه، وكنت أنظم بسرعة وكان هو ينظم متأنياً، وكنت آتي على المعـاني فتعجبه ولكنـه كان يرى الاستعجال ظاهراً على أسلوبي ونسجي فلا يعجبه ويصر على أن الديبـاجة هي الأسـاس في الشعر. ولكم كنت أداعبه فيضحك معجباً بمداعباتي رغم أنها كانت تحرجه أحياناً، فقد كان حريصاً على النظافة إلى أبعد الحدود، وكنا مرة في الكرم الذي كـان من عادتـه أن يلجأ إليـه في صيف حمص الجميل، ومـرة رأيت فراشه ممدوداً فنزعت عني ثيابي ونمت في فراشه وأخذت أتمرغ به، فجنّ جنونه وقام لتوّه فـأرسل الفراش مع ملحقاته إلى البلدة ليغسل كله ويعاد، وكـانت نكتة مـا زال الحمصيون يـرددونها إلى اليـوم. وكثيراً ما كنت أريد منعه من الطعـام فآخـذ ملعقته فـآكل بهـا فيقوم عن طعـامه ليغسـل الملعقة مـراراً وبالصابون حتى يستطيع استكمال طعامه، وكنت أداريه رغم مزاجه، فكنت أغسل يدي بـالصابـون كلما لمست حاجة وكان يسر بذلك، وكنت أتحدث لرفاقنا فأقـول لهم: لقد رأيت يـديَّ اليوم صغـيرتين من كثـرة الغسيل فكان يضحك ملء شدقه ـ رحمه الله. لا أستطيع أن أذكر كل شيء عن رفيق ولكن ذكره سيمرّ في هذه المذكرات مرات ومرات لأن حياتي كلها قضيتها معه.

من أبرز الأصدقاء الذين عاشرتهم في حمص صديق اسمه علي الأبرش، كان والده الحاج أنور موظفاً بسيطاً في الدولة، كان هذا الصديق يكبرني ويكبر رفيقاً بسنة أو سنتين فهو من مواليد ١٩٠٨ كما أقدّر. كان أبيض الوجه مائلاً إلى الاصفرار قليلاً، قصير القامة أميـل إلى الجد والحـديث الهادىء، وكـان أديباً متين اللغة يجيد العربية والفرنسية، وقد حصل على شهادته الثانوية من معهد اللاييك بدمشق، كما درس في غير هذا المعهد في المدارس الخاصة التي كانت تعنى باللغة الفرنسية والإنكليزيـة هاتيـك الأيام. تقـدم إلى البكالوريا معي فنجح ولم أنجـح لضعفي باللغـة الفرنسيـة مما اضطـرني إلى دخول مـدرسة الـروم بحمص لتقويتي بهذه اللغة الأجنبية، ثم دخل كلية الطب في جامعة اليسوعية في بيروت فتعثر في الـدراسة لأسباب صحية ومادية لم يكن يفصح عنها، وكان صاحب مـزاج كرفيق وكنت أنـا الذي أهـزأ بالأمـزجة والطباع واقضي النهار ضاحكاً مرحاً. فإن الأصدقاء المتفاهمين أكبر متعة في هذه الحيـاة، أما الأصـدقاء المتعبون فهم أسوأ نـاس على هـذه الأرض، وليس لهم دواء إلا الترك وإلى غـير رجعة. كـان ينظم الشعر الجيد ومن شعره مطلع هذا الموشح الجميل:

ليس تحلـو الكـأس إلا في يـديـك   فـارتشفـهـا واسقنـي مـن شفتيـك

وكان له رفيق يوم كان في مدرسة حمص الإنجيلية التي حدثتك عنها والتي دخلتها أنا فيما بعد، هذا الرفيق كان من نوابغ الشباب واسمه: شكيب عقيـل، من آل عقيل المعـروفين في بلـدة يبرود، وقـد افترق الرفيقان ودرس شكيب الطب حتى وصل إلى الصف المنتهي، وكان على أهبة استلام الشهادة يوم أن وقع له حادث فظيع ذهب بحياته وحياة ابن عم له اسمه عادل عقيل، كان أصغر منه بسنوات.

فقد كانت الانتخابات هاتيك تترك وراءها خصومات خطيرة وحزازات سيئـة وذلك مـا كان في يـبرود، وقد خرج الشابان شكيب وابن عمه عادل وهما على ظهر دابتين وكـانا ذاهبـين إلى قريـة لهما بعيـدة عن يبرود، ويبدو أن خصوم العائلـة رأوهما فكمنـوا لهما في الطـريق وأمسكوا بهمـا وانهالـوا عليهما ضربـاً بالحجارة الكبيرة والصخور إلى أن قتلوا الاثنين وتركوهما بالعراء وفروا. وعلم علي بالخبر فجن من الحزن على رفيقه وصديقه ورجاني في يوم الأربعين هو وابن عمـه أن أرافقه إلى يبـرود فأجبتـه إلى طلبه ونظمت قصيدة لهذا الغرض، كما نظم عـلي قصيدة مثلهـا وذهبنا لنرثي الفقيدين الشهيـدين، ونمنا ليلتهـا عند صديق لي هو السيد أحمد حيدر، وعدت أنا وعلي في اليوم الثاني والدموع لا تفارقه. بعـد مدة من الـزمن

انتقلت أنا إلى طرطوس لأدرس في مدرستها «اللاييك» مادة العربي ـ كما سأتحدث عن هذا بالتفصيل ـ وسافر علي إلى فرنسا ليكمل دراسة الطب في جامعة «بوردو»، وأخذنا نتراسل بين حين وآخر، وإذا برسالة تأتيني من رفيق ـ رحمه الله ـ تنبئني بأن علياً الأبرش قد مات مقتولاً. وأنه وجد في غرفته وقد بُقرت بطنه بموسى حلاقة، وصعقت للخبر فقد هالني أن يموت ميتة أشبه بميتة صديقه شكيب عقيل، وجزعت للنبأ الفظيع خاصة وأنا أعلم أنه الوحيد لأبيه أو هو على الأصح الوحيد لعائلة الأبرش(*)، فقد كان أملها وكان الأوحد ثقافة وعلماً ومستقبلاً مرجوّاً. وأسرعت إلى حمص أسأل عن جلية الأمر فأخبرت بالحقيقة الفظيعة، ولما أقيمت حفلة تأبين له كنت أنا ورفيق المتحدثين البارزين عن صديقنا الفقيد. وحين رجعت إلى طرطوس تذكرت عنوان علي وكتبت كتاباً باسم صاحبة البيت الفرنسية، وبعد أيام وردني جواب منها يفصل لي الخبر، وأن علياً لم يقتل ولكنه انتحر انتحاراً نتيجة صدمة نفسية لم أعرف كنهها وما زال موت هذا الصديق العزيز لغزاً، ولقد أرسلت لي صاحبة البيت صورته وثلاثة كتب من مختارات الشعر الفرنسي كان اشتراها من مكتبة السباعي بحمص، وكنت أود أن أسبقه لشرائها فسبقني، ومن مفارقات القدر أن هذه المختارات قد عادت إليّ بنفسها وعليها ترجمات لبعض الكلمات بخط علي ـ رحمه الله. أما الصديق الثالث فهو من أعاجيب المخلوقات إنه محيي الدين الدرويش، أو الدكتور الدرويش، كما كانوا يسمونه بحمص دون أن تكون له أية صلة بالدكترة، فهو قد ترك المدرسة منذ الصف السابع وكل ما عمله بحياته كان من صنع يديه العصاميتين. لقب والده بالدرويش لأنه انتسب في شبابه إلى الطريقة المولوية «الدراويش»، وعائلتهم هي آل الدقاق، وهي أسرة معروفة في حمص من أرباب الصنائع؛ ولم يكمل محيي الدين دراسته فقد ماتت أمه وهو صغير ولا ندري العوامل التي دعته لترك الدراسة، وقد يكون ذلك لأسباب مالية، ولكنه بحكم طبيعته انصرف إلى الدرس على أيدي المشايخ، فكان يحمل كتبه ويذهب إلى الجوامع حتى أتقن اللغة العربية وما يتبعها من صرف ونحو وعروض وفصاحة وبلاغة وغير ذلك، فكان في كل هذه الأمور بارزاً بين أقرانه، يضاف إلى هذا أن ذهنه المرهف قد ساعده على إتقان الألعاب، فهو لاعب ماهر في الضامة والطاولة والدومينو وغيرها، إنه في خلاصة الأمر إنسان ذكي، ولو استطاع أن يتعلم في مدارس عالية أيام شبابه لكان من أبرز رجال العلم في بلدنا.

من ناحية أخرى، كان محيي الدين مندفعاً في سبيل ملذاته يشرب كثيراً ويسهر كثيراً، لا بل إنه لم يعرف النوم المعتاد في حياته كما أعتقد، عرفته أول مرة في مكتبة السباعي الشهيرة وقد حدثني عن مقالٍ كتبه ضد أستاذ للأدب العربي اسمه ناجي أديب ويظهر أنه كانت هناك معارضة شديدة قامت في البلدِ ضد هذا المقال وكان هو فرحاً بهذه الإثارة. لم يكن يعرف شيئاً عن الغناء والموسيقى، بل الذي أعتقد أنه لم يكن يطرب فكان يحب السرور العملي، شراب ومنظر وحديث، أما الطعام ذاته فلم يكن يهتم له وما رأيته في حياتي يأكل بشهية، ولعل هذا هو الذي جعل الشراب والسهر يؤثران في صحته، ولولا هذا الإقلال من الطعام لعاش أكثر مما عاش والشيء بيد الله. كان لا يهتم بشيء أبداً فلباسه مشعث، ولا أذكر أني رأيته يلبس بزة جديدة وأما ربطة عنقه فكانت أشبه بحبل الغسيل لا يُعرف وجهها من قفاها، كان لا يهمه ـ رحمه الله ـ إلا المجلس، كيفما كان هذا المجلس، شرط أن تكون أصوات تتحدث وكؤوس ملأى وضحكة عالية، وكان يسير مع كل جيل كباراً وصغاراً ومتوسطين أعماراً. جاءني مرة إلى حماه فاحتفلت به وهيأت له مجلساً طريفاً في أحسن مشرب في البلد وهو الفندق، فتركني ولم يعد إلى حيث كنت أنتظره وعلمت في اليوم الثاني أنه ذهب إلى بيت صاحبي نعسان الحريري صديقنا، وقد كنت مقاطعاً له في تلك الفترة ونبهت محيي الدين إلى أنني لا أسهر معه بل لا أكلمه، ومع ذلك تركني أنا الصديق وذهب إلى الحريري لأن الحريري عنده ما لذ وطاب من طعام وشراب وعزف وغناء، إلى غير ذلك من متممات اللهو، وقد تألمت منه فأرسلت قصيدة بهذا المعنى إلى جريدة التوفيق في حمص، وكان هو محرراً فيها ومع ذلك فقد نشر القصيدة التي تعرضت فيها له والتي أقول فيها معرضاً به وبالسيد الحريري:

(*) من الغريب أن شكيباً الذي ذكرته وعلي الأبرش الصديق الآخر ورفيق الفاخوري، ثلاثتهم لم يموتوا ميتة طبيعية.

يـا صـاحبـاً لسـت أدري كيـف ألقـاه دنيـاي في البـعـد أمسـت غـير دنيـاه
ولّي وخلفنـي ريّـان مـن أسـف وليـت أنّـيَ أسلـوه فـأنسـاه
دع الجـديـد فظـل الشـك يـغمـره إن القـديـم مـن الإخـلاص أخـلاه

ومن الطريف أن محيي الدين لم يكن يحقد أو يغضب، لقد أجابني بأبيات لا أذكر إلا مطلعها وهو خير ما فيها يقول:

أما العتاب فطبعي ليس يأباه

وقوله هذا أصدق قول له في حياته فهو يختل وينكث بالوعد ويستعد سلفاً للاعتذار معتمداً على رأي له نعرفه نحن وهو: المناسبة الأولى أهم المناسبات فإذا دعوته إلى غداء أو مجلس وسار إليك ليفي بوعده ورأى إنساناً في الطريق يدعوه إلى مثل ما دعوته أنت، لا بل قد تكون دعوتك أسمن وأطيب، ومع ذلك فهو يذهب مع الداعي الجديد ويتركك تنتظره، وفي اليوم الثاني تراه فيبدو وكأنه لا علم له بوعدك وتكون كلمته الخالدة التي عاشت معه كل حياته: حطّ بالخرج، ومحيي الدين ديموقراطي في حياة لهوه فهو يأنف من الفخفخة والأناقة والكلفة والرسميات، وقد يذهب إلى دكان شخص يمكنه التحدث إليه فيرى في هذه الجلسة أفضل من أن يجلس مثلاً في «الشيراتون» بدمشق حيث يرتبك ويضطرب ولا يتفاهم مع أي شيء في هذا المكان الأوروبي.

وتحضرني بهذه المناسبة حكاية جرت للمرحومين الأستاذ الشاعر بدر الدين الحامد والأستاذ الأديب قدري العمر، وقد أرادا الترويح عن نفسيهما فذهبا إلى عاليه في لبنان ودخلا إلى مطعم «طانيوس» الشهير، وقبل أن يذهبا هيأ كل واحد منهما بزة سوداء وربطة عنق سوداء وجوارب سود وحذاء أسود لماعاً وهذا كما لا يخفى لباس الحفلات الرسمية ولباس الكرسونات في المطاعم الراقية، وجاءهما الكرسون فرأيا لباسه قريباً من لباسهما، وحين اقترب منهما قاما يستقبلانه وسلما عليه بكل احترام وحين سألهما: ماذا تشربان عادا إلى الجلوس ونظر كل واحد منهما إلى الآخر معاتباً ومستجهلاً(*).

لذلك كانت حياتنا مع محيي الدين منقطعة فهو كان يشركنا بنصف أحاديثنا أي في اللغة والأدب فقط فإذا تحدثنا بالموسيقى بدا الملل والضجر على وجهه وحاول قطع الحديث، وكثيراً ما كنا نتجنبه لنترك له الحرية في جلساته الخاصة، كان يحب الشراب حباً عجيباً فالكأس صديقه المفضل، يجلس من أجله في أي مكان، لذلك كثيراً ما كنت تراه في دكاكين البائعين وقد لا يكون عندهم كرسي للجلوس سوى كرسي صغير يجلس عليه صاحب المحل ويعيره لمحيي الدين.

جلسنا مرة في الميماس وفي منتصف الليل أغرانا أحد الحاضرين بالسفر إلى حلب في القطار فنزلنا ولا أحد منا يعرف كم معه من الدراهم، ودفعنا في الدرجة الثالثة كما أذكر سبعة وعشرين قرشاً فقط ووصلنا في اليوم الثاني ولم نذق النوم وكنا أربعة، محيي الدين وسعيد التلاوي الظريف الصحافي والأديب المعروف ونور الدين طليمات وأنا، ولقد أوينا إلى الجامع لنستريح قليلاً وقمنا عند الظهيرة لنرى أحد أصحابنا من الرجال الوطنيين المحترفين في السياسة وقد دعانا إلى غداء لم نذق أطيب منه، واللحم المشوي في حلب معروف مشهور. ويومها تعرفنا على سعيد فريحة الصحفي اللبناني المعروف وكان ما يزال في حلب مراسلاً لجريدة القبس بدمشق وعاملاً في جريدة صدى الشمال لصاحبها شكري كنيدر، وعدنا في اليوم الثاني وقد ملئنا ضحكاً وتعباً كما ملىء محيي الدين طرباً وشراباً.

لقد كان لي في حمص غير هؤلاء كثيرون من مثل عبدالسلام السباعي صاحب المكتبة، كما كان لي في حمص ظرفاء من ألطف من عرفت في حياتي ومنهم المرحوم الحلاق عبدالرزاق الزردة، ومنهم أحمد البنك. كان الزردة قصيراً أعرج ضاحك الوجه دائماً يركض وراء النكتة من مكان إلى آخر ويسأل عن أصحاب

(*) هذه الحادثة تدل على اهتمام الصديقين المرحومين بما في العالم الخارجي من تطور مدني وتجديد.

النكتة فيحتفي بهم في دكانه المشهور الذي كان في مركز الشارع الرئيسي للمدينة، كنا نجلس إليه فنضحك ملء أفواهنا ويروي لنا قصصه مع زميله في الضحك أحمد البنك، وكثيراً ما كان يثور ويغضب حين كنا نفضل البنك عليه فيأخذ في الصراخ ويحاول إقناعنا بأن الأمر على العكس، وكان بالرغم من فقره عفيف النفس يرتب الجلسات ويعتني بها بنفسه وهو بذلك جد خبير.

كان أحد الأتاسيين البارزين واسمه مكرم يحلق عند الزردة صاحبنا هذا، وكان الأتاسي عصبي المزاج لدرجة كبيرة وغضب على الزردة في يوم من الأيام فهجره ليذهب إلى حلاق آخر قباله اسمه رضى وكان هذا تلميذاً للزردة، وتألم الزردة لأن الأتاسي كان كريماً في الدفع كما كان صديقاً لصاحبنا وحار كيف يعيده إليه فوجد له طريقة يهرب فيها من رضى حلاقه الجديد، وقد عرف بذكائه أن مكرم لا يطيق كلام الحلاق أثناء الحلاقة فقال لرضى بعد أن جلس عنده، لقد أعجزني هذا المكرم يريد مني أن لا أسكت أبداً وأن أحدثه أثناء الحلاقة ومن أين أخلق له الكلام الذي يعجبه، فالحمد لله الذي صرفه عني بالحسنى، ورجع الزردة إلى دكانه فرأى مكرم الأتاسي قادماً إلى دكان رضى ليحلق ذقنه ولم تمض دقائق حتى وجد الأتاسي يخرج من دكان رضى وعلى وجهه الصابون ويهرول إلى دكان الزردة وهو يشتم رضى ويردد: ما علاقتي بالخضرة واللحمة؟ وما علاقتي بطعام رضى وحياته؟ ما أكثر علاك الحلاقين! وهكذا عاد الأتاسي إلى قواعده وكانت نكتة ما تزال حمص ترددها إلى اليوم.

حين تحدثت عن المرحوم رفيق الفاخوري وعن محيي الدين لم أذكر بعضاً من طرائفهما الشعرية فهما كانا رفيقين، لكنهما كانا مختلفين دائماً يتهاجيان وينتقد أحدهما الآخر، ثم بعد قليل تجدهما سواء على منصة واحدة يتحدثان، لقد كان رفيق الفاخوري يمثل الشاعر الأديب العالم والمثقف المطلع على الشعر العربي والأوروبي عن طريق معرفته باللغة الفرنسية، وكان محيي الدين يمثل المرجع في النحو وغيره من متفرعات اللغة العربية، يضاف إلى ما مضى أن رفيقاً كان موهوباً في الموسيقى فهو عازف وملحن وجميل الصوت يستطيع أن يغني كأحسن المغنين، وكان الاثنان من أصحاب النكتة لكنهما مختلفان في شكل النكتة، فنكتة رفيق واخزة محكمة مؤلمة، ونكتة محيي الدين مضحكة فقط وهي تعتمد على التلاعب بالألفاظ كالنكتة المصرية. داعب محيي الدين ابن أحد أصحابه من آل السطلة واسمه «سليم» فقال له:

بجمال وجهك يا سليم سطلتني

فكانت نكتة، ولم يكن سليم هذا على شيء من الجمال ولكن محيي الدين استغل الجناس بين السطلة «اسم العائلة» و«السطل» ومعناه التدويخ والإسكار، أما نكتة رفيق فلها مدلول بعيد، لقد تضايق من المطر، فدعا ربه دعوة غريبة يقول فيها: أغثنا بلا غيث، ولا أدري كيف يكون الغياث بلا غيث، ورأى أرتال المصريين أيام الوحدة، يشترون من الدكاكين بالعشرات والمئات دون أن يكون لهم عمل آخر فقال فيهم هذين البيتين المشهورين:

أروّاد الشآم أما شبعتم   أما لكُمُ بغير الشام رزق
كأني في بلادٍ لست منها   إذا قال المذيع هنا دمشق

وعُيّن محيي الدين الدرويش مرة معلماً في قرية من قرى حماه اسمها «طيبة الإمام» ومنذ دخوله القرية أصبح له أصدقاء ومعارف، فمحيي الدين كان اجتماعياً يحب الناس ويختلط بهم بينما كان رفيق ينأى عن الناس وكأنه يخاف منهم فلا يتعرف على إنسان إلا بعد أن يختبره هو شخصياً، ولذلك كان أصدقاؤه قلائل بينما كان محيي الدين كثير الأصحاب. وكنا مرة في مقهى منظر الجميل الشهير - انهدم الآن - فجاءنا الشاعر الحمصي المقيم في البرازيل اليوم واسمه «نبيه سلامة» وقال لنا: لقد رأيت محيي الدين الليلة في منامي وهو ميت فجاءني هذا الشطر في رثائه:

رحمة الله على الدرويش مات

وسكت نبيه فأجبته أنا على الفور: مثلما مات حمار في فلاة.

وجاء رفيق بالبيت الثالث وأكمل نبيه البيت الرابع وعدت أنا فوضعت البيت الخامس وهكذا أنجـزنا القصيدة ووضعناها في ظرف وأرسلناها بالبريد إلى طيبة الإمام وباسم المختار، فتح المختار الظرف فهـاله ما رأى وقرأ القصيدة على من كان عنده من أهل القريـة ثم أعطاهـا لمحيي الدين وثـارت ثائـرته ولكنهـا كانت ثورة خصبة فقد أرسل إلينا الجواب يقول فيه:

لـعنـة اللـه عـلى قـوم بـغـاة قـد نـعَـونـي سلفـاً قبـل الممـات
ومشـوا للغـيّ صفـاً واحـداً و«أبـو النـور» يـقـود الحمـلات
مـا رأى النـاس لنـور شبـهـاً حـين يمشي في سبيـل التـعـرضـات

وأبو النور هذا هو صديق محيي الدين الأول وصفيه وهو من آل ظليمات وكان راوية وظريفاً وبذيئـاً حتى لقبه أهل بلدته بـ «الشيخ عجل». وكان موهوباً ولكنه لم يصنع شيئاً في حياته مع أنه تعلم عدداً من الصناعات التي لم يفد منها شيئاً وظل يعيش متسكعاً متنقلاً من مكان لآخر، لا بيت ولا زوجة ولا ولد ولا من يحزنون إلى أن توفي وقد رثاه رفيق رثاءٍ جيداً، ولم ينس أن يذكرني محيي الدين في معلقتـه هذه وقـد هجاني بقوله لي:

وهل يبلغ الفلاح شأو البكوات

لقد غمزني بأني من سلمية وأنه هو من بلد البكوات حمص، وكانت نكتة من أطـراف النكات وما زال الحمصيون يحفظون هذا الحوار الطريف ويرددونه في مجالس سهرهم ومزاحهم.

لقد كنت زعيم الإحراج في جلساتنا الحمصية تلك، لقد كان يجلس إلينا صديق دمشقي الأصل لكنه مولع بحديث السياسة، فقد كان من شباب الكتلة الوطنية القديمة، وكنا نتـأفف من حديثـه ونتضايق من أبحاثه ونحن أبعد الناس عن السياسة، فلم نكن نتحدث إلا بشعر شوقي وبدوي الجبل وبشارة الخوري أو بأغاني عبـدالوهـاب الجديـدة وأدوار الشيخ سيـد درويش التي كنا نحفظهـا كما نحفظ الشعـر غناءً وترديداً متقناً، وقصائد أبي العلا محمد، إلى آخر هذه المجموعة بينما كان أخونـا الدمشقي ينقلنـا فجأة إلى جو المظاهرات والتظاهرات والسجون والملاحقات، فـاتفقنا عـلى أن نغير المقهى فننتقـل إلى مقهى آخر بعيد عن المقهى الذي اعتاد الدمشقي أن يـرانا فيـه، وقمنا بعـد السهرة كـلٌّ إلى بيته وكـان بيتي وبيت الدمشقي في طريق واحد وجاءتني الفكرة ولقد نفـذتها فعـلاً: قلت لصاحبنـا إن جماعتنـا ملّوا من هـذا المقهى وقد قرروا أن ينقلوا إلى مقهى «الجزار» البعيد لذلك فأنـا أمر بـك غداً لنـذهب سويـة إلى المقهى الجديد، وهكذا كان، فقد كان الجماعة في المقهى فهالهم أن رأوني متأبطاً ذراع الدمشقي وأنا قادم وإياه إليهم فقاموا من فورهم وهربـوا من المقهى وركضت أنا وصـاحبي نريـد اللحاق بهم وأنـا أقول لـه إنهم يمـازحوننـا، حتى أعدنـاهم إلى المقهى وعاد معنـا الدمشقي الـذي لم يكد يجلس حتى بـدأ يتحـدث في السياسة والكتلة الوطنية، وكان إحراجاً ما زال يضحكنا مدة طويلة من الزمن وحتى الآن.

رحم الله أيام زمان لقد كانت حياتنا حياة فقر ولكنها كانت حياة غنى في كل شيء إلا في المال، وكنا في شبه اشتراكية فنية نأكل سوية ونسهر سويـة ولا نفترق إلا سـاعات النـوم، وكان النـاس يشيرون إلينـا بالإجماع، وكثيراً ما كنت تسمع عمال المقاهي أو المطاعم يتحدثون ويقولون: جاء الشعراء وراح الشعراء، لقد كنا منذ تلك الأيام معترفـاً بنا كشعـراء في بلد لا يعتـرف بشيء إلا لمن كان متفقـاً مع مـزاجه ورأيـه السياسي.

١٨ فكرة جديدة

حين كنت في الأيام الأخيرة من أيام المدرسة الإنجيلية سمعت نبأ يقول: إن البكالوريا السورية أصبحت شهادة هامة حتى في أوروبا فإن الإفرنسيين جعلوا منها شهادة تعادل البكالوريا الفرنسية بكل شيء، فالأسئلة التي ترد فيها عن الأدب الفرنسي والشعر الفرنسي هي نفس الأسئلة التي تعطى للطلاب في فرنسا. أعجبتني هذه الفكرة وقلت لا بد أن أجرب حظّي بهذه الشهادة وأنا لا ينقصني شيء، فشهادة الزراعة تعادل الصف العاشر لأنها أربع سنوات بعد السادس وتخولني إذن أن أدخل الصف الحادي عشر وأحضّر البكالوريا الأولى فيه ثم أنتقل إلى دمشق من أجل الثاني عشر ثم بعدها أحاول أن أدخل الجامعة؟ رسمت هذه الفكرة في ذهني ورحت أتحدث إلى أصحابي بهذا فكلهم شجعني ووافق على فكرتي.

انتهت المدرسة ورجعت إلى سلمية فاستقبلني شقيقي الأكبر كالمعتاد، بالأسئلة والاستفسارات وسألني ما الذي تعلمته؟ وأجبته أني تعلمت اللغة الفرنسية، قال: وهل أحضرت معك ورقة ما تثبت ذلك؟ قلت له: لا حاجة للورقة لأنني كنت في صفوف لا تعطي شهادات وألح في الطلب فثارت ثائرتي ولأول مرة، فقلت له بكل وقاحة واطمئنان: لقد درست على حسابي ومن مالي ولا تنس أني أخوك ولست ابنك، وكانت ثورة عارمة من أخي، وعبارات لم يتعود على سماعها حتى لقد أخذ يشد شعر رأسه، وأخذت والدتي تصيح بي وتدعو عليّ لأني أسأت إلى أخي، وتركت الدار وخرجت إلى المقهى. وفي المقهى فكرت في طريقة الحياة مع هذا الأخ الذي لا يؤمن إلا برأيه الشخصي وإن كان يبدو عطوفاً مشفقاً في كثير من الحالات، وعند المغرب دخلت المنزول الذي كان فيه وأمام الناس فتقدمت منه وأخذت يده فقبلتها وجلست بين الناس كالطفل الصغير، ورأيته يبتسم وأخذ يسألني في النحو وفي التاريخ وراح يجادلني وأجادله في الثقافة وقد كان آخذاً بدراسة اللغة العربية وبعض الأمور الدينية هو وجماعة الحركة الجديدة المعارضة للدين الإسماعيلي الجديد، وهذه الجماعة هي التي أطلق الإسماعيليون عليها اسم «السنية» وهو اسم خاطيء وسأشرحه بالتفصيل فيما بعد.

جئت بعد أيام إلى أخي بعد أن زال ما بنفسه عني ولكني رأيته حين تحدثت إليه بفكرتي لا يثور بل يعترف لي بشيء من الحق في تصرفاتي الخاصة فأدركت أن الصراحة الأولى هي التي أفادتني وأوعزت إلى أخي بأن الضغط يولد الانفجار، وهكذا قلت له: أريد أن أكمل دراستي؟ ونظر إليّ مستفهماً فقلت: لقد أنشأت الحكومة شهادة جديدة اسمها البكالوريا ذات قسمين أول وثان، وهي شهادة تخول الدخول في الجامعة السورية، كما كانت تسمى بدلاً من شهادة الزراعة التي أحملها والتي هي غير مقبولة في أي صفات، ووصفت له مميزات الشهادة الجديدة وأنني أستطيع بشهادة الزراعة أن أنتسب إلى الصف الحادي عشر ومنه أتقدم إلى الشهادة المذكورة، ونظر إليّ طويلاً وقال: حسناً أنا موافق فقط أرجو أن أطمئن إلى انتسابك للصف الحادي عشر وقلت له: اطمئن سأجرب فإن نجحت كان بها وإلا فأنا أستطيع أن أعدل عن فكرتي هذه إن لم أوفق؟ وهكذا اتفقت مع أخي وذهبت لتوّي فكتبت كتاباً لوزير المعارف يومئذ وكان الأستاذ الشهير محمد كرد علي ووضعته في البريد وعدت إلى أخي فأخبرته بما فعلت فبدا عليه شيء من السرور المرتاب.

بعد أيام وصلني كتاب من وزير المعارف الأستاذ كرد علي يقول فيه:يمكنك الالتحاق بالصف الحادي عشر في تجهيز حمص وقد أرسلنا صورة إلى مدير المدرسة الأستاذ عبدالحميد الحراكي على أن تداوم على طريق الاختبار شهراً فإن استطعت السير بالدروس، أكملت سنتك وإن لم تستطع عدت إلى بلدك.

أخذت الكتاب وأسرعت إلى أخي فقرأ ما فيه وشجعني وقال هيء نفسك فإن أبواب المدارس ستفتح عما قريب، وبالفعل لقد كنت بعد يومين مستعداً للسفر. وصلت إلى حمص قبل الظهر وذهبت إلى مدرسة

التجهيز وكانت في دار «آل البنك» الكائنة على طريق حماه، وكان لها بابان وأخذت أطرق الأبواب زمناً طويلاً فلم أسمع جواباً، فذهبت إلى مكتبة عبدالسلام السباعي أسأل عن الموضوع فقيل لي: إن المدير الحراكي ليس في حمص وهو في دمشق لعمل يتعلق بالفحوص النهائية ووكيله في حمص معلم التاريخ الأستاذ وجيه الأتاسي وسيكون صباحاً في المدرسة. قررت الانتظار حتى الصباح ثم ذهبت مع صديق لي هو كما أظن الأستاذ أحمد نورس السواح رفيق الطفولة فدلّنا على رجل معمّم أخذنا إلى دار استأجرناها خلف مقهى منظر الجمل القديم وفي مكان قريب جداً من شارع المدينة الرئيسي. كانت شهادة المدرسة الزراعية وسيلتي للدخول في دنيا الدراسة معي احتفظ بها في جيبي وعندما جاء وقت النوم، وضعتها في درج خشبي فوق رأسي ونمت وقمت في الليل متعباً فسمعت نقراً من جانب فراشي فلم يخطر على بالي شيء، واستأنفت نومي وحين أفقت في الصباح لبست ثيابي مسرعاً ومددت يدي إلى الدرج وإذا بي أجد فتاتاً من الورق ولم أجد أثراً للشهادة، اللهم إلا القريب من نصفها وقد كانت مكتوبة بالفرنسية والعربية. كان القسم الفرنسي قد أكلته الفأرة اللعينة ولم يبق إلا آثاره فجن جنوني وكدت أبكي وحملت الشهادة الجريحة المهشمة وذهبت إلى وجيه الأتاسي ـ رحمه الله ـ وحين أريته كتاب الوزارة ونظر إلى الشهادة حملق بعينيه وسألني كيف تصنع بمستندك الوحيد هكذا، وقصصت عليه القصة فلاح برأسه ثم قال: لا بأس القسم العربي موجود وقرر قبولي بصفته وكيلاً للمدير

سنة قاسية، لا بل تلك كانت أقسى سنة في حياتي الدراسية والتعليمية وهي سنة ١٩٢٩ فقد انفجرت حركة ثورية في حمص من بقايا ثورة ١٩٢٥، وكان قائدها ثائراً مشهوراً من حمص هو: نظير النشيواتي ورفيقه خيرو الشهلة وثالثهما عمر المجرّص، وقد عاونهم الكثيرون، وأحرج الفرنسيون ماذا يعملون والثوار يروحون ويجيئون في المدينة، أما نظير النشيواتي فقد كان شقياً قديماً اتصف بالشجاعة والجرأة وسعة الحيلة في الأزمات، وأما خيرو الشهلة فأصله قاطع حجارة ولكنه اضطر إلى دخول الثورة لأن أخاه قتله الفرنسيون في حادث سنأتي على ذكره، وأما عمر المجرّص فقد قتل قاتلَ صديقه علناً في مكان «سبيل الدالاتي»، أي مكان بيع الخضرة اليوم، ولكل واحد من هؤلاء قصة:

أما نظير فمن حي باب الدريب، وكان له أخوة كثر، منهم عبدالفتاح والحاج دلال وكلهم ذهبوا في الثورة ووالده كان يدعى أبا موسى النشيواتي، وهذا الرجل قد قتل ومات ثم عاش ولا يُستغربنّ هذا الكلام فهو كلام صحيح وواقعي؟ لجأ عدد من الثوار وكانوا عشرة ومعهم أو قائدهم نظير هذا إلى قرية على طريق طرابلس ـ حمص اسمها خربة غازي، واستضافهم أحد أصحاب البيوت وصنع لهم غذاء وضع فيه مادة الحشيش، ونام القوم كأنهم أموات ولم يفيقوا إلا والفرنسيون فوق رؤوسهم ومعهم المسدسات والبنادق المحشوة والمهيأة للضرب وهم مشدودو الوثاق بما لا يدعهم يتحركون، وانهالوا عليهم ضرباً فقتلوا جميعاً عن بكرة أبيهم ومن بينهم نظير، وترك الفرنسيون القتلى من العصر إلى اليوم التالي حتى جاء أهلهم فأخذوا من أخذوا منهم ودفن الباقي في مكانه، وفتشوا على نظير فلم يجدوا له أثراً فجن جنون أهل القرية وقد رأوه بأعينهم مضرجاً بالدماء، وكانت القصة كما يلي: لقد أفاق نظير نصف الليل فوجد نفسه موثوقاً وأصحابه قتلى إلى جانبه فأخذ يتحرك ويستدير وينتقل من مكان القتلى صوب البرية وظل يتحرك ويزحف حتى وصل إلى مكان بعيد، وفي أحد الخنادق الزراعية اختبأ حتى طلع الصباح وإذا بامرأة تأتي لتجمع الحشيش لدوابها، وحين رأته خافت وأرادت الهرب فناداها ورجاها أن تفك وثاقه ففعلت، وكان يقول إن ألم الوثاق كان أشد عليه من ألم الجراح الكثيرة في جسده ورأسه وذهبت العجوز إلى حيث دلّها نظير فحضر أقرباؤه وأخذوه إلى حيث داووه وشفي بعد مدة، والطريف أن الإفرنسيين فتشوا عن نظير وهو ألدّ أعدائهم فلم يجدوه، وجاء قائد المنطقة وكان اسمه «مترو» وهو قائد استعماري متعجرف لئيم وسأل الضابط الذي أطلق العيارات على القتلى فأعلمه أن نظيراً لم يقتل، وجن الضابط ورمى سوطه أرضاً وقال لرئيسه: إذا كان هذا السوط حياً فإن نظير النشيواتي يكون حياً ولكن نظيراً سلم وبقي حياً وعاش في حمص مدة أخرى ثم ذهب إلى تركيا حيث لجأ هو وزميله خيرو الشهلة، وعاد بعد أن ذهب الفرنسيون من هذه البلاد، وقد جرى له استقبال حافل في حمص، ومات هذا المجاهد نتيجة

خلاف مع أحد أبناء بلده الذي ضربه على رأسه بزجاجة فارغة فأسال دمه ووجد نظير هذا العمل كثيراً على رجل مثله، ولكن المسكين مات بعد أيام. هذا الرجل الذي ضُرب أكثر من عشرين رصاصة لم تقتله فقتل بزجاجة فارغة، وسبحان موزع الأعمار التي هي بيد الله.

أما خيرو الشهلة فلم تكن له علاقة بالثورة وكان لي صديق هو مصطفى النجار وهو ابن عم خيرو هذا والعائلة اسمها الحقيقي «النجار». قال لي صديقي: سمع خيرو أن أخاه قتل في قرية خربة غازي مع جماعة نظير النشيواتي، فأغضبه هذا القتل وقد علم بأن متصرف حمص السيد فوزي الملكي كان حاضراً القتل وشاهداً ولم يدافع عن القتلى الذين يدافعون عن حقوق بلادهم، فقرر أن يبدأ عمله الثوري بقتل هذا المتصرف لتكون حادثة تذكر في كل بلاد العالم وهذا ما حدث. لقد جاء إلى مقهى كان اسمه مقهى «السقاية» عدة مرات يرقب المتصرف الذي يمر من ذلك المكان كل يوم لأن داره كانت في محلة «جورة الشيّاح» التي فيها القهوة، وجلس يوم الحادث فرأى المتصرف مقبلاً فترك الأركيلة وقام يمشي وراءه ولم يكن النور ساطعاً في الطريق وحين أصبح المتصرف وحده هجم عليه بخنجر كبير وأشبعه ضرباً حتى رماه، وما كان من المتصرف إلا أن رماه بعصاه بينما كان خيرو الشهلة يقول له: لقد جاءني حكم عليك بالإعدام من عند الله وعبيده، وذهب خيرو مسرعاً في تلك الأزقة والتحق بالثوار الذين كانوا في الحي الشرقي من المدينة (باب الدريب).

أما عمرو المجرّص، فقد عرفته قبل أن يثور ودلني عليه أحد أصحابه إذ كان معروفاً بشجاعته بين أصحابه ولكنه كان ضعيف السمع جداً، وهذه العلة كانت سبب مقتله واستشهاده كما سترى، علم عمر المجرص من اخوانه الثوار الذين كان يجتمع إليهم سراً أن فلاناً ـ وقد نسيت اسمه ـ يتعاطى التجسس على رفاقه وكان سبباً في مقتل الحاج دلال شقيق نظير النشيواتي من قبل الإفرنسيين لأنه دلّهم على مكمنه مع رفاقه. وترقب عمر الرجل في شهر رمضان وقبل المغرب تماماً والناس مجتمعون حول بائعي الخضرة في محل «سبيل الدالاتي» المعروف قريباً من «فندق رغدان»، فأقبل نحوه وأطلق عليه عدة رصاصات أرداه بها قتيلاً ومشى الهويني وكأنه يتنزه وفطن بعد لحظة إلى مسدس الرجل القتيل فعاد إليه وانتزع منه المسدس وجرى سائراً إلى حيث رفاقه الثوار. هذا الرجل الشجاع رأيته بعد فترة مقتولاً ومحمولاً على حمار ومر به الفرنسيون أمامنا بعد أن قتلوه في البساتين قرب نادي المهندسين الآن في منطقة «الجديدة»، وكانت الحادثة أن الثلاثة كانوا مرابطين ومختبئين بين أشجار كثيفة هناك، أعني نظيراً وخيرو وعمر، وفجأة رآهم الفرنسيون الجنود الذين كانوا يبحثون عنهم، وكما قلنا كان عمر ضعيف السمع أما نظير وخيرو فقد هربا واختفيا بعد أن نادياه فلم يسمع النداء وأصبح أمام القوة وجهاً لوجه فرمى نفسه في النهر ولكن الجنود انهالوا عليه ببنادقهم حتى قتل وطفت جثته على الماء فحملوا الجثة وجاءوا بها إلى البلدة، وقد شاهدته وكنت واقفاً أمام مكتبة عبدالسلام السباعي، كل هذا والناس يظنون أن نظيراً هو الذي قتل وهذا ما أشاعه الفرنسيون عن جهل، أما نظير وخيرو فالذي جرى لهما أعجب من أن يصدق. لقد غاصا بالماء والجنود تلاحقهما ومشيا جنب البر شيئاً فشيئاً إلى أن وجدا في حاشية النهر مكاناً مضيئاً من الداخل فعلما أن هناك مغارة ودخلا في المكان فوجدا الماء قاصراً عن التربة والضوء يأتيها من خلال الماء فمكثا هناك بلا طعام ولا ماء والماء يرشقهما بين حين وآخر مدة ثلاثة أيام إلى أن خرجا بين الموت والحياة ليلاً وكانت الأخبار قد وصلت لأخوانهما في المدينة فأرسلوا إليهما سيارة أحد الأصدقاء وأحضروا لهما لباساً يخفي شخصيهما وهربا من هناك إلى تركيا ولم يعودا إلا بعد أن غادر الفرنسيون هذه البلاد.

في هذا الجوّ من المزعجات والأخطار دخلت التجهيز، وقد أخذت الحكومة الفرنسية تضغط على الأهلين تريد أن تقبض على الثوار فلم تستطع، وأخذت تجمع الناس في مكان خارج البلدة لتفتيشهم جميعاً وكان قائد هذه الحملة في حمص «الجنرال كوله» الذي كان يحارب الثورة السورية، وكان أشجع ضابط عرفته هذه البلاد.

ولقد تركت البيت الأول وانتقلت إلى حي جورة الشياح في بيت رجل يسمى عبدالحميد الزهري، وقد أجرنا غرفتين في الطابق العلوي وكان هو وزوجته وأخته في الطابق الأرضي، ولكن حظنا لم يكن جيداً فقد كنت في البيت أنا ونورس السواح وهاشم خربيط من سلمية، وتبدلت هذه الشلة فأصبحت أنا وصلاح الدين البزري الذي هو شقيق عفيف البزري الأكبر ونورس السواح، وكنا دائمي الاختلاف حتى ظللت وحدي في آخر السنة، وكان صاحب البيت نصف مجنون فهو شارب الليل والنهار يضاف إلى ذلك أنه شرس الطباع، فكان سيىء التصرف مع أخته وزوجته حتى لقد كنا نسمع صراخهما وأحداثهما ليل نهار.

كانت سنة ١٩٢٩ باردة جداً هطلت فيها الثلوج ووصلت الحرارة إلى ١٢ تحت الصفر ولم تكن هنالك وسائل للتدفئة سوى مناقل الفحم الذي كثيراً ما كان يؤذينا بغازه الخطير. ولقد ظللت الشهر الأول للتجربة ـ كما أسلفت ـ فرضي الأساتذة عن حالتي الدراسية وكتبوا إلى الوزارة بقبولي نهائياً في الصف الحادي عشر، وكانت هناك منافسة بيني وبين رفيقي السواح فكلانا من سلمية وكلانا يريد أن ينجح بالبكالوريا لكي لا ينجح رفيقه وحده فتكون فضيحة لي أو له ولكن الفرق كان كبيراً بيني وبينه، فكنت أحفظ الدرس بسرعة وكان هو يحفظه ببطء مما جعلني أتفوق عليه في بعض المذاكرات إلى أن جاءني يقول لي: الدنيا برد والدرس في الليل صعب ومن الأفضل أن نقرأ في النهار وننام في الليل لنقوم باكراً إلى القراءة والمدرسة فوافقته على ذلك، ولكني في يوم من الأيام ولا أدري لماذا استيقظت تلك الليلة، قمت فرأيت في الغرفة الثانية الضوء مشعلاً ومشيت ببطء ونظرت من ثقب الباب فإذا بصاحبي سهران يقرأ، وثارت ثائرتي، وفتحت الباب بشدة وقلت له: إذن أنت تخدعني وتغشني لكي لا أقرأ، هذا فراق بيني وبينك، وأنا مستأجر البيت وسأبقى فيه وحدي، وكان ذلك فقد خرج من البيت وبقيت وحدي.

كان مدير التجهيز عبدالحميد الحراكي من أسرة معروفة في حمص وكان رجلاً مفرداً في كل حمص، فقد بدأ حياته عامل فول ثم أصبح مديراً لأكبر مدرسة ثم صار معاوناً لوزير المعارف، وقد درس في مدرسة تسمى مدرسة العشائر أسسها السلطان عبدالحميد في استامبول لأبناء العشائر العرب، وعاد إلى حمص فاشترك مع رجل من طرابلس اسمه «محمد علي النملة» فأسسا مدرسة خاصة خرّجت الكثيرين من الطلاب ولما جاءت الحكومة العربية بزمن فيصل عين الحراكي في المعارف مديراً للتجهيز.

كان رجلاً جاداً في عمله مخلصاً لأمته وبلاده وكان قريباً للقلب رغم جهامته، وكان محباً للنكتة، ولكنه كان يقاوم هذا الطبع وله نكات شهيرة مع زملائه وتلامذته كانت مستحبة إلى هؤلاء جميعاً، وقد لقيت منه عطفاً خاصاً لأنه كان يحب نشر العلم وخاصة عند أبناء الريف والفلاحين، وكان يعطف عليهم ويسعى إلى تعليمهم ويحميهم من أبناء المدينة إذا فكر أحد منهم بالاعتداء على واحد من هؤلاء الريفيين والسخر منه على عادة أهل المدن، إزاء أهل القرى. وكان متخصصاً بالتاريخ ولكنه تعلم اللغة الفرنسية فأصبح يدرّس هذه اللغة رغم أنه لم يكن قديراً فيها وعاش ولم يخلف إلا ابنتين. وقد شاركت في حفل تأبينه بقصيدة قلت في مطلعها:

ذكراك ما تنفك في خلدي ... يا حمص يا دنيايَ يا بلدي

وفيها أقول:

ما أهون الدنيا على رجلٍ ... لم يستفد منها ولم يفد

لقد كان أستاذاً مخلصاً وإدارياً ممتازاً، رحمه الله وأجزل ثوابه.

ثاني المعلمين كان الأستاذ وجيه الأتاسي معلم التاريخ الناجح والرجل الجاد والمتقن لعمله، وكان صهراً لرئيس الجمهورية السيد هاشم الأتاسي ولم يخلف إلا ولداً واحداً، ومات هذا الأستاذ باكراً وأظنه لم يتجاوز الأربعين، وأبوه هو الشيخ نجم الدين الأتاسي وكان شاعراً أحياناً.

أما أستاذ الرياضيات فقد كان ضابطاً في الجيش التركي وتقاعد وكان عصبي المزاج مجتهداً في درسه، ولكني لا أظن أنه كان رياضياً موهوباً، وأطرف المعلمين كان أستاذ الرسم الذي لم تكن له علاقة بالرسم وكان اسمه «عبدالجواد شاه»؛ ولو نظرت إليه من بعيد لقلت إنه فيلسوف من بقايا اليونان، وكان

يدخل الدرس فيبدأ درس الرسم بصحن أو فنجان أو كأس ويظل هذا الشيء موضوع الرسم كل السنة دون أن نتقدم أو نتأخر في فن الرسم، ومرة أحببت مداعبته ففاجأته بقولي: «والله يا أستاذ أنك لا تعلم شيئاً من فن الرسم»، والتفت إلي مستغرباً ثم ضحك وقال لي: طبعاً أنا من سلمية أنكم أنتم تحركون الشاي بالساقط (والساقط هو مفتاح البيت)، وضحكت وضحك الصف معي وتقبل النكتة بقلب سليم، لقد كان ابن أخت المدير الحراكي.

ومشيت في الدروس، وكان أستاذنا الذي يهمنا قدري العمر أستاذ الأدب العربي، وأستاذ اللغة الفرنسية السيد «كوانتيه».

أما قدري العمر فكان أفضل مدرّس للأدب العربي في سوريا في رأيي الشخصي، ومن الغريب أنه لم يكن من أصحاب اللغة ولا النحو ولا بقية الآلات كما تسمى دروس اللغة، ولكن ذوقه الأدبي كان عظيماً، فإنه كان ينتقي الأبيات الحسنة الموفقة للشاعر من بين آلاف الأبيات بحيث أنك لو أردت أن تنتقي غير ما انتقاه الأستاذ لعجزت، لقد نشأ في حماه من أسرة ألبانية الأصل، ووالده الذي جاء إلى حماه مديراً للتلغراف كما كان يسمى بزمن الأتراك، ودرس الدروس الأولى في حماه ثم انتقل إلى المدرسة الشهيرة «الصلاحية» التي أسسها في القدس جمال باشا المسؤول عن هذه البلاد أيام الحرب العالمية الأولى، وكانت أرقى مدرسة في هذه البلاد لأن القائد التركي اختار لها أفضل الأساتذة من البلاد العربية كلها إضافة إلى بعض الأساتذة الأتراك والأجانب المشهورين، كان من أساتذتها الشيخ عبدالقادر المغربي والشيخ عبدالعزيز جاويش الخطيب المصري الشهير وصديق مصطفى كامل، ومن أساتذتها جودة الهاشمي والدكتور رستم حيدر. وقد خرّجت هذه المدرسة التي كانت في القدس خلال سنتين من وجودها فقط، لأنها انتهت مع انتهاء الحرب وخروج تركيا من هذه الديار، لقد خرّجت: قدري العمر، وعمر يحيى، وتيسير ظبيان وهؤلاء الثلاثة خيرة أساتذة الأدب العربي، بل انهم هم الذين وضعوا الأسس لدراسة هذه المادة الهامة قومياً وثقافياً؛ ومنهم أيضاً خيري رضى الذي بدأ حياته معلماً ثم أصبح قائمقاماً في الزبداني ثم محافظاً لحماه يوم كنت أنا موظفاً في ديوان محافظة هذه المدينة، وكنت أقرب الموظفين إليه لأنه كان أديباً وقارئاً، وكان ينفق قسماً من راتبه الذي لم يكن يكفيه على شراء الكتب من عند صديقه عبدالمؤمن الشيخة صاحب المكتبة المعروفة في حمص، وقد توفي هذا منذ أشهر قليلة بعد أن بلغ التسعين من العمر، وكان خبيراً بالكتب وما فيها بعكس عبدالسلام السباعي الذي كان يجهل ما في الكتب، ويعرف جيداً كم يساوي الكتاب نقداً.

لقد درّسنا قدري العمر وأفادنا وشجعنا وقد طلبنا منه مرة أن يستكتبنا وظيفة في أحد الموضوعات التي كنا ندرسها، وكتبنا الوظيفة فأخذها وأعادها في اليوم الثاني وهو يقول: إنكم تكتبون مثلي ومثل كل أستاذ، فلم هذا العذاب دون فائدة؟ كان يعرف موضع الجمال الفني في اللفظ وفي القصيدة وفي الجملة وقد أفادتنا هذه المسألة فائدة كبرى لأنها نمّت ذوقنا ودلتنا على مواطن الجمال في دواوين الشعر العربي وخاصة في العصر العباسي حتى شوقي.

أما معلم اللغة الفرنسية الفرنسي، واسمه كوانتيه، كما أشرنا فقد كان مثالاً للفرنسي المهذّب، إنه سيد كما يقول الفرنسيون. كان طويلاً أبيض مشرباً بالحمرة رائع الهيئة، وكان يحمل إجازة بالكيمياء كما كان ممتازاً في الرياضيات حتى لقد أسميناه «السهل جداً»، لأن هذه كانت عبارته كلما عرضنا عليه مسألة أشكلت علينا. وقد نقل هذا الرجل العاقل اللطيف العالم إلى المفوضية العليا ببيروت مسؤولاً كبيراً عن المعارف هناك بعد أن درّسنا سنة لم يزعج فيها أحداً ولا أساء إلى إنسان.

وقضينا السنة الدراسية وأفدنا كثيراً وخاصة في مواد العربي والتاريخ والفرنسي وتقدمنا إلى الفحص في حزيران من تلك السنة ١٩٢٩، ولكن حظي لم يكن حسناً لقد كنت أجهل الطريقة التي ينبغي أن يكتب التلميذ بها لكي لا يكون ثقيلاً على مصحّح الورقة في الفحص، وإني لأعترف أني أكثرت جداً من كتابة العربي في الفحص حتى تجاوزت في ذلك الصفحات العشر وما أظنّ مميّزاً، كما كانوا يسمون المصححين، يستطيع أن يقرأ كل هذه الصفحات دون أن يلعن كاتبها عشرات المرات. سقطت في تلك

الدورة ولم ينجح من صفنا في حمص إلا المرحوم عبدالباسط البنّى عن شعبة الرياضيات، أما بقية الطلاب فنجح منهم فيليب فركوح الذي كان أول تلميذ مسيحي ينتسب إلى مدرسة حكومية، فالمسيحيون كانوا يدرسون في مدارسهم الخاصة وكان طلاب الإسلام يشاركونهم مدارسهم بعكس المسيحيين الذين لم يكونوا يحبون الاختلاط مع المسلمين، ورجعت إلى سلمية أقدم رجْلًا وأؤخّر أخرى، وتقدمت في دورة تشرين فلم أنجح أيضاً كما لم ينجح أحد من طلاب حمص، وقد وردَت برقية من هيئة الفحص في دمشق تقول: لم ينجح أحد. وعدت ثانية إلى سلمية والذل والخجل يغطيان وجهي. وفكرت ماذا أصنع فاهتديت إلى فكرة هي أن أنتسب إلى مدرسة تختص بالدروس الفرنسية فاخترت مدرسة الروم الأرثوذكس، وكانت مدرسة شهيرة أسست في عام ١٩١٠ من أموال طائفة الروم بحمص وهي طائفة كبيرة وغنية، كان الفضل في دخولي هذه المدرسة أيضاً لصديقنا المرحوم فاضل أحوش الذي سبق وكان وسيلتي إلى دخول المدرسة الإنجيلية، بل لعله من الأسباب التي أقنعت أخي بقبول الفكرة.

دخلت مدرسة الروم على أن أدرس اللغة الفرنسية فقط، وهكذا كان، كان مدير المدرسة من أهل صافيتا واسمه «عيسى جبور» وكان ذكياً ورياضياً مجرباً ومن أوائل الذين حملوا هذه الشهادة الفرنسية هو وأخوه أديب جبور، ولكنه كان بسيطاً لا يعرف شيئاً من مشاكل الحياة ومداخلها، وكنت أحضر دروس اللغة الفرنسية فقط لأستعدّ لفحص البكالوريا في حزيران من تلك السنة ١٩٣٠، فكنت تلميذاً من نوع خاص، وكان مدير الدروس الفرنسيةرجلًا روسياًمن الروس البيض كما يسمونهم، وهم الذين كانوا ضد الروس الحمر أي الشيوعيين، وقد هرب من روسيا بعد الثورة وكان من عائلة غنية ومن بلدة «يرفان» في أرمينيا أو قفقاسيا. كان طويلًا نحيفاً جداً أزرق العينين صغير الرأس بالنسبة لجسده، ولكنه كان علّامة في كل شيء وخاصة في اللغة الفرنسية التي أتقنها حين درسها في فرنسا وفي بلدة بوردو بالذات، وحصل منها على شهادة الليسانس بالأدب الفرنسي، وقد كان منشئاً باللغة الفرنسية يكاتب الجرائد الفرنسية الكبرى مثل «الماتان» و«لموند» وغيرهما، وقد افدتُ من هذا الأستاذ كثيراً وخاصة بعد أن أصبحت أستاذاً في المدرسة وزميلًا له، فكنت أرافقه دائماً لأتحدث وإياه باللغة الفرنسية وقد اشترطت أن يصحح لي كل خطيئة أرتكبها في كلامي معه، كان صاحب نكتة طريفة، ولكنه كان يحمل الكثير من الذكريات الحزينة عن ماضيه وعن أهله الذين تشردوا بعد الثورة الشيوعية ولم يعد يعرف عنهم خبراً، وكثيراً ما كان يبكي حين يذكر هذه الأحداث، لقد كان يعلم كل شيء وفي كل علم، وفي أيامه الأخيرة منحته المدرسة الأرثوذكسية في طرابلس ديراً عتيقاً يقع بين طرابلس وبيروت أي قرب قرية أنفة، وهو دير الناطور الكائن على ذلك الطريق أيضاً، وأذكر أني زرته هناك ونمت عنده ليلتين وهناك قمنا بزيارة لدير «البلمند» الشهير في أول جبل الكورة، ومن الدير ذهبنا إلى قرية «فلحات» وكان فيها صديقنا وزميلنا في التدريس الأستاذ نسيم نصر وابن عمه الشاعر سليمان نصر، وقد تناولنا الغداء عندهما في مكان جميل بديع. وقد مات هذا الأستاذ الروسي في لبنان وقد تجاوز التسعين من العمر ولا أدري أين ومتى مات.

أما أستاذ اللغة العربية فقد كان رجلًا بسيطاً غير متعلم إلا بعض دروس النحو وبطريقة خاصة، أي عند المشايخ الذين كانوا يتولون تعليم هذه المادة في الجوامع، وقد أفاد من دروسه هذه ولكنه لم يكن مدرساً ناجحاً لأنه كان يجهل بقية دروس المدرسة وتبدو عليه العامية واضحة. وقد أردت أن أحضر دروسه ما دمت في المدرسة، ودخلت الدرس الأول وكان يدرس أدب وشعر أبي تمام الشاعر المعروف، وكان هذا الأستاذ يعرفني عن طريق أقربائه رفاقي في المدرسة وفي المقهى، وبدأ الدرس بعد ابتسامة منه إليّ وسلام مختصر، ثم أخذ ينشد قصيدة أبي تمام الشهيرة: كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر، وهي الرائية المشهورة في رثاء محمد بن حميد الطوسي، ولكن الأستاذ أخطأ في رواية البيت فكسره وزناً وقمت لأصححه له، وكان من حقي أن أسكت كي لا أحرجه أمام الطلاب وكانت غلطة دفعني إليها حب الظهور أمام الطلاب بأنني أديب، وثار الأستاذ وصرخ فيَّ وقال: أنت تقصد إلى الاعتراض قصداً لتسفهني أمام الطلاب، وسكتُ ندماً، ولم أعد لدرسه مطلقاً ويبدو أن الخبر شاع بين الطلاب والمعلمين، وكانت هذه الحادثة سبباً في تركه التدريس وحسناً فعل وكانت غلطته أنه روى البيت هكذا:

كـذا فليجـل الخطـب وليَفْـدَح الأمـر (فمـا) لـعـينٍ لـم يفض مـاؤهـا عـذر

وكان حق البيت آن ينشد هكذا: (فليس) لعينٍ لم يفض ماؤها عـذرٌ، والفرق ظـاهر بـين الإنشادين، فقد نقص في الطريقة الأولى حركة وكسر بها البيتُ.

وكان في المدرسة ناظر اسمه بديع الخوري من أهل مرمريتا البلدة المعروفة في وادي النصارى، وكان مختصر العلم يعرف قليلاً من الرياضيات يعلّم بها الصفوف الابتدائيـة، ولكنه كـان ناظـراً ممتازاً واعيـاً جـاداً قوي الشخصيـة، لقد كـان مخيفاً للطـلاب أحيانـاً لأنه كـان مسموع الكلمـة عند المسؤولـين عن المدرسة. وقد عاش حتى تجاوز التسعين من العمر وأصيب بهمٍّ في آخر أيامه فقد خالفه أحد أولاده وكان يدرس خارج القطر فحمل همّاً كبيراً مات على أثره.

كان بين الأساتذة أستاذ من المسنين الذي أشرف على التسعين من العمر ولكنـه كان عـالماً في اللغـة العربية واسمه يوسف شاهين، وكنت أحضر درسه لأمازحـه ولأنقل لـه بعض المقطوعـات الشعريـة فكان يسر مني بذلك كثيراً، ومن الغريب أن هذا الرجل قد درس اللغـة عند المشـايخ المسلمـين وبخاصـة عند خالد الأتاسي والد هاشم الأتاسي وكان مفتي البلدة. ومن العلماء الأفذاذ وهو واضع شرح مجلـة الأحكام العدلية التي أكملها ولده طاهر أفندي العالم الآخر ووالد صديقنا ورفيقنـا الكبير المـرحوم فيضي الأتـاسي السياسي المعروف ورئيس بلدية حمص لمدة أربع عشرة سنة.

وأبرز الشخصيات في هذه المدرسـة ممن عرفتهم خـلال هذه السنـة الخوري عيسى أسعـد والمطران أبيفانيوس زائد.

كان الخوري عيسى أسعد من أهالي قرية (حب نمرة أو المقعبرة) في وادي النصارى قرب مـرمريتـا، ولكنه عاش أكثر أيامه في حمص، وقد تعلم علماً عميقاً وكان مختصاً في التاريخ وهو واضع تـاريخ حمص في عدة مجلدات، كما كان عالماً في الدين المسيحي، وقد وضع كتاباً في تاريخ الكنيسة وقـد طلبت إليه وإلى إدارة المدرسة أن أحضر دروسه الدينية التي لم تكن مطلوبـة في برنـامج الشهـادة فوافق الطـرفان عـلى حضوري، وقد طلبت الموافقة لأن هذا الدرس كـان خاصـاً بالمسيحيـين من الطلاب. كـان الخوري أنيس المحضر دائم الابتسام مهاباً وخطيباً مصقعاً كما كان أكبر الماسونيين في حمص، وكان وطنياً معروفـاً لقي الكثير من ضغط الفرنسيين في تلك الأيـام وكان صريحـاً في عداء الاستعمـار وكانت لـديه مكتبـة عامـرة ضخمة، كما كان له ولدان أحدهما منير، وقد كان تلميذاً لديّ حين عدت بعد سنوات معلماً لهذه المـدرسة وهو شاب حسن الأخلاق حسن الذكاء وقد انتقل فترة من الـزمن إلى صيدا ثم لا أدري أين أصبـح بعد الأحداث اللبنانية الأخيرة. أما ابنه الثـاني وأظن أن اسمه «كمـال»، فقد هـاجر إلى أمـيركا وقيـل لي انه أصبح خورياً للطائفة الأرثوذكسية في منطقة من مناطق هذه البلاد، كان الخوري يرحب بي في درسه فإذا انتهى من التدريس الكنسـي جاء ببعض الآيات القرآنية التي كان يحفظ منها الشيء الكثير، فكنـا نتناقش في أمور كثيرة منها على مسمع من الطلاب المسيحيين، وأذكر أنه كان يـروي سورة «الحجـرات» التي كان معجباً بها، فكان درسه خليطاً بين الأنجيل والقرآن.

أما الشخصية الثانية فهي المطـران أبيفانيـوس الذي تـوفي منذ سنـوات قليلة بعـد أن بلغ الثـالثة والتسعين من العمر، وكان قد انتقـل من حمص إلى اللاذقيـة أولاً ثم إلى عكّار حيث ظـل إلى آخر أيـامه. اسمه الصحيح خليل الزائد. قد وجد أول أمره شمـاسـاً في عهـد البطريـرك الشهير غـريغوريـوس حداد صديق الملك فيصل المعروف والخطيب المشهور، وقد عرف أبيفانيوس منذ نشأته شاعراً وأديباً، لذلك كان عضواً في الرابطة الأدبية التي تأسست في دمشق في مطلع هـذا القرن، وكـان من أعضائهـا خليل مـردم وشفيق جبري ومحمد البزم وخير الـدين الزركـلي وغير هؤلاء الأفـذاذ من الأدباء، والمطـران أبيفانيـوس شاعر أيضاً وقد أصبح مطراناً لحمص رأساً فانتقل من شماس إنجيلي إلى المطرانية، وهذه قفزة نادرة في نظام الكنيسة الأرثوذكسية نظراً لكفاءته الأدبية وهو صاحب القصيدة الشهيرة: ظبية الأنس إليّ ـ بادري قبل الفوات، وانشري طيباً ذكياً ـ منعشاً في الحياة. وقد لحنت هذه الأبيات وغناهـا مغنون كثـيرون، وكان قد ذهب وهو شماس إلى روسيا حيث درس اللغة الروسية كما درس الكهنوت، وتثقف موسيقيـاً وأتقن فن

الرسم، فكان والحق يقال فناناً بكل هذه الأمور. وكان طويلاً مهاباً عريض المنكبين جهوري الصوت حلو النغمة فكنا نستمع إلى تراتيله فنعجب به لجمال صوته وحسن أدائه. وكان راوية في الشعر كما كان قوياً جداً في النحو، وقد كنت حين دخلت المدرسة، تلميذاً شخصياً له فكان يرعاني ويشجعني بكل شيء، وكان يترجم الشعر الروسي إلى العربية ويعطيني الترجمة فأنظمها شعراً عربياً، كان ينشر في جريدة حمص التابعة للكنيسة، وقد ترجم لي مرة قصيدة لشاعر روسي اسمه «بلمونت» كما أذكر، وعنوان القصيدة «النبات» وهي قصيدة جديدة فعلاً بالنسبة للغة العربية وللشعر وقد نظمتها، وكان النظم بارعاً وموفقاً وقد أعجب بالترجمة الكثيرون من قراء جريدة: حمص، وأظن القصيدة ما زالت محفوظة في أحد أعداد هذه الجريدة لعام ١٩٣٠. لكن المطران كان فيه عيب كبير لم يستطع تجنبه، فقد كان عصبياً لا يقف غضبه عند حدّ وكان جباراً، فكثيراً ما ضرب وصفع وركل برجليه أبرز الشخصيات التي يرى أنها تعرضت له بما يسيئه. كانت هذه العصبية من أسباب اختلافه مع الحمصيين جميعاً، وحمص الأرثوذكس لها حوادث كثيرة في خلافاتها مع المطارنة الذين يفدون إليها. وكان على خلاف شديد مع الخوري عيسى، الرجل الهادىء المسالم فكانا لا يجتمعان، وقد حدثت حادثة طريفة كان لي علاقة بها، فقد دعيت لإلقاء أبيات من الشعر في تكريم المطران بمناسبة عيده «عيد القديس أبيفانيوس» الذي تسمى باسمه، وأقيمت الحفلة في مدرسة البنات للطائفة الأرثوذكسية، وقلت الأبيات وكان فيها المدح الذي أملاه علي الشعر هاتيك الأيام، وجئت في اليوم الثاني إلى الصف الذي يدرّس فيه الخوري عيسى، وحين دخلت بادرني بالآية القرآنية: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾. ووقفت أمام الطلاب لأقول له: والله مظلوم يا أبانا، فضحك ـ رحمه الله ـ، وكم سررت حين دعيت بعد سنوات طويلة لأشترك في الحفلة التأبينية في حمص وألقيت فيها قصيدة أعجبت أصدقاءه وعارفيه.

أما المطران فقد أُخرج من حمص بعد جدال طويل وخلافات طائفية مريرة، فقد كانت أسرة الطرابلسي الوجيهة عند الطائفة والغنية من أشد المعادين للمطران الذي تحدى طائفته كلها، ونقل مرغماً إلى اللاذقية وفي اللاذقية قام بعمل طائفي جريء فقد أقدم على ترؤس كنيسة أسماها «الكنيسة المستقلة»، بمعنى أنها غير مرتبطة بالبطريركية في دمشق، وكان هذا العمل شرخاً كبيراً في الكنيسة لم يوافقه عليه أكثر الناس واضطر بعد ذلك إلى قبول مطرانية عكار وهي من أكبر المطرانيات التابعة للطائفة لأنها تمتد من عكار حتى طرطوس. ومات كما قلت في دير مار الياس القريب من طرطوس، وقد تجاوز الثالثة والتسعين من عمره رحمه الله والمطران من بلدة دير عطية المعروفة على طريق حمص ـ دمشق.

من المفارقات التي صادفتني في المدرسة الأرثوذكسية أنني كنت في صف البكالوريا ـ كما أسلفت الحديث ـ وجاءنا يوماً ثلاثة عشر شماساً من الشباب دفعة واحدة أرسلهم إلى حمص مطران بيروت المعروف جراسيموس مسرّة، وكان بين هؤلاء الشمامسة الذين انتسبوا إلى الصف الثالث والرابع الشماس الياس معوض الذي أصبح بعد مدة طويلة مطراناً لحلب ثم بطريركاً للطائفة كلها، وكان صديقاً لي في أخريات حياته ـ رحمه الله ـ هذا الرجل هو الوحيد بين هؤلاء الشمامسة الذين استمروا في الحياة الكنسية، وكان لي بينهم أصدقاء منهم: جورج فريجة من زحلة، وواحد اسمه نيغون وآخر اسمه أفرام، وكلهم ذهبوا ولم أعد أسمع بأحد منهم إلا فريجة هذا الذي ترك ثوب الكهنوت فيما بعد وسافر إلى أميركا وعاد بعد مدة غنياً بالغ الغنى، ولكنه أُصيب في الأحداث اللبنانية الأخيرة فذهبت ثروته ومات على أثرها. وكان من بين هؤلاء الشمامسة شماس أسنّ منهم بقليل اسمه أرسانيوس وأصله من الكورة اللبنانية، لكنه كان موهوباً في صوته، لقد كان يملك صوتاً قوياً مؤدياً وكان أحسن مرتل في الكنيسة كما قيل لي، ولكنه كان يشكو من بعض الاضطراب في سلوكه فهو عصبي وسوداوي المزاج، ولا أدري ما صنع الله به بعد تلك الحقبة.

من أبرز أصدقائي في هذه المدرسة كان السيد سليم معلوف من العائلة المعروفة في زحلة، وكان في الصف الثاني ومعه رفيق لبناني نال بعض الشهرة فيما بعد واسمه إلياس خليل زخريا، لقد أصبح فيما

بعد بسنوات شاعراً بارزاً في الحزب السوري القومي وهو الذي نظم لهم هذه الأبيات التي يقول فيها:

مواكب تمخر نحو الشروق ترى تبلغ الشط أم ترجع

ومن الغريب أن الشاعر في المدرسة كان سليم المعلوف وكان إلياس لا يقول شعراً ولا نثراً ولكنه كان ذكياً على شيء من الخبث المقبول، وقد أصبح فيما بعد موظفاً كبيراً كما قيل لي في وزارة الاقتصاد اللبنانية وأصيب بوجع في عينيه ثم لم أعد أقف على شيء من أخباره. أما سليم فقد التقيت به آخر مرة في حفل تأبين ابن عمه الشاعر المعروف شفيق المعلوف أخي فوزي المعلوف ورياض المعلوف صديقي الذي ما يزال حياً. ولكن سليماً مات منذ سنتين ـ رحمه الله ـ (أي سنة ١٩٨٧) وكان في آخر أيامه نائباً عن زحلة في المجلس النيابي اللبناني.

وجاءت أيام الامتحانات فأخذت بالدرس الجدّي وتقدمت للفحص في شهر حزيران ولكني رسبت للمرة الثالثة، وقد بلغت من الهم واليأس ما لا حدّ له وقضيت بعد الفحص أياماً في حمص من أسوأ أيام حياتي. ومن المضحك في هذه المناسبة أن صديقي رفيق الفاخوري وصديقي الآخر علي الأبرش كانا يصعدان إليّ في الفندق ليعزياني، وكنت أتقبل تعزيتهما تقبلاً حسناً يذهب عني بعض الحزن والأسى، ولكن رفيقاً تحدث إليّ بعد مدة قائلاً: لقد كنا ننزل من عندك لنبدأ الضحك العميق إلى أن نصل إلى المقهى، وقد ثارت ثورتي حين سمعت هذا الاعتراف ورميتهما بفقدان العاطفة. عدت إلى سلمية وكأني عائد من معركة فاشلة وظللت مختبئاً في البيت أياماً، ولكني كنت أتعزى ببصيص من الأمل أترقبه في شهر تشرين القادم. وقلت لأخي ذات يوم لقد اتفقت مع ابن عمي مصطفى على أن ندرس سوية اللغة الفرنسية في حمص على أستاذ أعرفه هو الأستاذ المعروف وجيه كرامة الذي كان مرجعاً في اللغة الفرنسية، ونظر إليّ أخي مبتسماً ابتسامة لم أنسها حتى الآن، لقد كانت بسمته مزيجاً من السخرية واليأس والاستخفاف، ومع ذلك وافقني على الفكرة وذهبت أنا وابن عمي فنزلنا في غرفة واحدة في فندق «السلمية» كما كنت أسميه، فقد كان إلى جوارنا فندق كانت تضحكني اللوحة التي وضعت على بابه والتي جاء فيها: بسم الله الرحمن الرحيم: أوتيل صافيتا.

كانت مدرستنا انتقلت من بيت آل البنك إلى بيت السيد سليمان على ساقية حمص وقرب مقهى الجزار الذي زال وأصبحت مكانه بناية كبرى لآل الأتاسي من أولاد صديقنا المرحوم محمد الخالد الأتاسي. وفي هذه المدرسة تقدمت للفحص للمرة الرابعة ولكني لا أدري ما الذي طمأنني هذه المرة، فقد خرجت مسروراً، وبعد أيام قليلة جاءت البرقية التي تنبئني بنجاحي وكدت أجن من الفرح وسهرنا ليلتها حتى الصباح وقد تداخل في سهرتي هذه عوامل ثلاثة:

أولها: السرور الذي انتابني بعد السقوط المتواصل ولم أكن أستحق السقوط في رأي الكثيرين. وثانيها الخوف مما سيأتي من فحص شفهي فيه الرياضيات والعلوم التي لا أفقه فيها شيئاً، والشيء الثالث وكان من أهمها، أنني سأرى دمشق وكانت مدينة أحلامي وغاية آمالي. البلدة التي طالما تحدث إليّ عنها رفاقي القدماء في المدرسة الزراعية..

كان لي في النجاح رفيقان من مدرسة الروم هما الشماس موسى شحود الذي ترك اللباس الكهنوتي فيما بعد وهو من دير عطية وقريب للمطران أبيفانيوس وكان ذكياً مجتهداً، كما كان الأول في صفه دائماً والثاني واسمه عبدالكريم فاضل اليازجي وهو من مرمريتا وكان صديقاً ظريفاً. ونجح معنا من التجهيز برهان الأتاسي، ولقد أسفت كثيراً لسقوط التلميذ العبقري أديب لوقا الموسيقي الخطاط والعازف على آلات عدة والذي كان يجيد الغناء إجادة تامة، كما كان من الطلاب البارزين اجتهاداً ومقدرة ولا أدري ما الذي أسقطه إلا أنه كان لاهياً بأمور أخرى صرفته عن الدراسة من مثل الكشفية التي كان يهتم بها وغير ذلك؟ كما كان الولد المدلل لعائلته، وقد أصيب المسكين بعد مدة بمرض عصبي أفقده عقله فهاجر إلى أميركا وتوفي بعد مدة قصيرة وكان نابغة حقاً. في الصباح الباكر كنت في كاراج «شاكر باليقا» الشهير في حمص واخترنا سيارة ضخمة وسرنا في طريق دمشق وأنا أكاد أطير فرحاً، واجتزنا حسية وقارة

ووصلنا إلى دير عطية حيث عرجنا على بيت رفيقنا موسى فنزلنا واسترحنا قليلاً وأكلنا بعض العنب الـذي قدمته لنا والدة موسى، ثم أكملنا طريقنا إلى النبك فالقطيفة فدمشق ومشينا من شارع القصاع إلى شارع بغداد، وكلها أماكن كنت أتخيلها قبل أن أراها، وعرجنا على سوق ساروجا وحططنا الرحال في حي «جوزة الحدباء» الشهير وفيها كان فندق «اللنبي» الذي كان ينتظرنا.

١٩
في دمشق

وجدت في الفندق صديقي رأفت الحسن الأتاسي كما وجدت صديقنا الدمشقي القديم أحمد الأسطواني وسرعان ما غسلت وجهي وخرجت من الفندق إلى ساحة سوق الخيل ودخلت سوق علي باشا الشهير بفاكهته ونظافته ودخلنا مطعم «وردة»، فتغدينا غداءً شهياً وقلت لصاحبي الأسطواني أريد أن أتحلى من بوظة الشام الشهيرة؟ واستجاب صاحبي وخرجنا من سوق علي باشا إلى المرجة الشهيرة التي وقفت أتأملها وحافلات الترامواي الطريفة تروح فيها وتجيء، ووصلنا إلى السنجقدار وكانت آثار الحريق الذي أصابه عام ١٩٢٨ ماثلاً للعيان ولم يكن فيه ساعة مررنا إلا بعض العشش التي اتخذت دكاكين لبيع الأشربة أو الدخان أو الكاظوظ، ووصلنا إلى سوق الحميدية الذي هالني منظره وأعجبني وسرت مع صاحبي متباطئاً وأنا أقرأ لوحات الدكاكين التي سمعت عنها من مثل: زين أخوان، وسنجر، والقدسي، وعبيد، وظللنا سائرين إلى مصنع بكداش للبوظة وهو دكان كبير وسمعت ضجة الصانعين من بعيد وهم يخبطون الحليب المجمد في براميل صغيرة بيضاء وأكلت البوظة الشهية التي كنا نتلهف لها في سلمية ولم نكن نصيب منها إلا كميات قليلة لا تشبع ولا تغني. كما تذوقت أكلة جديدة لم نسمع بها وهي «المحلاية» التي تصنع من جبنة الغنم وتغطّى بالجوز المفروم، أما «كشك الفقراء» فقد أرجأت أكله لأني شبعت، وهذه الأكلة هي التي كانت تذكرها لنا والدتنا - رحمها الله - والتي كانت تأكلها أثناء إقامتها في دمشق مع والدي بعد خروجه من السجن وإجباره على الإقامة في دمشق لمدة ستة أشهر. وقمنا من دكان بكداش لنسير إلى الجامعة السورية - كما كانت تسمى - وهي البناء الجديد الذي ما تزال تقام فيه الاحتفالات الخطابية حتى الآن وهي مركز رئيس الجامعة ومكاتبه، وهذا البناء بناه الدكتور رضى سعيد الشهير رئيس الجامعة في الثلاثينات.

كان الفحص التكميلي للبكالوريا للدورة الثانية يقام في شهر تشرين الأول وفي بهو بناء رئاسة الجامعة الكبير الذي قسم إلى مناطق، وفي كل منطقة من البهو جلست لجنة فاحصة كما جلس في الغرف بعض اللجان، وكان الفحص علنياً يستطيع حتى المارة أن يطلعوا على ما يجري فيه، وكان ذلك بدء الإحراج، وكنا نخاف في الرياضيات من ذكر جودة الهاشمي الذي اتصف بجديته ومقدرته وقسوته في الفحص، وابتعدت على البديهة عن اللجنة التي هو فيها وانصرفت باهتمامي إلى لجنة ثانية كان فيها المرحوم الأستاذ رشدي بركات ومعه أستاذ فرنسي وقلت: هذه لجنتي، أما في العلوم فكان المسيطر هاشم الفصيح ومعه أحد رجال الدين المسيحيين من الرهبان، وهاتان اللجنتان هم اللتان تسقطانني أو تنجحانني وأخذت أتطلع في كتبي ودفاتري قصد المراجعة فلم أراجع شيئاً ولم أفهم شيئاً مما لدي، وبدأت بالدروس السهلة، العربي ثم التاريخ ثم انتقلت إلى الكيمياء، وفي الكيمياء سئلت سؤالاً هو كما أذكر إلى الآن «غاز الميتان» فاندفعت أكتب رمز هذا الغاز الذي كنت أحفظه من أيام المدرسة الزراعية، وبدأت الكلام بلغة فصيحة جلبت نظر رجل الدين الفاحص الثاني فسررت لالتفاته إليّ، ولكن هاشم الفصيح، وكان قاسياً وإن كان صديقاً لي يضاحكني أحياناً، ويبتسم، لقد قاطعني وطلب إليّ أن أكتب طريقة استحصال هذا الغاز على اللوح وألح لي أن الكلام الفصيح لا ينفع في العلوم وإنما ينفع في الشعر، وكأنه كان يغمزني غمزاً مزعجاً، وتوقفت طبعاً فقد كنت قلت كل ما أعرف وسألني سؤالاً غيره فلم أجب، فانتقل إلى «الفيزياء» وكان السؤال مؤلماً حول «الكالفانومتر» وتحدثت قليلاً ثم سكت، وقال لي بعد ذلك: حسناً، تفضل، وخرجت وكأنني أخرج من مستنقع، ووقفت قليلاً من بعيد أنظر إلى الذين شاهدوا فحصي فوجدت الابتسام يعلو الوجوه وبعد قليل فرغت لجنة الرياضيات من كل زبائنها ورأيت الأستاذ بركات يناديني ويطلب إليّ أن أباشر الفحص ونزلت عند رأيه بعد أن شعرت بتعب شديد وبحمى فاجأتني دون سابق إنذار، ووقفت أمام الأستاذ وكان شكله يوحي بالاطمئنان فقد كان - رحمه الله - خفيض الصوت يحمل

شاربين أسودين مفتولين وبزة، نظيفة وهو من الذين درسوا مع البعثة السورية في فرنسا ومددت يدي إلى كيس الأسئلة فجاءني بحث «المخروط الناقص» وسرعان ما عرفت السؤال حتى نسيت الهندسة كلها وقال لي الأستاذ: ارسم المخروط الناقص، فأخذت أحاول الرسم ولكني ارتبكت وتعبت وكأنه أشفق عليّ فقال لي: ماذا تعرف في الجبر؟ قلت: السلسلة الهندسية، قال: حسناً، خذ هذا الجدول وحل لنا المسألة الآتية وأملى عليّ مسألة لا يكاد يعرف بها أوقليدس ونظرت في جدول «اللوغاريتم» في يدي فلم افهم منه شيئاً ونظرت إلى الأستاذ ونظر إليّ ثم قال تفضل.

خرجت من فحص الرياضيات وأنا أكاد أنفجر من الغيظ فقد أضعت السنة وأضعت الشهادة وفقدت الدراسة إذ ليس من المعقول أن أعود إلى أخي لكي أثقله بنفقتي التي لم نحصل منها على فائدة، ووصلت إلى باب البناء وأنا محطم وحرارتي تزيد على الأربعين، هذه الحرارة التي لم أعلم سببها حتى الآن إذ لم أكن أشكو من شيء قبلها، وجلست أبترد على البلاط أمام سلم البناء والناس داخلين خارجين، منهم الضاحك والباكي حسب فحصه، ومنهم من لا تلوح على وجهه علامة فهو متفرج أو شامت، جلست طويلاً وأنا ساهٍ ساهِم أنتظر النتيجة التي ستذاع مساءً الساعة الثامنة، وبينما كنت كذلك لمحت معلم الرياضيات الفرنسي الذي فحصني خارجاً من البناء وقد أنجز عمله، فركضت وراءه وناديته كالمجنون فوقف محملقاً فيّ وكأنه عرفني فقلت له: هل مر بك يا سيدي الأستاذ صفر في الرياضيات بعد الظهيرة، فابتسم مستغرباً السؤال وقال لي: كلا ليس عندنا أصفار؟ وقفزت من فرحي كالمجنون وعدت إلى حيث كنت قاعداً وقد هدأت أعصابي، فهذا الدرس الذي كنت خائفاً فيه من الصفر، وبعد قليل خرج الأستاذ بركات فوقفت أمامه أعرض نفسي فنظر إليّ مبتسماً وسلم فازداد أملي وضوحاً، وبعد قليل فتح باب البناء على مصراعيه ووقف المستشار «كوليه»، يتلو أسماء الناجحين وبدأ يقول: أحمد، وكدت أقفز لهذه النغمة، ولكن الاسم كان: أحمد عيسى، ثم تلاه أحمد الصناديقي وكدت أجن هلعاً ثم قرأ: أحمد حيدر، وتخاذلت ركبتاي واستندت على شاب بجانبي ثم سمعت بعد ثانية المستشار يقول: أحمد الجندي. وقفزت من مكاني كالملسوع وركضت في الطريق والأصحاب يركضون معي يريدون تهنئتي وظللت على ركضي حتى وصلت إلى الفندق واضطجعت وأنا أكاد أفقد صوابي من التعب والإرهاق. ونمت نوماً منقطعاً من التعب، ولكني أفقت قليلاً حوالي منتصف الليل وإذا بي أسمع صوت بكاء إلى جانبي فالتفت فإذا صديقي الأتاسي رأفت يبكي ويضرب رأسه بخشب النافذة ويشتم ويجدف وقمت إليه فقال: لقد ضاعت سنتي يا أحمد، لقد سقطت بعد أن نجحت في دورة حزيران، لعن الله الفحص الشفوي، لقد أضعت كل شيء ورأيته قد اربدّ وجهه وهجم على النافذة يريد أن يلقي بنفسه منها، فهجمت عليه وأمسكت به وكان له أبناء عم وأصحاب في الغرف المجاورة من الفندق وكانوا ما يزالون ساهرين فرحاً أو حزناً وفق نتائجهم فأشرت إليهم أن يلاحظوا ابن عمهم الذي همّ بأن ينتحر؟

وفي الصباح الباكر أبرقت إلى أخي بالنجاح النهائي وكانت فرحته كبرى في البلدة كلها، فقد كنت أول طالب ينجح بالبكالوريا الأولى السورية في البلدة، أي في السلمية.

في الحقوق

عدت إلى سلمية شامخ الأنف عالي الجبين ففرح الأخ وفرحت الوالدة وتقرر أن أباشر الجامعة بعد أيام لأننا كنا في تشرين الأول سنة ١٩٣٠. وبالفعل دبر لي النفقة أخي الذي كان في ضيق من معاشه، فقد كان عنده خمسة أولاد يتعلمون وعنده أخي وأنا، والمواسم من أسوأ ما يمكن والحبوب في أرخص حال ومع ذلك كان يسير مع الأمر الواقع ولكنه كان غارقاً بالديون، ولهذه الديون أسباب سأفصلها فيما بعد. كان أخي يعطيني في تلك الأيام اثنين وعشرين ليرة سورية وكانت تكفيني مع شيء من الاقتصاد طبعاً، لأني كنت أختار الغرف الرخيصة والفنادق الرخيصة لمنامتي، ولكني كنت آكل مع الناس فلا اقتصد بطعامي. سكنت أول الأمر في حي البحصة في أوتيل أصله دار عتيقة، ومكثت هناك أياماً إلى أن جئت يوماً فوجدت غرفتي التي أنام فيها وقد طافت بالماء لأنها أوطأ من أرض الدار، وانتقلت من تلك الدار الفندق الرخيص إلى دار أخرى لها قصة:

كان سكني الجديد، عبارة عن غرفة في حي أو زقاق من أزقة سوق ساروجة الداخلية يسمى حي «حوش التوتة» يُدخل إليه من الشارع العام للحي ثم يستدير المرء ليدخل في زقاق مظلم أشبه بالدهليز، وفيه باب الدار فإذا فتح لك الباب وجدت أرض دار صغيرة جداً تطل عليها الشمس من أعلى، وفيها سلم منتصبة انتصاباً مخيفاً وفي أعلاها باب يؤدي إلى غرفة أخرى، وهي الغرفة التي سأنام فيها، ورغم المزعجات في الطريق والدهليز فقد كانت الغرفة نظيفة نظافة ظاهرة مما طمأنني قليلاً، والذي طمأنني أكثر أن البيت كان خالياً من الرجال فلم يكن فيه إلا امرأة وابنتاها، الكبرى وكانت ممرضة مأذونة وعمرها كان ثمانية عشر عاماً، والثانية وكانت تحضر الشهادة الابتدائية وعمرها خمس عشرة سنة، ومن الغريب العجيب أنني كنت في العشرين من عمري، وكنت شاباً وسيماً ولكنني لم أر وجه البنت الصغيرة خلال أربعة أشهر قضيتها في هذا البيت لأنها كانت محجبة ولأني لم أكن أحاول رؤيتها أو التقرب منها أو التفكير في الحديث معها أو التغزل بها، ولقد كنت بدأت أعرف شاعراً يهمه الجمال والغزل والحياة الراضية المطمئنة في دنيا الحسان، أما أختها الكبرى فلم أرها إلا من صورتها التي أرتني إياها أمها، وحاولت أن أعرف أصل هذه العائلة فكانت الأم تخفي عني كل شيء، وكل ما كانت تقوله لي إنني وإياها أقرباء لأنها من جهة «مغرّب» ومغرّب هذه يعني أن تكون إما إسماعيلية أو علوية، ومضت المدة التي قضيتها عند هذه العائلة دون أن أتأكد من أصلها.

أما حياتي في هذا البيت فكانت على الشكل التالي: كنت أقوم في الصباح الباكر فتصعد الأم وحدها بفنجان القهوة ولا تدخل إلى غرفتي، بل تقف على السلم وتضع الفنجان في العتبة من الغرفة فآخذه وأشربه ثم أنزل إلى معهد الحقوق، وعند الظهر أعود إلى البيت بعد أن أتناول غدائي في المطعم، وعصاري النهار أخرج ثانية لأعود في أنصاف الليالي، وكثيراً ما وقفت مطولاً في هذا الدهليز اللعين أفتش عن ثقب الباب، كذلك الذي كان يفتش عن ثقب الباب وهو شارب ثمل فصاحت به امرأته وقد رأته: أتحب أن أرمي لك مفتاحاً؟ فأجابها: كلا، ارمي لي الثقب. وهكذا كان يمضي نهاري وكثيراً ما كنت أتفق مع أم البنات لتصنع لنا غداءً كنت أشارك في أكثره وكنت آكل في غرفتي وهي وبناتها يأكلن وحدهن. ولقد ظللت هكذا أربعة شهور كاملة مع أنني عرفت فيما بعد أن الممرضة كانت متزوجة من محام حلبي عرفته فيما بعد، وقد طلقها ثم أقنعها بأن تجهض نفسها مما سبب لها أذى كبيراً وقد فقدت قابلية الإنجاب بسبب ذلك.

وكنت مرةً بعد أن تركت الحقوق سائراً في أحد شوارع دمشق وأظنه شارع بغداد وإذا بامرأتين تقفان إلى جانبي وتسلمان عليّ فلم أعرفهما، وحين حدثتهما علمت أنهما الأختان اللتان كنت عندهما منذ أشهر فوقفت معهما دقائق ثم تركتهما ولم أعد أعرف عنهما شيئاً، ولكنه بلغني بعد مدة أن الأولى

تزوجت وطلقت أكثر من مرة، أما الثانية فقد تزوجت من رجل محترم له مقام مرموق وكانت أيضاً ممرضة كأختها.

ودارت الأيام كما يقال، وبينما كنت في حماه انقل صورة عن بعض القرارات على الآلة الكاتبة وإذا بي أقرأ في قرار من قرارات وزارة الصحة اسم الفتاة الكبرى، وانها عينت في وظيفة تمريضية في أحد المشافي فقررت السفر إلى دمشق وانا اقول بيني وبين نفسي:

وذو الشوق القديم وإن تعزى مشوق حين يلقى العاشقينا

سرت إلى دمشق، ولكن كيف وأين القاها؟ وجلست مع صاحبي المرحوم سالم اليافي فأشار عليّ بأن أسأل وزارة الصحة وهكذا كان، وصعدت إلى حي الشهداء وإلى «زقاق الباشا» الذي كان يعج بالطلاب مستأجري الغرف، وقدرت مكان البيت وطرقت الباب وإذا بالباب يفتح وتظهر لي الأم. وقفت مبهوتة وهي تقول لي: والله لقد قال لي قلبي أنك أنت، والله أن قلبي لا يكذبني، ودخلت فوجدت بيتاً مليئاً بالفرش الراقي والأدوات الكهربائية والبيانو والعود، إنه كمدرسة للموسيقى، ورأيت الفتاة الكبرى وهي في أحسن حال من اللباس والزينة والحلي فسلمت وجلست ولكنها كانت هذه المرة جادة في لقائها وكأنها لم تكن سعيدة بهذا اللقاء، وقد سمعت فيما بعد أنها تزوجت وطلقت مرات عديدة وأن هذه الأشياء التي تملكها مع البيت نتيجة طلاقاتها وزيجاتها المتعددة، وغادرت البيت بعد ذلك بقليل ولم أعد أرى وجهها إلا في المصادفة التالية الغريبة.

فوجئت حين عرفت أن الفتاة الكبيرة تزوجت مجدداً من رجل له شهرته وسمعته الطيبة في البلد وكان صديقي، فأحببت أن أتأكد من الأمر واصطنعت زيارة زرت بها صديقي وفتحت هي لي الباب وتصنعت عدم معرفتها ودخلت وجاء الرجل ومعه الفتاة «السابقة» وقدمني لها وقال: زوجتي فلانة وذكر اسمها وأصررت على عدم الاهتمام وهي أيضاً قابلتني باصطناع الجهل، وبعد قليل جاءتني بفنجان القهوة وجلست بعض الساعة ثم ذهبت وصرت أعيد الزيارة بين مرة وأخرى وظللت هكذا إلى أن توفاه الله فلم أعد أعرف عنها الشيء الكثير أو القليل، وأظن أنها اليوم قد تجاوزت الخامسة والسبعين لأنها كانت عام ١٩٣٠ ابنة ثماني عشرة سنة فهي إذن من مواليد ١٩١٢ ولكن اختها لم تزل موجودة عند زوجها الذي أعرفه أيضاً.

٢١
المعهد

كان معهد الحقوق في مديرية التربية الحالية على ضفة نهر بردى وبجوار التكية وكان البناء قبل الحقوق داراً للمعلمين بزمن الأتراك، وحين دخلت الحقوق رافقني فيه برهان الأتاسي وروحي الأتاسي من حمص، ومن دمشق رافقني عاصم النائلي الذي ذهب في حادث سيارة وكان شاباً بارزاً كما رافقني زهير الدالاتي أحد موظفي وزارة الخارجية وماهر ابن الشيخ عبدالقادر المغربي وكان محاسباً في وزارة الداخلية، ومن لبنان كان جوزف بحمدوني الشاب المثقف الذي كان يتقن اللغتين الإنكليزية والفرنسية كتابة وخطابة، وكذلك توفيق يوسف عواد القصاص اللبناني والسفير في خارجيته والذي قتل في أحداث لبنان الأخيرة عام ١٩٨٩، كما كان في صفنا خالد بكداش «قوطرش» سكرتير الحزب الشيوعي المعروف. يضاف إلى هؤلاء عبدالله تامر قريبنا في سلمية وهو ابن الأمير تامر الوجيه المعروف في سلمية والذي مرّ بنا ذكره عدة مرات. وكان غريباً أن ينتسب عبدالله تامر للمعهد لأنه لم يكن يحمل شهادة البكالوريا، وكان ينادى في الصف على الأسماء فكان ينادى على اسمه هكذا: عبدالله المصطفى؟ وسألته: أنت عبدالله تامر فكيف ينادونك باسم جدك الحاج مصطفى تامر أو باسم أخيك مصطفى فكان يحدثني بما لم أفهم؟ وبعد مدة علمت ما يلي:

كانت المنطقة العلوية ومنطقة جبل الدروز ومنطقة اسكندرونة، قبل انفصالها، مناطق مستقلة تعتبر شهادتها الثانوية منفصلة عن الشهادة السورية وتقبل للفحص الاختباري في الجامعة، فإذا نجح الطالب دخل الجامعة دون بكالوريا، ولكن عبدالله سوري الإقامة والهوية، لذلك ذهب إلى أقربائه في القدموس فاستحصل على شهادة نفوس باسم شاب من سنه هو أبو عبدالله بن مصطفى أبي عجيب وأنا أعرف هذا الشخص، فصار اسم عبدالله باسم هذا الشاب أعني عبدالله المصطفى وحمل الشهادة المستعارة، وكان رئيس الجامعة وكلية الحقوق السيد عبدالقادر العظم صديقاً للأمير ميرزا قائمقام سلمية وعم عبدالله تامر، إذ كان هذا العظم قائمقاماً في مصياف قبل الحرب العالمية الأولى فسهل أمر اختبار عبدالله واجتاز الفحص بسهولة، بينما أنا بقيت ثلاثة سنوات حتى استطعت الحصول على البكالوريا، ولكني لم أكن نادماً فقد ملئت بهذه المدة ثقافة في كل ناحية بينما اقتصر عبدالله على ثقافة شهادة السرتفيكا الفرنسية فقط. وقد جاء إليّ الذي أخبرني بهذه الحقيقة وكان من أصحاب المشاكل الذين يصطادون بالماء العكر وأقنعني بأن أخبر عن هذا التزوير المفضوح، ولكني أسكته وقلت له يبدو أنك لا تحبني ولا تحبه أو أنك تكره عائلتنا على اعتبارك موتوراً مناكلينا، وترفعت عن الإخبار وذكّرت عبدالله بذلك بعد ذلك بسنوات فقال لي: لِمَ لم تخبرني بهذا المخبر؟ وقلت له: لأني لا أحب الإخبار كله وقد مات الرجل الآن ولو لم يمت لما أخبرتك، ثم قال لي: إنني كلي ثقة بك وبترفعك عن مثل هذه المهاترات التي قضينا عمرنا بها كما قضى آباؤنا وأجدادنا أعمارهم فلم يفيدوا شيئاً منها.

أول أساتذة المعهد هو المدير عبدالقادر العظم وهو من نسل أسعد باشا العظم صاحب القصر المشهور بدمشق وابن عم خالد العظم رئيس الوزارة السورية المعروف. كان من خريجي كلية الحقوق في استامبول وقد تولى بعض الوظائف الإدارية ثم عين مديراً للمعهد حين تأسيسه، وقد كان ابن عمه محمد فوزي باشا العظم والد خالد العظم صاحب نفوذ بزمن فيصل الأول إذ كان وزيراً من وزرائه، وقد يكون لهذا الوزير تأثير في اختيار هذه الوظيفة لعبدالقادر العظم المشار إليه.

لم يكن هذا المدير يهتم بالدرس الموسع اللهم إلا الدروس التي قرأها في المدرسة باستامبول والذي أعتقد أنه تركها منذ أن تخرج من هذه المدرسة، كان يدخل الصف في معهد الحقوق بأيامنا وقد حمل كتابه، ثم يبدأ القراءة ثم يبدأ بشرح الجمل جملة جملة ونحن عنه غافلون، فكل منا لاهٍ بكتاب أو جريدة أو بحديث، كما كنت أفعل أنا لأن هذه الطريقة في التدريس ـ أعني طريقة القراءة ثم الشرح ـ هي أتفه

الطرق وأقلها فائدة، وكان قد قام بترجمة كتاب للاقتصادي الفرنسي الشهير «شارل جيد» وكلف الأستاذ المغربي أن يصححه من ناحية اللغة العربية فكان كلما صعبت عليه جملة مما كتبه هو وترجمه، ينحي باللائمة على الشيخ عبدالقادر الذي لم يكن له ذنب، وقد حفظت عنه حكايات كثيرة تدل على اهتمامه بالإدارة قبل الدرس فمرة جاء أستاذ كبير من فرنسا يسأله: من أية مدرسة اقتصادية سيادة المدير، فأجابه: من مدرسة استامبول، وكان الفرنسي يقصد إحدى المدارس الإقتصادية مثل مدرسة: شارل جيد أو آدم سميث، أو بول لورط بوليو أو غير هؤلاء. لقد كان رجلاً بسيطاً كما أعتقد، ولكنه مرة تسبب بإسقاط أحد التلامذة سنين عديدة وفي كل مرة كان يرسل إليه من يقول له أثناء الفحص: لا تكمل فحصك، لأنك لن تنجح وكان يسقط بالفعل لأن المدير كان يسقطه ولم يعرف أحد سبب هذه النقمة ولا أحد كان يعرف كيف كان الأساتذة في مجلسهم الجامعي يقبلون هذا التصرف من المدير ولعل له عذراً وأنت تلوم.

الشخص الثاني في معهد الحقوق لا بل أهم شخص كان السياسي الشهير والعالم الكبير فارس الخوري كان يدرّس المالية وبعض دروس الحقوق، وأصله من قرية الكفير اللبنانية القريبة من حاصبيا، وكان يحمل شهادة البكالوريوس من الجامعة الأميركية ويجيد الإنكليزية ويتكلم الفرنسية، وكان شاعراً ولكن شخصيته السياسية طغت على شخصيته الشعرية وشعره مقروء جيد تنقصه النغمة الأصيلة التي توجد عند الشعراء الأصلاء، فهو شعر العلم والدرس لا شعر الموهبة والإلهام. وكان قصيراً ضخم الرأس ضخامته تنبيء بما يحويه رأسه من علم ومعرفة وله نكت سياسية معروفة. كان عضواً في البرلمان وقد دعي لعقد جلسة أرادها الفرنسيون ليقرروا أموراً لا يرضاها الوطنيون فلم يحضر وأرسل برقية يقول فيها: أعتذر عن الحضور بسبب الضغط، وكان مصاباً بمرض الضغط فعلاً، والمعنى الآخر لا يحتاج إلى تفسير. وقرأ أحد تلامذته نصاً أمامه فكان يضم آخر الكلمات كلها فقال له: يا فلان أراك تحب الضم.

والأستاذ الثالث هو شاكر الحنبلي خريج مدرسة الملكية شاهاتي الإدارية في استامبول وكان عالماً بالحقوق والإدارة وشغل مناصب إدارية عالية ثم أصبح وزيراً للعدلية مراراً، وهناك فائز الخوري شقيق فارس الخوري الذي كان خطيباً بارعاً ومحامياً جزائياً مشهوراً وصاحب نكتة لاذعة، وقد كان أستاذاً لمادة الجزاء، لكنه كان يهمل دروسه بسبب انشغاله بالسياسة وكان يتكلم الفرنسية والتركية. ثم هناك سعيد محاسن العالم الحقوقي وخريج حقوق استامبول، وقد كان أكبر المحامين حقوقياً في سوريا وكان مصاباً بلعثمة في لسانه بما يشبه العيّ وقد يمتنع عليه الكلام أحياناً، لكنه كان عالماً كبيراً في مادة «المجلة».. وهناك أساتذة آخرون لم يكونوا يبلغون مرتبة من عددتهم لك منهم محسن البرازي الذي كان معيداً ومترجماً لمستشار العدلية الذي كان يعطي بعض الدروس فيترجمها له أثناء الدرس، ومنهم عثمان سلطان الطرابلسي الأصل الذي لم يكن له أثر في المعهد، وغيرهم ممن لا ضرورة لذكرهم هنا.

قبل التحدث عن معهد الحقوق كان لا بد لي من قضاء سنة أخرى هي السنة الثانية عشرة من الدراسة الثانوية وهي سنة في حقيقتها تكميلية، فقد كان أبرز ما في هذه السنة درس الفلسفة وكان النجاح فيها أسهل بكثير من النجاح بالقسم الأول.

٢٢ مكتب عنبر

«عنبر» وقد سمي هذا المكتب باسم رجل من أغنياء اليهود وهو الذي بنى هذا البيت الكبير المؤلف من عدة بنايات وساحات متصلة يقع في ملتقى طرق بين الخراب والقيمرية والصواف وغير ذلك، وقد اختير ليكون المدرسة التجهيزية الكبرى في القطر السوري، التي يصل عدد صفوفها إلى اثني عشر صفاً، وهو المكتب السلطاني كما كان يسمى بزمن الأتراك، وقد تخرج في هذا المكتب كل الجيل السابق ممن عاصروا زمن السلطان عبدالحميد ورشاد والحكومات المتعاقبة إلى الحكومة الفيصلية العربية ثم عهد الاستعمار الفرنسي حتى سنة ١٩٣٦ حين تغير محل المكتب وانتقل إلى تجهيز ابن خلدون الذي بني حديثاً بعد إهمال مكتب عنبر.

باشرت الدخول إلى مكتب عنبر وأصبحت في الصف الثاني عشر «فلسفة»، كان المدير قد أصبح الحراكي نفسه الذي كان في حمص ثم نقل في تلك السنة إلى دمشق، وكان عدد الطلاب في الصف الأخير الذي انتسبت إليه أي الثاني عشر حوالي ثلاثين طالباً، ١٤ طالباً للفلسفة و١٦ للعلوم «رياضيات وفيزياء وكيمياء». كان من رفاقي في صف الفلسفة برهان أتاسي وأكرم الحوراني وأكرم البيطار وسامي طنطاوي وأحمد عيسى وخالد الطباع وإبراهيم البرازي ومصطفى عبدالباقي وحسن قاسم آغا وهؤلاء من حماه.

كان أبرز الأساتذة في مكتب عنبر من حيث القدم والتقدير جودة الهاشمي الذي أصبح فيما بعد مديراً لهذه المدرسة حين انتقلت إلى وسط المدينة من الجهة الغربية، وكان مشهوراً بالرياضيات كما كان معتل الجسم أعرج ومشوه الوجه نتيجة إصابة أصيب بها حين كان يدرس في أوروبا، وكان جاداً إلى أبعد الحدود بحيث لم يُرَ مبتسماً أبداً، حتى إذا أراد الابتسام لم يكن يستطيع ذلك لقلة العادة. ولم تكن لي علاقة به فقد كان مدرسنا هو الأستاذ رشدي بركات معلم الرياضيات الذي فحصني بالشفهي وكان له الفضل في نجاحي، ولذلك قصة طريفة:

بعد أن درسنا مدة من الزمن وكان الأستاذ بركات يدرّسنا المشتقات في الرياضيات والفلك وكنت ضعيفاً في الجانبين، وفي يوم من الأيام ناداني للمذاكرة فلم أجب بشيء، ونادى زميلي وكان يجلس إلى جانبي أكرم الحوراني فلم يجب، فقرر معاقبتنا ومنعنا من الخروج من المدرسة يومي الخميس والجمعة. وجن جنون زميلي أكرم الذي ذهب ضحية كسلي، ولو أجبت لما كان هنالك داع لإحراجه وسؤاله، وفي المساء خرج الطلاب وبقيت أنا وأكرم يلوم أحدنا الآخر، وصعد أكرم إلى المدير معترضاً يقول: إن الصف الثاني عشر لا يجوز توقيفه هكذا كالأولاد الصغار، وكان جواب المدير كعادته ساخراً مضحكاً، قال لأكرم: أنا ليس عندي كبير غير الجمل فلا اثنا عشر ولا من يحزنون، وخرج أكرم يجر أثواب الفشل وهو يجدف ويشتم، ولكنه ما كاد يصل إلى حيث كنت أنا حتى جاء خبر من المدير يسمح لنا بالخروج من المدرسة كغيرنا من الطلاب.

وجاء الأستاذ بركات في درس ثان، وبعد انهاء الدرس تحلقنا حوله نسأله بعض الأسئلة، إلا أنا فقد كنت ساكتاً لأنه ليس عندي في الرياضيات شيء أسأله عنه، ونظر إليّ من بين الطلاب وقال لي: أتعرف لماذا ساعدتك حتى نجحت؟ قلت: يا سيدي أنا شاكر لك والله، وأعلم أنني نجحت بمساعدتك؟ ولكن هل هناك أسباب أخرى؟ قال: ساعدتك لأنك كنت متعباً جداً وأنت قادم بالسيارة من حمص ثم لأنك في دورة تشرين فإذا سقطت فسيضيع عليك نجاحك في الفحص الكتابي وستضيع منك السنة كلها، وقد رأيت ذلك كله خسارة فادحة، أما الشيء الثالث فسوف أقوله بيني وبينك؟ واضطربت الأفكار في ذهني؟ ما هو هذا الشيء الثالث الذي أنجحني من أجله وبسببه، وخرج الأستاذ من الصف فتبعته إلى الساحة واستوقفته أسأله عن السبب الثالث فنظر إليّ مبتسماً وقال: لأنك كنت كبير السن. فضحكت ملء شدقي وشكرته وانصرفت لأن الكثيرين من الطلاب كانوا يومئذ أكبر مني ولكني كنت قد أرسلت شاربي يومها ولا أدري

لماذا فعلت ذلك، ولكني من يومها إلى الآن لم أترك شعرة تظهر في وجهي حتى كدت أحذف حواجبي.

كان الأستاذ البارز أيضاً في هذا «المكتب» كله هو الأستاذ الدكتور صليبا ـ رحمه الله ـ فقد قلب تفكيرنا رأساً على عقب وعلمنا كيف نفكر وكيف نتعلم من المدرسة والحياة بآن واحداً كان رقيق الأسلوب رقيق الصوت على ضخامة في شكله وهو في الأصل من قرية «القرعون» من البقاع، هذه القرية التي منها آل أبي ريشة وآل القادري وآل الحوراني وآل سلوم ومنهم أستاذنا القديم في المدرسة الإنجليزية بحمص، كان الأستاذ صليبا أول أستاذ درّس الفلسفة كما يجب أن تُدرس، لقد جاء بالأسلوب الفلسفي من مصادره في جامعة السوربون بباريس وقد مررت بتلك الجامعة حين زرت باريس كما مررت بشارع «كلود برنارد» وهو الشارع الذي كان يسكنه أستاذنا في فترة الدراسة. لقد أفدنا من الدكتور صليبا الشيء الكثير، ولئن كان قدري العمر قد قوّم من ذوقنا فإن صليبا علمنا كيف نفكر بطريقة صحيحة، وأن لا نستعجل في أمر قبل أن نفكر فيه، وكنا أنا وواحد أو اثنان من تلامذته قد عرفنا بالكتابة الأدبية فكان لا يمتنع عن أن يسألنا بعض الأمور اللغوية وبخاصة حين كان يدرسنا الترجمة وكان يختار لنا نصوصاً من أصعب النصوص ككتابات العقاد مثلاً ليفيدنا في درس الترجمة، وقد طبعنا بطابعه وغيرنا فعلاً فصرنا غيرنا بعد أن أنجزنا هذه السنة الجميلة.

أقول انها كانت سنة جميلة لأن الحياة في هذا «المكتب» كانت داخلية وكان لنا أخوان من الظرفاء الأوفياء منهم: صائب الأتاسي ـ رحمه الله ـ الذي كان من أطرف الناس ومنهم برهان الأتاسي الذي كان من أعقل الطلاب تفكيراً، ومنهم خالد الطباع المحب المخلص الضاحك الباسم حتى في أحلك أيام الفقر. كانت دروسنا هذه لذيذة لا عناء فيها ولا تعب وكنا نعبّ منها عبّاً ولم تكن هنالك كتب للدراسة فكنت أنقل عن فم الأستاذ صليبا كل دروسه وكانت أكثر دروسنا عنده وهي: علم النفس، الأخلاق، المنطق، ما وراء الطبيعة، ثم الترجمة. أما بقية الدروس فكانت هامشية كالتاريخ الطبيعي والجغرافيا والتاريخ، وأما عقدة العقد فهي الرياضيات والعلوم التي لم تكن تبرح بالي ساعة من ساعات النهار رغم المرح الذي كان يغمرني تلك الأيام فكل شيء موفر في المدرسة، الأكل من أحسنه والرفاق من أطيب الرفاق وكنا نخرج كل يوم خميس فلا نرجع غالباً إلا صباح السبت، وكثيراً ما كنا نمازح البواب واسمه كاظم وهو من الألبانيين الذين لا يطيقون المزاح، إذ كنا نحاول الهرب من الباب فكان عنيفاً بشراسة وغضب مضحكين.

ومن أساتذتنا الطيبين الذين لم يكونوا على علم بمادتهم كما ينبغي الأستاذ كامل نصري ـ رحمه الله ـ فقد كان هذاالرجل كبير السن وقد حصل على شهادات كثيرة ولكنها كانت شهادات بلا علم وكان يدرسنا الجغرافيا فكنا لا نفيد منه شيئاً لأنه كان عييّ الكلام متردداً في حديثه وكأنه لا يحفظ درسه وكان يعرف لغات عديدة منها الفرنسية والإنكليزية والألمانية والتركية غير العربية التي كان يجهلها تماماً فكان درسه تسلية لنا وراحة أكثر منه علماً واستفادة. وكان هناك أستاذ التاريخ واسمه نافذ غنام، ولهذا الأستاذ تاريخ قديم معي، فقد كان أستاذي في مدرسة سلمية الزراعية في الدروس الفرنسية والعربية وكان لا بأس به ولكنه كان متكلفاً وبعيداً عن الذكاء وإن كان مجتهداً وكان جدياً وهو كردي الأصل من دمشق وقد ترك المدرسة الزراعية حين نجح في مسابقة لدراسة التاريخ في باريس ونال إجازته وعاد ليدرس في مكتب عنبر وحين رأيته عرفني وعرفته، ولكنه حين تحدث إلينا لاحظت أنه نسي اللغة العربية تماماً فقد كان كثير اللحن مضطرب الجملة وكأن اللغات الأخرى قد طغت على العربية عنده فشوهتها: وقد كان على خلاف مع إدارة المدرسة فكان لا يتقيد بالتقاليد الاجتماعية وخاصة الدينية إذ كان يفطر في رمضان علناً ويدخل المدرسة وهو حامل سيجارته مما دعا المدير الحراكي إلى استبعاده بعد مدة، وقد ترك سوريا على الأثر وهاجر إلى تركيا، وأظن أنه درس التاريخ في إحدى مدارسها وقد يكون حياً إلى الآن فإن جسمه وبنيته توحيان بذلك. أما أستاذ التاريخ الطبيعي جودت الكيال فكان طبيباً من الفئة الأولى التي درست الطب بعد زوال العهد التركي. كان سميناً دائم الابتسام أو هكذا كان وجهه، جاحظ العينين رقيق الصوت بطيئاً في مشيته وكان يحب المزاح فكان درسه لا يخلو من بعض النكات الطريفة، وقد ذهب هو ورفيقه وصديقه الدكتور يحيى الشمّاع في بعثة إلى فرنسا راجعا فيها دروسهما الطبية وعادا ليدرسا

في مكتب عنبر، وكان هناك أستاذ ثـان للتاريخ هو الضابط المتقاعد حسن يحيى بك الصبّـان وكان تحفـة من التحف إذ كان يدرس التاريخ نقلاً عن مشاهداته في الحرب العالمية الثانية لا عن دراسة أو مطـالعة، فكان بذلك موضع استغراب وكان في سيرته، معروفاً عنه العنف وعلو صوته كأنه ضابط يتحـدث إلى أفراد كتيبته وكنا نمازحه فيصرخ في وجهنا ويمسك بأحد شاربيه مستبعداً المزاح عن رجل عاش حيـاة الجد في الجندية.

كان اقرب الطلاب إليّ ثقافيـاً برهـان الأتاسي الـذي كان ينظم الشعـر ويكتب الأدب ويطرب للغنـاء ويفهم أو يدرك مواطن الجمال الإنساني، فكنت رفيقـه الدائم، بـل لقد كـان لا يستطيع مـرافقة إنسـان غيري وكان يشكو من كثرة مزاحي كما كنت أشكو من كثرة رصانته وجديته. ولكن ما كان يضـايقني منه ليس الرصانة أو الجد والـوقار فقـد كان يقـدر النكتة ويطـرب لها، وإنمـا كان يحـرجني فيه اقتصـاده الشديد، واستبعاده كل نفقة لا تفيد. وكنت أقول له خير الإنفاق ما كان بلا غاية، يعني أن تسمع طرباً أو تشرب أقداحاً أو تذهب إلى مقهى أو مقصف أو ملهى، وكان هو أبعد الناس عن ذلك كـان كل شيء عنده بحساب، بل هو نفسه كان أشبه بـالآلة الحـاسبة وهـذا كان أبعـد شيء عن أسلوب الحيـاة عندي. لقـد انسجمت معه تماماً عقلياً حتى أنني بعد أن عدت إلى سلمية أخذت أكاتبه ويكاتبني ورسائله تلك لم تـزل عندي كلها ثم انتهت الأيام بيننا إلى بـرود ثم انقطاع تـام فكنت لا أراه إلا عندما أمر بمقهى الـروضة في حمص فنجلس قليلاً لنتذكر أيامنا، لقد كان ينقطع عن المقهى أحياناً اقتصاداً، وكان يسكن بيتاً مأجوراً له درج كثير الدرجات، وكان يشكو من ضعف في قلبه. ولم ينتقل إلى بيته الجديد إلا في أخريات أيـامه وقـد عرفت منذ شهور أحد أبنائه الذي حاول أن يراني وقد حدثني عن وفاته رحمه الله.

أما الصديق الآخر فكان خالد الطباع وكان ظـريف الشكل حـاد الصوت لا يتكلم إلا صيـاحاً، وإذا تكلم صعب عليه السكوت ولكنه كان قريباً إلى القلب كما كانت له علاقات دبلوماسية ـ إن صـح التعبير ـ مع كبار رجال الحكم يومئذ حتى الشيخ تاج نفسه وذلك عن طريق أحد المشايخ المقربين للشيخ الـرئيس وهو الشيخ حسن عزيزية الذي كان من أكبر حـلّالي المشاكـل في تلك الأيـام. أما أكـرم الحوراني فكـان أرصن طالب في الصف كان لا يتحدث إلا قليلاً وإذا تحدث حاول أن يفـرض حديثـه على المستمـع لذلـك كنت كثيراً ما أترك الحلقة التي يتحدث فيها لكثرة ما فيها من الجد والسياسة التي أكرهها وخاصة فيما يتعلق بالتطور وتغيير الأوضـاع الراهنة ولكنه كان يوحي منذ شبـابه الأول أنـه سيكون لـه شأن في عـالم السياسة المقبلة. وجاء الفحص، وكان خمر وجاء الأمر، كنت حين قرب الفحص في حال سيئة جداً من همّ فحص الرياضيات والفيزياء والكيمياء، وخفت السقوط بعد العذاب المريـر الذي مـرّ بي، وشكوت أمـري لصديقي برهان الذي كان مجيداً في كـل الدروس، فهـو وإن كان اميـل إلى الأدب إلا أنه لم يكن عـاجزاً عجـزي في العلوم الأخـرى، وكان يستطيـع أن ينجح بسهـولة. وقـال لي برهـان، غداً أستيقظ السـاعـة الخامسة صباحاً وأنزل إلى الصف الخامس من البـاحة الكبـرى، فهو فـارغ من التلامـذة وسوف أدرس وإياك درس الفيزياء كله، ولا تحمل نفسك همـاً، إن الشعر أصعب بكثـير من هذه العلـوم الآليّة وأنت لا يمكن أن تعجز عن مثل هذا الدرس، وفي غد نزلت فعلاً ومعي كتابي وجـاء برهـان وأخذنـا بالـدرس من الصباح الباكر حتى الساعة السادسة مساء لم نفتر ولم نمل حتى أنجزنا كل شيء في الفيزيـاء والكيمياء، وبالفعل لقد أبديت بعض الفهم الكافي أثناء قراءتي معه وسرّ كثيـراً وأخذ بعـد أن نجحنا يحـدث الناس بأنني درست البرنامج كله ونجحت فيه بمدة إثنتي عشر ساعة ليس غير.

في اليوم التالي ذهبنا إلى فحص البكالوريا الثانية (فلسفة) كما كانت تسمى، وبدأت كعادتي بالدروس الهينة واللينة فمررت بالجغرافيا والتـاريخ، وكـان الفاحصـون الضابط المتقـاعد الـذي أشرت إليه آنفـاً، الأستاذ الصبّان، ومعه الضابط الآخر المتقاعـد السيد صـادق النقشبندي والـد السيد عمـر النقشبندي عازف العود الشهير، والأستاذ الدكتور كامل عياد الذي أخذ ذكره يسطع شيئاً فشيئاً في تلك الفترة وكان حديث العهد بالمجيء من ألمانيـا، حيث كان يـدرس الدكتـوراه في التاريـخ والفلسفة. وجلست قـريباً من الأستاذ الصبان وهمست في أذنه وكنت أمازحـه فقلت: اسألني من فضلـك عن نابليـون، ونظر إليّ نظـرة

الضابط المسرح وقال بصوت سمعه كل من حضر: لست كفؤاً لهذا، وقالها شامية «اخرس ما أنت قده» وضحكت وضحك مَن حولنا، وأسرع فسألني عن عبدالحميد السلطان التركي فتحدثت إليه عما أعرفه في القصص والروايات ورويت له بعض ما قاله حافظ ابراهيم يوم سقوط هذا السلطان:

مشبع الحوت من لحوم البرايا ومبيد الجنود تحت البنود

وكان الأستاذ يكرر كلمة نعم وأنا مسترسل في حديث لا طعم له ولا رائحة ولا لون، والفاحصان الآخران يبتسمان إلى أن انتهيت، وخرجت وما أشك في أن علامتي كانت ممتازة. وخرجت أدور من فحص لآخر وأنظر من بعيد إلى لجنة الرياضيات الرهيبة وكان فيها الأستاذ جودت الهاشمي والأستاذ محمد علي الجزائري وكان رياضياً من المتقاعدين، ولمحتهما في آخر النهار يحسبان العلامات ويجمعانها ولم يبق لديهما إلا عدد قليل، وكنت من هذا العدد ووجدت أستاذاً واحداً يفحص التلامذة الباقين وكان اسمه: الأستاذ نورالدين الحمصي، وتقدم مني أحد العارفين وهمس في أذني: تقدم فهذا أستاذ مسكين وقد يفيدك أكثر من غيره، وتقدمت بعد سماعي هذا القول غير هيّاب ولا وجل ووقفت إلى جانب اللوح فذهب بعيداً عني وعاد ومعه كيس مليء بأرقام الأسئلة وأعطاني الكيس لأخرج رقماً من الأرقام وكان الدرس في علم الفلك، وكان السؤال: إثبات كروية الأرض، ووقفت أتكلم بلغة عربية فصيحة أريد أن أملأ القاعة بها ورأيته ينظر إليّ فأدركت أنه غير سامع لما أقول، وأنه مشغول بأمر آخر واسترسلت بالحديث، إلى أن وقفت، فنظر إليّ مبتسماً بعد لحظة ثم ذهب ثانية ليحضر كيس مادة الجبر «المشتقات»، وكنت فيها أجهل من المرحوم «هبنقّه» ولاحظت من مكاني أنه لم يبدل الكيس بل عاد به نفسه ليفتحه وليطلب إليّ أن أمد يدي لأختار السؤال، ومددت يدي فأخرجت سؤالاً فإذا به في الفلك أيضا، وسكت، والأستاذ لم يفطن إلى هذه الخطيئة وكان السؤال حول أشياء جغرافية فلكية تافهة فتحدثت أيضاً، ولا أذكر بما تحدثت ونظر إليّ بعد قليل وقال لي: حسناً يعطيك العافية وخرجت وأنا أكاد أطير من الفرح، ومررت قريباً من الأستاذ الهاشمي فأشحت بوجهي رعباً وذكرت قول ابن الرومي في وصفه خوفه من الغرق في البحر:

وأيسر إشفاقي من الماء انني أمر به في الكوز مرّ المجانب

أنجزت البكالوريا الثانية كما مرّ بك بسهولة وأبرقت لسلمية بالنجاح ففرح أهلي وأصحابي وخاصة السيد جمعة الذي كان يتردد على بيتنا ويعمل عند والدي يوم كان قاضياً، وقد أخذ يزغرد ويركض في باحة الدار حتى امتلأ البيت ضحكاً وسروراً، وجئت إلى سلمية فقضيت بها بعض الأشهر والأيام كنت أتردد خلالها على حمص لأرى رفيق الفاخوري وبقية الرفاق من الأتاسيين، وفي آخر الصيف دخلت الحقوق كما مر بك في بعض الوصف الذي تقدم.

كانت دروس الحقوق عبئاً عليّ فلم أكن أستطيع السماع لها أو النظر إليها، ومن المضحك انني لم أكلف نفسي عناء شراء الكتب وكان ثمنها هاتيك الأيام خمسين ليرة سورية أي عشر ليرات ذهباً، فصرفت النظر عنها وقررت أن لا أكمل الحقوق، وخطرت على بالي فكرة والسنة ما تزال في أولها، خطرت على بالي فكرة الانتقال من الحقوق إلى كلية الطب، ونفذت الفكرة وأتممت معاملتي وأخذت أحضر الدروس وكان رفيقي في هذه الوهلة من الدراسة شاب مصري له تاريخ طويل عريض معي وكان اسمه: عبدالهادي عرفان وهو صعيدي الأصل من بلدة تدعى: ملّوى قريبة من بلدة أسيوط الشهيرة وتابعة لها إدارياً. ودارت معاملة الانتقال إلى أن وصلت إلى عميد كلية الطب وكان اسمه: أحمد سامي الساطي وكان أستاذاً كبيراً وطبيباً مشهوراً، وقرأ المعاملة ونظر إليّ وقال: عد إلى الحقوق، ليس عندنا هنا «تنبل خانة»، وخرجت أتعثر بإخفاقي ورجعت إلى الحقوق لا لأدرس طبعاً فإن من الصعب على من يشتغل في الفن أن يعمل بأمر آخر وإذا استطاع العمل فيكون ذلك على حساب فنه، وهذا يعني أن فنه غير متملك من ذاته وأنه ليس فناناً كاملاً. في هذه الفترة تعرفت إلى صديقي الشاب المصري الذي أشرت إليه قبل قليل.

كان صديقي الجديد طويلاً، وأسمر أو أسود إذا شئت رفيعاً معروقاً ولكنه كان موهوباً في النكتة المصرية الأصيلة، وكان تلميذاً في قسم الصيدلة وقد اتخذ له بيتاً في بناء قديم نصف مهدوم كان يسميه «البيت الأبيض»، جلست وإياه مصادفة في بيته مع أصدقاء آخرين؛ وأذكر أننا كلنا كنا متفقين على

السهر عند محمد عبدالوهاب المطرب الكبير الذي زار دمشق يومها، وكان عائداً من بغداد يوم غنى هناك قصيدته التي مطلعها:

يا شراعاً وراء دجلة يجري في دموعي تجنبتك العوادي

وبالفعل لقد حضرنا عبدالوهاب في ليلته الأولى التي غنى فيها في بهو بناء الجامعة، وقد غنى يومها مواله الشهير: مسكين وحالي عدم، كما غنى بعده دوره الجديد يومئذ: القلب ياما انتظر وهو من نغمة النكريز وقد قلّد فيه دور سيد درويش من نفس النغمة وهو: يالي قوامك يعجبني، كما غنى في افتتاح الحفلة أغنية جديدة لم نسمعها بعد تلك الليلة ولم يسجلها، وقد سألته عنها بعد سنين، فقال لي: لقد سجلت وانمسحت وهي من كلمات الشاعر الزجّال يومئذ أحمد عبدالمجيد الذي كتب له فيما مضى أغنيته الشهيرة: كلنا نحب القمر، كان مطلع هذه الأغنية الجديدة:

نسيم الربيع، ينعش فؤادي الحزين ويزيد وجده.

وقد جاء فيها:

كل المناظر حواليَّ تشهد على قسوة قلبك
وبيان جمالها في عينيَّ لو كنت متهنّيّ بحبك

وفيها هذه الكلمات التي كان يغنيها بلحن جديد ويرددها مع معاونيه على طريقة الهارموني التي حاول إدخالها في الغناء العربي:

والندى ينزل على الورد الجميل ينعشه ويطيب شذاه
والدموع تبقى على خدّي تسيل والحبيب راضي بجفاه

وقد أعاد هذه الأغنية في الليلة التالية التي أحياها في «عائدة بالاس»، السينما التي كانت إلى جوار فندق الشرق «أوريان بالاس»، ولقد سمعنا من عبدالوهاب أغانيه المشهورة وسهرنا إلى الصباح مع الصوت والفن الذي كان أكثر شيء شهرة في البلاد العربية قاطبة بعد سيد درويش طبعاً. لقد سمعنا: تلفتت ظبية الوادي، وردت الروح، وليلة الوداع، وموالاً جديداً يقول فيه:

ليه بس يا عين رجعت للبكا تاني هي الدموع رح تردّ اللي انتهى تاني

من يومها ابتدأت حياتي مع عبدالهادي عرفان التي دامت سنوات بين ضحك ولهو ولعب، أما الدرس فلن أحدثك عنه لأنه لم يكن هنالك درس، كان الوقت الدراسي يمضي لهواً، وحين جاء الفحص كنت أول الساقطين طبعاً. ورجعت إلى سلمية بخُفَّيْ حنين.

ومن أصدقائي في الحقوق كان المرحوم توفيق يوسف عواد الذي صار سفيراً دائماً للبنان بعد أن نال شهادة الحقوق من سوريا. وقد ذهب في الأحداث الأخيرة في لبنان هو وابنته وصهره في حادث انفجار مقصود. اتفقت وإياه يوم جاء عبدالوهاب على أن أكون أنا مراسلاً لجريدة الراصد اللبنانية وكان هو مراسلا صحفياً لجريدة النهار، وذهبنا إلى الفندق الذي ينزل فيه عبدالوهاب وكان اسمه فندق (فؤاد الأول)، وحاولنا أن نرى المطرب الكبير وبينما كنا نحاول شاهدنا مدير الشرطة العام حمدي بك اغريبوز يدخل للسلام على محمد عبدالوهاب، فتوقفنا قليلاً وتريثنا ريثما يخرج، وتركني توفيق وذهب ليرى جليّة الأمر وعاد بعد نصف ساعة ليقول لي أنه قابل عبدالوهاب وثرت على توفيق ووجهت له كلمات نابية تقبلها بابتسام ذكي. وقد تحدثت إليه من أجل حضور الحفلة النسائية التي كان سيقيمها وكانت النساء هاتيك الأيام يحضرن الحفلات وحدهن ولا يختلطن بالرجال، وقد خاف عبدالوهاب هذا الرجاء ورفض القبول بتاتاً.

كان صديقي المصري من خفيفي الدم، كما كان سريع النكتة وكان ينفق عن سعة فالذي يأتيه بالجنيه المصري ـ هاتيك الأيام ـ كان يكفي أربعة من الطلاب، كان يأكل ويشرب ويلبس وينام جيداً، ولكنه كان مثلي في تلك الفترة، زاهداً بالدرس، ولا أدري السبب لأنني أعتقد أيضاً أن مهنة الأدب قد أثرت فيه فقد كان ميالاً للكتابة وهذا ما صرفه عن الصيدلة، ولم يأخذ الشهادة بالنتيجة مع أنه أقام في دمشق أكثر من أربع سنوات كما أعتقد، وكان في مجلسنا الذي نجتمع فيه يومياً خالد بكداش ورشاد

عيسى ونظمي الرفاعي وفوزي الزعيم وهيكازون الأرمني وغيرهم، ولا أدري الذي جمعنا وهؤلاء وأنا من أبعد الناس عن الأحزاب المقاتلة أو المقاومة لأني لا أحب العداء أصلاً ولأني أحب الأدب أكثر من كل شيء، ولكن هذه الفئة من الشيوعيين كانت أكثر أهل الجيل ثقافة وفهماً واطلاعاً على الأدب العربي والغربي، وكان أكثرهم يفهم الشعر والنثر والنكتة اللافتة الفنية، وأبرز هؤلاء كان ولا شك خالد بكداش ثم رشاد عيسى.

كان خالد بكداش ـ وما يزال والحمد لله ـ طوالاً في الشباب واسع العينين ضخم الحاجبين جهوري الصوت له ضحكة لا يقلده فيها أحد، كما كان غليظ الشفتين وكأنما خلقتا هكذا لكي تساعداه على اللفظ أثناء الخطابة. كان هذا الشاب خطيباً محترفاً ـ إن صحت التسمية ـ يعني ان الخطابة عنده لم تكن شيئاً عفوياً أو ارتجالياً، وإنما كانت فناً له أصوله وقواعده، وكل جملة فيه يجب أن توضع في محلها وينبغي أن يكون لها مبدأ ونهاية، فالجمل الفوضى لا محل لها في خطاب خالد بكداش، وكان يحب النكتة والحياة وهو قوي الشخصية وقد تبين فيما بعد ـ كما اتهمه أصحابه ـ أنه يحب السيطرة والسلطة في حزبه ولا يقبل رأياً لا يقبله فكره وتخطيطه الخاص وهذا ما سبب خلافات كثيرة بينه وبين أفراد حزبه، والحقيقة التي أراها وهي حقيقة اعتقدتها من زمن بعيد، أن هذا الحزب غير طبيعي في الصورة الحالية فالمساواة أمر خيالي غير موجود وإذا وجدت بالقوة فهي لا يمكن فيها التطبيق إلا ريثما يدخل عليها الفساد، وهذا ما حدث للحزب الشيوعي الذي يكاد ينهار من نفسه في هذه الأيام وكان، مما لا شك فيه ـ للقضية الفلسطينية أثر كبير في هذا الانهيار الذي بدأ منذ سنين وكاد ينتهي. أما رشاد عيسى ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ فقد توفي في شهر آب عام ـ ١٩٨٩ ـ بعد أن طال مرضه واعتلت صحته وهو أكبر من خالد بكداش بسنوات، فهو من مواليد ١٩٠٨ أو ١٩٠٩ وخالد من مواليد ١٩١٢، كان رشاد على عكس خالد بكداش، كان خفيف الصوت أنيساً يمثل الرجل الذي يقال فيه. آدمي، وكان أسمر قصيراً عريض الصوت بطيء الكلام وكان أصله الكردي الذي يجمعه بخالد قد أثر في نطقه العربي على خلاف خالد بكداش الذي كان موهوباً في حديثه في أيّة لغة تحدث بها، وكان خالد يتحدث: الفرنسية، الكردية، العربية، الروسية، وأظنه تعلم غير هذه اللغات، أما رشاد فكان على العكس، كما قلنا يتحدث ببطء ويعرف اللغة الفرنسية والكردية عدا العربية، وكان شيوعياً ولكن إنسانيته كانت الغالبة على كل شيء عنده، لذلك عمد حين وافق الحزب الشيوعي على مشروع التقسيم لفلسطين ـ إلى الانسحاب من اللجنة المركزية الشيوعية احتجاجاً على الرأي الشيوعي وانحاز بصراحة إلى الرأي العربي المعاكس والرافض للتقسيم، لأن إنسانية رشاد ووفاءه للبلد الذي عاش فيه كانا المسيطرين على مبدئه الاشتراكي الشيوعي.

كان صديقنا المصري لواب هذه الجلسات التي كنا نعقدها في مقهى الكمال القديم ثم في مقهى الكمال الجديد «العالي»، ولكن هذه الجلسات سببت مشكلاً لصديقنا المصري فقد ذهب إلى مصر بعد مدة وعاد إلى سوريا فمنع من دخولها عند الحدود الأردنية، وهكذا حرمنا من صداقة هذا الإنسان الظريف. لقد كان ظريفاً ولكنه لم يكن وفياً، فقد فتشت عليه في القاهرة بعد خمسين سنة من افتراقنا وجاء إلى الفندق الذي نزلت فيه والتقينا مرتين أو ثلاثاً ودعوته ثالث يوم للذهاب إلى القناطر الخيرية، لكنه كان غير لطيف وغير ذواقة لقد اعتذر بأنه مريض وكأنني لم أعرفه إلا منذ أيام، وهكذا فإن الوفاء أصبح هذه الأيام موضع سخرية ممن يدّعون التعقل والفهم العميق، أما الذين يؤمنون بالوفاء في هذه الأيام فهم في حال صعبة إذ أنهم يتلفتون فلا يرون أحداً إلى جانبهم، ولا يحصلون من معرفة الجيل الجديد إلا على قليلٍ من الشعر «الحديث» غير المفهوم، مع قليل من الفن التشكيلي الذي لا يستطيع المرء النظر إليه.

عدت إلى سلمية عن طريق حمص بعد قضاء مدة في دمشق وفي حمص التقيت بالرفاق: رفيق ومحيي الدين ودرّي الأخرس الصديق الحميم القديم وعلي الأبرش، وكنت قررت أن لا أعود إلى الحقوق، فأقنعني الأصحاب أن أعود لأعيش في حمص وقد ضمنوا لي محلاً في المدرسة «الخالدية» الابتدائية التي فتحت حديثاً لأكون مدرساً فيها للدروس الاجتماعية. لقد قبلت لأني عرفت أن حالتنا في سلمية بالويل والثبور فقد أفلت الزمام من يد أخي الكبير بعد أن غرق بالدَّين الذي سببه له بعض الأصدقاء الذين

خدعوه وشجعوه على الاستدانة، وكان قصدهم معروفاً، هو أن لا يدّعُونا نحن أخـوته نستطيـع الانفصال عنه، ونحن الذين لم نكن ننـوي هذا الانفصـال مطلقاً ولا يعقـل أن نتركـه ونحن نعرف مسؤوليتـه أمام أولاده الخمسة الذين أصبحوا كلهم في المدارس، ولأنـه من ناحيـة أخرى لم يخطىء ولم يبخـل في سبيل تعليمي أنا وأخيه الثاني. حين علمت بهذه الحال في سلمية، وأنه اضطـر إلى تأجـير بيتنا في سلميـة، وقد نقل أمه من بيت العز إلى بيت الذل، إلى غرفة واحدة من اللبن في مزرعـة السبيل التي نملكهـا وكان هـو يسكن الغرفة المجاورة وكانت خطة غير مـوفقة ذاقت والـدتي فيها الفقـر الأسود؛ يضـاف إلى ذلك بعض الخلافات الداخلية بين العائلتـين. علمت بهذا كلـه فقررت زيـارة سلمية بسرعـة للاطمئنـان على والـدتي خاصة وأخي، على أن أعود إلى حمص سريعاً لتمضية مدة بين الرفاق الذين رعوني وساعدوني على البقاء على أن أستلم عملي في أول السنة الدراسية.

المدرسة الخالدية، أعتقد ان اسم هذه المدرسة كان تيمناً باسم الصحـابي الجليل خـالد بن الـوليد نزيل حمص، وكانت في حي الفاخورة الكائن وراء سوق الخضار اليوم وكانت مؤلفـة من خمسة صفـوف، أما مديرها الذي كانت تحمل اسمه فهو الطبيب جلال رسلان طبيب الأسنان، وأمـا مديـرها العمـلي فهو رجل اسمه شريف وهـو من أهالي «ريحـا» قرب إدلب، وامـا أساتـذتها فهم عبـد الرزاق الـدرويش ورفيق فاخوري وعبدالكريم شاهين وأنا، وكان فيها ناظر للنظام هو المرحوم الشيخ عبدالغفار مندو، ولقد خرّجت هذه المدرسة عدداً من رجال العلم مثل الـدكتور سـامي سحلول طبيب العيـون الشهير والصيـدلي خالـد محسن السباعي وغير هـذين كثيرين. وكـانت الرواتب ضئيلـة لدرجـة لا تصدق فقـد كان رفيق يتقـاضى إحدى عشرة ليرة وكنت أتقاضى تسع ليرات فقط، ومع ذلـك ومع قليـل مما يـأتيني من سلمية بـين الحين والآخر كانت هذه الدريهمات تكفي حتى لحياة اللهو والبسط كما يقـال. كانت الـرحلة أو «السـيران» كما يسمى بحمص في الميمـاس لا يكلف إلا ربع لـيرة للشخص الواحـد بما في ذلـك الأكل والشرب والجلسـة الطويلة وأجرة العربة ذهاباً وإياباً.

٢٣ عالم الغناء في حمص

للغناء في حمص شأن خاص فالحمصي بطبيعته ليس صاحب هم إنه يستطيع أن يسيطر على همه فيخلص من تأثيره، ومن هنا فإنه بهذه الطبيعة ميال للطرب وللمزاح وللهو والمرح، وهو غير حقود، بل إنه متساهل حتى في العداء لأنه يرى أن الحياة لا تستأهل أكثر من التساهل، والذي يحمل همّ الدنيا في نظر الحمصي رجل لا ينبغي أن يتمسك بالعيش، ومن هنا كان الحمصي محبّاً للغناء عاشقاً للطرب، وهو «سمّيع» جيد كما يقال في المصطلح الغنائي، وحين عرفت حمصاً عرفتها عام ١٩٢٥، فقد جئت مع أخي الأكبر الذي صحبني مع شقيقي الذي هو أكبر مني وكان هذا المسكين مريضاً؛ لقد ذهبنا من أجل معاينة أخي عند الدكتور الذي كان مشهوراً يومئذ وهو رفعت الأتاسي، وكانت عيادته في حي يسمى سوق الحشيش وكانت تحت عيادته صيدلية أخيه سرّي الأتاسي، ويومها سهرنا في مقهى منظر الجميل المقهى القديم المعروف، وقد سمعنا مغنية يهودية كانت لها شهرة كبيرة هي «خيرية السقا»، وقد غنت يومها دوراً شهيراً للسيد درويش من نغمة «النكريز» هو دور «ياللي قوامك يعجبني» ولم نكن سمعنا هذا الدور من قبل، ولا كنا نعلم نغمة النكريز من غيرها وهي من متفرعات «النهوند» كما عرفنا ذلك فيما بعد، وكان يرافقها عازف العود الشهير «شحادة سعادة» وهو يهودي مثلها وهو أيضاً زوج أختها واسمها «ملكة» كما رافقها عازف القانون اليهودي أيضا واسمه يعقوب غزالة الحمصي وهو والد عازف القانون الشهير سليم غزالة الذي كان يرافق المطربة الكبيرة ماري جبران في لياليها الشهيرة، كما غنت ليلتها قصيدة أبي صخر الهذلي الشهيرة ومطلعها في الغناء:

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فيا حبها زدني جوعاً كل ليلة ... ويا سلوة الأحباب موعدك الحشر

وأذكر أننا بتنا يومها عند المرأة التي كانت تؤجر بيتها لأهل السلمية الذين لم يكونوا يعرفون الفنادق ولا يترددون عليها وكان اسمها «فطوم»، أما بيتها فكان بجوار جامع خالد بن الوليد في الحي المعروف «الخالدية».

كانت هذه من ذكرياتي عن حمص فحين عدت لأدرّس في المدرسة الخالدية التي أشرت إليها أنفاً، وجدت البلد كلها تتحدث بعدد من المغنين كانت لهم شهرة واسعة وكانوا من أصحاب الأصوات النادرة، وهم أكبر سناً وعلماً موسيقياً: محمد الشاويش، ثم نجيب زين الدين، ثم عبدالرحمن الزيات، ثم ممدوح الشلبي، ثم الطيباني، ثم سركيس الأرمني، أما العازفون فكانوا: «آل العشر أو «الربّاط» ورشيد الحشوة، وعبدالحميد الوقائي، وكامل سقّور، ومحمد عبدالكريم (النوري) والأخوين يوسف ومحيي الدين شاهين، وكامل الشاويش.

أما محمد الشاويش فقد أدركته وهو كبير السن أشيب وقد هزل جسمه وضعف صوته، وأخذ يخرج كل يوم إلى الميماس ليصطاد السمك ثم يعود إلى بيته، لقد كان عالماً بالغناء وخاصة في الموشحات والإيقاعات وقد حضرته في ليلة من الليالي وكان عرساً لآل الزهري «اليافي» فغنى ولكني لم أطرب لغنائه لأنني شغلت بشيخوخته عن فنه وكان قد قارب التسعين. لقد نشأ الشاويش مطرباً منذ صغره في حمص ثم انتقل إلى دمشق حيث التحق بفرقة أبي خليل القباني وشارك في الغناء فيها مع التمثيل فأتقن هذا الفن وأصبحت له شهرة، ثم انتقل إلى بيروت فاستأجر فندقاً كان ينزل فيه الحمصيون خاصة كما ينزل فيه من يأتي من الفنانين المصريين مثل عبدالحي حلمي الذي زار بيروت مرة في رحلة خاصة وفتحية أحمد وصالح عبدالحي وزاكي مراد ونسيم مراد أخيه، وظل الشاويش في بيروت إلى أن كبر وشاخ فعاد إلى بلده حيث كان ابن أخيه كامل يحتل مركزاً مرموقاً في عالم الغناء.

أما ثاني المغنين فهو أعظمهم، بل لعله أعظم صوت عرفه تاريخ الغناء في هذا الجيل ولعله يقرن

بعبده الحامولي سيد الغناء في مصر، وقد جرت هذه المقارنة فعلاً حين زار نجيب هذا مصر قبل الحرب العالمية الأولى، وحين أراد العودة إلى حمص تشبث به المصريون وهم يقولون له: «خليك عندنا عشمي تخلف عبده الحامولي».

ولد نجيب زين الدين في الثمانينات من القرن الماضي وتوفي في كانون الأول من عام ١٩٤٦ وهو الابن الثاني للشيخ مصطفى زين الدين المطرب والشاعر والظريف المعروف في حمص، الشيخ مصطفى هذا هو صاحب الزينيات أعني المعارضات «الطعامية» التي كان ينظمها معارضاً قصائد الشاعر الحموي المعروف محمد الهلالي، لقد كان الهلالي ينظم القصيدة مدحاً أو غزلاً أو غير ذلك فيعارضها الشيخ مصطفى من نفس البحر والقافية ولكن بذكر الطعام فهو يقول مثلاً:

يا صدر «بصمة» كما برزت أحاربه ... والقطر طابت للنفوس مشاربه
ما من أرز واللحوم تصاحبه ... إلا ومغناطيس بطني جاذبه

كما يقول:

أنا إن مت حالاً لقحوني ... على فرش الكنافة غسلوني
وهاتوا لي مؤذن ديك محشي ... ومن تينات «فاحل» لقنوني

«وفاحل هذه قرية من حمص مشهورة بالتين».

كان هذا الشيخ جميل الصوت وكان من الظرفاء وقد ترك ثلاثة أولاد كلهم من ذوي الموهبة الصوتية الرائعة، ولكن نجيباً كان أحلاهم نبرة. عرفته وقد بلغ الخمسين من عمره فكان أميل إلى الطول أسمر اللون صغير العينين أصلع الرأس ضخم اليدين والرجلين ثخين العنق طويله يحمل أضخم حنجرة دون بروز، وكان صوته رقيقاً جداً تشوبه بحّة خفيفة مما يجعل الإنسان يتعجب كيف يمكن لهذا الصوت الواهي الضعيف أن يعلو إلى الطبقات التي لا يتعلق بها مغن أو عازف، صوت يعاكس الهواء فيمزقه ليصل رهواً سلسبيلاً مملوءاً رقة وعذوبة وطرباً. وقد زار حمص مرة العازف المصري الشهير محمد القضابي والد عازف القانون الكبير عبدالحميد القضابي، وكانت معه المطربة الكبيرة آنذاك «الحاجة سويسية» والدة عازف القانون الشهير محمد السويسي وجدة المغني المعاصر «محمد قنديل»، ومعهم بعض أفراد فرقتهم الغنائية من كمان وضابط إيقاع وردّيدة فنزلوا جميعاً في خان الجندي المعروف والذي أصبح فيما بعد مرآباً معروفاً، وكانوا يجتمعون إلى الحمصيين بعد الحفلات التي يقيمونها، وقد ذكر لهم يومئذٍ غلام رائع الصوت اسمه نجيب زين الدين فأحب القضابي الكبير أن يسمع صوته فجيء بنجيب وغنى فجن جنون القضابي، وصفقت المطربة الكبيرة مشجعة ومعجبة وتمنت على المطرب الصغير أن تصحبه إلى مصر، ولكن كان ذلك غير ممكن طبعاً للظروف التي كانت هاتيك الأيام أعني في أخريات القرن الماضي. وشاءت الظروف أن يذهب نجيب إلى القاهرة بعد سنوات، فقد كان له أخ يريد أن يهاجر إلى أميركا، وكان نجيب في كل حياته غيوراً غيرة شديدة على أهله يدافع عنهم ولا يتخلّى عن أحدٍ منهم، وهرب أخوه إلى القاهرة يريد أن يسافر من هناك فلحق به نجيب، ولكن أخاه استطاع سبقه والهرب، واستقبل الحمصيون المقيمون في مصر نجيباً استقبالاً حسناً، وراح ينتقل من بيت إلى بيت حتى عرفه المصريون هناك من أهل الطرب والفن، وعلى رأسهم الظريف المشهور محمد البابلي الذي كان صديقاً لعبده الحامولي ومحمد عثمان وجماعة الغناء والتلحين هناك، وكان على رأس مستقبلي نجيب، السيد جودت الجندي صاحب الصيدلية المشهورة التي كان يجتمع فيها عنده كبار الأدباء والمطربين المصريين، ومرّ ذات يوم في شارع عماد الدين فرأى باب ملهى كبير علقت عليه لوحة كتب عليها اسم: المطربة الكبيرة الحاجة سويسية، لقد تذكر الاسم، كما تذكر الجلسة التي تعرّف فيها على المطربة وعلى العازف الذي رافقها محمد القضابي، فدخل الملهى ولم يتريث وجلس في مقعد قريب من المسرح، وبدأت المطربة غناءها بموشح من نغمة «البستنكار» وهذه النغمة مؤلفة من نغمة الصبا ممزوجة مع نغمة السيكا التي تقع في النهاية «المحطّ» كما يقال اصطلاحاً، والنغمة كانت بالنسبة لذلك الوقت غريبة فلم تكن النغمات المركبة

معروفة، وبعد الموشح غنت دوراً من هذه النغمة هو: قلبي يحبك ولكن، وفي أثناء الغناء طرب نجيب وأخذ يطيّب للمطربة أي يظهر طربه والتفت عازف العود الكبير فلفت نظره الصوت وأدرك أن هناك حنجرة نادرة غريبة وكأنه بلحظة من لحظات الإدراك والذاكرة عاد إلى حمص وإلى تلك الجلسة التي سمع بها صوت الغلام الرائع، وتصور أن هذا الجالس بين المستمعين هو ذلك الغلام، وما كادت الوصلة تنتهي حتى ركض القضابي فعرف نجيباً وأمسك به وصعد معه إلى المطربة فذكرها به فرحبت به ترحيباً كبيراً وطلب منها أن تغني له الدور ثانية، ولكنها اعتذرت بأن هذا مخالف للأصول ومع ذلك فستغنيه له في آخر السهرة مهما كان الأمر، وبالفعل لقد غنت الدور ثانية، وكانت تلك سابقة فنية غريبة عند كل السامعين. هذه القصة رواها لي نجيب شخصياً ونجيب رجل دين مؤمن بالله إيماناً عميقاً فهو لا يكذب مطلقاً.

كان نجيب يحفظ عشرات الأدوار والأغاني والقصائد، ولكنه كان قليل الحفظ للموشحات لأنه كان يضيق بالألحان المقيدة كالموشحات ويحب الأدوار التي يمكن التصرف بها والانتقال فيها من لحن إلى لحن آخر، ومن هنا كان لا يغني أدوار سيد درويش لأنها مقيدة بالأصول ولا يستطاع التخلص من قيودها، كما أن التصرف لا يمكن بأدوار هذا الفنان العظيم لأن التصرف تضيع معه نكهة الملحن الخاصة وطابعها، وسيد درويش هو الفنان الوحيد الذي كان يترك على ألحانه طابعه الخاص «كالماركة المسجلة» فلا يستطاع التصرف بها أو تبديلها أو إضافة شيء إليها، وكان لهذا، كثيراً ما يتظاهر بانتقاد هذا الفنان غير انه كان يذهب منفرداً إلى الدكاكين ليسمع ألحانه في معزل عن الناس لأنه كان يقدره ولكنه يتهرب من غنائه. كان يقول لي: إذا أردتُ أن أغني لسيد درويش فيجب أن أغني ثلاثة أو أربعة أدوار في الليلة الواحدة، لأنها كالموشحات لا يمكن التحرر من قيودها الفنية ومن طابعها الدرويشي، في حين أنني أغني دوراً واحداً لمحمد عثمان والقباني فأقضي فيه الليلة كلها أتصرف وأتنقل كما يشاء لي النغم والطرب دون أن يحدث من وراء ذلك إساءة للّحن ذاته.

كان نجيب زين الدين الأول بين المطربين في حمص وفي البلاد السورية كلها، فكان الناس في حمص يحرصون على أن يدعوا نجيباً لحفلات الأعراس والمناسبات الأخرى حتى إذا لم يستطيعوا العثور عليه أو إذا اختلفوا وإياه فإنهم كانوا يلجأون إلى الزيات المغني الثاني أو غيره من المغنين الآخرين على قاعدة ما لا يدرك كله لا يترك جله. ذلك أن نجيباً كان فناناً من أصحاب المزاج ككل أصحاب الفن، ولن تجد فناناً خالياً من المزاج الخاص الذي لا ينطبق على أمزجة الناس جميعاً، والفنان الذي يخلو من هذا الطبع الخاص المخالف أكثر الأحيان للطبع العام، هو في رأيي فنان مشكوك في قدرته الفنية. فإذا دُعي نجيب هُيّء له كل شيء واتخذت الاحتياطات اللازمة لكل شيء يؤدي إلى سرور نجيب وانبساطه، لأن نجيباً إذا لم يسر فإن الغناء لا يكون سهلاً، وربما قضي على السهرة بغضبة من غضبات نجيب الخاصة، فإذا دخل قائمة السهرة هيئت له «طراحة» وثيرة يجلس عليها ويلف رجله اليمنى على اليسرى ويمسك بعوده وينظر إلى الجالسين حوله، أولئك الذين يحرصون على رضاه كما يحرص الوالد على رضاء ولده ويمسك نجيب بالعود ليصلحه، ونجيب وإن لم يعتبر من الموهوبين عزفاً، إلا أنه كان أعظم من يصلح أوتار العود لدقة إحساسه بالنغم وبالطبقات الصوتية. فإذا كان في حالة جيدة فإن العود سرعان ما ينتهي إصلاحه وإن كان لَقِس النفس فإن الإصلاح لا ينتهي إلا بعد زمن طويل مما يُمِلّ الحاضرين ويسيىء إليهم، وربما انتهى الأمر بقطع الوتر أو كسر العود إلى آخر هذه الحالات التي كانت تتعرض لها سهرات نجيب الخطرة الغريبة، فإذا انتهى الإصلاح رفع نجيب رأسه وارتفع معه صوته من ذلك الفم الصغير والشفتين الرقيقتين كشفتي الأطفال وبدأ غناءه بالليالي، وغالباً ما يغني لياليه الأولى من نغمة «البيّات» التي كان يحبها ويحرص على ترديدها. ثم يبدأ بالدور الذي يختاره هو، وقد تعرض له أسماء أدوار فيستجيب، وقد لا يستجيب لعذر هو يقدره، ولا يستغربن أحد هذه المعاملة واحترام الناس وحرصهم على رضا الرجل فقد كان صوت نجيب معبوداً، لقد كانت الناس تبكي حين تسمعه أحياناً، ولقد مررت بحمص بعد موت نجيب بأيام وكنت أصعد سلم الفندق فرأيت أحد أصحابه نازلاً، وحين رآني جلس على السلم وانهارت أعصابه وأخذ يبكي ويصرخ. مات نجيب يا أحمد، ولقد بكيت ـ يعلم الله ـ لبكائه، هكذا كان

نجيب عند هؤلاء الناس، لهذا فقد كانوا يثورون ضده حين يشتطّ في تذمّره فيضربونه فإذا عاد وغنى بعد استرضائه ركض أولئك الذين أساءوا إليـه يقبّلون ركبتـه ويبكون أمـامه معتـذرين كالأطفـال. كانت من أدواره الشهيرة: يا قلب مـالك صبحت تشكي، وهـو من البيات و: يـاما أنت واحشني، من الحجـاز كار، فؤادي أمره عجيب، في الحب مالوش مثال، وهو من نغمة الكـروان (الراست). وكـان كثيراً مـا يغني هذا الدور حتى أخريات أيامه؛ وأظن أني سمعته منه في آخر ليلة سهرتها معه في بيت المرحوم محمود رسلان من أصدقائي الحمصيين، أما القصائد، فكان مولعاً بقصيدة أبي فـراس الحمداني: أراك عصي الـدمع، وهناك قصيدة لا يعرف قائلها مطلعها:

صـاح في الـعـاشقـين بـالكنـانـة رشـأٌ في الجفـون منـه كنـانـه

ومنها البيت الشهير:

خطـرات النسيـم تجـرح خـديـه ولمس الحـريـر يـدمـي بنـانـه

ومن قصائده الشهيرة:

يـا ليـل الصـب متـى غـده أقيـام السـاعـة مـوعـده

وقد كان يقضي الليلة كلها يردد ويكرر أبيات هذه القصيدة التي كان يدخل فيها جملاً مـوسيقية من عنده ويقول الليالي العجيبة بين كل بيت وبيت منها.

كنا نجلس في حمص في مقهى جديد اتخذناه مأوى لنـا لنبتعد عن النـاس، لا كرهـاً بالنـاس، بل لأن جلستنا كانت تحتوي الدراسة من إعراب ورواية شعر وتاريخ وأدب، فالبعد عن العامة كـان ضرورياً لنـا وكان مقهانا لرجـل اسمه «الـدبلان»، كـان أول أمره عـاملاً بسيطـاً ورث هذه الأرض التي كـانت خارج المدينة وهي قريبة لخط القطار فعمر فيها بيتاً كبيراً جعله مقهى وأخذنا نرد هذا المقهى، وأحضر صندوقاً للسمع، فكنا نفيق باكراً لنذهب من هذا الشارع الذي سمي فيما بعد شـارع الدبـلان واسمه الـرسمي: شارع المتنبي، وكنا نجلس صباحاً فنلعب بـالطاولـة أو الضامـة، ونتحدث في الإعـراب وغيره، وكـان من تسليتنا هاتيك الأيام الحلوة من أيام الشباب شخص من الظرفاء البسطاء أراد أن يجـارينا في الإعـراب فحفظ ألفية ابن مالـك الشهيرة وهي كمـا لا يخفى ألف بيت وتشتمل عـلى قواعـد النحو كلهـا كما يقـول مؤلفها:

وأستـعـين اللـه في ألفيّـة فوائد النحو بها محشوة (أو محشية) أو محوية

فكنا نثيره ونعطيه أبياتاً لا يستطيع إعرابها وقد يعربها خطأ فنصححها له فتثـور ثائـرته ويتحـدانا ونتحداه، وقد تطول المناقشة ساعات وساعات. كنا نجلس في هذا المقهى صباحاً وفي عصارى النهار حتى المساء فإذا جاء الليل انتقلنا إلى مقهى بجانبه يدعى باسم صاحبه «أبو شمسو»، وكان أبو شمسو يقارن الدبلان ويحرص على أن نكون من زبائنه، لذلك هيأ غرفة صغيرة في المقهى نجلس فيها، ووضع لنا منصة عليها صندوق للغناء (فونوغراف) مع أحسن الأسطوانات وهيأ لنا مقاعد وثيرة رغم أن الغرفة كـانت من اللّبن، فصرنا نأتيه في كل ليلة ونحن خمسة أو ستة وعلى رأس القائمة رفيق فاخوري وأنا ودري الأخرس ومحيي الدين الدرويش ونور طليمات (الشيخ عجل) وعبدالكريم شـاهين «أحيـاناً»، وعـرفت هذه الغـرفة باسمنا، وكنـا نحضر ما نشـاء إليها من طعـام وشراب وقد نقـرأ فيها ونكتب مـا يعرض لنـا من كتابـات مستعجلة، وكان يقصدنا إلى هـذه الجلسة بعض الغـرباء عنهـا، ولكنهم جميعاً من أهـل الفن أو ممن له علاقة بالفن. وفي يوم من الأيام جاءنا شاب وسيم يدّعي الفهم وحسن السماع وهو يريـد أن يتعرف عـلى الأدباء (حسب قوله) ولم نرَ فيه ما يعكر صفونا فقد كان لطيفاً قليل الكلام خدوماً يقوم ببعض الخدمـات داخل الغرفة على اعتباره أصغر منا سناً. وفي يوم من الأيام وكنت عائداً آخر الليل إلى بيتي فـاستوقفني أحد الأشخاص وسلم عليّ بكل أدب، ومشينا أنا وإيـاه في شارع السرايـا المعروف وفي منتصف الطـريق قال لي: يا فلان أنت رجل غـريب عن حمص وقد اختـرتك من بين أصحـابك لأعـرض عليك قصتي وأنـا أرجو أن تكون معيناً لي على حل ما فيها من مشكل، قلت له: أنا حاضر، ما الذي تريـده؟ قال: إن الشـاب الذي يتردد عليكم في مقهى أبي شمسو هو ابن عمي وأنـا حريص عـلى تربيتـه وأخشى عليه من السهـر

والاختلاط وأنتم أحسن الناس في نظري ولكني أخشى عليه من غيركم من شباب هذا الجيل؟ قلت له، لم أفهم ما تريده، ما الذي تريده؟ قال أريد أن يمتنع عن السهر معكم ومع غيركم: قلت له إن تكليفك هذا لا علاقة لنا به، رجل جاء إلى المقهى والمقهى ليس ملكنا فما الذي نستطيع عمله؟ ولو تعقّلت الأمر لوجدت أن حديثك كله لا لزوم له لأنه يمكنك أن تمنع ابن عمك من الخروج من البيت، ثم هو يأتي إلى المقهى فاذهب إلى المقهى والق القبض عليه قال: لست أقصد إغضابكم ولكني جئت على سبيل الرجاء، يعني أريد منك أنت أن تنصحه بعدم المجيء إليكم، وابتسمت وقلت له: أتقوم بما أطلبه منك؟ قال: أنا مستعد لكل شرط، قلت: نحن نتعهد لك بأن لا يدخل المقهى شرط أن تحيي ليلة في بيتك ويكون المطرب فيها نجيب زين الدين، قال: حباً وكرامة وسأحيي لكم ليلة لم يسمع بمثلها، وهكذا كان. لقد أفهمنا الشاب بضرورة إطاعة ابن عمه، ودعوناه معنا ليحضر الليلة وكانت ليلة نادرة حقاً.

جئنا إلى البيت الموعود منذ العشاء، وكان العود مصلّحاً وجاهزاً وأدوات الشاي والقهوة والزهورات التي يحبها نجيب جاهزة، وجلس على طراحة وبدأنا بعد قليل بالغناء فقد كان نجيب يحب أن نكون معه دائماً، لأنه كان يحب المتعلمين وكان شديد الأسف لأنه لم يكن متعلماً العلم الحديث، ولكنه كان يعرف قليلاً من النحو كما كان يحفظ كثيراً من القرآن الكريم إذ كان يقرأ دوماً في صلاة الجمعة بجامع ابن الوليد، وكان يديم القراءة وغناء الأناشيد الدينية، ومن الغريب أن أحد أصدقائه رآه في نومه بعد موته فسأله عن حاله فقال له: لا تجزع من أجلي لأني غير خائف، أنا مدّاح الرسول.

وبدأ نجيب غناءه من دور لم نسمع به من قبل هو أحسن لحن للموسيقار الكبير داوود حسني وأعني به دور:

أسير العشق ياما يشوف هوان وراضي الحب من طبعه يُهان

وأخذ يطلع علينا بذلك الصوت الذي لم يسمع مثله بنغمة إثر نغمة وجملة إثر جملة، وكان الدور من نغمة الزنجران أو «الزنكلاه» كما يسميه الأتراك، وهو من نغمة دور سيد درويش الخالد «في شرع مين قاضي الهوى» الذي كان من كلمات الزجال محمد يونس القاضي والذي يعد من أعظم ألحان الفنان النابغ، لقد أدخل داوود حسني في هذا الدور حركات جديدة لا تشبه ما كان يصنعه في أدواره الأخرى، ولقد شارك بدوره هذا في مؤتمر الموسيقي الشرقية الذي عقد بباريس عام ١٩٠٦ ونال الجائزة الأولى ووساماً، وهذا الدور «أسير العشق» هو الذي قال فيه سيد درويش: لو لم يكن لداوود حسني غير هذا الدور لكفاه. وكان نجيب في أعظم حالاته تلك الليلة وكان في راحة تامة أثناء الغناء، لأننا كنا نعاونه أنا ورفيق ونوري طليمات وأصواتنا مناسبة تؤدي أداءً حسناً وكنا شباباً بالقياس له، فكنا نظل نردد معه حتى يعود إلى الغناء وإلى أن ينتهي الدور، وغنى بعد دور أسير العشق، دور، ياما انت واحشني، ثم دور: عهد الأخوة نحفظه، ثم دور: الكمال في الملاح صدف، ودوراً آخر لا أذكره فكان مجموع ما غنى خمسة أدوار وهو أمر لم يفعله نجيب في حياته الغنائية كلها، بعد هذه الأدوار غنى ما شاء من القصائد والطقاطيق وانتهى الأمر بأغنيته المشهورة، (على أوف مشعل)، فكان نجيب يأخذ الكلمات ثم يتصرف ساعة أو أكثر أو أقل، ونظرت إلى نور طليمات فإذا به ينزل الستارات على الشبابيك بإحكام، ولم أفهم سبب عمله هذا فهمس بأذني: لقد طلع النهار وأخشى إن رأى الضوء أن يذهب وهكذا بقينا إلى الضحى أو ما يقارب الساعة الحادية عشرة، وخرجنا من هناك إلى مقهى الجزار وكان الرجل قد أحضر لنا الكعك والحليب فأكلنا وحمدنا الله وودعنا نجيباً وذهبنا بعد أن سهرنا ليلة كانت سحراً كلها.

كان نجيب زين الدين فناناً شاذاً شذوذاً أكيداً، فقد كان يخرج من السهر صباحاً فيذهب إلى حمام يعرفه ويرحب صاحبه به فينام عنده بعد أن يغتسل ثم يخرج من الحمام إلى الجامع ليصلي، وكان يديم الصلاة ثم ينتقل إلى الطعام فيدخل المطاعم يفتش عن ذلك، وأكثر أصحاب المطاعم أصحابه فيعاملونه معاملة خاصة وكان قويّ الشهية حتى أنه لم يكن يحسن الغناء إذا كان جائعاً ثم يعود إلى بيته، وكان بيته أشبه بالخربة له باب من الخشب غير المنجور فإذا فتح أو أغلق سمع صريره من بعيد، فإذا دخلت إلى غرفته عجبت لهذا الفنان كيف ينام في مثل هذه الغرفة التي تشبه أقبية النبيذ في أوروبا، فإذا نظرت

إلى داخلها وجدت فراشاً موضوعاً على الأرض وبجانبه صندوق طويل فإذا فتحت هذا الصندوق عثرت على أشياء لا تخطر على بالك. عشرات من القنابيز وعشرات من الزنانير الحريرية وعدداً من الطرابيش لم تلبس ومن الألبسة الخارجية والداخلية.

ويصاب نجيب بالبرد في ليلة من ليالي كانون الأول عام ١٩٤٦ وكانت الإصابة بذات الرئة، وهذا المرض لم يكن يسلم منه من تجاوز الأربعين من العمر ويسمى في هذه السن «ذات الرئة للشيوخ» ولم يكن البنسلين وصل بعد إلى هذه البلاد، أو لم يكن معروفاً في أكثر البلدان ومات نجيب بعد يومين من إصابته، وكان المطر غزيراً والثلج يختلط بالمطر فلم يخرج مع نجيب إلا أقل من القليل من أصحابه الخلّص. وأخبرني رفيق في كتاب بعث به إليّ وكنت في عملي بحماه فجئت إلى حمص لأعلم جلية الخبر، وكان ما كان. ونظمت فيه قصيدة أرثيه بها، أقول في مطلعها: يا ساهر الليل أين البلبل الشادي؟ ولكن القصيدة التي وصفت نجيباً وعبرت عنه تعبيراً صادقاً هي قصيدة شاعر العاصي صديقنا المرحوم بدر الدين الحامد التي يقول فيها:

أطبق الجفن راضياً مطمئناً — عندليب على ذرا الفن غنى
يا حليف السهاد تلك الأغاني — غمرتنا لحناً يَلَذّ ومعنى
ناد يا ليل تملأ الليل وحياً — يترامى على المسامع لحنا

ثم يذكر قصة البلبل الذي رمى نفسه في حضن نجيب متأثراً بصوته فيقول:

لست أنسى ليل «الخراب» وكنا — لؤلؤ العقد بالصفاء انتظمنا
أشرق الفجر يا نجيب وهذا — بلبل الروض مدّ جيداً وحنّا
من أعالي الغصون ألقى جناحيه — وأصغى إليك عينا وأذنا
وترامى إلى الثرى فإذا بي — أتلقى أخاً من الطير مغنى
بيدي قمت أمسح الطل عنه — وأواسيه وهو مثلي معنى

ثم يذكر خلافه معه وانقطاعه عنه فيقول:

لم أخن عهدك القديم ولكن — ما احتيالي إذا الزمان تجنى

نقل عمل بدر الدين الحامد شاعر العاصي ومعلم الأدب العربي في تجهيز حماه إلى حمص، فكان أول صديق اصطفاه هو نجيب زين الدين، وراح الاثنان يتعاطيان الفن هذا في شعره وذلك في غنائه إلى أن حدثت القطيعة بينهما. لقد ذهب نجيب إلى حماه مدعواً فغنى ويظهر أنه لم يكن مسروراً، وقد المحنا إلى طبعه الذي لا يلين إذا وجد الجو غير مناسب للطرب والغناء ويبدو أنه أساء إلى الحمويين فقابلوه بالإساءة وضربوه، وقد كان من رأي نجيب أن بدر الدين له علاقة بهذا أو على الأقل كان يستطيع رد الأذى عنه فلم يفعل، ووقعت الواقعة بينهما ومات نجيب ولم يقابل بدر الدين بعد ذلك رغم توسلات بدر الدين وحلفانه الأيامين المغلظة أنه لا علاقة له بحادث ضربه، ولكن نجيباً لم يكن بالرجل الذي يرضى بسهولة وهكذا كان.

أما صوت نجيب فقد كان وسطاً بين الأصوات من حيث مساحته مع بحة عجيبة مطربة ومع مدى لا يجارى في القوة، بحيث أن آلة القانون ولها مدى معروف كانت تنتهي قوتها قبل أن يصل نجيب إلى الطبقة العليا التي يستطيع الوصول إليها، وقد حدثنا عازف القانون الموسيقي الأستاذ توفيق الشيخ حمدون أن صوت نجيب كان يجتاز طبقات القانون العليا، وهذا يعني أنه أبعد مدى من صوت أية امرأة في الغناء حتى أم كلثوم نفسها، وقد سمعنا صوت أم كلثوم فثبت لنا ما قاله الأستاذ حمدون. على أننا لم نسمع نحن الشباب في تلك الأيام صوت نجيب الذي عرف عنه في شبابه الباكر.

كان في حمص قائد عسكري يسمى «إحسان بك»، هو قائد الفرقة والمسؤول عن أمن حمص وقد سمع نجيباً فأعجبه صوته، وحين جاء دور نجيب في الجندية أصر القائد على سَوْقِ نجيب جندياً، وأصر نجيب على عدم التجند، وعندما أحرجه القائد لجأ إلى طريقة هي في رأينا جناية كبرى على الفن والغناء، فقد شرب دواء أذهب صوته وأصبح لا يستطيع الكلام وندم القائد على ما فعل واعتذر لنجيب عما فعل،

ولكن صوت نجيب كان قد زال ورأى الناس ما جرى للمطرب الرائع فجن جنونهم، ولكنهم لم يستطيعوا عمل شيءٍ سوى اللوم والعتاب، وأخذ صوت نجيب بعد هذه الضربة يعود شيئاً فشيئاً إلى ان استقام أخيراً ولكن بحة في صوته بقيت ظاهرة ورافقته هذه البحة إلى آخر أيامه، ويدعى نجيب بعد مدة إلى بيت السيد هاني الجلاد التاجر الدمشقي المحترم لإحياء حفلة عرس القاضي الأستاذ مصطفى الرحيباني الذي كان صديقاً لنجيب، وكان من حضور الحفل عازف العود الشهير اليهودي عزوري الذي عرف فيما بعد في إذاعة إسرائيل وغيرها وعازف الناي البيروتي الأصل «البربير»، وحين غنى نجيب وانتهت فترته الأولى خرج البربير مع عزوري فرآه صاحب الدار يبكي، وحين سأله قال: إنما أبكي لضياع قسم كبير من صوت هذا المطرب المجنون الذي استغل صوته لتنفيذ غايته، في حين أن صوت نجيب ظل ـ برأينا نحن ـ أقوى صوت سمعناه، فكيف كان قبل أن يقدم نجيب على جنايته. لقد كان كما يبدو شيئاً عجيباً لا يدرك.

أما المغني الثالث في حمص بعد نجيب والشاويش فقد كان اسمه عبدالرحمن الزيات الملقب بأبي طاهر، كان رجلاً قصيراً صغير العينين أصفر الوجه رقيق اليدين في صوته بحة دائمة ويضع على رأسه العقال والكوفية، فقد أصيب فيما مضى من طفولته بمرض «القرع»، وهو مرض كان يصيب الكثير من الأطفال، وكان من العسير مداواته وربما شوه رأس الطفل فترك فيه حفراً وأخاديد، وربما أزال القسم الأكبر من شعره حتى يبدو رأس الولد وكأنه رقعة يختلط فيها البياض بالسواد، وقد عرفت في التاريخ مدينة المعرة بهذه العاهة فقيل «قرعان المعرة» كما عرفت حماه بالعوران «جمع أعور» وكلها كانت أمراضاً لم يعرف تداويها في تلك الأيام.

يمكن أن نسمي الزيات المغني الثاني بعد نجيب، ولكني أرى أن هذا كثير بالنسبة لنجيب لأن بين الزيات ونجيب فارقاً كبيراً بالصوت والأصول وقوة الاحتمال على السهر والغناء، وهناك قصة تقول: إن نجيباً والزيات دعيا سوية إلى إحياء حفلة عرس كبيرة عند عائلة الأتاسي المعروفة وبدأ الزيات غناءه في دور من الأدوار، وكان بدؤه احتراماً لنجيب الذي كان يقدره ويعترف له بالتقدم رغم أن نجيباً لم يكن يعترف لأحد بشيء، بل لعله كان يسيىء إلى الزيات في مناسبات كثيرة، فقد كان الزيات خلوقاً دمثاً لين العريكة فكانت الناس تحبه وتعظم نجيبا، كما كان الناس يحبون حافظاً ويعظمون شوقي أمير الشعراء. وأنهى الزيات دوره وأمسك نجيب بالعود وكان من تحديه ومشاكسته أنه غنى الدور الذي غناه الزيات نفسه ولكنه غناه بطبقة أعلى بكثير من الطبقة التي غناه بها الزيات لأن الزيات كان صوته ضعيفاً وإن كان لا يخلو من حلاوة وأصول كانا يسران مستمعيه، كان أميل إلى القصيدة، وكان يجيد العزف على العود، ثم لم يكن يرفض دعوة وخاصة إذا كان نجيب رافضاً الدعوة أو معتذراً بعذر ما، إذن لقد كانت القاعدة أن الزيات مغني حمص في حال غياب نجيب، أما في حضوره فلا يوجد غيره:

فدع كل صوت غير صوتي فإنما ... بصوتي أتاك المادحون مرددا

دعينا مرة إلى بيت أحد الأصحاب وكان حلاقاً مشهوراً، وجاء الزيات الذي رحب بنا وهو يعلم أننا من دعاة نجيب وغنى لنا دور عبدالوهاب الشهير: أحب أشوفك كل يوم، ولاحظ الفنان على وجوهنا عدم الرضى، فقد كان الصوت ضعيفاً بالقياس إلى نجيب، وبالفعل لقد أستأذنا وخرجنا من السهرة لا نلوي على شيء. وكان الزيات ـ رحمه الله ـ ظريفاً محباً للنكتة يستغل لطفه من أجل عمله، وكان له أصدقاء يؤثرونه ويحرصون على سماعه، وكان معجباً بمحمد عبدالوهاب إعجاباً كبيراً ويغني له أكثر أغانيه، وحين جاء عبدالوهاب إلى حمص كان الزيات أكبر الدعاة لحفلته في مقهى «الروضة» الشهير، وبدأ عبدالوهاب ليلتها الغناء الرائع وكان صوته في أوج جماله وروعته، لقد غنى مواله الشهير، كل اللي حب اتنصف/ وأنا اللي وحدي شكيت، وهو من كلمات شوقي الشاعر، وجن الزيات طرباً وكان في المقصورة الأولى من المقهى التي تقع فوق المسرح تماماً، ويبدو أنه تأثر بالغناء زيادة عن اللزوم، وهو الفنان الطروب، كما يبدو أنه شرب كثيراً فأخذ «يطيّب» لعبدالوهاب وينادي من أعلى المقصورة: ربنا يخليك، ربنا يحفظك، ويبدو أن صوته وصراخه أزعجا رجال فرقة عبدالوهاب فنظر إليه المعاون المصري مع المغني واسمه «ابراهيم عبدالله» وأجابه بقوله: ربنا يخليه وربنا يسكتك وكانت نكتة ضحك الناس لها جميعاً، وبهذه المناسبة، فإن ابراهيم عبدالله هذا هو صاحب الموال «الشهير»، «اللي انكتب عَ الجبين لازم تشوفه العين»، الذي غناه عبدالوهاب وسجله مع أغانيه التي اشتهرت من مثل: على غصون البان، ويا جارة الوادي.

وأراد الزيات أن يسجل صوته على أسطوانات، ولكنها كانت كارثة بالنسبة إليه لأن التسجيل كان سيئاً ولأن صوت الزيات لم يتلاءم مع التسجيل كما أساء الزيات اختيار الأغاني التي سجلها ففشل

مشروعه فشلاً ذريعاً ومات الزيات شاباً، فإنه لم يبلغ الأربعين كما أعتقد وما أظنه خلف أولاداً.

ويأتي بعد الزيات مطربون كثر منهم النداف الذي كان يرافق نجيباً أحياناً ويغني بعض الأغاني حين يسمح نجيب بذلك وفي فترة راحته، وكان إنساناً عاقلاً كاملاً وفقيراً، وكان صوته أجش ثخيناً ولكنه كان مطرباً، والطرب في الأصوات لا يدركه إلا العارفون، كصوت الصفتي الذي كان يطرب الناس طرباً عجيباً، ولو نظرت إلى صوته لوجدته صوتاً قاسياً قوياً يرج المكان بنبراته ومع ذلك كان مطرباً ومطرباً كبيراً. أما المطرب الآخر «الطيباتي» فقد كان جميل الصوت جداً، فإذا غنى أبدع ولكنه لا يعرف شيئاً من الغناء، فقد كان صوته ضائعاً في غمرة جهله، لذلك كان لا يغني إلا في فترات الاستراحة ولم يعرف عنه أنه أحيا ليلة بمفرده. وهناك المطرب الشاب الأرمني «سركيس» وقد أسمى نفسه «سرّي» وكان اسمه الأرمني: «سركيس طنبوريان» على الطريقة الأرمنية، كان أسمر قصيراً تعلم عزف الكمان أول الأمر ثم أتقن العود إتقاناً كاملاً، وأخذ يتمرن على الغناء حتى زالت عنه اللكنة الأرمنية وأصبح لفظه عربياً يقلد الحمصيين العرب في كل شيء، عمل أول الأمر عند أبيه في مصنعه للأحذية وانتهت به الحال في آخر أيامه إلى تأسيس مصنع أيضاً للأحذية في دمشق. رأيته أول مرة في بيت بني «حجّو» وهؤلاء من الرفاعيين العائلة الكبيرة في حمص والتي تضم أربعة فرق هي: آل الرفاعي، آل حجو، آل الجندلي، آل القاضي، وكلهم يشملهم اسم السيد الرفاعي الصوفي المعروف باسم السيد: أحمد الرفاعي، وكان مغني الحفلة عند آل حجو، الزيات وقد ساعده بكلماته سركيس هذا كما غنى في فترة الاستراحة أغنية خفيفة سرت في المجتمع الحمصي يومئذٍ كالنسيم وهي أغنية: «اليويو»، واليويو لعبة من لعب الصغار وهي عبارة عن قطعة من الخشب تربط بخيط ثم ترفع وتنخفض فتأخذ شكلاً لطيفاً، تقول الأغنية:

البابا جاب لي يويو حتى ألعب مع الشباب   والماما قالت: يويو، شو ها الألعاب

ولكن صوت سركيس كان فيه غصة ظاهرة تقلل من تطريبه، ومع ذلك فقد تعلم الأدوار والموشحات والأنغام وأصبح مغنياً في أخريات أيامه وفي كثير من الحفلات. كنا نستدعيه إلى حماه أنا وشلة من أصحابي فيغني لنا الليل كله ونمازحه ويمازحنا، ثم في آخر الليل نعطيه ما فيه النصيب، كما كنت أنا شخصياً أجمع له مؤونته من حنطة وعدس وسمن، أيام كانت هذه الأشياء رخيصة ومبذولة عند وجهاء حماه، وأشهد أنه قد كان يحسن الغناء في أحسن الألحان القديمة والحديثة وبخاصة أدوار سيد درويش الصعبة التي لم يكن يستطيع غناءها إلا القلة من المغنين. وقد شاهدته مرة يغني أغنية «الجندول» الشهيرة لعبدالوهاب بعد أن سمعها للمرة الأولى في بيت أحد أصدقائي.

وانتقل سركيس إلى دمشق بعد ظهور الإذاعة وعرف بها أكثر المغنين والعازفين، وفي دمشق كانت له مغامرات وعلاقات مختلفة الأسباب والدواعي وانتهى به الأمر إلى الزواج من ابنة موسيقي شهير كان يعمل في الإذاعة اسمه «بتروني»، ولكنه لم يطل أمره في هذا الزواج فقد دب الخلاف بين الزوج والزوجة، وكان آخر ما عمله أنه عاد إلى عمله القديم، صناعة الأحذية فافتتح محلاً لذلك ثم لم أعد أسمع به، فقد غرق في أجواء دمشق ثم سمعت بموته بعد مدة دون أن أعرف سبب هذا الموت الباكر المفاجىء لكل من عرفه، ولقد سجل بعض الأغاني في الإذاعة ومن بينها الأغاني التي لحنها المرحوم نعسان الحريري من أشعار بدر الدين الحامد شاعر العاصي، وأشهرها أغنيتان:

دفنت أشجاني بين الهوى والراح
وأنت ريحاني ما دارت الأقداح

والأغنية الثانية:

أنا في سكرين من خمر وعَيْنْ
واحتراق بلهيب الشفتين

وقد سمعت أنه ادعى تلحينهما ـ رحمه الله ـ ولكن الصحيح أن الأغنيتين من ألحان نعسان الذي أشرت إليه آنفاً، وهو عم الشاعر المعروف محمد الحريري.

كان في حمص أيضاً الأخوان شاهين، محيي الدين ويوسف: أما محيي الدين فكان أجمل صوتاً وإن

لم يكن صـوته خـالياً من عيب كبـير، فقد كـانت فيه بحّـة غير محببـة ولكنـه كـان يحفظ حفظـاً جيـداً عـدداً من الأدوار وبخاصة دور: يا فؤادي، لسيد درويش، وكذلك دور: أسير العشق لداوود حسني، وقـد رافقناه في غرفتنا التي استأجرناها أنا ورفيق في خان الدروبي وأخذنا منه بعض الضروبات والإيقاعـات. أما أخـوه يوسف فقد كان موسوعة من الموشحات والأوزان، ولكن صوته كـان غير محتمـل لبشاعتـه وخروجـه على المألوف، وبالرغم من بشاعة صوته فقد كنا نطلب إليه أن يُغني وكنا نصطنع الطرب، كل ذلك من أجل أن نحفظ منه موشحاً أو دوراً كان يتقن حفظه.

في هـذه الفترة كـان يرافق نجيب زين الـدين مغن ناشىء دون العشرين من عمـره يقال لـه: ممدوح الجلبي. كان هذا الشاب موهوباً في حفظه وإتقانه ومعرفة بعض الإيقاعات التي ازدادت معه عـلى الأيام، أما صوته فكان أعجوبة لقـد كان ضعيفـاً من حيث القوة، ومـداه قصير بـين جوابـه وقراره ولكنـه كان يشتمل على مادة الطرب اشتمالاً عجيباً مع بحّة ظاهرة وحرقة تبـدو على صـوته تؤثـر في السامـع وتقيمه وتقعـده، كان يسهـر في الليلة التي يسهـر فيها نجيب وقليـلاً ما كـان يسمح لـه بالغنـاء، من بعض تلك الأناشيد الدينية الجديدة المعروفة من مثل:

كـووا الألبـاب بـالميـل وهـدّوا بـالنـوى جيـلي

أو: علموا المحبوب هجري

أو: إن لم تشهد ذا المشهد

إلى آخر هذه السلسلة من الألحان الحمصية. ثم تقدم في مضمار الفن وسعى إلىٰ الدراسة فذهب في بعثة خاصة إلى مصر ونال شهادة كما يقول، ولا نَعـرف عن صحة هذا الأمر أو عدم صحته شيئاً. وعـاد من مصر ليعمل مدرساً لمادة الموسيقى في المدارس الرسمية، ولكنه أخذ يتأثر بـأخلاق نجيب الشـاذة فقد أصبح عصبياً لا يحتمل ومحدثـاً أكثر حـديثه الشتـائم والسباب عـلى من ينتقدهم، ثم أصبـح يروي من القصص ما لا يصدق، وكثيراً ما جوبه بهذه الحقيقة فثار وتخاصم مع الناس، وقـد مات أخيـراً بعد أن اختلف مع أكثر الناس، فلم يبق له صديق إلا نفر من العـامة والتجـار الصغار الـذين كانـوا يحتملونـه ويوجبونه.

ولقد أصيب بمرض القلب وتـوفي فجأة في هـذا العام (١٩٨٩)؛ لقـد تعلم أخيراً العـزف على العـود فأتقنه عملياً، ولكن عوده لم يكن مطرباً لأنه ظل عوداً غير ناضـج، ولا نعرف سبباً لـذلك إلا لأن ممـدوحاً هذا تعلم العود بعد أن كبر فقست يده فأصبح عزفه جافّاً غير مطرب، ولكنـه استطاع أن يجعـل العود مساعداً له. لقد سجـل أصحابـه له الكثـير من الأغاني من التـراث الحمصي ولكنه لم يسجـل في الإذاعة شيئاً فقد أجرى فحصه ووجدوا أن صوته غير إذاعي وهذا صـحيح، فإن في صوتـه بحّة قـوية أو شرخـاً يجعل صوته غير قابل للتسجيل.

هذه العائلة الموسيقية عرفت بحمص باسم عائلة «العَشَر»، ويبدو أن أفراد هذه العائلة كانوا جميعـاً يتعاطـون الغناء والعزف وأحياناً الأفراح والاحتفالات، فهم بهذا أشبه بـالعوالم الـذين عرفـوا في مصر والذين اشتهروا في الحفلات، وكانوا يؤخذون عن طـريق أرباب الاختصـاص الفني في شارع محمـد علي بالقاهرة، ولكن أشهر أفراد هذه العائلة هو: مصطفى العشر، الذي غير اسمه في الأيـام الأخيرة فـأصبح: مصطفى الرباط، ولا أدري من أين جاء بهذه الرباط أخيراً، لقد بدأ حياتـه في الحفلات الصغـيرة عازفـاً بارعاً على العود ثم غير اتجاهه فتعلم العزف على الكمان حتى برع أيضاً، وقد سمعته لأول مرة يعزف على كمانه في فرقة خيرية السقا التي سمعنا غناءها عام ١٩٢٥ حين زرت حمصاً لأول مرة برفقة أخي المريض سليمـان وأخي الكبير محمـد، وقد أسلفت ذكـر هذا فيمـا مضى، ويبدو أنـه كانت لمصطفى هـذا عمـات موسيقيات وأخوات، فكان الحمصيون يطلقون عليهن اسم «العشريات» وقد عرفته حتى في آخريات أيامه، وأذكر أنه هـو الذي أسمعني لأول مـرة موشـح سيد درويش «الشـورى» الذي كـان ينشده قبـل دوره: ضيعت مستقبل حياتي، المعروف، ويقول الموشح: حبي دعـاني للوصـال من بعد ذلي والخصـام، وذلك في مكتبة عبدالسلام السباعي صديقه في حمص.

أما العبقري الحقيقي من بين هؤلاء، بعد نجيب زين الدين، فهو: محمد عبدالكريم، القصير النوري أو القرباطي كما يسمون النَوَر في حمص أو الجوالة لأنهم لا يستقرون في أرض كما يسمونهم في مصر الغجر أو النَوَر وكان لا يتجاوز المتر طولاً فهو «قزم» حقيقي ومن هنا قيل: كل ذي عاهة جبار. ولد محمد عبدالكريم في حي «عمر بن عبدالعزيز» الواقع جنوبي المدينة (حمص) قريباً من المدرسة الإنجيلية التي مررت على ذكرها آنفاً، وقد كان له أخ أكبر منه يعزف على العود بشكل مقبول فلفتت هذه الآلة النغمية نظر الطفل الصغير ولكنه اختار آلة تشبهه جسمياً والتي لا تحوي إلا ثلاثة أوتار وأعني بها آلة: الطنبور، وهي آلة قديمة قد يكون أصلها هندياً، وقد عرفها العرب وخاصة في العصر العباسي وعزف عليها جماعة اشتهروا بـ «الطنبوريين» ومنهم كما أظن زلزل والعازف برحوما، وألفت في هذه الآلة مؤلفات قديمة، وهي آلة أوتارها من المعدن وصوتها أرفع من العود لها طرب خاص يفترق عن طرب العود ولكنهما يتلاقيان بطريقة العزف والخلاف بينهما كبير من ناحية تحريك اليد والأصابع، لأن زند الطنبور أطول بكثير من زند العود وتحريك اليد عليها يجب أن يكون أسرع بكثير، ومن أمثال العرب: «زاد في الطنبور نغمة». وبدأ عبدالكريم يتعلم وأخذت أصابعه تتنقل على زند الطنبور أو «البزق» كما يسميه الأتراك، وبدأت براعته تظهر شيئاً فشيئاً، وكان فقيراً طبعاً، فالنَوَر كلهم فقراء يعيش أكثرهم من صناعاتهم المعروفة مثل الغرابيل والخواتم وبعض المصنوعات الأخرى الخاصة بهم. وحين أصبح عازفاً مقبولاً حمل آلته على كتفه ونزل إلى المدينة يعزف أمام الدكاكين ويتقاضى عن ذلك أجراً بسيطاً، وكان يزداد براعة يوماً بعد يوم، ثم أخذ يتنقل بين المدن والقرى، ويشارك المغنيات اللائي كن يردن إلى الريف مما كان يسمى «التياترو»، فكان مختصاً بمادة الرقص يعزف للراقصات أثناء رقصهن نظراً لسرعة يده، فإذا غضب على إحداهن عمد إلى إرباكها أثناء الرقص بأن يسرع زيادة على اللزوم أو يعمد إلى ما يسمى «متارسة» أي أن تتداخل الإيقاعات فلا تستطيع الراقصة اللحاق بها فتضطر إلى الوقوف أو إلى الخطأ الذي يضحك المشاهدين. وكان المغنون المصريون والعازفون يفدون إلى سوريا، وكان الحمصيون يحضرون عبدالكريم في السهرات التي يحيونها مع أولئك المصريين، يحضرونه كظاهرة غريبة لا يمكن أن يجاريها أحد بالعزف السريع. وأصبحت للعازف «المختصر» شهرة في مدن سوريا وريفها كما حمل المصريون أخباره «العجيبة» يتحدثون فيها هناك، وجاء مصادفة إلى حمص المغني الشاب محمد البخيت، الذي أتينا على ذكره في مناسبة سابقة، وعمل في مقهى الجنينة في حمص وأشير له إلى محمد عبدالكريم فاستدعاه وطلب إليه أن يشاركه بالعزف في ليالي سهره، وأثناء ذلك رأيته يرافق البخيت وقد لبس قنبازاً على الطريقة العامية وجلس في مكان منفرد بارز على المسرح وراح يعزف على طنبوره عزفاً يسبق النظر سرعة وإتقاناً. وبعد فترة زار دمشق سامي الشوّا عازف الكمان الشهير يرافقه كميل شمبير عازف البيان المعروف وكلاهما من حلب كما لا يخفى ومن «حارة الهزازة» وأحضرا معهما مغنياً كانت له بعض الشهرة هو الشيخ أحمد إدريس، وكانت هذه المجموعة قد سمعت بأخبار محمد عبدالكريم فاتفقت معه على أن يشارك في حفلاتها بعزفه، وفي مرة من المرات خلال إحدى السهرات ترك له المجال وصعد إلى المسرح وحده ومعه طنبوره فغنى أغنية أم كلثوم الجديدة المشهورة وهي:

إن حالي في هواها عجب، أي عجب ليس يرضيني رضاها ثم يشقيني الغضب

وهي من كلمات أحمد رامي وألحان محمد القصبجي، وقد أجاد عبدالكريم في الغناء والعزف وخرج صوته كصوت الطفل صافياً رناناً أشبه بصوت أم كلثوم في أيامها الأولى. ودارت الأيام وأخذت معها عبدالكريم تطوف به في مصر والعراق، أما في مصر فقد تعرف على أكثر المطربين والمطربات وقد وصف لي مرة كيف سمع القارىء المصري الشهير (أحمد ندا) وغيره، وفي العراق كان ينزل ضيفاً على نوري السعيد رئيس وزراء العراق والسياسي السابق المعروف. وتشاء الظروف أن يعود إلى سوريا ومنها إلى فلسطين، وفي فلسطين عمل في إذاعة القدس والشرق الأدنى اللتين أسسهما البريطانيون للدعاية أثناء الحرب العالمية الثانية، وفي فلسطين تعرف على الموسيقيين والشعراء من مثل إبراهيم طوقان وجلال زريق وعبدالكريم الكرمي «أبو سلمى» كما تعرف على يحيى السعودي وصلاح اللبابيدي، وفي إذاعة الشرق

الأدنى عرفت أغنيتهالشهيرة: «يا جارتي ليلى» التي نظمها له الأستاذ جلال زريق الأديب والعالم اللاذقي الأصل، هذه الأغنية التي كانت تغنيها المغنية الفلسطينية «ماري عكاوي» التي كانت ذات صوت من أجمل أصوات الغناء في عصرنا والتي تزوجها فيما بعد الصحافي القديم «نشأت التغلبي»، وقد توفيت عنده بعد أن ولدت له عدة بنات، ثم تعرف في فلسطين على المغني المصري المعروف أمين حسنين وقد عمل معه على مسارح القدس ويافا وحيفا وغيرها من المدن، وعاد إلى سوريا فاحتضنه السيد عبده العابد الذي كان عقيداً في الشرطة، كما كان صاحب نفوذ بحكم عائلته الوجيهة وعلاقاته مع أولياء الأمور، ومن هناك انتقل إلى السيد فخري البارودي الذي كان بيته ندوة لرجال الأدب والفن والسياسة وأخذ يعمل في الإذاعة فيعزف مرة كل أسبوع تقاسيم رائعة مشهورة ويتقاضى راتباً يمكّنه من العيش، ولكنه لم يعمل في مسرح فقد كان يكره الغناء في المسارح كما يبدو، وقد استأجر غرفة كان آخرها غرفته في عين الكرش التي توفي فيها، وقد اعتبر عبدالكريم أعظم عازف على الطنبور في البلاد العربية كما كان يجيد العزف على العود. لم يكن مثقفاً لكنه كان يحاول أن يتفلسف، ولم يلحن إلا عدداً بسيطاً من الألحان والمعزوفات وأكثر معزوفاته مسجلة في الإذاعة السورية. ويصيب المرض الخبيث عبدالكريم وأذهب إليه في غرفته الأنيقة المرتبة وأتحدث وإياه أكثر من ساعة بين مزاح وضحك وكأنه غير مصاب، ثم نقل إلى مشفى من مشافي دمشق حيث زرته مع الصحفي المعروف عادل أبو شنب وقد سجلنا له حديثاً يزيد على الساعة وهو نائم في فراش مرضه، وأحضرنا له فتاة جميلة الصوت غنت له أغنيته الشهيرة «يا سمرة» التي سبق أن غنتها له وسجلتها «نجاح سلام» ولكن هذا التسجيل ظل مع أبي شنب ولم نسمع عنه شيئاً. كان عبدالكريم يدعي أنه من مواليد ١٩١٠ وقد يكون أكثر من هذا، وقد توفي هذا العام (١٩٨٩) وشيّع بما يليق بالفنان الكبير، رحمه الله.

٢٥
رفاق آخرون في حمص

كان الأصحاب في حمص قسمين، أحدهما المجموعة التي عددتها لك من مثل رفيق الفاخوري ومحيي الدين الدرويش ورضا صافي وعبدالسلام السباعي وبرهان الأتاسي وشلة الأتاسيين الآخرين من مثل صائب وروحي وصدر الدين وعبدالحي الذي عرفته في المدرسة الزراعية حين كان تلميذاً في صفّي، والقسم الثاني من الأصحاب هم الذين كانوا يقطنون الحي المسيحي: بستان الديوان وغيره من الأحياء الشرقية، وكان منهم الشاعر وصفي قرنفلي والظريف مطانوس الحوش والفنان الطريف ألبير طرابلسي وجودت عبدالمسيح النادر المثال، فكنت أتردد عليهم وأقضي بعض أوقاتي لديهم وقد اتصف هؤلاء كلهم بالكرم وبخاصة وصفي وألبير: وأما مطانوس فلم يكن لديه متسع من الكرم لفقره الشديد وحاجته الملحة.

كان وصفي شاعراً صحيح الشعر بل لعله كان أشعر الحمصيين في رأي الكثيرين، وهو مسيحي من طائفة الروم الأرثوذوكس ومن أسرة كانت تعمل في تجارة الغنم، وقد تبنت الكثير من العادات التي أملتها عليها عشرتها الطويلة مع البدو، وكان وصفي قصيراً معروقاً أحمر الشعر في وجهه نمش ظاهر وفي عينه حول لا يخفى، ولكنه كان فصيح اللسان وإن لم يتعلم كثيراً، فقد وصل إلى صف البكالوريا الأولى فقط أي «الحادي عشر»، عرفته حين كنت تلميذاً في مدرسة الروم أستعد لفحص البكالوريا وقد جاء إليّ يزورني هو وجودت عبدالمسيح صديقه الدائم، وتحدثنا في الشعر والأدب فأعجبت به إعجاباً شديداً بنفسه وقوته اللغوية، وقد كان بدأ يكتب في الصحف والمجلات بتوقيع «فتى العرب» إذ كان معتزاً بعروبته، وحاول أن يدخل في الجامع الأزهر ليدرس ما فيه من علوم ولكنه لم يوفق إلى ذلك، فقد كان اتجاهه عربياً صرفاً مع عطف خاص على التاريخ الإسلامي وعن طريق هذين، وصفي وجودت، تعرفت على ألبير طرابلسي ومطانوس الحوش، في تلك الفترة أقدم أحد رفاقنا واسمه «عبدالباسط البني» على محاولة اغتيال الزعيم السياسي صبحي بركات، وكان هذا من وجهاء إنطاكية التي كانت ما تزال سورية، وقد أقدم مع عدد من جماعته على تحدي الكتلة الوطنية التي كانت تمثل البلد تمثيلاً صحيحاً ورشح نفسه مع جماعته ونجح بمداخلة الفرنسيين فأثار نجاحه هذا سخطاً كبيراً في البلاد، وقام صاحبنا البنّي بمحاولة اغتياله في فندق من فنادق بيروت ولكنه ارتبك ولم يحسن التصرف فقتل ودفن في حمص وأقيم حفل لتأبينه، ولكن الفرنسيين يومها حالوا دون إقامة هذا الحفل وأصررنا نحن رفاقه على تأبينه، وكان قد حضر لهذه الغاية من بيروت إبراهيم يوسف يزبك الصحفي والأديب اللبناني المعروف، وقمنا نفتش عن مكان نقيم فيه حفل التأبين والفرنسيون يلاحقوننا من مكان إلى آخر حتى وصلنا إلى حي باب السباع واختبأنا عن عيون الملاحقين ودخلنا بيتاً واسعاً لأحد السباعيين وفيه ألقى وصفي قصيدته وألقيت أنا أبياتاً في تأبين صاحبي الذي كان رفيق دراستي في حمص، وقد اشتهرت قصيدة وصفي التي جاء فيها هذا البيت الجميل:

طعنت الخيانة في صدرها ... فيا ليتها كانت القاضية

وكان مطلع أبياتي:

لك نفسي وما تقل جفوني ... من دموع ولوعتي وأنيني

لقد كنت أنا ووصفي في الثالثة والعشرين من العمر يومها، وكنا مع ذلك ننظم هذا الشعر الذي لا غبار عليه من ناحية اللغة أو الوزن أو القافية، ولو قارن أحد بيننا وبين أبناء الجيل الجديد في يومنا هذا لرأى الفرق شاسعاً بين ثقافتنا القديمة وثقافة هذا الجيل الجديد الذي لم يبرع بشيء غير الجهل والسخف. كان وصفي مسيطراً على جماعته من الناحية الأدبية، وكان مطانوس لاهياً بفقره وتدبير معاشه المقتّر، وأما جودت فقد كان لاهياً بعمله في صناعة القصب وكان أغنى الجماعة، وأما ألبير طرابلسي فقد كان زميلاً لوصفي في عمله في دائرة المساحة. وكان وصفي كريماً لدرجة المبالغة معتدّاً بنفسه لدرجة

الكبر، ومن هنا كان قليل الأصحاب لأنه لم يكن يتنازل عن فكرة من أفكاره مهما كلفه الأمر، يـريد مثـلاً أن يدفع عن رفيقه في المقهى أو في المطعم أو في أي سبيل من سبل الإنفاق ولا يقبل أن يدفـع أحد عنـه، ولو تكرر هذا الأمر والكثير من الناس لا بل الناس لا يقبلون بهذا، ومن هنا فقد كان الأصحاب يتجنبـون مجـالسته، وازدادت الأمـور معه تعقيـداً حين انتسب إلى الحـزب الشيوعي، فـإن الحزبيـين جعلـوا لـه السيطـرة عليهم وهذا مـا سبب له الكثـير من العناد والغـرور فأصبحت صحبتـه عبئاً لا يحتمـل، وكنت أحتمل هذا منه وأؤنبه وأنصـح له كي لا يتـورط في عداء النـاس عن طريق العنجهيـة والكبريـاء التي لا يحتملها منه أحد، وكنت أقول له: إن الشعر يجب أن يعطيك سلاسـة في الطبع لا قسـوة وشراسة، فكـان يهز برأسه ولا يجيبني. زار مرة عمر أبو ريشة الشاعر المعروف حمصـاً، فرآه وصفي في مقهى الـروضة فكتب له بيتين من الشعر وأرسلهما له مع الكرسون وفيهمـا هذا الشطـر: «وسلك من لنـدن من لسانـه»، ويقصد لسان الشـاعر، فتعجب عمـر من هذا الـذي يبادهـه القول دون معـرفة، وعـرفت الحديث وعمـر صديقي مثل وصفي، وجئت إليه وكاد الأمر أن يؤدي بيننا إلى المقـاطعة الأدبيـة وقسوت عليـه قسوة لم يعهدها من غيري؛ ووقعت الواقعـة أخيراً بـين وصفي وألبير فقـد تقاطعـا وظلّا عـلى تقاطعهمـا أكثر من عشرين سنة وحتى مات كلاهما دون أن يكلم أحدهما الآخر، وذلك لسبب سخيف تـافه، فقـد كانت لكـل واحد منهما صديقة يصحبها معه في رحلاته إلى الوظيفة، وكـانا كثيـراً ما يجتمعـان وكان وصفي شـديد الغيرة على المرأة خاصة وأنه يعلم أن منظره ينفر المرأة إذ كان أبعد الناس عن الجمال كما كان يقول عن نفسه وكما كان يقر ويعترف بذلك، لم يكن يطيق أن يشاركه أحد في جلسة من جلساتـه مع امـرأة، وكان سلاحه في الاستيلاء على المرأة المال الذي كان ينفق منـه في سبيل نجـاح مشروعه الغـزلي ما لا يستطيـع إنفاقه غيره، واتّهم كل واحد من الصديقين صديقه بالتعرض أو التحرش بصديقته الخـاصة، وأنـا أؤكد أن الذي بدأ بالاتهام هو وصفي، ووقع الانقطاع الذي ظل مدى الحياة. وكان وصفي بحكم كونه شـاعراً يعبد المرأة ويرى فيها نموذجاً للعبادة، وقد أحب مرة امرأة في حي من أحياء مدينـة حماه وكـان يعمل في تلك المنطقة من قرى هذه المحافظة وكادت هذه المغامرة أن تكلفه حياته، فقد راقبه جماعـة من أهل الحي حتى إذا مر ذاهباً إلى موعد مع تلك المرأة هجم عليه رجل وأعمل فيه الضرب ولولا شفقة بعض من حضر لذهبت حياته هدراً في سبيل امرأة لا تسـاوي شيئاً. لقـد حاولت كثيـراً أن أصلح بـين هذين الصـديقين اللذين قضيا عمريهما سوية فلم أستطع، كانا أعز صديقين متصادقين؛ لقد دعاني وصفي مرة إلى الغداء في بيته وحين وصلت إلى البيت خرجت شقيقته تقول لي إنهما ـ أي ألبير ووصفي ـ سيتغديان وأنت معهما عند ألبير، وذهبت إلى ألبير بالفعل ودخلت البيت وتغديت، ولكن وصفي لم يحضر وسألت عنه فقيـل لي إنه بعد أن دعاني تلقى أمراً مستعجلاً من أجل عمل يتعلق بوظيفته فاضطر إلى السفـر وكلف ألبير صـاحبه الوفي بأن يقوم بواجب ضيافتي، وعجبت لهذه الصداقة الوفيّة، التي ذهبت مع الأسف من أجل قضية لا تسمن ولا تغني من جوع. ونشر وصفي بعض شعره الكثـير في ديوان صغـير هو «وراء السراب» بعـد أن راح وجاء أكثر من سنتين إلى وزارة الثقافة وفيه قصيـدة يذكـرني بها ويمتـدحني وينتقدني بـآن واحد، وظل محتفظاً بدفتره الصغير الأحمر الذي كان يحمله في جيبه ويكتب فيه الأشعار التي تأتيه أثناء تجواله النهاري، وأظن أن هذا الدفتر ما زال باقياً ويا ليتنا نعثر عليه فإن فيـه الكثير من الشعـر الذي يجب أن يطلع عليه القراء.

صحبته مرة إلى زحلة، وفي الطريق لا أدري ما الذي أصـابني فقد أصبت بمغص شـديد خفت منـه خوفاً شديداً، وبتنا يومها في نزل كـان لامرأة من الجميـلات وقد رآهـا وصفي فجن جنونـه إعجابـاً بها، وصنع لها قصيدة مشهورة يراها القارىء في ديوانه هي قصيدة «مادونا»، وقد قمنا منـذ الصباح البـاكر إلى الوادي وأخذنا ننظم الأشعار المرتجلة في هجاء أحد العـراقيين الـذي كان ينـام قريبـاً منا في النـزل، وكانت أبياتاً مرتجلة من أحلى الشعر ويا ليت أننا احتفظنا بشيء منها.

ويصيب المرض الخبيث وصفي، وهو مرض الرجفان أو الرعاش، واسمه العلمي «بـركنسون» ويبـدأ المرض مع وصفي، ويأخذ الارتجاف بالازدياد شيئاً فشيئاً ويجلس في المقهى ويداه ترتجفان ومع شلة من

أصحابه اليساريين وأكثرهم لا علاقة له به فنياً ولا أدبياً، وكان يعلم هذا فإذا ذكرته بمن حوله ضحك ضحكة حزينة وعرف أن طبعه قد جنى عليه، وأنه كان عليه أن يحتفظ بأصدقائه الذين عاش معهم وقادته إليهم الفطرة الأدبية السليمة. ثم أقعده المرض في البيت وكنت أعوده بين حين وآخر فأرى تقدم المرض إلى أن شاهدته آخر مرة وقد اضطجع في فراشه وعجز عن القيام، وقد أخذت منه بعض شعره لأكتب عنه في كتاب أسميته «شعراء الجيل» وأدركت أن أيامه أصبحت معدودة.

لقد ذهب وصفي ولم يخلف إلا ديواناً صغيراً ولو لقي هذا الشاعر الكبير تشجيعاً من أية جهة من الجهات لترك وراءه عشرات الدواوين، فقد كان غزير المادة طيّع الشعر ولكن الشاعر والأديب لا يمكن أن يستغنيا عن مجتمعهما وبيئتهما، فإن التشجيع الصحيح أول باعث للشعر والشعراء على الإجادة والتجويد.

أما صاحبي الثاني في هذه المجموعة الشرقية من حمص فهو: مطانوس الحوش. كنا نسميه «أبا الأسماء»، فقد كان يقلب الكلمات إلى كلمات أخرى لا يفهمها غيرنا. كان يسمي وصفي: التخّان، وألبير: المسطرين (آلة تستعمل لوضع الطين أثناء البناء) وجودت: الهايشة، أما هو فقد سمّى نفسه «الكرفس» وهو النبات المعروف، ولا أدري ولا أحد يدري، بل هو نفسه لا يدري كيف وجدت هذه الأسماء، لقد كان يلفظ كل ما يخطر على باله من ألفاظ سواء أكان لها معنى أم لم يكن، ولكنها عنده كلها ذات معنى بعيد. كان مطانوس أسود اللون ضعيف النظر، في رأسه كتل لحمية متعددة ولو نظرت إليه لخفت أن تحدثه، ولكنك إذا حدثته أعجبت بخفة دمه وطريقته في الحديث وبثقافته أيضاً رغم أنه لم يتعلم ولم يدخل مدرسة كما أعتقد، وكان موسيقياً رغم أنه لا يغني، يحفظ الأغاني ويقدر المطربين تقديراً حكيماً دقيقاً، كان أقل جماعته علماً ولكنه كان أعقلهم رأياً وأبعدهم فهماً ورأيه هو الذي كان يُعمل به في كل مشاريعهم في السهر وغيره. كان صديقه المفضل من بين الجماعة جودت وكانت لهم تصرفات جنونية تميت من الضحك، فربما سكرا فشربا قنينة من الشراب كاملة وكل واحد منهما ممسك بباذنجانة يقضم منها أو بقبضة من البذر، دون إطعام غيره، وكنت أخرج من باب المدرسة ـ مدرسة الروم التي كنت أعمل فيها ـ فأجد مطانوس في دكانه البسيط وقد وقف في أرض الدكان التي لا تحوي ما يساوي عشرة دراهم، وذلك في أيام البرد الحمصي القارس، فكان يقف ويتحرك وهو واقف يرفع رجلاً ويضع أخرى ويمتص من ذلك الشراب الذي وضعه إلى جانبه في قنينة كبيرة فإذا قلت له: ولكن هذا يؤذيك؟ كُل شيئاً، مهما كان فهو أفضل، وكان يجيبني. أنا يا خواجة أحمد (وهذا اسمي عنده) لا أشرب للهو والانبساط، أنا أشرب لأدفىء نفسي، ألا تحسّ بالبرد، وكنت أعلم أنه لم يكن يملك اللباس الذي يقيه البرد القارس. كنا نغني حين نجتمع أنا ورفيق دوراً لسيد درويش فكان يعطينا «المظن» أي الجملة الموسيقية المعزوفة ـ بلسانه وصوته دون أن يغني شيئاً، لأنه كان يحفظ النغم حفظاً صحيحاً، وسُميت عائلته «الحوش» لأنها لم تكن تملك بيتاً أثناء الحرب العالمية الأولى فوضعها رجال الحي في حوش لا باب له فسميت العائلة بالحوش، وكان له أخوان أحدهما: ميخائيل على ما أظن وهو أكبر منه وكان لا يطيق رؤيته ويسميه «اليهودي»، وله أخ آخر كان يعمل مع وصفي وألبير في المساحة واسمه: أبو رعد، وكان ظريفاً لا بأس به، وكان مطانوس يذهب إلى حماه أحياناً فإذا عاد قال لي: إن أختنا متزوجة في حماه ولم أكن أعرف من هو زوجها، وعلمت فيما بعد أنها زوجة لأحد أصحابي، كما كان ابنها صاحبي وهو شاب تعلم وتثقف وأصبح له مقام محمود، ولكنه ظل بعيداً عن المجتمع يتصنّع الكبرياء التي باعدت بينه وبين الناس حتى من أصدقائه المخلصين. ولقد عاش مطانوس مدة في فلسطين، وكثيراً ما كان يحدثنا عن مدينة الخليل التي ذهب إليها ماشياً على قدميه مرّة، ويبدو أنه كانت له هناك قرابة لم تعرف من هي؟ لقد كان أنيس المحضر فيلسوفاً محباً للنكتة ويفهم الدنيا بطريقته الخاصة، ولقد مات وكنت بعيداً عن حمص. ومرض ولما أشرف على الموت أحضروا له رجل الدين ليعترف فأبى أن يقر هذه الطريقة أول الأمر، ولا أدري كيف انتهت به الحال بعد ذلك، ولقد رثاه وصفي قرنفلي رثاءً رائعاً لعله كان أحسن رثاء له في حياته والقصيدة موجودة في ديوان الشاعر: وراء السراب.

الشخص الآخر من هذه الجماعة هو ألبير طرابلسي ولعله كان أكثرهم نظاماً وترتيباً في حياته، لقد كان له بيت يعيش فيه وله أخت كانت تقوم بما يلزم له في معاشه كما أن له أقرباء كثر في المدينة، ومن أقربائه الشاعر المرحوم وجيه الخوري وغيره ولكنه ليس من أسرة الطرابلسي الغنية، ولقد كان عمه مختاراً للحي، وهذا العم كان يعيش عند ابن أخيه وكان قد جمع مالاً كثيراً من عمله، كما كان يربّي الحمام في هذا البيت الشاسع الذي أعرفه، وحاول مرة أن يخرج إحدى الحمامات من «القنّ» فمات وهو يحاول ذلك وحار ألبير فيما يفعل، لقد مات الرجل بالسكتة القلبية فأين ذهب المال؟ لقد بدأ ألبير يبحث عن المال فحفر أرض الدار شبراً شبراً وحفر أرض الغرف والجدران والسقوف وظل يعمل في سبيل هذه الفكرة أكثر من سنة ولكن المال اختفى وعجز ألبير عن لقائه. كان يراني فيشكو لي خيبته، وكنت أعزيه وأفرض له أن عمه لم يكن يملك شيئاً، أو قد يكون وضع ماله أمانة عند غيره فضاعت الأمانة. وأصيب ألبير أيضاً بحادثة أخرى، فقد مات له أخ أكبر منه وقد كان عبقرياً في العزف على الكمان وكان يعيش في نيويورك ولقد مات في مرض القلب كما أظن واسمه «بيترو»، وكان ألبير كثيراً ما يحدثني عنه ويترحم عليه. كان ألبير يعمل في المساحة وكان من المساحين الشهيرين في عمله وبعد أن أحيل إلى التقاعد اتخذ لنفسه مكتباً يعمل فيه في مسح الأراضي ورسم الخرائط وقد انتقل إلى دمشق وتزوج من دمشقية وزرته في بيته مرات. لقد كان كريماً حلو الحديث مبالغاً في أوصافه لدرجة الإضحاك ويقلب الأسماء على طريقة مطانوس الحوش بما يسلي ويضحك. وظل مقاطعاً وصفي فكنت إذا تعرضت لهذا الحديث في محاولة للإصلاح بينهما ضحك وغيّر الحديث، وقد كنت دائماً أظن أن وصفي هو سبب هذا التقاطع لشذوذٍ في تصرفاته وخاصة بعد أن استولى عليه نفسياً رفاقه الشيوعيون. ويموت ألبير في دمشق وما أظنه قد خلف شيئاً من المال غير البيت الذي يسكنه في حي القصاع.

أما رابع الجماعة فهو جودت عبدالمسيح، وهذا أيضاً من نوادر الناس في تصرفاته وشكله وحديثه ومبالغاته وخلط الأسماء بعضها ببعض دون رابطة بينها. وجودت من عائلة عرفت بصناعة القصب وتجارته وكان له أخوان أكبر منه أحدهما كان ذا سمت وأناقة ولا أذكر اسمه، أما الثاني فكان اسمه «لورنس» وقد اتخذ هو وأخ آخر له مصنعاً في مدينة «ليون» الفرنسية، وأظن أن تجارته كانت موفقة ولا أعرف ما الذي تم بهذه التجارة، وأصيب جودت بحادثة في شبابه ذهبت ببعض أصابعه وإحدى عينيه، فقد حاول الصيد بالديناميت فانفجر في يده قبل أن يلقي به في الماء، كان أبيض ميالاً إلى الصفرة مدمناً على الشراب زاهداً بالأكل، وكانت هذه الجماعة ذات فلسفة خاصة تقول: إن الحياة لا تستحق الاهتمام، وإن الأديان كلها حديث كان نافعاً ثم انقضى زمنه والشراب هو الدواء الوحيد كما يقول الشاعر:

وما العيش إلا سكرة بعد سكرة ... فإن طال هذا عنده قصر الدهر

لقد كانوا يدينون بمبدأ الاستعانة على الحياة بالشراب على طريقة أبي نواس، ولكن أبا نواس تاب في آخر أيامه وهؤلاء لم يتوبوا بل أظن أن أكثرهم مات ضحية الشراب. كانوا كلهم فنانين في تفكيرهم ولم يكتب منهم أحد إلا وصفي، أما ألبير فقد كان يعزف عزفاً متوسطاً على عود صغير صنعه لنفسه، وكانت له أغنية هو الذي صنع كلماتها ولحنها وكنا نسر بها حين يغنيها وهي من نغمة «الكرد» يقول فيها:

شو بدي أحكي وأبكي يا ناس ... ع اللي لقيته بزماني

أما جودت فقد كان صوته معقولاً وكان يعرف النغم ويطرب، أما الذي لم يكن يفهم النغم ولا الطرب فهو وصفي مع أنه الشاعر الوحيد بينهم وهذا من مفارقات الطبائع. لقد كنا نرى مطانوس وجودت يمشيان في الليالي الدامسة وإثناهما لا يريان أبعد من ذراع فكنا نضحك منهما وألبير ووصفي يضحكان من ضحكنا. لم يختلفا مرة ولم يكونا يفترقان، إنها صداقة الحياة اليائسة التي تستعين بالشراب على قضاء أيام الحياة. هذه الجماعة كانت صداقتهم محببة إلى نفسي فقد كانوا يحبونني ويؤثرونني، وكنت أعلّم في مدرسة طائفة الروم وهم كلهم من هذه الطائفة، فكنت في حي بستان الديوان واحداً منهم لم أشعر بالغربة ولم أحس بالعزلة. لقد مات كل أفراد هذه الجماعة ولم يبق أحد منهم الآن، ولعمري إنها الحياة التي لا تبقي على أحد، والشقي البائس هو الذي يبقى بعد أصدقائه يتذكرهم وينظر إلى

مصارعهم وهو لا يستطيع عمل شيء ورحم الله بدوي الجبل:

مصارع بعطور الحق زاكية كأنما سكبوا فيها الذي اعتقدوا

حين كنت تلميذاً في تجهيز حمص عام ١٩٢٩ وفي دار «البنك» التي ذكرتها عرفت في فترات ما بين الدروس تلميذاً مهلهل الثياب جهم الوجه ضخم الصوت آجشه، ورأيت أصحابه يحاولون المزاح معه والركض وإياه من ناحية إلى ناحية في باحة المدرسة، ورأيته في كل فترة يدخل صفه «الثامن» الذي كان فيه وقد تصبّب عرقا وأمسك بمنديل كبير يمسح به عرقه، وكنت أشعر من بعيد أنه خفيف الدم يحب النكتة يصنعها ويرويها وكنت أقف لأتفرّس في وجهه الغريب وكان ينظر إليّ ويبتسم، ثم يمر بي فقد كان فارق السن يباعد بيني وبينه.

كان هذا الشخص إنساناً لا يملأ العين، ولكنه أصبح فيما بعد إنساناً مرموقاً له مكانته في عالم الحديث والصحافة والسياسة، وبخاصة في عالم اللهو والمرح وفي مجالس الأنس الكبيرة إنه سعيد بن الحاج خالد التلاوي ومن حمص. نشأ في أسرة فقيرة مؤلفة من أب وعدة أولاد كان أبرزهم سعيد، ووصل سعيد إلى البكالوريا ولكنه لم يحصل عليها لسبب قلة المال كما أعتقد أو لسبب عدم معرفته اللغة الفرنسية التي كانت مادة أساسية في كل فحص. ولكنه ولد ونشأ ميالاً إلى الكتابة، كما كان يحفظ الشعر إلى جانب النكتة الخفيفة المستملحة وكان يزيد نكته جمالاً شكله الغريب المخيف، الحواجب مرتفعة عن العين، والشعر واقف في الراس كالمسلات واليدان ترتجفان وراثة والصوت مخيف رهيب والكرش منتفخ بارز يذكرني بقول الرصافي لأحد أصحاب الكروش:

مالي أراك على الكرسي منتفخاً إن كان فيك احتباس الريح فاحتقن

وبدأ سعيد حياته في عالم الصحافة في حمص محرراً ومخبراً، كما بدأ حياته بالشراب الدائم الذي رافقه حتى آخر لحظة من حياته، ولا أقول هذا مبالغة فقد مات ـ رحمه الله ـ وهو ممسك بالكأس بيده في أحد فنادق بيروت بينما كان جالساً مع رفاقه في أكمل صحة وعافية، وسرعان ما كوّن لنفسه جماعة من الأصدقاء من جملتهم رفيق الفاخوري ومحيي الدين وأنا وشخص آخر استقل به فيما بعد هو السيد محيي الدين رسلان وله حديث خاص سيأتي. لقد كان سعيد كريماً لا يُعلَى عليه في هذا الباب فهو مغامر والمغامرون هم الكرماء الحقيقيون في الحياة. وكان ذكياً لماحاً سريع الجواب، وقد كانت له آثار في الانتخابات النيابية فخلقت له هذه الآثار بعض العلاقات الرسمية حتى لقد انتخبته حمص فيما بعد نائباً عنها دون أن ينفق قرشاً من جيبه ودون أن يكون له قريب واحد يساعده فإن عائلته صغيرة لا يمكن أن تخلف أثراً في الإنتخابات الحمصية في حال وجود العائلات الكبيرة الأخرى كآل السباعي وآل الأتاسي وآل الحسيني وآل رسلان وآل الأخرس وآل الرفاعي ومن لف لفهم، وسرعان ما انتقل سعيد إلى الشام ليشترك مع شخص آخر في جريدة أسماها «البلد» وقد نجحت الجريدة، ولكن الأحداث توالت وتعرضت الصحافة إلى نكسات وكوارث وكان «للبلد» نصيب من ذاك. ثم عين في القصر بزمن الرئيس شكري القوتلي، وكان الرئيس القوتلي يستظرفه ويحب حديثه ويدعوه معه لمرافقته في رحلاته الداخلية والخارجية، ونجح سعيد وعلا نجمه وكنا نأتي إلى حمص فننعم بلقائه وبنفوذه الأدبي في المطاعم والملاهي، فقد كان معبود هذه الطبقات من الصناع والعمال والجرسونات بشكل خاص. وقد جرى تصنيف الموظفين في سنة من السنين ووقعت على النتيجة التي لا يمكن أن تكون منصفة، فالالتماس عصب الحياة في الدوائر وأعمالها فجئت إليه وأنا موظف تابع لوزارة الداخلية فصحبني إلى الأمين العام للوزارة وكان الأستاذ نصوح الأيوبي الراوية والأديب والقاضي، وأخذني بعد ذلك إلى القصر فتعرفت معه على خالد العسلي وعصام الإنكليزي، وكان لهما أثر كبير في معاملات القصر، وهكذا غنمت ما أريد بالنتيجة واستطعت أن أنال بواسطة سعيد الدرجة التي أملت. ولكن سعيدا كان مسرفاً في كل تصرفاته وخاصة في الآفة التي قضت عليه وهي الشراب لقد كان يشرب ظهراً ومساء وبكميات كبيرة، وحتى بعد أن فقد أسنانه أصبح يضع الخبز في الشراب ويأكله بدلاً مما يسمونه «المازة» وقد عُوْينَ من قبل الأطباء ونصحه الطبيب السويسري مرة أنه إن ثابر على عادته تلك فلن يعيش أكثر من ستة أشهر، ومع ذلك بقي مصرّاً، ومن

مفارقات القدر أن هؤلاء المدمنين أمثال سعيد وعادل خياطة المذيع المعروف وأورخان ميسر الشاعر «السوريالي»: إن كل هؤلاء يتمتعون بمِعَد قوية تقاوم كل أدواء الكحول ومشاكله ولهذا يستمرون على الشراب، كنت، ألتقي بسعيد في بيروت وهو نازل من الترامواي هابطاً إلى مطعم على الروشة لرجل أرمني اسمه «ماسيس» فيجلس، وكنت آتي فأجلس إليه ونتحدث ونمزح، وأشهد لقد كان الناس يستمعون إلينا وكأننا كنا نلقي دروساً في الفقه حتى إذا انتهينا وقمنا قام الناس معنا لأنهم كانوا يجلسون من أجل سماع حديثنا، ولماسيس هذا صنعت أبياتاً أخاطب فيها سعيداً أقول فيها:

أقبل عليَّ بمازة وكؤوس واشرب فخير الشرب في ماسيس
وسعيد يروي من قديم نكاته وسعيد في التهريج كالقاموس

كان سعيد يقبض راتباً من جهة ما ولكنه كان لا يبقى الراتب معه إلا ليلة أو ليلتين، فقد كان يذهب إلى «كازينو» المعاملتين الشهير بالقمار فيضع كل ما في جيبه خسارة، ويعود إلى بيته خالي الوفاض وربما استدان أجرة السيارة، ولم أرَ لاعباً في حياتي كسعيد، لقد ظل كل حياته يلعب ولم يربح مرة في حياته. حدثني قال: ربحت مرة في النادي العصري بدمشق إثني عشر ألف ليرة، وكان هذا مبلغاً عظيماً تلك الأيام وقمت لأذهب إلى بيتي وفي الباب صادفني صديقان لي فأعاداني مرغماً ولم أستطع المقاومة، وعدت لألعب ولأخسر كل ما ربحته ولم أجرؤ على الذهاب إلى البيت، بل جئت إلى مكتبي في الجريدة (الفيحاء) لأنام قليلاً على الكنبة ثم لأتابع عملي في الجريدة. كان كريماً جداً، لقد أراد تكريم صديقين له فأقام لكل واحد منهما حفلاً ساهراً في ليلتين متواليتين، وقلت له: أما كان بإمكانك أن توحد الليلتين وهما صديقان لا يفترقان، قال لي: لا، كي لا يظن أحد أن الحفل لهذا أو لذاك، لكل واحد منهما حفله الخاص، وهكذا كان. ولم يوفق سعيد في دراسة ولده الوحيد الذي أرسله إلى أميركا، ولا أدري ما صنع الله به فلم أعد أسمع عنه شيئاً.

فقد كان سعيد كاتباً وراوية للشعر وللتاريخ الأدبي، وأهم من هذا أنه كان صديقاً ـ رحمه الله ـ. وكان لسعيد صديق يمكن أن يعتبر صديق العمر هو محيي الدين رسلان، لقد رافقه كل حياته ومنذ كان شاباً، ومحيي الدين من أسرة رسلان المعروفة في حمص وقد درس في المدرسة الزراعية في سلمية ونال شهادتها، ولكنه لم يعمل في الزراعة ولم يوظف،، وتاريخ هذا الرجل عجيب، لقد كان رأسماله في الحياة أنه قريب إلى القلب وشكله يدعو إلى الضحك لأنه يضحك دائماً، كما كان يجيد السخر والمزاح، ومزاح محيي الدين هو الذي حدد مستقبله، وظرفه هو الذي كان سبب توفيقه في الحياة، لقد توصل إلى أشياء لم يصل إليها أصحاب الشهادات العالية بفضل لسانه الذرب وطريقته في اجتذاب الأصحاب إليه، وكان مولعاً بصحبة «الأكابر» كما كانوا يسمون في أيامنا، فمن وزير إلى نائب إلى قائد كبير إلى مدير عام وهكذا، وهؤلاء كانوا يرون فيه النُقل الذي يجب أن يوضع على طاولة الشراب حين السهر، لذلك كان محيي الدين زبوناً دائماً في أكثر المجالس أناقة وأرستقراطية، لقد عمل صحفياً وهو لا يعرف من الكتابة شيئاً، وعمل موظفاً في دوائر عدة ولم يكن له في الوظائف باع أو أصبع، وكان أنيقاً يلبس في كل يوم بزة جديدة مع ربطة جديدة توازي أحسن الربطات عند أكثر الأغنياء أناقة وانتهى به الأمر إلى أن تزوج سيدة من أحسن العائلات البيروتية مع شهادة عالية تحملها، ولكن محيي الدين لم ينجب أولاداً، ومما لا شك فيه أنه كان أكثر ذكاء من سعيد في تدبير الأمور، بينما كان سعيد أطيب قلباً، ولم يكن محيي الدين بخيلاً قط، فهو يستطيع تدبير أموره وبسرعة فائقة. جئت إلى دمشق مرة وكان يسكن في بيت صغير فأنزلني عنده وخرجت في إحدى الليالي وكانت ليلة ممطرة وسهرت مع صاحبين لي من علية القوم، وأراد الصاحبان أن يجدا فندقاً ينامان فيه، فلم يجدا، فدعوتهما إلى بيت محيي الدين وهو صديقهما أيضاً، ونام الاثنان في السريرين الوحيدين في البيت ونمت أنا ومحيي الدين على الديوان وكانت ليلة من أسوأ الليالي التي مرت بي وبمحيي الدين، وظل محيي الدين إلى اليوم يذكرني بهذا الكرم الذي بدر مني على حساب غيري. ويموت سعيد رفيق العمر فجأة في المكان الذي يسهر فيه في بيروت ويهتفون لمحيي الدين ليحضر وليتولى بعض أمر المتوفى الصديق، ولكن محيي الدين اعتذر بالمرض ولم يحضر شيئاً من جنازة

سعيد ولامه الناس على هذا، ولعل له عذراً وأنت تلوم، ويعيش الآن محيي الدين في بيروت وأظنه يعيش حياة هادئة، فقد ورثت زوجته عن أهلها الأغنياء ثروة لا بأس بها كما أقدّر، وأظنه قد بلغ السبعين من العمر الآن.

عرفت في حمص في الوهلة التي كنت أدرس فيها في المدرسة الخالدية شاباً لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، وكان شاباً وسيماً من أصل تركي هو «نديم حسني»، كان إنساناً رقيقاً وسيماً وأنيقاً، كان أبوه مديراً للمصلحة العقارية في حمص وكان الولد وحيداً وله خمس أخوات فكان مدللاً يدرس في المدرسة اليسوعية ويلبس البزة الزرقاء ويركب الدراجة بلباقة وشطارة، كما أصبح منذ صغره متقناً للغة الفرنسية، وقد كان ميالاً إلى سماع الموسيقى ولا سيما محمد عبدالوهاب الذي كان يعشقه عشقاً، وهذا السبب هو الذي جمعه بنا رغم فارق السن بيننا وبينه. وكان ذا تربية عالية محافظاً على المواعيد أنيق الملبس للغاية بل لعله كان النموذج الذي كنا نقلده في كل ما يلبس، وكان كريماً فكثيراً ما كان يدعوني إلى بيته ليطعمني بعض المآكل التركية التي كانت تصنعها والدته التي تنتسب أيضاً إلى عائلة تركية شهيرة هي عائلة «أكريبوز»، فجدها يحيى باشا كان من الشخصيات البارزة في دمشق ـ كما كان نديم ملماً باللغة التركية لغة آبائه وأجداده.

لقد كان صديقاً ودوداً وكان عصبي المزاج إذا أُثير، ولكنه لم يكن يحسن انتقاء أصحابه وكنت أنصحه دائماً أن يتجنب المتاعب التي تسببها له عشرة بعض الأشخاص الذين لا يناسبونه ولا يناسبوننا نحن أصدقاءه، ولقد انتقل إلى دمشق وتوفي والده وأصبح موظفاً في شركة الكهرباء ولكنه لم يكن مكفّياً كما أعتقد وظل يسكن في بيت مأجور، أما ولده الوحيد فلم يكن مثقفاً مع ما كان يأمل منه لأنه تعلم الرسم ولم يحصّل أية شهادة فلم يستفد منه أبوه شيئاً، وهذا ما سبب له ضيقاً في حياته فأصبح مضطراً إلى الاقتصاد والانكفاء عن الناس، وكنت أعلم هذا منه فكنت أدعوه كثيراً ولا يتردد في مرافقتي، بل لعله كان يفضلني على أصدقائه جميعاً، وتزوج من سيدة دمشقية فلم يكن متفقاً وإياها كما أعتقد، فهو شديد الترتيب والأناقة ويحب العزلة والخلوة إلى الموسيقى والرسم. لقد كان فناناً والفنان له طباع خاصة لا تتوافق مع طباع أكثر الناس. كانت امرأته لا تنقطع عن أهلها وبيتهم قريب من بيته وكان هو يضيق ذرعاً بهذه العادة وكانت هي تصر على عادتها فنشأت المشاكل بينهما. وجاء منذ سنوات قليلة إلى بيت ابنه الذي سكن وحده قريباً منه أيضاً وطرق عليه الباب مرة أو مرتين، وحين فتح له الباب هوى نديم إلى الأرض بلا حراك. لقد مات هذا الصديق الودود فحزنت عليه أنا وأصحابي حزناً شديداً فإنه لم يكن يتجاوز الستين من عمره كما أعتقد، وكان يبدو قوي البنية ولكنه كان يشكو أحياناً من ارتفاع الضغط، ولعل هذا هو الذي قضى عليه إثر نوبة مفاجئة: وحاولت الاتصال بعد أيام بزوجته التي لم تخبرني كما أن ولده «الفنان» مر بجانبي بعد وفاته بقليل فلم يخبرني ولم يقف ليسلم واعتذرت زوجته بأنها في «العدة» ولست أدري إذا كان الهاتف ممنوعاً في أيام العدة التي فرضت من أجل الزواج ولحفظ النسب دون أن تمنع الكلام في الهاتف؟

٢٦
سنة بائسة

أنهيت عملي في المدرسة الخالدية في أواخر سنة ١٩٣٢ واضطررت إلى الذهاب والعودة إلى سلمية، وكانت الدنيا قد تبدلت فأخي في خلاف دائم مع الفرنسيين بسبب اختلافه مع أقربائه من أجل الدَّين، وبسبب الديون التي لم يستطع الخلاص منها وبسبب خلافه مع الفرنسيين باعتباره عضواً في الكتلة الوطنية وصديقاً للدكتور توفيق الشيشكلي ونجيب البرازي عضوي الكتلة في حماه، وقلَّ ما في يده، فاضطر إلى تأجير بيت العائلة والانتقال إلى مزرعتنا «السبيل» التي تبعد مسافة كيلومترات عن البلدة. كان بيتنا في المزرعة مؤلفاً من حوش فلاحي مبني من اللِّبن «الطين» وفيه ثلاث غرف، أخذ هو غرفتين واحدة للعائلة والثانية للأولاد وتستعمل في النهار منزولاً للقهوة وأعطانا غرفة جانبية على البرية، وكانت السنة باردة والغرفة فيها الوالدة والشقيقة والأخ الأصغر، وكان الطعام مشتركاً بين العائلتين، وجئت أنا خالي الوفاض بادي الانفاص كما يقال لأعيش في هذه العزلة القاتلة بعد الطرب واللهو والمرح في مقاهي حمص ومنتزهاتها، لقد كنت دائم الخلاف مع أخي الأكبر لأنني لم أوافق على تأجير البيت، فالتأجير بذاته يعتبر عيباً بالنسبة لنا كعائلة معروفة لها سمعتها الطيبة في تاريخ البلدة، ولأن الحياة في المزرعة غير متيسرة، فليس لنا مال للإنفاق كما ينبغي، ولست أستطيع العيش بلا سهر أو حديث أو رفيق يؤنسني وأؤنسه، وهكذا كنت أهرب من المزرعة وأنزل إلى بيت عمي في البلدة لأنام فيه نوماً غير مريح، فعمي عائلته كبيرة ولم يكن لديه متسع للإنفاق وولده لم يكن متلافاً للمال وإن لم يكن بخيلاً لكنه كان مقتصداً، فكثيراً ما كنت أهرب من بيت عمي لأنام عند أحد الأصدقاء من معارفي، وهكذا بدأت أقضي هذه الأيام في بؤس وشقاء دائمين، قلة في المال وصعوبة في الإقامة وحياة كلها بؤس وشقاء. وخطر على بالي خاطر فقد كان ابن عمي وهو صديق أيضاً معلماً في قرية تلدرة، فقلت أذهب إليه لأقضي عنده أياماً، وذهبت بالفعل فمكثت عنده يوماً أو أياماً وفي صباح أحد الأيام بينما كنت أتناول طعام الصباح معه حدثني بحديث شممت منه أنه تضايق مني، فقمت وقام هو للتدريس إذ كان قاطناً في المدرسة نفسها، واتجهت صوب قرية تدعى «قبة الكردي»، وكان قصدي الوصول إلى قرية «دير فول» التي كان فيها صديقي القديم صائب أتاسي معلماً. مشيت ذاك الصباح من شهر آذار ١٩٣٣ والسماء غائمة والشقة بعيدولم أكن أقدر المسافة تماماً، وظللت أمشي فمررت بقرية أو قريتين وبعد مسيرة ساعتين تقريباً لم أجد أمامي القرية التي كنت أقصدها والتفت إلى ورائي صدفة فلمحت بيوتاً سطوحها من القرميد فقلت في نفسي إنها القرية التي أقصدها، فكررت راجعاً بعد أن قطعت ذهاباً عشرة كيلومترات أو أكثر وقبل أن أصل إلى البيوت التي رأيتها والتي رجعت إليها ظناً مني أنها «دير فول»، وجدت رجلاً سألته فقال: كلا إن دير فول أمامك، يعني في الجهة التي رجعت منها، وهذه قرية «عسيلة» وهكذا كررت راجعاً مرة أخرى إلى أن وصلت دير فول عصارى النهار وقد أنهكني التعب والجوع واستقبلني صديقي صائب ـ رحمه الله ـ استقبالاً رائعاً ودعاني يومها «ابن بطوطة». كان صاحبي قد حصل على شهادة دار المعلمين الابتدائية بعد جهاد طويل وعُين معلماً في هذه القرية القريبة من الرستن القرية المعروفة بين حمص وحماه، كان صائب من أسرة فقيرة بين الأتاسيين وكان أحمر الشعر أبيض الوجه ولكنه غير وسيم وكان من أظرف الأتاسيين الذين عرفتهم، طيب القلب محباً للمزاح كريماً بمقدار ما يكسب، وكان يسكن في القرية في بيت شاسع واسع من البيوت الفلاحية وقد استأجر فيه غرفة مفروشة، وكانت صاحبة البيت امرأة كبيرة فقيرة لا تعرف من العربية إلا كلمات قليلة، وبهذه المناسبة لا بد من أن نستطرد لأقول: كل الأجناس التي وردت إلى سوريا من أكراد وأتراك وأرمن وجركس وداوغستان وشاشان وألبان، كلهم يتكلمون لغاتهم الخاصة في بيوتهم لذلك فهم لا يتعلمون العربية تعلماً متقناً ولا بد أن يحتفظوا بلكنة أو رطانة خاصة بلغتهم يُعرفون بها حين يتحدثون باللغة العربية، إلا العرب فإنهم سرعان ما يتركون لغتهم ليتعلموا لغة

البلد الذي يذهبون إليه وهذا في رأيي من أكبر العيوب التي تدل على ضعف القومية العربية والوطنية الأصلية ودليلي على ذلك هؤلاء الذين يفدون إلينا من أميركا الشمالية أو الجنوبية، وقد نسوا لغتهم تماماً فلايتحدثون إلّا بلغة بلدهم الجديد ناسين لغتهم الأم، وهذا في رأيي دليل كما قلت آنفاً على ضعف العقيدة الوطنية والعرقية عند العرب. كان من الصعب أن نتفاهم مع «امينات» وهذا اسمها وكانت نظيفة جداً، ولكنها لا تجيد من الطعام إلا سلق الدجاج وطبخ الأرز معه، ولقد مكثت عند صاحبي شهر رمضان كله وكنت وإياه دائماً وكان شهر الصيام في آخر السنة تلك الأيام. فكنا في كل يوم نأكل دجاجة نصفها في العشاء والنصف الآخر في السحور. وكنت عصارى النهار أخرج أنا وصاحبي ومع كل واحد منا بندقية صيد فنمشي مسافات بعيدة قد تصل إلى عشرات الكيلومترات لنعود قبل المغرب بقليل ولنجد الدجاجة جاهزة للطعام، فكنا نجد لذة غريبة في الإقامة سوية، أما في النهار العادي فإن صاحبي كان يذهب إلى المدرسة المجاورة للبيت وكنت أظل في فراشي أقرأ ما عند صاحبي من كتب وأذكر أني قرأت عنده مكتبة كاملة منها: جرجي زيدان، الشهاب الراصد في الرد على طه حسين، تاريخ الخضري، تاريخ رفيق العظم وقصة سيد قريش لمعروف الأرناؤوط، هذه القصة التي اشتهرت كثيراً ولكني وجدتها مملة لأن صاحبها يتكلف في أسلوبه اللغة القوية فتبدو حين يقرؤها القارىء وكأنها غير طبيعية كما كان يتفلسف ويبالغ في الأوصاف التي لا تستحق التفصيل الكثير، مما جعل هذه الرواية في رأيي غير موفقة ولا جذابة وكأن صاحبها لم يكن يصلح في الكتابة إلا للصحافة التي كان يمارسها في جريدته «فتى العرب».

وفي يوم من الأيام وبينما كنت في غرفتي أقرأ كتاباً من كتب صاحبي إذا به يدخل عليَّ وقد امتُقع لونه واضطربت هيئته وهو يقول: لقد أصبت يا أحمد بكارثة، لقد فقدت الوظيفة، وتعجبت لهذا النبأ، وسألته فعلمت منه أن عائلة من التركمان تقطن قرب المدرسة، وقد كان يسخّر إحدى بناتها الصبايا في جلب الماء للبيت وللمدرسة، وجاءت في ذلك اليوم وهي تحمل جرة الماء فمد يده إليها ولمس ثدييها فجن جنون الفتاة وتركت الجرة وهرولت نحو بيتها وبعد قليل جاء أهلها وقامت القيامة وتدخّل المختار كما تدخّل أحد الذين يعرفونني من سلمية واسمه مصطفى وقد كان موظفاً في دائرة محافظة حماه التي عملت فيها فيما بعد، وقمت لتوي واتصلت بمن أعرف وهدأنا الأمور وكان اليوم يوم خميس، وذهبت وإياه إلى حمص حيث سويت القضية بأن نقلوا صديقي إلى مدرسة السخنة وهي أسوأ مكان في المحافظة وقرب بلدة تدمر الأثرية المعروفة. في يوم من الأيام قال لي صاحبي لقد انتهت أيام المدرسة فلنذهب إلى حمص لنقضي بعض الوقت وقمت وإياه بعد أن ودعنا «أمينات» وسرنا في اتجاه الغرب حيث أشير إلينا لنبلغ قرية الرستن الكبيرة، وسرنا مسافة ساعتين، إلى أن وصلنا إلى الطريق، وجلسنا ننتظر سيارة تنقلنا إلى حمص وظللنا هكذا ساعات فلم نوفق لقلة السيارات في الطريق هاتيك الأيام، وبينما كنا نفكر في هذا المصير وقد كادت الشمس أن تغيب مرت بنا شاحنة تحمل أحجاراً وحين سألنا صاحبها عن وجهة سيره قال: إلى حماه، وبلحظة قررنا أن ننزل إلى حماه ومن هناك نأخذ سيارة إلى حمص، وفي حماه تجولنا وتناولنا طعامنا ثم قصدنا مقهى كان معروفاً تلك الأيام إلى جوار الدباغة الحي المعروف، واسم المقهى «مقهى الفرّا» ثم صار اسمه مقهى «السمان» بالنسبة لمالكه. ودخلنا المقهى وما كدنا نجلس حتى دخل صاحب لي قديم في المدرسة الزراعية هو السيد «واصل الحوراني» وكان شاباً طويلاً وسيماً فسلمنا عليه وتعارفنا وأخذنا في الحديث ثم دعانا إلى العشاء عنده فلم نتردد وذهبنا إلى داره الكبيرة فوجدنا هناك أخاً له صغيراً في السادسة عشرة من العمر وعلمنا فيما بعد أنه غير شقيق له، فهو أخوه لأمه وجلسنا وحضر الشراب وكان شراباً ممتازاً، فالحمويون يصنعون هذه المادة في بيوتهم وبأيديهم، وجلسنا وطال بنا الجلوس وتفرع الحديث ودخل علينا في أخريات السهرة الأخ الكبير المرحوم محيي الدين الحوراني الذي صار فيما بعد من أخلص الأصدقاء، كما حضر أخوه الذي هو أكبر منه مباشرة واسمه عبدالحليم، وهو أيضاً من رفاقي في المدرسة الزراعية. وهكذا أمضينا وقتاً طويلاً من الليل ثم قمنا فذهبنا إلى حمص؛ عدت إلى سلمية بعد هذه الرحلة التي دامت أكثر من شهر فوجدت الحال كما هي في سلمية بؤس دائم وفقر أسود وقدر لا ينتهي، الخلافات البيتية على قدم وساق، وأخي يزداد عصبية بين يوم وآخر وكان من

طبعه أنه إذا ثارت عصبيته فقد كل تقدير وتحفظ فلا يسلم أحد من ثورته، من الأموات والأحياء، وحين كنت أمضي الوقت في المزرعة كنت أقضي النهار سائراً بين حقل وآخر والملل ممسك بخناقي إلى أن جاء الفرج.

كان بقي عليّ شيء من أقساط مدرسة الروم وعجزنا عن تسديدها، ثم كان أخي الأصغر قد دخل هذه المدرسة بعدي بمدة وبقي من أقساطه قسط آخر، وقد راجعت المدرسة صديقنا فاضل أحوش تطالب بالمبالغ، فعرض عليها أن أعمل مدرساً فيها لأفي ما علي على أن أتقاضى شيئاً بسيطاً، ووافقت المدرسة على هذا وتم الاتفاق، على أن يكون راتبي ست عشر ليرة أدفع منها إحدى عشرة ليرة عن الدَّين وأتناول خمس ليرات فقط، على أن أكون داخلياً آكل وأشرب وأنام في المدرسة. وفرحت بهذا العقد، وانتقلت رأساً إلى حمص، وقبل أيام وحين دخلت المدرسة خصصت لي غرفة وكان قسم كبير من الآذنين والمعلمين الذين عرفتهم أثناء دراستي ما يزالون في عملهم، ولكن المطران أبيفانيوس كان قد ترك وجاء محله وبالوكالة «أرشمندريت» وهو وكيل مطران واسمه: صيداوي وكان رجلاً بسيطاً بالغ الكبر ومتقدماً بالسن: أعطيت لي دروس اللغة العربية حتى الصف الثالث على أن أدرس النحو بينما تسلم دروس الأدب العربي المعلم جرجي كنعان الذي كان مديرا للمدرسة وكان أستاذاً معروفاً مشهوراً. كنت أدرّس الصفوف التالية: الثالث والرابع والخامس والسادس، وقد تخرج من تحت يدي الكثير من الأطباء الحمصيين؛ قسم منهم ما زال حيا. أما الأساتذة فأولهم كما قلت الأستاذ جرجس كنعان وهو لبناني من قرية اسمها «كفتون» قرب قرية البترون على طريق طرابلس ـ بيروت وكان ضليعاً باللغة العربية: النحو والصرف والبديع والبيان وغيرها أما في الأدب فقد كان ازهرياً أعني على الطريقة القديمة وجل عمله أنه يقرأ القصيدة ويشرحها وهذا كل شيء، أما أن يتكلم بشيء جديد فأمر لم يكن دارجاً في تلك الأيام، في حين أننا درسنا نحن على يد قدري العمر الطريقة الحديثة في النقد والتاريخ والتحليل مع نظريات النقد الحديثة التي أفدناها من كتب طه حسين والعقاد بشكل خاص، كان الأستاذ كنعان طويلاً ضخم الجثة لو رأيته لحسبته من المصارعين المشهورين ولكنه كان منحرف الصحة، مع كل هذا فقد كان يشكو من كليتيه فيمرض بين حين وآخر، ولكنه كان من ذوي الأخلاق الفاضلة والتهذيب العالي وكان يعامل المدرسين والطلاب وكأنهم أبناؤه، كما كان يروي الكثير من الشعر، وكان معجباً بأحمد فارس الشدياق وولي الدين يكن فكان يذكرهما كثيراً. وكان الطلاب يسمعون بطريقة الدرس التي كان يسلكها قدري العمر في التجهيز والآفاق الواسعة الفكرية التي يفتحها أمام الطلاب ليفكروا جدياً ويكتبوا كتابة أدبية راقية لا تدخل بها الصناعة البغيضة القديمة ولا التكلف الكريه.

وتشاء الأقدار أن تقع حادثة محرجة لي استاء على أثرها هذا الأستاذ الطيب ولم يكن لي فيها علاقة، فقد كان ينظر إليّ بشيء من الحب والتقدير وكان يضطرني إلى مشاركته في الكلام صباحاً مع الطلاب لوعظهم قبل أن يدخلوا الصفوف، ولم أكن قد تعودت على الكلام المرتجل فأنا أكتب بما يشبه الارتجال شعراً ونثراً، ولكني لا استطيع ترك القلم وإذا تركته لم أستطع الكلام، وقلت هذا للأستاذ وكان يرى هذه الأمور مرهونة بالعادة ووقفت مكانه على المنبر وابتدأت الكلام ولكني أصبت بما يشبه النسيان فارتج علي ولم أتكلم سوى دقائق، وشجعني ـ رحمه الله ـ رغم ذلك وأجبرني في اليوم التالي على الكلام، وهكذا حتى صرت بعد أيام أتكلم مطولاً وكأنني خطيب مصقع، ويمرض الأستاذ؛ فقد أشرت سابقاً إلى ضعف كليتيه ويغيب أياماً وتضطر المدرسة إلى تكليفي تدريس صف البكالوريا وما قبله درس الأدب العربي وكان الدرس عن ابن الرومي، وكنت قد توسعت بدراسة هذا الشاعر فقرأت كل ما كتبه عنه العقاد والمازني المولعان بهذا الشاعر، كما أخذت الكثير عنه من أستاذنا قدري العمر ـ رحمه الله ـ دخلت الصف بعد التكليف ونظرت إلى التلامذة فإذا البنات الثلاث، وهن من ملاك الصف، لم يحضرن وتغيبن فأدركت السبب، وكان الزمن زمن تعصب وفرقة مذهبية بين الطوائف جميعاً، وعرفت ما جرى فلم أسأل عنهن وأخذت بالكلام، وقدمت لذلك مقدمة عامة تتعلق بالأدب العربي الحديث وطريقة تدريسه ودراسته، فرأيت الطلاب وقد فغرت أفواههم وهم يصغون إلى حديث لم يسمعوا من قبل مثله، فقد كان الأستاذ كما

أشرت سابقاً يقرأ النص ويشرح كلماته وقد يتعرض للإعراب وللصرف وللبلاغة والفصاحة والبديع، ولكنه لا يتعرض للناحية الأدبية التي تتعلق بشخص الشاعر والمؤثرات التي أثرت فيه والبيئة والوراثة والثقافة إلى غير هذه الأمور التي كانت كلها جديدة على الطلاب. وخرج الطلاب يتحدثون ويصفون ويبالغون في الوصف وبإعجابهم بالدرس، ودارت الأحاديث حول ذلك، وجئت في الدرس الثاني بعد يوم أو يومين فوجدت البنات جالسات في الصف وتصنعت الذهول وسألتهن؟ هل كنتن مريضات؟ وسكتن ولم يجبن فقد كان الطلاب حرضوهنّ على حضور الدرس لكي لا تضيع منهن هذه الفائدة التي لا تتكرر إذا حضر معلم الدرس الأصلي الذي هو المدير كنعان. واستمرت الحال ثلاثة أو أربعة دروس، وعاد المدير بعد أن بلّ من مرضه واستأنف دروسه، ولكني رأيته بعد عودته يستقبلني بجفوة ما تعودتها منه وحاولت أن أعلم فلم أصل إلى نتيجة، إلى أن جاءني أحد الطلاب من المتقدمين سنّاً يقول لي: لقد طلبناك يا أستاذ؟ قلت: كيف؟ ولماذا طلبتموني ومن أجل ماذا؟ وقال الطالب: لكي تدرّس مادة الأدب، وارتبكت وحرت ماذا أفعل وأدركت سبب جفوة المدير وقلت له الحق في كل ما يبدو منه بعد الذي جرى ولكني حاولت أن أفهم القصة كما وقعت وذهبت إلى الأستاذ بديع ناظر المدرسة وسألته فأعلمني بما يلي: لقد خرج طلاب الصف الأول «المنتهي» بعد أن وقعوا عريضة يطالبون فيها بأن تكون أنت مدرسهم بالأدب وأن يتولى الأستاذ كنعان تدريس اللغة والنحو وغير ذلك وذهبوا بها إلى «الأرشمندريت» نائب المطران، ولا أدري ماذا تم بها؟ وسألته وهل عرف الأستاذ كنعان بالأمر؟ قال: طبعاً لقد أبلغه النائب هذا الطلب. سكت وقلت للناظر، أنت أدرى بأنني لا أسلك هذا السلوك مهما يكن الأمر والمدير صديقي ولا يُعقل أن أسيىء إليه، قال: أنا أعلم هذا ولكن عليك أن ترى الأستاذ فقد يكون متأثراً من هذا الوضع، وذهبت إلى الأستاذ كنعان وأنا مندهش مما حدث وأنّبت الطلاب على فعلتهم هذه وقد اقتنع الأستاذ كنعان بما قلت وقلت له: أنا ما أزال أعتبر نفسي تلميذاً لك والطلاب هم طلاب كما تعلم وعقولهم ما تزال عقول طلاب فلا تؤاخذهم ولا تشك في صداقتي وإخلاصي لك، وهكذا انصرفت هذه الموجة من الارتباكات التي أوجدها لي الطلاب المعجبون. وفي حفلة نهاية السنة نظم الأستاذ قصيدة، رغم أنه لم يكن شاعراً ولا أذكر منها غير مطلعها الذي يقول:

زند العزيمة في العواثر كابي

وأوصلت للمدير خبراً بأن هذه ليست شعراً ومن الخير أن لا تقرأ القصيدة لأنها نظم أشبه بنظم ألفية ابن مالك والشعر غير هكذا تماماً. ولكنه أصرّ ـ رحمه الله ـ على إلقائها وخرج المستمعون دون أن يفهموا شيئاً مما قال، ومنهم من ألمح إلى السخر من هذه الطريقة في النظم.

وكان في المدرسة معلم للرياضيات هو الأستاذ دعّاس بشور، كان ذكياً وهو من العائلة البشورية المعروفة في صافيتا، ولكنه كان يبدو لي من فقراء العائلة، كان متقناً لدرسه ولكنه لم يكن محدثاً ولم يكن له صداقات، بل على العكس كان يميل إلى مصاحبة عدد من الرفاق والزملاء؛ وكثير منهم من كان يقلده لمظاهر الكبرياء التي كانت تبدو عليه، ولعل مصدر كبريائه أنه كان صديقاً للمدير صداقة خاصة وكان المدير يستشيره، كما يبدو، في شؤون الإدارة والمدرسة، كما كانت إدارة المدرسة واللجنة المشرفة تنظر إلى رأيه، وانتهت أيام المدرسة وكنت قد جمعت بعض الدراهم خبأتها للعطلة الصيفية وخطرت على بالي الفتاة القديمة التي تحدثت عنها مفصلاً فيما سبق هذه الأسطر، وقررت أن أذهب إلى بلاد الغرب، كما كنا نسميها لأرى تلك البلاد التي طال غيابي عنها أكثر من عشر سنين، ثم لأرى ما صنع الله بالفتاة التي لم تزل دون زواج حتى تلك الساعة.

وفي يوم السفر عرض عليّ الأستاذ دعاس أن أرافقه إلى صافيتا ومن هناك إلى طرطوس، ووافقته على الفكرة وسرنا، فوصلنا إلى صافيتا ظهراً فاسترحنا في بيته وتناولت الغداء وإياه وتعرفت هناك إلى جديه وأحدهما خوري، وأسميته ذا الجدين وضحكنا، وهناك كانت تشرف على إطعامنا فتاة لم أعلم من هي حتى الآن لكنها كانت ذات عينين لم أر مثلهما في حياتي سواداً وسحراً، ولقد رأيت هذه الفتاة مصادفة وبعد سنوات في إحدى المشافي في دمشق فسلمت عليّ وذكرتها بالغداء واستغربت كيف أنني لم أنسها

وقلت لها مداعباً: إن من ينظر لك ولو مرة واحدة لا ينساك أبداً؟ ونساء تلك المنطقة، صافيتا وما حولها، مشهورات بسواد العيون.

تركت صافيتا إلى طرطوس فوصلتها عند العصر فسألت في المرآب عن بيت أقربائنا، فسمعني واحد كان قريباً سني، فإذا هو من العشيرة فرافقني إلى بيتهم، ودخلت الدار فوجدت عدداً من الأولاد الصغار، كما وجدت أمهم وكانت امرأة قصيرة تلوح أمائر الذكاء على عينيها كما تلوح عليها الخفة والرشاقة في حركاتها، وسرعان ما دلتني على الماء البارد لأغسل وجهي وجاءت الصانعة بالمنشفة المطيبة فانتعشت بعد التعب والسفر وأنشدت بيني وبين نفسي:

وألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

وبعد قليل جاء زوج المرأة فسلمت عليه سلام الاحترام، وقد كان أهلاً لكل احترام وتلقاني أيضاً باحترام لي وسألني عن أهلي وعن والدتي وأخي الأكبر وعمي الذي كان صديقه الحميم وقريبه أيضاً، لأن أم زوجته من آل الجندي. مكثت في طرطوس أياماً قليلة فقد كنت بشوق آسر لأرى ما صنع الله بالفتاة التي شغلتني هذه السنوات الطوال، وكنت أسأل عنها بلباقة وبتلميح لا يترك مجالاً للشك، ولكن السيدة وهي أختها الكبرى كانت ذكية لدرجة مذهلة وكأنها كانت تعرف كل ما كان يدور بخلدي نحو الفتاة. وبعد أيام أرسلت إلينا الدواب وركبت بغلاً من البغال القوية وسرنا إلى القرية مركز أقربائنا، واجتزنا النهر من عدة أماكن وهبطنا وصعدنا حتى وصلنا، فاستقبلنا أيضاً استقبال الفاتحين ومعي هذا الرتل من المرافقين وعلى رأسهم رب العائلة وزوجته والأولاد الصغار، وحين نزلت استقبلني أهل القرية ومن بينهم الفتاة المقصودة، ولكني كدت لا أعرفها، لقد ذهب البريق الذي كان، واختفى السحر الذي عرفته وبدت على الوجه آثار السنين فقد أصبحت الآن في سن الخامسة والثلاثين، والفتيات إن لم يتزوجن فإن علامات الكبر سرعان ما تظهر على وجوههن في اللون والتجاعيد التي لا تخفى والجفاف في الوجنات والجبين وسلمتْ وسلّمتُ، وأخذت أعيش في هذا البيت الكبير الواسع وأخرج إلى ظاهر البيت فأنظر إلى الأودية الشاعرة والتلال الخضراء البديعة ثم أعود إلى البيت، وكان أكثر ما يستهويني تلك الشجيرات التي ذكرتها فيما سبق وهي شجرات «النبي عزير»، الحرجة الصغيرة التي تجاور القرية والتي اتخذتها ملجأ لي كلما عادني الملل والسأم من الإقامة، وأغرب شيء كان في هذا اللقاء أنني فقدت نظرتي الأولى لهذه الفتاة منذ النظرة الأولى بعد الغياب الطويل وكأنها تغيرت أو كأنها أصبحت فتاة أخرى، وكأن الحب حلم وقعت بعده على واقع لا حب فيه ولا وجد ولا هيام، لقد انتهت هذه القصة التي دامت قرابة عشر سنوات دون مقدمة أو أسباب سوى هذه النظرة المفاجئة، ولقد أسفت حقاً على الذكريات والآمال والتخيلات التي كانت ترافقني كل هذه المدة الماضية في نومي ويقظتي وسيري واستقراري. إنها قصة مضحكة حقاً، فقد عدت إلى قواعدي من رحلة شغلت بالي وحياتي كلها وكأني ولدت من جديد وأصبحت حياتي الجديدة أكلاً وسهراً ومزاحاً إلى الصباح وحديثاً مسلياً حقاً، فقد كانت القرية الصغيرة في تلك الأيام جنة من الجنان كل شيء فيها حسن موفق. وفي صباح يوم من الأيام قيل لنا إن الدكتور وصل. والدكتور هو الذي داواني من المرض الذي داهمني في بحوي منذ عشر سنوات، وقد أصبح طبيباً شهيراً يشرف على كل المرضى في تلك المنطقة، وكان صديقاً حميماً لعائلة المشايخ وكأنه واحد منهم، وكنت أرى في هذه الصداقة بعض الاستغراب، فنحن في بلدنا لم نعتد على مثل هذه الصداقات، وكنا نجعل فواصل وحجباً بين الأفراد حتى ولو كانوا من الأقرباء القريبين، ولكنه طبيب، والطبيب شيء آخر فهو بحكم مهنته يطلع أكثر من غيره على أمور كثيرة لا يطلع عليها سواه. وفي صباح اليوم التالي دعاني الرجل إلى قريته، وشجعني أقربائي على قبول الدعوة ففيها مناظر وقد اطلع على أشياء كثيرة لا أعرفها عن الحياة في تلك الناحية، وفي الصباح الباكر قمت وقام الدكتور وإذا بالفتاة القديمة قد هيأت نفسها لمرافقتنا فاستغربت ذلك وسكت، وسرنا بطريق جميل، فمررنا بأنهر كثيرة وصخور عالية مشرفة قد عشش فيها الحمام البري، ومررنا بقرية السوداء الكبيرة فاسترحنا قليلاً ثم أكملنا طريقنا إلى «متن عرنوق» قرية الدكتور، فتعرفت على والدة الدكتور وهي امرأة كبيرة ومن أسرة معروفة في قرية السوداء

التي مررنا بها وهي من أسرة «الحموي» كما تعرفت على والد السيد نايف عرنوق الرجل الظريف البسيط الذي كان يعمل في الزراعة بيده، كما كان قبل هذه المدة في أميركا وعاد منها عام ١٩١٠ أي في السنة التي ولدت فيها وقد حدثني وتحدثت إليه في أمور تهمه أكثر مما تهمني كما تعرفت على شقيق الدكتور واسمه «مراد»، وهو أيضاً تلميذ في الكلية اليسوعية للطب وفي الصف المنتهي منها، وقد تخصص في أمراض الأذن والحنجرة وعموم الرأس، ومنذ اليوم الأول وجدت في هذا الدكتور الشاب بساطة خاصة، فقد دعاني لمرافقته إلى سطح المنزل، فوجدت فيه خيمة كان الدكتور ينام فيها وحين جلسنا أخرج من طاولته درجاً فيه صور كثيرة لفتيات تعرف إليهن أثناء الدراسة فاستغربت أن يفاتحني بهذا ولم يكن قد عرفني إلا منذ ساعات. وقضيت أياماً جميلة في تلك القرية ودعتنا شقيقة الدكتور إلى بيتها كما دعانا صهره قسطنطين الظريف الخفيف وابن عمه نجيب أيوب الرجل القوي المهاب. بعد أيام دعينا إلى عرس فتاة وهي ابنة وجيه من وجهاء آل عرنوق وقاض محترم هو السيد أمين عرنوق، وكان العريس من آل بشور في صافيتا، وحضرت الحفلة ودعيت إلى مجلس خاص ضمن الحفلة فشربنا ومرحنا وكانت الفتاة قريبتنا تخرج وتدخل مع أصحاب العرس فغاظني هذا الأمر وحاولت أن أمنعها من ذلك فأبت وأعلمتني أن عاداتنا لا تطبق في هذه الأصقاع، وحين رجعت إلى قريتهم وجدتها قد تحدثت عني بما لا يليق وأنني شتمتها وشتمت أهلها، وكانت مبالغة في هذا كما أن نميمتها لم تؤثر في صداقتنا وبخاصة عند الشيخ الكبير رب العائلة الذي أجابها بقوله: انه لا يحسن به أن يسكت وكلامه كله ظرف ولو كان شتيمة أو مسبة، وبذلك وضع حداً للكاشحين المرجفين ـ كما يقول شوقي ـ وفي أثناء هذه الجلسة تعرفت على أناس كثيرين من آل عرنوق وغيرهم: ومن ابرز من تعرفت عليهم في هذا العرس الذي أشرت إليه الشيخ إبراهيم المنذر اللغوي والنائب اللبناني المعروف، وكان والداً لامرأة تزوجت رجلاً من آل عرنوق اسمه رزق الله وقد مات شاباً وخلف شاباً وشابة، والشاب اسمه «فيكتور» كان تلميذاً في مدرسة اللاييك التي عملت فيها بعد هذه الآونة، وقد تجاوز الآن الخامسة والستين من عمره كما أعتقد، ويبدو أنه أثناء الجلسة قد عرّفني أحد الحاضرين بالأستاذ المنذر وجرى حديث بيننا في الأدب واللغة فلفت نظره ببعض الملاحظات التي كان لها أثر، فيما بعد، سأذكره، وكان من الحاضرين ثلاثة من أبناء فاضل عرنوق وقد أصبحوا من أصدقائي الخلّص فيما بعد، وهم زاهي وحليم وعرنوق كما شاهدت بعض الفرنسيين وبينهم مدير معهد اللاييك واسمه «ايرانتران».

مدرسة اللاييك، اشتهرت هذه المدرسة في المنطقة الغربية «اللاذقية»، وقد أسسها أول الأمر الدكتور العالم قيصر محفوظ وهو من أهالي قرية قريبة من طرطوس على الطريق الآخذ إلى بانياس وهي قرية «ظهر صفرة»؛ وكان طبيباً مشهوراً في طرطوس وقد جلب لها أساتذة من سوريا ومن فرنسا وجمع فيها عدداً كبيراً من الطلاب ثم غيّر عمله بأن انتقل من طرطوس إلى بيروت، وأكمل دراسات خاصة في الطب في أوروبا مما اضطره إلى بيع المدرسة للبعثة العلمانية الفرنسية «اللاييك» المرتبطة بالمفوضية العليا الفرنسية، ويبدو أن المدير الذي حضر حفلة العرس قد عرف عني شيئاً عن طريق الاستفهام في الجلسة التي جمعتني إليه، وقيل له إنه معلم للغة العربية في حمص، وكانت اللاييك في طرطوس بحاجة إلى مدرس للغة العربية، وقد اشترطت أن يكون المعلم مسلماً لاعتقادهم أن المعلمين المسلمين أقدر على تدريس اللغة العربية أو هكذا قيل لهم، وأراد المدير أن يعلم فيما إذا كنت مناسباً لهذا العمل أم لا، ورأيت الأستاذ المنذر يدعوني للنزهة معه خارج البناء فقمت وإياه ولا أدري لهذه الدعوة سبباً، وفي أثناء سيرنا وتجوالنا حول البناء جاء بحث اللغة والشعر وتحدثنا ملياً، ويبدو أنني أعجبته، كما وجدت من آل عرنوق جميعاً نوعاً من السرور بلقائي، وفي اليوم التالي جاءني أحدهم يقول لي: ما رأيك في أن تكون مدرساً للغة العربية في اللاييك في طرطوس؟ وفوجئت بالسؤال ولكنها كانت مفاجأة الرضى، فقد كنت في حمص متضايقاً للحسميات التي كانت تحسم من راتبي ولغلاظة اللجنة التي كانت مشرفة على المدرسة من التجار الذين لا يعرفون قيمة للعلم ولا للمتعلمين، ثم إن طرطوس كانت من أجمل بلدان سوريا في ذلك الوقت، فالإفرنسيون، قد حسنوا فيها كثيراً كما أن الحياة فيها كانت تختلف تماماً عن الحياة في داخل

القطر السوري، إذ كانت حياة عائلية من سهر وأحاديث وغناء وغير ذلك من المزاح الظريف، ثم إن العائلات التي كانت غريبة عن البلدة كان أكثرها من المسيحيين الذين وفدوا إلى طرطوس من القرى المجاورة مثل ظهر حوه والمشتى وصافيتا والخريبة وأكثرهم من الكرماء الذين يتقنون صنع الطعام وخاصة «الكبة النية» التي كانت تفوق في نظري كبة زحلة الشهيرة. ووجدت الفرصة سانحة لأنتقل من جو حمص الأزهري إلى هذا الجو الأوروبي. وسرعان ما وافقت على الاقتراح خاصة وأن أقربائي الذين كنت ضيفاً عندهم قد رحبوا بي كثيراً لأنهم وجدوا بي رفيقاً وقريباً تحسن معاشرته، وربما فكر بعضهم بأن أكون في المستقبل صهراً لهم، فقد كنت حائزاً على الشروط التي يريدونها. عدت بعد يوم أو يومين إلى القرية التي كنت فيها وهي ضيعة أقربائي ومن هناك حملت أمتعتي وذهبت إلى سلمية، ولكن التردد كان يلازمني، كيف أترك رفاقي في حمص وهم مثل أهلي، كيف أترك رفيق وقدري ومحيي الدين وعلي الأبرش وكلهم أصدقاء أعزاء وجلساتهم المغرية تناديني ليلاً نهاراً، وترددت في حمص قبل أن أصل إلى سلمية وذهبت إلى دائرة التلفون وكانت بيد الفرنسيين فاتصلت بالمدير وأعلمته أنني استنكفت عن الاتفاق معه فتأثر كثيراً وبدأ يقنعني، ولكني لم أقنع وذهبت إلى سلمية، فأخذت الرسائل والهواتف والبرقيات تأتيني من أصدقائي في طرطوس يطالبونني بعدم الرجوع عن رأيي الأول، وأن الاستنكاف معيب بعد أن اتفق معي المدير وبعد أن فاتت الفرصة من أجل تدبير معلم آخر، وهكذا قضيت مدة بين أخذ ورد إلى أن قرّ رأيي على الموافقة، وكانت المدرسة قد أوشكت على بدء العمل فحزمت أشيائي ورحلت إلى طرطوس، ولكني لم أكن قد اتفقت مع المدير على الراتب، وذهبت إلى المدير في بيته لأبحث معه موضوع الراتب، وخرج إليّ وكان سميناً ضخماً وقال «بالفرنسية» كم كنت تأخذ في حمص؟ وهنا كانت الخطيئة الكبرى، ولكنني ظننت به الخير ولم أدر أنه من أخبث من عرفت من الرجال ولم أشأ أن أخدعه، مع أن ذلك كان واجباً لكي لا يخدعني هو كما حدث بالفعل. وقلت له كنت أتقاضى ست عشرة ليرة شهرياً مع الأكل والشرب والمنامة، وأجابني راساً: وأنا أدفع لك نفس المبلغ، وكانت رغبتي الملحة في الإقامة بطرطوس قد دفعتني إلى القبول، وتم الاتفاق على ذلك ولمدة تسعة شهور في حين أن الرواتب كانت تدفع للمعلمين كلهم عن عشرة شهور، وقد تبين بعد سنين أن المدير كان يحسب عليَّ الشهر العاشر ويتقاضاه هو بدلاً من إعطائه لي وظهر ذلك حين فوجيء بالتفتيش المالي الأخير الذي سبب له ترك اللاييك والانتقال إلى عمل آخر لا يناسبه في دير الزور بعيداً عن الوسط العلمي.

وتسلمت دروس النحو في الصف الرابع والخامس، كما تسلمت بعض الدروس في الصفوف العليا من تاريخ وجغرافيا، وقد كانت المدرسة استدعت قبلي معلماً من قبل الحكومة السورية كمساعدة للمؤسسة وكان اسمه «عثمان الشفقي» وهو حموي الأصل وصديق لي قديم فتسلم دروس الأدب العربي في الصف الأول والثاني. ومنذ دخولي المدرسة بدأ نشاطي الأدبي، رغم أنني الثاني بالنسبة للغة العربية، فأنشأت نادياً صغيراً في المدرسة لاستقبال الأدباء من المحاضرين، وبالفعل لقد دعوت عمر أبا ريشة وخليل تقي الدين وتوفيق يوسف عواد القصاص المعروف وفؤاد حبيش صاحب «المكشوف» ونقولا باز نصير المرأة كما يسمونه وفؤاد إفرام البستاني صاحب الروائع المشهورة، وفي المدينة تعرفت بعد أيام على صديقي الذي دامت صداقته حتى وفاته - رحمه الله - وأعني به زاهي عرنوق.

صديق جديد هو زاهي، ابن فاضل عرنوق الذي كان من البارزين في قرية «المتن»، وقد كان شخصية في حديثه وفي هندامه، أما زاهي فمن مواليد ١٩٠٧ فهو أكبر مني، كان قصيراً جداً أصلع الرأس أبيض مشرباً بالحمرة مع عينين سوداوين يشع منهما الذكاء، وكان جهوري الصوت رغم صغر جسمه، وأبرز ما كان فيه صغر يديه ورجليه التي كانت أشبه بيدي ورجلي الأطفال، وكان صديقاً للشعراء الشباب المعروفين في تلك الفترة في لبنان مثل صلاح لبكي وصلاح الأسير ويوسف غصوب وسعيد عقل. وكان كثير التدخين، كثير الشراب، قليل الأكل وقد عاش حتى قارب السبعين من العمر ومات بمرض عضال لم يهتدِ الطب إلى معرفته.

كان يروي أحسن الشعر، كما كان يجيد النظم وقد عرفته لأول مرة عن طريق شقيقه حليم عرنوق

وهو أصغر منه بقليل وكان مدرساً للتاريخ في اللاييك، وهو الذي دعاني إلى بيته وعرفني على أخيه، وحين لقيته سألته بهدوء مستفهماً: هل تتعاطى الشراب؟ فقال لي وبلهجة جريئة غريبة: أنا أتعاطى كل الموبقات، وسكت لفداحة الجواب، وضحك الحاضرون جميعاً نساءً ورجالاً، إذ كانوا يعلمون طريقة زاهي بالصراحة التي تقرب من الوقاحة، ولكنها وقاحة مقبولة لا تخلو من النكتة وخفة الدم. ومنذ ذاك اللقاء لم أفارق زاهي ولم يفارقني إلى أن توفي، رحمه الله.

ومن شعر زاهي الذي أذكره:

أيها الهازجون حول اكتئابي ليتكم تحملون بعض عذابي

ثم يصف محبوبه قائلاً: كان وهمي النضير إن أجدب العمر وعبق الربيع ملء إهابي، وكان يدين بمذهب الرمزية ويقرأ كثيراً للرمزيين من شعراء فرنسا وخاصة ألبير سامان وبودلير وفيرلين وغير هؤلاء. كان زاهي يحمل شهادة الحقوق من سويسرا «جنيف»، وقد كان رفيقاً في الدراسة لعدنان الأتاسي وناظم القدسي وغيرهما من الطلاب البارزين الذين درسوا في أوروبا، ولكنه لم يصنع شيئاً سوى أنه عمل محامياً، ولم يكن يقوم بالوكالات إلا نادراً، وكل ما كان يعمله أن العرائض كانت تقدم باللغة الفرنسية أو تترجم إلى هذه اللغة فكانت هذه الترجمة هي عمله الوحيد. وكنت مرة في المقهى فجاءني أحد الفلاحين يسألني عن زاهي لكي يترجم له استدعاءً إلى الفرنسية، «لأن المستشار الفرنسي كان يشترط الترجمة لكل استدعاء عربي» وأشرت إلى مكتب زاهي القريب من المقهى والذي كان يستعمله إما للقيلولة أو للطعام والشراب، وذهب الفلاح المسكين إلى زاهي فقام بالترجمة، وبعد قليل سمعت صراخ زاهي وشتائمه وتجديفه وهو يقول للفلاح: تدفع يا خنزير نصف ليرة مع أنني جعلت لك في الإستدعاء العربي أكثر من عشرين «طالما» وكانت نكتة الموسم ذلك العام. وكان زاهي من الشباب الوطني المخلص ولهذا السبب كان مكروهاً من الفرنسيين الاستعماريين، وكانوا يعاكسونه في كل شيء حتى أنه لم يستطع أن يكون موظفاً في زمنهم بسبب معارضته لهم ولاستعمارهم، وكان في ذلك على خلاف مع كل أهل طرطوس تقريباً، فإن أكثرهم كانوا على رضى بالحالة الراهنة، فلا يتظاهرون بعنف سواء مع الفرنسيين أو مع السوريين. وحين جاءت الكتلة الوطنية بعد المعاهدة في عام ١٩٣٦ رمى زاهي بالقبعة الفرنجية ولبس الطربوش تضامناً مع أهل بلده ووطنه، وذهب إلى دمشق ليشترك في استقبال رجال الوفد السوري حين عودتهم من فرنسا بعد أن حصلوا على المعاهدة التي لم تتم والتي نكل عنها الفرنسيون، وسببت المشاكل الكثيرة بين الوطنيين والمستعمرين، وبعد فترة أخرى سمعت أنه عين قاضياً في بانياس ففرحت له لأنه خلص في هذا العمل من حياة التشرد والنقمة على العالم والتسكع الدائم وقراءة القصص التي كان مدمناً عليها. وعلمت بعد مدة بنبأ آخر وجدته غريباً، فقد قيل لي أن لديه امرأة ولم أعرف جلية الخبر؟ أهي امرأة أم صديقة أم خادم؟ وتبين لي فيما بعد أنها كل شيء، وقد أحضرت معها ابنة صغيرة عمرها سنة واحدة من أب فرنسي كان جندياً، أما هذه المرأة فكانت من العجائب في شكلها المتعب ونظراتها المخيفة وجسمها الذي لا يتناسب مع جسم زاهي الضعيف المختصر، وحين زرته مازحتها، فإذا بها سليطة اللسان لا تسكت على كلمة، وحين ثارت وقد أغضبتها غرق هو في ضحكه فأدركت أن هذه المرأة مصيبة جاءته وأنه لن يسلم منها في حياته، وبالفعل لقد كانت سبباً كبيراً من أسباب الخلاف مع أهله لأنها لم تكن تسكت على شيء يخالف فكرها، وكانت قد ملكت زمام زاهي بعد أن ربى البنت الصغيرة وأصبح لا يستطيع البعد عنها لحظة واحدة، وقد انتقل بعد مدة إلى حماه واصطحب معه المرأة المذكورة وسكن في دار بالحي المسيحي، وكنت أزوره بين حين وآخر، وقد كانت تجيد الطبخ والعناية به ولكنه كان دائم الخلاف معها، وقد ذكرتني قصته مع هذه المرأة بقصة الشاعر بودلير الذي أحب «جان دوفال» السوداء ذات الشعر الزبيبي والتي وصفها في شعره بقصائد عدة، ولقد نصحت له أن يترك هذه المرأة فاحتج بالبنت الصغيرة ولم أجد له حلاً يناسبه لهذه الورطة العجيبة، وظلت هذه المرأة مرافقة له حتى بعد أن انتقل إلى الجزيرة «القامشلي»، وفيها ترك القضاء وعمل محامياً ومكث هناك سنوات عدة وكان في حالة مادية معقولة، لكن

زاهياً لم يستطع أن يكون غنياً في حياته، لقد كان في عمله نزيهاً لا يقبل أي أمر يسيء إلى سمعته، ولكنه كان كسولاً، ولقد أرسلت إليه مرة في حماه، وكنت مفلساً، أبياتاً أستدين بها منه بعض الدراهم جاء فيها:

أعـرنـي عملـة وانقـذ حيـاتـي فـإنـي قـد غـرقـت إلى اللـهـاة
وغـيّرنـا الطـريـق فمـا استفـدنـا لأن الـدَّيـن في كـل الجـهـات

ولقد ضحك كثيراً لهذا التعبير «فما استفدنا»، لأنه كان يكره هذه الاستعمالات اللغوية في الشعر مثل: قد، ومذ، وإذ، كما كان يكره كلمة، المفضال، و: طُراً، لقد كان ذوّاقةً في كل شيء ما عدا المرأة التي اختارها رفيقة له، فإنها كانت بعيدة عن أن تكون امرأة، ولعلها كانت أقرب إلى أن تكون من المصارعين الأفذاذ، ويصاب زاهي بالمرض الوبيل فينتقل إلى بيروت ويترك عمله ويذهب الأطباء ويروحون في تخميناتهم وشكوكهم ويزداد المرض، فينتقل إلى القرية «متن عرنوق» وأزوره هناك وكان في حالة يرثى لها، وقبل أن يموت بيوم أو يومين - كما روي لي - تكلل على المرأة التي تحدثنا عنها لتفوز براتبه التقاعدي من المحاماة وهو مبلغ لا بأس به، ويبدو أنها سببت لأخوته مشاكل في ميراثها منه، وكتبتُ إلى أخيه ليوافيني بشيء مما بقي من شعره فلم يجبني، فعلمت أنهم غاضبون لأنه كلل نفسه عليها فشركها في ميراثه من أبيه بدلاً من أن يكون ذلك لأخوته الذين أنفقوا عليه أموالاً طائلة في مرضه وغير ذلك. لقد كان زاهي صديقاً مسلياً لا يجارى رحمه الله.

كان من رفاقي في التدريس كما قلت عثمان شفقي الذي انتدبته وزارة المعارف السورية ليدرس في لاييك طرطوس كمعونة لهذه المؤسسة، وكان المدرسون قسمين: إفرنسي وعربي، أما القسم الفرنسي فيتألف من: المدير واسمه «رينه إيرانتران»، كما أسلفت، وهناك ناظر المدرسة واسمه «ليبران» وكان من الفلاحين الفرنسيين الأقوياء الشكيمة ولم يكن كبير الثقافة، وهناك مدرسان أخران استعيرا من المجندين الفرنسيين في سوريا، أحدهما وهو شاب لطيف بالغ اللطف واسمه «أوفين» Ovine والثاني كان اسمه «كوتوروت» وقد كان أوفين يحمل شهادة الأدب الفرنسي ويدرّس هذه المادة، أما الثاني فقد كان رجلاً بسيطاً ومضحكاً في آن، ولم يكن له أثر في المدرسة، أما المدرسون العرب فهم عدا الأستاذ الشفقي، حليم عرنوق مدرس التاريخ الذي ذكرته سابقاً وهو أخو زاهي صديقي، ولم يكن يحمل شهادة على ما أعتقد، فقد كانت الشهادات تلك الأيام نادرة، ولكنه كان يجيد اللغة الفرنسية كما كان ميالاً إلى مادة التاريخ التي كان يقوم بتدريسها، وكان هناك معلم الرياضيات فؤاد عرنوق الذي كان يحمل شهادة البكالوريا السورية الأولى ولكنه كان كفؤاً في عمله، فقد كان رياضياً بالفطرة ولكنه «كان ميالاً للجد والوقار»، أو كان الصورة المناقضة تماماً لزاهي (ابن عمه) ولعل هذا هو السبب في اختلافهما دائماً وعدم اجتماعهما إلا في النادر. وكان هناك مدرس ثالث للغة العربية هو الأستاذ شحادة اليازجي الذي كان يدرس اللغة العربية الابتدائية والصف السادس وما قبله من سابع وثامن... إلخ. ولم يكن يحمل شهادة ما وكان كبير السن بالنسبة لبقية الأساتذة كما كانت هيئته تدل على أنه كان يعمل في الزراعة أكثر مما يعمل في العلم، وهناك مدرس آخر للرياضيات في الصفوف الأولى اسمه إلياس جرجي وهو من أهل طرطوس، وكان قصيراً سميناً يضع على عينيه نظارة سميكة ويبدو عليه الاعتداد بنفسه وبشخصيته، وقد عرفنا سبب ذلك فيما بعد، فقد كان عضواً بارزاً في الحزب القومي السوري الذي نشأ في تلك الفترة على يد منشئه المرحوم «أنطون سعادة»، وقد كانت طرطوس من المراكز الكبيرة التي انتشر فيها هذا الحزب الذي كان له أثر كبير في الشباب المثقف وفي المدارس خاصة في تلك المنطقة، وقد تقدم إلياس هذا في ميدان الحزب حتى أصبح في أخريات الأيام عميداً للداخلية ومن أبرز العاملين فيه. وكان له اب فقير واخ صغير، كان تلميذي توفي شاباً منذ سنوات بعد أن أصبح وكيلاً لإحدى شركات الأدوية، وقد حاول إلياس بشكل لبق أن يدخلني في الحزب الذي يتبناه ولم يُوفَّق إلى ذلك إلا قبل سفري بأسبوع، وقد انتسبت فعلاً لأن المجتمع المدرسي كله أصبح حزبياً ولم يعد بالإمكان أن أبقى وحدي مخالفاً، ولكن انتسابي لم يطل أكثر من أسبوع عينت بعده بالوظيفة وهجرت الحزب بعد أن صرت بعيداً عنه، وكان في المدرسة مدرس لبناني يدعى السيد إسحق، كان أسمر ضعيفاً ومسنّاً وأعرج وهو من قرية تدعى (عجلتون) قريبة من جبيل، كان هو وعائلته يسكن في بيت قريب من المدرسة ولكنه كان شبه جاهل يعرف قليلاً من الإنكليزية، وكان عمله في الصفوف مع الصغار يدير لهم ألعابهم ونزهاتهم، ولم يكن ثقيلاً وكان يتقرّب مني كثيراً وكنت أتباسط معه ولا أخجله.

كان المدير متزوجاً من امرأة سورية من عائلة معروفة في ضهر صفرا، وكانت تُرى جميلة عند الناس وكنت أراها لطيفة فقط فقد كانت أصغر منه بكثير، وكنت أمازحها حين كان يدعوني المدير إلى بيته فأروي لها شعراً جاهلياً فلا تفهم منه شيئاً وتتعجب من لفظي لأن حياتها كانت إفرنسية، وإن كانت عربية الأصل، وقد ولدت للمدير ولداً جميلاً صغيراً اسمه «جيلبير»، وقد علمت مؤخراً أن العائلة كلها ماتت، المدير وزوجته والولد. كان المدير راهباً أصلاً في دمشق وكان من فاحصي البكالوريا كما كان يحمل إجازة في الفلسفة وكان مدرساً من الطبقة الأولى، كما كان يصفه طلابه فصاحة وسعة علم، وكنت أستغرب منه هذه الصفات العلمية، فقد كان نهماً يحب الشراب والطعام ولكنه من غير شك كان فائق الذكاء والثقافة.

أما حليم عرنوق فقد كان شقيق صديقي زاهي وكان ضعيف الجسم ضعيف النظر لا يستطيع ترك نظارته لحظة، والأسرة كانت ـ كما عرفتها ـ مصابة بضعف النظر، فهي مجموعة من النظارات في بيت واحد. وكان حليم لطيفاً وهجاء مبالغاً في هجائه لا سيما إذا استثقل شخصاً وكان يسمي كل شخص ثقيل «يهوذا الأسخريوطي»، ويهوذا هذا، كما لا يخفى، هو الذي ارتشى وكان سبب صلب السيد المسيح كما يروي التاريخ المسيحي. وكان كريماً، وقد تزوج من عائلته، وكانت سيدة بالغة اللطف وقد سمعت أنها توفيت إلى رحمة الله من مدة قريبة.

كان في طرطوس شاعر وحلاق بآن واحد واسمه محمد المجذوب، وقد سمعت أنه توفي من مدة قريبة في المملكة العربية السعودية حيث كان مدرساً، وهو لا يحمل شهادة ما، ولكنه درس العربية وأتقنها كما كان شاعراً من النوع المحافظ، أعني أن شعره ليس فيه جديد ولكنه قوي السبك واللغة فهو مفيد على كل حال، وكان لطيف الحديث يكثر من الإشارات، وكنا نجلس عنده إذ كان حلاقاً ـ كما قلت ـ وهذا الإنسان الطيب له قصة معي كان لها تأثير قوي في تغيير مجرى حياتي كلها.

كانت حياتي تتنقل في طرطوس بين المدرسة ودار أقربائي الذين كانوا يعيشون في طرطوس من أجل أولادهم ودار بعض آل عرنوق، وخاصة دار حليم، إذ كان زاهي وعرنوق أخوه الأصغر يسكنان معه، وكنا نقضي أياماً جميلة تارة عندهم وطوراً في مقهى يسمى «الكازينو»، وأصبح اليوم محلاً تجارياً، وربما ذهبنا إلى حديقة المنشية الجميلة وفيها الأثر التاريخي القديم المشهور «البازيليت»، وكانت هناك عائلة كانت لها صلات قوية مع أقربائي ومع الطائفة الإسماعيلية كلها، وهي عائلة تجارية تعمل في تجارة الزيوت واسمها آل العكاري، وقد كانت العائلة مؤلفة من أخوين، الكبير واسمه توفيق والصغير اسمه رزق الله، كان توفيق تاجراً قديماً مارس التجارة حتى أتقنها وأصبح من أغنياء البلدة بعد أن بدأ فقيراً جداً، كما حدثني هو، وكان يتلعثم في كلامه مما يبعث على الضحك، ولم يكن يضيق بهذا الضحك بل كان يشاركني فيه، أما أخوه فكان على جانب من الثقافة ويحسن التكلم بالفرنسية وكان ذا صوت جميل وصاحب نكتة، كما كان لي رفيقاً في بعض سهراتي وجولاتي، وقد مات المسكين ميتة فاجعة، فقد اضطربت به السيارة على طريق بيروت فظن أنها ستنقلب فرمى بنفسه منها فجاءت سيارة أخرى من وراء سيارته فدهشته بشكل فظيع وقضت عليه، أما أخوه الكبير فقد جزع جزعاً عظيماً على أخيه، وأعتقد أن وفاة أخيه كانت سبباً لوفاته هو أيضاً.

كان في تلك الأيام في طرطوس شاب على شيء من الثروة والغنى، وكان ذا صوت جميل ويحسن العزف على العود حتى لقد غنى مرة أمام محمد عبدالوهاب وشجعه المطرب الكبير، كان اسمه «حلمي أرسلان»، لكنه كان كثير الشراب والسهر ويكاد لا يعرف القراءة، وكان كريماً جداً، فكنا نأوي إلى داره الكائنة في الحي الأثري القديم، بل إن داره كانت من منطقة الآثار وكان يكثر من الغذاء والشراب ويغني ويعزف ويمزح، فكان مجلسه من المجالس المحببة إلينا في طرطوس، ولقد أصيب حلمي هذا بحادث ذهب بأعصابه فاضطرب تفكيره وتغير مزاجه كله ثم توفي بعد مدة، لقد ذهب مع رفاقه من طرطوس إلى قرية «زغرتا» اللبنانية في جبل طرابلس وهناك شرب كثيراً وسهر، وكان هو على ما أظن سائق السيارة الخاصة التي أقلتهم، أو أن السيارة كانت له وفي الطريق انقلبت بهم فمات أحد رفاقهم وأصيب الآخرون بجروح خطيرة، أما هو فقد أصيب بارتجاج في الدماغ لم يسلم منه فيما بعد ولم يشفَ كما أعتقد، وقد جاءني بعد مدة إلى دمشق وصحبته إلى بيت فخري البارودي المعروف وأردت له أن يغني فيسمعه السيد البارودي، الخبير في السماع، ولكني كنت في وادٍ وهو في واد، وقد أخبرني أنه أصبح شاعراً فاستغربت هذه المفاجأة الأخرى. ومن أصدقائي الخلص في طرطوس السيد السريّ رياض عبد الرزاق، ورياض يعتبر أغنى شاب في منطقة اللاذقية، ولعله من أغنياء سوريا الكبار، وقد كان صديقاً لنا أنا وزاهي ولكنه ولظروفه العائلية الخاصة كان قليل الاختلاط بنا، وأصل عائلته قديماً من صيدا وكان اسمها «عائلة الترجمان»، وأصبح أبناؤها بعد انتقالها إلى طرطوس بكوات وآغوات على الطريقة القديمة من التسميات والألقاب، كان ضعيف الجسم ولكنه قوي البنية ذو عينين واسعتين وضحكة دائمة وله طريقة خاصة في

حديثه، وعشرته ربما أملتها عليه حياته البيتية التي كانوا يسمونها هاتيك الأيام «أرستوقراطيـة» أو حياة «الذوات»، وقد تزوج مرتين، الأولى من أسرة معروفة قديمة في دمشق هي أسرة الأيوبي، ولكنه اختلف مع زوجته فانفصلا وتزوج بعدها من ابنـة ابن عمه أو ابنـة خالـه لا أذكر، والأولى أنجبت لـه ولدين وابنـة واحدة، أولهما نال شهادة الحقوق والثاني درس الطب في أوروبا وأصبح طبيباً ناجحاً وما يـزال في أوروبا حتى الآن. أما غنى رياض فحدّث ولا حرج وقد التفت أخيراً إلى جمـع الكتب فأسس مكتبـة نادرة حقـاً بترتيبها وتنظيمها وبمحتوياتها القيمة، ورياض، على اعتباره غنياً، متهم بالبخل كالعادة، فإن أكثر الأغنياء في بلادنا متهمون بهذه الصفة من البخل وكأن الناس يفـرضون عـلى الغني أن يوزع ثـروته عـلى الناس ليقعد فقيراً مثلهم وعندئذ يمكن أن يدعى كريماً. أما أنا فأشهد أنه منظم في حياته فما عرفتـه مرة قصر معي أو مع غيري في دعوة لطعام أو شراب أو سهر، وهو متقن للباسه ولسكنـه، كما أنـه كثير السفـر إلى بلاد الله وقد يعيش هناك أوقاتاً طويلة لا يقـدم عليها إلا مـن يحب العيش والحيـاة، وهو قـوي الشكيمة معتز بنفسه، وقد سجن مرة وكنت زائراً عنده وأعتقد أنني كنت من أسباب سجنه، فإن الذي سجنه ابن عمي الذي كان له صولة ودولة منذ سنوات، وكنت على خلاف شديد معه، وقد رآني أو رأى زبانيته وأنـا ذاهب إلى بيت صديقي رياض فأرسل إليه من يقبض عليه وأنا ببيته، والقضية كانت ضدي أنا لا ضـده هو، وقد بقي في السجن شهراً لم يشكُ ولم يعتـذر ولم يطلب شيئاً قط، كمـا كان مسجـوناً في تـدمر مـع المبعدين سياسياً، وقد كان بين هؤلاء كأنه في مصيف يمزح ويمرح ويصرف عن سعـة ويعاون أصدقاءه من المسجونين في كل ما يلزمهم. وما زال الـرجل صـديقاً حميمـاً، وإن كنت لم أره منذ أكثـر من سنتين، سامحه الله.

قلت قبل قليل أن محمد المجذوب الحلاق والشاعـر، كان لـه تأثـير في قضية سببت تغيـراً في حياتي وإليك القصة:

في هذه الفترة تعرضت لمشكلة عاطفية، وحياتي مليئة بـالمشاكـل العاطفيـة، ولا أبالـغ إذا قلت إنني عرفت الحب وأنا ابن عشر سنين وكان حباً جارفاً ما زلت أذكره حتى الآن، فقد صحبتني والدتي مرة إلى بيت صديقة لها في سهرة، وحين وصلت إلى البيت وجدت فيه فتاة عمرها في العاشرة أيضاً، وقد أعجبنـي شكلها ونظرت إليها نظرة الرجل المجرب وخرجت من الغرفة التي كانت فيها أمي مع مضيفتها إلى حديقة البيت فوجدت مقعداً إلى جوار شجرة من الورد، وكان ضوء القمر ساطعـاً يملأ الحـديقة، والهـواء عليلاً رخيّاً وليالي الصيف في سلمية مشهورة محببة، وبعد قليل رأيت الفتاة تخـرج من الغرفـة وتأتي إلى حيث كنت أجلس، ثم جلست إلى جـانبي وأخذنـا نتحدث طـويلاً حـديثاً يتخللـه الضحك والقصص التي كنت مولعاً بها، إذ كنت بدأت قراءة قصص بني هلال وغيرها، ومضت سـاعات كلمـح البصر وخرجت والـدتي وذهبت معها وفي نفسي غصة وذكرى، تلك الليلة ما زالت تعاودني إلى الآن وقد مضى عليها زمن لا تعد ولا تحصى سنواته وشهوره وأيامه، وقد انتقل والدها الموظف العسكري إلى بلدة أخرى، وقد سألت عنها منـذ مدة فعلمت أنها تزوجت وأن لها عشرة من الأولاد، ولكني لم أرها بعد تلك السهرة. أما حادثـة طرطـوس هذه فكانت على طريقة أخرى: كانت امرأة ذات جمال عجيب يقيد الرجل كالوثاق فلا يستطيع الحركة ولا التفكير، ويعلم الله أنها جنت عليّ جناية لا تغتفر، ولكن حبها لي هو الذي شفع لها وما زال يشفـع لها، لقد حدثتني على الهاتف وطلبت إليّ أن أوافيها إلى بيتها، ولم أستطع الامتنـاع عن ذلك لسبب حبهـا الذي لا يقاوم وشكلها الذي يغري العابد الناسك. ودخلت البيت فـرأيتها وحـدها ولم أكـد أصل إلى أرض الـدار حتى نادتني إلى غرفة الاستقبال فجلست ونـادت الخادمـة لتصنع فنجـاناً من القهـوة، وما كـدت أمسك بالفنجان حتى وجدت رجلاً يدخل علينا وكأنه الوحش الهائج وأخذ ينهال عليّ بالشتائم والتهديـد، وسكتّ مرغماً ولكنها هجمت عليه هي كالنمرة وأخذت تضربه بكلتا يديها وتشتمه شتـائم فظيعة وأنـا واقف أنظر إلى هذا المنظر العجيب، وخرج الرجل وخرجت في أثره وذهبت إلى المدرسة حيث كان عليّ أن أعطي درساً في النحو، لقد تألمت ألماً لا يوصف ولم أستطع النظر إلى الطلاب وأنا على هذه الحال، وقـد تعجب أكثرهم من منظري وراح يسألني وأنا ساهم صامت، ولقد علمت فيما بعد أن صاحبة البيت قد ضربت خادمتهـا

يومها ضرباً مبرحاً فأرادت أن تنتقم من سيدتها وسمعتهـا تحدثني بـالهاتف فـركضت إلى قريبهـا وكان تاجراً له محل قريب من البيت فجاء ليمثل هذا الدور الذي أقضّني وجعل نهاري ليـلاً. لم أستطع بعـدما حـدث أن أرى السيدة التي دافعت عني وقضيت أيـاماً في غـرفتي في المدرسـة لا أخرج وكـان أقربـائي يسألون عني فأدعي الشغل وتحضير الدروس، وأصبحت في نظر نفسي متهماً، وقـررت أن أسعى إلى ترك مدينة طرطوس فإن الحياة فيها أصبحت ثقيلة عليّ لا سيما إذا افتضح أمر علاقتي مع السيـدة التي لم أضمر لها إلا كل خير، والتي كنت السبب في تعرضها لتهمة لا يد لها فيها وإن كـانت هي سببها، وازداد همي وأنا أحمله بلا طائل، حتى لقد حاولت أن أترك المدرسة وأغادر المدينـة ولو أدى الأمـر إلى معاقبتي قانونياً، وحين بلغ الأمر بي إلى هذا الحد ذهبت إلى زاهي ورجـوته أن يخلق لي سهـرة أنا بحـاجة مـاسة لها، وسرعان ما ذهبنا إلى بيت من أقربائه، ومدت الطـاولة وصفت الصحـون والأقداح وظللت أشرب بـلا طعـام إلا القليل القليـل حتى الصباح، ومن حسن الحظ أن الليلـة كانت ليلـة الأحد وهـو يـوم العطلـة المدرسية. وظللت نـائماً حتى السـاعة الثـانية عشرة ظهـراً، وقمت وأنا أتـرنح في سـيري فغسلت وجهي وذهبت إلى بيت زاهي فلم أجده، وانحدرت فمررت بدكان الشاعر محمد المجذوب وقبل أن أصل هجم عليّ ساعي البريد بدراجة وهو ينادي، أستاذ، برقية، وتنـاولت البرقيـة فقرأت فيهـا: عينت في الحسكة احضر حالاً، والتوقيع ـ رشاد. جلست عند صاحبي المجذوب وأنا أفكـر بهذه البـرقية الغـريبة وقلت في نفسي لا أريد أن أذهب إلى آخر العمران من أجل وظيفة تافهة في التعليم الابتدائي بعد أن كنت معلماً في مـدرسة ثانوية، في حياة محبوبة، يحبني الطلاب والأساتذة وأهل المدينة من عمـال المقاهي والمـوظفين، فقـد كنت أكثر الناس معرفة بالناس، وسألني المجذوب ـ رحمـه الله ـ مـا الذي بـك أراك مضطربـاً؟ وروى لي بيت أبي نواس الشهير:

تفتـير عينيـك دليـلٌ عـلى أنـك تشكـو سـهـر البـارحـة

فأخرجت البرقية وأعطيته إياها وأنا أقول، لن أذهب، لا أريد أن أكون معلماً تافهاً في الحسكة، ولكنه نظر إليّ بعد أن قرأ البرقية وقال: ومن أعلمك أنك ستكون معلماً، إن الوظيفة غـير مذكـورة، فربمـا طُلبت لوظيفة حسنة غير التعليم، قال ذلك فنظرت وكأني أفقت من إغفاءة عميقة، فقلت له: والله لقـد لفتّني إلى ما غاب عني،قد يجوز، ونظر إليّ ثانية وقال: إذهب إلى دمشق وقابل صديقك هذا ـرشاد ـ لتعرف كلشيء فإما أن تجد في الأمر شيئاً جديداً يعجبك، وإمـا أن تعود إلى قـواعدك. قلت لا بـد أن أستشير صـديقي الجديد.

جاء إلى المدرسة في الشهور الأخيرة من وجودي في اللاييك أستاذ فرنسي، قيـل لي إنه يتكلم العـربية دون خطأ، وإنه يحمل شهادة عـالية في تـدريس اللغة الفـرنسية، وذهبت إليـه فوجـدت شابـاً وسيماً في الثلاثين من عمره فسلمت عليه وحدثته فأجابني ببعض كلمات عربية بصعوبة وسألته عن نشأته وأصله؟ فقـال لي: إن والدي عـربي مسلم من آل التيجاني، العـائلة الـدينيـة المعـروفـة في المغـرب، وأنـا اسمي بالفرنسيـة «رينه تـدجيني» ولكن اسمي بالعـربية: نصر بن عـلي التيجاني فـاستغربت هـذا الخليط من الأسماء، ثم قال لي: إن والدتي فرنسية ووالدي كان يدرس في فـرنسا وقـد ترجم تـاريخ الأدب لجـرجي زيدان إلى الفرنسية، وكنت قد صحبت هـذا المدرس وحـاولت تدريسـه اللغة العـربية كمـا حاول هـو أن يدرسني اللغة الفرنسية. فقد كان عـالماً بـالنحو الفـرنسي (agrégation) وتقدم إلى فحص «الاكـره جي» ولكنه لم ينجح لصعوبة فحص هذه الشهادة التي هي عبارة عن مسابقة وليست فحصاً، وقـد حدثني أن الذين تقدموا للفحص كانوا خمسماية تلميذ لم ينجـح منهم سوى خمسـة وعشرين تلميذاً، فعـذرته عـلى سقوطه وضحكنا.

أما المدرس الآخر فقد جاء أيضاً في أيامي الأخيرة لتدريس الأدب العربي، وكان ذكياً حـين الحديث، وهو بيروتي من العائلات المسلمة المحافظة جداً من آل «سنو» المعروفـة، ولكنه لم يكن كفؤاً لتـدريس هذه المادة لأنه لم يكن يحمل الشهادة الخـاصة بهـذا الدرس ولم يكن قـد درس في مكان آخـر، ولم أدر كيف اختير لهذه المادة وكان طفلاً في كل شيء، وقد مات فيما بعد بسبب مرض القلب؛ وكان صديقاً عـزيزاً رغم

بساطته وصعوبة الانسجام معه ـ رحمه الله ـ ومن المصادفة أني لقيت الاثنين حين عدت مسرعاً من دكان محمد المجذوب فرأيا سرعتي في الحركة واضطرابي وسألني الأستاذ سنّو فحدثته بالقضية فنصح لي أن لا أفعل، أما الأستاذ الفرنسي، الذي لم يكن على وئام مع المدير، فقد وافق على محاولتي الانتقال، وذهبت إلى المدير لأدعي أن أخي مريض وهو في دمشق وأريد أن أراه، ولم يكن قد بقي من راتبي حتى آخر الشهر إلا عشر ليرات فقط.

كان سفري إلى دمشق موفقاً وسريعاً فقد مررت سريعاً بطرابلس ثم بيروت، وكنت فيها في الساعة السابعة مساء، وكنت أعرف مكتب صديقي رشاد فصعدت إليه ووجدت رشاداً والصديق الآخر محمد الجيرودي المحامي الشهير ورئيس المكتب الأمير بهجت الشهابي، وعلمت من رشاد أنه هو ومحمد قد اقترحا اسمي للأمير بهجت ليصحبني معه إلى الحسكة في محافظة الجزيرة ولأكون هناك منشئاً في المحافظة ومترجماً أحياناً عن اللغة الفرنسية، وبعد قليل دخلت على الأمير بهجت وكان لطيفاً جداً ـ رحمه الله ـ فتحدثت معه وسألني عن راتبي فأعلمته فقال: نحن نعطيك ثلاثة أمثال راتبك، وفعلاً فإن راتب الوظيفة الجديدة كان قريباً من الخمسين ليرة وكان يسمى «١٠ أوپير» وأوپير هذه كلمة فرنسية تعني «الزوج» وكانت الليرة «الأوبير» بخمس ليرات سورية، وقال لي: إنهِ أشغالك والحق بي إلى الحسكة لتتسلم وظيفتك الجديدة. وعلمت أن رشاداً نفسه قد عُين أيضاً مديراً لناحية راس العين في الجزيرة أيضاً، وهي تابعة للحسكة، وكذلك الصديق الآخر منير سليمان الذي عين كاتباً أيضاً في المحافظة التي في الحسكة نفسها(*).

في اليوم الثاني دعيت إلى وزارة الداخلية أنا ومنير وسليمان لنطلع على بعض المعاملات التي لها علاقة بالوظيفة، ودخلنا فاستقبلنا رجل كان يشغل وظيفة كبيرة في وزارة الداخلية هو محمود بك العظم الذي صار فيما بعد صديقاً حميماً لي، وكان معه المرحوم كاظم الداغستاني الأديب والدكتور في الحقوق، وتحدث محمود بك مع رجل يسمى محمود الحناوي وكان مدير أوراق الوزارة، وذهب زميلي منير سليمان إلى غرفة أخرى وأخذ الحناوي يفهمني العمل في دفاتر الواردة والصادرة والذمة وغير ذلك، وسمعت محمود بك يتحدث مع موظف آخر في غرفة ثانية من شباك بين الغرفتين يقول له: إسمع يا فلان موظفان في الداخلية لا يتمرنان، إلا أياماً معدودة؟ ما هذه الحالة؟ فقد كانت الوظائف ذات أهمية وكانت تحتاج إلى تمرين طويل حتى يصبح الموظف رسمياً.

بعد أن أنهيت التمرين المستعجل عدت إلى طرطوس، ويبدو أن خبر تعييني الجديد قد بلغ المدرسة عن طريق الصحف فوجدت التلامذة والأساتذة واقفين وكلهم يسأل عن جلية الخبر، ولم أكتم الأمر هذه المرة وقلت لهم: لقد تخلصت من المدارس الخاصة وعِشرة أصحابها المقيتة التي لا تسر ولا تحترم الإنسان، وجاء المدير إليّ يحدثني وخلوت به في غرفة من غرف المدرسة وسألني عن الخبر فقلت له الحقيقة، وقلت: إنني أحاول التوظف منذ مدة طويلة وقد حان موعد ذلك الآن، وقال: إذا بقيت عندنا فإنه أفضل لك وأنا مستعد لإعطائك ضعف راتبك أي أن تكون صاحب أعلى راتب في المؤسسة، وقلت له ولم أكتم ما بنفسي: لِمَ إذن كنت تعطيني الراتب القليل مع أنني الوحيد الذي يحمل الشهادة عندك؟ وبالفعل لقد كنت الوحيد بين الأساتذة العرب الذي يحمل شهادة البكالوريا الثانية «فلسفة»، يضاف إلى ذلك شهادة اختصاص في الزراعة، وقال لي: لا شك أنك كنت خير معلم عندي، فقد كنت تضبط الصف وتفرض شخصك على تلامذتك، وقلت له: لقد قلت حين اتفقت معك السنة الماضية، إنني خيبت ظنك، أظن أنك قلتها لأتساهل معك بالاتفاق، وكنت تعرف أنني محتاج للعمل، قال: إنني لم أقصد إلا شيئاً واحداً، فقد كنت تكثر من السهر وقد قلت ما قلت من أجل صحتك وأنت ما تزال في أول شبابك، فقلت: على كل حال أنا شاكر لك حسن معاملتك وأرجو أن تدعو لي بالتوفيق، وأظهر الرجل أسفه الشديد ودعاني في اليوم الثاني إلى الغداء في بيته مع لفيف من الأساتذة.

(*) لقد توفي هذان الصديقان هذا العام (١٩٨٩) وبينهما شهران، وقد دامت صداقتهما ستين عاماً أو اكثر.

أفقت في اليـوم الثاني ونـزلت إلى قاعـة الدروس وقلت: أودع تـلامذتي، وكـان هؤلاء يحبونني حبـاً صادقاً، وقد كان منهم أناس أصبحوا في وظائف وأعمال بارزة مثل المرحوم غسان جديد الضابط الشجاع الذي اغتيل سياسياً في لبنان، وكان حسن مهنـا وعلي غنـام وحنا إليـاس الدكتـور الشهير الآن في كنـدا، واسكندر اليازجي الطبيب المعروف، ولطف الله بشـور ووليم بشور وجـودت اليازجي وغـيرهم كثيراً جـداً ممن لا أحصيه الآن، ورأيت الدموع تكاد تطفر من عيونهم هؤلاء الـذين حاولـوا أكثر من مـرة أن أكون المعلم الأول للغة العربية في المدرسة، كما صنع تلامذتي في مدرسة الروم في حمص حين طالبـوا بي معلماً بدلاً من المرحوم الأستاذ جرجس كنعان. وتناولت الغداء يومها في بيت المـدير وكـانت زوجته «إيـزابيل» ـ رحمها الله ـ وزملائي، وكلهم أظهروا الأسف لفـراقي، وفي اليوم الـذي يليه قمت بـاكراً وأنـا على أهبـة السفر فوجدت أمام باب المدرسة عدداً كبيراً من السيارات فاستغربت ذلك وسألت؟ فقيل لي: لقد استأجر الطلاب والأساتذة عدداً من السيارات لترافقك إلى بانياس واللاذقية. وبعد أن جرت لحظة الـوداع، وبعد أن ودعت أصحابي في البلدة وخاصة آل عرنوق سرت إلى اللاذقية وكان فيها الأسـاتذة في بـانياس ووقف رتل السيارات وألقيت فيهم كلمة باكية، فقد كنت متأثراً لهذا «الانقلاب» الـذي حدث في حيـاتي دون أن أحسب له حساباً. وفي اللاذقية ودعت رفاقي الأساتذة واستأنفت سيري إلى حلب.

٢٨ في الطريق إلى الجزيرة

ودعت الرفاق المعلمين الذين رافقوني إلى اللاذقية وركبت السيارة إلى حلب، وفي حلب التقيت بالمرحوم الأستاذ عثمان الشفقي المعلم السابق في اللاييك بطرطوس، وكان الرجل كريماً فقد دعاني إلى غداء في حي السبيل المشهور وكانت الدنيا ربيعاً حلواً والوقت في ٨ أو ٩ آذار ١٩٣٧، ـ كما أذكر ـ وظللنا هناك حتى المغرب وكان معنا موسيقي من عازفي الكمان من آل القدسي المعروفين، ومعه شخص آخر موظف في المصالح العقارية من آل طاهر الذيل، وعدت إلى المدينة مع هؤلاء الرفاق بعد المغرب.

وحدثني صاحبي الأستاذ عثمان يقول: هل تحب أن نسهر سهرة جميلة فيها جمال ودلال وشراب وطرب، وكنت ما أزال ضعيف المقاومة أمام هذه المغريات الثلاث: الجمال والطرب واللهو والشراب وقد قلت فيما مضى:

فلم أزل أضيق بالوقار ... أخلع ما شئت من العذار
أشرب في الليل وفي النهار ... مهما غدت سني في الكبار

فلست أنسى مرح الصغار

هذا وإن الشعر عنصره الأساسي المبالغة، إلا أنني في حقيقة الأمر كنت أحب أن ألقى الحياة عريضة لا طويلة كما قال الوزير اللبناني المعروف إميل لحود. وقال صاحبي: إذن نذهب لنأخذ موعداً ثم نعود لنقضي الليلة سهراً خاصاً بدلاً من أن نسهر في محل عام يكلفنا كثيراً ولا نطرب كما نطرب هنا. وصعدنا في عمارة كبيرة في حي «بستان كليب» أو كما يسمونه قديماً «بستان كل آب»، وطرقنا الباب ففتحت لنا خادمة جميلة نوعاً ما، ثم وصلنا إلى السيدة صاحبة البيت فإذا أنا أمام الشمس المنيرة، أعني أمام جمال لم أر مثله في حياتي، لقد تلعثمت من هيبة الحسن فلم أعرف ماذا أقول، وقد ذكرتني هذه الرؤية بموقف آخر أضعت فيه صوابي أمام الحسن. كان ذلك من طرطوس وكانت عطلة المدرسة وقد ذهب المعلمون والطلاب ولم يبق غيري مع عدد قليل من الطلاب والمعلمين، وكلفني المدير يومها أن أذهب باسم مؤسسة اللاييك لأبارك للعائلات بعيد الفصح، وكانت هناك عائلة من أجمل ما خلق الله، لقد كانت امرأة نادرة وكان زوجها من أبشع ما خلق الله رغم أنه صاحب عمل موفق ومن عائلة محترمة، وأخذت بطاقة المدير وطرقت الباب ففتحت لي ابنة صغيرة ودخلت واستقبلتني السيدة وكأنها الشمس المشرقة تظهر من وراء السحاب ولا أدري ما الذي حدث لي، فقد وجدت نفسي في أرض الغرفة، ويبدو أنني لم ألاحظ وجود مرتفع قليل عند الباب فاصطدمت به رجلي وأنا أنظر إليها بالمرتفع وسقطت أرضاً وكأنني كيس من الطحين يسقط من سطح عالٍ إلى الأرض.

تذكرت هذه القصة حين رأيت السيدة الجميلة في حلب، واتفقنا على أن نعود في الساعة العاشرة ليلاً. وكان الخطأ في تصرفي تصرفاً بعيداً عن المنطق، فقد بحثت عن صاحبي الشفقي فلم أجده وقلت أصعد وحدي فأرى السيدة، وصعدت في بناء مؤلف من عدة أدوار وأخذت أفتش، وكنت بين حين وآخر أطرق أحد الأبواب فيفتح لي فأرى أناساً غير من أريد، ولم أفتر فقد نزلت وصعدت عدة مرات وفي المرة الأخيرة بصرت عند باب البناء بعدد من الحراس وكأنهم ينتظرونني وسألني رئيسهم: لقد صعدت ونزلت مرات عديدة فلأجل ماذا؟ ما الذي تريده في البناء؟ وحرت في أمري وخطرت على بالي الوظيفة، وقرار التعيين ما زال في جيبي وقلت للرجل: إنني أبحث عن رفيق لي ساكن هنا ولم أهتد إلى بيته، وذكرت اسم الرجل فلم يستمع إليّ وقال لي: تفضل معنا، وكأن ثلجاً مر في ظهري من الخوف وحاولت أن أتخلص فكلمني بلهجة جادة وقال لي: اتبعني بلا نقاش، وسرت إلى مخفر في حي باب الفرج، ورآني قائد المخفر وكان كما تبين لي فيما بعد إنساناً ذكياً، فلم يدخلني مكان الحجز وقال لي: اجلس هنا يا أفندي. فجلست في بهو المكان

قريباً من الرئيس وسألني عن هويتي، وأين نمت الليلة الفائتة فأعلمته بكل شيء، وبعد قليل قلت له: أريد أن أكلم نزهة بك؟ ولكنه نظر إليّ بسخر وقال لي باللهجة الحلبية القاسية: إبرك؟ وبركت خجلاً يائساً، كان نزهة هذا شخصية دمشقية معروفة وكان عسكرياً من أصحاب الرتب زمن الأتراك، وكنت أعرف نفراً من هذه العائلة فحاولت أن أتصل به وقلت لعل الخلاص يكون على يديه، ولكن قائد المخفر لم يمكني من ذلك، وبعد قليل تحدث إليّ القائد فقال: يا أخي ليس لك حق وأنت غريب أن تصعد إلى بناء لا تعرف فيه أحداً عشر مرات على مرأى من الناس وأنت لا تعلم بأن هذا البناء مراقب فإن فيه مشاكل تضطرنا إلى مراقبته. لقد عرفت أنك لست من أهل المشاكل لذلك لم أدخل اسمك بالضبط ولم أحجزك في غرفة المتهمين ولكنك عرضت نفسك لأمر كان عليك أن لا تغامر فيه، مع السلامة. وخرجت شاكراً للرجل وقد نفضت غبار الموت عن عيني. وسرت إلى فندقي وجمعت أشيائي ولبثت حتى مشت السيارة الموعودة، وكانت من الباصات العتيقة واتجهت صوب دير الزور.

كانت المسافة بين حلب ودير الزور /٣٣٣/ كيلو متراً، وقد ظللنا نسير منذ الضحى من حلب فلم نصل إلى الدير إلا عصارى النهار، وفي الطريق عرجت على الرقة ولم يكن هنالك جسر ولا من يحزنون، بل كان الناس يجتازون النهر إليها بواسطة خشبة عريضة مسافتها عدة أمتار تسمى «المعداية»، وفي طريقنا مررنا على قرى كثيرة منها «مريبط» و«مسكنة» و«أبو هريرة»، وفي هذه المنطقة جرت معركة صفين بين علي ومعاوية كما يقال، وفي هذه المنطقة قتل عمار بن ياسر مع جماعة علي، ولكني لا أذكر أن له قبراً في هذه الجهة، ووصلنا إلى دير الزور عصارى النهار ونزل الركاب وكل أخذ حقيبته، وجئت لآخذ حقيبتي فتسمّرت في مكاني. لقد كانت تشبه حقيبتي ولكنها ليست هي، وفتحت الحقيبة العتيقة فوجدت فيها ثوباً عتيقاً ونعلاً بالياً، وهذا كل ما رأيته وسألت صاحب السيارة فلم يجبني بشيء يفيد وجلست على حجر هناك أنتظر وأنظر إلى سوء حظي، ولم تمض دقائق حتى بصرت برجل فقير مهلهل الثياب يحمل على رأسه عمامة خضراء مهترئة ويلبس جبة عتيقة ونظرت إليه فبصرت بحقيبتي بيده وركضت نحوه فابتسم لي وهو يقول: حلالك يا بني، وجننت من الفرح وأردت أن أعطيه شيئاً من المال ولكنه أبى، وسألت عن الفندق فدلوني على فندق «الشرق» في الشارع الرئيسي في البلدة وبجانب الدير العتيق، كما كانوا يسمونه.

في طريقي من حلب إلى دير الزور ركب إلى جانبي ضابط في قسم الصحة العسكرية، وكان مسناً، وكنت أسأله عن أسماء القرى التي مرت بنا وكلما سألته عن قرية كان يهز برأسه علامة الموافقة، ولكني بعد أن أمر بها أرى الاسم غير الذي وافق عليه، وتكرر هذا منه عدة مرات، وقبل أن أصل إلى دير الزور سألته: لِمَ كنت أسألك عن الأسماء وأنا مخطىء فيها فتوافقني مع أنك تعرف خطأي؟ فقال ضاحكاً: يا بني الطريق طويل والأسئلة كثيرة فأحببت أن أقتصر الحديث بقولة: نعم، بدلاً من النقاش الطويل معك والدنيا حر لا تحتمل ذلك، فضحكت وضحك، وصرت أراه فيما بعد فنتحدث ونضحك ونذكر هذه الحادثة المضحكة.

تذكرت بعض الأصحاب من الديريين كانوا معي في المدرسة الإنجيلية من مثل المرحوم عبدالقادر عياش صاحب المعجم الأثري وكذلك عبدالرزاق العايش، وتذكرت صديقاً قديماً لي هو المرحوم سالم اليافي الذي كان معلماً في الدير في تلك الفترة، وقد سألت عنه فجاءني إلى الفندق ورحب بي، وعرفني في الفندق على شخص طريف من «القبضايات» الدماشقة يلقب «الباشا» واسمه عبدالرؤوف الخطيب، وهو شاب ممشوق وسيم الوجه تدل هيئته على الشجاعة، كما كان ظريف النكتة؛ وكان في دير الزور أيضاً المحامي المعروف لطفي اليافي وهو قريب فوزي الغزي وشقيق زوجته. تعرفت إلى هؤلاء جميعاً وقضينا سهرة طريفة في بيت سالم اليافي. وفي هذه السهرة تذكرت قصة قديمة كان حدثني بها صديق لي من الظرفاء طرابلسي الأصل اسمه رشاد عوض، أو رشاد طبيعات، فقد كان صاحب اسمين؟ كان رشاد هذا رجلاً سميناً حلو الوجه خفيف الظل، وكان أول الأمر فقيراً يعمل في تشغيل السينما بأجرة لا تتعدى الليرتين أو الثلاث ليرات، ولكن الليرة كانت ذات قيمة كبيرة فهي تكفي العائلة الكبيرة ثلاثة أيام على الأقل، لأن أوقية اللحم كانت بفرنك واحد فقس على ذلك. ولكن وحين بدأت الحرب العالمية الثانية كان له بيت في شارع

عزمي بطرابلس، فباع البيت وفتح محلاً تجارياً واحتكر بضاعة كثيرة من الأقمشة وغيرها وارتفعت الأسعار بعد مدة ارتفاعاً جنونياً مع الحرب، وهكذا أصبح صاحبي من الأغنياء السوريين بين عشية وضحاها، والأرزاق والأعمار بيد الله كما يقال. كان هذا الرجل لطيفاً وظل لطيفاً وكريماً حتى بعد أن أصبح من الأغنياء لا كبعض الذين يغتنون بعد فقر، وكان لطرافته يدّعي بأنه محب وأنه متيّم كمجنون ليلى، كل هذا كان يقوله بصورة جادة تضحك الثكلى وكان اسم محبوبته «رينه» فكان يناديها باللهجة العربية الشعرية: «ريناه» وكان والد رينه هذه موظفاً في دائرة حكومية وكان بليداً وأصلع صلعة فظيعة، فخاطبها بهذا البيت الذي حسدناه عليه لحكمته ونكهته قال حضرته:

قومي على عرش الفؤاد تربعي   يا بنت مأمور النفوس الأقرع

وذهب هذا البيت مثلاً، وبقيت أشعارنا أنا وزاهي مخبأة في صفحات الجرائد. ويذكرني شعر صديقي رشاد هذا بقصيدة اشتهرت لزاهي اسمها «الكلسون» وقد نشرت رغم مجونها في مجلة «الصحافي التائه» التي كانت مشهورة هاتيك الأيام، وقصة هذه القصيدة جرت وكنت وإياه في مقهى طرطوس القديم أمام دار الحكومة وكان إلى جوار المقهى بناء كبير سكنت فيه عائلات فرنسية وخرجت واحدة من أحد البيوت فعلقت كلسوناً أحمر اللون على حبل موضوع على شرفة المنزل دون أن تلاحظ الجالسين في المقهى وكانوا كثيرين، فأنشأ زاهي هذه القصيدة يقول:

أي شيء هذا المضمخ بالنور النديّ العبير والخفقات
هو شيء الحسناء لست اسميه لبؤس التعبير بالكلمات

واشتهرت القصيدة أيضاً وكانت من الأحداث البارزة خلال إقامتي في طرطوس.

ذكرت هذا كله في دير الزور لأروي القصة الفاجعة التي حدثني بها رشاد صاحبي، وكم وددت لو أنه لم يذكر لي شيئاً منها فإنها قصة لا يصح أن تمر ببال أحد لغرابتها وشناعتها: قال رشاد: أحببت فتاة كانت تمر كل صباح من أمام دارنا وهي ذاهبة إلى المدرسة، وسبب معرفتي بها أنها مرت ذات يوم وكانت السماء تمطر مطراً غزيراً فتزحلقت الفتاة ووقعت محفظة كتبها، وكنت الاحظها، فركضت وأخذت المحفظة وأخرجت منديلاً من جيبي مسحت الطين عن المحفظة وأعطيتها إياها فابتسمت وشكرتني، وفي اليوم الثاني وقفت في نفس المكان الذي تمر قربه كعادتها فابتسمت إليّ وهكذا بعد ابتسامتين أو ثلاث بدأت تقف معي قليلاً، ثم تطور القليل فأصبح مدة دقائق وهكذا إلى أن فاتحتها بمرافقتي إلى مطعم من المطاعم ومن المطعم إلى المقهى، ثم طال الزمن فأصبحنا صديقين، وراحت هي التي تسأل عني في كل يوم وعلم أهلها بالأمر فثارت ثائرتهم وجاءوا إلى والدي يحدثونه بالأمر وجُنّ والدي فقرر نقلي من دراستي في طرابلس إلى حمص إلى المدرسة الإنجليزية المعروفة. وبدأت الفتاة تتصل بي بالرسائل البريدية وأحياناً بالهاتف من بيت إحدى رفيقاتها ثم وقعت الحادثة المشؤومة.

لقد اتفقنا أن تأتي إلى حمص وأن تعود باليوم نفسه إلى طرابلس وأن تجد حجة عند رفيقتها التي عرفت بقضيتها وكانت تساعدها في مواعيدها، وجاءت إلى «المرآب» وطلبت أن تذهب إلى حمص وتقدم منها أحد السائقين فركبت معه وليس في سيارته غيرها ولم تسأله لأنه أعلمها أن الركاب بانتظاره في مكان عينه لها، وصدقت المسكينة وسار السائق حتى وصل إلى ظاهر البلدة ومن هناك أطلق لسيارته العنان فصارت تنهب الأرض، ولم تفطن المسكينة للحيلة إلا بعد أن أصبحت في مكان خال وفي بيت نصف مهدّم في برية لا يسمع فيها صراخ ولا عويل ووجدت رجلين آخرين في البيت من قطاع الطريق أو من الأشقياء، وأقدم الرجال على الاعتداء على الفتاة بوحشية وظلت كذلك أياماً وأدركت المسكينة أن مصيرها قد تحدد وأن من المستحيل عودتها إلى أهلها، وتحدثت إلى الرجال فأخذوها واتخذوا التدابير كلها لإخفاء هويتها وإدخالها في بيت من البيوت المشبوهة إلى أن أدت بها الحال إلى أن تصل إلى دير الزور. ولقد ذهبت أنا وصديقي سالم إلى المكان الذي تعيش فيه فلقيتها وأبلغتها سلام رشاد ولكنها كانت في شبه غيبوبة فقد أدمنت المخدرات وأصبحت لا تكاد تعي ما تقول، أما رشاد فقد أحس بالجريمة التي كان سبباً فيها دون أن يقصد إلى شر، وخرجت مع صاحبي سالم من المكان والدمع ملء عيني كما

كان رشاد يبكي كلما ذكر هذه الحادثة التي لم يسع إليها، وإنما سعى القدر والظرف وطيش هـذه الفتاة المسكينة.

ذكرت هذه الأحداث كلها وأنا في دير الـزور. وفي اليوم الثـاني من إقامتي علمت أن عـدداً من رجال شرطة دمشق «التحري» قد أرسلـوا في وظيفة إلى الحسكة وقـد قضوا ليلـة في الديـر وكانـوا فيها سببـاً لمقاتلة جرت بين بعض الديريين والموظفين الدمـاشقة وكـان بطلها «البـاشا» الـذي أشرت إليه آنفـاً، ولم تعجبني الأخبار فتوجهت في اليوم الثاني إلى المرآب واتجهت إلى الحسكة.

وصلت عند الظهر إلى الحسكة ووقفت بي السيارة أمام دار الحكومة ذات اللون الأصفر الفاقع، وقد كان طول الطـريق مئة وخمسـين كيلو متـراً، وكان النهـار شامسـاً والحرارة أخـذت تؤثر في السـائرين، وصعدت لتوي إلى ديوان المحافظة فاستقبلني أحد الآذنين الدماشقة وقد عرفت ذلك من لهجتـه الشاميـة العتيقة، ووجدت في الديوان شخصين اثنين أحدهما سمـين أشيب ضخم الوجـه جهوري الصـوت حلبي الأصل واسمه «صبحي الدهني»، وكان ضارباً على الآلة الكاتبـة، والشخص الثاني الجـالس قبالتـه كان اسمه قاسم الدخيل وهو من أهل الميادين الواقعة إلى شرق دير الزور، وقد وجدت من الاثنين استقبـالاً لا بأس به، وخاصة من أخينا الحلبي الذي سألني عن اسمي وبلدي وشهـادتي، وفيما كنت جالساً دخـل رجل لم أره في حياتي، دخل وهو يقول بصوت عـال: أمس العصر طبيت ديرة سلميـة، وقد استغـربت أن يترنم بهذا الكلام وهو رجل بدوي ويذكر اسم سلمية، وكانت صدفة غـريبة حقـاً، وبعد قليـل انتقلت إلى لقـاء رئيس الديـوان وكان حـوراني الأصل، من بصرة ومن أسرة المقـداد المعروفـة واسمه سعيـد، ولكن مظهره كان بسيطاً وقد كـان لطيفاً حسن الاستقبـال كما كـان ابن المهنة، فهـو يعرف المعـاملات معـرفة جيدة، كان صبحي الدهني يضرب على الآلة ويبيض بعض الكتب وكان خطه رائعاً كأنه الـرسم المتقن ولا بدع فهو ابن المدرسة التركية وكان يتكلم هذه اللغة بطلاقة، أما قاسم الدخيل وهو من الميـادين كما قلت ومن عـائلة معـروفة قـديمة، وكـان كبير السن ويشكـو من ضعف كبير في عينيـه بحيث لم يكن يـرى إلا بصعوبة، وقد تولى هذا الرجـل تعليمي معامـلات الديـوان من واردة وصادرة كمـا حاول تعليمي قضـايا النفوس الهامة، وقد كنت غريباً عن هذه القضايا، فأنا مدرس ومعلم وهـذه مهنتي الأصلية التي لم أفـد منها شيئاً في عملي الجديد، ولم تمض ساعة حتى بصرت برجل أشيب يدخل الديـوان ويسلم علي سـلاماً ملؤه الشوق والاحترام وكأنه قريب من أقربائي، وكان اسمه ناشد الأتاسي وكنيته أبو زهدي وكان موظفاً في المالية وقد دعاني لنتدبر أمـر المنامـة وبحثنا عن غـرفة فلم نـوفق في اليوم الأول، واضطـررت للنوم في مكان يدعى الفندق وما هو إلا بناء خرب وأخطر ما فيه كان سلمه التي لا يصعد عليها العصفور لقدمهـا وانكسار خشبها ولكني مع ذلك نمت، وأخذ السيد الأتاسي محفظة نقودي خوفاً من السرقة فسررت لهـذه البادرة اللطيفة منه، وراح يسألني عن أقربائه مثل بـرهان وصـائب وفكري وروحي وصـدر الدين وبقيـة الأتاسيين من أصحابي ويبدو أنـه كان يسمـع بأخبـاري منهم. في اليوم الثـاني جاءني صـديق قديم لي ولأبناء عمي هو المرحوم «أكرم سلطان» وهو حموي الأصل ومن خريجي المدرسة الـزراعية، وقـد عرفتـه قديماً إذ كان رفيقاً لابن عمي الكبير «أحمد» الذي هـجر البلد إلى فرنسا مرافقاً لآغا خـان الزعيم الـديني لسلمية، وقضى حياتـه وتوفي في بـلاد الغربـة ودفن هناك في مقبـرة من مقابـر باريس بعـد أن عاش حتى الخامسة والثمـانين من عمـره. وأكرم هـذا اعتبرني ضيفـه، واعتبر نفسـه مسؤولاً عن تمويني وتـركيز أموري في البلد النائي، وكنت انتقلت من الفندق الخطير إلى غرفـة صاحبتهـا تدعى أم إسكنـدر وكان إلى جواري في غرفة أخرى شاب حلبي يدعى «كميل ناقوز»، وكان أجش الصوت فيه بساطة وميل كبير للسكر والصراخ فكانت حاله مضحكة جداً مع أنه كان موظفاً في الأشغال العامة، ولم ألبث أيامـاً في هذه الغـرفة حتى استأجرت بيتاً لا بأس به من بيوت البلدة وذلك بهمة أخينا أكرم سلطان الذي أشرت إليه، وفي اليوم الثاني يعرف به قد حمل إليّ تنكة من الجبن وأخرى من السمن وبعض الزيت والـزيتون وكـأني أريد أن افتتح مطعماً، واستغربت ذلك وطمأنني أنني أستطيع دفـع هذه النفقـة بالتقسيط، وكـانت في تلك الأيـام أشياء رخيصة وخاصة في تلك البلاد الكثـيرة الخيرات، وبعـد يوم أو يـومين دعـانا رجـل من آل الأتاسي

اسمه عبدالرزاق كان مديراً للمصرف الزراعي ودعا معي رجال الشرطة الدماشقة الذين أشرت إليهم وهم رجال كانوا معروفين في قسم التحرّي بدمشق، وكان رئيسهم مفوضاً يدعى خالد مهرات من الشرطة المحترمين أصحاب الحيلة والذكاء وقد سهرنا ومعنا ناشد صديقنا الأتاسي الآخر ووضع الشراب والطعام، وجئت في اليوم الثاني إلى الدائرة خائفاً من سمعة الشراب هذه وأنا ما زلت جديداً في حياة الوظيفة، وجلست إلى جوار زميلي صبحي الدهني فوجدته ثائراً يشتم كل إنسان يراه وأردت أن أطمئن، فسألته هل هنا في الدائرة أحد يتعاطى الشراب؟ ونظر إليّ مبتسماً وقال بلا خوف ولا وجل: أنا وكررت السؤال: ألنت تتعاطى الشراب؟ وقال: كل يوم، وقلت له: وأين تشرب؟ فقال: في كل مكان يعجبني، في البيت أو في المقهى، وإذا أردت فأنا مستعد للشراب حتى في الدائرة واطمأننت ودعاني يومها إلى سهرة معه في مقهى على نهر الخابور كان أصحابه من الأشوريين الذين انتقلوا من العراق إلى هذه المنطقة واستوطنوا في قرية قريبة اسمها تل تمر وما زالوا فيها حتى الآن. وذهبت وإياه عصارى النهار للسهر وأخذنا نتعاطى ما فيه النصيب، وكنت شاباً بالقياس إليه فشرب بشهية واستغربت شربه وأخذت أرى ملامحه تتغير شيئاً فشيئاً، وبدا وجهه يربدّ قليلاً قليلاً، ثم سكت هنيهة وفاجأني رأساً بشتيمة المحافظ وقمت من مكاني كمن لسع بشيء حامي، وقلت له: اخفض صوتك لئلا يسمعنا أحد، فازداد صياحاً وشتيمة، وكان السبب أن له ابنة صغيرة ماتت منذ أيام وقد تقدم للمحافظ بطلب النقل من الحسكة ولكن المحافظ رفض طلبه، وتذكر بعد أن شرب كل ذلك فثارت ثائرته ولكنه صمت بعد أن هددته بالهرب من المقهى، وبعد قليل سمعنا صوت غناء جميل قريب منا، فالتفت فلم أجد أحداً سوى رجل في هيئة بدوية يلبس العقال والكوفية ويلبس نعلاً تركه إلى جانبه وظل حافي القدمين، ووجدت أمامه مائدة من الشراب عامرة وكان يغني:

ذكرتني تلك الطلول البوالي   أسفاً دائماً وحزناً طويلا

وقلنا أنا ورفيقي إذا انتقلنا إلى جانبه، وكان وحيداً، فربما تسلينا، وكذلك فعلنا فرحب بنا الرجل وعلمنا منه أنه عراقي ومن الموصل واسمه «أحمد نعلبند» وهو تاجر مواشي يجلبها من العراق وإيران ويسافر بها إلى مصر وعبر منطقة الجزيرة وانتهت سهرتنا ودعوت الرجل إلى بيتي فوعدني خيراً، وقمت أنا وصبحي فذهبت إلى بيتي بعد أن أوصلته وهو يترنح سكراً إلى داره. وشتائمه الفظيعة لم تبرح بالي، وكيف يشتم المحافظ وأنا لم يصدق قرار تعييني بعد؟ إنها لمشكلة أقلقتني، ونزعت عني ثيابي وأردت النوم ولكني سمعت قرقعة على جدار غرفتي وصوتاً أشبه بصوت المطرقة وسمعت صوتا يناديني: قم يا أحمد قمت وأنا لا أدري من الطارق ولكني شاهدت صاحبي صبحي الدهني قد شهر سيفاً، لا أدري من أين حصل عليه، ورأيته يشتم المحافظ والحكومة ورئيس الديوان الذي كان يحبه ويحترمه وأمرني بأن أمشي، ولقد خفت أن يزداد جنوناً فتبعته وأنا لا أدري إلى أين، ووصل إلى بيت لم أعرف من هو صاحبه وأخذ يطرق الباب والساعة قريبة من الثالثة صباحاً، وبعد قليل رأيت رئيس الديوان يخرج بلباس النوم فانخلع قلبي خوفاً ولكني وجدت المسكين يضحك ويحدث صاحبي ويهدىء من ثورته ثم صرفه وانصرفت معه وأوصلته ثانية إلى بيته وذهبت إلى النوم ولكن عينيّ لم تغمضا ليلتها، وقمت في الصباح الباكر لأذهب إلى الدائرة وأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، وحين وصلت لم أكلم صاحبي الدهني ولكني وجدته يضحك ملء شدقيه وكأنه لم يفعل شيئاً، ودخلت على رئيس الديوان أعتذر له وأؤكد أنني بريء مما جرى، واستغربت أن أراه يبتسم ويضحك بعد قليل ويقول لي: لا بأس نحن معتادون على فصول صاحبك الدهني فلا تهتم؟

ورجعت إلى كتبي في الديوان وقد هدأ روعي، وكانت تلك الليلة فاتحة صداقة طويلة عريضة بيني وبين هذا الرجل الغريب الأطوار الذي كان رغم جهله كل شيء إلا الخط الجميل جريئاً يدين بمبدأ الشجاعة والشراسة، ولكنه ظريف طريف وكريم إلى أبعد الحدود. وكانت عائلته تتألف منه ومن خالته ـ زوجة أبيه ـ وهي أرمنية الأصل ومن زوجته وهي من عائلة معروفة في حلب وكان له ولد اسمه غسان هو مريض الآن ـ عافاه الله ـ وولد آخر ضابط في الجيش وقد توفي هذا الصديق منذ سنين قليلة بعد أن شارف على الثمانين من عمره وبعد أن تاب وأناب حتى لقد رأيته يصلي حين التقيت به في حلب قبل

وفاته، وحين قام للصلاة عند الآذان انفجرت ضاحكاً ونظر إليّ مبتسماً وقال: لكل زمان دولة ورجال.

بعد أيام من وصولي إلى الحسكة دعاني صديقي أكرم سلطان الذي ذكرته آنفاً إلى جلسة في بيت أحد أصدقائه واسمه نور الدين جركس، وكان موظفاً في الأشغال العامة ولكنه كان جاهلاً غير متعلم سوى أنه كان ذا خط جميل جداً، والخط الجميل صفة من صفات الموظفين القدماء من العهد التركي، لأن الأتراك كانت لهم عناية خاصة بهذا الفن، وفي استامبول شاهدت منذ سنين قليلة متحفاً للخط العربي لم أجد مثله في العالم، وقد اشتهر من الخطاطين الأتراك رجال دخلوا في التاريخ منهم: سسا، وحافظ، وفي دمشق كان من تلامذة هؤلاء بدوي، الخطاط الشهير، وأستاذه ممدوح، الذي كان أشهر منه.

ذهبت إلى الغداء في حديقة دار نور الدين هذا وكان الحاضرون هو ومعه شاب أسود اللون اسمه عبدالله الجراح، وكان مأموراً للمصرف الزراعي بعد أن انتقل السيد عبدالرزاق الأتاسي الذي أشرت إليه آنفاً، كما كان معنا أكرم سلطان ورجل من دير الزور من آل «الحوكان»، ولقد شربنا مع الغداء وتغذينا من الدجاج المحشو، وكان هذا الحفل العابر مفتاح صداقة دائمة بيني وبين نور الدين جركس هذا وعبدالله الجراح، أما نور الدين فقد كانت لهجته تركية وكان لا يقيم الجملة العربية كما ينبغي، ومن الغريب أن هذا الرجل كان متزوجاً من امرأة تركية الأصل قال لي إنها خالتها للمرأة التي تزوجها مصطفى كمال رئيس الجمهورية التركية وطلقها، واسمها «لطيفة هانم»، وكان مديره في الأشغال العامة رجلاً أرمنياً اسمه «سيمونيان»، وكانت بين الاثنين خصومة دائمة لا تنتهي، فسيمونيان هذا كان يتكلم الفرنسية مع قليل من العربية وكانت له صداقة مع الفرنسيين هناك، وهذا كان من أسباب العداء بينهما لأن نور الدين كان يخافه. أما الشخص الثاني الذي تعرفت عليه في ذلك الغداء فقد كان عبدالله الجراح الذي كان أعجوبة من الأعاجيب، وقد دامت صداقتي معه إلى أن توفي في حماه منذ سنوات، رحمه الله.

والد عبدالله طبيب تركي الأصل عاش في حماه فترة طويلة وتوفي فيها، أما أمه فسرّية سوداء كانت في استامبول وقد ظلت حياتها كلها لا تتقن العربية وأصلها من الحجاز كما قيل لي، وكانت امرأة صالحة وقد وَلَدت ولدين عبدالله وأخاه الذي ما يزال حياً، كما ولدت ابنتين كما أذكر، وكان هذا الرجل رغم سواده الأفريقي الكامل ظريفاً صاحب نكتة يحب الضحك والمزاح، كما كان جميل الخط يتكلم التركية كالأتراك وكان متناقضاً في حياته، فقد كان ذكياً في بعض الأمور، لا بل كان خبيثاً أحياناً، ولكنه كان مغفَّلاً حين يتعرض لمشكلة عاطفية، فقد كان ميالاً للمغامرات العاطفية ولكنه من جهة أخرى كان ديّناً يكاد لا يترك وقتاً من أوقات الصلاة، وكان غير متعلم ولكنه يحب أن يدس أنفه في قضايا العلم فيفشل، ورغم بعده عن الجمال المعروف في بلادنا فقد كان أنيقاً يلبس جيداً ويبدو نظيفاً جداً في مأكله ومشربه، وكان كريماً لا يخلو من الضيوف، ولكنه كان يحب النكتة ويعمد إليها ويوفق فيها أحياناً كثيرة، وإن كان كثير الخطأ في وظيفته فقد تعرض مرات للتفتيش والتسريح والعقوبات المسلكية حتى وصل إلى التوقيف والحبس، كل ذلك بسبب علاقات عاطفية غير معقولة ولا مقبولة فحين يحب إنساناً يصبح مغفّلاً كالسكران يوقع نفسه في أخطاء خطيرة لا يقدم عليها إلا الحمقى والمغفلون، ولكن معشره كان ظريفاً، فهو يجيد الحديث ويجيد تمثيل القصص التي يرويها فلا يملّ الإنسان من حديثه، وإذا دخلت مكتبه أو منزله أعجبت بترتيبه ونظامه فهو لا يطيق الفوضى ولا البلبلة. وكان يرأف بأمه وأخواته حتى آخر لحظة وكنت أحرص على مرافقته في أحلك الظروف التي سأحدثك بها والتي مرت بي في مدينة الحسكة.

كانت الحسكة في تلك الأيام أشبه بالقِدر الغالية، فقد أراد الفرنسيون شراً بالسوريين بعد المعاهدة التي اتفق عليها الجانبان وصدق عليها البرلمان السوري وأحجم البرلمان الفرنسي عن تصديقها لأنه نكل عنها وهو لا يريد أن يتزحزح من سوريا. وعمد إلى طريقة جديدة في الدس والأذى وذلك بأن أثار المناطق النائية عن العاصمة كاللاذقية وجبل الدروز والجزيرة وأراد قلب الحكم الكتلوي ـ نسبة للكتلة الوطنية ـ الحزب الوحيد المسؤول في البلاد والذي كان يمثل الجانب السوري في مفاوضات المعاهدة في باريس.

فقد قامت في اللاذقية حكومة يرئسها شوكت العباس، وقامت في جبل الدروز حكومة يرئسها أحد أمراء آل الأطرش وكلتاهما تطالبان بالانفصال عن سورية، وقد عمدتا إلى طرد الموظفين السوريين إحراجاً

للحكومة المركزية، أما في الجزيرة فكانت القضية أعقد وأشد سوءاً.

كان سكان الجزيرة يتألفون من أقسام عدة من الأتراك، ومنهم البدو وتمثلهم قبائل شمر والجبور وطيء، وكان المسيحيون وأهم فرقهم السريان الكاثوليك والسريان القديم «الأرثوذكس»، ثم هناك الأشوريون الذين كانوا في منطقة «تل تمر»، كما أسلفت، والذين نزحوا من العراق بعد أن ضربهم العراقيون ضربة قاسية على إثر ثورة قاموا بها، فلما جاءوا إلى سوريا التزموا جانب الحياد ولم يتحركوا ضد الدولة السورية بعد أن خذلهم الإنكليز في العراق ولم يعادوا بعد كارثتهم لأنهم اتفقوا مع الحكومة العراقية على البقاء في الجزيرة، وفي تلك الأثناء ظهرت في حلب والجزيرة حركة تسمى «الشارة البيضاء»، وهي حركة مسيحية متعصبة، أوجدها الفرنسيون ضد السوريين جميعاً، ومن أجل تنفيذ غايتهم في إفشال المعاهدة وإبطالها. وقد قامت بحركات مناوئة للحكومة في حلب وقضت عليها الحكومة السورية ولم يشترك الفرنسيون في إخمادها مما دل على أن الفرنسيين هم الذين خلقوا هذه الحركة.

كان في الحسكة طبيب من عائلة معروفة هي عائلة «الصلح» التي منها الزعيم اللبناني رياض الصلح وأبناء عمه تقي الدين الصلح وكاظم الصلح وعادل الصلح محافظ بيروت السابق، وكان الطبيب وطنياً فكرهه الفرنسيون والأهلون المعارضون وبخاصة السريان الكاثوليك الذين كان يقودهم مطران شهير هو «المطران حبّي» الذي تزعم الحركة المناوئة للحكومة السورية والذي كان متصلاً بالكاردينال «تبّوني» المقيم في بيروت والذي كان مشاركاً للاستخبارات الفرنسية في إيجاد الحركات المقاومة للحكم السوري والكتلوي. وفي ليلة من الليالي هاجم الدكتور روحي نفر لم يعرف تماماً ولم تعرف هوية أفراده فقتلوه هو وزوجته وولد صغير هو ابن أخت زوجته، وفي اليوم الثاني وجد الثلاثة مضروبين بالخناجر والحراب والسكاكين وقد فارقوا الحياة، وقد اتُّهم يومها رجل مجرم اسمه «السرجان ميشيل»، فقد شوهدت يده مربوطة وجريحة في اليوم الثاني، فحامت الشبهة حوله وسعى الفرنسيون بكل قوة لدفن الجريمة وحالوا دون سير التحقيق الصريح الواضح، وميشيل هذا من فئة تدعى «الطوخلركي» وهم، كما يقال من الأكراد المسيحيين المتعصبين ضد العرب والإسلام.

هذا التعصب المسيحي في تلك المنطقة له سبب، فقد يذكر القارىء ما قام به الأتراك ضد الأرمن وكيف قضوا على قسم كبير منهم، وأقدم الأتراك يومها على طرد الكثير من المسيحيين من جهة ماردين وما حواليها من القرى والمدن، فهاجر هؤلاء إلى الجزيرة وعمروا بلدة الحسكة وبعدها بلدة القامشلي واستوطنوا فيهما وفي القرى التي حواليهما، وحين نزحوا لقيهم البدو والرحل فاعتدوا عليهم وسلبوهم وقتلوا منهم كما يدّعي هؤلاء لذلك نقموا على العرب والإسلام، وقد أدركت هذا الشيء حين كنت في الجزيرة ولم يكونوا يخفون كرههم هذا، بل ويصارحون العرب به بعد أن أمنوا بواسطة الفرنسيين.

وكانت هذه هي حالة الجزيرة حين وصلت إليها، جريمة ترتكب علناً فلا يدافع عنها أحد، وتصريحات وتحديات من قبل الأهلين المسيحيين الذين ضموا إليهم قسماً من الأكراد والبدو إلى جانبهم، حتى أن أحدهم وكان ملاحقاً من الحكومة، تحدى الحكومة مرة مع رجاله وجاء إلى المقهى فأخبر رجال الدرك بذلك فذهبت مفرزة منهم لإلقاء القبض عليه وعلى رأسهم رئيس من آل الأتاسي وحين طلب إليه أن يسلم نفسه أطلق المجرم الرصاص على الضابط الدركي فقتله، وقد قتل هذا الرجل فيما بعد واسمه «نواف الحسن»، قتله رجال الدرك بعد مدة من الزمن.

في تلك الوهلة وقبل تعييني عين المحافظ الأمير بهجت الشهابي محافظاً وهو خريج معهد الحقوق في استامبول قبل الحرب العالمية الأولى، وكان ذا شهرة في المحاماة وغيرها ولكن شهرته لم تكن تتناسب معه. فقد كان رجلاً بسيطاً جداً، ولم تعرف له مواقف في المحاماة مشهورة وكان القائم بمكتبه في حقيقة الأمر هو المحامي الذكي العالم المرحوم محمد الجيرودي صديقنا القديم الذي توفي منذ سنتين (١٩٨٧)، وقد كان هذا الرجل الأمير بهجت مشبعاً بالوطنية الصادقة وكان لا يدين بالسياسة على حساب وطنيته ولا بالإدارة، ولم يكن درس الحالة في الجزيرة، وكان خطأً كبيراً أن يعين في منطقة حرجة كالجزيرة تحتاج إلى دهاء وسياسة وخبرة كبيرة. وجاء إلى الحسكة وكأن مهمته كانت أن يجعل السكان جميعاً من

الوطنيين برمشة عين، فلم يسر على سياسة التفاهم ولا المحادثة ولا حاول أن يدرس الوضع أو يستشير أحداً، وجاءه المطران حبي فلم يستقبله لأنه كان يعرف خيانته وتآمره، وجاءه الزعيم الكردي حاجو آغا فأهمل لقاءه وأساء مقابلته، وكذلك صنع مع أكثر الزعماء من المعارضين الخطرين فتأزمت الأمور، وراحت الشكاوى والبرقيات تتوالى، ووجد الفرنسيون الطريق إلى التدخل والدس والتآمر، وبدأت الاجتماعات السرية التي كان يرأسها قائد المخابرات الفرنسية في المفوضية العليا في بيروت، القومندان «بوشو»، وكنت أسمع لغطاً وأنا في المطعم والمقهى والطريق، كما كنت أسمع انتقادات مريرة للحكم الوطني الذي لم يراعِ الحالة الراهنة في منطقة أكثر سكانها من المهاجرين الموتورين من الحكم التركي الإسلامي ـ في نظرهم ـ وأخذت الاعتداءات الفردية تتكرر، وراح بعض المنافقين الوطنيين يتقربون من المحافظ ويثيرونه على الأهلين، وراح الأهلون يعلمون هذا كله من المستشار وتراجمته الذين كانوا يقومون بدور الجاسوسية بين الأهلين وعلى الحكومة الوطنية إلى أن اندلعت الثورة الجائحة.

كنت أحضرت والدتي وشقيقي إلى الحسكة بعد سفر طويل من السلمية إلى الحسكة، وقد هدأنا واستقرينا في بيتنا الجديد، وكان يزورنا صديقنا محمد العالم الذي عين في تلك الأثناء مهندساً للمحافظة بدلاً من الأرمني الذي سرح في العهد الوطني «سيمونيان» الذي مر ذكره آنفاً كما كان يزورنا منير سليمان ورشاد عيسى الذي كان يأتي من رأس العين، حيث كان يعمل مديراً لهذه الناحية. وبتاريخ ٣ تموز ١٩٣٧ أفقنا في الصباح الباكر على لعلعة الرصاص، وكنت قائماً فجاءت الوالدة ـ رحمها الله ـ تنذرني بحدوث شيء غريب فجئت إلى دار الحكومة قبل وقت الدوام لأشاهد البلدة مغلقة الدكاكين، ولأرى عدداً كبيراً من جنود الدرك يرئسهم المساعد الأول الشجاع سليمان سامي وهو من أصل داغستاني ومن قرية دير فول المعروفة قرب الرستن والتي مر حديثها في هذه المذكرات، ورأيت قائد الدرك العقيد عبدالغني القضماني ومعاونه المقدم حسني البحرة وكلهم في حالة استعداد، وأمر القضماني سليمان سامي مع عشرة من الجنود أن يقتحموا البلدة ويكشفوا هذه المؤامرة المفاجأة، وكأنهم لم يكونوا على علم بشيء مما حدث أو مما سيحدث ودخلت الدورية وما كادت تتوسط البلدة حتى هوجمت بالرصاص من سطوح المنازل ومن نوافذ البيوت، فقتل على الفور سليمان سامي وقتل معه دركي مسيحي من أصل إنطاكي هو المرحوم سليم ورد، أما محمد الوقاع الدركي البطل وهو من الميادين فقد قاوم بالرصاص ولجأ إلى مرآب هناك وظل يقاوم إلى أن نفد منه الرصاص فقتل، وقد اتهم بمقتله رجل اسمه عبدالمسيح أو «عمسيح» كما كانوا يلفظونه في الجزيرة، وكان هذا الرجل سائق سيارة المستشار الفرنسي آنئذ واسمه «الكابتن توما». وقد حدثني يوماً من رأى المطران «حبّي» يطلق الرصاص على دار الحكومة وعلى رجال الدرك وهو واقف بباب كنيسته فذكرت قول شوقي في سالف الأيام.

عيسى سبيلك رحمة ومحبة ... للعالمين وعصمة وسلام

أو قوله يوم خاطب الجنرال اللنبي غازي القدس:

يا حامل السيف خلِّ السيف ناحية ... ليس الصليب حديداً كان بل خشبا

كانت الحادثة فظيعة وقد أحرج الموظفون خاصة، كما أحرج رجال الشرطة الذين حاصرهم الأهلون في مخفرهم وكادوا يقتلونهم، وقد ظهرت نقمة الأهلين بشكل واضح وبلا مواربة وظهر كرههم علناً دون خوف، وكان ذلك طبعاً بتشجيع الفرنسيين، الذي لم يكن خافياً.

أما زعماء هذه الحركة الغربية، فكان أكثرهم من طائفة السريان الكاثوليك، كما قلنا، وأبرزهم كان إلياس مرشو واسمه المفصل كما يعرفه أهل تلك البلاد «مقسي إلياس مرشو»، ومقسي هنا معناها مقدسي أي الحاج، وكان طويلاً من الرجال تلوح عليه علامات الرجولة وكان يلبس اللباس الكردي والعمامة المعروفة المطرزة، ولكنه لم يكن ذكياً في دنيا السياسة فهو رجل عملي يقوم بما يكلف به بلا خوف ولا وجل، أما الزعيم الثاني «بحدى قريو» واسمه الصحيح «عبدالأحد كرياكوس»، وكان فيما مضى فرّاناً، ورُوي لي أنه كان يدور على بيوت الموظفين ليأخذ ما عندهم من الطعام ليصنعه في فرنه، وحين رأيته كان يلبس البزة الفرنجية والطربوش، وكانت تبدو عليه مخايل الدس والتآمر وكان مقامراً من الدرجة الأولى،

وكان إلياس مرشو اليد المنفذة، بينما كان عبدالأحد هذا المدبّر والدساس وصاحب اللسان الحلو الذي ينطف سماً ناقعاً كما قيل قديماً:

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ولم أجد في حياتي إنساناً ينطبق عليه محتوى هذا البيت مثل هذا الرجل، حتى إن شكل وجهه كان أشبه بشكل وجه الثعلب، وكان لبقاً في الحديث وصاحب نكتة ولكنك لا تستطيع مهما تكن ذكياً أن تعرف صدقه من كذبه.

كان يعاون هذين الزعيمين رجل اسمه ميشيل دوم، ولكنه كان مقيماً في القامشلي وكان يعرف اللغة الفرنسية، حتى لقد عمل مرة ترجماناً للعسكريين هناك، ثم أصبح فيما بعد رئيساً لبلدية القامشلي، كما كان بحدي قريو رئيساً لبلدية الحسكة، وكان هناك رجل اسمه داوود شماس وكان خالاً لميشيل دوم كما كان هذا الرجل يتقن عدداً من اللغات منها الفرنسية والأرمنية والكردية والتركية وربما عرف الأشورية، وكان دمثاً يحب المزاح وكثيراً ما كان يرائي فينتقد أعمال جماعته ولكنه كان انتقاداً غير صحيح، فقد كان على رأس المدبّرين لأنه كان على صلة تامة مع الفرنسيين، وكان هناك بعض من المتقدمين بالسن الذين يؤخذ رأيهم من بعيد ومنهم: إسكندر عامون، وإسكندر مرشو، وأندراوس، وفرجو نعمة، والقس لويس الذي كان رجل دين، أما من الأكراد فقد كان متفقاً معهم نواف الحسن الذي أتيت على ذكره والذي قتل رجل الدرك ثم قُتل فيما بعد، وأما حاجو آغا فقد كان كردياً مثلهما ولكنه لم يكن ضالعاً بهذه المؤامرة بل كان حيادياً، ولكنه لم يكن يستطيع المجاهرة بعداء الفرنسيين لأنه كان يخشى أن يسلموه للأتراك وهو محكوم بالإعدام في تركيا. وكان من المتعاونين مع الثوار في القامشلي آل جانا وملكي أسمر، كما كان في رأس العين رجل من اللؤماء المشهورين ضد العروبة والعرب وهو حبيب مريمو الذي استغل السياسة الفرنسية وأصبح فيما بعد غنياً مشهوراً، كما كان في بلدة الدرباسية رجل يسمى نعيم قره زيوان، وكان أيضاً من المشتركين في الشغب، وفي الحسكة كان رجل يُظن أنه أرمني الأصل له ضلع كبير في الحركات، وكان ذكياً وخبيثاً ظاهر الخبث واسمه: جميل ديلنجي الذي هجر الحسكة فيما بعد ولجأ إلى حلب. ومن البدو كان شيخ طي واسمه محمد بن عبدالرحمن وكان أعرج ولكنه كان من أسوأ الناس معاملة للموظفين ورجال الحكم الوطني، بينما كان زميله في العشيرة عبدالرزاق الحسو من الوطنيين المشهود لهم، وكان مجاهراً في العداء للفرنسيين ومن الجبور كان من الوطنيين شيخ العشيرة جميل المسلط.

لقد عرفت هؤلاء جميعاً عن كثب بحكم عملي أميناً لسر المحافظ، وكنت أسطر التقارير اللازمة إلى الوزارة وأكتب البرقيات، ولكن الحكومة المركزية لم تكن تعرف الشيء الكثير مع الأسف الشديد عما يجري في الجزيرة وكأنها كانت لا تصدق بما يكتب لها في التقارير الرسمية، حتى إن البرقيات الرقمية «الشيفرة»، كان الفرنسيون يطلعون عليها قبل أن تصل إلى الوزارة لأن البرقيات كانت ترسل باللاسلكي وعن طريق الجيش الفرنسي في الحسكة الذي كان يطلع على كل شيء رغم أنوفنا، وفي اليوم الخامس من شهر تموز ١٩٣٧ اندلع الرصاص مرة أخرى ووقعت أحداث جديدة ولكنها لم تكن دامية بالمقدار الذي حدث بتاريخ ٣ تموز ١٩٣٧.

حين استؤنف إطلاق الرصاص واضطربت الأحوال وضاع الأمن، وترك المحافظ البلدة وذهب إلى دمشق لا يلوي على شيء، بقينا في دار الحكومة، أضيَع من الأيتام في مأدبة اللئام، لقد قدرت أول الأمر أن القضية ستنتهي عند هذا الحد ولكن الشغب ظل مستمراً، فطوراً يُضرب شرطي وحيناً يعتدى على أحد الموظفين وأنا يُعتدى على أحد الديريين القاطنين في الحسكة والذين كانوا أشد الناس كرهاً من قبل أولئك المشاغبين، وقلت: من الأفضل أن أبعث بوالدتي وأخي إلى دير الزور لكي تبقى هناك مدة من الزمن تعود بعدها وبعد أن تهدأ الحالة وبالفعل لقد ودعت والدتي وبكيت لهذا الحظ السيىء الذي أصاب هذه العائلة ونزلت والدتي ضيفة عند عائلة من سلمية لا أذكر اسمها الآن، ولكنها كانت عائلة مهذبة مضيافة سرّت والدتي بالإقامة عندهم، وبعد ما يقرب من شهر عادت والدتي ولكن الحالة لم تهدأ وقد كنا جميعاً

في خطر داهم، وعلى ذلك قررت إعادتها إلى سلمية بعد أن تستريح أياماً وهكذا كان، لقد غادرت الحسكة دون أن تتذوق العيش الهنيء معي، وكانت رحلة متعبة مرهقة لها وقد تجاوزت الستين من عمرها. ذهبت والدتي وأخي وبقيت وحدي فصار من الصعب عليّ أن أبقى بالبيت وحدي، ولذلك قررت الانتقال إلى غرفة عند جماعة ذكرت لي.

تركت البيت الذي استأجرته حين أحضرت الوالدة فقد كان في منتصف البلدة وقد أصبح الوضع خطيراً ولست آمن على نفسي أن أعيش في بيئة تكرهني وتكره أصلي، وعلمت أن هناك رجلاً من الدراويش يعمل صائغاً واسمه «سمعان الصائغ» وأن عنده مكاناً في بيته يمكن أن يؤجره والمكان مقابل دار الحكومة وقريب منها، وعلمت أنه مدمن على الشراب ولكنه إدمان لايسيىءفهو مهذب ومن عائلة كما يحب الطعام الجيد، ولكنه فقير وعنده عدد من الأولاد أكبرهم اسمه «يعقوب»، وامرأته من عائلة معروفة بين جماعتها فهي من آل «الفصعة» واسمها «وردانة»، والمكان المعد للإيجار عندهم يتألف من غرفة كبيرة متصلة بإيوان وراء غرفة صغيرة يمكن أن تستعمل مستودعاً أو مكاناً للاستضافة لمن يفد إلى البلدة من أصحابي أو أبناء سلمية الأصدقاء. وسرعان ما اتفقت معه، وكانت قد بقيت لي أشياء لفرش البيت مما تركته الوالدة بعد سفرها، فاتفقت معه حالاً وانتقلت إلى البيت فوجدت نفسي في راحة وأمن كما وجدت من جيرة هذه العائلة إطمئناناً، ولم يأت الليل حتى وجدت صاحب البيت يدعوني للسهر عنده وذهبت فعلاً وقلت: أتسلّى، فإذا به قد هيأ نفسه لاستقبالي ووجدت أمامه كأسين فعلمت أن واحداً له والآخر لي، وضحكت ثم سألته، هذه الكأس لمن؟ فقال: لمن؟ هذه لك، ألا تشرب؟ قلت لقد هيأت نفسك ومن أدراك انني أشرب؟ قال: وهل في الدنيا عاقل لا يشرب، وضحكت لهذه الفلسفة الارتجالية من هذا الرجل العامي وأصبح الرجل صديقاً لي من اليوم الأول، وكانت امرأته كريمة، وهو أيضاً وأصحاب الشراب أكثرهم من الكرماء كما أن امرأته تجيد الطبخ، وفي تلك البلدة، وعند أهل ماردين والمنطقة المجاورة لها أنواع من المآكل لا نعرفها نحن أبناء هذه المناطق في سوريا الوسطى. من هذه المآكل ما يسمونه «فيرغاية» وهي الضلعة المحشوة والكتل، وهي أنواع من الكبة المسلوقة، والشرادين وهي نوع من القديد «الباسطرما» يشوى فيؤكل لذيذاً، وكنت أشارك أهل البيت في هذه المآكل وأساهم بكلفتها ثم أسهر أكثر الليالي عندهم، إلا إذا جاءهم غريب لا يلائمني، واتخذت هذه المرأة مني أخاً أو ولداً، فكانت تقوم بما يلزمني من غسيل وكيّ وتنظيف وصنع قهوة أو شاي وربما عُنيت بي إذا رأتني مريضاً موعوكاً.

حين خلت الديار وذهب المحافظ ثم قائد الدرك القضماني ومعاونه، إذ كانت لهؤلاء مدة يقضونها في هذه المحافظات البعيدة، فإذا انتهت نقلوا إلى جهة أخرى، وقد فكرت الحكومة المركزية بإرسال محافظ جديد للحسكة بدلاً من الأمير بهجت فوجدت رجلاً إدارياً كان مشهوراً هاتيك الأيام، وكان وزيراً سابقاً هو الأستاذ توفيق شامية. والأستاذ شامية شامي فعلاً وهو مسيحي من طائفة الروم الأرثوذكس ومن أعرق العائلات الدمشقية بين المسيحيين، وهو صاحب الدار الكبيرة التي كانت مستأجرة مدرسة كبيرة لطائفة العازارية في باب توما الحي المسيحي المعروف. كان توفيق شامية عالماً يتقن أربع لغات إتقاناً تاماً، العربية والفرنسية والإنكليزية والتركية، وكان اختير محافظاً لدير الزور منذ سنين عديدة وقد بقي فيها قرابة سبع سنوات. وجاء شامية محافظاً إلى الحسكة فرحبنا به كما كان تغير رئيس الديوان السيد المقداد وجاء مكانه السيد حامد العامري، وهو صديق ورفيق قديم ومن سني وما زال هذا الصديق يعمل إلى الآن موظفاً في القصر الجمهوري، لأنه يتقن اللغة الفرنسية ويعرف اللغة العربية بما فيه الكفاية، وهو يحمل شهادة الحقوق من الكلية اليسوعية في بيروت، كما كان والده موظفاً كبيراً في المعارف ثم أصبح في أخريات أيامه مديراً للعشائر والعائلة حورانية الأصل ومن قرية «جاسم» الشهيرة التي ينسب إليها أبو تمام الشاعر المعروف. كان محافظنا الجديد طوالاً من الرجال، أشيب، وسيم الوجه، شديد البياض، أنيق الملبس، وكان مبجلاً محترماً من كل الناس إذ كان وزيراً سابقاً للأشغال ولوزارة أخرى، كما كان موظفاً كبيراً في عهد الملكية بزمن الملك فيصل، فكان يمثل الجانب الآخر من الجناح المسيحي في العاصمة. وقد حاول جهده أن يسوي الأمور بين الحكومة السورية وأهل الجزيرة، ولكنه لم يستطع، فقد

كان الفرنسيون غير صادقين مع الحكومة وكانوا يريدون عرقلة الحياة النيابية والاتفاقيات السياسية وخاصة المعاهدة التي كانت شوكة في ظهرهم ولم يكونوا يريدون الاتفاق مع السوريين لأنهم لا يريدون التنازل عن أي حق من حقوقهم الاستعمارية التي تهدف إلى السيطرة على البلاد سيطرة تامة. وذهب المحافظ في زيارة إلى القامشلي للبحث مع أهل هذه البلدة من المتطرفين، وأقام حفلة غداء على شرف المتحدثين باسم البلدة هناك في فندق شهير هو فندق «معمار باشي»، ولكن نفراً من السياسيين أرسلوا ناساً إلى الفندق فقلبوا الطناجر ورموا الطعام ولم تحدث الدعوة ولا الوليمة وكنت أقوم بالإنشاء في الديوان مع حامد العامري رئيس الديوان، وفي مرة كتبت كتاباً فأعيد الكتاب إليّ ممزقاً فغضبت لهذا التصرف من الأستاذ حامد وذهبت إليه أسأله؟ فقال لي: إنه لم يعجبني، فقلت له ولكن هذه الطريقة لا تصلح في التعامل وناقشني في كلمة وجدها مغلوطة لغوياً وقلت له: إن الكلمة صحيحة وأنت المخطىء وذهبنا سوية إلى المحافظ نستطلع رأيه فكان الحق بجانبي، ومنذ ذلك الحين أصبح أكثر إيماناً بما أكتب له، لقد سوي الخلاف بيني وبينه، ولكن الخلاف الذي لم يسو كان بينه وبين صاحبي صبحي الدهني، فقد كره أحدهما الآخر دون سبب، وفي مرة دخل السيد حامد غرفتنا وهو غاضب واشتبك مع صبحي الدهني في عراك فقد ضرب أحدهما الآخر، وقمت بينهما مع بقية الموظفين حتى فرقناهما وكانت حادثة مضحكة مؤلمة في آن واحد.

بعد أيام وجد الأستاذ شامية أن القضية أعقد مما تظن الحكومة، فذهب إلى دمشق ليطلع المسؤولين على الحالة بصراحة لتتخذ التدابير اللازمة لوضع حد لهذا الوضع المضطرب، وحين عودته بعد أيام أبلغنا في المحافظة أن المحافظ اختطف في الطريق، وكان هذا الخبر صحيحاً وقد أبلغناه عن طريق قائد الدرك الذي كان يومها القائد المعروف «هرانت بيك» وهو عسكري مشهور أرمني الأصل ومن المعتمدين عند الحكومة السورية. وراحت الحكومة تبحث عن المحافظ فلا تجده وحاولنا الاتصال بأهل البلدة، فأنكروا كلهم أن يكون لهم علم بالأمر وكانت هذه اللعبة من عمل الفرنسيين طبعاً، إذ كان المستشار يومها من أسوأ المستشارين واسمه «الكابتن ماير» وقد تبين فيما بعد أنه يهودي الأصل. وقد رأينا بحدي فربو المعارض المعروف يروح إلى دار الحكومة يُجيء فأدركنا أنه يتنسم الأخبار وكنا نسأله عن المحافظ فيضحك ويقول: ألا تصدقونني، إني أريد أن أريحكم، إنه عندي، عندي الا تصدقون؟ وكنا لا نصدق طبعاً لأنه كان يتبع كلامه بضحكة خبيثة من ضحكاته المصطنعة المعروفة عند الجميع، ولكنه ثبت فيما بعد أن المحافظ فعلاً كان في بيته طوال خمسة أيام، وإليك القصة.

قلت إن المحافظ نوى الذهاب إلى دمشق ليطلع المسؤولين على واقع الأمر في الجزيرة، وعلم الفرنسيون بعودته وقد مر حين عاد بدير الزور، وكان مندوب المفوض السامي فيها هو الجنرال «ديزيسسار Desaissard» والتقى به وتحدث إليه، وحين عودته وصل إلى منخفض من الأرض فرأى سيارة فيها أناس مدججون بالسلاح ولم يكن مع المحافظ إلا شرطي واحد لم يجرؤ على مقاومة عدد من قاطعي الطريق وأنزل الرجال المحافظ فلم يقاوم طبعاً وأركبوه بسيارتهم ومروا من الحسكة ومن أمام دار الحكومة فلم يشعر به أحد وأوصلوه إلى بيت بحدي فربو الذي كان مهيئاً لاستقباله واختفى المحافظ كما قلنا. ولكنه لم يُعثر عليه وكانت تحضر له الجرائد التي تكتب عن حادثة اختطافه، كما كان محترماً بما يليق به، وبعد خمسة أيام أُفرج عنه ولم يرجع إلى الحسكة.

احدثت هذه الحادثة ضجة كبيرة في كل الأوساط وتناقلت حتى الجرائد الأجنبية نبأ اختطاف المحافظ، وقد اتهم بعضهم أن المحافظ كان على علم بما سيحدث له ولكني لا أعتقد هذا، فالرجل أعقل من أن يتورط في عمل ضد حكومته وقد بلغ من الكبر عتياً، ولقد انتهت حياة هذا الرجل نهاية محزنة فقد تركه أهله وخاصة ابنه، وأصبح يعيش في فندق من فنادق دمشق لأنه لم يكن له مورد إلا راتب ضئيل هو راتب التقاعد، ومات في الفندق دون أن يطبق عينيه أحد من أهله. وسمعنا بأنه قد عين بعد ذلك محافظ جديد للحسكة هو: الدكتور حيدر مردم بك ابن سامي باشا مردم بك وابن عم جميل مردم بك رجل الدولة المشهور والذي كان أثناء هذه الحوادث وزيراً للخارجية، بينما كان سعدالله الجابري وزير الداخلية،

وأبلغنا بعد أيام أن المحافظ قادم ومعه «الكونت اوستروروغ» معاون المندوب السامي الفرنسي بدمشق، كان المحافظ الجديد شاباً وسيماً، وقد درس الحقوق في فرنسا وكان مولعاً بالصيد كما كان متزوجاً من امرأة مسيحية دمشقية الأصل ومثقفة وله ولد اسمه معاوية صار فيما بعد من التجار المرموقين كما كانت له ابنة متزوجة. وصل المحافظ بأمان وأخذ يستقبل ويودع كالعادة، وكان دمث المحضر لين العريكة يحب أن تسير الأمور بهدوء واطمئنان، وقد ربطتني به صلة قوية فقد كنت كاتبه الخاص في كل شيء ولكنه كان كما أعتقد طيب القلب يصدق ما يقال له، في حين كان الفرنسيون ومن تعاون معهم من أهل تلك البلاد يلجأون في كل شيء إلى المواربة والكذب والخداع، مما سبب وقوع حادثة رهيبة للمحافظ وأهله كادوا أن يذهبوا بها جميعاً.

بعد أن اطلع المحافظ الجديد على الحالة في الجزيرة ذهب إلى دمشق ليقدم اقتراحاته الجديدة وقد كتب بذلك تقريراً ضافياً، ومكث هناك عدة أيام ثم عاد ولكنه قبل أن يعود مر بالمندوب الفرنسي بدمشق، كما عرج في حلب على المندوب الآخر وفي دير الزور أيضاً، وفي عصارى ذلك النهار بينما كنت في دار الحكومة أنا وحامد العامري رئيس الديوان شاهدت جماعة من أهل البلدة بيدهم العصي والهراوات وبعضهم يحمل المسدسات والبنادق ولم نفطن إلى سبب هذه المسيرة التي كانت تتجه صوب دير الزور وعلى الطريق الذي سيأتي منه المحافظ، واتصلنا بقائد الدرك فلم نجده وسألنا عن المستشار فلم نعثر عليه ووجدنا فقط ملازماً شاباً من دائرة الاستخبارات اسمه «شنيدر»، فذهبت إليه أنا وحامد وسألناه عن سبب هذه المسيرة الشعبية المسلحة فقال لنا: لا تخافا سيصل المحافظ؟ ولم تعجبني هذه اللهجة بعد أن وجدت دوائر الأمن خالية من المسؤولين، وفي أثناء ذلك جاء إلينا أحد شيوخ العرب ممن نعرف أنهم ميالون إلى الجانب الفرنسي وطلب إلينا أن نعطيه رجال الدرك الذين كانوا في دار الحكومة لسبب جريمة وقعت في قريته، ولم نستجب لطلبه وشككنا في دعواه، وكان قائد الدرك يومها وهو الباقي وحده في دار الحكومة واسمه محمد علي الطرابلسي، وكان يعرفني لأنه جاء من سلمية إلى الحسكة، وكان ما لديه من الجنود ستة جنود فقط، وقلنا له كي يذهب ويستقبل المحافظ ولا أدري إلى الآن كيف خطرت على بالنا هذه الفكرة المحكمة التي خلصت المحافظ من مشكلة كبيرة، وبالفعل فقد أخذ الضابط والجنود سيارة أحد أهل الحسكة من السائقين وذهبوا للقاء المحافظ، ولم تمض على إرسال الجنود سوى نصف ساعة حتى سمعنا صوت الرصاص يصمّ الآذان، وشاهدنا بعد نصف ساعة أخرى الأهلين يعودون راكضين ومعهم جماعة يحملونهم، وأخذ الرصاص من دائرة الاستخبارات ومن الأهلين ينهال علينا في دار الحكومة.

وصل الجنود وهم ذاهبون للقاء المحافظ، فاجتازوا المسيرة من الأهلين، وظلوا في سيرهم حتى التقوا بالمحافظ وعائلته ومعه ضيف من أصدقائه من آل الداغستاني، وواكبوا المحافظ إلى أن واجهوا المسيرة فأشار اناس من هؤلاء للمحافظ بالوقوف، ولم يحسب الحساب للذي وقع وما كاد يقف حتى انهالوا على السيارة بالضرب وأمسك أحدهم بشعر زوجة المحافظ وجذبها يريد أن ينزلها من السيارة، فما كان من الملازم والجنود إلا أن نزلوا من السيارة وصوبوا بنادقهم إلى الأهلين وأطلقوا النار فتراجع هؤلاء وقد سقط منهم أربعة عشر رجلاً بين شاب وكهل، وقتل منهم ثلاثة وهرب الباقون جميعاً عائدين إلى البلدة، ولأمر عجيب فإن سائق سيارة الجنود وهو من الأهلين ظل واقفاً حتى عاد إليه الجنود فركبوا السيارة وركب معهم المحافظ وعائلته لأن سيارته تعطلت وكرّوا راجعين جميعاً إلى قرية الشدادة، وكانت مديرية الناحية يومها وفيها عائلة الأسعد وهم من وجهاء عشيرة الجبور ونزلوا هناك بعيداً عن الأحداث.

قلت إن الأهلين والاستخبارات أخذوا يطلقون النار على الموظفين ومن هم في دار الحكومة، كما أخذ رجال الحرس السيار التابع للفرنسيين وكلهم من الأهلين يطلقون النار على دار الحكومة واتخذنا الاحتياطات اللازمة لكي لا نصاب، وكان إلى جانبي قاض اسمه رمزي العظم وقد امتلأ لونه رعباً كبقية الموظفين، وفي أثناء ذلك مرّ بي المساعد الأول قائد مخفر الدرك في دار الحكومة واسمه «آصف جاويش» وناداني بالتركية أن لا تخف، وهبط في السلم المؤدية إلى الطابق الأرضي وبعد قليل من الزمن لا يتجاوز

ربع الساعة هبطت إلى الطابق الأرضي،فوجدت بعض الموظفين قد تجمعوا في غرفة الدرك وحين دخلت وجدت صاحبنا «آصف جاويش» نائماً ورجله معلقة في خشبة عالية وقد أصابته رصاصة في ركبته ظل على أثرها أكثر من أربعين يوماً لا يستطيع المشي، وقد أصيبت رجله بعد ذلك بعاهة، وضحكت وقلت له: ألم تجد أن الخوف أسلم، فهز برأسه ولم يجب، وكان جركسياً ومن رجال الدرك ذوي الماضي في الشجاعة والرجولة.

في اليوم الثاني ذهب المستشار إلى قرية الشدادة، حيث كان المحافظ وقد تحدث إليه المحافظ بلهجة الغاضب وأفهمه أن هذه المؤامرات كلها من تدبير الإفرنسيين، وسكت المستشار ولم يجب وظل المحافظ في الشدادة حتى العصر ثم رجع إلى دير الزور ليستقر هناك كل الصيف بعد أن استأجر داراً لسكنه الشخصي ولتتخذ مكتباً ودائرة محافظة للجزيرة.

أما الموظفون (نحن) فقد بقينا في دار الحكومة، وقد أمر المستشار أن لا يتجول الموظفون في المدينة خشية الاعتداء عليهم، ولم يبق خارج دار الحكومة إلا بعض الموظفين ممن كانت لهم صلات شخصية مع الأهلين، ومن هؤلاء مأمور الزراعة فائز الجيرودي الذي كان قديماً في تلك البلاد، وكانت له صلات كثيرة معهم، كما كان متهماً بأنه يميل إلى سياستهم الجديدة، وقد كان هذا الرجل من عائلة الجيرودي المعروفة في جيرود، كما كان من خريجي المدرسة الزراعية في سلمية، ولكنه كان داهية لا يعرف له قرار فهو يحدثك في كل شيء حتى إذا وصل إلى الحديث الحساس من السياسة سكت وضحك ولم ينبس بحيث لا يمكن أن تعرف له رأياً، أما الشخص الثاني الذي ظل في البلدة فكان صديقنا الأسود «عبدالله الجراح»، وقد كان مجاوراً لعائلة من الأهلين رضيت أن يبقى عندها وأن تحميه هو وأهله من الاعتداء، وبعد يومين اتفقت جمعية الأهلين الذين شكلوا لنفسهم إدارة خاصة تناهض الحكومة، فجمعوا الموظفين من بيوتهم وأخذوهم إلى الكنيسة في طرف المدينة وجاءوا إليّ ليأخذوني، وقبل أن يصلوا إلى بيتنا جاءت جارتي وأشارت إليّ كي أطفىء الضوء وأبقى في غرفتي، وحين سألوا عني قالت لهم: إنه غير موجود، فحاولوا مناقشتها والتفتيش عليّ ولكنها منعتهم، كما قام زوجها يصرخ في وجههم فذهبوا، وظللت في البيت إلى اليوم الثاني حيث نصحني أخواني بأن ألجأ إلى دار الحكومة فهي أضمن مكان.

أصبح أكثر الموظفين ذلك اليوم من ربيع عام ١٩٣٨ في دار الحكومة ينامون ويأكلون ويشربون، أما الطعام فكان يأتينا سرقة من البلدة ومن بيوت بعض الموظفين القاطنين في البلدة منذ زمن بعيد وليسوا مشبوهين من الأهلين، كما أن هناك شيخاً من عشيرة شمر له وزنه ومركزه هو الشيخ «ميزر عبدالمحسن» قد تولى إحضار الطعام إلينا من دير الزور لأن الأهلين امتنعوا من بيعنا أو إطعامنا، وقد انتقل رجال الشرطة العشرة مع قائدهم من مخفرهم إلى دار الحكومة وأخذوا يتدبرون أمرهم بالطعام، وكان طباخهم أحدهم واسمه أبو علي كبّة وكان من قسم التحري، ولكنه كان أمياً، كما كان من المستغرب أن يكون موظفاً وهو أمي. وكان في عداد هؤلاء الشرطة السيد سعيد النابلسي الذي كان مرافقاً للمحافظ، وأبو دياب الدركزنلي وحمدي الخطيب وحمدي السمان وغير هؤلاء ممن لا أذكر. وكنا نسهر ونأكل ونشرب وهذا كل عملنا، وقد كانت نتيجة هذه الراحة المطلقة أن وزني ازداد حتى خرجت بعد الأشهر الأربعة التي قضيتها في دار الحكومة وقد تجاوزت الخامسة والثمانين من الكيلويات، بعد أن كان وزني ثلاثة وسبعين كيلو حين قدمت إلى الجزيرة، ومن أبرز الأصحاب في دار الحكومة كان الدكتور بهجت الأتاسي، وكان رجلاً غريب الأطوار حقاً، جاء لكي يجمع شيئاً من المال، وكان الأهلون يكرهون الموظف المقتصد الذي يحاسب ويدقق في معاملته مع الناس، وقد تعرض هذا الدكتور مرة للضرب المؤذي حين أصبحت المحافظة بلا نظام ولا أمن وذلك بسبب علاقة مادية كانت له مع أحد البائعين، وقد جاءني إلى بيتي يستعير قنديلاً كنت أخرج به حين أتجول ليلاً، أخذه ولم يعده لي فشكوت أمري إلى صاحبي عبدالله الجراح، وكان الدكتور ينام في غرفة المصرف أعني عند عبدالله، وأشار عليّ عبدالله بأن أخفي له بعض ثيابه في صندوق المصرف نفسه، وهكذا دخلنا إلى الغرفة أنا وعبدالله وطبقنا النظرية، وجاء صاحبنا وقت الظهر فلم يجد أغراضه، وبدأ ينادي بالويل والثبور وعظائم الأمور ولم نرجع له الأغراض حتى أعاد لي القنديل، لقد كان

حريصاً حرصاً عجيباً حتى ضاق بصحبته أكثر المقيمين بدار الحكومة ولكنه كان، مع ذلك، طيب القلب وقد عاش حتى تجاوز التسعين عاماً، وهو طبيب من الدورة الطبية التي أنهت دراستها بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ومن رفقاء حسني مسبح ويحيى الشماع، وجودت الكيال وإسماعيل الأسطة وغيرهم؟

أما الشخصية الأخرى فهو المساعد الأول في الدرك السيد عبدالرحيم الداغستاني هذا الذي كان يحمل أطول شاربين في المنطقة، ولقد كان في شبابه من أحلى الشباب وأكثرهم وسامة، كما كان ظريفاً له آراء سياسية عجيبة، منها انه كان يحب الألمان حتى إنه سمى أحد أولاده «طارق ولهلم» كما كان يحب الأتراك ويكره العرب الذين خانوهم أثناء ثورة الحسين، وكان يكره فيصل الأول ويشتمه علناً وينحي عليه باللائمة من أجل الجنود الأتراك الذين قتلوا بسبب هذه الثورة في منطقة الحجاز وغيرها من البلدان العربية، كان يعمل محاسباً للدرك وكان يكره كل ضابط في الدرك لأنه كان رفيقهم في الدراسة ولم يستطع أن يتجاوز رتبة الملازم بسبب تعثره في الوظيفة، فكان يشتمهم جميعاً وبخاصة حسني البحرة الذي كان ينشد الأناشيد القديمة ويدخل اسمه فيها ليجد وسيلة لشتمه شتائم مضحكة، ولقد نشأ قليل المال فأدركه حب المال فكان مقتصداً إلى أبعد حد حتى على حساب صحته، ولقد كان صديقاً لعبدالسلام السباعي صاحب المكتبة العربية الذي مر ذكره مرات، وكان الآخر مقتصداً اقتصاداً عجيباً، واتفقا على أن يضعا مشروباً مشتركاً من الكحول مع شيء يلون الكحول وراحا يشربان بشهية نادرة، وكان شراباً مؤذياً من «السبيرتو» الملون كما كانا يقتصدان في الطعام الذي يقلّل تأثير الكحول. وسكن عبدالرحيم في بيت أمام دار الحكومة وانتقل الموظفون كلهم خوفاً من الموظفين الذين أخذوا يتظاهرون بكره الموظفين، كما كان يأمرهم الفرنسيون، وفي يوم من الأيام جاءني وكنت الوحيد في المحافظة ليقول لي إن بيته قد سرق، واستغربت هذا الأمر وكلفته بتنظيم قائمة بمسروقاته وأجرينا المعاملة اللازمة للتعويض عليه ثم عملت على نقله ليسكن في بيت المحافظ الذي كان فارغاً من زمن بعيد، منذ أن أصبحت المحافظة بلا محافظ كما شاء الفرنسيون والأهلون.

اتفقت مع عبدالرحيم وكان ظريفاً جداً في أوضاعه الخاصة التي تضحك الثكلى، اتفقت معه ومع ناشد الأتاسي ونور الدين جركس موظف الأشغال العامة، على أن نذهب خفية من دار الحكومة التي كنا ممنوعين من الخروج منها ولجأنا إلى مستودع الأشغال العامة ومعنا عدة السهرة من طعام وشراب، وأخذ عبدالرحيم كعادته يذكر ماضيه العسكري ويشتم كل من كان رفيقه في الكلية العسكرية التركية، وبينما كنا كذلك إذا بباب المستودع يطرق. ووقفنا عن الحديث وترددنا في فتح الباب، أما عبدالرحيم فسكت ولم يحر جواباً، وكذلك نور الدين، وهذان اللذان كان عليهما أن يتحركا، وقام ناشد الأتاسي الرجل المسن وقمت وراءه ففتحنا الباب وإذا بجماعة من المسلحين وعلى رأسهم وليمس آدمو وكان خياطاً، وقد صنع لي بزة كانت من أسوأ ما لبست في حياتي، وكنت أرى فيه لؤماً غريباً وكرهاً للسوريين عجيباً، وكان معه رجل من العمال التافهين اسمه إبراهيم الفرّان، واسمه كان يدل عليه كما يُرى، ودخل الاثنان وهما يسألان عن النسوة اللائي كن عندنا كما ادعيا، وكلّمتهما وأنّبتهما على هذا السؤال الوقح، وصعدا إلى سطح المستودع وفتشاه ثم خرجا، وفي اليوم الثاني وبعد أن أنهينا السهرة علمنا أن المستشار الفرنسي اليهودي ماير هو الذي أرسلهما، لأنه علم من بعض الموظفين في دار الحكومة بمشروعنا الانشراحي.

كانت لي مع عبدالرحيم قصص كثيرة مضحكة فقد شكوت أمري إلى صديقي عبدالله الجراح، وعرضت له أمر إفلاسي، فقد كان راتبي لا يبقى في جيبي أكثر من يومين أو ثلاثة لأنني كنت أعيش على الاستدانة من المطعم ومن اللحام ومن الخضري وبائع الدخان والشراب وكل شيء، ونصح إليّ عبد الله أن أستدين من عبدالرحيم الذي كان محاسباً للدرك ولأنني قدمت له معروفاً بسكناه في دار المحافظ، وكان عبدالله يقصد إلى إثارته واتفقت معه على أن أستدين مئة ليرة على أن أسدده الحساب بواقع عشر ليرات في كل شهر وقد تم الأمر، ومر الشهر الأول ولم أدفع شيئاً، وكان ذلك بنصيحة عبدالله، وأخذ عبدالرحيم

يمر من أمامي ويروح ويجيء وهو يقصد إلى تذكيري بدفع القسط الأول، ولكني تصنعت الانشغال وعدم الالتفات، وذهب إلى عبدالله يشكو من تلكئي بالدفع، وجاء هو وعبدالله إلى مكتبي وكان هو متقدماً وعبدالله وراءه وقد أشار إليّ بعدم الدفع، وسألني عبدالرحيم عن العشر ليرات فبادرته بثورة عارمة مليئة بالشتائم وأنني لا أملك شيئاً من المال ولست أستطيع الدفع، ونظر إليّ وهو يكاد ينفجر غيظاً وأخذ يشتم نفسه وأهله وكل من عرفه، وضحك عبدالله حتى كاد ينفجر ودعاه إلى مرافقته وخرج الاثنان ليعود عبدالله بعد قليل ليشكرني على إجادتي التمثيل، ولكني بعد قليل أرسلت له القسط المطلوب وكان عبدالرحيم طيب القلب، فقد عاد أيضاً بعد فترة وعلى وجهه علائم الرضى ولم يفاتحني بالموضوع.

ولعبدالله هذا قصص كثيرة من هذا النوع فقد كان له صديق من القضاة هو المرحوم منير غنام شقيق عازف العود الشهير عزيز غنام اشترك وإياه في غرفة مستأجرة بينما كان الاثنان موظفين في أحد أقضية حلب، فكان يخلع جواربه ويضعها تحت مخدة الرفيق، فكان لا يستطيع النوم للرائحة الخبيثة التي كانت تنطلق من الجوارب ويظل يتقلب الرجل حتى يجد المسبب لهذه الرائحة، ويبدأ بثورة يضحك لها عبدالله ملء شدقيه، ومرة ضافه صحفي حلبي وأصله مصري واسمه أو اسم عائلته وهبي، وقبل أن ينقلا إلى المنزل نادى عبدالله الآذن وكان اسمه علي وطلب إليه أن يطبخ لهما ديكاً من الدجاج مع شيء من الأرز، وان يهيء الغداء اللازم في البيت، وتغديا ونام الصحفي المسكين ثم خرج إلى البلدة ليجمع ما تراكم له من اشتراكات لجريدته، وعلم عبدالله بأن ضيفه قد جمع مبلغاً حسناً من الدراهم فاتفق مع رفاق له ليسهروا في بيته وفي البيت دعاهم للعب الورق، وشارك الصحفي المسكين في اللعب فخسر كل ما جمعه في البلدة، وحين ناما لم يستطع المسكين أن ينام أرقاً، وسمع عبدالله ضيفه يقول: «يا علي اطبخ لنا ديكاً، يلعن أبو الديك»، وغطى عبدالله رأسه باللحاف وأخذ يضحك، والضيف يشتم الساعة التي نزل فيها على عبدالله حتى خسر كل ما كان معه.

في اليوم الثاني من حادث مستودع الأشغال جاءني عسكري يطلب إليّ أن أرافقه إلى بيت صديقي العزيز المساعد محمد دياب ـ رحمه الله ـ، وهذا الشخص من أهل قرية تل الدرة التابعة لسلمية، وكان من أطيب الناس الذين رأيتهم في حياتي، لقد كان يتمتع بأخلاق ندر أن يعثر على مثيل لها، وسرت مع العسكري إلى بيت صديقي وحين وصلت وجدته وحده فقال لي لقد جمعنا نساء العسكريين في بيت واحد، وأنا وكل العسكريين سنلتحق بالثكنة في استنفار فقلت له: إذن أنا سأظل وحدي هنا؟ قال هذا الذي وقع، وحاولت الرجوع إلى السراي ولكن العسكري كان قد ذهب وألح عليّ صديقي أن أبقى في البيت، فلا خوف هناك، ولكن أهل البيت من جماعة «الطوخلركي» المسيحيين الأكراد الذين كانوا أشد الأهلين عداءً للسوريين فقلت في نفسي: لقد أوقعني صاحبي في مأزق دون أن يقصد إلى ذلك. وحين خرج من البيت ليذهب إلى الثكنة قال لصاحبة البيت: أوصيكم بضيفي فإنه قريبي فقالت له: لا تخف، لن نقتله، وكانت هذه العبارة من أشد ما سمعت في حياتي، ولقد حاولت النوم بعد ذلك فلم أستطع، أو أنني نمت وأنا واقف في أرض الغرفة، وفي الصباح الباكر سمعت الباب يطرق ورأيت صاحبي يدخل هو والعسكري الذي جلبني إلى البيت وكنت ثائراً غاضباً، ولقد أنّبت صاحبي وسكت ـ رحمه الله ـ فقد توفي منذ سنتين، ورجعت إلى دار الحكومة وأنا أنفض غبار الموت عن عيوني فقد كانت مغامرة خطيرة جداً.

وفي يوم من الأيام خطر على بالي أن أخرج إلى المقهى مع صاحبي مأمور الزراعة السيد فائز الجيرودي وخرجنا من السراي واتجهنا صوب المقهى الذي كان بعهدة جماعة من الأشوريين، وجلست مع صاحبي وإذا بي أرى من نوافذ المقهى عشرات من الرجال وبأيديهم الخيزرانات وهم ينظرون إلينا شزراً، وقد عرف صاحب المقهى أننا غير مسموح لنا بالخروج، وأراد أن لا يقع بورطة من أجلنا فأرسل إلى منصور مرشو شقيق إلياس مرشو الزعيم ينبئه بالخبر فجاء وهو غاضب وأخذ يصيح بوجهنا ويؤنبنا لخروجنا من السراي وتعريض أنفسنا للخطر، ثم أمرنا بالسير خارج المقهى فخرجنا معه والرجال أصحاب العصي عن يميننا وشمالنا حتى وصلنا إلى دار الحكومة، وكانت العملية كلها من صنع المستشار ماير اليهودي الذي أشرت إليه، هذا الرجل الذي سبب في تلك الفترة بضرب قرية عامودة، وهي مديرية

ناحية، بالقنابل من الطائرات وقد أحرق قسماً كبيراً منها. بعد فترة جاء الأمر بالإفراج عنا وخرجنا إلى البيوت وكنت تركت بيت سمعان الصائغ، وسكنت إنا وصديقي الجيرودي ومعنا صديق آخر هو السيد عبدالحي الأتاسي رفيقي في المدرسة الزراعية والذي كان مديراً للمصلحة العقارية في الحسكة يومها. كانت الإدارة قد تبدلت يومها، فقد جاءنا محافظ فرنسي اسمه «المسيو نودي» وكان مقطوع الرجل ورجله من الخشب، كما جاء حاكماً للجزيرة عقيد من الجيش الفرنسي اسمه «الكولونيل مارشان»؛ أما نودي فكان رجلاً دمثاً رقيقاً، وأما الكولونيل فقد كان شرساً متسلّطاً من أصحاب القبعات السود الاستعماريين، وكان ترجمانه رجل حلبي مسيحي كاثوليكي هو السيد إبراهيم بكر الذي كان لفترة من الزمن الحاكم الحقيقي للجزيرة.

كان في البيت خادمة تقوم بتهيئة الطعام لي ولفائز، أما عبدالحي فلم يلبث إلا مدة وجيزة فقد جاء أمر نقله إلى حلب فودعنا وهو يكاد يطير من الفرح. كانت الخادمة هذه كردية تكاد لا تجيد العربية، وقد تعلمت الكي والطبخ وكل شيء من خدمتها في بيروت مدة طويلة، وكانت حاملاً في شهرها الخامس، وقد أوصاني فائز بأن أعاملها معاملة حسنة، فقلت له: إني أعامل الناس جميعاً بالحسنى فعلاً فلا يخطر على بالك شيء مما لا يسرك، وكنت أعلم أنه يضمر شيئاً في نفسه، وأنه يريد أن يبرىء نفسه مما قد اتهمه به عن علاقته بها، وهو ما صحّ فيما بعد، فقد علمت وقد رأيته بعد سنين أنها كانت شبه محظيّة له، أما أنا فلم أمسها بسوء إكراماً له، ولأنها من ناحية أخرى لم تكن محل إعجابي. وبعد يومين فوجئنا بفتاة تدخل البيت وعرفنا أنها ابنة عم الخادمة الأولى، ولكنها كانت رائعة الجمال وقد أخذت بجمالها العجيب وعرفت أنها متزوجة منذ اشهر فقط، ولكنها كانت نعمة لم تأت أُكُلها، فقد اضطررنا للتخلص منها، ذلك أن الباب طرق في اليوم الثاني ففتحت له وإذا بي أرى رجلاً في الأربعين من العمر طويل الشاربين وفي كتفه بندقية حربية، فتذكرت الرجل لأني شاهدته في المحافظة وهو يحاول أن يحصل على هوية سورية لأنه كان من أكراد الحدود التركية، ولكني تذكرت من ناحية أخرى أن الرجل جاء للجزيرة لأنه قتل عدة أشخاص من الأتراك، فهو هارب ولاجىء ومجرم، وسألني عن الفتاة، فقلت له: ما الذي تريده منها؟ فأعلمني أنه زوجها وشعرت بالماء المثلج ينزل في ظهري وناديت الفتاة فتكلمت مع زوجها، وفي اليوم الثاني قلت لصاحبي: إما أن لا أظل في البيت وإما أن تصرف الفتاة من الخدمة، وكان أن انتقلت إلى بيت السيد عبدالكريم السمان الصديق القديم والذي كان نائباً عاماً في عدلية المحافظة. لقد حرمت نفسي من منظر لم أر مثله منذ سنين، فقد كان جمالها باهراً وكنت أتردد على بيت السمان فأراها هناك وكأنها باقة الورد الندية؛ وما زلت أذكر هذا الجمال الذي لصق بذاكرتي حتى اليوم.

أما عبدالكريم السمان فكان من أطيب الأصدقاء الذين عرفتهم، بإخلاصه وبساطته ومحبته للنكتة ولكرمه الذي لا يوصف، وهو عصاميّ لم يدخل مدرسة الحقوق بل تدرب تدريباً في المحكمة، وقد ساعده بعد سنين قاض كبير كان له مقام في العدلية السورية هو القاضي عبدالحميد البارودي، الذي كان في أخريات أيامه رئيساً لمحكمة الجنايات بدمشق، وهو والد السيد صادق البارودي المهندس الكبير وأكبر مهندسي الري في زمنه. ولكن صاحبي السمان الحموي الأصل كان كما يقال في العامية «عريض العدل»، بمعنى أنه يحب أن يتدخل في كل ما لا يعنيه من أكبر أمر في السياسة إلى آخر أمر، ومن ذلك أنني تغديت وإياه مرة وشربنا سوية، وإذا به يقترح عليّ أن نزور المستشار في مكتبه فنتحدث إليه في الوضع الراهن، ولا أدري كيف وافقته على ذلك ووافقته على هذه المغامرة التي لا ناقة لنا فيها ولا جمل، وكان المستشار اليهودي قد نقل يومها بعد تصرفاته المجرمة؛ في عامودة، جاء المستشار الجديد «الكابتن لاكروا» وسرت مع صديقي السمان إلى دائرة الاستخبارات فاستقبلنا الرجل في مكتبه، وأكرم وفادتنا، وسقانا من المشروبات التي تسقى في الضيافة عند الفرنسيين وأخذنا نتكلم واشتط صاحبي في حديثه، وكنت أنا المترجم وخاض صاحبي في النصائح والشروح التي لا لزوم لها، وشعرت بالإحراج فصرت أقتصد في الترجمة وأحور بعض الكلمات وخرجت من عند المستشار وأنا أرتجف من حديث صاحبي السمان الذي تعرض لأمور لم تكن في حسباني، وبعد يومين شاهدت المستشار مصادفة فضحك وسألني

قائلاً كيف الحالة هل رضيت عن فرنسا؟ وكان سؤاله يشير إلى تورطنا في الحديث الماضي، وحدثني السمان فيما بعد أنه زار باريس بعد أربعين سنة وسأل عن هذا الرجل ووصل إليه فعرف أنه قائد كبير «جنرال» في الجيش الفرنسي، ولكن هذا المستشار كان أشرف مستشار كما أعتقد ممن دخلوا هذه البلاد، كما كان نادراً بين الإفرنسيين. في تلك الفترة اراد عبدالكريم السمان أن يزور بلدة حماه فدعاني لمرافقته ووعدني بأكلة يعرف أنني أحبها وهي أكلة «السختورة» أو «القباوات»، وحصلت على الإذن وركبنا السيارة إلى بلدة الدرباسية ومنها وصلنا إلى محطة القطار الذاهب إلى حلب وركبنا في الدرجة الثالثة لقلة ما كان لدينا من الدراهم، وسرنا إلى حلب. وفي حلب التقينا ببعض الأشخاص من الحمويين، ثم أكملنا الطريق إلى حماه وفي حماه وجدنا الأكلة الشهيرة الخاصة بحماه جاهزة على أحسن صورة ونمت ليلتها في حماه؛ ثم ذهبت في اليوم الثاني إلى سلمية ثم حمص ثم دمشق فكانت سياحة لم نسكت خلالها عن الحديث بما يقع في الجزيرة من مشكلات وأحداث دامية.

عدت بعد أيام إلى الحسكة فجاءني أحد أصحابي يقول لي: إن اللجنة تريدك أن تغادر الحسكة، وهي تنذرك أن تنفذ فكرتها هذه فقد ضاقت بك ذرعاً وبتقاريرك. وجئت يومها إلى البيت وكان اليوم عيداً، فرأيت غرفة الاستقبال ملأى بالزوار بينهم المطران حبي الذي كنت أراه مشعل الثورة وجانيها الأول والعدو الأكبر للحكم السوري، واستغربت وجوده في بيتي وانسحبت ولم أدخل البيت بوجوده، وذهبت إلى صديقي السمان أشكو له هذا الأمر الفظيع وأتساءل: هل يوجد موظف شريف يقبل أن يستقبل هذا المطران اللئيم؟ وجئت بعد الظهر إلى البيت وسألت فائزاً عما فعل، فقال: رجل يعرفني قبل الحوادث وقد جاء ليبارك لي بالعيد، فما الذي أعمل؟ وقلت: تعمل؟ تقف بالباب ولا تدعه يدخل؟ قال: أنا لا أستطيع عمل شيء من هذا الشكل، وقلت له: إنك منهم وكنت أدافع عنك أما الآن فقد ثبتت علاقتك مع هذا المطران العدو اللئيم، وأنا من اليوم لن أساكنك ولا أعترف بهذه الشراكة، وبالفعل لقد تركت البيت، ولم أكلم فائزاً بعد هذا الحادث شهوراً طويلة، ولكني كنت خائفاً من التهديد والإنذار، وكنت قد أودعت مبلغاً من المال مع مدير المالية في المحافظة السيد حسن رمضان الموظف القديم والذي كان يعرف والدي وأخي الذي كان أيضاً موظفاً مالياً، وهو كردي الأصل، وكان صديقاً لحاجو آغا الزعيم الكردي، كما كان الأكراد يحترمونه وكذلك المسيحيون الذين كانوا يحسبون للأكراد حساباً، وركبت سيارة المحافظة التي كانت ذاهبة إلى دير الزور وكنت عصارى النهار في المدينة الهادئة التي كانت يومها أشبه بباريس بالنسبة إليّ.

في دير الزور

قلت إني كنت أعرف في دير الزور رفيقين كانا لي في مدرسة الإنجليز بحمص وهما: عبدالقادر عياش الذي عمل قاضياً فيما بعد ثم محامياً ثم مؤرخاً لآثار دير الزور وغيرها، والصديق الآخر هو ابن عمه عبدالرزاق العايش وهو أخ للوزير والنائب الدائم الحاج محمد العياش، ولكن صداقتي مع هذين كانت صداقة مدرسة لم تدم، فقد كانا أبعد الناس عن متطلبات الصداقة والمعاشرة، وقد مات الاثنان منذ سنوات، أما الصديقان الآخران فهما الشاعر محمد الفراتي والشاعر الآخر عبدالجبار الرحبي. أما الفراتي فكان رجلاً مشهوراً في منطقته خاصة، وهو رجل أزهري وكبير السن، فقد تخرج من الأزهر كما كان قيل لي عام ١٩٠٨، وأنا كنت في دير الزور عام ١٩٣٨، وكان فقيراً وله ولد كان يرجو له أن يكون فناناً في الرسم، وما أدري ما الذي صنع الله به ولكنه كان موهوباً كما أعتقد، أما عبدالجبار الرحبي فشاعر من الدرجة الخامسة أو السادسة يعني أنه يعرف صناعة النظم، وقد نشر ديواناً صغيراً لكنه لم تكن له شهرة، وهو ما زال حياً كما أعتقد، وإن كان متقدماً في السن، كنا نجلس سوية في المقهى وفي «جردق» جديد أسسه شخصان أحدهما مسيحي اسمه أنطون والثاني مسلم اسمه «وحادي»، وكان من أحلى المقاهي الصيفية، وكانت دير الزور في تلك الفترة من أجمل المدن السورية فقد شطرها نهر الفرات شطرين، وأنشئت المقاهي الصيفية على جانب النهر من جهة المدينة القديمة، فكان السائر يمر بعدد من هذه المقاهي التي هي مطاعم ومشارب في آن واحد، وواحدها يسمى «جردق» وهي كلمة تركية، هكذا كانت يوم زرتها في صيف عام ١٩٣٨ وبقيت فيها أربعة أشهر من شهر أيار إلى نهاية شهر آب، ولقد زرتها منذ سنتين أي سنة ١٩٨٧ فدهشت للتأخر الذي طرأ على هذه المدينة، لقد أزيلت المقاهي النهرية «الجرادق» ولم يبق فيها إلا واحد مهمل ولولا أن يكون هناك بعض الخبراء الإيطاليين الذين بنوا لأنفسهم مساكن في ظاهر المدينة لعجزنا عن إيجاد مكان للمنامة. ولكن المدينة الجديدة التي بناها هؤلاء الغرباء قد سدت ثغرة كبيرة في المدينة، فأسست إلى جانب المساكن مطاعم جميلة حديثة نعمنا في الإقامة بها يومين قضيتهما في ضيافة المركز الثقافي الذي أقمت فيه أمسية شعرية. لقد أسس في المدينة معمل للورق ولكنه توقف بقدرة قادر حتى لم نكد نجد ورقة نكتب فيها رسالة. ولقد زرت دار الحكومة والتقيت بالمحافظ الذي كان غاية في اللطف، وكذلك قائد الدرك الطرطوسي الأصل، كما التقيت برجال الأمن من الجيش وقيادة فرع حزب البعث الذين أكرموني إكراماً بالغاً.

في رحلتي من الحسكة كانت إقامتي في دير الزور مدتها أربعة أشهر، وقد التقيت فيها بالمحافظ حيدر بك الذي كان يرافقه السيد زكي المدلجي الذي كان أميناً لصندوق المالية في الحسكة، ولا أدري ما الذي ربط بينه وبين المحافظ، لقد رافق المحافظ في الحسكة حتى تضايقت منه كما كان يرافقنا بين الحين والآخر السيد عبدالرزاق الحسو وهو من شيوخ عشيرة طي ومن الوطنيين الذين مشوا مع الحكومة وكان مكروهاً من الأهلين المشاغبين في الجزيرة ومن الفرنسيين، وفي دير الزور استأجر المحافظ بيتاً في حي «الرشدية»، فكنت أنام في هذا البيت وعلى سطحه وقد ترك لي المحافظ قفصاً فيه زوج من الكنار الغالي الثمن، وقد علقت القفص في سقف البهو، وجئت ظهر يوم بعد الغداء فرأيت أحد الكنارين ميتاً وأثر الريش على القفص فاستغربت كيف استطاع ذلك الهر الوصول إلى القفص، وقد غضبت لهذا الحادث لأن المحافظ ألحّ عليّ في المحافظة على هذا القفص ولكن ما باليد حيلة كما يقال. وكنا نتردد مع المحافظ والمرافق الدائم السيد المدلجي إلى دكان الحاج محمد العايش الذي كان يومها تاجراً مرموقاً، وكان صبحي الدهني قد انتقل أيضاً إلى الدير وكذلك عبدالرحيم الداغستاني، فكنا نجتمع ظهراً ومساءً على ضفاف النهر اجتماعات طريفة نأكل فيها ونشرب حتى المغرب.

وفجأة نفق كل ما معي من المال؟ وما كنت أتقاضى راتبي من الحسكة لصعوبة نقله إلى دير الزور

فكان يتراكم هناك، وحاولت أن أستدين فلم أستطع وكلفت عبدالجبار أن يتدبر الأمر فعجز ولا أدري السبب، إلا أنه كما يبدو لي بخيلاً وما يزال كما أعتقد، لأنني خلال أربعة أشهر لم أعرف بيته ولا بيت الفراتي، مع أن أهل هذه البلدة يُدلّون بعروبتهم وكرمهم، وأعيتني الحيلة فكلفت أحد رجال الدرك من سلمية أن يستدين لي مبلغاً حتى آخر الشهر فلم أستفد شيئاً، وكان أكثر بخلاً أو إفلاساً من غيره، وقلت سأذهب إلى الصديق العايش الكبير فهو تاجر كبير وصديق للمحافظ وأنا مقيم في الدير باسم المحافظ صديقه، وطلبت منه ثلاثين ليرة لأدفع ثمن الكهرباء لبيت المحافظ ولكن العايش اعتذر وعرض عليّ خمس ورقات وخجلت لأني طلبت منه ورويت القصة لحيدر بك حين عاد، وبعد دوران وتفتيش وجدت رجلاً أقرضني ثلاثين ليرة بفائدة خمس ليرات في الشهر وهي فائدة كبيرة جداً بالنسبة لعملة تلك الأيام. وكنت مرة أنا وحيدر بك والمدلجي وإذا بأحد شباب الحسكة الذين أعرفهم وكان يسكن قريباً من بيت الصائغ الذي كنت أسكن عنده ولقد رأيته عبر من أمام دكان الحاج العايش ونظر إلى من في الدكان مرات متتالية فقلت: لعله جاء يغتالني أو يغتال المحافظ وقلت للمحافظ ذلك، فأرسل للدرك وقبضوا عليه واستجوب في الحبس فقال: إن مقصده كان أن يرى المحافظ لأنه لا يعرفه وتوسطت له فأُخلّي سبيله ثانية، وكانت هذه المسألة ضغثاً على إبالة، فازدادت نقمة الأهلين عليّ وازداد توعدهم لي، وبعد مدة قبضت رواتبي المتراكمة فوفيت ديني واستأذنت من إدارة دير الزور وذهبت إلى أقربائي في طرطوس ماراً بحلب، ثم ذهبت إلى حمص فرأيت رفيقاً وجماعة حمص كما مررت بسلمية لأيام ثم عدت، ولكني هذه المرة عدت إلى الحسكة.

قبل أن أعود إلى الحسكة وكنت في فندق الشرق، وكان تحته مطعم صغير كنت آكل فيه أحياناً، وجلب لي الطعام مرة وكان فيه بعض «المحشي» من الكوسا والباذنجان، وبينما كنت أتناول هذا الطعام بصرت بدبوس كبير في واحدة من الكوسا فخفت وقلت إنها مؤامرة لقتلي وأخبرت الشرطة بذلك، وجرى التحقيق مع صاحب المطعم وتبين بعد ذلك أن القضية طبيعية، واستغربت أن توجد الدبابيس في طعام هذا المطعم بشكل طبيعي وخجلت من نفسي لتسرعي بالشكوى. وعدت إلى الحسكة وكان في جوار بيت الصائغ القديم الذي كنت فيه بيت صغير مؤلف من غرفة وفسحة دار، ولكن البيت أمام دار الحكومة فهو جيد نسبياً، وكان ملك واحدة من الأهلين ومن أقرباء آل الصائغ واسمها «زهورة»، فاستأجرت هذا البيت ووجدت فيه راحة، وأخذ الأخوان يزورونني فيه وفي الليل للسهر إلى ساعة متأخرة من الليل، وكان من زواري قبل الجميع الدكتور بهجت الأتاسي الذي وجد مكاناً رحباً ليأكل ويشرب ويدخن سيجارته بالمشرب الذي يحمله، وكان متعهد الإطعام صاحب المطعم الذي آكل فيه، وكان من أهل ماردين واسمه «اوسو» لكنه عاش في حلب، وكان صاحب أذن موسيقية ويجيد التوقيع على الطبلة ويحفظ بعض الأغاني الحلبية المتوارثة، فكنت أطلب منه ثلاثة صحون فيحضر لي ستة صحون من الطعام، وكلما سألته عن ذلك قال لي: أنا أعرف الموظفين فهم لا بد أن يأتوا لزيارتك وقد عرفوا أن الطعام موجود، وكنت قلت أن الأهلين كانوا يكرهون الموظفين الذين لا ينفقون من رواتبهم شيئاً وكانوا كثيرين في الحسكة، هؤلاء الذين رضوا أن يأتوا إلى هذه البلدة لاقتناعهم بأن الحياة رخيصة والتوفير ممكن، أما الشخص الثاني الذي كان يزورني مع صاحب المطعم فهو صاحب المقهى الشعبي وهو ديري الأصل واسمه أيضاً «زكي المدلجي»، ولكنه لم يكن يشبه زكي ذاك مع أنه ابن عمه، فهذا كان أشقر أزرق العينين عصبي المزاج، وقد كنت أثيره فيثور بسرعة ويبدأ بالشتائم وأضحك من ثورته؛ كان هذا يأتيني كل مساء مع آنية القهوة المرة وكان في كل يوم يردد هذه العبارة: والله لن تذهب من هذه البلدة إلا وأنت شحاذ وفقير، وكنت أضحك، وكان يكره كل الضيوف الذين يأتونني ويعتبرهم من المستغلين كما كان أهل الجزيرة يكرهونهم. لم أكد أقيم عدة شهور في هذا البيت حتى وقعت حادثة كانت رهيبة بالنسبة إلينا، فقد جاء إلى الحسكة مستشار جديد اسمه «دانجيلي» وكان هذا المستشار في إحدى المناطق التابعة لدير الزور، كما كان متهماً بأنه كان صديقاً لزوجة وكيل المندوب في دير الزور الذي كان يسمى «الجنرال جاكو»، وهو مستشار خبيث لا يقل عن «ماير» شراسة ولؤماً، ولكنه كان حلو المنظر جميلاً، وكنا ذات يوم في دار الحكومة وإذا بمظاهرة تأتي إلى السراي على رأسها امرأة اسمها «حبّي» وهي أخت إلياس مرشو وكانت مفرطة السمنة قوية الصوت

كالرجال، ورأينا الرجال والنسوة يصعدون إلى سطح البناء، ويحاول رجال الدرك منعهم فلا يقدرون، وقد أمسكت حبي هذه بالعلم السوري الموضوع على سطح السراي وهمّت بتمزيقه ولكن المستشار يعاونه بحدي قربو منعاها من ذلك وأعيد العلم إلى مكانه. وقد أنتجت هذه الحادثة قصة طريفة وقعت لي.

فحين تقرر طرد بعض الموظفين من الحسكة ومن بينهم أنا، وكان ذلك بتاريخ ١٠ حزيران ١٩٣٩ جاء إلياس مرشو ومعه جماعة من الجمعية التي أسسوها بدلاً من الحكومة إلى بيوت الموظفين، وأعلموهم أنهم سيتركون البلدة جبراً في اليوم التالي، وحرت في أمري؟ وكنت مديناً وكان عندي أغراض كثيرة فاتصلت بالجنود من أهل السلمية فجاءوا إليّ، وكان منهم رجل يعتني بي ويخدمني أحياناً من آل هابيل، وبيننا وبينهم قرابة قديمة جاءوا ليشتروا ما لدي من الأغراض، وقد بعتهم كل شيء وأبقيت الفرشة وحراماً أبيض وبعض الأشياء الأخرى سلمتها لأحد الذين كانوا يريدون السفر إلى سلمية، وهو محمد مصطفى رزق الذي كان في الحرس السيار؛ وهذا الشخص كان قد نزل عليّ ضيفاً أكثر من أربعين يوماً لأنه انقطع عن الالتحاق بمركز عمله بسبب الامطار، وقد قمت بواجبه خير قيام بعد أن التقيت وإياه في المقهى ولكنه كان قليل ذوق وقليل وداد، لأن امرأته بعد أن أوصلت الأغراض إلى بيتها دعت والدتي لتأخذ ما أرسلته وانتزعت منها الحرام الأبيض الثمين بحجة أجرة الأغراض، ولم يذكر هذا الرجل أنني تحملته أكثر من أربعين يوماً هو ورفيق له من العسكر الشمريين.

في اليوم الثاني للإنذار جاءت السيارات فنقلت الموظفين ومن بينهم أنا، وأشهد أن جماعة من أهل البلدة قد جاءوا لوداعي وهم متأثرون لسفري، فقد كان فيهم من ربطتني به صداقة ولكنهم لم يكونوا يستطيعون الدفاع عني وكان بجيبي عشر ليرات سورية فقط، وقد استدنت من شرطي المحافظة الذي رافقني وهو من آل طوشان من الحسكة مبلغ عشر ليرات أخرى، لأستعين بها في الطريق ووصلنا إلى دير الزور وسرنا منها مساءً إلى دمشق فوصلنا في الصباح، وفي الصباح وجدت المحافظ حيدر بك ومعه رئيس الوزراء نصوحي بك البخاري، وقد سألني عن قضية تمزيق العلم فحدثته بذلك وأطلعني على جريدة الفيحاء الصادرة في اليوم السابق، فاستغربت ما جاء فيها وضحكت: لقد نشر سعيد التلاوي خبراً بالقلم العريض بأن أهل الحسكة أرادوا تمزيق العلم ولكن أحمد الجندي هجم على هؤلاء واحتضن العلم معرضاً نفسه للموت ومنعهم من تمزيقه، وكان الخبر طبعاً كله كذب فيما يتعلق بي، فقد اشتركت مع الأخ حامد العامري رئيس الديوان بتحريض المستشار على منع هذاالعمل السيىء، وهذا كل ما في الأمر، ولكن الأخ سعيد أراد أن يصنع مني بطلاً قومياً دون أن يخبرني، وقد باشرت عملي في اليوم الثاني في وزارة الداخلية كاتباً بلا عمل.

٣٠ في دمشق

نزلت أول الأمر في فندق العاصي وصاحبه حموي، وانتقلت بعد ذلك إلى حي الشهداء فسكنت غرفة في «زقاق أبرص»، وكانت غرفة لا بأس بها وصاحبتها تدعى بهيجة، وكانت سيدة وربة بيت وكان زوجها نجاراً مهذباً وما زال صديقي، ولكني لم أعد أراه منذ زمن بعيد، وكثيراً ما كنا نشترك أنا وهم في بعض الوصفات من المآكل وكانت تجيد الطبخ.

في اليوم الثاني وجدت شخصاً طريفاً من الإسكندرون من آل الخوري وهو طبيب أسنان على ما عرفت فيما بعد، وقد جئت مساءً فوجدت أصحاب البيت قد أقاموا له حفلاً وداعياً، وكان التأثر بادياً عليه وعليهم وسهرنا حتى منتصف الليل، ومن الغريب أنني مررت بعد يومين فوجدته في المقهى فاستغربت لقاءه وسألته ألم تسافر؟ فنظر إليّ ضاحكاً وقال لي: لم أسافر ولا نويت السفر فأنا أسكن في هذه الغرفة، وكلما أردت الانتقال من واحدة منها أعلنت عن سفري فيقام لي حفل وداع فأنتقل إلى غرفة مجاورة في حي مجاور وأنقطع عن الأولية وهكذا دواليك؟ وضحكت طويلاً من هذه الطريقة التي يلجأ إليها كلما نوى الانتقال من غرفة إلى أخرى.

وبعد أيام واجهت رجلاً أصبح صديقاً لي هو السيد محمود المشنوق من أهل حماه، وقد بادرني بقوله: تهانينا، لقد سمعت أنك عينت في محافظة حماه، فاستغربت الأمر وسألت في الوزارة فإذا الخبر صحيح، وهكذا أبلغت بعد أيام التحاقي بديوان محافظة حماه ضارباً على الآلة الكاتبة، وفي يوم ٢١ آب ١٩٣٦ كنت في حماه فعلاً.

نزلت في فندق المدينة الكبير واسمه «الفندق» لصاحبه ومستغله السيد محمد الحافظ الذي أصبح فيما بعد صديقاً لي، وهو بناء كبير في أكبر ساحة بالمدينة ومن بناء البلدية، وجئت إلى ديوان المحافظة التي كانت تشغل بناء البلدية الذي كان على الطريق الجديد، كما كانوا يسمونه وهو مكان منعزل عن المدينة وعلى طريق المنتزه الذي كان يسمى «الشريعة»، وفي الديوان وجدت الرئيس المرحوم عبدالحميد الدعيجي، ومأمور الأوراق السيد شاطر السليمان وفوزي البرازي الذي كان نائباً لمجلس الإدارة وحسين محمد ومحمود المشنوق اللذين كانا في دائرة النفوس.

أما عبدالحميد الدعيجي فكان من أهالي دير الزور وكان طوالاً بين الرجال، عليه بعض الأناقة، هادىء الطبع، ووجدت الأركيلة إلى جانبه فاستغربت ثم سكت، وكان جميل الخط عارفاً بما يريد من وظيفته، أما السيد شاطر فهو من أهالي البوكمال، كما أظن، وكان أسمر نحيفاً على وجهه بعض الوشم مما يدل على أنه من أصل بدوي، وكان كثير الكلام متأنقاً في حديثه ولم يكن قريباً للقلب، وكان بينه وبين فوزي البرازي منافسات قريبة من الكره. أما فوزي البرازي فهو أكثرهم أناقة وهو طويل أبيض الوجه ظريف الحديث وابن أخت حسني البرازي السياسي المعروف. وقد أصبح هذا البرازي بحكم المعرفة القديمة بيننا وبين أهله أقرب الأصدقاء لي، وقد دامت صداقته فعلاً إلى أن توفي ـ رحمه الله ـ بعد سنوات من تركه الوظيفة، كان راتبي /٥٢/ ليرة سورية وراتبه /٥٤/ ليرة، وكنت الوحيد في كل خدمتي في الداخلية الذي يحمل شهادة البكالوريا، فالموظفون الذين لقيتهم في تلك الوهلة لا يحملون أية شهادة، وأما المحافظ فكان اسمه «محمد الحسن الموصلي» وهو من أهالي حمص وزوج أخت صديقي العالم المؤرخ الأستاذ نظيم الموصلي الدكتور في التاريخ والجغرافيا من جامعة ليون في فرنسا، وحين مروري بحمص وأنا قادم إلى حماه اصطحبت كتاباً من نظيم إلى ابن عمه المحافظ كتوصية وقد تبين بعد وصولي أنه يعرف أهلي إذ كان موظفاً في دائرة الطابو «العقارات» في سلمية، ومن هناك أخذ يترقى في الوظيفة إلى أن أصبح رئيساً للديوان في حمص ومن حمص اختير محافظاً لحماه في عام ١٩٢٨، أي بعد ثورة فوزي القاوقجي التي بدأت فيها الثورة السورية في جبل الدروز والغوطة وغيرها من الأماكن، وقد ظل محافظاً

لحماه حتى عام ١٩٤١ حين قامت مظاهرة في البلدة خلقها المستشار الفرنسي الذي كان يكره المحافظ فاضطر على أثرها إلى ترك الوظيفة والذهاب إلى بيته في حمص. كان محمد الحسن كما قلت ذكياً وكان مقتصداً لا يحب اللبس ولا اللهو ولا السفر كما لا يحب العمران ولا العمل خارج المكتب، قد بقي في حماه /١٣/ سنة لم يقم فيها بمشروع ما حتى انه كان الوحيد بين المحافظين الذي لا يملك سيارة لتنقلاته، وكنا إذا طلبنا منه قلم رصاص أخرج من درجه قلماً صغيراً وقال لنا بلهجة حمص: «ليكو» أي ها هو يشير بذلك إلى ضرورة الاقتصاد. ولكنه من جهة أخرى كان سياسياً بارعاً يحضر مجلساً واحداً لآل طيفور، ومن هذا المجلس الذي كان يرتاده شيوخ المدينة وسادتها كان يطلع على كل ما يدور في مدينة حماه من أمور، وكان يتصل دائماً من حماه مع مستشار الداخلية الذي كان صديقه واسمه «فوكتو» فعمل عن طريقه كل شيء وتصرف بكل شيء، وكان نزيهاً، فلم يقبل هدية ولا رشوة مهما كانت كبيرة أو صغيرة، وقد حاول أحد أغوات البرازية أن يرشوه بخمسين ليرة ذهبية وكانت هذه ثروة محترمة فرفض الرشوة وكاد أن يتخذ إجراءً بتوقيف الآغا ومجازاته. كما كان خبيراً إدارياً يحل القضايا بالشكل الذي يوافق هواه، ولكنه على كل حال الشكل القانوني الذي لا ينتقد ولا يعترض عليه. كان جافاً لا يبتسم إلا نادراً ولكنه كان يحب النكتة ويستمع إليها متفهماً، وكان ثقيلاً على الموظفين فهو متمسك بالدوام لا يتسامح بدقيقة واحدة مهما كانت الأسباب، وكان يجلس في مكتبه المطل على مدخل الدائرة الوحيد، والذي لا بد للموظف من المرور منه عند الصباح ليراقب الدوام، فإذا تأخر أحدهم دقيقة أرسل إليه فأنبه أو حذره أوجازاه، وكان لا يرحم الموظفين في شيء، فعندما ينتهي الدوام لم يكن يخرج من الدائرة إلا بعد أن يقرأ الجرائد التي ترده واحدة واحدة مما كان يضيع على الموظفين أكثر من ساعة كل يوم. وكان قاسياً في معاملته فقد جاءه الموظفون مرة وقد سمعوا بأن هنالك ترفيعاً في الوظائف سيفيدون منه علاوة على الراتب ويبدو أن الوزارة بعد أن قررت ذلك رجعت عن رأيها، وحين سأل الموظفون المحافظ عن هذا الخبر أجابهم بكلمة لا؛ بطلت المسألة وتراجعت الوزارة دون أن يضيف كلمة على هذه العبارة الجافة المحزنة. وقد حدثت لي معه حادثة اعتقدت أنه يعطف عليّ لأمور كثيرة منها، أن كتابتي كانت تعجبه وتريحه بعد أن لقي عناء من كتابة غيري، ومنها أنني كنت صديقاً لأبناء عمه في حمص نظيم ونديم ورسمي وغيرهم، كانت الحادثة أني دعيت مرة إلى سهرة في بيت شعر لآل البرازي، فقد كانت العادة بحماه أن ينصبوا في الربيع بيوتاً من الشعر يسهرون فيها بين الخضرة والهواء العليل، وقد أكلنا كثيراً وشربنا، وكان معنا محيّ السهرة عازف العود الشهير عمر النقشبندي الذي كان مقيماً بحماه بصورة مؤقتة ولكنها إقامة طويلة، فقد جاء ليبقى أياماً معدودات فظل سبع سنوات يسهر السهرات ويقبض أجراً وأحياناً أجراً جيداً، فقد كانت حماه من أغنى المدن السورية وخاصة العائلات الشهيرة، كآل العظم وآل الكيلاني وآل البرازي، لقد سهرنا تلك الليلة وأفرطنا في الأكل والشراب وجئت إلى الوظيفة وأنا متعب والتعب ظاهر بوضوح على وجهي، وقد أوصل الخبر للمحافظ أحد الموظفين بقصد النكتة، وكانت نكتة من النوع الحموي المسمى «تهويش»، والتهويش هو أن يضحك شخص يثير شخصاً آخر فيكون الضحك ذا طرف واحد، وهذا أسوأ أنواع المزاح، ورآني المحافظ بالفعل فرأى حالتي غير طبيعية فنظر إليّ من طرف عينه وقال لي: اذهب، اذهب إلى البيت لتنام، ولقد خفت من ملاحظته هذه، فقد كان مخيفاً لأنه يقرر ولا يستشير أحداً وكلمته مسموعة في الوزارة، وقد يتعرض الموظف إذا أراد المحافظ حتى إلى التسريح لأنه لم يكن هنالك حصانة للموظفين، ولكن المحافظ لم يفعل شيئاً ولم يتغير عنده شيء بالنسبة لي وظلت العلاقة بيني وبينه كما هي، ولم يذكر هذه الحادثة لي بعد ذلك اليوم أبداً.

وقصة أخرى مضحكة جرت لي مع هذا المحافظ، فقد تضايقت من مزاح فوزي البرازي الذي كان - رحمه الله - لا يقف مزاحه «تهويشه» عند حد، مع أنه كان يحبني حباً جماً لا بل إنه كان معجباً بي عندما كانت تخطر بباله نكتة من نوع التهويش والإثارة. وذهبت إلى المحافظ أشكوه وأقول له بالحرف الواحد: إذا استمر هذا على المزاح فأنا مضطر إلى طلب نقلي إلى جهة أخرى، وكان المحافظ كما كنت أعلم، يكرهه لأنه كان يراه غير كفء للوظيفة، على أن ذلك مخالف للواقع وكان يبلغه عنه كلام يؤذيه،

وذهب المحافظ فالتقى عند آل طيفور بالسيد حسني البرازي فكلمه بهذا الأمر وطلب إليه أن يردع ابن أخته عن هذا المزاح السيىء، وأدرك فوزي عن خبث ودهاء، أنني شكوته فدعاني يومها إلى الغداء والح فقبلت لأنني كنت أعيش من طعام السوق ولم يكن لديّ من يعولني، وعلم حسني البرازي بأني تناولت الطعام عند ابن أخته الذي شكوته فتحدث مع المحافظ بالهاتف ينبئه بالخبر، وبأن الموظفين صديقان ولا شيء بينهما، ودعاني المحافظ إليه والامتعاض بادٍ على وجهه وقال: كيف تشكوه ثم تقبل دعوته، وضحكت وابتسم هو، وقلت له لقد خدعني ونسيت أني شكوته، وكانت نكتة تحدثت بها المدينة أياماً.

قضيت في الفندق أياماً انتقلت بعدها إلى فندق آخر أدنى منه أجراً توفيراً، فقد كان الراتب لا يكفيني للاقامة في فندق هو أفضل ما في المدينة، واسم الفندق الثاني فندق «الملكي» بالنسبة لأسرة تحمل هذا الاسم. وهو فندق قديم لم أستطع البقاء فيه مدة طويلة لقدمه وعدم توفر الراحة فيه، فانتقلت بعد ذلك إلى بيت في حي الدباغة، وكان بيتاً عالياً مشرفاً فيه غرفتان، كبيرة وصغيرة وقد خصصت الصغيرة للضيوف والكبيرة إليّ من أجل المنامة واشتريت ما يلزمني من كراسي وطاولات وكانت الأسعار رخيصة، فقد اشتريت طقماً من الخيزران الفرنجي كاملاً بـ /١٤/ ليرة سورية. ولم تمض أيام حتى ورد للمحافظة قرار يقضي بنقلي إلى الوزارة بدمشق، وذلك في شهر كانون الثاني من عام ١٩٤٠ فاستغربت الأمر، وقد نقل مكاني إلى حماه كاتب قديم في ديوان الوزارة هو السيد بهجت المنيني واستغرب كل من حضر هذا الترتيب، أما أنا فقد كان فرحي عظيماً وقلت بنفسي: سوف أكمل دراستي في معهد الحقوق وأسكن أنا وابن أخي الدكتور سامي الجندي الذي كان يكمل دراسته فأساعده وأشاركه مصروفه ونفقاته التي كانت تبهظ والده وتحرجه. واجتمع الأخوان الذين تعرفت عليهم مجدداً وخاصة آل الحريري الذين فتحوا لي بيتهم على مصراعيه، والذين دامت معرفتي معهم طوال مدة إقامتي بحماه، والتي دامت أكثر من عشر سنوات، اجتمع الأخوان وقد علموا بنبأ نقلي فأقاموا لي حفلاً ساهراً قدم لي فيها خروف كامل، ونصبت لي كرسي كبير فجلست أشبه بالرؤساء وكان حولي نعسان الحريري بعوده، وخالد اللجمي بحديثه وتمثيله وفكاهته الخبيثة، وبدر الدين الحامد الذي كان شاعر الحفل والذي أنشدني يومها:

أنت يا أحمد منّا كوكب في أفق سعد
إن نكن نحن افترقنا فبرغم وبجهد
غير أنّا نتأسى من فم الدهر بوعد

وسافرت في اليوم التالي إلى دمشق وسكنت غرفة من تلك الغرف التي كان يستأجرها طلاب الجامعة الغرباء، وأخذت أقضي عملي في ديوان النسخ في الوزارة، ولكني كنت أرى العيون ترمقني شزراً خاصة وأن السيد المنيني الذي نقل مكاني إلى حماه كان صديقاً ودبلوماسياً لأكثر المتنفذين في الوزارة، وخاصة قريبه الذي كان يتظاهر لي بالضيق والكره والإحراج، وقد ظللت أكرهه طوال حياته لأنه بادهني بكرهه دون سابق معرفة، ولأني لم تكن لي يد في النقل أو المبادلة، وأخذت الدسائس تسري، وكان رئيس الحكومة يومها الرجل الداهية أو سيد الداخلية، كما كان يسمى بهيج الخطيب الذي كان معتمداً وموثوقاً من الفرنسيين، وهو لبناني الأصل ومن بلدة تسمى «شحيم» في لبنان، وقد حاولت أن اقابله ولكني جبنت فلم أجرؤ. وهكذا صدر القرار بإعادتي إلى مكاني في حماه وإعادة المنيني إلى عمله الأول في دمشق وقد سويت الخلافات بينه وبين رؤسائه. ورجعت إلى حماه والغيظ يكاد يمزقني، وهل يعقل أن تصدر مثل هذه النكتة البايخة عن حكومة تحترم نفسها، رجل غضب عليه رئيسه فيكون غضبه سبباً للإضرار بشخص آخر بعيد لا ناقة له في الأمر ولا جمل ولكن هكذا حدث.

فتشت عن بيت قبل أن أستقر في حماه ثانية فتعرفت على غرفة في الحي المسمى (الحسنين) لأسرة فقيرة، وقد كان يقطنها تلميذ من سلمية، وأهل سلمية أقرب لمسيحيي حماه من الطوائف الأخرى على اعتبارهم جيراناً لهم. وكانت الغرفة لا بأس بها وفيها سرير، أحضرت له فراشاً وما يلزم من الأشياء الأخرى وقبل أن أجلس لأستريح في الغرفة، دخل عليّ شاب هو أكبر شخص في البيت إذ كان البيت

يتألف من غرفة قديمة فيها امرأة عجوز وفتـاة كبيرة السن، وحـين دخل الشـاب، وهو من سني تقـريباً، وجدته يحمل كأساً من الشراب وقدمه لي بعد أن رشف منـه رشفة كبـيرة، فنظرت إليـه قائـلاً: من الذي ادراك أنني أتعـاطى الشراب، وضحـك ونظـر إليّ يقـول: ألست من أعـز أصحـاب نعسـان الحـريـري وبدر الدين الحامد وخالد اللجمي وسري طنبورجي المغني، وقلت: وماذا تعني؟ قال هؤلاء كلهم يتعاطـون الشراب ولا يقبلون رفيقاً لا يشرب، وضحكت فقد أدركت أن الرجل يعلم تاريخ حياتي بالتفصيل، وأصبح هذا الشاب حتى وفاته ـ رحمه الله ـ صديقاً عزيزاً رغم البعد الشاسـع بيني وبينه فهـو مسيحي يلبس القنباز، وهو جاهل لا يكاد يعرف القراءة، وهو فقير معدم ولكنـه خفيف الظل وذو أذن حسـاسة في النغم، فقد كان اختصاصياً بالإيقاع الصحيح على الطبلة في الحفلات والأعـراس، ولقد كـانت هذه الطبلـة سبباً من أسباب وفاته ـ رحمه الله ـ إذ كان مدمناً على الشراب، وبينما كان في أحد الأعراس في قرية «محردة» المعروفة القريبة من حماه سقط في بئر من الآبار التي تحفر عادة لخزن الحبوب، وقد أثرت هذه الصـدمة فيه فكانت سبباً من أسباب مرضه ووفاته بعد سنوات. كـانت والدتـه فقيرة جـداً ولكنها عـاجزة، فهي لا ترى جيداً ولا تمشي جيداً وتحتاج للمعاونة دائماً، أما ابنتها فكانت نشطة لكنها فقيرة في كل شيء حتى في التفكـير، ومع ذلـك فقد عشت مـع هذه العـائلة أكثـر من سنة واعتبـرت ولداً من أولاد العجـوز المسكينة وكـانت رغم فقرها، من عائلة معروفة قديمة وكان لها ثلاثة أولاد غير صاحبي الشاب الذي يسكن معي في البيت، وكـل العائلـة كانت تعمـل في نحت الأحجار وهي مهنـة من أصعب المهن، وكان الأخـوان كلهم من أكـرم الناس رغم فقرهم الشديد الذي لا يوصف، وكثيراً ما كنت أشاركهم في طعامهم وخاصة طعـام الكبة وفي يوم الأحد نجلس عند الظهر وتجتمع العائلة كلها بمـرح ومزاح وظلت العجـوز المسكينة تقـول لي: محمد اقف طوال تلك الأيام، وظللت أصحح لها اسمي وأقول لها: أحمد الجندي، ولكنها كانت تعود للخطـأ بعد دقيقة كأنها كانت مصرة عليها لأمر ما، وكثيراً ما كانت تثور عصبيتي لأمور تافهة فكـانوا يحتملـونني ولا يغضبون لأنهم كانوا طيبي القلب، ولقد ظللت طوال السنين المـاضية أمـر بهم كلما مـررت بحماه إلى أن تغيرت الدنيا كلها ومات الشاب ومات أخواته كلهم مع العجوز، وأظن أن الفتاة هي الباقية وحدها.

ولقـد حدث حـادث جديـد اضطرني إلى تغيـير رأيي في الإقامـة بهذا البيت، فقـد جاء أحـد الأخوة فأصلح غرفة عتيقة متهدمة في البيت وسكن فيها مع زوجته وأولاده، وكان الأطفال علة شكواي، وقد تغير نظـام الحياة كلـه بعد هـذا الطارىء وكنت أرى الأطفـال وهم عراة في أيـام البرد يخـرجون بـلا لبـاس يسترهم، فكنت أتألم من هذا الفقر البادي رغم أني كنت أعطيهم دفتر التموين أيام الحـرب كما أعطيهم دفتر المؤسسة التي كانوا يستفيدون منها ومن بيع ما يأخذون منها.

انتقلت إلى بيت آخر في حي «الشيخ عنبر» وهو في الجانب الآخر من البلـدة ولم أمكث فيه إلا قليـلاً، فإن صاحبة البيت كانت نصف مجنونة، ثم إلى بيت ثالث وكنت فيه مجاوراً لأحد أفراد عائلة البرازيـين، ومع أنني كنت صديقاً للعائلة إلا أن الصداقة لم تفدني، فقد احتال عـليّ جاري العـزيز محـاولاً احتلال البيت بحجة أنه لازم له ليتخذه قناقاً ولجأ في مشروعه إلى طريقة مخجلة، فقد أوصى أحد زعران الحي من أصحابه أن يتعرض لي بسلاحه في ليلة من الليالي، وقد كنت في ضيق من ثقالة هـذا الجار ولم ألبث بعـد هذا حتى انتقلت إلى بيت جديد. كان هذا البيت غير منـاسب ولكن السكان كـانوا فقـراء وكانت غـرفتي مناسبة، كان البيت معتماً ويقع في حفرة تنحط أكثر من مترين عن سطح الأرض، وكنت أصعد إلى غرفتي بسلم حجرية فإذا وصلت إلى غرفتي استرحت لأنهم كانوا يعنون بالنظافة كما ينبغي، وكـان البيت مؤلفاً من الأم الأرملة وهي تعمل خائطة مشهورة في الحي وابنة جميلة الوجه جداً ولكنها مصابة بعاهـة العرج من مـرض أصابهـا وهي طفلة، وكـان للفتاة أخـوان واحد في الخـامسة عشرة والثـاني في الثانيـة عشرة وكلاهما كانا يعملان كأكثر أهل هذا الحي المسيحي بصناعة نحت الأحجار.

كانت صاحبة البيت امرأة متوسطة السن والشكل مع بساطة ظـاهرة لكنهـا كانت لطيفـة خجولـة لا تسمع لها صوتاً عالياً ولا تبصرها في حالة غضب أبداً، وكانت معروفة بدمـاثتها في الحي فكـان أقربـاؤها نساءً ورجالاً يزورونها، وسرعان ما اعتبرت واحداً من البيت وأصبحت أشارك في الطعام والشراب مع أهل

البيت وأقربائهم، وكانت العائلة تعيش من أجور الخياطة التي تقوم بها، وكنت آتي عند الظهر فأرى غرفتي مهيّأة كأحسن ما يكون، ولقد بقيت في هذه الغرفة حوالي السنة، وفي تلك الوهلة تم زواجي وتركت البيت إلى بيت آخر هو بيت العائلة وذلك بتاريخ ٩ تشرين الثاني ١٩٤٣. كانت المرأة التي سكنت عندها قريبة للقلب ولم تكن جميلة كما قلت ولكن أخلاقها الطيبة وعطفها عليّ وسعيها لإرضائي من حيث النظافة وعدم إزعاجي في شيء من ضجة أو غير ذلك، كل هذا جعلني أحزن عليها حين بلغني نبأ وفاتها بمرض عضال.

كانت ليالي حماه في تلك الأيام من عام ١٩٣٩ حين قدمت إليها تشكل سهرة واحدة فأكثر البيوت كان تقيم السهرات التي تشتمل على الشراب والغناء والطعام، والموائد الحموية معروفة بكرمها وسخائها، ولقد كان أول إنسان تعرف عليّ مجدداً ورحب بي هو المرحوم علي النابلسي الذي أصبح فيما بعد شخصاً بارزاً في الحركة العمالية في المدينة ولقد كانت معرفتي بعلي قديمة، إذ كان موظفاً في مؤسسة للكهرباء فكان يعرض كل ما يأتيه على طاولة يدعو إليها أحد أصحابه، ولم يكن مسؤولاً عن شيء آخر لأنه لم يكن متزوجاً ولم يتزوج فيما بعد، ومات منذ سنوات إلى رحمه الله، وكان عليّ هذا هو الذي عرفني بنعسان الحريري ورفاق سهره، أما بدر الدين الحامد فكنت أعرفه عن طريق الكتابة والصحافة وكان يتردد كثيراً على سلمية بحكم وظيفته مفتشاً للغة العربية أو مديراً للمعارف كما كانوا يسمونه يومئذ، وأما نعسان الحريري فأمره عجيب وشخصه غريب. كان والده محمد الحريري مفتي حماه الذكي الأديب الذي انتزع الإفتاء من آل الكيلاني كما انتزع نقابة الأشراف من نوري باشا الكيلاني عميد الكيلانية بواسطة أبي الهدى الصيادي الذي كان كل شيء في عهد السلطان عبدالحميد بصفته شيخ السلطان، وأبو الهدى من قرية اسمها الصياد قريبة من خان شيخون الواقعة على طريق حلب ـ حماه، وهو منتسب للطريقة الرفاعية ويقال إن نشأته كانت رعاية الجمال، ولكنه كان ذكياً عبقرياً حتى يقال إنه لم يحفظ شيئاً ونسيه بعد حفظه أبداً، ومن هذه النشأة البسيطة انتقل في المشيخة إلى حماه ثم إلى حلب إلى أن وصل إلى استامبول، وقد ذكر أمره للسلطان وأنه يستطيع أن يفعل ما لا يفعله غيره من المشايخ، ويبدو أن السلطان مرض أو مرض أحد أقربائه فقرأ له الشيخ فشفي في اليوم الثاني فآمن به السلطان، وكان السلطان عبدالحميد مسلماً قوي الإيمان يعتقد بالأولياء والكرامات وكان يحب العرب ويميل إلى صداقتهم، ولقد استولى العرب في عهده على دار الخلافة على يد أبي الهدى الصيادي وعزت باشا العابد الذي كان باشكاتب المابين كما كان يسمى ديوان الخلافة. ولقد تتلمذ محمد الحريري على يد أبي الهدى فأخذه إلى استامبول ومن هناك ولّاه الإفتاء وكل شيء ديني بحماه، ومنع نوري باشا الكيلاني من نقابة الأشراف ومن لبس العمامة، فظل الباشا في بيته لا يخرج منه إلى أن مات، ويقال إن أبا الهدى كان موتوراً وحاقداً على اثنين أو عائلتين في المنطقة هما آل الحراكي ـ وجهاء المعرة ـ وآل الكيلاني، وقد تزوج بامرأتين من هاتين العائلتين أخت نورس باشا الحراكي وواحدة كيلانية وسبب ذلك أن أحد أفراد هاتين العائلتين ضرب أبا الهدى يوم كان راعياً للجمال يقرأ الأذكار ويسير سير الدراويش. والأخ الشقيق لنعسان الحريري هو عز الدين الحريري الظريف الطريف وصاحب الحديث الطلي والنكتة الحلوة والصوت الجميل والشكل الذي كان محل الإعجاب من النساء والرجال، فقد كان أجمل الشباب في عصره كما كان نعسان من أجملهم، وأمهما تركية من سرّيات السلطان عبدالحميد تزوجها والدهما يوم كان في استامبول ضيفاً على أبي الهدى الصيادي شيخ السلطان.

كان آل الحريري حين جئت إلى حماه في آب ١٩٣٩ في نعمة سابقة، فقد كانوا يملكون وقفاً كبيراً لرجل من أمراء الأتراك أظن أن اسمه «طومان باي»، وقد كان عز الدين المتولي على الوقف الذي يشمل قرية: جرجيسة ومعرزاف والحميري، وهي ثروة طائلة كما يرى كما استولى على الزاوية الحريرية وقد كانت هذه الثروة وقفاً على هذه الزاوية لإطعام الفقراء والمحتاجين. وكان بيت الحريري في حي «الفراية» المتصل بحي «المرابط» الذي يمر بالبلد من شرقها إلى غربها. وكان البيت يتألف من دارين أحدهما بهو كبير فيه غرف عديدة وبجانبه دار أخرى فيها ساحة قوراء وعدة غرف، وبجانب البيت الزاوية التي كانت

بناء قديماً استعمله آل الحريري منزولاً يستضيفون به الزوار والمدعوين ويقدمون فيه القهوة المرة.

كان نعسان من أجمل الشباب شكلاً ذا صوت عريض أجش أبيض اللون ميالاً إلى السمنة الظاهرة وقد بدأ حياته تلميذاً في المدرسة الأهلية «دار العلم والتربية» ولكنه لم يكمل دراسته كعادة أولاد الذوات في تلك الأيام، إذ كانت القاعدة أن صاحب الثروة ليس بحاجة إلى العلم فلما زالت الثروة بحكم التطورات السياسية أصبح هؤلاء لا دنيا ولا دين ـ كما يقال ـ وعائلة الحريري عائلة موسيقية ـ إن صح التعبير ـ فكلهم ذوو أصوات جميلة يحفظون الأغاني ويطربون لها ويحبون السهر والمرح كما يحبون الشعر والأدب، وقد كان منهم محمد الحريري الكبير شاعراً، وكان عز الدين يحاول نظم الشعر للنكتة والمرح، وكان ابنه محمد من شعراء الشباب الذين كان لهم دور في الحياة الأدبية بدمشق، وتعلم نعسان الغناء وعزف العود فبلغ درجة جيدة، ولكنه لم يكن عازفاً فنياً بل عازفاً ـ خاصاً ـ كما يمكن أن يسمي لأنه لم يكن يتقن هذه الآلة إلا بالنسبة إليه هو، فلم يستطيع أن يعزف للحن آخر، وكان عزفه محدوداً في جمل موسيقية هو صاحبها فلا يجيد التقسيم ولا يحفظ شيئاً من المعزوزفات المعروفة من بشارف(*) أو سماعيات أو غير ذلك، إنه يغني ويحاسب نفسه فقط، فإذا غنى غيره بات وكأنه لا يعرف العزف، ولو سمعته من بعيد دون أن تراه وفي مبدأ عزفه لحسبته من كبار العازفين لما في ريشته من زخم وقوة ودقة في جس الأوتار، ولكنه يظل في موقعه الأول فكل ما يعرفه محدود جداً لا يسمن ولا يغني من جوع.

أما صديقنا الآخر الذي عرفته مع نعسان فهو خالد اللجمي، وكانوا يسمونه «خالد بربش» لعلة كانت في عيني جده وهو من أسرة عاملة ليس لديها ثروة أو أملاك، وكان يعمل كاتباً في العدلية ولكنه كان ذكياً بالغ الذكاء، بحيث كان يعتبر من أذكى الكتاب، وقد تدرب على يد كاتب كان مشهوراً بمعرفته هو عبدالمعين الحوراني الذي توفاه الله أثناء سهرة من السهرات عند الوجيه الصديق المعروف علي آغا النعسان البرازي. كان خالد صاحب نكتة يصنفها هو، وكان وصّافاً كثير الكلام مخترعاً للقصص التي لا يمكن أن تقع فكان بذلك يخدع الغرباء بوقائع لا يمكن أن تحدث وكنا نحن الذين نعرفه نضحك لهذه القصص الكاذبة التي كان يعجب لها الضيف الغريب، بينما نحن آخذون بالضحك لمعرفتنا بكذبه واختراعه. وكان خالد هذا جريئاً يستطيع التخلص من الأزمات بجرأة نادرة، كما كان نحيفاً بالغ النحافة ولكنه يستطيع أن يشرب عدداً من الكؤوس مما لا يستطيع غيره كما كان يحب الطعام بشكل لا يتناسب مع ضعف جسمه وصغر حجمه، ولقد تزوج أخيراً وأنجب أولاداً وبناتٍ. وكذلك نعسان فقد تزوج ابنة ابن عمه وأنجب منها أولاداً لم يبق منهم كما أظن إلا ابنة وصبي واحد.

كان بيت نعسان نادياً لنا فكنا نسهر فيه ليلياً، وكانت تأتينا المآكل من الدار الأخرى، وكان نعسان يمسك العود فلا يتركه إلا نادراً، وكنت أنا وخالد نشجعه ونظل هكذا إلى القريب من الصباح، وكان الذي يتضايق من هذا بدر الدين شاعر العاصي فقد كان يرغب في الإقلال من الشراب والسهر ولكنه عندما يحين الأوان في السهرة تراه أول المشجعين وأول السائلين حتى نجتمع. كان يتوب عن السهر والشراب في كل ليلة بسبب مرض في عينيه هو من نوع الأكزيما التي لا تشفى. وقد وصف مرضه هذا في قصيدة طويلة قال فيها:

يقولون «اكزيما» وأين دواؤها أطارت به فوق السماء نسور

وكنا قبل السهر نجتمع في مقهى الفندق فكان يجلس بعيداً عنا، ونجلس ثلاثتنا أنا ونعسان وخالد في زاوية أخرى بحيث يرقب أحدنا الآخر، فإذا مضى الوقت ولم نقم، نادى بدر الدين: يا بكري، وبكري هذا عامل المقهى الذي كان يتولى أمرنا ويسأله: أرى الجماعة لم تقم إلى البيت ألا ينوون شيئاً هذا المساء؟ ونراه نحن وهو يكلم بكري فنفهم ما يقول من بعيد ونصطنع النسيان والانشغال فيروح يتلفت يمنة ويسرة ويكرر نداءه لبكري ونحن نضحك، ثم ما نكاد نتحرك حتى يقوم من مكانه تاركاً رفاقه ليلاقينا على

(*) البشرف معروفة بتألف من مقاطع بينها فاصل يتكرر، والكلمة تركية والسماعي مثل البشرف ولكن تختلف عنه بوزنه وإيقاعه، والقطعة الأخيرة منه مستقلة عن الأصل

الطريق ولنخرج معاً، وقد ينحرج أحياناً من مرافقتنا نظراً لمركزه ـ في الوظيفة ـ كما كان يردد دائماً ـ رحمه الله ـ وكثيراً ما كان يذهب عصارى النهار إلى دار آل طيفور ليقضي بعض الوقت مع «العاقلين» فنرسل إليه خادمي نعسان وكانا خادمين أحدهما «صبر» والآخر «دحروج» فيناديانه من بعيد أن الجماعة ينتظرونك ويعرف كل من بدار طيفور من هم الجماعة. أي رفاقه في السهر ويخرج غاضباً يقول لنا: يا أخي لقد فضحتموني بقول هذا وهو أرغب الناس بالسهر، وكان يخاطب دحروج هذا خادم نعسان بقوله الدائم:

ودحروج أولى الناس عندي محبة   ودحروج عني المعرض المتغابي

ثم نسير سوية إلى البيت وهو يتلفت لعله يخفي نفسه عن الناظرين ومن الغريب أن كل من في حماه يعرف كل شيء عن بدر الدين وسهره ولياليه ومع ذلك فقد كان يلتزم التقية ويخشى أقوال الناس خشية عجيبة. فإذا وصلنا إلى البيت وجاءت الصحون ومدت المائدة كان بدر الدين أول من يمد يده، فقد كان ـ رحمه الله ـ يحب الشراب حباً جماً، ومن مناقضات الحياة أن الذين أو أكثر الذين يولعون بالشراب تهبهم الطبيعة معدة قوية وكبداً محتملاً لكل أنواع الشراب، وهكذا كان بدر الدين، فقد أثر الشراب أخيراً في قلبه ولكنه ظل قوياً في آلة الهضم من معدة وغيرها وكأنه لم يتعاط شيئاً في حياته.

فإذا بدأت السهرة كان بدر الدين أول المنتشين طرباً وقد يشارك بالغناء ويشارك بالدبكة والرقص ويكون آخر من يقوم، مع أنه يكون أول المشترطين اختصار السهرة والشراب، وفي اليوم الثاني يمر بي وبخالد وكنا معه في دار الحكومة فيعاتب ويؤنب ويشتم أحياناً ويتهمنا بأننا نسبب له الكثير من المشاكل في بيته وخارجه وفي صحته ووظيفته. كان بدر الدين من أطرف الناس حديثاً وأحلاهم رفقة وصداقة. كان أبعد الناس عن الشراسة والعصبية يعامل كل أخوانه وكأنه من جيلهم أو أصغر منهم، وكان فصيح اللسان كما كان من أحسن الشعراء الذين يلقون الشعر، ولكنه كان كسولاً إلى أبعد غايات الكسل، ولعل كسله هذا هو الذي جنى عليه في شاعريته فجعل منه شاعراً سطحياً لا يتعمق ولا يجهد نفسه لأن موهبته قوية في الشعر والوزن والقافية يأتيان بسهولة إذا كان الشاعر موهوباً كبدر الدين، وهذه السهولة هي التي تمنعه من التعمق، يعني الفكر، والفكر يحتاج إلى قراءة ودرس وبدر الدين كان أبعد الناس عن القراءة والدرس، إنه أنهى دار المعلمين في شبابه وما أظنه قرأ شيئاً هاماً بعد تركه المدرسة، فشعره نغم وإيقاع ولكنه خلوٌّ من اللمحة الشعرية والصورة الأخاذة والفكرة العميقة، وبدر الدين لم يتجدد في شيء، ولم يحسّن شعره فشعره القديم القديم مثل شعره الجديد الجديد، ولكنه كان أحسن صديق ورفيق في كل من لاقيتهم في حماه هو والصديق الآخر الذي كان شيئاً آخر في لطفه وأناقته وتهذيبه وأعني به محيي الدين الحوراني شقيق أكرم الحوارني والرجل الذي فقدت فيه شاباً من أحب الناس إليّ، وكنت من أحب الناس إليه حتى كان يقول لي حين كان يبحث عني: لقد ضربت إليك آباط الإبل، هذه الكلمة القديمة التي تدل على الشوق الملح للقائي والجلوس إليّ في جلسة من جلسات السمر. لقد كان محيي الدين الحوراني من أغنى الشباب في حماه فقد خلف له والده ثروة طائلة تتألف من عدة قرى أكبرها «البياضية» ومعها قرطمان ومتنا، وكلها على طريق حماه ـ مصياف، أما البياضية فكانت ثروة وحدها، ولكنه اضطر لبيعها إثر ضغط من الفرنسيين الذين أثاروا عليه الفلاحين، وكان لمحيي الدين أربعة أخوة هم: عبدالحليم وواصل وأكرم وعدنان، وهذا الأخير أخوه لأمه، وقد كان عبدالحليم وواصل رفيقي في الزراعة واحد قبلي والثاني بعدي، أما أكرم فكان رفيقي في الثاني عشر في مكتب عنبر، وأما عدنان فكان أخانا الأصغر ولكنه كان يشترك في ليالينا ومجالسنا، وهذه العائلة، آل الحوراني، أقرباء لآل الحريري فهم رفاعية مثلهم، وهم والحريريون من أصل حوراني جاءوا إلى حماه خلال السنين المنصرمة من القرن التاسع عشر أو الثامن عشر، ووالد محيي الدين رشيد أفندي الحوراني كان شخصية بارزة ولعله أول من تحدث بالمساواة والديمقراطية وربما بالاشتراكية أيضاً، وكان ذا رأي صائب وفكر ثاقب في كثير من الأمور التي في بلدة حماه كما كان معارضاً لتصرفات العائلات الثرية من كيلاني وبرازي وعظم.

ولقد تزوج محيي الدين ابنة أحمد آغا البرازي، فكان عديلاً لكثير من شباب البرازيين لكنه كان

مختلفاً معهم في أسلوب الحياة، حتى لقد ازداد هذا الاختلاف في الآونة الأخيرة مما أدى إلى اعتزاله أكثر هذه العائلة وقد اتّهم ـ رحمه الله ـ في فترة من فترات حياته بأنه متفاهم مع الفرنسيين، وكل ما في الأمر كما أرى، أنه كان يعرف اللغة الفرنسية وكان الناس محتاجين إلى من يترجم لهم، وهذه الترجمة ولدت اجتماعات مع الجانب الفرنسي وربما ولدت بعض الصداقة التي ظنها الخصوم تفاهماً استغلوه ليتهموا الرجل الطيب بأنه ممالىء للإفرنسيين، وهذا مخالف للحقيقة فأنا أعرف الناس بمحيي الدين، وقد كان يصارحني بكل أمر حتى فيما لا يعجبني من الأمور. ومرض المسكين مرضاً عضالاً في حنجرته أدى به إلى الموت الباكر ولقد حزنت عليه حزناً شديداً، وفي أيام مرضه الأخيرة كان لا يسمح لأحد بالدخول عليه إلا لي ولبعض أحبائه وأصدقائه الخلّص، وكنت أتحدث إليه كتابة فقد كان عاجزاً عن الكلام وحين توفي سهرت إلى الصباح وخرجت في الصباح الباكر إلى قبره فأبّنته بقصيدة ما تزال محفوظة لدي أعود إليها كلما تذكرته.

كان نعسان الحريري يحب الغناء الدائم، كما يحب التلحين، ومن الغريب أنه لم يدرس شيئاً من الموسيقى ولكنه كان يعرف بعض النغمات، ولم يكن صوته جميلاً ولكنه كان يحسن الأداء لدرجة الإطراب وقد وفق في حياته إلى لحنين حفظهما الناس وادعاهما بعض المغنين، وهما أغنيتان كتبهما بدر الدين الحامد، ولعلهما من أحسن ما كتب إن لم تكونا فعلاً خير ما نظم أولهما، الأغنية المعروفة:

دفنت أشجاني بين الهوى والراح
وأتت ريحاني ما دارت الأقداح
حديثك السحر ولحظك الخمر
وخدك القاني ورد على تفاح

أما الأغنية الثانية فهي:

أنا في سكرين من خمر وعين واحتراق بلهيب الشفتين
لا تزدني فتنة في الحاجبين

يا حبيبي أذن المغرب فانهض للمدام ودع العود يغنينا تراتيل الغرام

وقد كان هذا البيت عقبة في سبيل تحقيق الديوان الذي حققته لبدر الدين وطبع بنفقة وزارة الثقافة السورية في جزءين، ذلك أن أهله ومنهم مفتي حماه الشيخ محمد الحامد وأخوه عبدالغني الحامد وأولاده، لقد اعترضوا على قوله: أذّن المغرب فانهض للمدام، وهي فكرة حقاً تدعو إلى الدهشة من رجل مثل بدر الدين، لكن هكذا أراد الشعر وقد رأى بعض المتساهلين في أمور الورع والتقوى، إنها فكرة جميلة ولا يؤاخذكم الله باللغو في إيمانكم وعلى كل حال فقد اضطررت أثناء تحقيق الديوان إلى جعل هذا البيت على الشكل التالي تقيّةً:

يا حبيبي أقبل الليل فهيّا للمدام

وإن كنت أعلم أنه لا يجوز لي أن أغير شيئاً مما كتبه الشاعر، فالأمر عائد له وهو حر فيما يقول وفيما يوحيه إليه إلهامه الفني.

ولقد ادعى الأغنيتين سالفتي الذكر المغني سركيس الأرمني الأصل وسجلهما في إذاعة دمشق، وقد اعترضت على ذلك لدى المسؤولين وأفهمتهم أنني كنت حاضراً نظم هذه الأبيات وتلحينها وكل ذلك كان يغنيه المطرب صاحب الصوت الجميل المرحوم يسين محمود أو يسين خطاب أو يسين «حمشو»، كما كان اسمه الأول عند أهل حماه وقد توفاه الله إلى رحمته منذ شهرين أو أقل ـ ١٩٨٩ ـ.

كان يسين المطرب يعيش في كنف أخيه الذي صحبه إلى العراق للعمل هناك، وكانت العائلة فقيرة وإن كان لها أقرباء في حماه كثيرون، وعاد يسين وهو ابن ستة أو سبعة عشر عاماً وسمعت صوته في سهرة عائلية فأعجبت به، فقد كان صوته صافياً، ولكن يسين لم يدرس ولم يتعلم فكان أمياً، وقد حاول أن يتعلم بعد أن كبر وأسن فلم يستفد شيئاً، وكان بسيطاً محدود التفكير ظل كالطفل إلى أن كبر وتجاوز الستين من العمر، كان إذا حفظ الأغنية أجاد غناءها، وقد كان أكثر غنائه من الأغنيات الشعبية مثل: يا

سلمي، ومثل: بأيش الغوازي، وكان يجيد هذه الأغنيات إلى درجة الطرب، وكان من صفاته أنه كان جريئاً جداً حتى إنه اضطر مرة لارتكاب جريمة قتل حين لحق به جماعة من حزب، لا اذكر ما هو، يريدون أن يضربوه فضرب أحدهم بموسى كانت في يده فجرحه والتهب الجرح ومات المضروب وسجن يسين مدة من الزمن ثم أخلي سبيله بمادة الدفاع المشروع. وأصيب يسين بمرض السكر الوبيل وكان يحدثني بالهاتف فأزوره وأساعده في كتابة رسائله وما يلزمه إذ كان عاجزا عن الكتابة وكان كريماً، والكريم يكون أكولاً وهذا ما أضره وأداه إلى أن أثر السكر في عينيه فضعف بصره ثم توفي منذ اشهر (١٩٨٩)، وقد كنت على موعد معه ولم أفِ بوعدي بسبب أحداث طرأت ولقد حزنت عليه لأنه كان علالة جميلة في ليالي السهر بما كان يفيض علينا من غناء جميل من صوته الجميل، رحمه الله.

كان من أصدقائنا رغم تفاوت السن بيننا وبينه الشيخ حمود الزبرءوني وهو من عائلة معروفة في حماه ولكنها عائلة فقيرة، أما هذا الرجل فقد كان نادرة من نوادر حماه وكان من محدثي المجالس المرغوبين، كما كان صديقاً للسيد نجيب آغا البرازي الزعيم المعروف وعز الدين الحريري الثري والظريف المعروف. كان الشيخ حمود شاعراً على الطريقة القديمة فهو ينظم البيت أو البيتين يحرص فيهما على النكتة، وينظم الموال، وأشهر ما اشتهر به نظم التاريخ وهو اللون الشعري الذي كان سائداً حتى مطلع هذا القرن، وهو أن ينظم البيت من كلمات تتألف من حروف كل حرف يقابله رقم معروف في هذا النوع من الشعر الصعب والذي لم يكن فيه شعر وإنما هو صنعة لفظية لا علاقة لها بالشعر، كان الشيخ حمود كشاعر، من تلك الفئة التي عرفت في نهاية العهد العربي الزاهر وفي أيام العهد التركي الذي مات فيه الشعر العربي، وكان الشعراء في هذا العصر يعملون على رصف الكلمات والقوافي في قصيدة إذا قرأتها لم تشعر بشيء يحركك أو يطربك، إنه كلام في كلام خال من الطعم والرائحة واللون، من هؤلاء الشعراء أمين الجندي ومحمد الهلالي وقسطاكي الحمصي وسليم عنجوري وكثير غيرهم، كانت مهمة هؤلاء نظم الكلمات دون الالتفات إلى إلهام أو خيال أو صورة أو لمحة فنية، ولكن الشيخ حموداً قصر همه على نظم البيت أو البيتين وقد وفق في بعضها من حيث النكتة لا من حيث الفن الشعري. اهداه الوجيه السيد فؤاد البرازي جدْياً أرسله مع خادمه فوصل الجدي عصارى النهار ولكنه ما وصل إلى المغرب حتى توفاه الله، وكانت نكتة بايخة كما يقال وحمل الشيخ الجدي الشهيد مع ولد من اولاده بعد أن لفه بخرقة وكتب لفؤاد آغا هذين البيتين:

أهدى فؤاد إليّ جدياً ناحلاً ... فإذا نفخت به قضى أو طارا
قسماً بمن خلق الجدايا كلها ... لولا المشيّة لم يزرلي دارا

فالبيتان محكمان وقد وجدتهما كثيرين على الشيخ حمود وخطر على بالي أنهما مأخوذان من شاعر سابق، ولكني لم أصرح برأيي هذا لأن هذه التهمة أكبر ماسيسيء إلى الشاعر أو يغضبه، وكان في المحكمة التي يعمل فيها الشيخ حمود كاتباً مؤقتاً في دائرة الإجراء «التنفيذ» نائب عام جركسي اسمه: صلاح الدين تاموخ، وقد عرفته فيما بعد شخصياً، وبعد أن أحيل إلى المعاش وكان رجلاً جاداً لا يعرف المزاح، وصاحب المزاح لا يضايقه أو يسيئه أحد إلا هؤلاء المتزمتون الذين يرون في الضحك عيباً أو نقصاً في احترامهم، وقد طلب من الشيخ حمود، حين رأى غرفته وأوراقه ومحفوظاته من المعاملات، في فوضى كاملة، لقد طلب منه أن يرتب غرفته وينظمها بموجب دفاتر وقيود جديدة، وكان هذا العمل صعبا على الشيخ ولا سيما وأن أيامه الباقية في الوظيفة كانت قليلة حتى يحال إلى المعاش، فكان يمر بغرفة الشيخ كلما أراد أن يذهب إلى الحمام، وقد كان مريضاً كما يبدو يتبول كثيراً، وكلما مر بالشيخ كرر له الأمر بترتيب الأوراق وتصنيفها وضاق الشيخ ذرعاً بذلك فقال فيه:

ما همّ يوماً أن يقضيَ حاجةً ... إلا وآنس غرفة الإجراء
وهناك لا تسأل عن الرأي الذي ... يبديه حيث الافتكار خرائي

وثار يوماً على هذا النائب العام فقال فيه موالاً ظريفاً لا أذكر إلا مطلعه الرائع:

من آل تاموخ يلعن دين أجداده

وعَند الشيخ فلم يسمعنا الموال كاملاً، وأصيب مرة بكارثة فقد أحيل على المعاش قبل أن تكمل مدته بأربعة عشر يوماً، ومعنى ذلك أنه لن يستحق معاش التقاعد وإنما يُكتفى بإعطائه تعويض التسريح وكان هذا بالنسبة له كارثة كبيرة، وكان وزير العدلية الذي سرحه من المشايخ. والشيخ بينه وبين المشايخ ما صنع الحداد، كما يقال، فكان كلما جاء عيد من الأعياد أرسل لهذا الشيخ الوزير بيتاً أو بيتين من الشعر يشتمه بهما ويرسل الرسالة على الطريقة «التاكس» ليدفع الوزير الأجرة، وقد أرسل له في أحد الأعياد هذين البيتين:

نفدت من الصيام وأنت حيٌّ   وكان الظن أنك لا تعيش
وددت بأن يكون لنا مدار   وشيخي ذا اللعين(*) هو الكديش

وحدثني يوماً أنه كان يسكن في غرفة في الجامع، وهو الجامع الجديد بحماه، وقال إنه اجتمع لديه مرة عشرون ليرة ذهبية فجنَّ بها فرحاً وذهب إلى غرفته فأغلق الغرفة، وأخذ يرمي بالليرات ثم يركض وراءها ليلمها وهكذا دامت هذه اللعبة أكثر من ساعة.

ولقد كان الشيخ صديقاً لعز الدين الحريري ومحسن البرازي السياسي ورئيس وزراء حسني الزعيم الذي اغتيل معه بحادثة سياسية معروفة، لقد ذهب معهما فدعاهما الأستاذ فارس الخوري السياسي الكبير والعالم المعروف، وفي أثناء الحديث أعجب الأستاذ الخوري بحديث الشيخ ورأى هندامه نظيفاً فسأله: ماذا تملك من الأملاك؟ وضحك الشيخ كما ضحك الحاضرون ممن يعرفون فقر الشيخ وأجاب الأستاذ الخوري بقوله: لم تتكلم بالجمع يا مولاي فتقول أملاك؟ وضحك الكل لهذه الملاحظة الطريفة.

وسمع الشيخ مرة، وهذه الحكاية قصها عليّ، بكرم الشيخ أبي الهدى، وكان أبو الهدى يعرف علاقة محمد الحريري المغني وعطفه على الشيخ حمود، وركب الشيخ حمود الباخرة ومعه قصيدة غُني بها يمتدح بها أبا الهدى، وما كاد يصل إلى استامبول حتى وقع انقلاب عبدالحميد (١٩٠٨) وهرب عزت العابد والقي القبض على أبي الهدى ووضع في جزيرة من الجزر القريبة من استامبول، ووصل الشيخ إلى أبي الهدى وعرف أبو الهدى أن الشيخ حموداً يحمل قصيدة وسأله: ما نظمت لنا يا شيخ حمود؟ وقام الشيخ حمود فألقى قصيدة ضعيفة السبك والنظم، واعتذر قائلاً: يا سيدي لقد تعبت في الباخرة وأصبت بالدوخة فاعذرني فيما نظمت في مديحك، وقال له أبو الهدى لا بأس عليك، والقصيدة أيضاً «دايخة»، وحين خرج من عند أبي الهدى قال له: لا تؤاخذنا يا شيخ حمود لقد جئتنا متأخراً، وبالفعل كان أبو الهدى عندئذ محجوزاً عليه بالإقامة الجبرية كما كان مريضاً بالاستسقاء، وقد مات فعلاً بعد مدة قليلة، وأعطى الشيخ حموداً يومها عشر ليرات ذهبية نفقة العودة.

كنت أقول لأصدقائي الخاصين، إن الشيخ حموداً يحمل شهرة أكبر منه بكثير، فهو شاعر مختصر جداً وهو غير محدث لأنه بطيء الكلام، ونادر النكتة، وقد كافأه أحد الحمويين على ما فيه من برودة مرة، فرأى الشيخ صاعداً إلى بيته في رأس التلة المشرفة على المرابط وحماه كلها تلال كما هو معلوم، وكان الحموي يحمل بطيخة حمراء «جبسة» من نوع «النمس» الذي يزن قرابة عشرة كيلويات، ولما رأى الشيخ حلف يميناً بالطلاق أن يأخذ الشيخ النمس، وأعطاه إياه فاضطر إلى حمله حتى كاد يقع من التعب في آخر الطلوع ولما وصل أقدم الحموي فاسترجع النمس وترك الشيخ ذاهلاً من هذه المزحة الثقيلة المؤلمة.

لقد توفي الشيخ ـ رحمه الله ـ وشيعناه إلى رحمة الله، لقد كان فقيراً في كل شيء حتى الشعر ولكنه كان لطيفاً محبوباً لم يؤذ أحداً ولم يثقل على أحد.

كان صديقنا نعسان الحريري يمثل الطفل ابن الدلال، وقد بقي طفلاً كل حياته وحتى وفاته كان المال يأتيه دراكاً، وكان وجيهاً في بيته وكريماً، ولكنه كان أجهل من الجهل فهو لا يعرف شيئاً من العلم كما لا يعرف شيئاً من أمور الحياة، يحب فحبه جنون ويكره فلا يستطيع أن يكره لطيبة وصفاء نيته وطفولته، ولقد تورط في عشق كان سبباً من الأسباب الهامة في دماره ودمار ثروته، ولقد مات فقيراً لا يملك

(*) وضعنا غير الاسم قصداً، لان للشيخ ابناء واقرباء أعرفهم ويعرفوني.

من حطام الدنيا شيئاً، لقد ذهبت إلى بيته حين مات وكان بيته مأجوراً لأنه باع بيته الذي كان أشبه بالقصر باعه ليشتري بثمنه سيارة لم يستطع وفاء ثمنها فحجزت وبيعت وظل بلا مأوى يتنقل من بيت إلى بيت كالغرباء، لقد أحب امرأة دمشقية مجنونة، وأظنها كانت تصطنع الجنون لتبتز منه أمواله وقد علّمها أشياء مضحكة، فكانت تحمل مسدسا حين تجلس إلى الشراب معه وكثيراً ما أطلقت العيارات النارية أثناء الجلسة في المقهى أو في البيت أو في الفندق، وكثيراً ما لمناه فكان يغضب لانتقادنا ويلومنا على لومنا، وعلمها ركوب الخيل والصيد وكل ما ليس له علاقة بالمرأة، ومع ذلك لقد كانت جميلة، لا بل رائعة الجمال، ولكني لم أرها إلا مرة أو مرتين وما رأيتها في هذين اللقاءين ابتسمت أو تحدثت وإنما كانت تلتزم السكوت، وكل همها أن تطلب الأشياء التي يصعب الحصول عليها، فهي تطلب مثلاً في القرية البعيدة النائية فستقاً حلبياً ويضطر نعسان «الأفندي» كما كان يسميه الفلاحون إلى إرسال أحد رجاله بسيارة ليحضر لها فستقاً في أنصاف الليالي من حمص، وكنت أكرهها كرهاً لا يوصف وأحذره منها، ولكنه لا يستمع ولا يريد أن يستمع، ولقد تركته وهجرته وهو في أشد حالات الفقر. وكنا مرة في إهدن وكانت معنا فقد أرسل إليها خفية لتحضر وحضرت وسهرنا على نبع «مار سركيس» الشهير في تلك المنطقة، وقد دعانا للسهرة على النبع أحد زعماء تلك البلدة «إهدن» وهو الشيخ فؤاد الدويهي وجيه العائلة المعروفة ـ ولقد أحب مجلسنا أول الأمر وأكرمنا إكراماً بالغاً، ولكنه حين رأى هذه السيدة المجنونة وما تفعله بنعسان تألم غاية الألم، وكان رجلاً مهاباً ذا شاربين وطربوش على طريقة اللبنانيين القدامى، كما كان جهوري الصوت وفي الخمسين من العمر، لقد كان زعيماً حقاً، وأخرجت المجنونة مسدساً من حقيبتها وأخذت تطلق العيارات النارية دون سبب أو مبرر، وقلت لنعسان على الفور انها تتصنع الجنون وأنها تصنع ما تصنع لتنهي السهرة فقد كرهت السهر معنا، وكان ذلك صحيحاً، أما الشيخ فؤاد فقد تألم ومد يده فأخرج مسدساً يضارع بندقية كبيرة وقال لها: أنتِ تعلميننا استعمال السلاح ألم تسمعي بالسلاح الموجود في البلدة؟ وكان تأنيباً لم تفطن له، وقمت أنا وخالد اللجمي فانسحبنا من الجلسة وتركنا نعسان وسافرنا عائدين إلى حماه.

وتعرف نعسان على يسين محمود المطرب ـ رحمه الله ـ وبدأت الصداقة أول الأمر معقولة وموسيقية وكان نعسان يعزف ليسين ويسين يغني، ولكن نعسان لا يستقر على حال فكان يرفع من طبقة العود ليزيد من ارتفاع الصوت، ولكن صوت يسين كان محدود الطبقة بدرجة معينة هي الطبقة الطبيعية لكل صوت بحسب قدرته، ولكن نعسان لا يقبل هذا، إنه يريد أن يملي إرادته كالولد المدلل كما قلت، واختلف مع يسين من أجل هذا مرة فضربه وافترقا وذهب يسترضيه وتكرر الضرب بعد ذلك كما تكرر الاسترضاء، وكأن كليهما قد تعودا على هذا فأصبح الأمر عادة بينهما وقد ظلت هذه العادة سنوات إلى أن انتقل يسين إلى دمشق بعد أن بدأت الإذاعة السورية عملها واستقطبت المطربين الموسيقيين في القطر كله، ولكن ما من شك أن نعسان قد أثر في صوت يسين تأثيراً سيئاً وغيّر من جماله وتأثيره بحكم إجباره على الغناء دائماً في طبقة أعلى من طبقته.

٣١

رفاق آخرون

ولقد انتهت حياة نعسان كما تنتهي فقاعة الصابون لم يخلف أثراً ولا مالاً ولا أصحاباً، أما الأرض فقد استرجعت الأوقاف ولايتها عليها واستولت على نصفها بعد أن عزلت عز الدين الحريري أخي نعسان عن الولاية كما هو القانون ونتيجة حكم قضائي في المحكمة، وكان خصمه صديقنا المحامي فوزت المملوك الذي كان محامي الأوقاف في تلك الفترة، وبقي القسم الثاني من الثروة مسجلاً باسم نعسان، وكتب الأخَوان صكاً يقضي بأن يكون لعز الدين نصف النصف الذي امتلكه نعسان وسجله باسمه على اعتبارهما شريكين، ولأن النصف العائد لعز الدين دخل في ملكية الأوقاف، ولكن نعسان بعد مدة رفض أن يعطي أخاه شيئاً دون سبب أو مبرر وعز الدين هو الذي ربى نعسان وهو الذي علمه الدلال والسهر والكبرياء التي لا توجد إلا عند الأطفال، وقد ندم طبعاً فيما بعد، وهو يكبر نعسان بأكثر من خمسة عشر عاماً، فقد مات والد نعسان حين كان عمر نعسان سنة أو سنتين، ونعسان من مواليد ١٩١٠. لقد تغيرت حال نعسان بعد أن تغير الناس في حماه، فقد مات بدر الدين إلى رحمة الله عام ١٩٦٠، وأقمنا له حفل تأبين ألقيت فيها كلمة تحدثت فيها عن صداقتي معه، كما نظمت فيه قصيدة أرثيه بها أظن أن مطلعها:

مات بالأمس شاعر عبقري... إلخ

وتركت حماه في عام /١٩٥١/ كما تركها خالد اللجمي، وظل نعسان المسكين وحده يعاشر أناساً لا علاقة لهم به من مثل بائعي الخضرة وسائقي السيارات، وكان إذا جلس يمسك عوده كعادته ويغني طوال الليل، كما كان يلجأ إلى هؤلاء ليستدين منهم وقد أصبح مفلساً إفلاساً عجيباً، لقد جاء الإصلاح الزراعي مع مجيء حزب البعث فاقتطع القسم الأكبر من أراضيه، وتنكر له الفلاحون في القرية وضاقت الدنيا بعينيه، وقد زرت حماه مرة وبعد سنوات اتصل بي ودعاني بينما كنت في الفندق وكان إلى جانبي شخص من الأصدقاء فقال لي: لا تذهب إلى سهرته إنها لا تناسبك؟ وهربت منه خشية أن يفتش عني فيلقاني ولجأت إلى بيت صديقي المرحوم علي آغا النعسان، وراح نعسان يفتش طول الليل عني فلم يلقني، وسافرت في اليوم الثاني إلى حمص دون أن ألتقي به.

وأخذ نعسان المسكين يفرط في الشراب، ولكنه أصيب بالأرق الشديد فلم يقدر على النوم فكان يتجرّع المسكّن «الفاليوم» فيتناول منه كميات، ثم يشرب كثيراً، والشراب كما يبدو مناقض للمسكّن وفي مرة أصيب بضياع البصر وأصبح في الصباح لا يرى، فذهب إلى حمص وقد منع عن المسكّن وعن الشراب حتى عاد له بصره.

وكان في بيته المأجور في ليلة من الليالي وقد سهر مع أصحابه وشرب كثيراً وجاء لينام فتناول أقراصاً من «الفاليوم» ونام وكانت زوجته المسكينة «أم حيدر» إلى جانبه في سريرها، ولم تشعر إلا وزوجها يتحرك حركة غير طبيعية ونظرت إليه فإذا به قد فارق الحياة. وعلمت بالأمر فذهبت إلى حماه لأشيعه ودخلت بيته فوجدت حالة من الفقر لا توصف فخرجت والدمع ملء عيني، وأنا أتذكر حياة هذا الشاب الذي كان أجمل وأغنى شباب حماه، لقد كانت حياته أشبه بقصيدة من الرثاء كلها دموع وأحزان. في أوائل الأربعينات جاءنا إلى المحافظة في حماه كاتب جديد مكان السيد شاطر الذي ذكرته مرة، وقد فرح بالموظف الجديد فوزي البرازي الذي كان يكره السيد شاطر كرهاً لا يوصف، وكان يبالغ في كرهه له لدرجة مضحكة ويتهمه بأنه يسيء للعلاقة بين فوزي والمحافظ بنقله الكلام الذي يحدث في الديوان، واعتلق الاثنان مرة وتضاربا حتى أدميا وجهيهما ولم يكن السيد شاطر مقصراً فقد أبدى من السفه ما لم أكن أحسب له حساباً، كان الكاتب الجديد اسمه نور الدين كمال، وهذا الشاب أصله من سكان دمشق ولكن والده من أصل كرجي ومن بلدة «باطوم» المعروفة أيام الحرب بأنها مدينة البترول الروسية، وسبب مجيء أبيه إلى هذه البلاد، كما روى لي هو أن والده كان يسبح على ضفاف البحر وقد غرق أثناء

سباحته أحد أقربائه فاتهموه به واضطر إلى الهرب وحط رحاله في حماه وتزوج فيها من فتاة من عائلة «المقت»، وهي عائلة معروفة من الطبقة الكادحة ثم انتقل والده إلى دمشق حيث عين في عمل في سجن القلعة مراقباً للمسجونين. وكان لنور الدين هذا أخ يعمل سائق سيارة شحن، كان نور الدين أشقر اللون جميلاً نظيفاً ذا خط رائع ومن ذوي الخبرة في قضايا المعاملات الإدارية وبخاصة تنظيم الأوراق «الأرشيف»، وأذكر انه ظل أكثر من عشرة أيام يرتب في الأوراق ودخلت عليه مرة فقال لي انظر الا ترى أن الغرفة تريد أن ترقص، وضحكت لهذا الاصطلاح الذي لم أسمعه إلا منه. وكان صاحب مزاج سريع التأثر، محباً للمزاح بقدر فلا يحب فيه المبالغة، وكان إذا كره لا يعفو إطلاقاً، ولعل هذا الطبع موروث عن أهل تلك البقاع البعيدة التي جاء منها أبوه، وكنت أثيره فأحفظ أسماء كل من يكره فأذكرهم له واحداً واحداً فيثور ويشتمني محنقاً غاضباً وأزداد ضحكاً، كانت نقلة نور الدين هذه هي النقلة الثانية لحماه، فقد وظف فيها أول مرة وقضى سنوات ثم نقل إلى أمكنة أخرى وعاد هذه المرة إلى قواعده، كان موظفاً «شاطراً»كمايقال ولكنه غير متعلم، فهو لا يحمل اية شهادة حتى ولا الابتدائية لكنه كان يعرف صنعة «الواردة والصادرة» تماماً، وقد أصبحت صديقه للوهلة الأولى بواسطة فوزي البرازي الذي أحسن تقديمي له، كان نور الدين في الرحلة الأولى في حماه شريباً سكيراً وكان ميالاً لأولئك الذين يسمون «القبضايات» في حماه يسهر معهم ويشاركهم في مجالس انسهم حتى لقد كان مسرفاً في ذلك ولكني في هذه المرة وجدته تائباً، فقد ترك الشراب والدخان سوية، وكان له أصدقاء في حماه ظل محتفظاً بهم حين رجع إلى حماه فعاد إليهم وعادوا إليه. وفي يوم من الأيام دخل عليه رجل يلبس القنباز وعلى رأسه طربوش ولكن هيئته كانت مضحكة فهو أسود معروق ولكنه أزرق العينين كبير السن، ولكنه لا يبدو عليه شيء من الشيب ورأيته يتكلم بلهجة غريبة وسألته: من أين الأخ؟ فقال لي في الأصل من اليمن، وكان اسمه: محمد مقبل اليماني، وهو من بلدة «عمران» في اليمن وهي بلدة معروفة قريبة من صنعاء وكان سبب مجيئه الحرب بين الأتراك واليمنيين بزمن الإمام يحيى ملك اليمن القديم، وقد هرب ومعه عدد كبير من اليمنيين في تلك الفترة وجاءوا مشياً على الأقدام وتوزعوا في البلاد السورية، فمنهم من نزل في دمشق وحلب وحمص وكانت حماه من نصيب أبي مقبل هذا، وكان يوم جاء إلى حماه في السادسة عشرة من العمر، وقد عمل أول أمره عاملاً عند آل العظم الأثرياء، ظل بعد أن استقل عنهم واصبح له بيت وعائلة وتجارة، لقد ظل حافظاً لمعروفهم يذكرهم بكل خير وبخاصة عميد العائلة «فريد بك»، وتزوج بعد أن كبر وعمل صاحب فندق، هو فندق الزهرة القديم المعروف في حي «الموقف» بحماه وولدت له ابنتان فقط، إحداهما أصبحت فيما بعد معلمة والثانية تزوجها رجل لا أدري ماذا يعمل، كان كريما جداً رغم ما فيه من الفقر، ونظيفاً رغم هيئته البسيطة الرثة، وكان يتعاطى المشروب بطريقة عجيبة، فهو يضع أمام يده على الطاولة جريدة يقراؤها أولاً ثم يتركها وكلما أكل لقمة مسح يده بهذه الورقة، وهذه كانت طريقته في السهر، وكثيراً ما كنت أثيره فأخفي الجريدة أو أرمي بها إلى الشارع فيثور ويشتمني، وهو ذو استعداد لأن يشتم كل من يثيره في عمل من أعماله، كان أبو مقبل صديقاً لنور الدين ولشخص آخر هو الدكتور البيطري «وصفي الحمصي» عضو الجماعة الجديدة وهو من اصحابي، تزوج نور الدين صاحبنا من سيدة دمشقية فولدت له صبيين وثلاث بنات تزوجن جميعاً من ازواج فلسطينيين، وقد وفقن في زواجهن. وكان محباً للطعام يطبخ جيداً في بيته، وكثيراً ما كان يدعونا أنا وفوزي وكنا نتثاقل عليه فنثيره فيغضب غضباً هادئاً وربما رمانا بأشنع الأوصاف فلا نزداد إلا ضحكاً، لقد كان صديقاً ظريفاً رغم ما لديه من مزاج سوداوي وقد انتقل أخيراً إلى درعا في حوران ومنها عاد متقاعداً إلى دمشق، وظل فقير الحال يعيش على التقاعد ولم يوفق بأولاده الذكور على عكس البنات اللاتي كنّ من احسن البنات بالنسبة لأبيهن. ويجيئني في يوم من الأيام هاتف أعلم منه أن نور الدين قد توفاه الله ولم يتجاوز الستين بكثير وقد شيعته إلى مثواه الأخير ـ رحمه الله ـ ولا أنسى أنني زرته يوم مرضه وبكى حين رآني، لقد كان وفياً عاقلاً نظيفاً في كل شيء، أما الدكتور وصفي الحمصي فأصله من قبيلة من قبائل البدو في حمص وقد سمي بالحمصي على عادة الأتراك، وقد دخل المدرسة الرشدية العسكرية في دمشق ومنها انتقل إلى

مدرسة البيطرة العسكرية في استامبول حيث تخرج طبيباً بيطرياً برتبة ملازم في الجيش. وعاد وصفي إلى دمشق أولاً فتزوج امرأة فرضت عليه فرضاً ولم ينتج منها إلا بنتاً واحدة ما زالت تحيا إلى الآن، وحين انتقل إلى حماه تزوج فتاة من أسرة الكيلاني المعروفة في حماه وقد رزق منها بعدد من الأولاد والبنات. كان وصفي قصيراً أسمر كبير الرأس جداً بحيث لم يكن يجد طربوشاً يناسبه إلا نادراً، ووجهه لا يدل على طبيعته في شيء فهو مرح يحب الضحك ولكن شكله كان أميل إلى العبوس وهذا هو الإضحاك عنده، وكان عدواً للأناقة فكل لباسه خطأ وكنا نذكره بهذا فيثور ويهز برأسه ولا يتكلم. فقد كان يحب أصحابه، وكان من أكرم الناس الذين عرفتهم، لقد كان بحكم عمله طبيباً بيطرياً مراقباً لبائعي اللحوم جميعاً، ومن هنا فقد كان يحصل على أفضل اللحم من طبخ أو شواء وكنا نحن ضيوفه، الذين يستفيدون من هذا الامتياز وكنا نقضي أوقاتنا في دائرة البيطرة التي اتخذها في بيته، بينما كان أهله في الطابق العلوي من البيت لا يصلهم طعامهم إلا عن طريقنا، وكنا نضحك مع أولاده ونمازحهم في هذا ونعلم أننا منتقدون من أهل بيته لاحتكارنا كل شيء.

كان اليمني أبو مقبل ـ وهو اسمه بيننا ـ يلعب الورق ليلاً نهاراً ويستقبل الزبائن الغرباء، وكانت تنزل عنده فرق كثيرة من الراقصات والممثلات حتى لقد نزلت عنده مرة فرقة فاطمة رشدي المصرية الشهيرة، وترك بعد ذلك هذا البناء وانتقل إلى بناء هو عبارة عن سطح من اللّبن «الطين» فيه عدد من الغرف، وكان زبائنه في هذا المكان أكثرهم من الجبل الغربي والغاب خاصة وأهل قرية سلحب، وكانت له صداقات كثيرة مع أهل هذه المناطق الذين كانوا يردون إلى حماه فينزلون عند اليمني يضحكون ويمرحون ويتقاضى منهم أقل أجر ممكن. في باحة هذا السطح كانت تعقد جلساتنا، أنا ووصفي ونور الدين وكان يأتينا أحياناً تاجر حموي أديب مهذب هو «محمد النحال»، وقد كان غنياً جداً لكنه لم يرزق بولد، فكان يعنى بابن أخيه الوريث الوحيد له، وكان يشرب كثيراً ولا يذوق من الطعام إلا «المحشي» الذي يحضره معه من بيته وكنا نستغرب هذه الطريقة في الشراب التي لا يقدر عليها إلا صديقنا هذا، فالعادة أن يأكل الشارب شيئاً خفيفاً ثم يأكل في آخر المطاف، ولكن النحال كان يهزأ بكل القواعد والمصطلحات المتعارف عليها، كنا نقلد اليمني في كلامه المعوج الذي هو نصف يمني ونصف حموي مشوه فكان دائم الثورة ضدنا، ولكنه لم يخطر على باله أن أحفظ له أغنية يمنية بألفاظ يمنية حقيقية، وتركته يوماً من الأيام يتحدث فسألته قائلاً: لماذا أنت ضعيف لهذه الدرجة في «الكرامير» أي النحو الفرنسي، وحار في هذا السؤال وحاول أن يجيبني ولكنه لم يستطع لفظ الكلمة الفرنسية وانفجر الحاضرون من الضحك وسكت هو ونظر إليّ شزراً لأنني كنت ما أزال جديداً في عشرته، ولكني في اليوم الثاني جئته بما لم يخطر بباله، أي أن آتيه بأغنية يمنية وبلهجة يمنية لا يعرفها أحد في هذه البلاد وقد حوّرت بنغمها ولحنها، ولم يكد يتم اجتماعنا تلك الليلة حتى طلعت بصوت عال بهذه الأغنية:

يوم الخميس والترك في «مناخة»	لا أدبك الدبكة ولا القراحة
«إبّ» الغروب وشرقها «المشنّة»	والحضرى لابس قميص وزنة

ومناخة، وإب، والمشنّة، كلها أسماء بلدان في اليمن والزنّة هي «القبة أو طوق الرقبة». ونظر إليّ مشدوهاً وقام من مكانه بعد أن غمس يده باللبن وأراد أن يدهنني به فقمت أركض وهو يلحق بي إلى أن وقف متعباً وناداني أن أقف وأعود، ووعد أن لا يستعمل اللبن شرط أن أعلمه كيف تعلمت هذه الأغنية وكيف استطعت حفظ اللهجة، وافهمته أن وصفي البيطري هو الذي علمني إياها، وقد أخذها هو عن بعض الجنود من الحمويين الذين كانوا في بلاد اليمن أيام الحرب، وكانت هذه أغنية يغنيها أفراد العسكر اليمنيون في أوقات راحتهم.

أما اليمني فقد بقي بحماه بعد ذهابنا جميعاً منها، لقد بقي غريباً يكاد يبكي حين يتذكرنا، فقد انتقل نور الدين إلى دمشق وأنا ووصفي، وظل هو وحيداً، وكان يقول: لقد جددتم غربتي ببعدكم عني وكان يزورنا بين حين وآخر، كما كنت أزوره وأنام في فندقه الجديد الذي انتقل إليه في الأبنية الجديدة قرب الفندق «الأوتيل الكبير»، وكان يطعمني في الفندق، فقد كان يجيد الطبخ وانتقاء اللحم الطيب،

ومرض المسكين بعد أن أسنّ وكبر وقد يكون بلغ التسعين من العمر ومات فحزنت عليه وما زلت أذكره بخير - رحمه الله - وأما وصفي فقد جاء إلى دمشق متقاعداً وأخذ أولاده يعملون في بعض الوظائف وكذلك بناته، وقد أصيب بكارثة زلزلت جسمه زلزالاً.

كان لوصفي أخ من الدراويش وصل إلى درجة ملازم ثم عاد إلى المراتب الدنيا، وكان قد تزوج من امرأة أرمنية وأولدها عدة أولاد من بينهم كبيرهم واسمه يحيى، وكان يحيى هذا من أجمل من رأيت بين الشباب حتى ليحسبه الرجل من بعيد صورة تمشي أو لوحة لأحد الفنانين تتحرك، وقد صرف وصفي عنايته وكل شيء لهذا الولد، لكي يزوجه ابنته وهذا ما فعله فيما بعد، فقد أصبح ابن أخيه صهره وكان يخشى عليه من رفاق السوء وفي بلدة معقدة من الناحية الاجتماعية كحماه، فكانت عنايته منصرفة إليه حتى سبب ذلك غيرة عند أولاده الآخرين وعند أمهم التي رأت أن زوجها يصرف اهتمامه لابن أخيه بدلاً من أولاده، وهو أمر غير معقول ومستغرب في آن واحد، لقد كان وصفي مهملاً في كل شيء ما عدا اهتمامه بابن أخيه يحيى، ولقد رأيته مرة وهو يكاد يتفجر ألماً وغضباً حين أخذ يحيى جواداً من عند عمه وذهب يتنزه وظل كذلك من الصباح حتى العشاء، ووصفي لم يهدأ باله خلال هذه المدة كلها فلا أكل ولا شرب ولا نام حتى جاء يحيى، وحين جاء لم يكلمه كلمة واحدة تؤذيه، وذهب يحيى في بعثة حكومية إلى إنكلترا فحصل على شهادة في اللغة الإنكليزية وأخذ يدرس، ولكنه لم يمض في عمله إلا سنوات قليلة حتى داهمه مرض لم يعرفه الأطباء وكأنه من السرطان أو نوع من السفلس الذي أصاب نخاعه الشوكي، وقد قيل لي في المدة الأخيرة إنه المرض الخبيث الجديد «الإيدز»، وهو تخمين لم يثبت ولكن مما لا شك فيه أن يحيى كان مرغوباً من النساء بشكل عجيب وأنه أفرط إفراطاً كبيراً في حياته الجنسية وهذا ما أسقمه وأماته وهو في عز الشباب، وكان موته كارثة لوصفي فقد تغيرت حياته كلها بعد وفاة ابن أخيه وأصبح لا يضحك إلا نادراً، وكنت أزوره في بيته فأراه ساهماً مفكراً فأعجب لهذا الرجل الذي كان مثلاً للمرح والمزاح، كيف انقلب إلى إنسان حزين يشتهي الموت فلا يجده، وكنا نسهر مع أولاده جميعاً وضيوفه وكان مجلس العائلة لا يخلو من مطرب أو مطربة، وكان يجلس معنا مرات ولكنه يجلس بلا طرب ولا طعام ولا شراب، وجئت مرة فوجدت أهله مع ضيوفهم ساهرين ولم أجده هو وقيل لي أنه نائم، ولكنه بعد ساعة أو ما يزيد على الساعة رأيته يمد رأسه من غرفته ويناديني معاتباً: كيف تسهر وأنا غير موجود واعتذرت له وأدركت أن في الأمر ما فيه وأن الساهرين أو أكثرهم لم يكونوا يرغبون بوجوده، وقد تألمت لهذا المصير وصرت لا آتي إلى البيت إلا إذا كان وصفي موجوداً أو أن أمر به فأجلس معه مدة من الزمن حتى يسمح لي بالانتقال إلى مكان السهرة. وجئت مرة في الصباح الباكر فوجدت حفيده وكان عمره لا يزيد على السبع سنوات فبادرني بقوله: جدي مريض، وتشاءمت من هذا الصباح الغريب وصعدت إليه فرأيت ممرضاً يحاول أن يحقنه بدواء ضد «حامض البول والبولة» الخطيرين، وقد عجز المرض عن إعطاء الحقنة بالوريد، فنصحت لأولاده أن ينقلوه إلى المشفى وعرضت عليهم كل مساعدة، ونقل فعلاً، وذهبت لأراه هناك فوجدتهم يحاولون نفس المحاولة، ولكني وجدت وصفي بحالة من اليأس عجيبة وهو يشير لي بأنه انتهى، ولا أنسى أنه كان يحمل محفظة نقود ليس فيها إلا بعض الدراهم وقد رماها لحفيده وهو يقول خذها، وجئت في اليوم الثاني إلى غرفته في المشفى فوجدتها مغلقة وذهبت أسأل عنه أحد المرضين فأعلمني بأن الرجل قد توفي إلى رحمة الله، وعدت مسرعاً إلى بيته لأرى أن كل شيء قد انتهى، وقد شيعته إلى مثواه الأخير في مقبرة الشركسية بالمهاجرين وقرأت له الفاتحة - رحمه الله رحمة واسعة - وقد كان عمره يوم مات ثلاثة وسبعين عاماً.

٣٢ بيت جديد

أعـود في إلمامـة قصيرة إلى سلميـة لأذكر شيئـاً عن حالتهـا الاجتماعيـة لتعلقها بمـوضوع حيـاتي الخاصة، فقد كانت البلـدة والشعب الإسماعيـلي مقسومـاً إلى ثلاث طبقـات ١ـ الأمراء، آل الجنـدي أو المسمون (الجناد) والطبقة العاملة، وكان التزاوج أكثر مـا يتم بين العـائلتين الأوليـين، الأمراء والجنـاد، فكل منهما خالٌ للآخر، فمثلاً أم الأمير تامر والأمير ميرزا اسمها فاطمة الجندي، وأم الأمير سليمان اسمها أيضاً شهيرة الجندي وزوجة الجنـدي إسماعيـل، (في المصطلح سـابقاً أن تلفظ كلمـة جندي قبـل الاسم وكأنها رتبة أو لقب)، اسمها شعشع الأمير سليم فهي من الأمراء، وهكذا دواليـك وهناك وهـو أمر قليـل جـداً بـعض الـعـائـلات التـي تـزاوجـت مـع آل الجنـدي أو آل الأمـير أو «المـير» كمـا كـانـوا يسمونهم. ولقد اختلف الأمراء مع آل الجندي فامتنع التزاوج بينهما وأصبح التزاوج في كل عـائلة منهـا وحدها، وهذا الزواج القريب قد أثر تأثيرات كثيرة سيئة في وضع الأولاد، ولكن أثره في عائلة الأمراء كان أكثر بكثير، وزواج الأقرباء معروف ضرره، فقد جاء في الحديث الشريف: أوصيكم بالغرائب، وجاء في شعر النابغة الذبياني الشاعر الجاهلي وأحد أصحاب المعلقات قوله:

فتـى لـم تلـده بنـت عـم قـريبـةٌ   فيضـوي وقـد يضـوي رديـد الأقـارب

كنت أحسب لهذه الأمور حسـاباً كبيـراً حين أقـدمت على الـزواج من ابنة عمي وابنـة خالتي في آن واحـد، وكنت رفيقـاً لـرفيق الفـاخـوري ودري الأخـرس وعـلي الأبـرش وهؤلاء لم يتـزوجـوا جميعـاً، ومحيي الدين الدرويش الذي كان متزوجاً، ولكن لم يدر أحد بزواجه غـير دائرة الأحـوال المدنيـة لأنه لم يكن يعيش في البيت إلا ساعتين أو ثلاث في كل يوم، وكان له ولدان لم نره يرافقهما في حياته ولا عرفناهما إلا بعد أن كبرا وكنا نضحك منه ونقول له: «أنت متزوج شفهي». وأهم من هـذين العاملـين عامـل المادة الذي كان يمنعني من الزواج الذي يحتاج إلى المهر والسكن وفرش المسكن وحفل العرس وغير ذلـك. وقد تحدثت بهذه الأمور أمام أحد أقربـائي فنقل الكـلام إلى عمي وخالتي، أعني أهـل الفتاة، فثـارت ثورتهم وكـأني ذكرتهم بشيء قـد نسوه وطلبـوا إليّ أن أستعجل في الخطبـة وكتب الكتـاب، وحينئـذٍ حضرت من حمـاه إلى سلمية واتخـذت كل التـدابير بمسـاعدة صـديق لي فأحضرت بعضـاً من مستلزمـات الـزواج المستعجل من حلي وغير ذلك وكتبت الكتاب ورجعت إلى حماه، في هذه الوهلة كان عمي قد توفي إلى رحمـه الله عام (١٩٣٦) وظلت خـالتي المطالبـة الأولى بالإسراع بـالزواج تلـح في الطلب وأنا أتبـاطأ في حمـاه، (أسهر في الليل وفي النهار) كما قلت في قصيدة لي، وتصـاب الخـالة بـالمرض وتمـوت بعد مـدة وأرجع إلى سلمية فلم يعد من الممكن البطء بـإنجاز الـزواج، وهكذا جئت إلى سلميـة وتم الزواج في حفـل بسيط من الأهل والصحاب وبعـد أسبوع عـدت إلى حماه وكنت استـأجرت بيتـاً صغيراً مؤلفـاً من غرفتـين كبيرة وصغيرة وما يلزمهما وأرض دار جميلـة مع جـيرة من أحسن من عاشرت في حمـاه هم آل البوشي عـدي، وعلم الأخوان والأصحاب وعلى رأسهم المرحوم محيي الدين الحوراني، فثارت ثورته وأنكر عليَّ أن أتزوج هكـذا دون أن يقام لي حفـل كبير في حمـاه ودون أن يشترك أصحـابي الكثر في فـرحي وقال لي بـالحرف الواحد: لو أعلمتني لأخذت كل وجهاء حماه بثلاثين أو أربعين سيارة ليشاركوك الفرح بزواجك؛ فضحكت وقلت له: إن هذا هو الذي تهربت منه ـ أصلحك الله ـ وضحكنا. وبدأ الإحراج فقد أخذ نساء الأصحاب يزورون بيتنا لتهنئة العروس الجديدة بزواجها، وتصور إحراجي ولا بيت عندي إلا غرفة أتقبل بها النساء من صاحبات القصور والبيوت الكبيرة.

كانت هذه الزوجة الجديدة، ابنة عمي، التي توفيت منذ أشهر قليلة إلى رحمة اللـه ـ توفيت بتـاريخ ١٢ تمـوز ١٩٨٩ في ليلة عيـد الأضحى ـ كانت امـرأة صالحـة تعرف مـاذا عـلى الـزوجـة من مطـاليب وواجبات، من ترتيب وطبخ وكيّ وغسيل وخياطة وغـير ذلك، فكـانت ـ رحمها اللـه ـ لا تحوجني الى شيء،

تصلح ملابسي وتغسلها وتكويها وتضعها في مكانها، كما كانت مقتصدة من غير بخل وكريمة دون تبذير. ولقد ساعدتني في حياتي كلها، بل لعلها كانت السبب الأول في دراستي الحقوق وفي كتابتي الكثير من المقالات، في حين أن اللهو والسهر كانا يسيطران عليّ من جميع الوجوه فكانت هذه الزوجة الإنسانة كالدواء لحياتي المشرّدة والفوضوية، كانت أصغر مني بسنتين وهذا ما كان يناسبني، لو كانت صغيرة لاختلفت وإياها من غير شك، وكانت غير متعلمة إلا قليلاً وهذا أيضاً ما جعلها تنسجم معي فإن الحوادث الكثيرة عن الخلافات بين الأزواج والزوجات المثقفات اللائي يردن قبل أي شيء في البيت أن يساوين الرجل، ولقد عجب الأقرباء والغرباء كيف استطعت أن أكون رب منزل و«صاحب بيت» كما يقال، فإن سمعتي كانت مناقضة لهذا كله، ولكني كنت رب بيت حقيقي ومحافظاً على القواعد العائلية والاجتماعية بشكل دقيق، كما طمأنت زوجتي منذ اليوم الأول أن الزواج الآخر ـ تعدد الزوجات ـ من أكره الأمور عندي، وأن جمع الزوجتين من أكبر العيوب حتى إنني لأعده حراماً ما دام الشرع يقول: ولن تعدلوا؟ فهذا ما معناه، لا تتزوجوا ثانية ولا تجمعوا زوجتين أو أكثر، ولكنه قالها بشكل أخف وطأة مع أنها أقرب إلى الفهم الصحيح. ولقد اطمأنت ـ رحمها الله ـ وصدقتني ولم ألاحظ خلال كل المدة التي عشناها سوية ـ ٤٣ سنة ـ أيَّ أثر للشك في صدق وعدي لها. (كان الزواج بتاريخ ٩ تشرين الثاني ١٩٤٣) ولكن صحتها كما قدرت فيما بعد لم تكن صحة جيدة، وهذه قضية وراثية كما اعتقدت وقد جاء هذا الاعتلال الصحي في كل ذرية عمي من جانب أمه «أم إبراهيم» زوجة جدي لوالدي، وكانت سبباً لوجود عقليات خاصة في العائلة في حين أن الأشخاص الذين كانوا أخوات أبي لأمه وأبيه كانوا جميعاً يتمتعون بصحة جيدة وكذلك أخوتي فإن أجسامهم كلهم كانت قوية، ولولا الأمراض الطارئة من حميات وغيرها، لكانت عائلة والدي تبلغ الخمسين شخصاً أو أكثر؟ وولدت زوجتي الولد الأول بتاريخ الأول من كانون الثاني ١٩٤٥، وكان ولداً جميلاً ولكنه لم يعش فقد مات وهو في عمر الورد (سنة وثمانية أشهر). لقد أصيب هذا الولد البكر بمرض التهاب الأمعاء ولكن الأطباء لم يحسنوا مداواته ولا عرفوا كيف يداوون غيره من المرضى، وكانت المضادات الحيوية جديدة تلك الأيام، وبعد مداواة طويلة في حماه أخذته إلى طرابلس «المشفى الأميركي» ولكنه لم يستفد شيئاً، فقد ذهب دمه ومعه الماء في الدم بسبب الإسهال الشديد. وعدت به إلى حمص وقد رآه أكثر من عشرين طبيباً دون أن يشفى، وكنت آتي إلى حماه وأعود إلى حمص حيث تركته عند أحد أصحابنا هو وأمه، وعدت في يوم من الأيام الأخيرة وطرقت الباب وإذا بصاحبة البيت تخرج إليّ باكية لتقول لي: العمر لك لقد توفي البارحة وأخذوه إلى سلمية؛ لقد تألمت ألماً لا يوصف، وأكثر ما تألمت لتلك المسكينة التي حملت طفلها الميت من حمص إلى سلمية؛ وذهبتُ إلى الكرم الذي كان اتخذه أصحابي مصيفاً، ولم أذكر لهم شيئاً لأن الوقت كان ليلاً وحاولت الحديث فلم أستطع، وحاولت الطعام فلم أقدر وصعدت إلى الطابق الثاني من الخيمة لأحاول النوم ولكني لم أستطع، وأخبرت رفاقي في الصباح فجن جنونهم وعاتبوني عتاباً شديداً على أنني لم أطلعهم على الحقيقة، وفي الصباح الباكر سافرت إلى سلمية، وكان حزناً لا يوصف لقد اسودّت الدنيا بعيني ولم أستطع أن أنظر إلى إنسان، وظللت نائماً وقد غطيت وجهي يومين دون أكل أو شراب إلى أن التهبت بنات الأذن عندي التهاباً فظيعاً دام سبعة أيام مع أنني لم أعرف هذا المرض في حياتي إلا نادراً، وبعد أسبوع رجعت إلى حماه، ولكني لم أستطع دخول البيت الذي كنا فيه، لقد وجدت ولدي في كل شيء أراه في البيت في الجدران، في أرض الدار، في الغرف، واتفقت مع زوجتي على ترك البيت والانتقال إلى مكان آخر. ذهبت إلى حي الجراجمة فلم أستطع البقاء طويلاً ورجعت إلى حي العليليات فبقيت مدة بسيطة، وكانت زوجتي حين وفاة ولدي البكر حاملاً، وحان موعد وضعها فصحبتها إلى سلمية.

بعد يومين وفي الصباح الباكر تحدث معي بالهاتف قائمقام سلمية يومئذ المرحوم مصطفى الحوراني صديقنا القديم ومدير ناحية محردة سابقاً، وأعلمني وهو يتلجلج في كلامه أن مولودة جديدة ولدت لي وأخذ يخفف من وقع الخبر على اعتبارها أنثى جاءت بعد ذَكر توفي، ولكني شكرته وحمدت المولى وقلت له: إن المولود كيفما كان، ذكراً أم أنثى، عزيز عند والده وقد تكون الأنثى أفضل من الذكر وكما قيل: إنهن

يحببن بأنفسهن، وقد أوصى الرسول (ص) بهن فقال: رفقاً بالقوارير، ونزلت إلى السوق فاشتريت قطعة ذهبية هدية للمولودة وتشجيعاً لأمها، ونظرت إلى الصغيرة فأعجبتني وكانت كأنها أكبر من سنها ومن عادتي أن لا أنظر إلى الأولاد حديثي الولادة إلا بعد أن يكبروا، وبعد أيام عدنا إلى حماه وانتقلت بعد مدة من حي (العليليات) إلى حي آل الحوراني، فظللت هناك سنة تقريباً. في تلك الفترة تعرفت على بعض الأساتذة من المصريين الذين وفدوا إلى حماه للتدريس فيها، وكان من بينهم مدرسان للغة العربية أحدهما: عبدالرحمن عبدالمتعال سيد طه وهو صعيدي أصبح فيما بعد نائباً أيام الوحدة، وأستاذ آخر هو عبدالمنعم شلبي من منطقة الزقازيق في مصر، وآخر معلم رياضيات اسمه رماح أدهم، ومعلمون آخرون صحبتهم وكانوا ظرفاء يريحون محدثهم بما يتكلمون به من قصص وفكاهات معروفة عند المصريين. ومن حي الحوراني عدت إلى داخل المدينة فاستأجرت بيتاً عند السيد عبدالمجيد السبع وكان بيتاً لا بأس به وقد بقيت في هذا البيت حتى تركت حماه.

في هذه الوهلة خطر على بالي أن أعود إلى دراسة الحقوق التي تركتها من زمن بعيد، كما يذكر القارىء لأن الشهادة أصبحت ضرورية لكل موظف فهي التي تعيّن درجة الوظيفة، وذهبت إلى صديقي اليمني فتبرع لي بطاولة خشبية صغيرة وأحضرت الكتب وأخذت في القراءة، وكنت أبدأ القراءة الساعة السادسة مساءً فلا أنتهي حتى الساعة الثانية عشرة ليلاً، كما كنت أذهب بين حين وآخر إلى الجامعة لأحضر بعض الدروس، وجاء الفحص وتقدمت له فنجحت ـ والحمد لله ـ وأصبحت في الصف الثاني وأردت أن أذهب لأكمل الفحص الشفهي، كما كان النظام في تلك الأيام، ولكن وكيل المحافظ الذي كان يومها عقيداً في الدرك وهو العقيد رفيق فكرت ـ رحمه الله ـ وهو من أصل تركي يتكلم العربية بلهجة تركية وكان شديداً، ويعتبر الناس جميعاً جنوداً في الدرك، فإذا تحدث، تحدث بلهجة الآمر في ساحة الميدان، ولقد امتنع عن إعطائي الإذن لإكمال فحصي فذهبت إلى طبيب العيون وكان ـ رحمه الله ـ الدكتور سعيد موسى باشا، وهو رجل من الطبيين الأتقياء، وحصلت من الدكتور على تقرير طبي لمدة عشرة أيام تكفي لأداء الفحص، وقد غضب الوكيل واعتبرها مخالفة فكتب بحقي يطلب مجازاتي أنا والطبيب وتحدث إليّ أحد الرفاق من ديوان وزارة الداخلية وكانوا جميعاً من أصدقائي، وأعلمني بالكتاب ولكنه قال لي: لقد ذهب الكتاب وحفظناه، وعلى أثر ذلك نظمت أبياتاً هجوت بها وكيل المحافظ وقلت فيها:

أطلبت تأديبي وما تدري أنّي من الديوان كالبدر

ومن الغريب أنه لم تمض أيام حتى نقل هذا الوكيل وجاء محافظ جديد مكانه هو السيد خالد الداغستاني.

٣٣
ثورة

في نهاية الحرب العالمية الثانية أخذ التنافس يظهر جلياً بين الإنكليز والفرنسيين، وأصبح الطرفان يقومان بزيارة لسورية عن طريق بعض القواد والدبلوماسيين، ولقد رأيت في حماه الجنرال ديغول، كما رأيت قائد الأسطول الإنكليزي واسمه «كننغهام» كما أظن، وأصبح الفرنسيون يسيؤون ظنهم بنوايا السوريين، وبدأت بعض المعاكسات الجريئة من جانب السوريين تظهر، فقد اختلف رجال المسيرة السوريين مرة مع الحرس السيار الفرنسي، وكان المحافظ في حماه المرحوم خيري رضا فأعطى أمره للدرك بمقاومة الحرس الفرنسي وهذه البادرة جرت لأول مرة، وكان في حماه وبقية المدن موظفون إنكليز يعملون في دائرة الميرة التي أسست من أجل الحفاظ على الحبوب لتموين الجيوش الحليفة، وكان أكثر هؤلاء الإنكليز من موظفي الاستخبارات البريطانية «أنتلجانس سرفيس» وقد أخذوا يقيمون صداقات وعلاقات مع السوريين ويصرحون بمعاكسة الفرنسيين بل ويدفعون السوريين إلى ذلك، وهدد الفرنسيون باستعمال القوة ولكن السوريين لم يأبهوا لذلك واندلعت الحركات في دمشق وحدثت معركة البرلمان التي ذهب فيها عدد كبير من رجال الدرك وجاء الفرنسيون يريدون أن يفرضوا نفوذهم على السوريين في حماه ولكن السوريين لم يسكتوا وأرسلوا من جانبهم قوة من الدرك للقاء القوة الفرنسية على مشارف حماه، واصطدم الطرفان وتراجع الفرنسيون وقد وقعت معركة صغيرة قرب الجبانة القديمة على طريق حمص - حماه، وأضربت المدينة، فإن المقاومة السورية أخذت شكلاً جديداً واتخذت الأهبة لمقابلة الإفرنسيين إذا حاولوا دخول البلدة بقواتهم، وفي اليوم الثاني وعند العصر جاءت قوة كبيرة من الفرنسيين وفيهم الجنود السنغال وبعض العرب من الجنود، وما كادوا يصلون إلى منطقة المقبرة خارج البلدة حتى اندلع القتال، وكان الأهلون مسلحين أيضاً بالبنادق وبعض القنابل اليدوية، فقد كانت القوة الفرنسية تريد أن تصل إلى الثكنة التي كانت تقع غربي البلدة وكان على الفرنسيين أن لا يحاولوا غصباً، من الفرنسيين استمروا بالمسير باتجاه حماه واستقبلهم الأهلون فقتلوا عدداً من جنود السنغال وأحرقوا بعض المصفحات، وتقدم الفرنسيون فالتقوا بمفرزة من رجال الدرك السوري فقتلوهم على بكرة أبيهم، وكان من بينهم واحد من سلمية ومن أصدقائي، وأخذ الفرنسيون يطلقون القنابل «القازانات» فهدمت بعض البيوت وأغلقت الدكاكين وأصاب الأهلين رعب كبير من دخول الفرنسيين إلى البلدة، وقد كنت في بيتي بعد أن نقلت العائلة إلى سلمية، وجاء بعض الأهلين من القرى ومن سلمية ليشتركوا في المقاومة واستمر الضرب وصوت القنابل والرصاص إلى اليوم الثاني صباحاً وخرجت من البيت فلم أجد مخلوقاً أمامي إلا بعض الأفراد الذين كانوا يسيرون مسرعين متلفتين يمنة ويسرة، وسرت إلى طريق سوق الصاغة فوجدت أبواب الدكاكين الحديدية قد التوت وتكسرت، وأكملت طريقي إلى حي المرابط فوجدت المقاومين راجعين وهم يتحدثون عن القوة الفرنسية التي لا تقاوم وسألت الناس، فعلمت أنهم ذاهبون خارج البلدة خوفاً من الفرنسيين الذين سيدخلون المدينة دون شك ولا يدري أحد ما سيكون من أمرهم إذا أرادوا الانتقام. وسرت مع الناس إلى منطقة البساتين وظللت سائراً هكذا إلى أن بلغت نهر العاصي ووصلت إلى قرية سلمية هي الكافات، وقد أحسست بالتعب الشديد وعرجت على صديق لنا هناك هو الشيخ يوسف، وهو شيخ القرية وكان ظريفاً كريماً فاسترحت عنده وأكلت مما وجدت قليلاً وهُيِّئت لي عربة «برجقه» فركبت حتى وصلت إلى سلمية، وفي نفس اليوم خرج أخي مع جماعة من شباب سلمية لمقاومة الفرنسيين ولكني لم ألتق به. في اليوم الثاني تدخلت الدول الشرقية والغربية وفرضوا على الفرنسيين التوقف عن الضرب وتسلّم الوضع الجنرال الإنكليزي واسمه «باجيت»، كما أذكر، وقد وصل إلى حماه لوقف القتال بين الجانبين واستعرض المقاومة هناك التي مرت أمام دار الحكومة تحييه وتشكره على تدخله. لقد كانت الخلافات بين فرنسا والسوريين قديمة وكان للإنكليز ضلع فيها وهم الذين أثاروا العالم على الفرنسيين

وقد رأيتهم بعيني يتحدثون باللاسلكي مع لندن التي كانوا يتصلون بها دوماً باللاسلكي كما كنت أراهم، وهم موظفون في الميرة، ولا علاقة لوظائفهم بالسياسة، كنت أراهم يركبون سياراتهم ومعهم نفر من الأهلين المسلحين وهم يطوفون الأحياء يحثون الناس على المقاومة المسلحة ويفهمونهم أن الإفرنسيين ذاهبون وقد ذهبت ريحهم، وكانوا يأتون إلى الرجال فينيِّمونهم على الأرض ويدهنون وجوههم وثيابهم بالصباغ الأحمر ويصورونهم على أنهم من المجروحين وينشرون صورهم عن طريق جرائدهم في لندن. وكان من أهم رجال الإنكليز في حماه الكابتين «ده ردن» والكابتين «هيوم» وكلاهما من رجال الاستخبارات البريطانية.

وقد انتهت هذه المعركة في حماه، أما في حمص فلم يقع إلا الشيء القليل، فلم تحدث مقاومة وكانت المقاومة أعظمها في دمشق وفي حماه حتى قال أحد الحمويين:

كلما نادت حماه للجهاد ضحكت حمص وقالت: «حاجي عاد»

وفيها غمز يشير إلى حياد حمص في هذه الأحداث، ولكن وقعت بعض الأحداث الفرعية في جسر الشغور وإدلب ودير الزور واستسلم بعض الفرنسيين للحاميات الإنكليزية، وهكذا انتهى دور الفرنسيين في هذه البلاد، وبدأت المفاوضات على مستوى هيئة الأمم وطلبت سورية استقلالاً تاماً على أن تسوى كل الأمور المعلقة بين الجانبين بالمفاوضات. في أثناء هذه الحوادث انتقل الكثيرون من أهالي حماه إلى سلمية خوفاً ومن أجل اطمئنان العائلات، وقد فتحت لهم البيوت واستضافهم أهل سلمية، وما زال الحمويون يذكرون هذه العاطفة بالذكر الحسن إلى اليوم، وكان من حظنا إحدى العائلات، وقد قمت على خدمتها مع والدتي المرحومة إذ كان بيتنا خالياً جاهزاً لاستقبال القادمين من حماه. ولم يكن يتوقع أحد أن تنتهي الحال مع فرنسا بهذه السهولة، ولولا حادثة البرلمان الرهيبة التي ذهب فيها عدد كبير من جنود الشرطة والدرك، ولولا الجنون الذي أصاب المندوب الفرنسي بدمشق يوم حاول أن يقتل النواب جميعاً لولا أن حذر النواب وخرجوا من القاعة ولم يبق فيها إلا الحراس الذين قتلوا عن آخرهم إلا واحداً منهم، لولا ذلك ولولا حوادث حماه لانتهت القضية بسلام وذهب كل جانب إلى بلده بسلام.

لقد عادت الأمور إلى نصابها بعد هذه الأحداث، وبدأت التسويات على الأمور المعلقة وانتهى الاستعمار الفرنسي بعد ربع قرن حدثت فيه ثورات وحركات لم تنته حتى اللحظة الأخيرة من حكم الفرنسيين.

مما يستغربه المرء أن تكون مدينة حماه جامعة، أو كانت تجمع منذ خمسين سنة أكبر عدد من الظرفاء، وكان هؤلاء يأوون إلى أغنياء المدينة الذين كانوا ينفقون على هؤلاء الظرفاء فيتحملون عنهم تكاليف العيش ويؤمّنون لهم احتياجاتهم كلها، ومن أشهر هؤلاء الأثرياء في جمع هؤلاء الظرفاء كان نوري باشا الكيلاني، الذي كانت نقيباً لأشراف حماه، وكان ذا صلة قوية مع دار الخلافة حتى أنه دعا إلى العشاء مرة مدحت باشا الذي كان يسمي نفسه «خالع الملكين» لأنه عمل على خلع السلطان عبدالعزيز وبعده السلطان مراد، ثم جاء بعبدالحميد الثاني، ولكن عبدالحميد استبعده فيما بعد وعينه والياً على الحجاز ثم دس له من قتله ـ كما تقول الرواية ـ في بلدة الطائف الحجازية، ولقد تناول العشاء حين مر بحماه وأثناء تناوله العشاء انخلعت الطاولة ووقع الطعام والصحون على الأرض، ثم أعيد وضعها وقد قيل إن نوري باشا بعد أن انتهى العشاء رمى بالطاولة وما عليها في نهر العاصي الذي كان يمر في منتصف حديقة داره الذي كان في بستان يسمى «أم الحسن»، وقد أصبح اليوم حديقة شعبية للبلدية.

كان نوري باشا رجلاً مهاباً وكان ينظم الشعر وبخاصة التاريخ، غير أني ـ كما روي لي ـ كان كثير الخطأ في صحة هذه التواريخ المنظومة وكان قليل الخروج من داره إلا إلى بستانه أو قناقة كما يسمى حيث يأتيه الزوار يجالسونه ويتحدثون في أمور المدينة وسياسة الدولة. وكان مزواجاً، فقد تزوج أربع نسوة ولكنه لم ينجب أولاداً كثراً، ولكن أكثر مجلسه كان من الظرفاء وأشهرهم: الشيخ صبح، وأبو عبود كشباش وسليم الخطيب، ومحمد البابا، وغنوم الشمطية، ومصطفى أجدبو وصالح فلاحة. ولكل واحد من هؤلاء قصة طريفة وقعت أثناء حياته عند الباشا الذي كان يتعهد هؤلاء بكل ما يلزمهم، وما يلزمهم كان

شيئاً تافهاً بالنسبة لتلك الأيام أيام كان اللباس مختصراً والطعام رخيصاً هيناً.

أما الشيخ صبح فقد كلفه نوري باشا مرة أن يهيء له طاولة فيها شيء من التسلية على ضفة النهر، فقد كان يحب الصبوح وهو مجلس الأنس الصباحي، فقام الشيخ صبح بما يجب ورجا الباشا أن يسمح له بحضور هذه الجلسة فانتهره وصرفه، فما كان من الشيخ صبح إلا أن ذهب إلى أقرباء الباشا من آل الكيلاني المتعصبين (من آل فضل الله)، وطلب إليهم أن يوافوا الباشا في حديقة داره لغرض ضروري وركض هؤلاء إلى الباشا، وحين أقبلوا اضطر الباشا إلى رمي كل شيء كان أمامه في العاصي لأنه كان يتستر في حياته الخاصة، والتفت فرأى الشيخ صبحاً في الضفة الثانية من النهر وهو ينفجر ضحكاً ويؤشر للباشا تأشيرة النكاية والانتقام، وقد كانت نكتة رويت بعد ذلك أياماً. أما ابو عبود كشباش فقد أرسل ابنته ومعها قنينة من الزجاج لتحضر له كازاً من الدكان فضربها الريح فوقعت هي والقنينة التي انكسرت وضاع ما فيها من الكاز، وغضب أبو عبود وأعطى الفتاة الهاون النحاس لكي تحضر به الكاز والتفت إلى السماء يخاطب المولى تعالى وهو يقول: تفضل يا سيدي إكسر إن كنت تستطيع؟ أما غنوم الشمطية فكان نزهة المجالس وكان ضخم الجثة يحب بطنه «كما يقال»، وقد دعي مرة إلى طعام شهي هو «القباوات» عند آل الأحدب، فجاءه إنسان آخر ودعاه ليتناول طعام العشاء من الخروف المحشي وذهب الرجل إلى الدعوة الجديدة مفضلاً إياها وانتظر فلم يأت الطعام وبعد لأي جاء صاحب البيت يحمل طبقاً كبيراً من النحاس ورمى فيه عدداً من رؤوس البصل فأدرك الشيخ اللعبة ولم يعرف حقيقة الأمر، وبعد قليل جيء بإناء كبير فيه كمية من العدس بحصرم وهو نوع من «الشوربا» الخفيفة ونظر الشيخ إلى الوعاء وقال لصاحب البيت: أليس عندك عدس تضعه في هذا الحساء «المائي» إن عمامتي ظاهرة حين أنظر فيه، وقال له صاحب البيت: قل باسم الله، وأجاب الشيخ: إن طعامك لا يستأهل حتى البسملة، وانتهت الكارثة بالنسبة للشيخ على هذه الصورة المحزنة. أما صالح فلاحة فقد كان الغريب فيه أنه كان يملك صناعة لا توجد إلا في حماه دون بلدان الشرق الأوسط كلها، وهي تجارة النواعير الشهيرة في حماه، فكان يتعهدها كل سنة ويقيم إحدى هذه النواعير ويصلحها لتنقل الماء إلى بساتين المدينة. وقد قامت برأسه مرة فكرة مضحكة، فقد أسس جمعية ـ على رأيه ـ أسماها «جمعية البُهْم» سجل فيها أسماء كل حمقى المدينة وبسطائهم وضعيفي العقل منهم، وتسامع الناس ضاحكين بهذه الجمعية التي اشتملت على الوجهاء والتجار وقسم كبير من الموظفين، وجاء مرة إلى مدير المالية وكان دمشقياً بسيط التفكير فقال له: يا سيدي لقد سجلناك، وغضب الموظف وصاح بالشيخ صالح: أنا لا أتدخل بالأمور السياسية ولا أدخل جمعيات أو احزاباً، وقال صالح فلاحة: ولكنا سجلناك يا سيدي إجبارياً، لأنك تستحق العضوية كاملة، وراح الاثنان يتصايحان والناس يضحكون منهما، أما حمدو البابا فكان تحفة من تحف الزمان، لقد كان سريع البديهة محباً للنكتة، وكان طويلاً مهاباً تظنه والياً أو قائداً عسكرياً كبيراً. دخل مرة ليراني وأزاح المراجعين من أمام مكتبي واقترب مني، ولم أكن قد رأيته من زمن بعيد وصرخ في وجهي قائلاً: خذ أية نكتة مني، أنا لست دائماً ولن أعيش لأجلك؟ قالها بكل جد ووقار فاستغرب الناس لهجته هذه وضحك كل من عرفه، ورأى أمام بيت جيرانه مرة «جربوعاً» ميتاً فأمسك به وطرق الباب على الجيران في الصباح الباكر ليقول لهم: هل هذا الجربوع لكم؟ وشتمه الجيران طبعاً، وقد عين في آخر أيامه في البلدية بحمص بعد أن انتقل إليها وكانت وظيفته «تسميم الكلاب الشاردة» وكان إذا سئل عن عمله قال: أنا مأمور إبادة، وهو اختراع من اختراعاته، وكان يسير في جنازة أحد الأغنياء البخلاء فالتفت إلى من حوله يقول: ما هذه المدينة الملعونة، أكلما مات إنسان اتهموني به؟ وهو يقصد وظيفته في سم الكلاب والمعنى مفهوم طبعاً. وكنت في حمص يوماً ومررت لأقف أنتظر السيارة عند منتصف الليل فرأيت البابا جالساً إلى منقل كبير من الحطب يتدفأ به، وما كدت أجلس إليه حتى رأينا كلباً يمر بنا ويقف قليلاً ثم يسير، وتبعه البابا وتبعت أنا البابا وأخذ يرمي له الطعام المسموم فيشمه وينظر إلينا ثم يتركه ويمضي ونحن نلحقه إلى أن مشينا أكثر من كيلو متر، وفي نهاية الأمر، شم الطعام لآخر مرة، وقفز راكضاً لا يلوي على شيء، ونظر إليّ البابا يقول لي: أظن أنه ابن حارتي وقد عرفني فهرب. وقد اشتهر في الأيام الماضية من المضحكين في

حماه الشيخ علي الجابي، وله نكتة أحفظها، فقد كان واقفاً مرة عند العشاء تحت مئذنة من المآذن وسمع صوت المؤذن وهو ينشد: أرسلتها مع نسيم الصبح رائقة. ويبدو أن المؤذن كان متضايقاً فبال فأحس الجابي برشاش البول فصاح بالمؤذن: وصلت يا حمار. وكان عز الدين الحريري ـ رحمه الله ـ وهو والد الشاعر محمد الحريري وشقيق نعسان صديقنا الذي حدثتك عنه، وقد كان ثرياً جميل الصوت، آية في جمال الوجه، وكان الوجهاء أصحاب القرى في حال عسيرة جداً عام ـ ١٩٢٨ ـ وكلهم مدينون ومحكومون بالسجن من أجل الدين، كما كان القانون يقضي به في تلك الأيام، وقد كان في مجلس من مجالس السمر مرة فرأى أكثر من واحد من هؤلاء الملاكين الكبار وكلهم محكوم بالسجن وخائفون من ملاحقة الشرطة فقال يصفهم:

فصرنا من الإفلاس إن قيل «ليرة» على غفلة يُغمى علينا جميعنا

وحين جاءت المغنية والممثلة المصرية الكبيرة «منيرة المهدية» إلى حماه دعاها نجيب آغا البرازي إلى قصره وكان عز الدين الحريري من المدعوين وهو صديق للآغا، وبدأت السهرة فدعي عز الدين للغناء وهو يملك صوتاً رائعاً وأراد الغناء ولكنه ارتبك فنزع عنه ـ العمامة ـ وكان يلبسها بصفته متولياً للوقف الذي يستغله ـ وأراد الغناء ثانية فلم يستطع فحل رباط عنقه، والتفت صديق من أصدقائه يقول له: والله لو نزعت ثيابك وغدوت عارياً لما استطعت الغناء؛ وكانت نكتة السهرة.

أقدم مطربي حماه الذين أذكرهم هنا كان هاشم سلطان وهو من أسرة معروفة، كان يجيد الغناء ولكن صوته كان قاسياً جداً لكثرة ما تناول في شبابه من شراب، وقد سمعته مرة فلم يعجبني، وبعده يأتي شاب من عائلة معروفة كان موظفاً في البلدية وكان جميل الشكل والصوت، وقد اجتمعت به مرة ولم أكن أدري أنه يعزف على العود بما يكفيه، وحاولت أن أمسك بالعود وهو صامت ينظر إليّ ولم أوفق لأني لا أعرف من العزف إلا قليلاً، وبعد قليل أخذ العود فإذا به مجيد في العزف والصوت ولكنه أصيب في آخر أيامه بشيء من الترفع عن العزف، وقد لمته على هذا وقلت له: إنه فن وقد أصبح فناً محترماً هذه الأيام ورأيك هذا خطأ فادح. وكان هناك مغنٍّ مجتهد اسمه سعيد أسير، وقد تعلم العود بسرعة وكذلك الغناء حتى أصبح مطرباً مرموقاً، وقد مات ولده الوحيد في حوادث لبنان وتبعه هو بعد مدة بسيطة، وكان نجيب السراج الذي ما يزال يعمل في الإذاعة السورية وهو صاحب صوت حسن ويجيد العزف على العود، ولكنه لا يحفظ شيئاً من الغناء إلا بعض الأغاني الشعبية المعروفة في حمص وحماه، وقد نصحت له كثيراً أن يأخذ الألحان من كبار الملحنين، وأن يحفظ من غناء الماضي كأغاني سيد درويش وعبدالوهاب، ولكنه كان يؤمن بأنه ملحن، وقد اتخذ التلحين صنعة يكتسِّب منها وهي تدرّ عليه هذه الأيام رزقاً حسناً. على أن هؤلاء المطربين كلهم كانوا من البساطة بمكان، فالمطربون هم الذين عددتهم في حمص وعلى راسهم المطرب الرائع نجيب زين الدين والزيات ورفاقهم الذين كانوا يزورون حماه ويحيون لياليها ولا يتركون مجالاً لغيرهم.

أشهر العازفين في حماه كان سعيد الترمانيني وهو صديقي ـ رحمه الله ـ كان موهوباً في أصابعه وريشته وإن لم يكن عالماً بالموسيقى، ولكنه رغم بساطته في العزف على العود كان مطرباً، فإن لريشته وقعاً غريباً على السامع، وكان يغني أحياناً بعض الأغاني وصوته كان مقبولاً، ولكن الزمن أساء إليه؛ فقد عين في فترة من الفترات رئيساً للبلدية في حماه فترك العزف وكرهه وكره من يتحدث إليه به واعتبره مسيئاً له بعد أن صار رئيساً للبلدية، وقلت له جاداً وقد زارني: إنك برئاسة البلدية ستُنسى ولن يذكرك الناس إلا بفضل هذا العود الذي بت تحتقره فارجع عن رأيك لأنه رأي غير صحيح، وتوفي ـ رحمه الله ـ ولم يقرب العود، أما العازف الآخر فقد كان السيد هاني الكيلاني ابن نوري باشا الكيلاني الذي مر بك حديثه آنفاً وكان عازفاً معقولاً على الكمان، ولكنه لم يكمل الشوط بسبب ظروفه الخاصة والأحداث التي مرت بحماه، والعازف الثالث كان اسمه: ألفريد جورجياوس وهو من أصل يوناني كما يدل عليه اسمه، وكان يعزف على المندولين «العود الصغير»، وقد صنع لنفسه فيما بعد آلة صغيرة كالطنبور يعزف عليها لأنه كان نجار موبيليا مشهوراً، وقد ألف هذا الثلاثي سعيد وهاني وألفريد نادياً موسيقياً في حماه، زاره

عبدالوهاب حين زار حماه وسمع ألفريد يعزف على طنبوره، وحين سأله عن اسم هذه الآلة قـال ألفريـد: إنه نشأت كار، وقال عبدالوهاب: إنه ألفريد كار، وقد أهداه ألفريد الطنبور كذكرى. وكان مع هؤلاء عـدد من عازفي الناي ومنهم محمد المصري الذي كـان يعرف الثقـافة الموسيقية. وهنـاك عازف لم يكن مـوفقاً لشدة فقره وإن كان في رأيي عبقرياً في عزفه، وقد كان مثقفاً موسيقياً وكانت صناعته نحت الأحجار، وقد كنت أنظر إلى أصابعه الحريرية وهي تتلاعب بثقوب الناي فأستغرب أن تستطيع هذه الأصابـع الخشنة التي أكلتهـا الأحجار والأدوات الثقيلـة أن تنتقل بسهـولة مـذهلة، وكـان مصوراً للنغم لا يعجـزه شيء، والتصوير كما لا يخفى هو أن يخرج العازف النغمة من مكان غير مكانهـا الطبيعي لأن لكل نغمـة مسيرة على الآلة فإذا غير المغني الصوت استطاع العازف القدير أن يلحق به ولو من غير طبقتـه ومن غير مكـان النغمة الأصلية من الآلة. كان يلبس العقال والكوفية، فقد كـان أصيب بصغره بمـا أذهب شعره، وكـان غاية في الفقر وحسن الخلق والأنس. وهناك عازف قديم رأيتـه مرة ولم أسمـع عزفـه وقد قيـل إنه كـان أفضل العازفين على القصب، وكان اسمه أو لقبه «النقّ».

٣٤ انتقال

بعد عشر سنوات أو تزيد أخذت أفكر في الانتقال من هذه المدينة إلى غيرها فقد حصلت على شهادة الحقوق وأصبح بيدي مفتاح الوظائف كلها، وهو الشرط الأول في كل تصرفات الوظائف، وقد ضقت ذرعاً بحماه بعد أن تبدلت الأحوال ومات بعض الرفاق مثل محيي الدين الحوراني والشيخ حمود ونايف السمان الذي كان أيضاً من أعز أصدقائي، وهو شقيق عبدالكريم السمان الموظف العدلي الذي كان معي في الحسكة، وهذا الرجل يستحق أن آنوه به بعض الشيء فقد كان كاتباً بسيطاً في المالية بحماه، ولكنه كان مرجعاً في معرفة أشخاص البلدة وأقربائهم وأماكن ولادتهم فكان يسأل عن كل شيء يتعلق بالسكان وكان سميناً محباً للسهر وللسمر، وكانت عنده غرفة أو غرفتان في دار صغيرة في حي منعزل، فكنا نلجأ إليها بين حين وآخر فنجد ما نشتهي عنده من كرم ضيافة وكرم خلق ولطف وأنس. كنا نجد الطاولة ملأى بالطعام والشراب والقهوة المرة والفاكهة، ونراه وقد جلس وراء الطاولة وقد لبس ثوبه العربي الفضفاض وطربوشه القديم الذي لم يعرف «الكي» أبداً، فكنا نمازحه فيتقبل مزاحنا بطيب قلب وسرور وكان زواره ثلاثة أو أربعة أشخاص لا يزيدون على ذلك ومنهم: السيد سعيد الترمانيني وزاكي الجاجة السمان الذي كان يمولنا كلنا باللوازم البيتية وأحمد شاكر الذي كان من الظرفاء ومن تجار الحبوب وعبدالعزيز الأمير الذي كان أيضاً من أصحاب الحديث الطريف في مجالس السهر، ورجل لم أرافقه كثيرا وإنما أنا أعرفه من شكله واسمه شريف المير، هذا الرجل الأخير كان على شيء من الغنى وكانت له علاقة بسلمية بلدتي، إذ كان يضمن البساتين ويشغلها على حسابه، وكثيراً ما درّت عليه هذه المهنة أرباحاً تكفيه وتزيد، وكان أنيقاً يلبس الأثواب الحريرية العربية ولا يلبس الفرنجي، ولكنه كان متزمتاً يسير وفق خطة لا يغيرها فهو مهذب في تصرفاته حين السهر ولا يحب أن يلجأ أحد إلى الفوضى وقد يختلف مع الناس من أجل هذا، مد أحدهم يده ليأخذ برتقالة كانت في صحن على الطاولة فنظر إليه نظرة كادت تقصم ظهره واضطر الرجل إلى إعادتها لكي لا يسيء إلى نظام الفاكهة. أما أحمد شاكر فقد كان من الأذكياء المعروفين في البلدة. كان يرى بعض آل السُمان يأتون إلى السيد نايف السمان وصاحب البيت فيتحدثون إليه وشوشة ويخرجون، وقد تكرر هذا الوضع عدة مرات في ليلة واحدة على اعتبار أن نايف السمان كان الموظف الوحيد هاتيك الأيام من بين آل السمان جميعاً، وقد تضايق أحمد شاكر من هذا المنظر ونظر إلى نايف السمان ساخراً ليقول له: أدامك الله مرجعاً، وشتمه نايف وضحكنا جميعاً. من بين هؤلاء كان شخص وهو من أصدقائي، ولكنه غير متناسب مع السهرة ولا مع الموجودين جميعاً، وكلهم كان يراه زائداً عن حد الجلسة وغير متناسب معها، وكنت أردد لنايف السمان قولي في الحديث الشريف: حُفّت الجنة بالمكاره، أي: لا تخلو لذة مما يعكرها، وهذا من أحكم الأحاديث في نظري، وذلك كقول المتنبي أيضاً: «ولا بد دون الشهد من أبر النحل»، كان مسكيناً لا يعرف حديثاً ومع ذلك يتحدث وكان لا يعرف شيئاً من الشعر والأدب وتراه يسأل ويتحدث إن جرى هذا الحديث، فهو كما تقول العامة «عريض العدل» يتدخل فيما لا يعنيه وهذا ما كان يحرج الساهرين ويعكر صفوهم، ولكن نايف السمان، الذي كان يحس بالضيق أكثر منا جميعاً، لم يكن يستطيع صرفه من «الخدمة» أو السهرة لأن رابطة شديدة من الإلفة بينهما تمنعه من أي تصرف لا يعجب صاحبه هذا، ومن الغريب أن هذا الرجل كان من أسباب موت نايف، في يوم من أيام عام /١٩٤٨/ كما أظن خرجت من بيتي عصارى النهار فمررت بمكان كان يجتمع فيه نايف مع بعض أصدقائه ويسمى «زاوية الشيخ معروف»، وهو اسم مزار قديم في ذلك الحي فرأيته كعادته جالساً وأمامه سلة الفاكهة والطعام وما يلزم للسهرة ووجدته ساهماً كئيباً فسألته عن حاله فأجاب بقوله: الحمد لله، ولكني وجدت وجهه محتقناً يكاد الدم ينفر منه، وسألته ثانية: هل أنت مريض؟ وأجاب بالإنكار، فتركته ونزلت إلى المقهى وما كدت أدخل حتى رأيت الدكتور المرحوم منير الأسود يقول

لي: إلى أين؟ لقد مات نايف السمان، وعلمت بعد ذلك أنه وصل إلى باب البيت، أعني بيت السهرة، وما كاد يفتح الباب حتى سقط ميتاً. وقد علمت فيما بعد أنه اختلف هو وصاحبه اختلافاً شديداً وأن صاحبه أساء إليه إساءة لم يحتملها ولم يستطع عمل شيء إزاءه، وكانت النتيجة ان توفي إلى رحمة الله. لقد كان هذا الرجل من أغرب من رأيت في حياتي: كان يسهر في كل ليلة وكان هو يتولى الإنفاق على السهرة ولا يقبل هدية أو معونة أو مشاركة وكان ذا راتب ضئيل، وقد تزوج امراتين وخلف أولاداً كثيرين، ومع ذلك فقد كان يوم توفي نظيفاً من كل دَيْن، إذ كان حسن التصرف يضع الأمور في نصابها، ويوم مات سمعت صراخ اولاده وبناته، وكان بيته قريباً من بيتي بحيث أسمع كل شيء، فذهبت أنا وعائلتي إلى بيت أحد أقربائي ونمت هناك كي لا أسمع شيئاً من الصراخ، وفي الصباح الباكر ذهبت إلى المقبرة وألقيت على ضريحه أبياتاً ما زلت أحتفظ بها إلى الآن. لقد كان من ذكرياتي الطيبة في حماه.

من ذكرياتي التي احفظها عن حماه وأحب أن اذكرها قبل تركي لها، شخص عجيب اسمه: خالد كلبون كان نجار «موبيليا» يصنع الخزائن فلا يجاريه أحد، وكان يحب السماع ولكنه لم يكن يعرف شيئاً عن الغناء، وكان يجيد تدبير السهرات الغنائية وعن هذا الطريق كما أعتقد عرف عازف العود الدمشقي الشهير عمر النقشبندي الذي عرفته وسمعت عزفه وغناءه منذ كنت في دمشق أيام الدراسة، واستضاف خالد صديقه النقشبندي الذي زار حماه لعدة أيام وطالت مدة إقامته بعد ذلك إلى سنوات عديدة، إذ لم يكن في دمشق عمل للموسيقيين إلا مسرح أو مسرحان كان فيهما ما يكفيهما من العازفين المحترفين القدماء مثل بديع محسن وإبراهيم شاميه، وبعض العازفين من اليهود مثل «صيون» و«موشي إلياهو» الذي انتقل إلى اسرائيل وأصبح مطرباً وعازفاً معروفاً، وما زال يعمل إلى اليوم في إذاعة اسرائيل، كان خالد هذا صديقاً لنا حتى أقنعنا بأن نستأجر بيتاً للسهر في الشتاء، وكان الحمويون يلجأون إلى هذه الطريقة: يجتمع خمسة أو ستة أشخاص أو أكثر فيشتركون في كل ما يلزم لبيت يسهرون فيه، فيعزفون ويغنون ويشربون ويتسلون بالملاهي البسيطة المعروفة من طاولة أو ضامة أو شَدّة أو غير ذلك، وقد اجتمعنا: خالد وعمر النقشبندي الذي كان ضيفاً عازفاً ولم يكن عضواً عاملاً، وسعيد ترمانيني وأنا وشخص اسمه شفيق الحاج حامد، وكان يتردد علينا المرحوم علي آغا البرازي، وأخذ خالد بما عرف فيه من فن النجارة ينظر إلى العود وجرب نفسه مرّة فصنع عوداً أشرف عليه عمر النقشبندي الخبير بالأعواد وخرج العود من أحسن الأعواد، وأخذ خالد يصنع من هذه الأداة الفنية حتى أصبح أبرع صانع فيها وعرف اسمه بذلك واشتهر، وقد صنع مرة عوداً صغيراً أشبه باليقطينة الصغيرة، فكان عمر يتسلى فيه بالسهرة ويعزف عليه فيطرب ونطرب معه. لقد أصبح خالد أشهر صانع عود في المنطقة مع أنه لا يعرف النغم ولا يعرف أن يصلح أوتاره وهذا شيء غريب.

كانت محاولات كثيرة فاشلة من جانبي للانتقال من حماه، وكنت أخطط للانتقال إلى دمشق من زمن بعيد، ولكن دمشق كانت في تلك الأيام وقفاً على الموظفين الدماشقة ومن الصعب أن ينتقل إليها رجل غريب عن البلدة، ثم إن الموظفين كانوا قلة في البلدة بالنسبة للصناعات الأخرى، ولقد حاولت أن أتخذ الوسائط والوسائل ولكني لم أنجح، واتجهت مرة إلى صديقي فؤاد شباط الذي أصبح أميناً عاماً لوزارة الداخلية بأن أنقل مديراً لإحدى النواحي بعد ان حصلت على إجازة الحقوق، وقد صدر القرار فعلاً بهذا، ولكني رفضت الذهاب إلى هذه القرية النائية في منتصف جبال العلويين وآثرت أن أسعى سعياً آخر، وقد كان نكولي عن هذه الوظيفة الجديدة صعباً ومشكلاً ولكني كنت مدللاً من رفاقي في الوزارة وخاصة المحاسبة وعلى رأسها رفيق الدراسة ماهر المغربي والصديق خليل الزين - رحمه الله - وعبدالرحمن المسالخي، وهؤلاء كانوا كل شيء في الوزارة. لقد أخفقت إذن في الانتقال وعدت إلى حماه وبعد أيام وردني هاتف مستعجل من الأستاذ شباط، الأمين العام يقول لي: لقد نسبنا تعيينك رئيساً «لديوان محافظة السويداء» فهل توافق؟ وأجبت بالموافقة، فقال إذن: تعال إلى دمشق لتتدبر أمورك ولتذهب إلى السويداء لتجد داراً ثم تعود إلى حماه لتنتقل مع العائلة. كان ذلك في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٥١. وقد أطلعت أصحابي في دمشق وأهلي في سلمية على القضية، وذهبت إلى دمشق فقابلت

المسؤولين في الوزارة وذهبت في اليوم الثاني إلى السويداء، وقد كنت عرفتها قبل هذه الوهلة في زيارة خاطفة. كانت السويداء بلدة صغيرة بيوتها من الحجارة السوداء، وأبنيتها على شكلين متباعدين، فالبيوت السوداء القديمة للأهلين، والبيوت القرميدية التي تشبه القصور في مصايف لبنان كانت بيوتاً للفرنسيين الذين كانوا يعتبرون السويداء مستعمرة خاصة لهم، إذ كانت في العهد السابق، ومنذ الثورة السورية (١٩٢٥) منفصلة عن سوريا تماماً ودولة مستقلة لها حاكم يديرها مع مستشارين فرنسيين مسيطرين على الوضع تماماً ـ ورأيت في البلدة داراً للحكومة جميلة واسعة كما كان فيها بناء واحد يسمى «النادي» هو الفندق الوحيد في البلدة ويتألف من عدد قليل من الغرف وقريباً منه ناد للضباط يأكلون فيه، ولم أرَ فيها مطعماً أو مقهى أو ما يشبه ذلك، اللهم إلا بناءً للسينما شيِّد حديثاً وهو بناء جميل واسع.

ودخلت إلى دار الحكومة وقابلت المحافظ فرحب بي ترحيباً كبيراً، وقد كان قيل لي عنه أنه ظريف ومن أصحاب النكتة والمجالس الظريفة، وأنه يحب السهر والسماع والنكتة الجميلة إلى غير ذلك من الأوصاف التي رغّبتني بالانتقال إلى هذه المحافظة الجديدة. ولكن الأمر كان على عكس الوصف تماماً، فقد رأيت الرجل جافاً بعض الجفاف وإن كان يبتسم أحياناً ويحاول الضحك والمفاكهة، ورأيته أشبه بالمرضى في دور النقاهة وبالفعل لقد كان يشكو من فتق في بطنه امتنع بسببه عن الطعام الثقيل كما اضطر إلى ترك الشراب منذ زمن بعيد لأنه كما يبدو فُرض ذلك عليه، وهو من عائلة قديمة جداً ودينية يسمون: آل محاسن، أو المحاسني، وقد كان منهم قضاة دينيون ومفتون كثر وموظفون عدليون، كما كان صاحبنا المحافظ قاضياً كبيراً تنقل بين دمشق وحلب، وكانت له في حلب جولات شهيرة في عالم الطرب والسهر والغناء، كما حدثني بذلك فيما بعد. خرجت من عند المحافظ لأصل إلى مكتبي، وأخذ الموظفون في المحافظة يفدون للسلام عليّ وكان أولهم شاب يدعى «برجس الحمد» وهو من قرية قريبة من "سويداء تسمى «ثعلة» وكان كل شيء في المحافظة، فهو المنشىء وضارب الآلة ومأمور الأوراق «الأرشيف» وقد كان ـ رحمه الله ـ حلو المحضر، أديباً، وقد ظل صديقاً لي سنين طويلة بعد انتقالي من السويداء، أما الموظف الثاني فكان اسمه «فريد الخوري» وكان مسيحياً كما يدل على ذلك اسمه وكان صهراً للزعيم الدرزي المسيحي «عقلة القطامي» الذي كان زعيماً من زعماء الثورة أيام ثوة سلطان، كما كان صديقاً لقائد الثورة سلطان الأطرش وكان محترماً مبجلاً، وأصبح فيما بعد نائباً من نواب الجبل لأنه شارك في الثورة؛ وهو المسيحي المفروض فيه أن يكون حيادياً على الأقل أو ممالئاً للإفرنسيين، ومع ذلك فقد جاهد؛ وكانت له مواقف مثيرة للمستعمرين ومقدرة من الجانب العربي. وكان فريد هذا صهراً للقطامي أعني زوج ابنته، أما الموظف الثالث فقد كنت سمعت به قبل أن أصل إلى السويداء وكان اسمه «طلال الأطرش»، وهو من وجوه عائلة الأطرش، ووالده كان اسمه فهد الأطرش، وهو أخ لأب المطرب الكبير فريد الأطرش وكذلك لأخته أسمهان، ولكنه لم يحضر للسلام عليّ وعلمت أنه غير موجود في مكتبه، ويبدو أنهم أرسلوا إليه فحضر فوجدت رجلاً طويلاً عريضاً يلبس العقال والقنباز والسترة الطويلة الشتوية، وسألته: أتلبس العربي، وضحك وقال: عوائدنا هذه يا سيدي ورحبت به، وقلت له أنا أعرفكم جيداً يا آل الأطرش كما أعرف أخاك فريداً وأخاك منيراً الذي عرفته في حماه منذ سنين، وكرر السلام وقال: نحن أقرباء وأنت في بلدتك ولست غريباً عنا، وهو يقصد إلى القرابة بين أهل سلمية والدروز الذين كانوا طائفة واحدة بزمن الفاطميين، وقد افترقوا في عهد الحاكم بأمر الله، إذ أن الدروز اعتبروا الحاكم، رفع إلى السماء بينما رأى الإسماعيليون من أهل سلمية أن ولده هو الذي خلفه واسمه «الظاهر»، كما هو معلوم تاريخياً، ولكن بقيت هناك صلات من القرابة تجمع الجانبين، وكان هناك موظفون آخرون في مكاتب بعيدة عني ضمن المحافظة، منهم شخص من آل «القنطار» ضخم الجثة عظيم الهامة وكان عمله في مصلحة المياه كما اذكر، كما كان هناك رجل يدعى «ذوقان حاطوم» وهو والد الضابط المعروف: سليم حاطوم. وكان ذوقان ضابطاً للأحوال المدنية، أما قائد درك المحافظة فقد كان عقيداً كبير الهامة والجسم وكان كردياً ولضخامته كانوا يسمونه «فون براوشيتش» على اسم قائد الجيوش الألمانية في زمن هتلر، وكان ظريفاً طيب المعشر، وهناك عرفت أحد أبناء مصياف وقد رحب بي باسم العشيرة ومصياف والقدموس والخوابي

وسلمية كلهم عشيرة واحدة هي عشيرة «الإسماعيلية» كما لا يخفى، وكان هذا الرجل طيباً جداً وقد صنع لي معروفاً لا أنساه، إذ توسط لدى قائد المنطقة فسمح لي أن أتناول طعامي في نادي الضباط بالسويداء وهو عمل جميل بالنسبة إليّ إذ لم يكن في السويداء مطعم كما أشرت غير دكان واحد لرجل أرمني لم يكن فيه إلا الحواضر والنواشف من مثل الحمص والمتبل والدجاج المسلوق، وكانت الجلسة المسائية ليلياً عند المحافظ، وكان المجتمعون عنده يومياً قائد الدرك ورجل اسمه سلمان حمزة وهو من أسرة درزية معروفة وكان من الأذكياء الأميين ويعرف قليلاً من اللغة الفرنسية، لأنه كما عرفت أخيراً، كان يتعامل مع الضباط الفرنسيين وتربطه بهم صداقة لا أدري ما نوعها، وكان الشخص الثاني يدعى: طرودي عامر وقد كان قائمقاماً في القامشلي عينته الحكومة لهذه الوظيفة مجدداً ولكنه لم يستمتع بهذه الوظيفة، فقد سقطت به الطائرة وذهب مع الذاهبين في هذه الحادثة، وقد كان لطيفاً لين العريكة ومن سكان بلدة شهبا المركز الإداري التابع للسويداء ـ وكان يزور المحافظ مساءً في بعض الأحيان مأمور الزراعة واسمه: عدنان العظم، وهو من معارفي القدماء، إذ كان خريجاً من خريجي المدرسة الزراعية في سلمية، وكان زميلاً في الصف لابن عمي مصطفى الجندي، كما كنت أنا في الصف الأول حين كان هو في الصف الرابع، فهو أكبر مني سناً بسنوات وكان استقباله لي حسناً وقد ساعدني في البحث عن بيت، وقد وجدت ضالتي بمساعدته، وكان البيت لتاجر مسيحي من أغنياء المنطقة هو السيد شحادة، وقد تسلمت البيت فعلاً ونظّف وانتظرت فلم أسكنه ريثما تحضر العائلة ولكني مع الأسف الشديد أو عدم الأسف لم أسكنه مطلقاً، إذ نقلت بعد شهر من السويداء إلى دمشق وحين ذهبت إلى صاحب البيت لأعتذر عن ذلك ولأدفع له أجرة المدة التي استوليت فيها عليه، أبى أن يأخذ شيئاً من المال وقال: أنت ضيفنا ونحن نرجو لك التوفيق.

أما سهرة السيد المحافظ فكانت قاصرة على قراءة الجرائد وعلى اللعب بالورق، فقد كان المحافظ مدمناً لهذه اللعبة بحيث لم يكن يسهر بدونها، وكنت أضيق بهذا الأمر فلا حديث في السهرة ولا تسلية غير الحديث الذي يدور أثناء اللعب، وكان المحافظ صاحب نكتة وسخر عميق وهو السخر الشامي المعروف والذي يسمى بـ (الأنكله) أو «التَّرْيَقَة» عند المصريين، فكان يسحب ورقة الشِّدَّة وهو يقول: يا ساكن عري و: عِري هذه قرية من قرى الجبل كانت مقاماً ومركزاً للطرشان العائلة الوجيهة في المنطقة، وهو يقصد بذلك لوناً من السخر الذي كنت أضحك منه دائماً. أما أنا فلم أكن أشارك بشيء من السهرة سوى قراءة الجرائد الكثيرة التي كانت ترد للمحافظة والتي كانت تتكدس عند المحافظ يومياً.

كان الشباب في الجبل يعرفونني وخاصة المثقفون منهم، وكان من بين هؤلاء المثقفين المرحوم الشاعر سلامة عبيد والأديب صلاح مزهر(*)، والأستاذ شبلي العيسمي، ومعهم جماعة أخرى، وقد كوّنوا لأنفسهم نادياً يجتمعون فيه ويسمرون، وقد دعوني إلى حفلة شاي، فقضيت معهم سهرة جميلة وخاصة الأخ سلامة الذي انتقل إلى دمشق فيما بعد وأصبح صديقاً لي، خاصة بعد ان اجتمعنا في المجلس الأعلى للآداب في وزارة الثقافة وكنت أنا مقرراً للجنة الشعر بينما كان هو عضواً فيها، وفي اليوم الثاني دعاني السيد طلال الأطرش وقد دعا إلى الغداء عدداً كبيراً من آل الأطرش كما دعاني فوزي الأطرش الذي عرفته في حماه والذي كان قاضياً وصديقاً أنيس المحضر طيب القلب، وجئت يومها إلى السهرة عند المحافظ فوجدته متجهماً وسألني: أجئت إلى الجبل توحد الشعب؟ ولم أفهم أول الأمر، ولكني فهمت بعد قليل، وكان لهذا السؤال أسباب هي:

كان يشرف على سياسة الكتلة الوطنية بدمشق رجل سياستها ووزير خارجيتها جميل مردم بك، وهو من عائلة عريقة ومن أصل كردي أو تركي، فجد العائلة قائد تركي جاء إلى دمشق واستوطن بها وأظن أن اسمه «لالا باشا» وقد اتفق جميل مردم بك مع رئيس الجمهورية السابق السيد شكري القوتلي وعدد من رجال الكتلة على أن يقسموا سكان جبل الدروز (أو جبل العرب) كما سمّي فيما بعد، إلى شطرين

(*) توفي الى رحمة الله منذ ايام وانا احضّر هذه المذكرات.

شطر، هم عائلة الأطرش المتنفذة ومن يؤازرهم، وشطر سموهم الشعبيين وهم بعض الملاكين والتجار والمزارعين، وقد عملت الفتنة بين القسمين عملها ووقعت مشاكل كثيرة سبّبتها هذه الفئة من الكتلويين الدماشقة بصورة خاصة، كما ذهب بعض القتلى في سبيل هذا الخلاف وحتى ظن الكتلويون أن هذه الطريقة أي طريقة فرّق تسد ـ هي أنجح طريقة ليسلم الحكم من الانتفاض الدرزي أو الثورة على الحكومة لأن بعض الدروز كانوا متأثرين أو موالين للفرنسيين بحيث أنهم لم يكونوا يريدون الوحدة مع سورية، وأكثر هؤلاء من عائلة الطرشان المتنفذة، بينما كان من هذه العائلة نفسها نفر من الوطنيين الذين لم يؤيدوا هذا الانشقاق، فحين دعاني شباب النادي وهم من الشعبيين كلهم، ودعاني في اليوم الثاني طلال الأطرش الوجيه، شك المحافظ بنيتي وهو شك سخيف جداً وإن ظهر لي بأنه نكتة، وقلت للمحافظ: أنا أوعى في الجبل لأني أحمد الجندي، ولأنني من سلمية ومن الطائفة الإسماعيلية التي هي والدروز من أصل واحد، فهم أبناء عمنا شاءت الحكومة أم أبت ولا دخل للسياسة في هذا الموضوع، وأما دعوة الشباب لي فلأنهم أساتذة مثقفون وأنا أديب معروف عندهم، وقد رأوا من حق الأديب أن يدعى من قبل ناد أدبي. هذه هي القصة كلها، وسكت المحافظ عند هذا الجواب ولم أدر ما أضمر ولكنه كما يقال «شامي عتيق»، فقد تبين أنه لم يكن راضياً عن اختلاطي بالشطرين المنقسمين في الجبل وهو انشطار أملته سياسة سخيفة سببت لهذه البلاد الكثير من المشاكل.

بعد هذه الحادثة خطر على بالي أن أسعى إلى الانتقال إلى دمشق فدمشق كانت في حقيقة الأمر غايتي من نقلتي من حماه وليست السويداء التي كانت قرية في ذلك الوقت، وكما قلت لقد كانت خالية من كل وسائل الراحة والمتعة، ودليلي على هذا الحرمان أن البلدة كانت خالية من الحياة الاجتماعية فلا مقهى ولا سهرة، وسهرة المحافظ ليس فيها إلا حديث لعب الورق، وكان قائد الموقع بالوكالة المرحوم المقدم أنور القدسي الذي كان شارب الليل والنهار فمصاحبته تضطرني إلى مرافقته في شرابه وسهره الذي لا ينتهي وهذا ما لم يكن يناسبني لا صحياً ولا عملياً. لذلك قررت ترك السويداء، وقبل أن أتركها كنت مرة سائراً وحدي أضرب أخماساً بأسداس وإذا بصديق أو ابن أحد أصدقائي من آل عرنوق، وكان موظفاً في دائرة الزراعة في السويداء، لكنه كان بسيطاً غير متعلم وكنت أراه بعيداً عني في كل شيء، ولكنه سألني سؤالاً محبباً إليّ قال: كيف تعيش في هذه القرية وقد كنت معتاداً في طرطوس وحماه على السهر والشراب والعزف والغناء، وسكت فلم أجب لأني كنت قررت الانتقال كما قلت، وقال بعد قليل: امش معي قليلاً لتخرج من بين البيوت، فإن البرية هنا جيدة وتركني دقائق وهو يقول لي: سأرجع، وبعد الدقائق عاد إليّ ومعه صرة لم أعلم ما بها ومشينا ما يقرب الكيلومتر إلى منظر جميل كان هو يعرفه، وقال اجلس هنا، وجلست وإياه في مكان مشرف على واد أخضر جميل وقال: ما رأيك؟ فقلت له والله لقد فرجت عني، وأخرج ما في صرته فإذا فيها دجاجة مسلوقة وبعض الفاكهة والبذور المسلية وباطية من الشراب مزجت بالماء وجلسنا نأكل ونشرب ونتحدث، ولقد وجدت هذه التسلية أجمل من جلسة في أعظم المنازه في دمشق، لقد سلاّني هذا الرجل تسلية لا تخطر على بالي، وما زلت إلى اليوم كلما رأيته ذكرته بها وكنت أردد.

ـ ما أطيب الراحة بعد التعب ـ

كما كنت أردد: ما أطيب السلوى بعد الملل، والطعام بعد الجوع.

في هذه الفترة التي كنت فيها في السويداء في شهر كانون الأول ١٩٥١، كان أديب الشيشكلي هو الحاكم المطلق في سوريا، وسنقص عليك كيف وصل هو ومن قبله من الضباط إلى الحكم، وجئت في صباح يوم من الأيام في السويداء إلى المحافظ أقول له: إنني أريد أن أذهب لأحضر عائلتي ولكنه نظر إليّ نظرة فيها كثير من الباطن الذي لم أدركه وقال: طوِّل بالك، لا تحضر العائلة اليوم واستغربت هذا الجواب، كما استغربت نصحه لي بعدم إحضار العائلة مع أنه يعلم أنني استأجرت بيتاً لهذه الغاية ثم قال: مر بي بعد غد، فأرسلك إلى دمشق بمهمة ثم تقضي عملك بأن واحد وخرجت من عنده وأنا أفكر بهذا الرجل «العميق» كما يقال، هذا الرجل الذي لا يُعرف قراره لشدة ذكائه، وجئت في اليوم الموعود إلى دار المحافظ لأؤكد الإذن فوجدت عنده قائد الموقع المقدم أنور القدسي ومعهما قائد الدرك، وحين أقبلت صاح بي

المحافظ: لا إذن، ستظل هنا بعض الوقت ثم ننظر في قضية الإذن، وقلت: ولكني مضطر للسفر، فقال: كيف تسافر؟ ألم تسمع الأخبار؟ وقلت أية أخبار هذه أهناك أمر جديد؟ قال: أكثر من جديد، لقد أصبح النواب جميعاً في السجن، لقد سجنهم العقيد أديب؟ فما رأيك، وسكت سكوتاً طويلاً وخرجت من دار المحافظة صامتاً لأعود إلى مكتبي في دار الحكومة، وأنا لا أفهم شيئاً مما يجري في هذه البلاد المجنونة التي لا تعرف قاعدة ولا نظاماً ولا قانوناً.

كان المحافظ فؤاد محاسن «أو المحاسني» من أسرة قديمة كما قلت وقد ذكر هذه الأسرة كثيراً الشاعر والصوفي المعروف الشيخ عبدالغني النابلسي الذي حققت له ديوانه «خمرة بابل وشدو البلابل» في عام ١٩٧٨ والذي توفي منذ ثلاثمائة سنة ونصف. وكان من أقرباء المحافظ: شكري المحاسني وكان قاضي دمشق، وكذلك سعيد المحاسني الوزير السابق والعالم الحقوقي المشهور وأستاذ المجلة في معهد الحقوق، وكان فؤاد أشقر أبيض جميل الصورة أميل إلى القِصَر، أنيق الملبس متزناً في مشيته وحديثه، وكان قاضياً كبيراً حتى انه هو الذي تولى رئاسة المحكمة التي حاكمت «سلمان المرشد» الذي عزي إليه أنه ادعى الألوهية والذي اتهم من ناحية أخرى، أنه تآمر على النظام العام وأنه كان يعمل للانفصال بالمنطقة العلوية أي «محافظة اللاذقية» عن الكيان السوري، وهو الذي حضر إعدام سلمان المرشد وقد أجاب سلمان حين قال له أرجو أن تنقل جثتي إلى بلدتي في اللاذقية بقوله: أنت اصعد الآن - أي إلى كرسي المشنقة - ونتفاهم فيما بعد، وكانت نكتة فظيعة في ذلك المكان الرهيب من ساعة الإعدام، مما يدل على أن السيد المحاسني كان عميقاً جداً ومطبوعاً على النكتة ولو كانت مؤلمة وجارحة. كان للمحافظ ولد من كبار الأطباء في جراحة الصدر واسمه مروان، درس في أوروبا وهو أستاذ ما يزال كما أعتقد في كلية الطب بجامعة دمشق(*)؟ وكان صهره زوج أخته، صديقي ورفيقي في مكتب عنبر، الدكتور خالد الطباع الذي توفي هو وزوجته في فترة واحدة قبل سنوات ولم يخلفا غير ابنة واحدة تزوجت ثم لم أعد أراها. بعد أيام اتصل بي الأستاذ شباط، أمين عام الداخلية وكنت أفهمته ما أريد وفاوضني على الانتقال إلى دمشق - محافظة لواء دمشق - والتي تسمى اليوم - محافظة الريف - لأكون معاوناً لرئيس الديوان فيها، وقد قبلت على الفور وودعت أصحابي ورجعت إلى دمشق غايتي الأولى بتاريخ ١٨ كانون الأول ١٩٥١ وما زلت فيها إلى اليوم (أعني في دمشق)

(*) انتخب الدكتور مروان اخيراً عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق.

لا بد لي قبل أن أستعرض الحوادث التي جاءت بأديب الشيشكلي إلى الحكم، أن أستعرض الفترات والانقلابات التي سبقته والتي كانت مقدمة لمجيئه، وإني حين أستعرض اليوم هذه الذكريات في خيالي، وقد حضرتها جميعاً لأحسب أنني في دار للسينما يعرض فيها أمامي شريط هذه الانقلابات السورية التي لم يكن لها مبرر أو مسوغ أو داع. هذه الانقلابات المتكرّرة التي دعت تشرشل السياسي البريطاني المعروف إلى القول: سورية هذه لا تعرف كيف تحكم نفسها ولا تدع أحداً يحكمها. لقد قام نابليون بانقلابه يوم استولى على الحكم لأن الثورة أصبحت لا تطاق ولأنها أصبحت مجموعة حزازات ونكايات وعداوات لا شأن لها إلا أحكام الإعدام. وقام كرومويل بالانقلاب لأن الملك لم يكن صحيح التفكير، وكان هناك خطر على الدولة وحين طلب إليه أن يكون ملكاً أبى. وقام كاسترو في كوبا بانقلاب لظروف أجبرته، فالحكم السابق كان غير معقول. أما في سوريا فالانقلابات الماضية التي بدأت بانقلاب حسني الزعيم كانت مبنية على عداوات شخصية وإساءات متبادلة بين المدنيين والعسكريين. ومن الغريب أن الذي قام بالانقلاب الأول لم يكن كفؤاً للانقلاب ولا للتفكير فيه، بل لقد كان الرجل مريضاً بداء السكر، والعقل الصحيح في الجسم الصحيح، كما لا يخفى وكما هو ثابت علمياً، ثم إنه كان رجلاً موتوراً وغير أهل لأية وظيفة كانت وكان شريكه في الخطأ هو الرجل الذي أتى به ليكون موظفاً كبيراً ثم ليكون قائداً للجيش وهو المعروف في حياته السابقة وفي تصريحاته المتطرفة وفي نقمته على كل شيء. أما الانقلاب الثاني الذي قام به سامي الحناوي فأمره أعجب لأن الحناوي لم يكن يفكر بالانقلاب في حياته وهو ضابط شجاع انضباطي ولكن جنون حسني الزعيم سبب هذا الانقلاب، ولم يجد الذين قاموا به إنساناً يتسلطون عليه سوى الحناوي، ثم جاءت المصادفة الغريبة التي جاءت بأديب الشيشكلي وهو العقيد البسيط إلى الانقلاب والذي أضاع الانقلاب بإشارة بسيطة من الذين أرادوه على ترك الحكم.

كان حسني الزعيم من أسرة دينية كردية الأصل، وأخوه كان من العلماء المعروفين كما كان والده شيخاً من شيوخ الدين، وقد درس في المدارس الرشدية كما كانت تسمى، وهي عسكرية الطابع ثم ذهب إلى استامبول ليتخرج من مدرسة الاحتياط مرشحاً كما كان يسمى، ثم أصبح ضابطاً في حكم الدولة الفيصلية العربية، ولكنه حين جاء الانتداب الفرنسي انتسب للجيش الذي أوجده الفرنسيون في هذه البلاد وكان من رفاقه الحناوي وفوزي القاوقجي وغيرهما كثير. ولقد نشأ هذا الرجل غير طبيعي، فهو مغامر بفطرته لا يؤمن جانبه لأنه يعتمد في حياته على نزواته الخاصة لا على تفكيره، فكان سريع الغضب سريع التنفيذ لما يريد مهما يكن الذي يريد، وكان يحب لذّات الحياة، فهو يشرب ويحب ولكن أبرز عيوبه كان القمار، كما كانت أحسن صفاته الشجاعة، فقد شهد له جماعته وأصحابه بهذه الصفة، وقد ثبتت أيضاً يوم أن أخذه زملاؤه الضباط ليعدموه فلم يخف وظل يتكلم مع محسن البرازي بالفرنسية ويشجعه ويقول له: إنهم لن يجرؤوا على عمل شيء إلى آخر لحظة من حياته. كان فيما مضى يجلس في المقهى فيحدث عن المستقبل ويضع الخطط وينتقد الحكم ويعطي رأيه في كيفية هذا الحكم مع أنه لم يكن أهلاً لهذا الادعاء والتبجّح، إنه يصح أن يكون عسكرياً تحت إمرة عسكري أعلى منه رتبة ليصبح منفذاً، فقد يكون منفذاً جيداً، أما غير ذلك فلا يصلح لشيء سواء في الجندية أو في الإدارة. كان قائداً لإحدى المناطق في محافظة الإسكندرون السابقة، ولقد لعب القمار مع جماعة من أصحابه فخسر كل ما كان معه، فما كان منه إلا أن اعتذر وذهب فاستنفر جنوده كلهم وجاء بهم وهم من الخيالة فحاصر مكان اللعب ولم يرجع حتى استرجع كل ما خسر. لقد كان بطبعه ميالاً للثورة وللتخريب لأن العلم كان أبعد شيء عنه. إذ لم يكن طبيعياً في شيء. وجاء إلى الحكم فكان مضحكاً أكثر منه مؤذياً، فقد أصبح مشيراً بين عشية وضحاها، وصنع لنفسه عصاً للمرشاليه وجاء بالخياط الخاص به فأمره أن يخيط له بزة المارشاليه في

ليلة واحدة وقد سهر الخياط إلى اليوم الثاني حتى ألبسه البزة وحمل بيده عصا المرشاليه وجاء بالمصورين ليصوروه في هذه الحالة، أنه «دون كيشوت» مترجماً إلى العربية، وأخذ يحبس ويسجن ويهين ويشتم تارة من أصحابه وتارة من أعدائه، وأظن أنه لم يكن يفرق بين عدوه وصديقه لأن ملكة التفريق كانت معدومة عنده. لقد لجأ إليه المرحوم أنطون سعادة بعد أن ارتكب خطيئة لم يكن هو سببها في لبنان فسلمه إلى الحكومة اللبنانية لتقوم بإعدامه، وعين أناساً من المحافظين ممن لا يخطر على بال أحد أن يكونوا محافظين، فهم إما من أصدقائه الشيوخ الذين ذهبت ريحهم، أو من الضباط الذين فشلوا في وظائفهم وأحيلوا على المعاش وهم في سن الشباب لعدم كفاءتهم. وكانوا أكثر شذوذاً منه فكانت الدولة كلها نكتة مضحكة، ولكنه ضحك أشبه بالبكاء. أحد هؤلاء المحافظين أمر بأن تكون خيل العربات من لون واحد أعني أن يكون الحصانان من اللون الأحمر أو الأشقر أو الأزرق، ولا يجوز أن تكون عربة بحصانين كل واحد منهما بلون وكانت هذه الفكرة محل التندّر زمناً طويلاً، ومحافظ آخر حضر تنفيذ الشنق بامرأة مجرمة فأمر بالاحتفاظ بحبل المشنقة واستولى عليه لأنه مفيد للفأل والبركة؟ وهكذا دوالَيْك.

لا أحب أن أتكلم بالسياسة فأنا لست من أهل السياسة، وإنما انا رجل أشاهد وأصف وقد يكون وصفي خطأ لأني أصف ما أشاهد، ولا أصف ما أبحث عنه أو أنقب في أساسه، وما زلت أفكر في موضوع لم أصل إلى أسباب نشوئه منذ سنين؟ فما هي الغاية، وما هي الفكرة من وجود حركة «فيصل العسلي؟» لقد كان الحكم وطنياً محصناً، ولعله كان الفترة الوحيدة في تاريخنا الذي سلم من تنغيص الأجنبي ودسائسه ومداخلاته، وقد جاء فيصل العسلي بحركة فجمع نفراً من الشباب وكان من المستغرب أن ينضم إليه جماعة من العلماء وأصحاب التاريخ والجهاد كمنير الريس وسيف الدين المأمون وغيرهما كثير، ونحن نعلم أن كل حركة سياسية لها هدف، فما هو هدف هذه الحركة «العسلية؟» لا شيء ولا أحد يعرف لأي شيء حدثت أو صارت، واللوم في هذا طبعاً يقع على من كان يستطيع الوقوف في وجهها، والذي كان يستطيع منعها أو إيقافها أو الحدّ من نشاطها على الأقل، لأنها لم تكن لازمة، ولم تكن البلاد في حاجة إليها، إنها نزوة من نزوات الشباب استطاع فيها مؤسسها بشيء من اللسان الحلو والذكاء أن يسيطر على جماعة من الشباب الذين أخذوا يستعملون وسائل كثيرة للإساءة إلى الناس، وكان أخطر ما أساءوا فيه أنهم وجهوا أضرارهم إلى ضباط الجيش بصورة خاصة فقد اتهمت هذه الحركة بعض الضباط بالسرقة والاستغلال، ونحن لا نبرىء أحداً من نزوات النفس وبمداواتها وإن النفس لأمارة بالسوء، ولكن الذي يتولى مثل هذه الأمور ليعرف حقيقتها من خطئها، المحاكم العسكرية والمدنية والدوائر الإدارية والسياسية، يعني أن تصحيح هذه الأمور إنما يعود على الحكومة لا على الحركات الشاذة التي تقوم في البلد لتفرض نفسها عليه وكأنها حكومة ثانية. لقد كانت هذه الحركة أداة شغب، وقد لجأت إلى ما يلجأ إليه السحرة «من جمجمة وغيرها» لخدع الناس وتسخيرهم في أغراضها. ومن الغريب أن فيصل العسلي لم يكن من رجال العبقرية ولا من رجال العلم ولا من رجال الجهاد، بل لقد انتهى نهاية لا توافقه وخرج من البلدة لا عليه ولا له، إلا ذكريات تذكّر بالضرر الذي خلفه والذي كان من الأسباب الأولى للانقلاب الأول ومجيء حسني الزعيم إلى الحكم.

كان المتهم الأول والمحرك الظنين محسن البرازي، ومحسن هذا من أسرة البرازي المعروفة والثرية في حماه، وقد درس في حماه أول أمره ثم ذهب إلى فرنسا، فدرس اللغة في المدرسة «ليسه هوش» في فرساي في فرنسا أول أمره ثم انتسب لكلية الحقوق في باريس وحصل على شهادة الدكتوراه الجامعية ـ كما أعتقد لا الدكتوراه الدولية، والفرق بينهما كبير جداً، وكان أبوه خالد أفف الباكير البرازي ثاني أولاد محمد أغا الباكير البرازي، الذي كان يسمى أيضاً: خالد المبعوثان، لأنه كان يمثل حماه نائباً عنها في مجلس المبعوثان، في عاصمة الخلافة استامبول. وعاد محسن إلى سوريا وقد اصطحب معه زوجة فرنسية ولدت له عدداً من الأولاد ثم توفيت عنده وتزوج بعدها سيدة من عائلة الجابري المعروفة في حلب. لقد عمل أول أمره في المحاماة فلم يفلح كما عرفت وشاهدت، فقد حضرت له دفاعاً في محكمة فرنسية كان يدافع فيها عن أناس اشتركوا في مظاهرة سياسية كبيرة عطلت الانتخابات التي كانت تريدها فرنسا، ولم

يلفت نظري في دفاعه لا هو ولا غيره من المحامين السوريين الذين درسوا في فرنسا وكانوا ثلاثة على ما أظن لا أذكر أسماءهم الآن، والذي لفت نظري هو المرحوم فائز الخوري شقيق الأستاذ الكبير فارس الخوري - رغم أن لغة فائز الخوري لم تكن قوية كما ينبغي في الفرنسية ولكنه دافع وناقش وأحرج رئيس المحكمة حتى أثاره. وانتقل محسن إلى وظيفة التدريس في الجامعة فكان معيداً ومعاوناً لمدير الدروس الحقوقية التي كانت تدرس بالفرنسية ويترجمها محسن البرازي إلى العربية أثناء الدرس وأظنها كانت «الحقوق الرومانية»، ثم بقدرة قادر أصبح محسن البرازي وزيراً للمعارف، ثم وزيراً للداخلية، ثم تقلّب في الوزارات حتى حاز ثقة السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية كاملة. وتوصل محسن البرازي أخيراً إلى أن يكون وزيراً للقصر الجمهوري فأصبح كل شيء تقريباً، فالرئيس يثق به ثقة تامة ويثق بعلمه وثقافته وأنشد:

وألقت عصاها واستقرت بها النوى
كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

وبدأ محسن بالتدخل في كل شيء. كانت صفات محسن غريبة تدعو إلى التعجب ولعل هذه الصفات هي التي كانت من أسباب ضياعه، كان يكره على السماع ولا يتراجع أو يتسامح في شيء إذا كره وإذا أحب أحب لدرجة العبادة، لقد كره آل مرهج بحماه فأراد حرقهم لو استطاع، وكره آل الحريري فأراد الانتقام من كل من يعرف أو يسلّم أو يزور آل الحريري، حتى وصل الأمر إلى صديقنا خالد اللجمي صديق نعسان الحريري، وربما وصل إليّ شيء من نقمته على اعتباري من زائري نعسان واشترك معي بالنقمة بدر الدين الحامد - رحمه الله - . ولكن خطة محسن التي جلبت حسني الزعيم كانت أبعد من ذلك، ومن جملة أعماله في حماه أن أخاً له كان يريد أن يستولي على ملك أخ لهما كفيف البصر اسمه مصباح، وقامت الدعاوى بين الجانبين وكان محسن يساعد الأخ الأكبر وكان مصباح ظريفاً صاحب نكتة وذكياً جداً، وكثيراً ما كان يأتيني فيشكو لي أمر محسن وانحيازه إلى جانب أخيه الأكبر ضده، ثم يأخذ بالدعاء عليه فأسكته وأرجوه أن يكف كي لا يصل هذا الحديث إلى محسن فيكون سبباً في الإضرار بي وكان يضحك ويقول: لو يستطيع لأقدم على ضررك لأنه لا يخاف الله، إن اختيار حسني الزعيم قائداً للجيش يرجع إلى سببين رئيسيين أحدهما أنا متأكد منه، والثاني أقدره تقديراً: السبب الأول هو أن رئيس الجمهورية السيد القوتلي سلم كل شيء لمحسن البرازي يتصرف فيه كما يريد، لقد أعاد الانتخاب في سلمية ثلاث مرات ضداً بعبد الله تامر، كما كره آل مرهج بحماه ضداً بناظم مرهج، وكان هذان من أجمل شباب هذا الجيل ولعل سبب كرهه لهما يرجع إلى أمور عاطفية لا نعرفها. كان السبب الثاني في اختيار حسني الزعيم، وهو ما أظنه ولا أؤكده، أن الاثنين، محسن وحسني من أصل كردي وأن الحركة الكردية في تلك الفترة تضخمت وامتدت حتى وصلت إلى البلدان المجاورة لموطن الأكراد، وقد تأسست جمعية كردية اسمها «خوي بون» انتسب إليها كثيرون من أكراد سوريا والعراق وتركيا وإيران، وهذه هي التهمة الهامة التي استند إليها الذين أقدموا على قتل الزعيم والبرازي يوم أنهوا حياتيهما.

حين جاء حسني الزعيم إلى الحكم اجتمع المجلس النيابي الذي كان قائماً كما اجتمع الوزراء الذين كانوا في الحكومة قبل أن يجيء، فوافق عدد كبير من الأعضاء على ما جاء به الزعيم، وكان المعترض الوحيد هو السيد لطفي الحفار الذي كان صريحاً إلى أبعد حد، حتى انه استنكر هذا الانقلاب من أساسه واعتبره جريمة بحق النظام، ومن الغريب أن الزعيم لم ينتقم من الحفار صاحب هذا الرأي ووضع شكري القوتلي في السجن لأيام معدودات ثم جرت اتصالات مع مصر، وكان الملك فاروق يعرف القوتلي جيداً، كما كان اجتمع بمندوب السيد الزعيم المرسل إلى القاهرة وهو السيد نذير فنصة الصحفي الذي لم يكن معروفاً إلا معرفة عابرة قبل أن يأتي الزعيم إلى الحكم ويجعل منه مفاوضاً يمثل الحكومة، لأن نذير فنصة كان عديلاً للزعيم وكلاهما متزوج من آل «باقي» المعروفين في حلب. أفرج عن السيد القوتلي من السجن فذهب إلى الإسكندرية بضيافة الحكومة المصرية وكان في وداعه في المطار محسن البرازي، وحين أراد أن يودعه مد يده فامتنع القوتلي عن مد يده إليه وكأنه أراد أن يذكره بأنه خانه وهو

الذي أحسن إليه وقدمه في الوظائف حتى جعل منه أول شخصية بعد رئيس الجمهورية. وعمل التاريخ عمله في هذا الوقت، فقد أحاطت الدبابات والمصفحات ببيت حسني الزعيم كما ذهب جماعة من الضباط إلى بيت محسن البرازي الذي كان في المهاجرين وبجوار مقهى المهاجرين القائم إلى اليوم، أما الزعيم فقد أخرج حالاً وهو لم يزل نائماً وفي قميص «البروتيل» الكتان دون سترة، وأما محسن البرازي فقد اختبأ تحت السرير ولكن الضباط أمسكوا بابنه وهددوه فخرج إليهم وكانوا أربعة من الضباط فأخرجوا الاثنين وقد انهار محسن البرازي، بينما كان حسني الزعيم رابط الجأش يشجع رفيقه، ولما وصلوا إلى قرب المطار القديم أنزلوهما وانهالوا عليهما بالرصاص فقتلوهما وتركوهما ثم أرسلوا من دفنهما مؤقتاً. وهكذا انتهت حياة هذين الرفيقين اللذين لم يعرفا كيف يسيران، ويُذكر أنّ رياض الصلح في بيروت حذر البرازي ونصحه بأن لا يعود إلى دمشق لأن أخباراً وردته عن محاولة جادة للضباط ضد حسني الزعيم، ولكنه لم يستمع لرياض الصلح الذي كان عديلاً له في الزواج.

ومن الذين أنقذتهم المصادفة في هذه المجزرة نذير فنصة وقد قص عليّ القصة هو فقال: لقد وجد إلى جانبي ضابط من السلمية هو المقدم أنور تامر وكان بعيداً عن موقع الحادثة وحين شاهدني انضم إلى الجماعة ورجاهم أن يعفوا عني وتم الأمر، وسلم من القتل، وقد ذكر لي هو هذه الحادثة التي أظن أنها وقعت في الأركان ولم تقع في مكان الحادث ولكن نذير فنصة حين كتب مذكراته لم يذكر هذا الرجل الطيب الذي غامر بنفسه حتى أنقذ حياته ولعل هذا نوع من «السبق» الصحفي استعمله الأستاذ نذير وقد حدثني بذلك أحد قراء المذكرات.

حين كان الزعيم والبرازي يلقيان مصيريهما، كان سامي الحناوي الذي اختير خلفاً للزعيم مجتمعاً مع أخوانه في الانقلاب في الأركان العامة للجيش، ولقد اتهم هذا المسكين بقتل الاثنين وهي تهمة لم تثبت، وهب أنه اشترك في اتخاذ القرار فلم يكن يستطيع منه الفرار والاعتراض عليه، وأكثر الذين كانوا أقوى منه وأشد جرأة على مثل هذا القرار. كان الحناوي من أسرة حلبية معروفة، متوسطة الحال، أما هو فقد كان ضخم الجثة أسمر بالغ السمرة، وهو من رفاق حسني الزعيم والدكتور وصفي البيطر صديقي في حماه وكلهم تخرجوا من الكلية العسكرية في استامبول ودخل في الجيش ولم ينتسب إلى سلك الدرك وكان ظريفاً يحب النكتة وخاصة حين يقلد الحمصيين، فقد يحفظ الكثير من حوادثهم الضاحكة، وأذكر أنني اجتمعت إليه في بيت المرحوم المقدم محمد دياب وهو من أهل قرية تلدرة التابعة لسلمية وكان صديقاً له وكان معنا في هذه الجلسة رجل اسمه إسكندر جديد، وكان أيضاً في الجيش، وكنت يومها مدعواً للاشتراك في حفل تكريمي للشيخ صالح العلي الثائر المعروف وقد صحبني الاثنان، الحناوي ودياب إلى الحفل. ولقد اغتيل الرجل بتهمة قتل محسن البرازي، وأنا أشك في هذا، ولكن الذين كونوا هذه التهمة أرادوا أن يقتلوا إنساناً ما من الذين اشتركوا بعملية قتل الزعيم ومحسن لكي يذهبوا عار القتل عنهم ولكي يتحدثوا بأنهم أخذوا ثأرهم، مع أن الذين قاموا بعملية القتل كانوا معروفين، ولكن الذين ثأروا لقريبهم كان يهمهم الرأس وكان الحناوي الضابط الكبير في تلك الفترة.

لم يظهر أي شيء يوجب الذكر في حكم الحناوي فقد كان الحاكمون جماعة. وبرز يومئذ أو بدأ الظهور العقيد أديب الشيشكلي ولأديب الشيشكلي هذا تاريخ معي.

جاءني مرة في حماه صديق قديم ورفيق في المدرسة الزراعية اسمه «شهير الشيشكلي» ولقبه أبو علي وكان سميناً شكله مضحك كما كان من الظرفاء الأذكياء، وقد دعاني للعشاء في مكان نزه هو: كرم الحوراني نسبة لآل الحوراني، وقد صعدت إلى المكان فوجدت أكرم الحوراني وأخاه عبد الحليم ووجدت ضابطاً باللباس الفرنسي يجلس على كرسي صغير وقد شبك يديه على ركبته وارتدى بزة عسكرية بيضاء فسلمت ورد السلام بصوت ناعم وقال ابن عمه: أعرفك بالضابط ابن عمي أديب الشيشكلي ابن حسن آغا، وجلسنا فتناولنا عشاءنا ثم افترقنا وقد علمت فيما بعد أنه جاء بناءً على عقوبة عسكرية لاختلافه مع المستشار الفرنسي في منطقة البوكمال حيث كان يعمل، وقد علمت من ابن عمه أن والدته من البرازية وهي أخت شريف آغا وأسعد آغا البرازيين وأم هذين البرازيين من عرب الفواعرة القبيلة المعروفة في

منطقة حماه، فأخواله برازيون أكراد وجده بدوي، وقد قيل لي أنه درس حتى الصف السابع في مدرسة دار العلم والتربية الأهلية بحماه ولم يكمل ثم دخل المدرسة العسكرية بحمص بناءً على مداخلة من مستشار حماه يومئذٍ لأن المستشار استأجر دار والده الكبيرة المعروفة، دار حسن آغا ودخل معه الكلية أخوه صلاح الذي لم يكمل، إذ أنه طرد منها لأسباب خاصة وتخرج مساعداً، أما أديب فقد تخرج ضابطاً وعين في منطقة الميادين القريبة من دير الزور ووُصف لي أنه كريم وجريء، ولم أر أديباً بعد ذلك حتى سمعت بأنبائه يوم انقلاب حسني الزعيم، إذ كان له في الانقلاب ضلع كبير حتى لقد عينه الزعيم مديراً للشرطة وكان برتبة مقدم. وبلغني بعد فترة قصيرة أنه اختلف مع الزعيم وسرح، وجئت لأكمل فحص الحقوق وكنت في الصف الثاني وقد نجحت في الفحص الكتابي وبقي الشفهي (١٩٤٩). جئت إلى فندق العاصي الذي كان في مدخل البحصة من جهة المرجة فاستأجرت غرفة فيها سريران ولم أجد غير هذه الغرفة الكبيرة، ونزلت إلى باب الأوتيل فإذا جماعة يلعبون الطاولة، ورأيت أديباً ساهماً ساكناً وأمامه رجل آخر ثقيل الظل أعرفه وهو يكلفه أشياء يريدها من حماه إذ عرف أن أديباً مسافر إلى حماه فانتهرت الرجل وقلت له: ألا تراه كيف يجلس أهو فارغ لأغراضك وأشيائك، وضحك وشكرني وجئت مساءً فقال لي صاحب الفندق زاكي الشلحة، أو زاكي الحداد وكان ظريفاً يحب النكتة قال: لم نجد سريراً لأديب فنام في أحد سريري غرفتك، أتريد أن أوقظه إذا كان هذا التصرف يضايقك وقلت له دعه نائماً، وفي غد لا تأخذ منه أجراً وأنا أسوّي الحساب معك، وكان الأجر لا يزيد على الليرة الواحدة. وكان هذا آخر العهد بأديب، ولما حدث انقلاب الحناوي ضد الزعيم أعيد أديب إلى عمله وسلم قيادة من القيادات الهامة لأن أصحابه كانوا كثراً. ولكن أديباً دبر انقلاباً ضد الحناوي كما هو معروف وتسلم كل شيء وشاركه في ذلك العميد فوزي سلو القائد القديم المعروف والذي كان قائداً لموقع حماه في فترة من الفترات كما كان مديراً للكلية العسكرية وهو من الضباط الأكفاء عسكرياً. وبعد مدة أعلن أديب نفسه رئيساً للجمهورية وسار موكبه من المرجه وكنت على باب الفندق نفسه أقف أنا وصاحبه زاكي الشلحة وحين مر الموكب قلت لزاكي: إن صاحبك أديباً لم يدفع ما عليه من أجرة الأوتيل عن تلك الليلة التي نام فيها على حسابي وهرب زاكي خوفاً وهو يقول أرجوك.

ولقد رويت لي قصة مضحكة عن تاريخ أديب، فإن والدته وهي العمة لحسني البرازي جاءت لابن أخيها يوم كان رئيساً للوزارة السورية بعهد الشيخ تاج، ورجته أن يعين ولدها أديباً في وظيفة ما واستجاب لطلبها وعينه في وظيفة تناسبه وجاءته تقول: إن الوظيفة لم تعجبه وإنها لا تناسبه والتفت إليها حسني البرازي يقول: ماذا تريدين؟ أتريدين أن يعين رئيساً للجمهورية؟ على أن القدر لم يكن مازحاً فقد صار رئيساً للجمهورية فعلاً.

كنت أرى أديباً في الفترات وكان حين يراني يرحبّ بي ترحيباً كبيراً مع أن العلاقة بيني وبينه كانت بسيطة، وأنا طبعاً من سنّه أو هو أكبر مني بسنة واحدة، فهو من مواليد /١٩٠٩/. وكنت أزوره فقد كان له مرافق اسمه «رفيق حوا»، فكنت أرى المرافق وأطلب إليه أن يبلغ أديباً رغبتي في زيارته، وكان الهاتف يأتي في اليوم التالي ولم يتخلف مرة عن ذلك أبداً، لقد كان وفياً وكان مخلصاً للبلاد حتى قال فيه السيد صبري العسلي، وهو خصم من خصومه السياسيين كما هو معروف: إننا لم نعثر على توقيع أو عمل أثناء حكم أديب يمكننا أن ندينه به.

وشغرت وظيفة رئيس الديوان في محافظة لواء دمشق التي كنت أعمل فيها معاوناً لرئيس الديوان، فذهبت إلى أديب وكان في دار الضيافة الجديد في رأس شارع أبي رمانة المعروف واستقبلني الرجل أحسن استقبال، بل لقد خرج وهو يلبس بيجامته وقال: لست غريباً، وكان يحمل بيديه صينية القهوة وبعد أن شربناها قلت له: أريد أن أكون رئيساً للديوان فأنا حائز للشروط كلها وفي الوزارة ناس يشغبون عليّ يريدون ترحيلي من دمشق إلى حماه أو غيرهما على اعتباري من أبناء الريف كما يقولون، وأمسك أديب ـ رحمه الله ـ بالهاتف واتصل بمدير الداخلية وأمره أن يتخذ قراراً بتسميتي رئيساً للديوان، وقد بقيت بهذا العمل حتى نقلت إلى مجمع اللغة العربية أي أكثر من ثماني سنوات، وخرجت من عند أديب

فرأيت آخاه صلاحاً وكان صديقاً لي فقلت: إن أخاك رجل طيب، وقال صلاح: خيراً إن شاء الله، ما الذي دعاك إلى مدحه، فرويت له قصة رئاسة الديوان فضحك وقال: إنك لمغفل لقد كان عليك أن تطلب منه أن يعينك محافظاً فأنت أفضل من هؤلاء الشبان الذين أصبحوا محافظين، يا لك من مغفل! ورجعت إلى نفسي فوجدت رأيه صائباً وقلت: أمر بأديب بعد أيام ولكن الزمن لم يمهلني فقد وقع الانقلاب الذي ذهب أديب على أثره إلى غير رجعة.

٣٦
أخطاء وعيوب

مما يلفت النظر حقاً أن كل الذين استولوا على الحكم عن طريق الانقلابات كانوا أبعد الناس عن هذا المنصب، ولقد وصفت لك أخطاء الزعيم الفادحة وضعف المرحوم الحناوي رغم شجاعته العسكرية، وقد خاض معركة تل العزيزيات ضد الصهيونية وهو يحمل مسدسه حتى استولى على الجبل لكنه كان تابعاً في عمله غير متبوع، أما أديب الشيشكلي فكان مبتلياً بالشراب إذ كان مدمناً حتى في أحلك أيام عمله، وكانت تبدو منه بوادر لا تتناسب مع مقامه، وكان يجالس الناس في الملاهي التي لا تليق به، وقد رأيته أكثر من مرة في هذه الحالة وكنت أستغرب ذلك كما كان يستغرب حالته هذه كل أصحابه وأعوانه، وكان خطؤه الفادح جهله فلم يكن متعلماً، لكنه كان يدرس كل شيء يأتيه ويستشير الكثيرين من أهل الخبرة حتى يصل إلى الرأي الصحيح. ولقد أضرّ به أخوه إضراراً بالغاً، فقد أقدم على أعمال لم يستشر فيها أخاه، وكان أديب يعرف هذا ولكنه لم يكن يستطيع ردعه بسبب والدته التي كانت تحمي أخاه، إلى أن وقع أديب بالخطيئة الكبرى في مهاجمة جبل الدروز، هذه الخطيئة التي أذهبت حكمه ونسفته من أساسه، كما أذهبت حياته فيما بعد حين أقدم أحد الدروز الموتورين من آل أبي غزالة على قتله وهو سائر في البرازيل البلد الذي هاجر إليه أخيراً.

لقد حدث الانقلاب على أديب الشيشكلي وكان انقلاباً مضحكاً، فقد استعصى قائدان أو ثلاثة في حلب، كما عصي قائد المنطقة الوسطى في حمص، وكان بوسع أديب أن يقبض عليهما ويفشل فكرتهما ولكنه لم يرد وأبى أن يقاوم، كان القائدان في حلب، مصطفى حمدون وهو حموي وصديق لأديب، وكذلك فيصل الأتاسي؛ واستسلم أديب بسرعة ولم تكن نيته هذه محسوبة ويبدو أن مداخلات كثيرة قد اشتركت في عملية الانقلاب، ونزل أديب من دار الضيافة ومعه مبلغ من المال في صرة كانت بيده سلمها للّواء شقير الذي كان معاونه وهذا المال كما قال أديب: من أموال تبرعات يوم السلاح ولم يشأ أن يحتفظ بهذا المال، وربما كان محتاجاً إليه كما حدثني بهذا الأستاذ قدري القلعجي الكاتب المعروف والذي كان من معاوني أديب الصحفيين، وسار أديب إلى بيروت ليظل يومين أو ثلاثة في المطار حتى يؤذن له بالالتحاق بالسعودية ومن هناك سافر إلى فرنسا ليبقى فيها شهوراً ولينتقل بعدها إلى البرازيل حيث اشترى قطعة أرض زراعية راح يعمل فيها إلى أن جاء أجله على يد الشاب الدرزي الذي أشرت إليه آنفاً.

أما السيد شكري القوتلي: فقد تعرض لانتقادات تتعلق بالحكم ولم تكن عيوباً شخصية، بل إن شخصه كان من أحسن الأشخاص نزاهة ووطنية ونظافة يد، فحين فرضت على سورية اتفاقية البترول: «أي بي سي» أرسلت الشركة مغلفات لكل رجال الحكومة البارزين فيها مبالغ من المال موفورة، والرجل الوحيد الذي رفض تناول مغلفه هو شكري القوتلي، وكان شكري بك من أغنياء دمشق وقد أضاع ثروته كلها في سبيل تشرده وعيشه في مصر بعيداً عن وطنه بسبب الإفرنسيين، ولولا أن يرث أخاه الذي مات بلا عقب لكان بلا مورد ولكان فقيراً جداً، وكان طيب القلب إذا أخطأ واحد من الناس لم يعاقبه وكان يقول: إن هذا الشعب حرم من حريته في الدنيا قروناً فلينعم الآن بحريته ولو كان فيها أخطاء، وهذا قول يصح في الحياة العادية ولا يصح في الحكم، لأنه هو الذي أهمل هيبة الحكم، وهو الذي ولد المعارضة، هذه المعارضة التي لم تلق مقاومة من جانب الحكومة حتى استفحلت وصنعت ما صنعت؟ وكان في رأي الناس غير متعلم مع أنه يحمل شهادة أعظم مدرسة في استامبول هي مدرسة الملكية الشاهانيه، ولكن حمدي الجلاد ـ رحمه الله ـ حدثني قائلاً: إن الذين دخلوا هذه المدرسة بعدنا دخلوا بلا مسابقة كما دخلنا نحن حتى سماهم الأتراك: حطب المطبخ، ولقد سمعته يخطب مرات فكان لا يقيم عبارة مضبوطة لأنه لم يكن يعرف قواعد اللغة، ومن الغريب أن الكثير من رجالات العرب في سوريا وفي غيرها يتقنون اللغات الأجنبية التي يتعلمونها فلا يخطئون فيها حين يتكلمون أو يكتبون، ولكنهم إذا تكلموا بلغتهم العربية

وقعوا في الأخطاء كلها وكأنهم ليسوا عرباً، فأولئك الذين يذهبون إلى أمـيركا ينسـون لغتهم، هم وأولادهم بعد مدة يسيرة من هجرتهم. كان لشكري القوتلي ـ رحمه الله ـ جماعة من الأصحاب من أهل الأحياء القريبة من الحي الذي عاش فيه شكري بـك في نشأتـه، وأكثرهم غـير متعلم ولا متمرس بـالسياسـة أو غيرها، كانوا يفدون إلى بيته زرافات ووحداناً، وهذه هي البطـانة التي كـان يعيش معها وتعيش معـه، أما العلماء والأدباء فقد كانوا أنأى الناس عن مجلس القوتلي، رحمه الله.

بـاشرت عملي في محـافظة لـواء دمشق بتاريـخ ١٨ كانـون الأول ١٩٥١ وقد كـان المحافظ المـرحوم عبد الحميد مارديني، وكان رئيس الـديوان مـوظفاً قـديماً أعـرفه من أيـام مكتب عنبر، وكـان في الصف الحادي عشر بينما كنت أنا في الصف المنتهي الثاني عشر واسمه عدنان عقدة وهو من أصل لاذقي والده كان صحافياً غير معروف كنت أنا في الصف المنتهي الثاني عشر واسمه عدنان عقدة وهو من أصل لاذقي والده كان صحافياً غير معروف واسمـه صبحي العقدة وكـان في المحافظـة هاشم العظم وهـو حموي من خريجي المدرسة الزراعية في السلمية، وكان منير سليمان(*) كاتب المجلس الإداري وكـان عدنـان رمضان وجمال الهبل من موظفي الأوراق الواردة والصادرة وكانت المحـافظة في بيت مستـأجر، في محلـة الحبوب الجديدة ولكن المحافظ المارديني لم يبق سوى يوم أو يومين وجاءنا محافظ جديد هو المـرحوم محمـد علي يعقوب، وكان موظفاً قضائياً كبيراً كما كان في مدرسة السلمية الزراعية قـديماً، ولا أدري إن كـان حصل على شهادتها أم لا، وسبب تعيينه أنه كان قريباً للسيـد فوزي سلـو رئيس الوزراء عنـد أديب الشيشكلي رئيس الجمهورية.

منذ دخولي المحافظة شعرت بالغربة لا سيما بعد أن جاءتني المعامـلات التي أرسلها رئيس الـديوان لأسيِّرها، فقـد قضيت عشر سنوات أو تـزيد في حمـاه وفي غيرهـا وكانت مهمتي الكتـابة والإنشـاء، وأما المعاملات فقد كنت بها جاهلاً لأني لم أعمل بها وبخاصة معاملات البلديات، لأن محـافظة حمـاه لم تكن فيها إلا بلدية واحدة كبرى هي بلدية محردة وكان مدير الناحية يتولى أمـرها، ولم يكن للمحـافظة شـأن فيها إلا التوقيع ونظرت في المعاملات فوجدتها خليطاً من معاملات البلدية والمخـاتير والخمـارات والمطاعم والأحوال المدنية والمياه وغير ذلك كثير جداً، وقلبت الأوراق ثم رجعت إلى رئيس الديوان ليفهمني ما يريد، ولكنه خيب ظني وأجابني ببرود: دبِّر نفسك، وخرجت من عنده وأنا أحس بعبء هـذه المهمة لا سيمـا أن رئيس الديوان لم يشأ أن يساعدني ولم أدر قصده حتى الآن.

لقد كان العقدة معقداً فعلاً فكان عـلى خلاف مـع أكثر المـوظفين رغم أنـه كفء ومن أحسن موظفي الداخلية في المعاملات إلا أن علاقاته مع زملائه كـانت سيئة وكـان موظفـو الداخليـة من أصدقـائي إذا رأواني قالوا لي: الله يعينك على رئيس ديوانك؟ مما يدل على أنهم يعرفونـه ويعرفـون عزلتـه وابتعاده عن زملائه ورفقائه. وحرت في أمري وكنت أسعى إلى إيجاد بيت وقد سـاعدني في ذلـك سائق المحـافظ السيد المبارك، ورآني مرةً ساهماً أفكر فقال لي: ما بك؟ قلت: إن الأمر هكذا ورئيس الديوان لا يـريد مسـاعدتي ولا مساعدة أحد، حتى انه يحتفظ بالهاتف في غرفته فإذا طُلب أحد منـا أنكر وجـوده مما كـان يحرجني ويسبب لي انقطاعاً عن الناس، ونظر إلي الحاج وقال: أنا أمر بك في العصر فآتي وإيـاك إلى هنا، وهـا هي المجلات الرسمية أمام رئيس الديوان وفيهـا كل مـا يلزمـك من معرفـة. وفعلاً جئت أنـا والسائق مسـاءً وفتحنا غرفة رئيس الديوان وأخذت أطلع على المجلة صفحة صفحة ومعاملة معاملة ونقلت كل ما فيها إلى دفتر صغير كان معي وخرجت أنـا والسائق. وفي اليـوم الثاني جـاءت المعامـلات ففتحت دفتري أسـيرها معاملة معاملة حسب الجدول الذي نقلته عن المجلات التي يرجع إليها رئيس الديوان. وأعدت البريد كله موقعاً إلى رئيس الديوان وجاء بعد قليل ليقول لي: ها أنت أصبحت تجيد الحوالات، وقلت له: إنهـا قضية بسيطة، ولكني رأيت الاستغراب والدهشة في عينيه وكأنه خسر عملية كان يثوبهـا، لم أكن أختلط برئيس الديوان فقد حذرني منه أصحابي في الوزارة وأنه صعب في عشرته، وكان المحـافظ كما بـدا لي فيما بعـد

(*) توفي في هذه السنة، ١٩٨٩.

يكرهه ولا يحبه، ويبدو أنه كان يعاكسه في بعض الأمور، وكما قلت لقد كان معقداً، ومع ذلك فقد جئت إليه ونصحته أن لا يعاكس المحافظ لأنه مدعوم من جانب قوي ولكنه لم يسمع قولي، وما كدت أخرج من عنده حتى ناداني المحافظ فذهبت إليه وبينما كنت أحدثه سألني: ما رأيك برئيس الديوان؟ فقلت: لا بأس، ونظر إليّ ضاحكاً يقول: انت تقول هذا، وأنا أعلم ما بينكما من خلاف، إنه إنسان لا يعجبني وسترى ما أصنع به قريباً، وبالفعل لم تمض برهة قصيرة حتى نقل السيد العقدة مديراً لناحية بعيدة في جبل الدروز لا تصل إليها السيارات، وعدت إلى المحافظ لأقول له: لقد أهلكت الرجل؟ فشكا لي منه ومن معاكساته التي لا تنتهي، وبعد أيام جاءنا رئيس جديد للديوان هو السيد برهان الغزي ـ رحمه الله ـ وقد توفي من مدة قريبة:

كان برهان الغزي رئيس الديوان الجديد موظفاً في وزارة الخارجية، ولكن شكله لم يكن يتناسب مع الخارجية إذ كان قصيراً وفيه عيب خلقي، فقد كان أحدب وإن كان مثقفاً ثقافة لا بأس بها إذ كان يحمل شهادة الحقوق، لكنه كان ضعيفاً في المعاملات، وسرعان ما صرت كل شيء في المحافظة. أما عدنان رمضان مأمور الأوراق فقد كان نشيطاً في عمله في الأوراق وتدبير المعاملات خارج المحافظة ولكنه كان لا يحمل شهادة، وكذلك جمال الهبل الذي لم يكن يتقن إلا هندامه، ولكنه كان ظريفاً يحب الضحك والمزاح وكان يسلط مزاحه على زميله بما يضحك الثكلى، وأما هاشم العظم فقد كان من آل العظم حقاً فهو في عزلة تقريباً عن الناس، وكان في غرفة واحدة وهو منير سليمان الذي كان يدين بمبدأ السخر والمزاح، ولم يكن يؤمن بشيء مما تعارف الناس عليه، وكان شيوعياً عريقاً في شيوعيته ومن رفقاء خالد بكداش ورشاد عيسى ـ رحمه الله ـ ولكنه لم يكن مثقفاً إلى درجة مرضية إذ لم يكن يحمل شهادة وإن كان كثير القراءة للكتب ـ الاقتصادية والكتب الشيوعية خاصة، وقد قضى في فرنسا أربع سنوات لم يدرس خلالها شيئاً حتى سمي «البرنس» وكان ظريف المعشر «بتحفظ». ومن بين أعماله المضحكة أنه أقنع هاشم العظم بأنه شاعر وصدق السيد العظم هذا وأخذ يكتب في دفتر في جيبه كل ما يعن له مما يسميه هو شعراً، وليس شعراً ولا ما يشبه الشعر، فلا وزن ولا قافية ولا لغة لأنه كان كلاماً عامياً، ودخلت عليهما مرة فوجدت العظم يقرأ للسيد سليمان ما كتب ليلة الأمس ووجدت السيد سليمان يصطنع الإصغاء وهو كاذب كما يبدو عليه، وحين دخلت قال لي اسمع: فكدت أنفجر ضاحكاً ونظرت إلى السيد العظم أقول له: إن منيراً يخدعك ويغشك وأنت لا علاقة لك بالشعر بعد أن بلغت هذه السن فاترك هذا الأمر فإنه يسبب لك إزعاجاً، الشعر غير هذا يا صاحبي وأنا لا أريد أن أغشك كما غشك هذا الدجال، وضحكنا ولكن كانت النتيجة أن منير سليمان أقنع العظم بأنني حاسد له وأنه يجب أن يثابر على نظم الشعر وكان ذلك، وبعد مدة رأيت العظم وقد أحيل على المعاش فأعلمني أنه ترك الشعر، وقد قالها بلهجة شوقي أو حافظ إبراهيم، فضحكت وقلت له: حسناً فعلت. لقد كان طيب القلب.

كان المحافظ محمد علي يعقوب محافظاً له عقلية القاضي، ولكنه كان أديباً مهذباً، وكان يعزني بشكل خاص، وكان يذكرني دائماً بلقائي به يوم سألني عن عدنان عقدة رئيس الديوان السابق، وقد ظل مدة ثم ذهب ليأتي بعده السيد جميل القربي الذي كان موظفاً في البلدية، وقد كنت أثناءها محافظاً بالوكالة، فقد كانت العادة أن يكون رؤساء الدواوين وكلاء المحافظين حين يغيب هؤلاء، وفي أيام الوحدة تبدلت الحال حين اندغم سلك الدرك بسلك الشرطة وسمي الجميع: شرطة، وأصبح مدير شرطة العاصمة هو الذي يتوكل عن المحافظ، وفي مرة غاب المحافظ وكان الوزير المرحوم علي بوظو، ولما غاب المحافظ قدرت أن قائد الشرطة هو الذي سيوكل بالمحافظة وخفت أن يذهب تعويض التمثيل وكان يعادل راتبي تقريباً، وكان قائد الدرك هو الصديق القديم خفيف الدم محمد علي اسماعيل وهو من سكان طرطوس أصلاً أو من قرية منها تدعى «القمصيه»، وكانت بيني وبينه مداعبات، وقد بادرته بأن كلمته بالهاتف وهددته تهديداً يمنعه من محاولة الوكالة في غياب المحافظة وأجابني بلهجة مضحكة يقول: إنها لك ولن أعرض نفسي للسانك الطويل وهكذا تسلمت الوكالة في غياب المحافظ شهراً.

كان السيد جميل القربي ـ رحمه الله ـ قد توفي من سنوات قليلة، وقد عاش حتى قارب التسعين،

كان بسيطاً في كل شيء حتى في علمه وخبرته فلم تكن له علاقة بهذه الوظيفة التي تتطلب لياقة كبيرة، لم يكن متمتعاً بها بل كان طيب القلب لم يعرف شيئاً من متطلبات العصر في حديثه وفي لباسه الخاص، فقد حمل شهادة الحقوق يوم أسس معهد الحقوق في مطلع هذا القرن وذهب إلى العراق يدرس، لا أدري أية مادة، وعاد ليتوظف في البلدية، وحين عين محافظاً كنت أنا وكيلاً للمحافظة التي شغرت أثناء ذلك كما كنت مرشحاً للمحافظة نفسها، ولكني لم أسع لها ولم أتخذ التدابير اللازمة، وكل شيء في بلدنا لا بد له من واسطة أو وسيلة كما لا يخفى وكان جميل القربي صديقاً، أو تربطه معرفة بالسيد صبري العسلي الذي كان يومها رئيساً للوزارة وهو الذي نسب تعيينه محافظاً. لم يصنع السيد القربي شيئاً في المحافظة فقد كان عمله كله في أحاديثه واستقبال للناس استقبالاً يلفت النظر، إذ كان يعتمد على المصافحة والتقبيل لكل الناس حتى لقد كان هذا موضع ملاحظة من بعض الناس الخبثاء، كما حاول أن يصنع من المحافظة عائلة واحدة، فقد سنّ سنة جديدة وذلك بأن يدعو كل الموظفين الإداريين في المحافظة وخارجها إلى اجتماع عند أحد الرؤساء الإداريين، فمرة في قطنا، وأخرى في دوما، أو بالقطيفة وهكذا، ولكن هذه كانت مضايقة كبرى للإداريين لأن مثل هذه الدعوة كانت تكلف كثيراً وعلى حساب موظف واحد، ولكن هذا الرجل كان محباً وخدوماً ويسير مسير «الزكرت» كما يقال، فقد كان مرة محافظاً في حماه وزرته وسألني فأعلمته أني ذاهب إلى سلمية، فما كان منه إلا أن أعطاني سيارته ومعها الشرطي والسائق وذهبت إلى سلمية بكل أبهة ووجاهة.

قبل أيامه الأخيرة قرر أديب الشيشكلي أن يهاجم جبل الدروز بقوات الجيش ليقوم بمعركة كانت وبالاً عليه، ولا يدرى حتى الآن سبب هذا العمل الذي كان مخالفاً لما يجب دون أن تكون هنالك أسباب داعية له، فالناس كانوا وما يزالون يذكرون للدروز جهدهم وتضحياتهم أيام الثورة السورية ضد الفرنسيين، والناس ما زالوا يذكرون سلطان باشا الأطرش كزعيم كبير وقائد للثورة، ومنهم من كان يحفظ القصائد والأشعار التي قيلت في الثورة والدروز وسلطان باشا كقول شوقي أمير الشعراء:

وما كان الدروز قبيل شرٍّ	وان أخذوا بما لم يستحقوا
ولكن دارة وقراة ضيف	كينبوع الصفا خشنوا ورقوا
لهم جبل أشم له شعاف	ضوارب في السحاب الجَوْن بُلْقُ
دم الثوار تعرفه فرنسا	وتعلم أنه نور وحق

كان الناس يحفظون هذا كله عن الدروز فليس من المعقول أن يعتبروا خائنين أو مستحقين لما جرى لهم على يد أديب، وحين الهجوم الكاسح لم يشأ الدروز المقاومة، واضطر سلطان هو وكثير من أصحابه أن يتركوا البلدة وينزحوا إلى الأردن لكي لا يمكنوا الشيشكلي من تنفيذ خطته التي لم يعرف أحد لها سبباً معقولاً، ولما انتهى عهد أديب الشيشكلي كما أسلفت عاد سلطان إلى قريته، واجتمع النواب الذين كانوا أيام الشيشكلي والذين توقفوا عن العمل في فترته، فاجتمعوا في حمص وأعيد كل شيء إلى نصابه وعاد رئيس الجمهورية السيد هاشم الأتاسي إلى الرئاسة ودعي سلطان باشا إلى دمشق وحل ضيفاً في فندق الشرق «أوريان بالاس». وكانت عودة سلطان باشا في الفترة التي كنت فيها وكيلاً للمحافظ وحين أراد العودة إلى بيته في الجبل كلفت باسم محافظة لواء دمشق التي كانت المناطق الريفية تابعة لها، وجئت إلى الفندق الذي كان فيه سلطان وقدمت له الاحترام باسم الحكومة بصفتي ممثلاً للمحافظة ورافقته في موكب رسمي إلى نهاية حدود دمشق واستقبله في حدود جبل الدروز محافظ الجبل يومئذ، وأظنه قد كان المرحوم مصطفى الحوراني، وعدت بعد وداعه إلى دمشق.

بعد ذهاب أديب الشيشكلي وجدت بعض الناس من الشامتين الذين يتحدثون بأمور لم يكونوا يقولونها، مثل الصحفي المرحوم أمين سعيد صاحب جريدة الكفاح، فقد رافقته مصادفة في السيارة وكان حين رآني كأنه مستعد للكلام وانهال عليّ بالمواعظ والحكم بأبيات من الشعر لم يتقن حفظها، وكان انتهاء أديب الشيشكلي بتاريخ أول آذار ١٩٥٤.

وهكذا، فإن الذكريات يجر بعضها بعضاً، في نهاية فترة أديب الشيشكلي كانت والدتي عندي في

دمشق وقد قضينا معها ـ رحمها الله ـ أياماً جميلة، فقد كانت حلوة المعشر طيبة المحضر وكانت تروي الكثير من القصص عن الآباء والأجداد، وكانت من الذين يحبون سيدنا علي «رضي» لدرجة العبادة وقد طلبت إليّ أن تزور قبر «الست»، والست هذه من بنات الحسين كما أعتقد واسمها زينب (رضي)، ولم أتلكأ في تلبية طلبها فذهبنا في يوم من أيام الجمعة إلى قبر الست وقضينا النهار كله في زيارتها، وقد سرت ـ رحمها الله ـ في هذه الزيارة حتى لقد بكت حين اقتربت من الضريح وتذكرت ما صنعه ببنات الحسين وأولاده يزيد بن معاوية الخليفة الأموي وكأنها كانت تحفظ ذلك كله عن ظهر قلب، وبعد أيام ذكرت شيئاً كانت قد نسيته وطلبت مني أن تزور الجامع الأموي حيث وضع رأس الحسين يوم جيء به إلى دمشق ليراه يزيد، ولقد كانت تحفظ أمكنة هذه الآثار المقدسة منذ أن كانت في دمشق مع والدي حين كان سجيناً مع جماعة السلمية يوم حادث دعوة «أغاخان» الجديدة، وأجبتها إلى طلبها، فذهبت إلى الجامع ووضعت رأسها في مكان رأس الحسين كما يصنع عادة عندما يزار الرأس، وعادت إلى البيت بعد أن بكت طويلاً للذكريات التي تحفظها من عذاب أهل البيت النبوي وما جرى لهم على يد الأمويين، ولكن الوالدة ـ رحمها الله ـ عادت هذه المرة وهي تشكو من عنقها، فقد كانت في عنقها كتلة ظهرت فيها منذ سنين طويلة، وكانت تعرضها على الأطباء فيخففون من أمرها ويهوّنون من شأنها إلى أن فاجأها الألم ولم تكن تتألم منها قبل هذه الوهلة. ولقد تزايد الوجع حتى لم تعد تتحمله وحين عرضتها على أحد أصحابي أشار عليّ بطبيب ألماني جاء زائراً ليعمل في دمشق جراحاً في أحد المشافي، وحين رآها طلب أن تجرى لها عملية مستعجلة فقد كان المرض وبيلاً وخبيثاً. وأرسلت إلى أخي، وهو أصغر مني وكان معلماً، فحضر وقررنا إجراء العملية ولكن العملية لم تنجح، لأنه كان من الخطأ الإقدام على الجراحة في هذا المرض حين يستفحل أمره وتركناها في المشفى مدة ثم نقلناها إلى مشفى آخر في الجامعة، ثم أشير علينا بأن لا فائدة من بقائها في المشفى لأن أيامها أصبحت معدودة ومن الأفضل أن ننقلها سريعاً إلى سلمية، وحين أعلمتها بعودتها الى سلمية شهقت المسكينة خوفاً وأبت أن تذهب ونظرت إليّ نظرة الخائف الملهوف فقالت: خذني إلى بيروت وصمتّ، ماذا أقول لها؟ ثم سكتت قليلاً وقالت: لا بأس ليكن ما يريد الله، إلى سلمية إذن، ولكن أعطني شربة ماء، وقدمت لها الماء فشربت رشفة والسيارة واقفة تنتظرها وقالت الوداع يا بني، يا أحمد أرجو الله أن يجعل التراب الذي تمسكه بيدك ذهباً، وفقك الله، وسارت السيارة، ولم أرها بعد ذلك فقد توفيت بعد شهر ولم أستطع اللحاق بها فقد دفنت قبل أن أصل إلى سلمية. إني لن أنسى موقفها وهي تشك بنهايتها، ولقد ظللت أياماً وكأنني في حلم مرعب وأنا أردد:

ودعته وبودي لو يودعني	صفو الحياة وأني لا أودعه
ولم تشفع بي أن لا أفارقه	وللضرورات حال لا تشفعه
وكم نشبت بي يوم الرحيل محن	وأدمعي مستهلات وأدمعه

لقد توفيت هذه الوالدة الذكية اللطيفة بعد أن لقيت من السعادة ما لم تلقه امرأة في شبابها، وبعد أن عثرت بها الحظوظ فأسلمتها إلى حياة لم تجد فيها الرحمة ولا الشفقة ولا الحنان، لقد ذهبت والحزن يقطر من عينيها، إلى رحمة الله.

وقبل انتهاء عهد الشيشكلي جاءنا إلى المحافظة محافظ جديد هو العقيد عزيز عبد الكريم الذي أصبح لواءً فيما بعد، كما أصبح في فترة من الفترات وزيراً للداخلية، ولكنه لم يبق في المحافظة إلا أياماً، وجاء في صباح أحد الأيام باكراً على خلاف عادته، فقد كان ترك الأمر لي في تصريف أمور المحافظة، جاء يومها ليقول لي: لقد ذهب صاحبك وانتهى، وهو يقصد الشيشكلي وكنت قد علمت بالأمر.

جاءنا بعد الشيشكلي محافظ جديد عرفته منذ زمن بعيد معرفة عابرة وهو السيد رشدي الحامد، والسيد الحامد حقوقي وقد كان قاضياً مدة من الزمن كما كانت له صداقات مع المسؤولين هاتيك الأيام، وخاصة رجال حزب الشعب الذي انبثق عن الكتلة في عهد من العهود السابقة، وكان صديقاً بشكل خاص للمرحوم علي بوظو النائب والعضو البارز في حزب الشعب والوزير مرات متعاقبة. كانت معرفتي بهذا المحافظ عن طريق قريبنا والصديق عبد الله تامر والصديق الآخر محمد دياب، فقد اتفقت معهما مرة على الذهاب إلى سلمية على أن نمر بالنبك، وقد كان فيها صديقنا الظريف الأسمر «عبد الله الجراح» مدير المصرف الزراعي هناك، وحين أردنا المسير، عرجنا في شارع بغداد على بيت السيد الحامد، وما كنت أعرفه قبل ذلك وكان في القضاء قاضياً للتحقيق، وأردت أن أمازحه، وقد كان من عادتي أن أحب ممازحة الأشخاص الذين لا أعرفهم ليكون مزاحي مفاجأة لهم. وكان بيت السيد الحامد متقناً بما فيه من فرش ممتاز وعناية ظاهرة فنظرت إلى عبد الله ـ رحمه الله ـ لأقول له على مسمع من صاحب البيت: بربك أهذا بيت قاض للتحقيق؟ ونظر عبد الله إلى السيد رشدي يقول له اسمع إنه يتهمك بالرشوة وضحكنا جميعاً وودعناه وهو يقول لي: سامحك الله على هذه التهمة الشنيعة وخاصة عند القضاة.

كان رشدي الحامد وهو حي يرزق الآن بحمد الله، لبقاً غاية اللباقة قصير القامة أبيض الوجه في رأسه بعض الصلع ذا صوت ناعم فيه بحة محببة، ولقد اتفقت معه على كل شيء، فقد كانت من عادتي مع المحافظين أن لا أحرجهم بالمطاليب أو المداخلات أو المباسطات، وقد تمر الشهور فلا أجلس مع المحافظ جلسة واحدة، فقد كنت أعرف هذا ما دام هنالك فارق في الوظيفة بيني وبين المحافظ مهما كان هذا الفارق، فكنت في كل صباح أحمل البريد المحوّل ليوقعه وحين ينتهي توقيع البريد تكون كل علاقة بيني وبين المحافظ قد انتهت إلا إذا حدث أمر طارىء. وهكذا قضيت بصحبة هذا المحافظ الذكي فترتين لم أختلف معه فيهما بشيء ولم أزر سيادته مرة خلال هذه المدة كلها فإذا انتهى الدوام خرج المحافظ، وخرجت وراءه مع الموظفين، وسار كل واحد منا في جهة إلى أن نلتقي في اليوم الثاني. لقد كان الحامد كما قلت لبقاً فقد كان يتغاضى عن الهفوات البسيطة، وكان يعامل الموظفين كلهم عن طريقي حفظاً ومراعاة لشعوري على اعتباري رئيساً لهم، وكنا نتناقش فيما أكتب له إذا كان في الأمر ما يوجب النقاش، فقد كانت العلاقة بيني وبينه إدارية رسمية، وهذا في رأيي هو الذي أدام صحبتنا إلى اليوم فهو إلى الآن لم يزل صديقاً ولم يزل يحبني ويحترمني، وأنا أبادله صحبة واحتراماً لا أنساهما أبداً.

حين استقرّ بي الأمر في دمشق ورأيت نفسي في راحة وطالت مدة إقامتي ذهب عني ما كان ينتابني من خوف الانتقال إلى مكان آخر. والتفت إلى حياتي الخاصة فقد جددت اللقاء والصداقات مع أصحابي الذين عرفتهم إبان حياتي المدرسية وإن تغيرت البلاد وتحولت الدنيا من حال إلى حال، ولكن من الصداقات ما لا يؤثر فيه الزمن ولا الأيام، فقد ظل رشاد عيسى ـ رحمه الله ـ صديقي، ولكن لقاءاتنا كانت محدودة بسبب مشاغله وتعرفت إلى جماعة جدد كنت أحضر معهم بعض السهرات العائلية كما سميت أخيراً، ولكن هذه السهرات كانت تحرجني أحياناً، ولا بد من القول هنا بأن هذه الحياة العائلية لم تتخذ الشكل المعروف في البلاد المتمدنة كأوروبا مثلاً، لأن القيود الدينية ومظاهر التعصب بقيت وما زالت إلى الآن، فالجلسة العائلية لا تخلو أبداً من التحفظات وعلى المرء في هذه السهرات أن يكون ملتزماً بالآداب العالية فلا يمازح امرأة غيره ولا يتحدث إليها إلا بصوت عال، وفي أمور هامة لا تلفت النظر، وكان أشد ما يحرجني أنني كنت أدعى لهذه السهرات لأسباب أولها أني كنت موظفاً لي علاقة مع الناس جميعاً، وثانيها أنني بت معروفاً في دمشق بأنني مثقف وأديب وأنني أحسن الحديث والمزاح، ولكن العقدة كانت أنني كنت أحضر هذه الجلسات وحيداً فلم تكن عائلتي تحضر هذه الجلسات، وكثيراً ما

كنت أدعى وأكون وحدي وكثيراً ما كانت تقع بعض المشاكل حين تسألني واحدة من المدعوات أو أحد المدعوين بقوله: أين العائلة؟ وكنت أصمت وأشمئز ولا أرد جواباً، وبالفعل فإن ظروفي العائلية لم تكن تسمح لي بالحياة العائلية ولأنني لست محبذاً لهذه الحياة العائلية ما دامت هذه العائلات لم تصل إلى الدرجة التي تستطيع فيها أن تختلط بالغرباء، وهي مطمئنة آمنة من كل خطر. لذلك كنت إذا دعيت إلى مثل هذه السهرات أشترط بأنني وحدي وليس معي أحد، وكنت أجد ترحيباً رغم هذا الشرط.

كنت خلال جولاتي وسهراتي الكثيرة في دمشق، تعرفت على أصدقاء كثيرين ومن بينهم صديق من الظرفاء، وكانت له زوجة متحررة ولكنها مستهترة اللسان في مزاحها لا تترك نكتة أو حكاية مهما كان نوعها إلا وترويها غير متحرجة ولا متحفظة، وكنت أحاول أن أخفف من طبيعتها هذه فكنت كأنني أزيد النار اشتعالاً، وخطر على بالي في يوم من الأيام أن أزورهم وكان الوقت بعد العشاء، وكانت العائلة تسكن في قبو أرضي ينزل إليه بسلم بسيط وحملت معي بعض ما يلزم للسهرة، فما كنت أذهب عادة إلا وأنا أحمل شيئاً مما يلزم لكي لا أكون ثقيلاً أو عالة، وذهبت في ذلك المساء وتحت إبطي كيس من الفاكهة وما يتعلق بالسهرة، ولم أكد أصل إلى باحة القبو وقبل أن أطرق الباب بصرت بامرأة تقف في نفس المكان وقد خرجت من بيتها المقابل وفاجأتني بقولها: ألا نستحق نحن زيارة منك، ما هذا الكبرياء؟ أيستحق هؤلاء الذين تزورهم أكثر مما نستحق نحن، ونحن أعرف بك وأكثر تقديراً لك، إن هؤلاء الذين تزورهم ليسوا من طبقة يستحقون بها زيارتك؟ لقد فوجئت بالأمر ولكني توقفت وقلت: ولكنهم أصحابي وأنا أعزهم كما يعزونني ولا تهمني الطبقة فلست «مفتش طبقات» وغمزت بعينيها وقالت: نحن بانتظارك غداً في مثل هذا الوقت، وأشارت إلى باب بيتها المفتوح، وكان في القبو ذاته.

كانت امرأة مدهشة في عينيها السوداوين وكأنهما قطعة من الليل، وكانت بيضاء يكسو رأسها شعر أسود فاحم من لون عينيها فكأنه سحابة داكنة فوق ذلك الجسد المشوق المائل إلى الطول، ونظرت إلى يديها فإذا هما صغيرتان تنبضان حلاوة وطراوة، ودخلت إلى البيت الذي كنت ذاهباً إليه واستقبلتني الزوجة بما وصفت لك من لسانها الحاد. كان زوجها يهيء بعض الطعام في المطبخ ولكن المرأة التي صادفتني لم تبرح مخيلتي، لقد ظلت تلاحقني صورتها طوال السهرة حتى لقد لاحظ صاحب البيت انشغالي وسألني: ما بك اليوم، إنك لست «على الحشيشة» كما يقال؟ ولم أعلم كيف انتهت السهرة وعدت إلى البيت، وفي اليوم الثاني وبينما كنت في مكتبي، في المحافظة، دخل عليّ رجل رقيق الجسم في يديه ورجليه ينظر بعينين غير سويتين ويحمل نظارة سميكة وقد صفف شعره ودهنه بما لا أدري وسلم عليّ ولم أكن قد رأيته وفاجأني بقوله: نحن بانتظارك اليوم؟ واستغربت وقلت له متسائلاً: بانتظاري وأين؟ ولماذا؟ قال: لقد دعتك العائلة البارحة ألم تعدها بالمجيء؟ وتذكرت وعرفت أنها زوجته وأنها هي التي قررت السهرة، وأنه لم يخالفها، وقد عرفت فيما بعد من معرفتي بهما أنه لا يخالفها في شيء وأنها هي كل شيء في البيت.

في ذلك اليوم حملت معي كيساً مما لذ وطاب وذهبت إلى البيت الموعود فوجدت كل شيء بانتظاري ووجدت المرأة في كامل زينتها، ولكني لم أسر لهذه الزينة المبالغ فيها، فأنا بطبعي كنت أحب دائماً الوسط في الأمور والطبيعي في كل شيء ولا أحب الكلفة ولا التصنع، وتذكرت قصيدة المتنبي التي يصف فيها كرهه للتصنع في الزينة وهي القصيدة المشهورة ومطلعها:

حسن الجآذر في زي الأعاريب	حمر الحلى والمطايا والجلابيب

وفيها الأبيات الرائعة:

ومن هوى كل من ليست مموهة	تركت لون مشيبي غير مخضوب
ومن هوى الصدق في قولي وعادته	رغبت عن شعر في الأس مكذوب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية	وفي البداوة حسن غير مجلوب

ولكني جلست ورحت أتأمل هذه المرأة العجيبة في قامتها الطويلة وعينيها اللتين لم أر مثلهما وشعرت كأن شيئاً يجذبني إليها هو بين الحب والإعجاب، وقد ظلت هذه حالي معها أكثر من سنتين وأنا حائر بين

الحب طوراً والإعجاب طوراً آخر، ولكن شيئاً واحداً كان يبعدني عنها ويضطرني إلى النسيان والتلكؤ في حضور السهرات، ذلك أنها كانت «خبيثة» بالمعنى الواضح لهذه الكلمة، فلم تكن مخلصة لشيء في حياتها إلا لشيء واحد هو اغتنام الفرصة للسهر والمزاح والطعام الطيب أو ما يسمى «تقطيع الوقت»، كانت امرأة تحترف «البسط» كما يقال ولا يهمها شيء آخر، وقد كان زوجها غير متناسب معها لا جسماً ولا حسناً، وكان حديثه مضحكاً فهو مدّع إلى أبعد الحدود في الادعاء بحيث يخيل لك أنه ـ في رأي نفسه ـ أذكى الأذكياء وأثقف المثقفين، وأشجع الشجعان، وكثيراً ما كنت أشير إليها بعيني إلى حديثه الممل وادعاءاته التي كانت تعكر صفونا في كثير من السهرات والجلسات وكانت كريمة تجيد صنع الطعام، وتتخذ للطعام وضعاً يحببك بالأكل، في حين هناك أناس إذا أكلوا أمامك أضربت عن الطعام، ولم أكن أطمع منها بشيء أكثر مما أعطتني، فكانت تقلب كل مطلب إلى مزاح، وكانت فقيرة ولكنها مع ذلك كريمة، وجئت مرة فوجدتها تبكي فسألتها فقالت، سوف نخرج من البيت غداً ولا بد من هذا فقد صدر بحقنا حكم بإخلاء البيت، وقد هرّبنا أدوات البيت من براد وغسالة وغيرهما خشية الحجز لأن دفع أجرة البيت واجبة ساعة الخروج والانتقال منه وخجلت منها، ولأول مرة أضحي بالمال في سبيل امرأة أجد لذة بعشرتها والسهر والحديث معها، في حين أنني أنفق كل ما يلزم من طعام وهدايا وسفر، ولكنني لا أقدم لها مالاً لأن المال في رأيي يعتبر أجراً لمصاحبتها لي كما أنه يعتبر عندي استغلالاً لا أجيزه. وبالفعل لقد ذهب ثلاثة أرباع هذا المبلغ الذي كان شيئاً مذكوراً هاتيك الأيام. ولقد سافرت وإياها مع زوجها مرة إلى بيروت وقضينا أياماً ثلاثة كنا نسهر فيها عند المطربة الكبيرة سعاد محمد، وكانت المطربة تعرفني وترحب بي أمام المشاهدين فأفرح بذلك وأطرب. وقضينا الأيام الثلاثة بين طعام وشراب وسماع وغناء، وعدنا إلى دمشق، وأذكر أنه لم يبق لدي حين وصلت إلى البيت إلا نصف ليرة فقط، فقد أنفقت كل ما معي لأن المرأة لم يكن معها شيء يذكر، وكثيراً ما كنت أدعوها الى النزهات البعيدة فنصل إلى بلودان والزبداني وقطنا، إذ كانت في المحافظة سيارات أستطيع الاستفادة منها، وكان مقصف الجرجانية ـ بين الزبداني وبقين ـ المقصف الذي يؤوينا لأنه خال أكثر الوقت من الناس فكنت أخلو إلى الزوجين بلا عذول أو رقيب. كنت إذا جلست وإياها مع رجل غريب أحب أن تلتزم الجد معه، وقد لاحظت مني هذا فكانت تتصنع أحياناً أن تغيرني ممن نتحدث إليه، وكنت أرى أن ألذّ شيء عند المرأة أن يختلف فيها رجلان أو أكثر، وكان الأحباء الكثر ثروة تتمتع بها لذلك فالإخلاص في رأيي غير وارد عند هذا الصنف من النساء اللائي يريْن في المعاشرة لذة خاصة تفوق كل لذة لأنها تعتبر نفسها شريكة في هذه المعاشرة، فهي تقدم شكلها وجمالها والمحب للمعاشرة يقدم ماله. بقيت علاقتي بهذه المرأة عند هذا الحد فهي لا تعطيك أكثر من حلاوة اللسان والحديث الحلو والاستجابة إلى السهر والحفلات، ولم تتردد يوماً في مشروع كهذا مهما كانت مشاغلها، لقد حدثتني أنها كانت ترضع ولدها الرضيع وتتركه وحده في البيت نائماً في سريره وتذهب للسهرة ولا ترجع إلا قريباً من الصباح فتجد الولد نائماً أو يكون قد أفاق ثم نام حين لا يجد من يستجيب لندائه. إنها امرأة عجيبة، جميلة، جاهلة، كريمة، مستغلة لا يهمها شيء، فهي في نهاية الأمر لا تخلف لمن يعرفها إلا الندم. ومن الغريب أنها بعد هذا الفقر أقامت حفلاً كبيراً في فندق من فنادق المدينة دعت إليه الأشخاص وقد دعتني بعد أن افترقنا سنوات وتذكرت الصداقة فأعجبت بذاكرتها، وذهبت فوجدتها قد عبثت بها السنون وذهب القسم الأكبر من جمالها الأخاذ، ولكن بقيت عيناها وكأنهما ذكرى من ماضيها الجميل الساحر(*).

كان هناك شخص لا أقول إنه صاحبي ولكنه أحد معارفي العابرين، لقد كان بخيلاً ولكنه يحب السهر، وكان متصنعاً في حديثة لدرجة مضحكة، وهذا الرجل من أغرب من رأيت في حياتي فما عرفت إنساناً يحبه أو يحترمه، وكان أكثر الناس كرهاً له المرأة السابقة التي كنت أصاحبها مع أن هناك قرابة تجمعهما من بعيد، وكثيراً ما كانت تذكره فتسخر منه سخراً عجيباً وهو سخر في محله لأني أعرف عنه

(*) توفيت هذه المرأة كأكثر الأصحاب منذ شهر تقريباً (١٩٨٩).

مثل ما تعرف هي، وكان يتصنع الفهم والكبرياء والشجاعة وهو صفر من كل ذلك، أما زوجته فكانت مضحكة، إنها جميلة جداً وأنيقة جداً لدرجة التصنع والخبث وتحسن الحديث والمباسطة ولكنها أبعد ما تكون عن القلب، وما أظن إنساناً في العالم يمكن أن يحبها أو يستطيع اللهفة إليها. إنها صورة بلا حياة، وشكل بلا روح، ومع ذلك فقد كان زوجها يتودّد لي وهي تشاركه التودد، والقصد من ذلك كما كان يظهر لي دائماً أن يسهرا ويذهبا إلى المطاعم والملاهي بالمجان، وكنت أعلم ذلك وأضحي في سبيل أن أقضي سهرتي في وسط فيه امرأة، فما زلت منذ عرفت الدنيا أعتقد أن كل سهرة أو اجتماع أو لهو دون امرأة يصبح ناقصاً تافهاً، إن صوت المرأة في المجتمعات أشبه بالعطر أو الروح التي تبعث الحياة فيها، وكان الرجل يدعوني ولكني أنا الذي كنت أتحمل أكبر جانب من النفقة، وهكذا كانت هذه السهرة التي كان لها وما يزال تاريخ يضاف إلى تاريخ حياتي.

دعاني الرجل الذي وصفته لك مرة للسهر عنده، وقد اتخذت طبعاً الاحتياطات «الطعامية وغيرها»، وحملت سلّة من المستحضرات الطعامية ومشيت من أول الشارع وإذا بامرأتين تناديانني فاقتربت منهما فإذا بهما زوجة صاحبي الذي دعاني والتي ذكرتها آنفاً ومعها امرأة أخرى ناعمة المظهر مختصرة الجسم هيفاء كأنها غصن ورد، بيضاء فيها شحوب يزيدها تأثيراً وهي تلبس معطفاً أصفر فاتحاً يناسب لون شعرها الدجوجي الحالك، وتحدثت فكان في صوتها بحة تركت أثراً سريعاً في نفسي، فنظرت إليها وصافحتها فشعرت بنعومة عجيبة بأصابعها ويدها كلها، وأكملنا الطريق وأنا مأخوذ بها وكنت أقف كل بضع خطوات لألتفت إليها ثم أمشي حتى وصلنا إلى البيت، وفي البيت رتبنا الطاولة وجلسنا والمرأة ما تزال وحدها ليس معها أحد، وسألت مضيفتي أن تعرفني بها ففعلت وأخذت أسألها عن عائلتها والحي الذي ولدت فيه وعن زوجها وتاريخ وجودها، وأنا خبير معروف بهذه الأسئلة، وكانت كلما أجابتني بشيء تضحك وتعلق على سؤالي بنكتة حلوة وكأني نسيت صاحب البيت وزوجته حتى صرخت صاحبة البيت وهي تقول: تحدثوا معنا يا جماعة هل نسيتم أننا هنا؟ وأمسكت بعود كان في البيت وأخذت أدندن به رغم ضعفي الكبير بالعزف، وانتقلنا من حديث إلى حديث ومن أغنية إلى أخرى وفجأة سمعنا الجرس يرن وخرج أحد أولاد البيت ففتح الباب ودخل رجل كأنه قطعة من بناء، يلبس مشمعاً أصفر ويمشي مستعجلاً كأنه في سباق وجلس فسلمنا عليه وأخذ يتكلم وقد اعوجَّ وجهه، وقعقع صوته، فعرفت أنه الزوج المحظوظ وعرفت ـ من ناحية أخرى ـ أنها الزوجة المنكوبة، كان في عمل له وتأخر وأخذ يصف لنا ما كان يعمل به وهو أمر لم يكن يهمنا في شيء، فقد قطع حديث المزاح والغناء وقلب الفرح إلى تفاهة كادت أن تذهب بأنس تلك الليلة التاريخية بالنسبة إليَّ. ورغم كل المحاولات فقد تبدّل جو السهرة وشعر أصحاب البيت بذلك في حين أن صاحبة البيت أخذت تسألني عن سكوتي وانقطاعي عن الحديث، وقلت في نفسي: حُفّت الجنة بالمكاره، كيف تبدلت الحال، وكيف آضت ليلتنا إلى حديث في أمور تجارية وصناعية لا علاقة لنا بها جميعاً. وفكرت بأن هذه المرأة بما فيها من هدوء وأنس وأنوثة هي المرأة التي أنا بحاجة إليها لأقضي أوقات فراغي ولأريح نفسي من عناء الوظيفة وعناء البيت والأولاد وقلت في نفسي: ما لا يدرك كله لا يترك جُلّه.

كان زوج هذه المرأة بسيطاً مدعياً وغير مسلّ ولا يتحدث إلا بأمور البيت، فهو ربما قام في منتصف الليل ليصلح مسماراً أو خشبة في مكان ما، لا يقرأ إلا نادراً مع أنه نصف متعلم، وإذا حدثته لم يفهم عليك إلا بصعوبة ولا بد أن يستعيدك الحديث في كل شيء فيسألك: أصحيح ما تقوله؟ وتؤكد له ما تقوله بإعادته، وربما أعاد السؤال عليك أكثر من مرة حتى يتعبك ويسئمك. صرت أتردد عليه ولقد كنت أخلو بزوجته دقائق حين يباشر بصنع القهوة أو الشاي، وهذه الأعمال من مجال فخره لا بل إنه يعتبر صنع القهوة أو الشاي عبقرية ليست لغيره، وحين يخرج ألتفت إلى الزوجة لأشير إليه ولأسألها عنه وعن شأنه هذا، فتهز برأسها وتنظر في الأرض وكأنها خجلى من أن تكون زوجة لمثل هذا الإنسان. كان متشدداً في حياته البيتية حتى تظنه متعصباً وربما تساهل إلى درجة الغفلة، وقد أوقعته هذه الغفلة مرة في مشكلة بينه وبين زوجته كادت أن تؤدي بهما إلى الطلاق، فقد تعرف على البيت شاب غريب جاء بحجة تعليم

الأولاد، وكان الشاب غير وسيم ولكن المرأة رأت فيه شيئاً من الوسامة وقد صرحت لي بهذه الوسامة حين سألتها عنه، وقد عرفته مصادفة واعترضت على رأيها فيه ولكني رجعت إلى نفسي وقلت لعلها لا ترى أبشع من زوجها بعد أن تراكم امتعاضها منه واستثقالها لحديثه وتصرفاته البيتية المستكرهة. ولقد كانت تحب أن أتحدث إليها بالشعر والأدب فقد حرمت هذه الثقافة وكأنها كانت ذات قابلية للاستفادة من هذه الثقافات الفنية، وكانت تحب الغناء وكنت أغني وأنا أحسن الأداء الغنائي، فكانت تسر بينما يكون هو ممسكاً بملقط أو بكماشة يحاول إصلاح قبقاب أو شيء آخر في يده. وذهب الزوج إلى السوق القريب ليحضر شيئاً ما يهمه مثل المسامير والدبابيس، واغتنمت الفرصة فأعطيتها ورقة فيها أبيات أرثيها فيها لأنها تزوجت، وكان حقها أن لا تتزوج لأن هذا الزواج كان عبئاً ثقيلاً عليها كامرأة متفتحة للحياة ولم تستطع أن تتفتح، وصارحتها بعد مدة بحبي لها وابتسمت وهي تقول: أعرف، وقلت: هل أنت راضية عن مثل هذا الحب؟ وقالت: ليس في الإمكان أبدع مما كان. واستمرت الحال بيننا على هذا المنوال، إنها علاقة نظيفة فالرجل لا يترك البيت إلا نادراً، وما كنت أريد أن يغادر البيت لغاية، فإن الغايات لم تكن تخطر في بالي وأنا إنسان متذوق غير شره ولا طماع، ولكنه كان بوجوده، معكراً للجو، فإذا خرج خرج معه التعب وتنفست الصعداء أنا والزوجة البائسة، وإذا عاد عدنا إلى التنفس المتعب والحديث المتكلف والنظرات المتبادلة التي تترجم عما في نفسينا من ملل وضجر وضيق بما هو واقع. لقد اتفقنا على أن أحدنا معجب بالآخر، أنا معجب بشكلها وأنسها الذي كان يفوق أنسها، فقد كانت توحي إليّ بنوع من الحزن لأنها كانت كالسجينة في هذا البيت أو في هذا الزوج الذي لا يعرف شيئاً من لذائذ الحياة إلا الطعام والشاي والحديث عن نفسه حديثاً أثقل من البرد. وهي كانت معجبة بحديثي فقد كنت أختار لها ما يضحكها ويسليها وينسيها ما هي فيه، ولقد أصيبت بكوارث أخرى، فقد عرف ابنتها شاب تزوجها ولكنه كان مهووساً في الشعر والأدب والسياسة وغير ذلك ثم ترك المدينة وذهب إلى غير رجعة، وولدت الابنة ولداً ما زال في كنفها، فإن أهل أبيه لم يريدوا حضانته ولا الالتفات إليه إلا نادراً، وقد كنت نصحتها أن لا تستعجل في الثقة بأحد حتى ولا فيّ أنا، وكان اعتذارها في قولها: ليس الأمر بيدي. ولقد توفي زوجها منذ شهور ولا أدري ما صنع الله بها، ولكني لم أرها بعد ذلك. كانت هذه المسكينة تحمل هموماً لا عداد لها حتى ابتليت بمرض جلدي لم تجد له طبيباً، فهو أشبه بالدمامل التي تنتقل من مكان إلى آخر، فإذا شفيت واحدة ظهرت الأخرى وهكذا دواليك. إنها المرأة الناعمة التي عرفتها في حياتي، والمرأة الأنيسة التي تعرف كل شيء وتخجل من كل شيء.

كان لي صديق أعزه ويعزني وقد كان بيته قريباً مني وكانت حاله ضعيفة كما يقال ولم أكن أنا صاحب ثروة، ولكنني كنت أتدبر نفسي، ولي عدة موارد وإن كانت مختصرة قليلة إلا أنها كانت تكفيني وتكفي نفقات «الانشراح» كما كنت أسميها، أي أنني كنت أسير على موازنة متقنة بحيث لم أستدن ولم أحتج في حياتي بدمشق إلى طلب شيء ليس معي، كنت أتقاضى راتباً وكان يأتيني من السلمية بعض المال من مخلفات الآباء والأجداد، يضاف إلى ذلك أنني كنت أكتب في بعض المجلات وبخاصة مجلة «الجندي» التي أصبحت اليوم «مجلة جيش الشعب»، وأذكر أن أول مكافأة نلتها عن هذا الطريق هي /٢٥/ ليرة سورية أخذتها من أخينا الصحفي المعروف نشأت التغلبي، وحين أعطانيها استغربت أن يصبح الأدب والشعر ذا قيمة مادية، وكان هذا أول مال أخذته من صنعة الفقر وهي الصنعة التي أدركتني منذ ولادتي. ولقد تعرفت على دار الإذاعة وأصبح لي مكان فيها من حديث أو أبيات شعر أو لقاءات أدعى لها، وكنت أخصص ما يردني من طريق غير الراتب لهذه السهرات التي لم أكن أستغني عنها، وهناك أناس كثيرون، وفي كل بلد يحبون أن يلهوا ويسروا دون أن يكلفهم ذلك عناءً أو إنفاقاً، وكان صديقي هذا من هؤلاء وأنا أعذره في هذا فقد كان ضعيف المورد وكان كريماً حين لم يكن مسؤولاً، ولكنه أصبح مقتّراً فيما بعد اضطراراً، وقد اتفقت معه على السهر في بيته وكنت أحضر معي كالعادة كل ما يلزم، وكانت الأشياء رخيصة لا تكلف إلا ما يستطاع التضحية فيه، وكنت أجلس في «سهرتنا» أنا وهو وزوجته وأخت زوجته وأناس آخرون، وكانت الأخت قد بلغت من العمر سناً متقدمة، لكنها بقيت محتفظة بجاذبية خاصة

وقد لفتت نظري ولفتُّ نظرها منذ اليوم الأول فكان أكثر الحديث بيني وبينها وكانت النظرات تعبر عن كل ما تريد وفي ليلة من الليالي وكنت أجلس قبالتها شعرت بشيء يرتطم برجلي فعلمت أنها رجلها، وأخذت تكرر هذه الصدمة التي اعتبرتها لعبة ولكن رجلها لم تعد تنفصل عن رجلي، فكنا نجد لذة في هذا الحديث «الرجلي» إلى أن حدثت مفاجأة، فقد نزلنا بعد انتهاء السهرة ونزلت هي أمامي وأسرعَت وأسرعتُ وكانت السلم مطفأة النور فأسرعت إليها وقبلتها وقد أحسست أنها كادت أن ترتخي على كتفي ولكني أعنتها فاستوت واقفة ونظرت إلى خلفي فإذا أحد الساهرين ينظر إلينا ولم نكن قد رأيناه. وكان هذا آخر لقاء، لقد كان الرجل المشاهد قريباً لها، وبعد أيام حاولت مع صديقي السهر، ولكنه اعتذر بلباقة وصرفني عن هذه الفكرة ثم دعاني ولم يكن أحد بالبيت إلا أنا وهو، ولم أعد للسهر بعد ذلك فقد ذهب كل ما فيها من متعة شعرية حين غابت تلك الفتاة التي لم تزل عانسة ولم تتزوج. وقد عرفت فيما بعد أنها تعرضت في حياتها لنكسة عاطفية إذ أحبت شاباً أعرفه ووصل حبهما إلى الخطبة ثم حدثت حادثة باعدت بينهما فتزوج هو غيرها وبقيت هي تنتظر القضاء والقدر وحرمت الزواج بسبب حبها العاصف الذي عرفت منه شيئاً دلني على أنها فتاة تعيش في الخيال ولا تعرف الواقع.

لم أكن من الشباب الموفقين المحظوظين في معرفة المرأة، وكنت أسمع بقصص المغامرات فأغار من هؤلاء الذين تقع لهم مصادفات غرامية تأتيهم ارتجالاً ودون أن يسعوا إليها، وأكثرهم ممن لا يوحون بشيء من جمال أو حديث أو ثروة أو أي ميزة أخرى، وكنت أرى أن أكثر هؤلاء إنما يدّعون ادعاءً بأنهم مرغوبون نسائياً، وكنت أنظر إلى نفسي فأجدني أفضل منهم في كل شيء، ثقافة وشكلاً وعملاً ومحلاً في المجتمع فأتساءل: لِمَ لا تقع هذه المصادفات معي إلى أن قررت أن هذا الذي يرويه أصحابي وغيرهم من المغامرات النسائية روايات كاذبة لأن المصادفة لا تقع ولا يمكن أن تقع: فمثلاً أن تتعلق بك امرأة في الطريق، ومن نافذة لأخرى أو بالهاتف، إن هذه اللقاءات لم أكن أعتقد بوقوعها ولقد أرحت نفسي منها ولم أفكر في شيء منها، ولكني مع ذلك كنت مؤمناً بأني قليل الحظ نسائياً فالصفات التي أملكها، كما كنت أراها، يجب أن تكون رأسمالاً فعالاً في اجتذاب النساء، فما هو سبب فشلي؟ لقد نوعت التساؤل في هذا الأمر إلى أن وصلت إلى نتيجة هي أنني كثير المزاح لا أصطنع الجد أبداً، والمرأة لا تحب إلا الرجل الجاد، يضاف إلى ذلك وهذا شيء هام في هذا الموضوع، أن المرأة لا تحسن تقدير جمال الرجل أو لا يهمها جمال الرجل، وإنما تهمها أشياء أخرى كالمال والذكاء الخادع وحسن الاستغلال، وقدرت أن مزاحي أو ـ خفتي ـ كما تسمى أحياناً هي سبب ابتعاد النساء عني لأنهن لا يثقن بي، والمرأة حين تقدم على الحب يجب أن تكون مطمئنة إلى أن أمرها يجب أن يظل مكتوماً، لا سيما إذا كانت متزوجة أو مطلقة، وهكذا قضيت فترة الشباب أركض وراء الجمال فإذا قربت منه نفر مني لأنه يخافني، أو يخاف لساني، لقد كان يحدثنا أستاذنا قدري العمر فيقول: يا بني اجلس وحدك في المقهى ودخن سيجارتك وانفث دخانها بعنف وأمل طربوشك حتى يغطي جبينك ولا تضحك، فإذا فعلت هذا عينت في اليوم الثاني قائمقاماً. وهكذا اكتفيت من الحب بقولي:

أحببت كل مليح مر في خلدي ... وذقت في حبه وصلاً وهجرانا

فأنا أحببت بفكري ولم أحب كما يحب الناس الموفقون، ويا له من حب «شفهي».

٣٨ الوحدة

في يوم ٢٢ تموز ١٩٥٢ كنت نازلاً من داري في حي المهاجرين بدمشق إلى دار المحافظة التي أعمل فيها، وكانت بيتاً مستأجراً في حي «الحبوبي» وفي الطريق سمعت المذياع في أحد الدكاكين يتحدث عن قيام ثورة الضباط الأحرار في مصر، وأن الضباط استولوا على الدولة وأن على رأس هؤلاء جمال عبد الناصر وزكريا محي الدين وصلاح سالم وجمال سالم وغيرهم كثير، وأن الملك فاروق بارح مصر أو سيبارحها، وأن اللواء محمد نجيب سمي رئيساً للجمهورية وأن رئيس الوزراء أصبح جمال عبد الناصر والمحرك الأول للثورة والشخصية البارزة في الضباط الأحرار. وأن لجنة وصاية على العرش تألفت أول الأمر من ثلاث شخصيات، ثم صرف النظر عنها بعد أن وضع الضباط أيديهم على كل شيء، ووصلت إلى مكتبي في المحافظة فعرضت جلية الأمر الذي أذاعته الإذاعات والصحف بتفصيل وأخذ عبد الناصر يصبح الشخصية السياسية والقومية، فقد صرف محمد نجيب من الرئاسة وتسلم هو مكانه ثم بدأ أعماله المعروفة من إخراج الإنكليز من مصر، ثم تأميم القناة ثم، ثم إلخ، هذه الأعمال وجد فيها السوريون، لا بل العرب جميعاً أعمالاً خارقة تستحق الإعجاب والإكبار، وكان في دمشق سفير مصري من الدهاة، وهو ضابط قديم وأعني به: محمود رياض الذي ما يزال حياً يرزق، وأخذ الرجل يتصل بضباط الجيش وبالمدنيين في دمشق وبمن لا علاقة له بمثل هذه الأحداث، وكان حديثه يدور حول الوحدة مع مصر، أو الاتحاد معها، لتكوين دولة قوية تحيط بإسرائيل وتحبط مكائدها ومؤامراتها وتنهي القضية الفلسطينية إنهاءً عادلاً موفقاً.

كان أهم سبب في نظري لتحقيق الوحدة هو الإعجاب الشديد بعبد الناصر وبالأعمال التي حققها من تحرير مصر وتأميم القناة والإصلاح الزراعي والعقاري دون أن يسفك نقطة دم واحدة، وتأتي بعد ذلك فكرة أخرى بين الأسباب هي أن الفئات المختلفة في سوريا وجدت أن الخلاص من التناحر والتنابذ بين الفئات والأحزاب المتخالفة هنا، هو بالاستناد إلى شخصية قوية كشخصية عبد الناصر الشاب المناضل الموفق العربي والذي يحوي كل الصفات المؤهلة للزعامة ولقيادة الأمة العربية. وكان أهم المستعجلين في تحقيق الوحدة، المدنيون الذين كانوا يسعون إلى الخلاص من تدخل الضباط بالحكم وتسلطهم عليهم، وقد وجدوا الفرصة المناسبة الآن في سعيهم إلى الوحدة مع مصر لتسليم الأمر كله إلى رجل متفق عليه هو جمال عبد الناصر. ولقد وجد من يعارض هذه الفكرة ولكن المعارضة كانت ضعيفة فلم تستطع عمل شيء، لقد عارضها السيد خالد العظم وكان رئيساً للوزراء، كما أظن، وعارضها الحزب الشيوعي حتى إن سكرتير الحزب خالد بكداش ترك دمشق ولم يعد يُرى بعد ذلك طوال أيام الوحدة، أما خالد العظم فأذعن بعد أخذ وردّ، ولكنه بقي عند فكرته المخالفة ولم يتبدل.

كانت المعارضة ضعيفة لكنها تركت أثراً واضحاً في فكرة الوحدة، والحقيقة أن تقرير الوحدة كان مستعجلاً ولم يكن مدروساً الدراسة الكافية، والحياة السياسية في هذه البلاد تعرضت في مناسبات عدة إلى «ارتجالات» كانت من أشد الأحداث إضراراً بها وإساءة إليها. وفكرة الوحدة عند الكثيرين، وأنا من مؤيدي هذه الفكرة، لا يمكن أن تكون بين البلاد العربية على الصورة التي صارت عليها مع مصر. إن الشعب العربي شعب واحد في الأصل، ولكنه أصبح غير واحد بعد أحداث التاريخ التي تعاقبت وبعد أن دخلت فيه عناصر مختلفة من الأصول الأخرى، والسوري والمصري لا يشبه أحدهما الآخر إلا في اللسان وكذلك العراقي، والشعب الذي يمكن أن يأتلف ويشكل دولة واحدة، فيما أرى، هو الشعب الذي يمكن أن يتألف من: السوريين واللبنانيين والفلسطينيين والأردنيين، هذه العناصر الأربعة متشابهة في الطباع واللغة والبيئة مع بعض الفروق الطفيفة التي لا تحول دون تحقيق الوحدة، وإلا فما الذي يجمعني بالمغربي أو الجزائري أو الليبي وكل شيء عندي مخالف لما عنده، وكيف اجتمع مع الكويتي والعماني، إن

الأصل العربي وحده غير كاف لتحقيق الوحدة وهذه هي الفكرة التي لجأت إليها المعارضة والتي ثبتت بعد أن فشلت هذه الوحدة فشلاً ذريعاً في أيلول من عام ١٩٦١، وهناك سبب كان ذا تأثير كبير في فشل الوحدة هو الوضع الجغرافي، فكيف توحد بلداً مع بلد آخر وبينهما فاصل يشكل بلداً ثالثاً، وهذا البلد الثالث هو إسرائيل العدو اللدود الذي يحاول عرقلة كل شيء لجعل هذه الوحدة غير طبيعية. لقد كانت الوحدة مرتجلة، وقد نظرت إلى ما يجمع البلدين من أصل ولغة ولكنها لم تنظر إلى ما يفرقهما، فالمصري لا يشبه السوري، لا في الشكل ولا الحياة الخاصة ولا الثقافة، ودليلي على هذا أن زيارة المصريين في بلدنا وخلال أيام الوحدة التي دامت سنوات لم تجعل من الشعبين شعباً واحداً، وقد روي لي أن الجنود المصريين في الثكنات السورية كانوا لا يختلطون بالجنود السوريين، وكان هناك تناظر وتناقش غير خافيين، يضاف إلى ذلك أن كثرة كاثرة من المصريين كانوا يعتقدون أو هكذا أوحي إليهم أنهم استولوا على سوريا استيلاءً، وأن الوحدة تمت بالرغم من السوريين.

ولقد انتهت هذه الوحدة التي كانت أملاً عزيزاً ارتجالاً كما بدأت ارتجالاً، وكان بطلها صديقنا حيدر الكزبري الذي كان ضابطاً صغيراً في الجيش، كما كانت أكثرية الناس في دمشق مرحبين بهذه النتيجة المهزلة لأن إخوتنا المصريين ومن تسلم الحكم معهم من السوريين، لم يحسنوا التصرف، وكان في الشام يومها الرجل الأول في الإقليم الشمالي «سورية» المشير عبد الحكيم عامر الذي انهار ولم يقم بأي مقاومة تذكر، فقد كان لاهياً بأمور أخرى كانت لا تسفر عن شيء، كما كانت الخلافات قد دبت بينه وبين رجال الوحدة من السوريين في سوريا، ورأينا في اليوم الثاني المجلس النيابي القديم يعود للاجتماع لتدبير حكومة جديدة، كان من البارزين فيها السيد مأمون الكزبري كما كان قائد الجيش فيها الفريق الجديد عبد الكريم زهر الدين.

بعد يوم أو يومين من أيام مهرجان دمشق الذي حدث في أيلول ١٩٦١، أي قبل انتهاء الوحدة بأيام، في هذه الفترة وهذه المناسبة جمعتني الصدفة مع الشاعر أحمد رامي والشاعر الآخر صالح جودت مدير مجلة الهلال وما يتبعها، وكان واسطة التعارف والاجتماع الشاعر المرحوم أمين نخلة، وفي أول اجتماع طلب مني أمين نخله أن أسمع الشاعرين المصريين أبياتاً كان أعجب بها هو ولفتت نظره وتحدث عنها، وكان في كل مرة يراني مع جماعة من الأدباء يطلب هذه الأبيات مني لأسمعهم إياها، أما الأبيات فتقول:

أنا الذي عشت بوهمي فما ... أعرف غير الوهم لي موطنا
لي من شبابي ضحكة نوّرت ... صحبي وفي قلبي يموت السنا
وسرت في دربي لم يدر بي ... على شقاء العيش إلا أنا
يا شقوة الإحساس مما أرى ... ويا ضلال الروح أين المنى
يتبعني الحرمان أنى مشت ... عيني وأنى أبلغ المنحنى
كأنما عمري أنشودة ... أخطأ فيها اللحن من لحنا

وقد أعجب الشاعران إعجاباً كبيراً بهذه الأبيات واستعاداها مني وكتباها وقرآها لمن يعرفان من أدباء المهرجان، وكانت هذه الأبيات قد نظمتها منذ سنين في حلب وقد سألت عن صديقي الشاعر أبي ريشه فلم أجده في حلب فقضيت ليلة عزلاء محزنة مؤلمة لأني كنت وحدي لا أنيس ولا جليس فجاءتني هذه الأبيات، أما السهرة التي أقصدها فقد دعوت رامي وجودت إلى جلسة ليلية واتفقنا على الموعد وجئت إليهما فاصطحبتهما إلى النادي العائلي بباب توما، ودخلنا النادي فاحتفل بنا أهل النادي الذين يعرفونني جيداً وبخاصة الشاعر الحمصي السيد وجيه الخوري الذي كان - رحمه الله - صديقاً قديماً وأوصى بنا العاملين في النادي فزادوا من عنايتهم ومن إكرامهم، وهناك لقينا الصديق القديم الدكتور الشاعر عزت طباع، ومعه صديقه السيد منير الفقري المهندس وقد جلسنا جميعاً، وكانت ليلة من أجمل الليالي، تلك كانت ليلة السابع والعشرين من أيلول، وفي يوم ٢٨ منه وقعت كارثة انتهاء الوحدة فسافر الشاعران ولم أرهما بعد ذلك، ولقد أسمعنا أحمد رامي يومها الكثير من شعره وأحاديثه الطلية، كما روى لنا الكثير من النكات المصرية التي لم نسمع بها من قبل.

كنت ما أزال رئيساً لديوان محافظة الشام ـ كما قلت ـ وكان وزير الداخلية عبد الحميد السراج الذي كان صديقاً قديماً لي من أيام حماه إذ كنت أعرف والده وأخاه رشيد الذي كانت دكانه على طريقنا في روحاتنا وجيئتنا إلى بيت الحريري، كما عرفت عبد الحميد حين كان مديراً لمستودع الميرة في قرية السعن التي كانت تابعة لسلمية وكان مديرها يومئذ قريبنا الأمير علي سليمان؛ كان المحافظ في محافظة الريف بدمشق ما يزال السيد رشدي الحامد الذي احتفل احتفالاً كبيراً بالوحدة التي كانت محط أنظار السوريين جميعاً، وفي يوم من الأيام أرسل إليّ السراج في وزارة الداخلية فذهبت اليه، وكان ينوي شيئاً بالنسبة للمحافظ السيد حامد، وما كدت أجلس حتى سألني: ما رأيك بالمحافظ رشدي الحامد؟ ولم أتلكأ فقلت له بالنسبة إليّ لا بأس به، ولكني أنا شخصياً لا أعرف عنه شيئاً ولا علاقة بيني وبينه إلا المعاملات الرسمية، وكان هذا صحيحاً، كما كان ديدني في العلاقات مع المحافظين الكثر الذين عملت معهم في المحافظات الأخرى، ونظر إليّ نظرة خبيثة وقال: أنت لا تعرف رشدي الحامد، أنت أول من يعرفه، وكررت كلامي، وانتهى الحديث بسكوت منه واعتذرت وخرجت إلى المحافظة ودخلت على السيد المحافظ وقلت له: هيء أوراقك إنك موف على نقلة أو أي شيء آخر، ولكنك لن تبقى في هذه المحافظة طويلاً، وكان الأمر كذلك فقد نقل الحامد بعد هذه المقابلة بأيام قليلة.

كنت قلت إن كلمة «درك» ألغيت منذ الوحدة ووضع محلها كلمة: شرطة، وأصبح قائد شرطة دمشق معاوناً لمحافظ دمشق وهو الذي يتولى عنه الوكالة في حال غيابه أو شغور وظيفته، وعلى هذا وبعد أيام ذهب السيد رشدي الحامد وعين بدلاً منه بالوكالة العقيد عبد المجيد النجار. وهذا العقيد من قرية دير عطية ومن عائلة معروفة، وكانت بينه وبين عبد المجيد السراج صداقة كما قيل لي، كانت من أسباب هذه الوكالة، وحين جاء العقيد رأى كل شيء في المحافظة من معاملات وغيره يختلف تماماً عما يفعله الشرطة في معاملاتهم وحتى المصطلحات المستعملة كانت في المحافظة غيرها في الشرطة ولم تعجبه هذه الحالة، ومن هنا بدأ الخلاف بينه وبين موظفي المحافظة حتى انه عمل على نقل معاون رئيس الديوان «أي معاوني» إلى مقر ثكنة الشرطة في القلعة ليتدرب على معاملات الشرطة مع أن الأمر كان يمكن تسويته بشكل أسهل من هذا الشكل خاصة وأن المعاون لم يكن من أولئك الموظفين الذين يعملون بسرعة بل كان مهذباً جداً، ولكنه لم يكن يميل إلى تسيير المعاملات وكان يكتفي بحل بعض الأمور الإدارية مثل حضور المناقصات وغير ذلك، وهو ابن عم السيد شكري القوتلي واسمه: أنور القوتلي. أمّا العقيد فقد كان عصبي المزاج كثير الانتفاض والحنق ولا يعجبه شيء ولا يبتسم إلا في المناسبات النادرة وقد تبدل الوضع معنا كلنا، لقد كان رشدي الحامد يسير الأمور دون أن يختلف مع أحد من الديوان حتى لتكاد المعاملات تتمشى من نفسها، أما العقيد فهو يريد أن تسير الأمور على طريقة جديدة لم نعتد عليها، لقد كان صعباً، ولكنه كان من ناحية أخرى طيب القلب وكل شيء سهل لدى الموظف إلا عصبية الآمر والرئيس، هذه العصبية التي لا يهنأ العيش معها ولا العمل، لذلك قضينا قرابة السنة في أخذ ورد وصراخ واجتماع حتى كدنا جميعاً نطلب انتقالنا من هذه المحافظة إلى غيرها. ولكن وقعت حادثة سهلت علينا المهمة وأنقذت الموقف.

دعي العقيد النجار عند المرحوم فؤاد الشايب الأديب والموظف الإعلامي المعروف ودعي معه الأمير يحيى الشهابي الذي كان مديراً للإذاعة السورية كما كان مديراً للبرامج فيها، وفي معلولا مدت الموائد وفيها من الطعام والشراب ما جعل المدعوين يكثرون من الأكل والشراب، ونزل المدعوون آخر الليل أو عند أذان الصبح، فسمع العقيد المؤذن يكرر من الأناشيد في جامع بُنِيَ حديثاً في معلولا البلدة المسيحية مئة بالمئة، ويبدو أن صوت المؤذن لم يعجبه وأنه لا إسلام في القرية إلا العابرون الذين يمرون بمعلولا ولا يفيد المسيحيون من هذا الجامع إلا سماع الأذان والاستيقاظ قبل الأوان، وأراد العقيد من المؤذن أن يخفف من صراخه، ويبدو أن المؤذن كان يريد أن يثبت وجوده كما ينبغي فلم يمتثل لأمر العقيد الذي كان هو المحافظ بالوكالة ومعلولا تابعة له حكماً، وعمد العقيد حين أعياه المؤذن أن يوجه إليه لفحاً جارحاً، وهنا قامت القيامة وفار التنور وقام المشايخ يحتجون وكذلك أهالي القرى المحيطة بمعلولا من المسلمين، ورأيت المحافظ في اليوم الثاني وقد اهتم للأمر كثيراً، وكنت صديقاً للمرحوم الشيخ أحمد الدقر

وهو من المشايخ البارزين في البلدة، وكذلك كنت صديقاً للمرحوم محمد المحمود الدياب الذي كان نائباً في المجلس النيابي، وغضب وزير الداخلية وكثير من أقطاب الحكومة ولولا بعض المداخلات لكان التسريح من نصيب العقيد، ولكنه اكتفى بأن نقل إلى محافظة السويداء محافظاً بالوكالة أيضاً، بعد أن رفع عميداً في الشرطة وانتهت وكالة صاحبنا النجار بعد أن تعب وأتعبنا وهو ما يزال صديقي وله مشاركة لا بأس بها بنظم الشعر من حين لآخر، وهذه قوّت الرابطة بيني وبينه بعد أن أصاب صداقتنا الخلل أيام المحافظة بسبب عصبيته وبرودتي، ولا أكتم أنه طيب القلب وإن كان عصبي المزاج أحياناً.

بعد العقيد النجار جاءنا محافظ أصيل هو الصديق السيد يحيى علي أديب، وقد كان محافظاً في السويداء المكان الذي انتقل إليه العقيد، والمحافظ الجديد من عائلة كبيرة شهيرة بغناها ورجالها الذين عملوا في الحقل السياسي وأشهرهم جمال علي أديب الذي كان قطباً من أقطاب الكتلة، ورياض علي أديب الذي كان نائباً مرات عديدة، ورشاد علي أديب الذي كان أديباً وشاعراً، ونذير علي أديب الذي كان قاضياً، ويسين علي أديب الذي كان صديقاً لي أيام دراستي الأولى في معهد الحقوق /١٩٣١/. وكان يحيى علي أديب يعرفني معرفة جيدة ويعرف شخصيتي تماماً وحين سلمت عليه استقبلني بوقار وجد استغربته، فالذي بيني وبين عائلته أسمى من الوظيفة وأعلى، ولم أفكر في هذا الأمر طويلاً لأني أيقنت أنه هناك دسائس حول شخصي وأن أناساً قد حذروه مني، مع أني كنت ـ ولا أمدح نفسي كمادح نفسه ـ محبوباً ومحترماً من الجميع حتى أن عبد الحميد السراج الذي كان الموظفون يرهبونه ويخافون غضبه كان يقول: أنا لا أفكر في محافظة اللواء ما دام فيها أحمد الجندي، وكنت أسنّ من يحيى أديب بسنوات كثيرة وقدرت أن يكون صديقاً، فخيب ظني حين وجدته يلتزم جانب الرسميات ويعاملني كموظف في معيته. ولكنه ورغم هذا الموقف الجاد كان رجلاً طيباً، وكان يحدثني أحياناً بحديث الشعر والأدب إذ كان راوية للشعر وخاصة شعر البدوي وغيره من شعراء منطقة اللاذقية، كما كان يضحك أحياناً بتحفظ، ولكني لم أتفق وإياه على العمل فقد كنت أكتب له الكتاب فيقرأه ويسألني ويعترض فأقول له: حسناً، اكتبه أنت، ولكنه يعود فيكلفني أن أكتبه ثانية، فأكتبه فيتردد، وأخيراً يكتبه هو، فإذا المكتوب نفس الذي كتبته أنا أول وثاني مرة. هذه الحالة أذهبت قابليتي وجعلتني أضيق بعشرة المحافظين، فكلهم كما بدا لي بعد أن عاشرت منهم سبعة وعشرين محافظاً، لا يثقون بالموظفين في دوائرهم لكي يحفظوا مقامهم أو شخصياتهم التي يخافون عليها من الزعزعة والهلهلة كما حدثني المرحوم الفنان والصديق نصوح الكيلاني: كان نصوح الكيلاني رئيساً لديوان النقض، «التمييز سابقاً»، وكان رئيس التمييز للغرفة الحقوقية القاضي الكبير مصطفى برمدة قال لي: كان مصطفى بك لا يبتسم مطلقاً، ولم نره أطلق فكاهة أو مزحة ما خلال أربعة عشر عاماً قضيتها في رئاسة ديوان التمييز وبمعيته، وكان إذا دعانا يدعونا في شهر رمضان من كل عام، ويدعو الديوان معي ولكن لا بد أن يدعو معنا أحد أعضاء المحكمة، فكان أثناء العشاء يتحدث أكثر الوقت مع العضو ولا يحدثنا إلا نادراً، وكنا نحن بطبيعة الحال نحدثه عن طريق العضو لأن الفارق بعيد بين صنف الكتاب والرئاسة، ولقد خاطبت فيما مضى أحد المحافظين الجادين، وقد طلب تأديبي بكتاب أرسله إلى الوزارة لأنني ذهبت إلى دمشق لأكمل فحص الحقوق الشفهي بعد أن حصلت على تقرير طبي، ولكن كتابه للوزارة كان نصيبه التقطيع، قلت للمحافظ:

أطلب تأديبي وما تدري   أني من الديوان كالبدر

وهكذا طالت المسألة بيني وبين المحافظ السيد يحيى علي أديب إلى أن حدث شيء جديد.

كنت قد ضقت ذرعاً بحياتي في محافظة دمشق، ودخلت يوماً مقهى الروضة الذي كنت أرتاده بين حين وآخر فوجدت صديقاً من أصدقائي ورأيته يناديني ويقول: لقد شغرت رئاسة الديوان في المجمع فاطلب هذه الوظيفة فهي تناسبك جداً، لقد مات يسين الخانجي رئيس الديوان؟ فقلت له: إن هذه الوظيفة ليست لي، إنها خاصة بأهل دمشق، وتركته ولم أعبأ بالمسألة كثيراً، ولكنها لم تبرح بالي فهي وظيفة علمية ومريحة تريحني من هذه الاستدعاءات والعرائض التي تتكدّس يومياً على طاولتي، كما تنقذني من مراجعات الناس وأكثرهم من الثقلاء وتبعدني عن كبرياء المحافظين الذين لا تريح عشرتهم.

بعد يومين أو ثلاثة يأتيني هاتف من الأمير جعفر الحسني الجزائري وكان أميناً عاماً للمجمع وقال لي بالحرف الواحد: إننا محتاجون إليك يا أستاذ أحمد لوظيفة رئيس ديوان مجمع اللغة العربية فلا تخيب ظننا فيك، وقلت له: أشكرك يا أمير ولكن، هل هذه الوظيفة يمكن ان تكون لي ولها راغبون كثيرون من أصحاب الالتماس والحظوة، وقال: أنت أفضل الجميع، وقد وقع عليك الاختيار في المجمع مني ومن الأمير مصطفى الشهابي رئيس المجمع ويمكنك أن تقابله غداً في داره الساعة الرابعة بعد الظهر، ثم دلني على داره القريبة من داري قرباً كبيراً. وذهبت في اليوم الثاني وكان الموعد صعباً عليّ لا سيما في شهر حزيران، وأنا أعرف عن الأمير أنه جاد لا يتكلم إلا بمقدار، ورأيه الرأي فلا يرجع عنه، ودخلت على الأمير في الوقت المحدد فوجدته وراء مكتبه في بيته وكأنه في دائرة رسمية وبادهته بقولي: يقولون يا أمير بدىء الشعر بملك وختم بملك وهم يعنون امرأ القيس وأبا فراس الحمداني، وهنا أرجو أن أبدأ بأمير وانتهي بأمير فقد عينت في الوظيفة لأول مرة عن طريق الأمير بهجت الشهابي ـ رحمه الله ـ وأرجو أن تكون نهاية وظيفتي على يديكم يا أمير، وابتسم لي قليلاً وقدم لي قطعة من السكر فاستأذنت وخرجت، واتصلت في اليوم الثاني بالأمير جعفر فطمأنني الى نتيجة المقابلة وقال لي خذ موافقة المحافظ ثم وزارة الداخلية وعلينا الباقي، وفي اليوم التالي دخلت على المحافظ السيد يحيى علي أديب وعرضت عليه الفكرة ومعي العريضة بطلب النقل فوافق عليها ولم يتردد، فأدركت أنه يريد أن أنتقل من عنده أو أنه لم يعارض، ولست أعلم لأي سبب، وصعدت إلى وزارة الداخلية واتصلت بالموظفين هناك لكي يعرضوا الأمر على الوزير السراج، ولكن أحداً منهم لم يجرؤ على ذلك وقلت لأحدهم: أليس من عادة الوزير أن يخرج من غرفته إلى الحمام؟ فقال لي أحدهم: بلى، إنه يخرج أكثر من مرة، ووقفت أنتظر في البهو الكبير وخرج السراج وحين رآني ابتسم لي فتقدمت وسلمت وقال: لِمَ تريد أن تتركنا، ولكن الحقيقة أن هذه الوظيفة الجديدة أنسب الوظائف لك وقد وافقت على طلبك وهو في الديوان، وأخذت المعاملة إلى الأمير فأرسلت المعاملة من المجمع إلى ديوان المحاسبات للموافقة عليها من الناحية المالية والقانونية ورحت أنتظر وأنتظر، وأتصل بالأمير فيجيبني بأن القضية في المالية ومضى ما يقرب من شهر وذهبت إلى ديوان المحاسبات وأخذنا نبحث عن المعاملة فإذا هي محفوظة عند شخص أعرفه كان موظفاً في ديوان المحاسبات، لقد عرفت الرجل فقد كان أبوه في الماضي البعيد مديراً للمدرسة الابتدائية في سلمية أثناء الحرب العالمية الأولى، وكنت أعرف أخوته وأهله جميعاً، ولكن شكله لم يعجبني وأجابني بجفاف ظاهر بقوله: تنتهي المعاملة قريباً، ولكن القريب عنده كان بعيداً وحاولت معه فلم أستفد فعلمت أن في الأمر سراً، وكنت أعرف رئيسه السيد مصطفى الشماع فأوعز إليه بإرسال المعاملة وهكذا خرجت من يديه وسلمت لعضو في ديوان المحاسبات من ذوي الأخلاق الفاضلة وأصحاب الدين وهو السيد الشالاتي وقد أصبحت صديقاً له فيما بعد، ولكنا صدمنا بمسألة جديدة هي أن وظيفة رئيس ديوان المجمع كانت من وظائف الاختصاص، ولا أدري لأي سبب كان لا يحق لي أن أنتقل اليها، وعرض الأمر على السيد الشالاتي فقال: إذن نوافق على نقلك إلى رئاسة ديوان المكتبة الظاهرية التابعة للمجمع ومن هناك يتخذ قرار بنقلك برتبتك وراتبك إلى رئاسة ديوان المجمع وهكذا كان، وقد اتخذ القرار بهذا وأخذته إلى وزارة التعليم العالي التي كان المجمع مرتبطاً بها لتوقيع الوزير، وفيها وجدت السيد أمجد الطرابلسي الصديق والشاعر وأخا الصديق المرحوم أنور الطرابلسي الرياضي الذكي الذي توفي غدراً مقتولاً في حلب من قبل أحد الجنود الأستراليين المجرمين أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث كان يقوم بتدريس الرياضيات، ووقع القرار وعدت أحمله إلى دار الكتب الظاهرية وكان رئيسها بالوكالة المرحوم الصديق عمر رضى كحالة صاحب المؤلفات والمعاجم المعروفة ومكثتُ في الظاهرية يوماً واحداً نقلت بعده إلى وظيفتي التي كانت الغاية في رئاسة ديوان المجمع، وهكذا تم هذا النقل وباشرت عملي بتاريخ ٢٠/ حزيران/ ١٩٦٠ بعد أن عملت في وزارة الداخلية أربعاً وعشرين سنة.

هذا رجل ليس مريضاً ولا صحيحاً، وهو من أعاجيب المخلوقات، يفكر تفكيراً خاصاً قد لا ينطبق على القواعد والأصول وينفذ ما يخطر على فكره مهما كان غريباً أو شاذاً، كما صنع بمعاملة النقل فقد كان

يضمر أن ينتقل إلى الوظيفة التي أنا أطلبها، هكذا غيرة وسوء تفكير وخبأ المعاملة وهو موظف مسؤول عنها ولولا الإجبار لما أفصح عنها. ولما علم بوجود وظيفة رئيس ديوان في دار الكتب ذهب إلى قريبه المرحوم سامي السراج الكاتب الصحفي المعروف فصحبه إلى رئيس المجمع صديقه منذ أيام مصر ووسّط قريبه ليُقبل في الوظيفة، وكان الأمر، وحين سئلت عنه وافقت على انتقاله للوظيفة على أنني كنت أعلم أنه هو الذي أخّر معاملتي غيرة وحسداً. وانتقل إلى دار الكتب فانتقلت معه كل المشاكل والعقد التي يحملها، لقد بدأ بالخلافات مع الموظفين والموظفات وبدأ بكتابة العرائض والإخباريات ضد الموظفين وبخاصة الأمين العام الأمير جعفر الذي لم يعرف عنه شيئاً والذي لم يقدم له أية إساءة، واتهم أعضاء المجلس بتناول تعويضات زائدة عن الحد القانوني، وذلك غير صحيح، إلى أن أوقع نفسه بنفسه في مشكلة، فقد قدم استقالته يريد فيها أن يجرب إن كانت تقبل أم لا؟ وقد قبلت على الفور لأن المجمع كله كان ضيقاً به زاهداً في عشرة رجل لا يعرف قيمة لا للصداقة ولا للعداوة فهو يفكر كالإنسان الآلي ويسير وكأنه بلا وعي، خطب فتاة من أسرة معروفة واختلف معها لأنها خرجت دون غطاء على الرأس وكان يقدم لها الضيافة من البذر والقضامة إلى أن اضطرت إلى فسخ خطوبتها منه، وما زال حتى الآن وقد بلغ حوالي الستين من العمر دون زواج، وقد يأتي إليّ في البيت هذت الأيام وكأنه نسي إساءاته للجميع والتي شركني بها دون أن تكون لي بها علاقة، بحيث لم يسلم منه أحد في كل المجمع ومن شكاواه التي لا تنتهي، وتراه إلى اليوم يأتي إليّ في كانون الثاني وفي أيام الثلج بلا معطف ولا شيء من اللباس الصوفي، ويأتي وهو مبلل وأقول له حين أراه: سبحان من خلقك وسواك إن هذا البرد ليؤذي الفيل، فكيف لا يؤذيك لعلنا نخلص منك، ويبتسم بنصف فمه ويطرق في الأرض ثم يضحك مقهقهاً ولا يجيب، ولو نظرت إليه وقد درست القانون الجنائي لوجدت فيه كل صفات الإنسان الجنائي التي وضعها العلماء الإيطاليون (كاروفالو، لومبروزو، فيري) فجبهته وجمجمته وعيناه كلها تعطي صفات الإنسان الجنائي الذي له استعداد للقتل والإجرام. وهو الآن يعيش في حمص وفي بيت منعزل لا يشاركه فيه أحد، أما كيف يأكل وكيف ينام وكيف يغتسل، فهذه كلها ألغاز لم تحل حتى الآن. وهو ينظم الشعر ولكنه مثابر على الخطأ في الوزن والقافية والنحو واللغة، ومع ذلك فهو يقرأ لك شعره بلهجة حافظ ابراهيم، وإذا صحّحت له خطأً في القصيدة اعترض عليك بشدة، وقد اشترك هذا العام بقصيدة أرسلها إلى إذاعة لندن (المسابقة الشعرية وسألته عنها حين زارني منذ مدة فشتم الإذاعة واللجنة المحكمة التي لم تقدر عبقريته. إنه إنسان خطر ومن المعقول أن لا يتصل به إنسان.

٣٩ في مجمع اللغة العربية

وصلت إلى المجمع كما يصل السابح الخائف إلى الشاطىء الأمين، لقد وجدت الأمير جعفر ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ يرحب بي وقد سلّمني غرفة واسعة شاسعة إلى جوار غرفته مع طاولة أنيقة كبيرة ومكتبة تحوي أكثر المراجع كانت ورائي، وأهداني على الفور مطبوعات المجمع الموجودة وبعض سنوات مجلته، كما كلفني بالردود على المقالات والتعليق على المطبوعات التي ترد إلى المجمع لينشر ما أكتبه في مجلته وأن أتقاضى عن ذلك مكافأة كانت مفيدة تلك الأيام، كما سلمني دفتر الضبط للجنة اجتماعات الأعضاء التي تعقد كل شهر مرة، وكان الأمير ـ رحمه الله ـ مسنّاً، فقد كان في الخامسة والستين حين جئت إلى المجمع كما كان الأمير مصطفى الرئيس بهذه السن أيضاً، وكان أعضاء المجمع:

١ ـ الأستاذ عز الدين التنوخي، العالم الأزهري واللغوي المعروف.
٢ ـ الأستاذ عارف النكدي، المفتش القضائي القديم والأديب الذواقة الراوية.
٣ ـ الأستاذ صلاح الدين الكواكبي، الصيدلي والعالم الكيمياوي.
٤ ـ الأستاذ أسعد الحكيم، وهو أكبر الأعضاء سناً والطبيب المعروف.
٥ ـ الأستاذ حسني سبح، الطبيب المعروف ورئيس الجامعة السابق.
٦ ـ الأستاذ الشيخ بهجت البيطار، العالم الديني المعروف.
٧ ـ الأستاذ الدكتور سامي الدهان، الدكتور في الآداب من فرنسا.
٨ ـ الأستاذ الدكتور كامل عياد، الدكتور في الفلسفة.
٩ ـ الأستاذ الدكتور جميل صليبا، الدكتور في الفلسفة.
١٠ ـ الأستاذ الدكتور الجراح مرشد خاطر.
١١ ـ الأستاذ الشاعر شفيق جبري.
١٢ ـ الأستاذ الدكتور عدنان الخطيب.
١٣ ـ الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي.
١٤ ـ الأستاذ الدكتور حكمت هاشم.
١٥ ـ الأستاذ الأمير جعفر الحسني الجزائري.
١٦ ـ الأستاذ الدكتور جورج خوري.
١٧ ـ الدكتور شكري فيصل.

قد أكون نسيت اسماً أو اسمين فإن عدد الأعضاء العاملين عشرون، ولكنهم لم يكتملوا إلا نادراً إذ أن المقاعد تخلو دائماً بالوفاة ثم ينتظر حتى ينتخب غيرهم، وهناك الأعضاء ـ المراسلون وهم كثيرون من كل الأقطار وينتخبون ممن يشتغلون باللغة العربية وما يتعلق بها، أما العضو العامل فهو الذي يحضر جلسات المجمع ويشترط فيه أن يكون سورياً وساكناً في دمشق أو يستطيع المجيء إلى دمشق حين انعقاد الجلسة. كنت أنظم الضبط وأحضر الجلسة مع الأعضاء وكان قبلي يكتب الضبط ويحضر الجلسات الأمير جعفر ـ رحمه الله ـ ولكتابة الضبط قصة، فقد كان المرحوم عمر رضى كحالة وكيلاً لمديرية دار الكتب وكان خبيراً بالكتب والمخطوطات، وقد صنع عدة كتب ومعاجم ولكنه لم يكن متعلماً علماً رسمياً، أي لم يحصّل علمه في المدارس بل من دراساته الشخصية، وقد كان أول أمره تاجراً كما كان أخوته تجاراً معروفين وقد أراد أو فكر في أن يكون عضواً في المجمع ولكن معاكسات كثيرة منعت ذلك عنه، من ذلك أنه كان على خلاف مع السيد الخانجي الذي كان رئيساً لديوان المجمع والذي كان صهراً للأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع، فقد كان هذا الرجل غير متعلم ولكنه كان داهية في تدبير أمور المجمع على هواه، وكان مدعوماً من عمه أبي زوجته الكرد علي، فكان عمر كحالة يقول لي: أنا منعت من العضوية

لأني لا أحمل شهادة وأنت ـ وهو يخاطبني ـ منعت من العضوية بسبب كتابة الضبط. ولقد كان أقرب الناس إليّ الأمير جعفر الذي كان يعتبرني ولداً له، والذي لم يحرجني في شيء من عملي خلال عشر سنوات قضيتها إلى جانبه، لقد سلمني المجلة وكتابة الضبط في الجلسات وتدبير المجلس في كل ما يلزمه وأشار عليّ بتحقيق بعض الكتب فأخذت كثيراً من الخبرة العلمية وحققت عدداً من الكتب هي:

١ ـ ديوان ابن النقيب بالاشتراك مع الأستاذ الجبوري العراقي.

٢ ـ كتاب الإعرابيات للمرحوم خليل مردم بك رئيس المجمع السابق بالاشتراك مع عدنان مردم ولده.

٣ ـ كتاب جمهرة المغنين لخليل مردم بك أيضاً وبالاشتراك مع ولده عدنان.

٤ ـ ديوان فتيان الشاغوري.

٥ ـ قطب السرور في أوصاف الخمور.

٦ ـ ديوان عرقلة الكلبي.

٧ ـ تتمة تاريخ المجمع الذي بدأه المرحوم أحمد الفتيح الذي كان رئيساً لديوان المجمع، ولم أضع اسمي عليه.

كل ذلك كان بتوجيه من المرحوم الأمير جعفر. كان الأمير جعفر يتقن اللغة الفرنسية لأنه درس في فرنسا وفي معهد اللوفر للآثار، وقد حقق بعض الكتب، لكنه كان يشكو دائماً من اعتلال في صحته إذ كان مصاباً بالسكر. وقد كان طوال هذه المدة يعمل في بطاقات ينظمها لمعجم أسماه «معجم الأماكن»، ولكن هذا المشروع الضخم ضاع بعد أن مات الأمير، وقد حاولت أنا وغمر كحالة أن نحييه ونكمل هذا المعجم ولكن معاكسات ظهرت لنا منعتنا من إنجازه ولا أدري ما صنع الله به بعد أن تركت المعجم أنا وعمر ـ رحمه الله ـ وبينما كنت في استامبول عام ١٩٧٠ مرض الأمير ونقل إلى المشفى الفرنسي ولكنه لم يستطع احتمال صدمة المرض هذه المرة وتوفي وهو يسأل عني، لقد حزنت على الأمير ـ رحمه الله ـ حزناً شديداً لأنه كان سندي ومعتمدي كما كان السبب الأول في نقلتي إلى المجمع التي غيرت الكثير من نهج حياتي وساعدتني في الكتابة والتحقيق والتأليف. والأمير جعفر هو ابن الأمير طاهر بن الأمير أحمد الذي هو ابن أخي الأمير عبد القادر البطل الجزائري التاريخي. أما الشخص الثاني الذي خلطته بنفسي فهو السيد عارف النكدي وهو من العائلة الدرزية الوجيهة المعروفة وموطنها بلدة «عبَيّ» في لبنان، ويقال إن أصل العائلة من المغرب وانها من قبيلة تسمى «أبو نقد»، والأسر الدرزية في لبنان أربع هي: آل أرسلان وهم الأمراء التنوخيون وأسرة جنبلاط وأصلهم كردي أو تركي، وقد جاءوا من شمال القطر إلى لبنان وكان اسم جدهم «جانبولاد»، والأسرة الثالثة آل نكد والرابعة آل حمادة، هذه العائلات الأربع هي العائلات الوجيهة بين الدروز يتبعها عائلات أقل منها وجاهة مثل: آل عماد، آل تامر الدين، آل تلحوق،... الخ. كان الأستاذ النكدي مهاب الطلعة ضخم الجسم يمشي مشية الشباب مع أنه كان في سن الستين يوم جئت إلى المجمع، وكانت سنه حين توفي في السابعة والثمانين، لقد كان أديباً وراوية ولكنه لم يكتب إلا قليلاً، ولقد عمل أكثر حياته في تفتيش القضاة فكان المفتش المهاب في الدولة لا بل كان المخيف لأنه لم يكن يعرف في الحق لومة لائم، وقد عين في المدة الأخيرة محافظاً لجبل الدروز كما تسلم مديرية الإعاشة أثناء الحرب العالمية الثانية، كان يحفظ الشعر ويحسن اللغة العربية ويعرف اللغة الفرنسية ولكنه لم يحمل شهادة عالية، وقد زرته في قرية «عبيّ» فرأيت الوجاهة كلها بعيني، الناس يجتمعون إليه كزعيم معترف به ومحترم من الجميع، وقد رافقني فزرت معه عدداً من أصحابه، كما زرت بعض الآثار في القرية، وقد كان أسس مدرسة كبيرة تولى هو إدارتها والإشراف عليها وكان يجمع الأموال من الطائفة الدرزية وغيرها لتسوية أمور هذه المدرسة المالية. وقد تزوج بعد أن كبر، ومن الغريب أنه خطب في شبابه شابة من المنطقة ولم تتم أمور الزواج فتزوجت غيره وبعد سنين خطب ابنتها وتزوجها وقد ولدت له ذكراً وفتاة، وحدثت للأستاذ النكدي حادثة مفجعة في اخريات أيامه فقد ذهبت ابنته وأخوها في سيارتهما إلى بيروت فوقع لهما حادث ذهبت الابنة ضحيته، وقد رأيته بعد وهلة في المجمع فرأيت الحزن يكاد يقصم

ظهره ويمنعه من الكلام، وحين لقيته كنت متأثراً جداً، وحرت ماذا أقول له ولكني تذكرت بيتاً من الشعر للبحتري قلته له وهو:

وخلاف الجميل قولك للذاكر عهد الأحباب صبراً جميلا
لم يكن يومنا طويلاً بنعمان ولكن كان البكاء طويلا

ونظر إلي وهو يقول والدمعة في عينيه: لقد سريت عني يا أحمد، لقد كنت أشعر أنني عائش في فراغ ما له نهاية، والحمد لله على كل حال. وكان العضو الآخر الذي كان يزورني في مكتبي الشيخ بهجت البيطار، وقد كان رجلاً طيباً ولكنه تقدم كثيراً في السن حتى أصبح عاجزا عن المجيء إلى المجمع، وكان يميل إلى جماعة السعوديين ويداريهم فيما يتعلق بعقيدتهم الوهابية الحنبلية، وكان له منهم أصدقاء كثر، أما الأستاذ التنوخي فقد كان عالماً حقاً وخاصة في اللغة العربية، وهو من خريجي الأزهر في مصر عام ١٩٠٨، وكان رفيقاً للشيخ عز الدين القسام المجاهد الكبير والذي راح شهيداً في فلسطين وكان من أهالي جبلة. كان الأستاذ التنوخي من عائلة هي: عائلة: شيخ السروجية بدمشق ولكنه عُدل هذا الاسم فسُمي بعد ذلك التنوخي ولا أدري كيف استطاع ذلك وكيف أثبت انه تنوخي بعد هذا الزمن الطويل. وقد حقق بعض الكتب في المجمع لكنه لم يكن راضياً عما هو فيه ولعله كان يطمع برئاسة المجمع. أما الدكتور جميل صليبا فهو أستاذنا وهو أعقل أستاذ رأيته في حياتي المدرسية وأكبر الأساتذة الذي استطاعوا إفادة تلاميذهم وتوجيههم إلى ناحية التفكير السليم وكان لي شرف الاشتراك في حفلة التأبين التي أقيمت له في مدرج كلية الهندسة بجامعة دمشق وألقيت فيها قصيدة. كما كانت لي معه صداقة فكنت اجتمع معه في بيروت فنجلس ساعات طوال في مقهى على البحر نتحدث ونتذكر أيامنا الخالية، كان هو أستاذي وكنت أنا تلميذاً له. أما الأعضاء الباقون فقد كانوا أصدقائي ولكن اختلاطي بهم كان قاصراً على عملي في المجمع، كان صلاح الدين الكواكبي رجلاً نحيفاً ضعيف الصوت يحافظ على الحال التي تراها عليه فلا يغير شيئاً من حياته وكان يهتم بالكلمات الجديدة التي تترجم بعض المصطلحات الكيماوية وكان قديراً في فنه، أما الدكتور الحكيم فقد كان خريج كلية الطب اليسوعية القديمة في بيروت، وقد كان مختصاً بالأمراض العصبية والنفسية ولكنه كان حين جئت إلى المجمع كبيراً في السن، فكان كثيراً ما يعتذر عن الحضور للجلسات، وأما الدكتور حسني سبح فقد كان شيئاً آخر، كان رغم كبر سنه يبدو قوياً يضرب الأرض برجليه حين يمشي ويأتي مشياً على الأقدام وعيادته في شارع بغداد، يجتاز الأزقة الضيقة الخربة حتى يصل إلى المجمع في الوقت المحدد الذي اعتاد أن يصل به، كان طبيباً مختصاً بعموم الطب، وكان طبيباً قارئاً مجتهداً وكان الغني الوحيد بين الأعضاء، فقد جمع ثروة لا بأس بها، كان الدكتور سبح موظفاً محترفاً لا يمل ولا يكل، وقد ظل يعمل في المجمع إلى أن تجاوز التسعين من العمر ولكن جسمه بدأ يضعف وأخذ الزمن يؤثر في نشاطه وحركته، كان ممسكاً لم أعرف عنه أنه أنفق درهماً على غيره، فهو لا يدين بمبدأ الدعوات والاجتماعات واللهو والمرح، لقد ذهب مرة إلى الحجاز بدعوة علمية وبطبيعة الحال قام بمناسك الحج، وحين عاد تحدث إلى أهله بأن لا يباشروا أية زينة حين يحضر فلا أقواس نصر ولا زهور ولا حبال أضواء كهربائية، فقد ألغى كل المصطلحات الموروثة من الاحتفال بالحجاج حين رجوعهم، وكان يحب الدقة في حياته هذه الدقة التي أورثته المحافظة على كل ما يملك بكلتا يديه. حدثني سائق سيارته وقد رأيته بعد أن ترك خدمته قال: لقد صرفني من خدمته بعد عشرين سنة أضعت فيها شبابي، وكان دقيقاً شديداً في معاملته مع جيرانه في المزرعة حتى كانوا يشكون منه لكل من يرونه فقد كان لا يحتمل أن يرى دجاجة للجيران تدخل حدود مزرعته، وقد نشبت خلافات كثيرة بينه وبين جيرانه وصل أمرها إلى القضاء بسبب ثمرة تفاح أو مشمش أو غير ذلك، وحدثني الأمير جعفر ـ رحمه الله ـ أن أحد زبائنه في عيادته تهجّم عليه مرة وكاد يهم بضربه من أجل قضية بينهما لم أعرف تفاصيلها، وقد شكا للأمير هذا الأمر وهو ينعي على الزبون الذي كان قليل الأدب، وكان من ناحية اللغة فارغاً حتى انه لم يكن يحسن أن يقرأ ما يكتب له، فهو طبيب متفرغ لهذه المهنة وقد كانت عضويته في المجمع نتيجة لعلاقة شخصية بينه وبين المرحوم الرئيس شكري القوتلي، فدخل في المجمع بتأثير الرئيس ولم يكتب أي بحث أو

كتاب يتعلق بالمجمع، اللهم إلا كتبه في الطب التي لا علاقة لها بالموضوع، وحين أصبح رئيساً للمجمع كان بسبيل التعليق على معجم طبي وضعه الدكتور الخياط، فأخذ ينشر هذا التصحيح في مجلة المجمع وهو عبارة عن جداول بكلمات لا يفيد منها إلا الأطباء، ولم يكن التصحيح يتناول إلا كلمة، أو كلمة في كل ثلاث أو أربع صفحات، فكان ينشر هذا المعجم باسم التصحيح على أربع أو خمس صفحات، وذهبت إليه، وكان رئيساً طبعاً، لأقول له: إن التقليد المجمعي قد جرى على أن لا يتناول رئيس المجمع مكافأة عما ينشره في المجلة ونظر إليّ نظرة خفت منها وقال: هل يمنع القانون أن أتناول المكافأة؟ فأنا أتناولها، ولم أجبه وخرجت لأروي القصة للأمير جعفر وللسيد عمر كحالة، ولاح الاثنان برأسيهما وسكتا، ويظل يتناول هذه المكافأة إلى أن انتهى المعجم وقد احتمل نشره أكثر من خمس أو ست سنوات. ولكن هذا لا يمنع من أن أذكره بخير فقد مرض لي ابن أخت أصابه داء التهاب السحايا، وحين كلفته للذهاب إلى مشفى المواساة لم يمتنع وذهب فداوى المريض ولم يتناول أجراً، ولقد بقي قوياً حتى توفي من مدة قريبة، فقد روي لي أن الأزمة أصابته فنقل إلى البيت وفي اليوم الثاني شعر أنه صحيح الجسم فقام ليحلق ذقنه ولكنه لم يلبث إلا دقائق حتى فارق الحياة، لقد كان إنساناً غريباً في كل شيء وكان يفهم الحياة على أنها منطق وعقل، أما العاطفة فلم تكن له بها معرفة أو علاقة.

أما الدكتور سامي الدهان فقد كان يحمل ذاكرة قوية فهو يحفظ أسماء كثيرة للكتب وللكتّاب وهذه كانت كل بضاعته، كان أبعد الناس عن الشعر والنثر والقصة والمسرحية وغير هذه من الفنون التي تدخل في ميدان الفن، لقد كان «أرشيفاً» أو سجلاً سياراً، وكان نزقاً معتدّاً بنفسه ولا أحد يدري كيف توصل إلى أن يكون عضواً في المجمع، ولكنه اصبح عضواً يُخشى جانبه فقد كان سليط اللسان، وقد روى لي أحد الآذنين أنه رأى على سترته طيناً فمد يده لكي يمسح له الطين فانتهره وضربه على يده وطرده من أمامه، يعني أنه لم يتقبل المعروف، وكان هذا الآذن حانقاً عليه حنقاً عجيباً من أجل قضية تافهة كهذه، ولقد كتب وحقق ولم يكن عضواً كسولاً. ومرض المسكين مرضاً عجيباً هو نوع من الشلل الذي أصاب جسده كله، ولقد زرته مع الشيخ بهجت البيطار فكان منظره محزناً ومخيفاً، ثم توفي وهو في بحبوحة الشباب، وأما الدكتور مرشد خاطر فهو لبناني الأصل ولكنه كان جراحاً مشهوداً له بالقدرة في مهنته، وقد أفاد من مرافقته في كلية الطب للجراحين الفرنسيين الذين كانوا يتولّون أمور الجراحة في الكلية مثل «له سيركل» و «ترابو» وغيرهما، وكان عالماً أكثر منه طبيباً. أما الأستاذ شفيق جبري فقد كان شاعراً ولكنه كان يتصف بصفتين أولهما أنه معتد بنفسه وأنه كان يرى نفسه أكبر من الأعضاء الآخرين على اعتباره من أهل الفنون، التي لم يكن يملكها أحد غيره بين هؤلاء، ومن هنا جاءته صفة الكبرياء ولم يكن يحضر جلسات المجمع إلا مرة أو مرتين في السنة ولمناسبات طارئة ضرورية، وكان مترفعاً أما في الشعر، فأنا أرى فيه شاعراً أقل مما كانت له من الشهرة التي صنعتها الأحداث والتي أتته عن طريق الدعاية التي كان يروجها أصحابه والمعجبون به في غير الشعر، لأن أكثر أصحابه لم يكونوا من أصحاب الأدب على أنه كان من أصحاب النكتة التي تتناسب مع حاله، أعني أن النكتة إذا خرجت من فم رجل لا يضحك أو رجل كئيب فإنها تكون ذات وقع كبير كالشيء الذي يأتي المرء دون أن يتوقع إتيانه. كنت انتقد المجمع في بعض الأمور مثل أن يتعرض عضو أو أحد ممن يختاره المجمع لتحقيق كتاب من المخطوطات القديمة مملوء بالشعر، ويكون المحقق غريباً عن الشعر لا يعرف الوزن خاصة فيخرج الكتاب مملوءاً بالأخطاء، وكنت أرى أن هنالك أعضاء صاروا وانتخبوا عن طريق الالتماس، كما كان الدكتور خوري فهو ليس له علاقة لا باللغة ولا بالشعر ومع ذلك انتخب عضواً من أجل رسالة صغيرة حققها حول طب الأسنان عند العرب، وكان لا يعمل شيئاً في المجمع غير أن يحضر الجلسات كغيره من الأعضاء ويضرب ما يعطى له على الآلة الكاتبة، وقد ضحكت مرة حين قلت للدكتور سبح: إن هذا الضرب على الآلة ليس من عمل عضو المجمع يا دكتور، فابتسم وهو ينظر إليّ وقال: دعه يعمل بهذه الآلة، وما الذي تريد منه أن يفعل؟ فضحكت وانصرفت ولكنه كان مهذباً ودمث الأخلاق، ولو التهذيب كان كافياً في العضوية لكان من خيرة الأعضاء.

أما الدكتور عدنان الخطيب فهو أقدم من عرفت في المجمع، كان مهذباً ومحافظاً على الأخلاق

الفاضلة كما كان متزناً قليل المزاح، قليل الكلام، وقد يكون عنده شيء من البطء في الحديث فكان إذا تحدث استعد لذلك أو تأنى، وقد عرفته يوم كان تلميذاً في الصف العاشر في مكتب عنبر وكنت في الصف الثاني عشر، ولم تتغير أوضاعه عندي منذ أن كان شاباً في مطلع شبابه حتى تجاوز الستين في المجمع، وقد انتخب عضواً في أيام الأمير الشهابي، كما أعتقد، وكان بدوي الجبل صديقاً له وهو الذي أعانه على تخطي الصعوبة في الوصول إلى العضوية، ومعرفته بالبدوي كانت منذ أن عين محافظاً في اللاذقية بالوكالة لتسيير الانتخابات فيها في فترة من الفترات الماضية، وقد كان قاضياً في رتبة مرموقة. أما تاريخه في الدراسة فيمكن أن تقدره من تطور حياته الدراسية، فلقد تقدم إلى البكالوريا في دمشق فلم ينجح وربما تقدم لها مرات، فاضطر إلى السفر إلى العراق وهناك انتسب إلى كلية الحقوق فيها ثم نقل انتسابه إلى دمشق ومن دمشق ذهب إلى فرنسا ولا أدري كم مكث هناك ولكنه عاد يحمل شهادة الدكتوراه، وهي دكتوراه جامعية من غير شك، ومن الغريب، ورغم أنه دكتور من جامعة فرنسية فإني لم أسمعه بحياتي يتحدث باللغة الفرنسية أو ذكر مصطلحاً أو كلمة فرنسية، والدكتور عدنان دمشقي عريق في دمشقيته، ومن أكبر عائلة في دمشق، لا بل انها أكثر عائلات دمشق عدداً، وهي عائلة «الخطيب»، وبحكم هذه «الدمشقية» فهو يحب المداخلات وحل المشاكل وإبداء الآراء، وقد وقعت بيني وبينه مشاكل ثم زالت، وأعتقد أنها سويت فهو اليوم صديق لا أنكره ـ أما ما حدث بيني وبينه فقد كان مستغرباً: حين توفي الأمير مصطفى الشهابي تأثرت كثيراً فقد كنت عنده في البيت الساعة العاشرة وقد حدثته في أمور مجمعية ورأيته يتناول حقنة «الأنسلين»، لأنه كما أسلفت كان مصاباً بداء السكر وخرجت من عنده وجئت إلى البيت وبعد ساعة تحدث إليّ الأمير يحيى الشهابي ابن أخت الرئيس وأنبأني أن الرئيس قد توفي إلى رحمة الله، وعلى أثر ذلك انتخب حسني سبح لأنه كان الأرجح بين الأعضاء من حيث تقلبه بالوظائف ومن حيث السن المناسب ومن حيث أمور أخرى، أما أنا فكنت أرجح أن يكون الرئيس الدكتور جميل صليبا أو الأستاذ جبري. وبعد مدة أقيمت حفلة تأبين للأمير الشهابي في القاهرة بصفته عضواً من أعضاء مجمع اللغة المصري. واتفقت مع الدكتور عدنان ورئيس المجمع أن نذهب ثلاثتنا للاشتراك في حفلة التأبين وقد قمت بخدمة تذكر للرئيس، فقد استطعت الحصول على جواز سفر دبلوماسي له بواسطة أصحابي في الخارجية، ولأن رئاسة المجمع وظيفة علمية تعتبر أكبر وظيفة من هذا النوع في البلد. وكانت القضية تحتاج إلى مرسوم للإيفاد، وبعد أيام جئت إلى المجمع فلم أجد الرئيس على خلاف العادة وكذلك الأستاذ عدنان فعلمت جلية الأمر، وكانت مسيئة إليّ وإليهم في آن، فقد صادف الأمر أن كان الدكتور شكري فيصل في دمشق وقد عاد مأذوناً من الجزائر حيث كان مُعَاراً للتدريس هناك مدرسا للأدب العربي في جامعة الجزائر، والذي حدث أنهم اختاروا الدكتور فيصل ليرافقهما إلى القاهرة بدلاً مني وجاءوا مساءً إلى المجمع بعد أن اتفقوا مع ضارب الآلة ومع مأمور الأوراق فرتبوا المعاملة اللازمة باسم الثلاثة وتناسوا اسمي، والغاية من هذا أن يفيدوا الدكتور شكري من نفقات السفر في الذهاب والإياب مع أنه كان على أهبة السفر إلى الجزائر. لقد كان عملاً مستغرباً لدى الجميع بعد التعب الذي تعبته في سبيل الرئيس وفي سبيل هذه الرحلة لا سيما وأن لي خدمات في المجمع لم يستطع القيام بها غيري، فلقد كنت السبب في إهداء المجمع عدداً من المكتبات من مثل مكتبة: فخري البارودي، ومكتبة خليل مردم بك، ومكتبة آل العمري، ومكتبة حمدي بك الجلاد ومكتبة عطا بك الأيوبي، وقد أهديت لمكتبة المجمع عن طريقي وعن طريق صداقاتي ومن أصحابها وذوي أصحابها، هذه القضية تركت في نفسي اثراً سيئاً لم أسكت عليه وقد سمع الأعضاء بثورتي لهذا التصرف المخجل، كما سمعوا انتقاداتي المريرة وسمعوا من الكلمات التي لم يكونوا سمعوا بها من موظف، وهناك أمر ثانٍ سبب لي خلافاً شديداً مع الدكتور عدنان، فقد كان في المجمع موظف صغير لم تعجبني تصرفاته ولا أذكر ما هي هذه التصرفات الآن، وقد تحدثت إلى الرئيس والدكتور عدنان بهذه التصرفات خدمة للمجمع ولكن الدكتور عدنان طلب إليّ أن أقدم تقريراً بهذا الموظف، فقلت للرئيس: إنني لا أستطيع كتابة هذا التقرير لأنكما لا تستطيعان الإقرار به ويقع الضرر كله عليّ فهو محصن ومدعوم من جهات عليا، وما دمت قد أطلعت المجمع على الوضع فيمكن العمل

بما يلزم دون تقرير يعتبر مستمسكاً عليّ أنا ولا يتضرّر به أحد غيري وكانت إجابة الأستاذ الخطيب لي جافة لم أستطع السكوت عليها، فقد قال: إذن أنت لا تقوم بواجباتك، وقد أسلفت أني كنت حانقاً عليه لتصرفه يوم الذهاب إلى مصر لأنه كان من صنعه وقلت له· أنت ليس لك أن تقول لي هذا لأنك عضو، وأنا أستطيع بصفتي الموظف الأصيل في المجمع أن أمنعك من دخول المجمع إلا في أوقات اجتماعات المجلس، وسكت وأعتذر، ولكني آخذت نفسي وتذكرت على البديهة أن الأستاذ الخطيب مهذب وقد يكون أخطأ في جملته التي قالها لي ولمت نفسي على تسرّعي في إجابته. ولكن هذه الأمور كلها سوتها الأيام والزمن فقد عرف الأستاذ الخطيب بعد خروجي من المجمع أني سليم النية وأني لا أسعى لإيذاء أحد ولكني لا أحتمل أن يؤذيني أحد بالمقابل.. وهكذا أثرت هذه الخلافات بيني وبين الرئيس والأعضاء فيما بعد، فقد رفض تمديد عملي بالمجمع بعد أن أحلت على المعاش، وقد أقنعوا الوزير الذي كان في ذلك الوقت بالإصرار على عدم التمديد وكانت الغاية عند هيئة المجمع هي التخلص مني ومن انتقاداتي ومن عدلي «العريض». أما الدكتور شكري فيصل، فقد كان في رأي أكثر أعضاء المجمع انسجاماً مع عضوية المجمع لأنه كان صاحب اختصاص فهو يعمل في تدريس الأدب العربي، وله كتب عديدة من تأليف وتحقيق، وكتبه كانت مقروءة مقدّرة مثل كتابه: تطور الغزل، ومن مثل تحقيقه ديوان الشاعر أبي العتاهية وغير هذين عدة مؤلفات أخرى، وكان عالماً في الأدب من غير شك لكن علته الوحيدة ـ رحمه الله ـ وسبحان من لا علة فيه، إنه كان متشعب الأعمال كثير النشاطات التي تزيد عن حد إمكانية الرجل مهما كان قوياً على العمل، ثم إنه كان يحب المال حباً دعاه إلى نشاط كبيراً أضرّ بصحته كما أضرّ بنشاطه ذاته، لقد كنت أراه يحمل حقيبته التي كانت تزن عدداً من الكيلويات من دار المجمع إلى كلية الآداب في الجامعة الدمشقية، وقد كان يُحَسّ بالتعب من غير شك بل لقد كان يحس بالإرهاق، ولكنه كان يحتمل ويتحمل فوق طاقته وقد سبب له هذا التعب ضعفاً في القلب فذهب إلى ألمانيا في آخر رحلة له وأقدم على عملية جراحية في القلب لم يحتملها قلبه ومات تحت العملية. لقد كان شكري الفيصل مؤلفاً عالماً وكان لين الطبع ولكنه لم يكن ضعيفاً، ثم إنه كان زاهداً في الدنيا وأنا أرثي لهؤلاء الذين يمرون بهذه الدنيا ولا يتلفتون إلى ما فيها من أطايب ولذائذ، إنه لم يعرف اللهو ولا النزهات ولا الاستمتاع بأي شيء، لقد كان يلبس بزته فلا يغيرها طيلة أشهر، وكان لا يخرج من بيته إلا ليعود إليه بعد أن يكون أفناه التعب والإرهاق في التدريس والسير على الأقدام دون أن يكلف نفسه عناء ركوب السيارة، وما من شك أنه كان ذكياً جداً. أما أمجد الطرابلسي فرجل هادىء رصين، وقد كان شاعراً مجيداً في يوم من الأيام حتى لقد كان ينشر شعره في أكبر المجلات العربية ذيوعاً وانتشاراً مثل الرسالة والثقافة المصريتين اللتين كانتا تمثلان النهضة الأدبية في هذا العصر، ولكنه ترك الشعر فجأة وأضرب عنه حتى قبل أن يطبع شعره أو ينشره، فقد صنع كما صنع المازني يوم أن طلق الشعر بحجة أن ديوانه لم يزد الشعر العربي شيئاً، وهذا كلام غير علمي فليس شرطاً أن يكون شعر لشاعر له مكان خاص في ديوان الشعر العربي، بل الشرط أن يكون شعراً مقروءاً متفقاً عليه بأنه شعر وهذا يكفي، أما الدكتور حكمت هاشم فلم نعرف عنه شيئاً كثيراً إلا معرفة بسيطة، فقد كنت أراه ويراني ونتبادل السلام ولكني لم أقرأ له شيئاً يتعلق بالمجمع، وقد قضى أكثر حياته العلمية خارج القطر السوري.

كان يزور المجمع أشخاص كثيرون من ذوي الصفات العلمية ومن المهتمين بالكتب واقتنائها، ومن ابرز هؤلاء، الكاتب والعالم السيد أحمد حامد الصراف عضو المجمع في دمشق والعراقي الأصل، وترجم رباعيات الخيام عن الفارسية. كان الصراف طوالاً في الرجال مهاباً في شكله وهيئته، جهوري الصوت، وكان يزور سوريا، ويزور المجمع تبعاً لذلك، فقد كان له أصدقاء يرون فيه شيئاً جديداً لأنه كان من طينة غريبة، فقد كان طويل اللسان، سباباً شتاماً، على الطريقة العراقية المعروفة، وكان يتقن أربع لغات تعلمها كلها في بيته الذي يبدو أنه كان منعماً، فهو يعرف العربية طبعاً والكردية والفارسية والتركية. وكان راوية للشعر بحيث أنني لم أرَ أكثر منه رواية إلا رفيق الفاخوري ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ولقد دخل عليّ يوماً في مكتبي بالمجمع فوجدني أقرأ في ديوان «مهيار الديلمي» ومهيار هذا كما هو معروف تلميذ الشريف

الرضي، وهو الذي علمه كل شيء وأدخله في دين الإسلام، وكانت مرثية مهيار بالشريف خير مرثية قيلت بالشاعر الكبير، وهي قصيدة دالية ليس مثلها الكثير في المراثي العربية، وحين رأى القصيدة في يدي تذكر أشياء كثيرة وأخذ يعدد صفات الشريف الرضي وأخيه الشريف المرتضى وهو متأثر غاضب، وأخذ يردد: لقد ظلموه، أهانوه، وعلمت أنه يقصد الخلفاء العباسيين الذين كانوا على خلاف مع أبناء عمهم الطالبيين، ثم رأيت الصراف يتشنج ويفغر بالبكاء بكاءً مراً وتنهمر الدموع من عينيه، فقمت إليه وأمسكت به وأخذته إلى حنفية الماء ليغسل وجهه وقد زال عنه ما كان به وراح يقول لي: لقد ظلموهم، أنا أموت في حب آل البيت، أنا بكتاشي. ولفتت ذهني هذه «البكتاشي» فالبكتاشية فرقة دينية صوفية موجود أكثر رجالها في بلاد تركيا، وهي فرقة شيعية متعصبة مشهورة. وراح الصراف يروي من هذا الشعر العريق الذي يحفظه وهو كثير لا يحصى. والتقيت به مرة في مجلس السيد فخري البارودي وكان فيه جماعة من الأفاضل من أمثال الدكتور سبح والكرد علي وعارف الخطيب ونجيب الشريدي، الأردني الأصل، وكان طبعاً حسني تللو وأخذ يتحدث، وكان الحديث للصراف، وباشر حديثه بالشتائم والانتقادات حتى سكت كل من حضر خوفاً من لسانه، وكنت جالساً في زاوية من المكان إلى جوار السيد حسني تللو ـ رحمه الله ـ وكان حسني تللو بجسده العريض يستطيع أن يستر عشرة أشخاص فلا يظهرون، والتفت فجأة إلى الصراف وسألته هذا السؤال البارد: حضرتك ماذا تشتغل في العراق؟ والتفت إلى جانبه فجأة كمن لسعته النار أو لدغته وقال بصوت عال مستغرباً: ألا تعرف ماذا أعمل؟ أنا رئيس المحكمة البدائية في بغداد، وكررت السؤال: أنت رئيس المحكمة البدائية في بغداد!؟ والله لو كنت في سوريا لما استطعت أن تكون شاهداً في المحكمة، وقامت قيامته فلم يترك شتيمة إلا ورماني بها، ولكنه بعد قليل، أخذ يضحك ويقول لي: لا بأس، لا بأس أبو شهاب، حلوة وأبو شهاب في العراق لقب كل من يسمى أحمد، كما أن أبا جاسم لقب كل من يسمى محمد، وأبا علي لقب كل من يسمى حسناً، وهكذا فإن لكل اسم عندهم لقب، وقد كانت هذه الجلسة فاتحة صداقة عميقة بيني وبين الصراف، رحمه الله.

ولقد عرفت في المجمع شخصاً يسمى علي الخاقاني، وكان صاحب مكتبة في بغداد كبيرة هي مكتبة البيان، كما كان هو يدعى أبا بيان لأن ولده سمي «بياناً» وكان من الناحية العلمية جاهلاً، ولكنه كان تاجر كتب محترفاً وقد كنت آنس به فقد كان حلو الحديث يجيد الرواية والوصف وخاصة أحداث بغداد الأخيرة والمجازر التي وقعت على أثر ثورة عبد الكريم قاسم الجائحة. وكان ينصحني أن لا أهدي شيئاً من كتبي التي أؤلفها وأطبعها ويقول لي: إن إهداءك الكتب يسيىء إلى الكتب فليشتر الكتاب من يريد الكتاب. وكان المرحوم عمر كحالة صديقاً للخاقاني أيضاً، ولقد فتشنا عليه مرة فلم نجده في المجمع رغم أن الموظفين قالوا لقد رأيناه، وبحثنا عنه فوجدناه خلف بناء المجمع وقد جلس على كرسي صغير يأكل شواء الكبد ولما سألناه قال: آكل الفشش، والفشش هي الكبدة عند العراقيين، واحتفظ الكحالة ـ رحمه الله ـ بهذه الكلمة فلم ينسها بعد ذلك. ومن الأشخاص الذين عرفتهم رجل عالم كبير بالسن هو الأستاذ «العزّاوي». كان عباس العزاوي ينتسب إلى قبيلة «بني عز» العراقية المعروفة والتي يوجد منها في بلادنا، وكان كبيراً أصلع أشقر يمشي ببطء لأنه كان عاجزاً بسبب السن عن الإسراع، وكان طويل اللسان وأكبر دليل على ذلك أنه هاجم الصراف الذي وصفت لك لسانه هجوماً عنيفاً، وحين حذرته من تعرضه للصراف ازداد عليه هجوماً، وقد ربطت بيني وبينه صداقة. إنه عرف أني من أصل إسماعيلي فأصبح يتودد إليّ حتى إذا أثرته مزاحاً شتمني وشتم الإسماعيلية معي، وكانت لديه مكتبة ضخمة في العراق وهي تحوي عدداً من المخطوطات النادرة، وقد بيعت مكتبته بمبلغ خيالي بعد وفاته واشترتها كما علمت وزارة الثقافة العراقية. وللعزاوي كتب كثيرة منها أنه كتب كتاباً مشهوراً عن «اليزيدية» الفرقة المعروفة في شمالي العراق «منطقة سنجار».

أما المصريون الذين عرفتهم في المجمع فمنهم الدكتور أحمد فخري، المؤرخ الكبير ودكتور التاريخ في الجامعات الألمانية، والدكتورة سهير القلماوي، وحسن كامل الصيرفي الشاعر. ولقد نقل المجمع اليوم إلى حي المالكي الجديد في دمشق بعد أن أنجز البناء الذي بني لأجله ونقلت معه الكتب والمخطوطات التي

كانت في المدرسة العادلية وهي البناء الذي كان يشغله المجمع في باب البريد بدمشق، إلى جـوار المدرسـة الظاهرية التي فيها دار الكتب التي تحمل هذا الاسم والتي ما زالت قائمـة بعد أن أنشئت مكتبـة الأسد الضخمة الحديثة في رأس شارع المالكي.

هذا هو المجمع الذي كان الفضل في تأسيسه للعلامة محمد كرد علي الذي كان أول رئيس له، والذي بدأ لجنةً لترجمة المصطلحات الإدارية إلى العربية عن اللغة التركية بعد انقضاء العهد التركي.

إذا ذكرت مجالس دمشق فينبغي أن يذكر في أولها مجلس السيد فخري البارودي الذي جمع فأوعى كما يقال، ولا بد قبل أن نذكر بالتفصيل هذا المجلس الذي كان مقصداً لزائري دمشق من مختلف الشخصيات العربية البعيدة والقريبة، لا بد قبل هذا من أن نذكر شخصية السيد البارودي لنعرّفه إلى القارىء كما عرفته وكما رأيته.

السيد فخري البارودي، هو السيد فخري بن السيد محمود بن السيد محمد بن السيد حسن البارودي، وهذه الأسرة تنتسب إلى أسرة بدوية كان لها تاريخ في فلسطين وفي علاقاتها مع مصر وسوريا، وكان سيدها المعروف في التاريخ السيد ضاهر العمر الذي كان زعيماً وشخصية بارزة استولت على كثير من المناطق في بلاد فلسطين وما جاورها، وقد جاء جد السيد فخري إلى دمشق فنزل أول أمره في حي القدم/ ثم انتقل إلى البلدة، وقد عمل جده السيد حسن البارودي وكيلاً على أملاك أسعد باشا العظم صاحب القصر المشهور في حي البزورية بدمشق، والذي أصبح الآن متحفاً للآثار الشعبية يزوره السياح والعلماء وتقام فيه الحفلات الفنية من حين لآخر. وقد ملك هذا البارودي أربع عشرة قرية وجمع مالاً طائلاً ورثه عنه ابنه السيد محمد البارودي الذي حاز على لقب «بك» في العهد التركي والذي بنى بيتين كبيرين في حي الشابكليه المعروف بدمشق، والكائن إلى جوار شارع النصر الذي كان يسمى «شارع جمال باشا» باسم فاتحه يوم كان قائداً للفيلق الرابع للجيش العثماني كما كان حاكماً لهذه البلاد. وقد خلف محمد البارودي ولدين هما السيد محمود البارودي والد السيد فخري البارودي، وخلف ولداً آخر هو السيد سهيل البارودي والد الصديق المرحوم السيد رشدي البارودي.

ولد السيد فخري البارودي عام /١٣٠٤/ للهجرة وقد أرّخ هذا الميلاد أحد الشعراء، وقد قرأت هذا التأريخ حين أطلعني عليه السيد فخري البارودي، وتربى السيد فخري البارودي تربية الدلال، فقد كان وحيداً لأبيه وكانت له أختان إحداهما تزوجت والأخرى ظلت بلا زواج، وقد عاش السيد فخري البارودي حتى تجاوز الخامسة والثمانين من عمره إذ كانت وفاته عام /١٩٦٥/ م. كان فخري البارودي معتدل القامة أميل إلى الطول، أبيض الوجه مشرباً بالحمرة مما كان يدل على الصحة والنشاط، وحين بلغ سن الزواج تزوج من ابنة السيد أحمد الدالاتي التي كانت عمته زوجة السيد شكري القوتلي وآل البارودي والدالاتي والبكري والمملوك و «الكلار أميني» (أي أمين المستودع) أقرباء كلهم. ودخل البارودي الكتّاب أول أمره ثم انتقل إلى المدرسة العادية حتى وصل إلى مكتب عنبر القديم المعروف ولم يكمل دراسته على عادة أبناء أصحاب الأملاك الكبيرة ولكنه تعلم اللغة التركية التي كان يتكلم بها بطلاقة، ولقد ورث السيد فخري ثروة طائلة بدّد أكثرها في جولاته ورحلاته كما بدد قسماً كبيراً منها على نشاطه الوطني، إذ كان من أبرز الشخصيات الوطنية التي كان الأجنبي يحسب لها حساباً، لأن فخري منذ شبابه كان يمثل عنصر الشباب في النضال الوطني من أجل الاستقلال. أما عمه سهيل فقد بدد ثروته كلها لأنه كان مولعاً بالإنفاق كما كان عدواً للاقتصاد وكان ينفق ماله على اللهو والبسط والمرح ورفاقه الذين كانوا حوله ولم يخلف لأولاده شيئاً.

وعرف فخري منذ نشأته بميله إلى اللهو والمرح ومجالس الأنس والطرب، فقد كان يحب الشعر والشعراء، كما كان يحب الموسيقيين والعازفين ويساعدهم ويدافع عنهم ويجمعهم في بيته يأكلون ويسمرون وينشدون ويتغنون، وكان ميالاً إلى الأدب والشعر بطبيعته الفنية ولكنه لم يكمل نفسه في ميدان الشعر لأنه انقطع عن المدرسة باكراً ولأن حياة الغنى والرفه تعوق في أكثر الأحيان العمل الفني والفكري، وقد نظم ديوانين من الشعر هما: تاريخ يتكلم وديوان آخر لا أذكر اسمه، وكان كثيراً ما يتحاور هو وبعض الشعراء فيكتبون إليه ويجيبهم وقد يتهاجى معهم على طريقة توحي باللذة والسرور، وأكبر

شيء عمله هو النشيد الوطني الذي يتغنى به الشباب هذه الأيام، وقد وضع له لحن لا يعرف واضعه والنشيد هو: بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان، ولهذا النشيد قصة طريفة: فقد زار دمشق في مطلع هذا القرن الشاعر الكبير أحمد شوقي وكان معه محمد عبد الوهاب المطرب الناشىء يومئذ، ودعي الاثنان إلى منزل فخري البارودي الذي كان محجة للزائرين ـ كما قلت آنفاً ـ وكان في المجلس أيضاً المغني الكبير الشيخ سيد الصفتي صاحب الأدوار الشهيرة ومعاصر عبده الحامولي في الغناء، وكذلك كانت منيرة المهدية المطربة والممثلة الكبيرة، كما كان عدد من الحاضرين وقد غنى ليلتها عبد الوهاب مما كان يحفظ وقبل أن يباشر رحلته التلحينية، كما دعيت السيدة المهدية للغناء لكنها لم تتجرأ أمام الصفتي باعتباره أستاذاً لا يشق له غبار في هذا الميدان، وفي هذه المناسبة أخرج البارودي نشيده: بلاد العرب ودعا عبد الوهاب لقراءته وتلحينه، وعبد الوهاب من الأذكياء المشهورين وقد أحرج المطرب الشاب بهذا ولم يقدر البارودي حضور أمير الشعراء ليعرض شعره أمامه وقرأ عبد الوهاب النشيد حتى وصل إلى قول البارودي:

ومن نجدٍ إلى يمن   إلى مصر فتطوان

ووقف المطرب عند كلمة «تطوان» ليقول للبارودي إن هذه الكلمة صعبة وثقيلة على اللفظ في الغناء ورجاه أن يغيرها، ولكن البارودي اعترض على الاقتراح بقوله: ولكن هذه حدودنا يا أستاذ والتفت المطرب ليقول: ولكني يا سيدي لست ملحن جغرافيا.

وكانت لفخري البارودي قرية اسمها «الجربا» في الغوطة الشرقية وقد زاره فيها الشاعر خليل مردم بك ومعه جماعة فلم يجدوه فكتب له الشاعر أبياتاً على الحائط في غرفته وفي جملتها هذا البيت:

ألا يا ساكن الجربا   بلاك الله بالجرب

وكانت من عادة فخري البارودي أن يجيب كل من يتحداه في الشعر ولو كان أكبر الشعراء، وقد زاره الشاعر الرصافي المعروف فكتب له:

من شاء منكم أن يعز بلاده   فليسع سعي معزها البارودي

كان فخري البارودي ذكياً جداً يعرف ما يريد أن يعمل ويعمل بعقل وتؤدة، وكثيراً ما كان يستشير الصغير والكبير في أموره الخاصة، فإذا دخلت بيته في كل وقت من أوقات النهار رأيت طاولته ممدودة وعليها من الطعام والشراب ما يتناسب مع حظك، فمرة لا تجد إلا الطرخون والبذر والقضامة وفي مرة تجد خروفاً محشواً أو ديكاً أو أكلاً طيباً مما كانت تطهوه له هيلانة التي كانت تطبخ له وتجيد الطبخ في أكثر الأحيان. وزاره مرة موسيقي عازف للقانون هو محمد العقاد، وجده هو العقاد الكبير الذي كان عازفاً للقانون ومرافقاً لعبده الحامولي المطرب الشهير كما رافق الشيخ يوسف المتيلاوي، ودخل محمد العقاد هذا ومعه الصديق تيسير عقيل عازف الكمان الكبير «شيلو» فلم يجدا على الطاولة غير حبات من القضامة وصحناً مليئاً من الطرخون، وهو نبات شامي يؤكل أخضر ولا يتعاطاه إلا أهل الشام ويؤكل نيئاً، وقد أخذنا نسقي العقاد ونعطيه من هذا الطرخون الذي يحتوي مادة تمسك باللسان وهي حادة قليلاً، ونظر إليّ العقاد بعد قليل وقال لي: أهذا الذي يسمونه فخري البارودي زعيم الشباب، أليس عنده من الطعام غير هذا «الشجر»؟ وضحكنا جميعاً وكان فخري بك غائباً فأرسلنا إلى السوق القريب وأتيناه بطعام دمشقي أعجبه والتهم منه حتى شبع، وكنت مرة عنده جالساً أنا وصديقي حسني تللو فطرق الباب أحد القادمين وقمت ففتحت ورأيت رجلاً بدوياً يلبس العباءة والعقال والكوفية وسألني عن السيد البارودي فقلت له: وهل بينك وبينه موعد قال: نعم، قلت تفضل، ودخل الرجل وجلس إلى جانبي، والتفت أنا إلى السيد تللو أكمل حديثي دون أن أهتم بالضيف الجديد، ثم قمت إلى خادمة البيت وكان اسمها «كلثوم» وناديتها كي توقظ فخري بك الذي كان نائماً، وبعد فترة خرج فخري ورأى أن هناك ضيفاً غريباً فناداني

إليه وسألني عنه فقلت له: واحد يريدك، واقترب قليلاً حتى تبينه فنظر إليّ مهتماً وقال: أهذا واحد، هذا أكثر من ألف يا فهمان، وكان الرجل الأمير عبد الله السالم الصباح أمير الكويت السابق الذي كان يسمى «العود» أي الكبير. كان المجتمعون عنده: حسني تللو، رجاء الشوربجي، سليم الزركلي، عزت الطباع، عمر العمري، رشيد البارودي «ابن عمه»، حسني عابدين، هؤلاء الذين كانوا دائمين عنده يذهب أحدهم فيأتي الثاني وكان من زواره الدائمين طبعاً جماعة الإذاعة من عازفين ومطربين مثل يحيى السعودي وتيسير عقيل ومحمد العاقل وزكي محمد ومحمد عبد الكريم عازف البزق الشهير وغيرهم، وكثيراً ما تبدأ السهرة باردة ثقيلة ثم تنتهي بحفلة غنائية كبيرة، وكانت ماري جبران المطربة الكبيرة من زوار فخري بك، وكثيراً ما سمعناها تلعلع بصوتها الرائع في تلك الأجواء الجميلة من الحديث الطلي والنكتة البارعة. أما من المصريين فكان من زائريه الدائمين الشاعر أحمد رامي وصالح جودت، ولقد تناولت الغداء عنده مرة وكان ضيفه يوسف وهبي الفنان الكبير وكان معه علوية جميل الممثلة القديرة وزوجة الممثل محمود المليجي، كما كان معه عبد البديع العربي الممثل الآخر ووالد الممثلين الشابين وجدي العربي وأخيه، كما رأيت عنده مرة أبا بكر خيرت المؤلف الموسيقي «الغربي». ولقيت عنده مرة الدكتور محمود الحفني العالم الموسيقي المعروف في مصر، لقد كانت معرفتي بشخصية السيد البارودي قديمة فالرجل مشهور معروف منذ أيام الملك فيصل إذ كان موظفاً في القصر، وحين جئت إلى دمشق موظفاً وجدت البلدة كلها تتحدث بفخري البارودي وعمله في ميدان الموسيقى والفنون، ووجدت أكثر الناس يعرفون بيته ويزورونه وقد يسهرون عنده فيتسلون بما عنده من سلوى مختلفة الألوان. لم يكن فخري البارودي موسيقياً ولا شاعراً ولكنه كان حساساً في أذنه ومن المستمعين النوادر، كما كان يعرف الإيقاع والأوزان وكذلك الأنغام، وقد شاهدته مرة يستمع إلى المذياع فناداني وقال أرهف أذنك لتسمع مصطفى رضا يصلح القانون، وبالفعل لقد سمع هذا العازف يصلح وتره من بين عشرين آلة، ولكنه لم يكن عازفاً ولا مطرباً وكذلك في الشعر، فقد كان يحاول النظم ولكن لغته كانت ضعيفة وربما وقعت له بعض السقطات في الوزن يصلحها حين يقرأها لأهل الاختصاص وكان لديه الكثيرون ممن يعرفون ذلك، كان ينظم الشعر كما يبني البناء فلم يكن عنده الإلهام الشعري والسبب في ذلك عندي هو ضعف ثقافته اللغوية والأدبية، لأنه وإن كان قارئاً كبيراً إلا أنه لم يكن يستفيد مما يقرأ ولو قلبت الكتب في مكتبته التي تبلغ الألف أو أكثر لوجدت أكثر هذه الكتب قد مر عليها نظر السيد البارودي، ووضع إشارة عليها تنبيء بأنه قرأها. ولو غيره قرأ ما قرأ البارودي لكان أكبر عالم أدبي في الشرق. يضاف إلى ذلك كسل لا مثيل له، فهو يخترع المشاريع الضخمة في الكتب أو في الموسيقى ويبدأها ولكنه لم يكمل مشروعاً في حياته، لقد كتب مذكراته ولم يطبع منها إلا جزءين صغيرين ثم لم يكتب غيرها، وصنع كثيراً من كتب الموسيقى نقلاً أو إستعارة ولكنه لم يكمل شيئاً، وهكذا ديوانه الشعري الذي ليس فيه سوى بعض المقطوعات التي حاور فيها أصحابه وإخوانه. ولقد كان البارودي ظريفاً حقاً ومحدثاً لبقاً، لكنه كان عصبي المزاج بسبب السكر الذي كان مصاباً به، ولكنه لم يؤذه لأنه كان متحفظاً في حياته من الناحية الصحية، وكان قوياً وظل كذلك حتى آخر أيامه، ولكنه كان لا يملك لسانه فإذا ثار بدرت منه ألفاظ غير لائقة، ولكن أصحابه كلهم تعودوا سماع هذه الألفاظ حتى لم يعودوا يستنكرونها، بل كانوا يثيرونه ليسمعوها منه مكررة وفي ألفاظ كانت وقفاً على لسانه وحده، وكان ممن يثيره حسني تللو وأنا ورجاء الشوربجي، فكان يسلقنا بلسانه وألفاظه الجارحة فنضحك ملء أشداقنا ويضحك هو في النهاية معنا. لقد قدم مرة تقديراً إضافياً عن الموسيقى وضرورة إنهاضها من كبوتها وتأسيس مدرسة لتدريس هذا الفن، ويبدو أن أحد النواب البلطجية لم تعجبه هذه الفكرة فسخر منها علناً أمام النواب، فما كان من فخري بك إلا أن أسمعه جملة جارحة ضحك لها المجلس وكان رئيسه الأستاذ فارس الخوري وأشار إلى كاتب الضبط أن لا يسجل هذه الجملة.

نشأ فخري البارودي في حي «الشابكلية» بدمشق، وكان والده شخصية، له بيته المفتوح وزواره وأقرباؤه الكثر وكلهم من وجوه البلدة، وذهب السيد فخري جندياً خلال الحرب الأولى ثم التحق بالثورة

العـربية وعـرف الملك فيصـل عن كثب حتى عين عنـده في «المعية»، وحـين جاء الفـرنسيون كـان فخري البارودي زعيماً للشباب، وقامت الخلافات بين السوريين والفرنسيين وقد سجن مرات، وذهب مهاجـراً إلى الأردن مرة وبقي فيه قرابة السنة ولقد عجز عن الإنفاق هناك وامتنع وصول المال إليـه فاضطـر إلى فتح مقهى يعيش من وارداتـه، لقد كـان عملياً في حيـاته ولا يستحي من العمـل رغم أنـه من أولاد الـذوات، وخلال الثورة السورية كان من المشجعين والمعاونين مالياً لكثير من رجال الثورة الذين كانوا يزورونه خفية وهـو في دوما، البلـدة التي يملك فيهـا بعض الأراضي. ولقد ظـل نائبـاً أكثر من مـرة. وتحضرني حادثـة مضحكة كنت شاهدها. فقد جئنا من المدارس نحيي زعيم الشباب فخـري بك وكـان هو يتحـدث ويخطب باللغة العامية لأنه خطيب شعبي، وبينما كان يخطب مرة إذ جاءته مظاهرة صغيرة والناس يحيـونه فيهـا ويقولون: نحن جنودك فخري بك، وعرف أن المتظاهرين من أبناء اليهود في دمشق فقطع كلامه وقال لنـا: انتصرنا، وكانت نكتة تاريخية. وكان رجـال الكتلة المشهـورين يعرفـون للسيد البـارودي قدره ويخـافون جرأته ولسانه، ولكنهم لم يكونوا يتهمونه في وطنيته، وقد يتهمونه في سلوكه الشخصي وأخلاقه، وقد سألته مرة عن ذلك فقال لي: ليسوا هم أفضل مني أخلاقاً، كلنا في الهوى سوى. وكانت لفخري البارودي عادات لم أجدها عند غيره فقد كان نظيف المنظـر جداً بحيث إذا شـاهدتـه كنت كأنـك تشاهـد طفلاً خـرج من الحمام لتوّه، ولم أره مرة بلا جورب فقد كان يستر جسمه كله بلباسه الأبيض العربي الظريف، كمـا كان يكره النميمة والحديث عن الناس فكـان يقول لمن في مجلسـه، إن أردتم المديـح فأهـلاً وسهلاً، أمـا الذم والشتم فهذا ما لا أقره في مجلسي. كان في موسيقاه محافظاً على الأصول العربية فكان ضد هذا التجديد الذي يريد أن يجعل من موسيقانا خليطاً تضيع معه موسيقانا، لذلك كان يحارب المتفرنجـين في كل شيء. لقد أقنع ولده يوماً أن يسافر إلى فرنسا لدراسة الزراعة وذهب فعلاً، ولكنه عاد دون أن يصنـع شيئاً ولم يتعلم حتى اللغة الفرنسية التي لم يكن يعرف منها شيئاً وحين عاد قال له والـده: درستم سيدي، وقـالها ساخراً منه، ولقد نفاه الفرنسيون عام ١٩٣٦ حـين وقع الإضراب العـام الذي دام ستـين يومـاً في أنحاء سورية كلها، وكان السيد البارودي من أكبر مثيريه والمحرضين عليه، لقد نفي إلى الحسكة وظل فيها مدة من الزمن، وحين اتفق الفرنسيون مع السوريين على وضع معاهـدة بين الطـرفين عـاد فخري بـك، وحين وصل إلى مشارف دمشق استقبله أهل دمشق جميعاً، وقد سهرت المدينـة كلها يـومها إلى الصبـاح وهي تهزج وترقص في ساحة المرجة، لقد تعرفت عند فخري البارودي على ملوك ورؤساء وعظمـاء وعلماء، لقـد تناولت العشاء عنده مع أم كلثـوم كوكب الشرق، وأذكـر أني وجدتهـا جالسـة على كـرسي صغير فجئتهـا بكرسي دائري كبير وقدمتـه لها فقـالت: أشكرك بـلاش من فضلك، داعـاوز له مكتب. أي انـه من كراسي الموظفين. ولسماعي أم كلثوم قصة شاركني فيها البارودي ـ رحمـه الله ـ رشحني بعض أخـواني لأكون محرراً للصفحة الأدبية في جريـدة الاتحاد التي أصـدرها مـع بعض أصدقـائه السيـد ميخائيـل إليان، السياسي والوطني الحلبي المعروف، وقبل أن أتسلم عملي أحببت أن أطمئن إلى هذا العمل، فالبلد مشتبكة بخلافات سياسية حزبية لها أول وليس لها آخر، وكان صديقي عبد الحميد السراج، فذهبت إليـه في بناء الأركان العامة وكان رئيساً للمخابرات العسكرية ودخلت عليه فقلت: أريـد أن أعمل في جـريدة الاتحـاد، فهل تعرفها؟ قال: أعرفها، قلت إنها للسيد ميخائيل إليان فهل عندك مانع من عملي هذا، وهل يكون لي من وراء ذلك ما يضايقني أو يسيىء إليّ؟ فضحك وقال: أنت رجل موثوق عنـدنا فـاذهب واكتب ولو تشتمنـا فنحن نعرفك جيداً، وعملت في هذه الجـريدة مـع الصديق المـرحوم حسن عبـد العال الـذي كان رئيسـاً للتحرير، وكذلك الأخ زهير المارديني الذي كان محرراً، ولقد لقيت من لباقة وأنس حسن عبـد العال مـا لا أنساه ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ فقد كان يعرض عـليّ مقالاتـه الافتتاحيـة وهو رئيس التحـرير، وبكـل تواضـع، حتى إذا كنت غائباً عن الجريدة انتظر حتى أرجع، وهذا تواضع ونسيان للذات لم أسمع بمثله قبل حسن عبد العـال، كان ذلـك في عام ١٩٥٤، وجـاءت أم كلثوم لتحيي بعض حفـلاتها في دمشق وقـد دعتها جمعية من الجمعيات الخيرية وأظنها «نقطـة الحليب»، ورأيت مع رفـاقي في الجريـدة أننا لم نتلق دعوة لحضور الحفلة التي ستقيمها في الباحة الكبيرة لمدرسة اللاييك القديمة، وقلنا: سنجبر هذه الجمعية

على دعوتنا، وكتبت كلمة صغيرة في مكان بارز في الجريدة أعترض على دعوة أم كلثوم بسبب الاقتصادية، وقرىء الخبر كما يبدو وفي عصارى اليوم قبل الحفلة جاءت إحدى السيدات وق بطاقات لسماع أم كلثوم، وكانت واحدة من الدرجة الأولى ثم الدرجة الثانية ثم الثالثة، ورآني الظريف محي الدين رسلان وكان الصديق الأثير لميخائيل إليان كما كان يعمل مشرفاً إد للجريدة، رآني فقال لي: لك بطاقة لسماع أم كلثوم فاذهب وخذها كي نسهر هناك الليلة، وذه وكان المحاسب في الجريدة الصديق أيضاً نادر الطحان، ومدّ المحاسب يده فأخرج بطاقة من الثلاث فأعطانيها ولم أنظر إليها، وذهبت في الوقت المحدد إلى باب المدرسة التي كانت ستقام وما كدت أخرج البطاقة حتى استقبلت من قبل الواقفين على الباب من أجل استلام البطا وكان في الداخل رجل يدل على الأماكن لكل واحد، وأشار إليّ بالتقدم وظل يشير إليّ حتى الصف الأمامي وقرب المسرح، ونظرت فوجدت إلى جانبي المرحوم علي بوظو وقريباً منه السم العسلي والأمير فهد السالم الصباح احد أمراء الكويت البارزين وفخري البارودي الذي قا فعلمت أن في الأمر خطأ، فقد أخطأ المحاسب السيد نادر وأعطاني بطاقة الدرجة الأولى بميخائيل إليان الوزير السابق وصاحب الجريدة. وما كدت أجلس حتى رأيت السيد البارودي جيبه الداخلي باطية فيها بعض الشراب كما أخرج بعض الفستق الحلبي وناولني، فأخذت نتبادل الأحاديث والنكات والشراب معاً، وغنت أم كلثوم أولى أغانيها: «ذكريات» وهي قصيد أحمد رامي ثم غنت: «يا ظالمني»، وهي من أغانيها الشهيرة، ثم أغنية ثالثة، وفي أثناء الفت صدحت أم كلثوم وأجادت وصاح فخري بك: ربنا يأخذ من عمري عشر سنين ويعطيك إياها وأجابته أم كلثوم: لا تقل هذا يا فخري بك لقد غامرت برصيد عمرك، وضحك من كان موجوداً ما بين الوصلات الغنائية جاءني العازف المصري العقاد فصعدنا إلى المسرح وراء الحاجز و القصبجي الموسيقي المشهور، ورأينا أم كلثوم وهي مضطجعة على كنبة كبيرة وسيدة سوداء رجليها، وهذه عادة كانت تلجأ إليها المطربة الكبيرة بسبب وقفتها الطويلة التي تستغرق أكثر وبعد أن تقدمت بها السن، فقد كان عمرها في ذلك الوقت عام ١٩٥٤، ٥٦ سنة لأنها م /١٨٩٨/ على أصدق الأقوال، وأحببت مداعبة القصبجي ملحنها القديم وعازف العود الشهير أرجوك أن ترجو السيدة أم كلثوم أن تغني لنا أغنية: «إن حالي في هواها عجب» أي عجيب مندهشاً وقال: يا خبر، دي بقالها ثلاثين سنة، وضحكت أنا والعقاد والأغنية قديمة منذ عام ١ من كلمات أحمد رامي، لا بل قد تكون أولى أغنيات أحمد رامي بعد أغنيته القديمة «الص عيونه»، التي لحنها أبو العلا محمد. وفي الليلة الثانية حرت ماذا أصنع، ولكني دبرت أمري و بطاقة مجانية في الموقع الثاني هذه المرة وفي هذه الليلة الثانية غنت المطربة «رباعيات الخيا ترجمة أحمد رامي ومن ألحان رياض السنباطي، وفي هذه الأغنيات أشارت إلى القصبجي ليعز الغناء على عوده، وهي أول مرة يفعلها القصبجي، وقد تبعه بعد ذلك على القانون محمد عبده الأصابع الحريرية، كما يقال عنه، كما تبعهما بعد ذلك أحمد الحفناوي عازف الكمان الشهير.

من أبرز إخوان البارودي لا بل جاره وصديق والده رجاء الشربجي، كان والده من الوج أصدقاء السيد شكري القوتلي واسمه رضى الشربجي؛ وقد توفي شاباً وخلف ولداً واحداً وابن بيت الشربجي هذا مقابلاً لبيت فخري بك، فكان رضى يخرج إلى بيت فخري بمباذله سواء أ بزته أم لا، لعدم الكلفة بينهما، ولما مات كان رجاء لا يتجاوز السنتين أو الثلاث سنين فكان يأ البارودي فيستأنس به فخري بك ويعتبره ولده لأنه لم ينجب أولاداً، وكانت زوجة البارودي تعطف على رجاء أيضاً، ولما كبر رجاء لم تطل مدته في المدرسة بل وصل إلى الشهادة الابتدائي وأظن أن تركه كان لأسباب مادية، فإن والده لم يخلف له مالاً ولا حلالاً فاضطر من صغره إ وقد بدأ يعمل عند التجار ولا سيما المحل المعروف بالقوادري وهو من أكبر تجار سوق الحميدي كان رجاء في صغره شاباً وسيماً واضح الذكاء حلو الضحكة يحب المزاح ويشارك في صنع النـ

رأيته لأول مرة شدهت بمرآه لأن الذكاء إذا اجتمع مع اللطف في الشخص كان شيئاً عظيماً، وسرعان ما سر بي هو أيضاً بعد المقدمات التي قدمني بها سعيد التلاوي في جريدة الفيحاء، ومن ذلك الوقت، أي منذ عام ١٩٤٥ تقريباً، إلى اليوم، ما زالت صداقتنا قائمة لم يعكرها معكر إلا غيابه الطويل عن البلد لأنه أصبح من رجال الأسفار الذين لا يستقرون في بلد ما. أما أمه فمن عائلة الساطي المعروفة في دمشق، ولقد انتقل رجاء من مكان البيع في أول أمره فعين كاتباً في الإذاعة وسرعان ما كوّن لنفسه شخصية وحسنت اتصالاته مع المغنين والملحنين والفنانين جميعاً، وكان يتردد دائماً على بيت فخري بك الذي كان قريباً من دار الإذاعة، ورجاء ذو مواهب في معرفة الناس وحتى الكبار بينهم فهو صديق لسعيد فريحة وتقي الدين الصلح والشاعر أمين نخله والأخوين رحباني وفيروز، وقد أفاد من هذه الصداقات واليوم يعيش في أميركا هو وأولاده، وعنده ولدان من زوجته الأولى التي عرفها في الإذاعة، أما الزوجة الثانية فهي بيروتية من آل سنو العائلة المسلمة المعروفة. لقد عمل رجاء ما بوسعه في السنين الماضية على أن يفيدني وقد أفادني في بعض الأوقات وعرفني بالشخصيات التي يعرفها وبخاصة محمد عبد الوهاب والرحبانيين كما عرفني بالمرحوم نزار العظم في باريس، وقد كان السبب في سهرة جميلة لن أنساها مع عبد الوهاب في بيت نزار العظم في حي من أجمل أحياء باريس هو حي «أوتوى».

ورجاء الشربجي اليوم من أصحاب الحديث في المجالس تسمع نكته وتعليقاته ولست آخذ عليه إلا ذلاقة لسانه التي خلقت له بعض المشاكل، فهو وصاف ولكنه يقرن الوصف بنكته فيبدو طريفاً، ولقد أردت أن أصده عن هذه الطريقة ولم أستطع، فقد تعود على هذه الخطة ويبدو أن النقد عنده ملازم للنكتة فلا يستطيع أن يرجع عما ينويه. ورجاء من الناحية الفنية يفهم النكتة ويقدر الغناء وصوته يمكن أن يسمع ولكنه لا يهتم بشيء من هذه الأمور، وهي عنده بالمرتبة الثانوية فالمعاشرة والاختلاط بالناس والمدح والذم هذه الأشياء هي مدار حياته اليوم. ومن صفاته الخاصة أنه مقلد بارع حتى إنه أبرع من يقلدني بحديثي في لهجة أهل سلمية ولو سمعته من بعيد لقلت إنه من سكان تلك الديار، لكنه وهذا ما أحمده عليه، ما زال محتفظاً بصداقتي كما أنا محتفظ بمعرفته وصداقته. وهو ما زال يحرص على لقائي في كل مناسبة وأنا لم أزل أضمر له صداقة العمر.

أما الصاحب الثاني لفخري بك فهو السيد عمر العمري شقيق السيد صبحي العمري الذي كان في يوم من الأيام مديراً عاماً للشرطة كما كان نائباً مرات عديدة، والذي كان عقيداً في الجيش العراقي قبل أحداث الثورات العراقية الأخيرة، وعمر العمري من أخلص الأصدقاء الذين عرفتهم في حياتي؟ كان قريباً للقلب، أبيض أسود العينين، طويلاً، في صوته نعومة لا تدل على ضخامة جسده، وكان ذا صوت جميل، فكان يغني لنا أحياناً، وكان يعرف اللغة التركية معرفة جيدة ويحفظ من أغاني الأتراك كثيراً، وقد حدثت بهذه المناسبة قصة محزنة طريفة في آن واحد. يوم مات فخري البارودي كان الذي رافقه في مرضه وأشرف على مداواته والعناية به عمر العمري، لقد كان كالأم الرؤوم له ولما مر أربعون يوماً على وفاته ذهبنا إلى مقبرة الباب الصغير أنا وعمر والأستاذ سليم الزركلي الشاعر ورشيد البارودي ابن عم فخري بك وأختاه، ولقد تقدمت أنا فرثيته بقصيدة قلت في مطلعها:

أتيتك بعد دهر ظن شهرا ... لأكسو قبرك النديان زهرا

ولقد كان فخري بك يحب الزهر، وكانت الزهرة الحمراء تلازمه ولا تترك صدره أبداً، ثم تقدم الأستاذ الزركلي فألقى قصيدة أيضاً، وهنا فوجئنا بالسيد العمري ـ رحمه الله ـ يتقدم ويغني موالاً حزيناً من نغمة العجم التي كان فخري بك يحبها، فكان موقفاً عجيباً وكانت مصادفة من أغرب وأطرف المصادفات، والسيد العمري من أسرة هي من أعرق الأسر في دمشق، وكان والده قاضياً وقد تزوج كما حدثني اثنتي عشرة مرة لذلك كان له عدة أولاد، وكان لعمر عدة أخوة من أمهات متعددة وأكثرهم أصواتهم مسموعة أو مطربة، وخاصة أخوه «طه»، وهو الكبير لأن والده كان ذا صوت جميل. وعمر كان عقيداً في الجيش الأردني وهو خريج المدرسة الرشدية العسكرية في دمشق وقد اشترى بيتاً ضخماً في منطقة «شورى»، وهو البيت الذي قضينا فيه جلسات لا تنسى ونعمنا فيه بأطيب المآكل واللذائذ. وكان

لعمر سيارة كبيرة لقضاء أشغاله، وخرج يوماً على طريق المزة فصدمته سيارة زعزعت جسمه ورضته رضاً شديداً فدخل المشفى وبقي فيه أياماً، وكنت أزوره في اليوم مرتين إلى أن شفي تماماً، ولكن يبدو أنه لم يشف لأن الصدمة التي أصابته كانت قاتلة فكان يشكو بين حين وآخر، وفي يوم من الأيام وقد واعدته على أن تذهب إلى زيارة الأستاذ حسن الحكم رئيس الوزراء الأسبق ووزير مالية العهد الفيصلي، وجئت في الصباح فخرجت إليّ ابنته وهي مضطربة وسألتها ما بها؟ فقالت: إن والدي مريض، ودخلت لأرى عمر مضطجعاً في فراشه وعلائم التعب بادية عليه فمزحت وإياه وسليته قليلاً، وبعد أيام جئت لزيارته فوجدته قد أبَلَّ تقريباً. فخرجت وإياه ومعه ولده الكبير خطاب يتكىء عليه، ودرنا قليلاً في شوارع المنطقة عند تمثال المالكي وكأنه كان يودع هذه الأرض والديار التي احبها وضحك وطرب فيها كثيراً، وغبت أياماً ثلاثة عن دمشق ثم عدت في اليوم الرابع، فقرعت الباب وخرجت ابنته وما كدت أراها حتى وقفت وهي تبكي وتقول لي: لقد مات ودخلت فوجدته وقد غُطي وجهه بالرداء الذي كان ينام فيه وبكيت حتى رويت من البكاء وخرجت لا ألوي على شيء وقد فقدت شخصاً من أخلص الأصدقاء الذين عرفتهم في حياتي الدمشقية. كانت صداقة عمر صداقة الأخ الودود، كان إذا غبت عن البيت اتصل بأولادي بالهاتف أو جاء إلى باب الدار يسألهم عما يحتاجونه من كل شيء، وكان أكبر مسلّ لي لأنه كان متفائلاً دائماً، وكنت أنا متشائماً دائماً، فكانت الحياة عنده سهلة كما كانت عندي صعبة، فإذا حدثته بمعضلة تعرضت لها قال لي: انسها، وكنت أقول له: ألا تعرف غير النسيان، أعطني رأياً أفيد منه شيئاً، فيقول: انس كل ما يؤلمك تعش بلا ألم، وكانت هذه فلسفته الدائمة ـ رحمه الله ـ أما الصديق الآخر فكان المرحوم الشاعر سليم الزركلي، وشعر الأستاذ كان الشعر الموزون المقفّى ولكنه كان ينقصه التجديد كما ينقصه الطرب الشعري والنشوة الفنية، فهو مفيد لأجل الحفظ من قبل الطلاب الناشئين لتقويم لسانهم بلفظ عربي صحيح، أما إذا أردت النشوة من قراءته فلن تعثر على الطرب، ولعل عقدة سليم كانت في شاعريّة ابن عمه الشاعر الكبير خير الدين الزركلي، الذي كان شاعراً كبيراً بحق، والذي وقف إلى جانب شعراء العرب الكبار في عصر الكبار، وبهذا يمكن اعتبار سليم الزركلي نظّاماً جيداً وشاعراً متوسطاً أو دون المتوسط لخلو شعره من مقوّمات الشعر الفنية من صور أو لمحات أو ألفاظ مجنحة جديدة، ولكنه كان إنساناً متزناً و «آدمياً» بالتعبير العامي يمشي مستقيماً كأنه العصا ويجلس مستقيماً ويتحدث مستقيماً، فالاستقامة كل شيء في حياته كما كان وطنياً صادق الوطنية، وقد شغل وظائف كثيرة متنوعة بدأها معلماً ثم أصبح موظفاً في ديوان رئاسة مجلس الوزراء كما كان لمدة قصيرة مديراً للإذاعة، وكان من رجال وشباب الكتلة الوطنية وكان يحسن إلقاء الشعر حتى لقد ألقى شعراً لشوقي أمير الشعراء في دمشق كما أذكر. ومات منذ أشهر /١٩٨٩/ بعد أن تجاوز الخامسة والثمانين من عمره وفارق أصحابه جميعاً، وكان ـ رحمه الله ـ يحب المباسطة والنكتة ولكنه لم يكن منتجاً في النكتة بل كان راوية أو مقلداً في أكثر الأحيان. والأستاذ سليم كردي الأصل من قبيلة في منطقة ديار بكر وقد جاء جد العائلة في تجارة أغنام إلى دمشق فقطن فيها.

هذا هو الصديق والشاعر والمجنون أمين نخلة، الإنسان الذي لم أجد أحلى من حديثه وشعره وجنونه، إنه هو الجنون الذي وصفه أحد شعراء الصوفية وأظنه الحلاج يقول:

مجانين إلا أن سر جنونهم ... عظيم على أعتابه سجد العقل

كان أمين نخلة من أسرة عربية عريقة، وجده ـ كما روي لي ـ هو نخلة الهاشم، فهو ليس عربياً فقط بل هاشمياً أيضاً، وقد ارتكب جده جرماً في منطقته الأولى فانتقل بأهله إلى منطقة الباروك التي ولد فيها أمين وأبوه رشيد نخلة الزجّال الشهير وصاحب نشيد لبنان الرسمي المعروف. كان أمين نخلة ممتلىء الجسم واسع العينين أهرث الفم كما يقال فيه بحة محببة بصوته وخاصة حين ينشد شعره، ولكنه إنسان لم يتقيد بشيء في حياته لا بدين ولا عرف ولا تقاليد ولا عادات، لقد جاء ليعيش في عزلة عن هذا العالم كله ببيئته كوّنها لنفسه لا يشاركه فيها أحد، يلبس فلا تعرف كيف يلبس، ولكنه ذو رأي صحيح في كل ما يلبس، أما هو فقد يلبس جِراماً من الصوف يخيط منه بزة لنفسه، وقد يأتي من بيروت إلى دمشق فجأة فلا يحمل شيئاً حتى ولا آلة الحلاقة، يأتي إلى بيت فخري البارودي فيضطر لشراء كل شيء مجدداً

من الحذاء إلى القميص إلى ربطة العنق... الخ، ويجلس فلا يأكل إلا قليلاً ولا يشرب إلا قليلاً لأنه يكون دائماً مشغولاً بشعره الجديد؛ وقد عاش أمين حوالي سبعين سنة ولكنه عجز في أخريات أيامه عن القيام، ولما مات لم يشيعه إلا عدد قليل من معارفه وأقربائه فكان موته كموت المنفلوطي، وقد مات يوم أقدم أحد المهووسين على طعن سعد زغلول بخنجر يريد قتله فقامت مصر كلها تسأل عن سعد ونسيت المنفلوطي الذي مات في وقت هذه الحادثة فلم يشيعه أحد، ولذلك قام شوقي يرثيه:

اخترت يوم الهول يوم وداع ونعاك في عصف الرياح الناعي
من مات في فزع القيامة لم يجد قدماً تشيِّع أو حفاوة ساعي

وهكذا مات أمين نخله لم يشيعه أحد إلا شعره وذهب فلم يودعه صديق اللهم إلا أصدقاء مجالسه ومجتمعات أحاديثه، عرفته في أيام المهرجان الأدبي للبحتري وقد أرسل إليّ وهو في فندق سميراميس على ضفة بردي القديم، فوجدته في غرفته جالساً على سريره الذي ينام عليه وبجواره صينية عليها طبق من فتة الحمص «التسقية» المعروفة في دمشق وقد وضع دفتراً إلى جواره، فهو يأكل كل لقمة وينظر في الورقة فيشطب حيناً كلمة أو يضع كلمة جديدة، وأخذ يقرأ لي:

أفسحوا في مجلس الشعر لنا نحن من لبنان من عُليا الدنا

وأخذ يقرأ لي كلمات يطلب رأيي فيها، وأمين من شعراء الكلمة والصورة فهو فنان رفيع القدر، ومن أعرق الشعراء بمواقع الكلمة ومن أقدرهم على اختيار النغمة التي تنبثق عن الكلمة وعن حروفها، قلت له مرة إنني غير معجب بأبياتك القديمة وحملق فيّ يسألني أية أبيات؟ وقلت له: التي تقول فيها:

أنا لا أصدق أن هذا الأحمر المشقوق فم
بل وردة مخضلة حمراء من لحم ودم
كل الشفاه أحبها كم مرة قالت نعم

فسكت واتممت رأيي، إنك تذكرني بدكاكين القصابين فما هذه الألفاظ المخيفة: مشقوق، حمراء، لحم، دم، أكنت في مشرحة؟. وغيّر الحديث وأدركت أنه آمن بفكرتي ولكن الأبيات كانت قد اشتهرت ولم يعد يملك هو نفسه إلغاءها. أما شعره الذي يرتفع فيه إلى سماوات الفن العليا فيقول فيه:

أحبك في القنوط وفي التمني كأني صرت منك وصرت مني
أحبك فوق ما وسعت ضلوعي وفوق مدى يدي وبلوغ ظني
هوى مترنح الأعطاف طلقاً على سهل الشباب المطمئن
سكرت إذن فهل تدري الدوالي بأنك أنت أقداحي ودنّي

وعلى القارىء أن يتأمل هذه الألفاظ المنتقاة وكأنها حبات اللؤلؤ في إناء من ذهب، وينظر أمين نخلة إلى امرأة جميلة تحمل عقداً يتموج على عنقها فيخاطب العقد قائلاً:

سألت له الله أن يهدأ فقد تعب العقد مما رأى

ويرى امرأة تلبس ثوباً أزرق فيقول:

أحببت من أجليك كل غمامة زرقاء يا ذات القميص الأزرق

ويرثي شوقي فيقول:

مرت ثلاثة أشهر فكأنما عمري من الدنيا ثلاثة أشهر

وهي الأشهر التي قضاها مع شوقي في لبنان. ولكن أميناً اشتطّ مرة وخرج عن طوره ووعيه فادّعى أن شوقي قال فيه شعراً ولم يخجل من هذا الادعاء غير الصحيح، فأثبت الأبيات في صدر ديوانه والأبيات تقول:

هذا أمين لعهدي وقيّم الشعر بعدي
فكل من قال بيتاً في الشعر عبد لعبدي

وقلت لأمين: ما كان أغناك عن هذا المديح السمج لتلصقه بشوقي وهو لصيق بك ودال عليك بما لا يدع شكاً للمرء في نسبته إليك، إنه أسلوبك يا أمين، وأنت غني عن هذا كله.

كان أمين نخلة شخصية أدبية بارزة لولا انفراده برأيه وبُعده عن المصطلح العام، ولقد سمعت فخري بك يسمعه ملاحظات كثيرة ولكنه لم يكن يسمع، ولولا هذا الانفراد لكان مرشحاً لأكبر المناصب، كان شاعراً ولا يهمه إلا أن يكون شاعراً وله آراء عجيبة، دعاني مرة في بيروت مع صديق آخر في مطعم من أشهر المطاعم، وعند الغداء قال لعامل المطعم: أحب أن آكل مما صنعتم أنتم لأنفسكم، فجاؤوه بصحن بسيط لا يلفت النظر وحين قلت له: ما هذا؟ قال: إن العمال «الكرسونات» ينتقون دائماً أفضل الطعام لأنفسهم، فأنا لذلك آكل مما يصنعون لأنفسهم، وضحكت وقلت له: يا لك من فيلسوف غذائي لا مثيل له، لم يكن غنياً ولكنه كان كريماً كرم النبلاء، ولم يكتب كثيراً مع أنه الوحيد بين الشعراء الذي كان يتساوى شعره مع نثره، فهو أشبه بولي الدين يكن في هذه الناحية، لقد كان مُقِلاً ولكن شعره كان كالحجارة الكريمة قليلة وغالية.

وصديق آخر هو الدكتور عزت طباع بن كامل الطباع من أهالي حي باب السريجة سابقاً أو قير عاتكه، وهما متجاوران، إنه شاعر وطبيب وكاتب ولغوي وقوي الذاكرة، وهو إنسان يحب الحياة وقد قارب اليوم الثمانين، وما زال يرتاد المقصف الذي كان يرتاده منذ خمسين سنة، فهو مثابر على عاداته لا يغير شيئاً منها، وهو قارىء مدمن للقراءة في اللغات الثلاث العربية والإنكليزية والفرنسية، لقد عرف كل شيء ولكنه اكتفى بالمعرفة ولم ينتج شيئاً حتى الآن، عمل في الطب وتركه، وعمل في الوظيفة وتركها، وعمل في الشعر وتركه وعمل في النثر وتركه، فهو بطل الترك لكل شيء بين الأدباء مع أنه من أوائل المثقفين في هذا القطر، ولا يضارعه في رأيي إلا المرحوم صلاح الدين المحايري الذي مات منذ سنة أو أكثر والذي لم يكتب إلا مقالاً أو مقالين ظل يتحدث عنهما طوال حياته مع انه كان يستطيع أن يصنع المجلدات الضخمة لو أراد، (وله حديث خاص في هذه المذكرات)، تخرج عزت طباع من كلية الطب وهو شاب في مطلع الشباب وكان يرجى له أن يكون أشهر طبيب في البلد ولكنه تعرض لأحداث في حياته غيرت من مجرى هذه الحياة، لقد أحب كثيراً وسافر كثيراً وتجول في كل الأقطار ولم يجمع ثروة أو مالاً، وكان بوسعه أن يكون أغنى رجل في بلادنا، فقد تسلم مرة مديرية الصحة للمملكة العربية السعودية ولكنه ترك دون أن يأخذ معه إلا قليلاً من المال فلم يكفه إلا شهوراً، وأصبح في عهد الشيشكلي مديراً للصحة العسكرية، وتعرض لحادث آخر ترك على أثره الوظيفة، كان جميل الشكل فيما مضى أبيض ناصع البياض أقرب إلى الشقرة أشهل العينين الواسعتين ممتلىء الجسم، ولكنك لو رأيته اليوم لرأيته أبيض الشعر مع شيء من الاحديداب عملته السنون، ولقد فقد ولده البكر بحادث مؤسف وكان مهندساً وخلف له ولدين، وقد أثرت فيه هذه الحادثة وأظنها هي التي عجلت بشيخوخته، وهو مناقش عنيف لا يقر ولا يعترف إن خدعته ذاكرته، وكثيراً ما اختلفت معه ولكنه إنسان يقدر العلم والعلماء ويعرف مقدار كل إنسان يعاشره أو يجالسه، ولقد عرف لذات الحياة وذاقها كاملة فعاش في أرفع الأماكن وأغلاها وحلب شطري الحياة فهو اليوم غير آسف على شيء لم يصل إليه، وله بحمد الله أولاد كثر كلهم من حملة الشهادات العليا من هندسة وطب وغير ذلك. أما حياته اليوم فهي مختصرة جداً تحوم في منطقة المقاصف والمطاعم وهو يتنقل يومياً بين هذه المطاعم ثم يعود إلى بيته. كان يتردد الدكتور الطباع على السيد البارودي ولكنه لم يكن من الدائمين في مجلسه، فهو يفضل أن يقضي أوقات فراغه في مقصف أو مطعم. ومن الذين كانوا يترددون على فخري بك ابن عمه رشيد، وهو رجل أنيس المحضر قصير القامة جداً ولكنه أنيق بارع الأناقة، ومن قدماء موظفي وزارة المالية وقد عرفته أول مرة في مقهى الكمال القديم في المرجة وكان يصعد لهذا المقهى بسلم حجري عال، وقد غامرت مرة فلعبت بالورق وجمعتني الصدفة برشيد هذا مع رفاقه وكانت هذه المصادفة كارثة عليّ لأني أضعت كل ما كان معي بلعبة «البوكر» المستور وهو لعبة مسلّية، ومن يومها تركت الورق تركاً لا رجعة بعده.

هذا حسني تللو الصديق الأول والأقدم والأضخم، حسني تللو أبو عدنان الذي عاش مع البارودي لم يختلف معه ولم يتركه مدة ستين عاماً، ويوم مات البارودي لزم داره فلم يخرج منه حتى مات مثله، وكنت أزوره في مرضه وفي عزلته فيتحدث إليّ حديثاً متعباً مرهقاً وكأنه يرى الموت أمامه، فإذا ابتسم كان

ـامه مظلماً وإذا ضحك كانت ضحكته كالبكاء، مبحوحة جافة. كان حسني تللو من مواليد الثمـانينات
لقرن الماضي، وقد عاش حتى السابعة والثمانين فهو من لدات البارودي. ولكنه كـان يزن ثـلاثة أمثـال
ـودي فقد كان ضخم الجثة ولكنه صحيح البنية يمشي ويأكل ويدخن ويسهـر ويرقص ويهـزج ويفعل
ما يفعله الشباب، كما كنا نفعل نحن وبيننا وبينه أكثر من ثلاثين سنة. إن المرح حياة جديـدة تضاف
الحياة، والمرحون هم الذين يعيشون لأنهم يتذوقون الحياة، لا بل يأكلـونها لقمـة لقمة، وهي تغـذيهم
ـنهم على البقاء. كان والده من أغنياء حي الميدان، فقد كان تاجراً محترماً للحبـوب «البوايكي» كمـا
ـي، أما شكل أبي عدنان فهـو الوجـه المشرب بالحمـرة المستديـر ذو العينين الخضراوين مـع جفنين
لانهما وأنف صغير وفم كالخاتم، كما يقال، أما إذا انتقلت إلى مـا تحت العنق فإنـك ستقع عـلى بطن
جداً وفخذين كأنهما عمودان في بناء قديم، كان يمشي كل مسـاء وصباح من بيتـه في زقاق «البـركة»
اور لباب السريجه فيصل خلال ساعة أو تزيد، يتحدث لهـذا وذاك، فإذا وصـل إلى «تحت القناطـر»،
ـ يستعرض الرائح والجائي ثم يدخل بيت البارودي، فإذا كـان الصباح ظـل إلى ما بعـد العصر وإذا
المساء بقي إلى مطلع «النماري والكعـك» أي إلى ما يقـرب الصباح ولا يشكـو ولا يتذمـر ولا يمل ولا
. كان يحبني حباً جمّاً فإذا غضب لخطأ طارىء مني اتهمني بأني فلاح (لا بل قـروي)، وهذه كلمتـه
ـت أضحك من غضبه وأسأله عن «بـل» هذه، من أين أتى بهـا؟ وهو أجهـل من الجهل فيعـود راضياً
ـحك. كان إذا جلس إلى الطعام يأكل كغيره فلا يبالغ، ولكنه إذا قـام عن الطعام استـأنف بعد قليـل
ماً آخـر من راحة أو بـذر أو قضامـة أو فستق أو ما يشبـه هذه الألـوان التي تسكن في باطن المـرء
ـيب له السمنة الدائمة. كنت اتّعد معه على أن نلتقي في شارع النصر قريباً من بيتـه فنركب السيـارة
دمّر وننزل في مقصف ومطعم الفردوس الشهير بكبته «الخالدة»، فنفطر باكراً ثم نظل إلى الظهر، وعند
ـهر نمشي على ذلك الطريق الجميل الموشح بالأشجار الظليلة، وكانت السيارات قليلة فلا يمـر بنا منهـا
واحد كل ساعة أو أكثر، وفي الطريق كان يحدثني عن كل شيء، أما إذا كـان مستاءً من صـديق عمره
ـيد البارودي فإن الحديث كان يقتصر على البـارودي دون غيره. وكـان البارودي ـ كمـا كان يقـول أبو
ـان ـ شاذاً في معاملته، فحسني أرسل ولدين له للدراسة واحد في ألمانيا والثاني في أميركا وقـد احتاج
الاستدانة لهذه الأسباب فكـان فخري البـارودي لا يجيبه إلى طلبـاته في الإقـراض، وكان يشكـو من
ـت ولديه في دار الغربة وهما معذوران لأن الدراسة كلفتهما كثيـراً. وقد كـان لنا صـديق هو المـرحوم
ـسيقي الموهوب سعيد فرحات صاحب الموشحات والأدوار وأقوى من عرفت من الموسيقيـين في دمشق،
فرحات فقيراً وكان معجباً بعلمه الموسيقي وقدرته عـلى الغناء، وقـد عُيّن معلمـاً في المعهد المـوسيقي
ـي أسس في دمشق ولم يكد يستلم عمله كمدرس للموشحات حتى بدأ الخلاف بينه وبين مدير المعهـد،
ـن يأتي إلى فخري البارودي يشكو إليه تهافت المدير والمعهد وهو غير راض عن كـل شيء حولـه. وكان
ـي البارودي يهدىء من أعصابـه بصبر عجيب، وكنت أنـا وحسني تللو نحـرّق الأرّم غيظاً منـه لأنه
ـض النعمة التي أصابته وهو محتاج لليرة الواحدة، ولكنه استمر في معاكساته ومشاكساتـه وادعاءاتـه
ـم واتهام غيره بالجهل إلى أن صادفتُه، وكنت أنـا وحسني تللو في المقهى وجلس إلينـا وكنا منـزعجين
كما قلت، وعاد إلى حديثه السابق، وفي هذه المرة أمسكت به ولقد قلت له: إنك جـاهل وأمّي لا تعـرف
ـة وكتابة، ألا تحمد ربك على أنك صرت موظفـاً بدون شهـادة، ومع هـذا الراتب الـذي يحسدك عليـه
ـس جميعاً لا تسكت ولا تهدأ، لو كنت محل المدير لمنعتك من دخول المعهد عـلى مسؤوليتي، فسكت ولم
ـؤ على معاكستي وقد كان يظن أني من طرفه، وقام لا يلوي على شيء وصرخ حسني تللو وقال: لا فُض
ـ لقد نفثت عني بهذه الكلمات التي علمته فيها كيف يتصرف وعلمته قيمته التي يظن أنهـا فوق الغيم،
ـسخف الذين يقلدون من هم أكبر منهم علمـاً ومن هم يقدرون عـلى ضررهم وإيذائهم. كـانت معرفتي
ـلى بحسني تللو رواية مضحكة وإليكها: دعـاني الأصدقـاء عبد الهـادي المعصراني وسعيد التـلاوي
ـي الدين رسلان ونديم حسني إلى حديقـة الزهـور التي كانت في القصـاع على طـريق دوما، فـذهبت
ـن دخلت الحديقة وجدت الجماعة كلهم يقـومون ويقـولون لي: اجلس مـع حسني بك ونحن راجعـون،

فصدقتهم ودخلت فسلمت على أبي عدنان فأجابني بكل جفاف، ولم أفطن للعبة. وقلت: لعل طبعه هكذا وأنا لا أعرفه ولم أكد أجلس حتى قال لي بجفاف أكثر: ألا تريد أن تشرب؟ اشرب يا أخي وخلصنا، وسكبت وتناولت الشراب ومكث قليلاً وهو ملتفت إلى خارج المقهى لا يحدثني ولا يكلمني، وبعد قليل قال لي: قم، ألا تريد أن تمشي؟ لا فائدة من البقاء هنا. لقد ذهب أصحاب الدعوة ولم يعودوا وظللت مع هذا الثقيل فوجدت القيام أسلم وقمت وإياه وركبنا «الترام» الذي كان يومها ومشينا لا أحدثه أو ألتفت إليه حتى وصلنا إلى المرجة فنزل هو من جانب ونزلت أنا من الجانب الآخر وأنا ألعن أولئك الصحاب الذين دلوني على هذا الثقيل. وفي اليوم الثاني صادفني المرحوم نديم حسني وسألني: ما الذي تم بالأمس بينك وبين حسني تللو؟ فشتمته هو وأصحابه وشتمت حسني تللو، فانفجر ضاحكاً وحدثني باللعبة وما جرى. لقد أفهموا حسني تللو أني أثقل رجل في العالم وانني كثير الغلبة كثير الكلام لا أصلح لشيء في هذه الحياة، وما وصلت إلى باب المقهى صرخوا كلهم: جاء، يا لطيف! وخرجوا كما وصفت لك، واقتنع حسني تللو بكل الصفات السيئة التي نعتوني بها. وبعد أيام قليلة اجتمعنا عند فخري البارودي وكانت الشلة التي وصفتها لك سابقاً وأجدت يومها، فقد فتح الله عليّ وأوردت من الأحاديث والنكات ما لا يوصف حتى سيطرت على المجلس، وإذا بحسني تللو يركض إليّ ويقبلني ويقول: تقبر عظامي، والله لقد غشوني الكلاب لقد خدعوني، تقبر عظامي، وهكذا بدأت صحبتي بعد هذه اللعبة التي كادت أن تؤدي بي وبه إلى السجن ونحن بريئان.

وفصل آخر جرى لي مع حسني تللو ولكنه محزن هذه المرة، فقد رأيته يبكي لأول مرة، كان حسني يحبني ويؤمن بأنني متعلم بما فيه الكفاية وأنني أصلح للمجالسة وللحديث حتى مع أكبر الناس شأناً، وعلى هذا فقد كان حريصاً على أن يجمعني مع السيد خالد العظم رئيس الوزراء السابق، وكان يصفه لي كعالم وموسيقي وأديب وانه يفهم النكتة وهي طائرة كما يقال، وانني لو اجتمعت إليه لما افترقنا أبداً ولكنت أول شخص عنده، وكنت أرفض هذا الاقتراح وأقول له، دعني من هذه النصيحة، وفي مرة من المرات تغير رأيي وقلت فلأجرب، والذي دعاني إلى القبول أن حسني تللو كان صديقاً دائماً ومرافقاً لخالد العظم، وكان يحدثني بأحداث تدل على أن الرجل يحترمه ويقدره، ودخلنا ونحن في رجوعنا من مطعم الفردوس الذي اعتدنا زيارته بين صباح وآخر الحديقة الكبرى التي أصبحت اليوم «مطعم القصر» بعد أن ترك هذه الدار خالد العظم واستقبلنا خادم البيت وجلسنا واعتذر الخادم بأن «البيك» نائم وقلنا: ننتظر، وانتظرنا.. وانتظرنا، ولم يخرج البيك وظللنا أكثر من ساعتين وبعد الساعتين جاءت القهوة، وصرخت بأبي عدنان، قم من فضلك، وتركت القهوة لم أشربها وكذلك حسني تللو وذهبنا في طريقنا إلى باب البيت ورأيت حسني يقول لي: أرجوك باسم الصحبة القديمة أن لا تروي هذه الحادثة الكئيبة لأحد لئلا يشمت الناس بي. ولم أذكر هذه الحادثة إلا بعد أن مات، وكم يطيب لي هنا أن أذكر: أن خالد العظم قد لجأ إلى السفارة التركية يوم ٨ آذار ١٩٦٣ ومرض في السفارة التي بقي فيها قرابة السنة، وكم كنت سعيداً حين استطعت أن أقدم له خدمة في السعي من أجل ذهابه إلى بيروت كما كان يريد، وقلت في نفسي: يا سبحان الله! يا ليته خرج لاستقبالنا يوم أرسل القهوة، ولم يخرج لكي لا يبقى مديناً لي ولحسني تللو رحمه الله وأجزل ثوابه وسامحه. وتعرض حسني مرة لحادثة أخرى تألمت لها كثيراً ولكن لم يكن بد من حدوثها، فقد جاء إلى دمشق الأمير فهد السالم الصباح أحد أمراء الكويت وكان عبداً أسود وأمه سوداء مثله وقد مات بعد ذلك بسنوات، وقيل إنه قتل في عرض البحر وكان رجلاً ذكياً، كان هذا الرجل يعرف البارودي كما كان يعرف دمشق، وقد حدثني أنه جاء إلى دمشق مرة مع أقرباء له ونزلوا في فندق كان يسمى فندق (بغداد) وكان محله بجوار مقهى فاروق القديم أي على رأس شارع «البوابة» وأول شارع بغداد، وقد جاء الفرنسيون في ليلة من الليالي وأوعزوا إليهم هو وجماعته بترك المدينة والسفر منها، وقد كان تلميذاً في الجامعة الأميركية. وآل الصباح أكثرهم كانوا / أصدقاء لصديقنا الوطني المعروف جمال علي أديب، الوجيه والسياسي، وأظن أنه هو الذي جمع بينهم وبين البارودي الذي كان زميلاً لجمال في المجلس النيابي وطلب الأمير فهد، أو على الأصح استأذن في أن يقيم هو حفلاً

ساهراً، على أن يجتمع فيها قليل من الأصدقاء مع فرقة الإذاعة السورية والمطربة الكبيرة ماري جبـران، وكانت السهرة ولم يكن فيها من المدعوين غيري وحسني تللو والمرحوم صديقنـا جميل الأرمنـازي وجمال علي أديب، وظللنا ساهرين إلى الصبـح في بيت فخري بـك الجديـد الذي كـان على طـريق الربـوة والذي اشتراه من الصديق الآخر الموسيقي عازف العود المعروف والملحن شفيق شبيب، ولقد غنت مـاري ليلتها غناءً لم يسمع بمثله، وكان الأمير كريماً فأعطاها ما كفاها من المال لهـا ولمن عاونهـا من الموسيقيـين، وقد جلب من البيت الكويتي عدداً من الخرفان المحشوة مع الحلويات وغيرها، وكان حفلاً سخياً ولما خرجنا في الصباح لنذهب إلى بيوتنا تقدم حسني تللو وركب في السيارة التي ركبت فيها ماري فما كان من الأمير إلا أن صرخ بـه: انزل انـزل، ونزل حسني تللـو كجلمود صخـر حطه السيـل من علٍ، وقـد تألمت من هـذا الحادث، أما فخـري بك فضحـك هو وبعض الحـاضرين، ولم أسكت فقد أوضحت لفخـري بك أن هـذه البادرة هي وقاحة لا تناسبنا ولا ترضينا، إنها كبرياء تجبر لا لزوم لها. لقد فهمتها فهماً خـاصاً كـرهته، ووضعت يـدي بيد أبي عـدنان وتـركنا الجمـاعة وسرنـا وحدنـا إلى البيت. وكان حسني يمـازح السيـد الباroudي في أمور كثـيرة تدعـو إلى التسلية والضحـك. فقد أراد البـارودي مرة أن يشرب مسهِّلاً لوعكـة أصابته وصنعت له الخادمة كلثوم كأساً مليئة من مادة «الملح الإنكليزي» وجـاءت بها لفخـري بك، ولكن حسني تللو كان أقرب إليها إذ كان جالساً في طرف المجلس فأعطته الكأس لينقلها لفخـري بك، ولكن أبـا عدنان أخذ الكأس وشربها دفعة واحدة، وجن جنون فخري وقام وهـو يصيح: أعـلى المسهل أيضـاً، أعلى المسهل، يخرب بيتك؟ وضحكنا حتى امتلأنا سروراً.

٤١ شخصية غريبة

حين كنت طالباً في مكتب عنبر قرأت ومعي رفيق آخر أظنه برهان الأتاسي ـ رحمه الله ـ وكان أديباً كما أسلفت الحديث عنه، قرأت قصيدة منشورة في إحدى الجرائد الدمشقية عنوانها «الشاي» وموقعة من شاعر اسمه «أحمد الصافي النجفي» وسألت عن الرجل فعلمت أنه نزيل دمشق وأنه عراقي من النجف وأنه اتخذ من المقهى العربي الذي كان في المرجة مستقراً له أثناء النهار كله إلى ما بعد العشاء، وعلمت فيما بعد، وحين عرفته جيداً أنه ينام في غرفة في خان كائن في سوق الخياطين وراء سوق الحميدية استغربت هذه الحالة، ولما رأيته حسبته غاندي الزعيم الهندي المعروف فهو يشبهه بوجهه تماماً، إلا أن هذا طويل ويلبس العباءة والكوفية والعقال، كما يلبس في رجليه حذاءً خفيفاً (شحاطة) على عادة أهل النجف أو أكثرهم، كما يلبس فوقها جورباً ينحط عن ساقه حتى يكاد يخرج من رجله. ذهبت إليه فوجدته مع عدد من الصحفيين الدماشقة وهو يتحدث باللهجة النجفية المعروفة وقد جمع حواليه ثلاثة أو أربعة كراسي يجلس على واحد ويتكىء على آخر ويضع رجليه على ثالث وأوراقه على رابع فكأنه في المقهى وحده.
كانت القصيدة موضوعاً جديداً؛ فالشاي لم يكن بحدّ ذاته موضوعاً شعرياً ولكنه أحسن استغلال الموضوع واستطرد في حديثه عن الشاي إلى أمور أخرى، ولكني وجدت ضعفاً في نسجه الشعري وفي لفظه ولكنه فصّل المعنى تقليباً وبحثاً عن جوانبه مع تكرار زائد للكلمات ولحروف العطف وحروف الشرط وغيرها من الأدوات التي تربط الجمل بعضها ببعض وتعارفت وإياه، وقد خصني بمعرفة خاصة، فإذا به من أصحاب النكتة ومن محبي الضحك، ولكنه كان إذا ضحك أصبح شبيهاً بغاندي تماماً في فراغ فمه من الأسنان وفي تكوره على كرسيه وحركات يديه العصبيتين حتى يكاد يقف على كرسيه حين الضحك.
وأخذنا نروح ونجيء كلما سنحت لنا الفرصة وخرجنا من المدرسة إلى البلدة، وأخذ ينشر قصائده في جرائد دمشق، وكان غريباً في كل شيء ولا سيما طعامه فقد كان أكثره من الكعك والشاي الذي يتناوله من المقهى ومن البيض المسلوق يقشره أمامنا ويأكله وكأنه يأكل بعض الحلوى، فلم يكن يذهب إلى مطعم أو بائع لحم أو غير ذلك، ولم يكن يتعاطى أكل الفواكه. كان يجلس في مقهاه فلا يتحرك إلا إلى النوم وقد عرفه أصحاب المقهى فأصبحوا يعطفون عليه ويلاطفونه في طلباته الكثيرة التي لا تنقطع والتي هي ملأى بكثير من الملاحظات المملّة المضحكة. ولقد سألنا عن سبب مجيئه لدمشق، وسبب إقامته فيها هذه المدة الطويلة فكان يدعي المرض وقلة الأطباء في العراق، ولكننا عرفنا فيما بعد وعن طريق بعض الطلاب العراقيين رفاقنا في الجامعة أنه من عائلة معروفة وأن عائلته تنتسب إلى آل البيت، بدليل أن الصافي قد جاء إلى دمشق وهو يحمل العمامة السوداء التي يلبسها السادة (أي المنسوبون) في العراق، وأنه اشترك في الثورة القديمة عام /١٩٢٠/ في العراق ضد الإنكليز وذهب لاجئاً سياسياً إلى إيران وظل في طهران ثماني سنوات تعلم فيها اللغة الفارسية وأتقنها حتى انتخب عضواً في المنتدى الأدبي الفارسي. أما السبب الحقيقي لتركه بلدته فلم يعرف وما زال سراً غامضاً حتى بعد وفاته إلى رحمة الله. كان ينظم شعره في كل مكان وخاصة في المقهى، وكان يحب النزهات فيذهب وحده إلى مقهى في الربوة، فيجلس فيه طوال النهار، وقد وصف هذه الأماكن التي أعجبته في الكثير من شعره وله عدة دواوين شعرية بلغت أكثر من عشرة دواوين منها: «التيار» و «الشلال» و «أشعة ملونة» وغير ذلك، وكان في شعره مولداً للمعاني لا سيما في البيت أو البيتين وقد يخلط شعره بأبيات ضاحكة ماجنة من الأدب المكشوف فيوفق فيها ولكنها غير قابلة للنشر كذينك البيتين اللذين وصف فيهما الفتاة التي رآها لأول مرة تلبس «البنطلون» تقليداً والتي قال فيها على البديهة:

لبست لبس الشباب ... واختلت كالمرد سيرا

ولكن شعره كما قدمت مفكك اللفظ فهو تنقصه الديباجة القوية، أعني الديباجة البحترية أو

الشـوقية. إنـه يكثـر من أدوات العطف والفـاءات ويكـرر العبـارات بحيث يضطـرب النغم في القصيـدة فيضعف تأثيرها، وكنت أشبهه بابن الرومي مع الفارق الكبير من حيث التصوير والاختراع، وأقصـد من حيث ملاحقة المعنى حتى ينقد ما فيه. أسمعني مرة أبياتاً أعجبت بديباجتها وحسن سبكها وهي:

تـأملـت في كـأس الطـلى وهي في يـدي ... فـأبصرت آمـالي عليـهـا تخطط
ولاح شبـابـي وهـو شلـو ممـزق ... ولكنـه بـالـذكـريـات محنط
فكـادت هنـاك الكـأس تسقط من يـدي ... وكـادت يـدي من جـانب الكـأس تسقط

ولأول مرة رأيت في هذه الأبيات ديباجة حلوة وألفاظا متناسقة ونغماً شعرياً رائعاً وقلت لـه ممازحـاً: والله لقد شككت في هذه الأبيات يا صافي حتى لكأنها ليست لـك، فثارت عصبيتـه وشتمني على الطـريقة العراقية، وكنت أمازحه ويمازحني كثيراً، لا بـل لقد كنت الشخص المفضـل بالقيـاس إليه لا سيمـا وأن الشيعية تجمعنا في الأصول البعيدة، ولكنه كان غيري، فهو شيعي متعصب، والنجف كما لا يخفى مصدر الشيعية في العالم لأنها موطن الإمام علي «رض» كان يقول عني: إنني عبد أبيض لضخامة شفتي رغم ما كان يقول لمن حولنا: أحمد يحمل روح نحلـة على جسـد فيل فكنـا نضحك، ولكنـه كان يضيق ذرعـاً حين أتغلب عليه في نكتة تعجب الناس فيضحكون ويسكت هو مزمجراً وكأنه اندحر في معركة، نظرت إليـه مرة وأطلت النظر فالتفت يقول لي. ما لك تطيل النظر فيّ هكذا؟ وقلت له على البـديهة: أنـا أتقشف يا سيـدي، وضحك القوم وشتمني هو، وذهبت هذه النكتة تدور في مقاهي تلك الأيام ويتناقلها أصحابنـا. وكنت وإياه مرة جالسين في مكان نـزه في الربـوة، وشاهـدت من بعد عسكـراً فيهم بعض الأفراد من أهـالي السلمية وواحد منهم من عائلتنا فأتيت إليه وركبت جواداً كان معه وجئت إلى الصافي خيالاً، وحين رآني أخذ ورقة من أمامه وكتب هذين البيتين أرويهما للنكتة، وإن كان فيها لئيماً غاية اللؤم كعادته في شعره:

رأينـا أحمـد الجنـدي يـعلـو ... حصـانـاً كـان أشبـه بـالأتـان
فلـم نـر قبـل أحمـد إذ عـلاه ( ) ... راكبـا فـوق الحصـان

قلت: إنه كان لئيماً وأقصد باللؤم أنه كان ينفذ ما فكر فيه ولو أنه يؤذي صديقه، فالمهم أنه قال مـا يريد. جاء إلى حماه مرة ونزل ضيفاً على السيد نجيب البرازي الوجيه المعـروف، والسيد نجيب البـرازي كان يحب الأدباء وأصحاب النكتة وكان الصديق الأول للشيخ محمود الزبرؤتي الشاعر الذي تحدثت لـك عنه في الحديث عن أيام حماه، وكان البرازي غنياً جداً، وفي رأيي أنه كان كـريماً ويحتـرم نفسه ويسعى إلى الإكثار من أهل الفن حوله مفتخراً بذلـك على عـادة الأمراء القـدامى، وقد كـان الصافي عنـده معززاً مكرماً يعيش في «قناق» الآغا الكبير المعروف في حماه ويأتي إليه الزوار من كل المدينة من علماء ومشـايخ وأدباء وأساتذة. وفي يوم من الأيام وردني هاتف، وكان صديقاً لأخي الكبير وزميلاً له في الكتلـة الوطنيـة التي كان الآغا من أقطابها في حماه إلى جانب الـدكتور تـوفيق الشيشكلي، وفي الهـاتف طلب إليّ الآغا أن أوافيه إلى القناق لمشكلة عرضت له، وقمت لتوّي فجئت إليه ووجدته وحده في غرفته فقال لي: دبر لي هـذه المشكلة العويصة، واستغربت قوله، ولكنه أردف قائـلاً إن صاحبك الصافي مضرب ويـريد السفـر وهو عندي منذ أيام ولكنه سيسافر وهو غضبان وهذا ما لا أريـده، لذلـك أرجو منـك أن تعمل عـلى إرضائـه بالطريقة التي تريد؛ وقد عرفت المسألة منه، انـه قدم للصـافي كسوتـين من قنباز وكـوفية وعقـال وسترة وحذاء وكل شيء، ولكن الصافي رفض أخذ هذه الهدية واحتج بأنه لم يأت ليتسول، وحاول الآغا أن يقنعه فلم يقنع، ووسّط شاعر العاصي بدر الدين حـامد ـ رحمـه الله ـ فلم يفـد شيئاً، ووسّط المطـران حريكـة، مطران حماه فلم يقنع، وجئت أنا لأحل هذه المشكلة، ودخلت عليه في غرفته فوجدته كالطفل الذي ضربتـه أمه، ساكتاً ساكناً في زاوية المكان، وقلت له: كيف تأتي إلى حماه ولا تعلمني، ونظر إليّ محنقاً يقـول: دعنا من هذا الكلام الفارغ، أنا أريد السفر والآغا لا يدعني أسافر ولقد أهانني بأن قدم لي هذه الألبسة فـأنا أرفض أخـذها رفضـاً باتـاً وأريد السفـر عاجـلاً. وخطرت عـلى بالي حيلـة جن لها الآغـا سروراً وضحك بدر الدين حتى كاد يستلقي على قفاه، لقد قلت للصافي: هذه الألبسـة ليست بلا ثمن، ونظـر إليّ محملقاً،

وقال: كيف؟ قلت إن معك عدداً كبيراً من نسخ دواوينك حملتها معك إلى حماه، قال: طيب وماذا تعني؟ قلت: تحسب كم ثمن النسخة ونحن نأخذ من كتبك ما يعادل ثمن الألبسة، قال: أترى هذا ممكناً، قلت: كل الإمكان، قال: حسناً، أقبل، وذهبت مسرعاً إلى الآغا وأعلمته بالأمر فسر وركض إلى الصافي وهو يقول: يا أخي عجل، هات الكتب، الكتب أفضل من القماش، وهكذا انتهت المشكلة على يدي وكانت يداً عند الآغا لم ينسها فيما تلا من الأيام، وسافر الصافي مسروراً في اليوم الثاني، ولكن الآغا رآني بعد مدة فقال لي: كما قلت يا أستاذ أحمد: إن صاحبك الصافي لئيم وصعب العشرة، قلت: إن شاء الله، قال: رأيته في الفندق في بحمدون وحين رأيته سررت جداً وقلت له. اصعد إلى غرفتي لأغير ملابسي وآتيك حالاً فأنا مشتاق إليك ولكني حين نزلت لأراه، قيل لي في الفندق إنه سدد حسابه وسافر.

وكان للصافي صديق شاعر من طراز خاص أيضاً هو المرحوم فائز سلامة المسيحي الماروني والذي أصبح مسلماً مرة وأصبح أرثوذكسياً مرة أخرى. ولكنه عاد في نهاية المطاف إلى قريته في لبنان ليموت مارونياً كما بدأ. وكان لقبه «شاعر الصعاليك» وأظنه هو الذي أسمى نفسه هكذا!، وكان ظريفاً أبيض ذا عينين سوداوين وكان يلبس على رأسه السدارة العراقية إذ كان - كما يقول - من عصبة العمل القومي التي كان من أعضائها المرحوم عبد الرزاق الدندشي وأبو الهدى اليافي وشفيق سليمان وعبد الكريم العائدي وغيرهم كثير، وقد اختلف مرة مع الصافي وقاما بشتم أحدهما الآخر في المقهى وحلنا بينهما، وكان الخلاف مضحكاً، إذ كان من أجل بيت من الشعر ادعاه كل منهما هو:

رمضان عند الناس شهر واحد لكن عمري كله رمضان

ولكن المرجح في رأي العارفين أنه لفائز سلامة وقد ادعاه النجفي بغير حق. وفائز سلامة هذا كان من الرجال الخطرين، إذ كان قوي الشكيمة ومن «الفتوات». لقد وقف مرة لبهيج الخطيب وكان مديراً لوزارة الداخلية في الشارع وضربه بعصاه أمام الناس دون أن يخشى عقوبة. وكان يتعرض للشيخ تاج الدين نفسه، وقد كان رئيساً للدولة فيقول له:

أتاج الدين ما هذي السياسة أمن دار الحديث إلى الرئاسة
بسيم مراد أصبح عبقرياً وفوزي أمين من أهل الكياسة

وبسيم وفوزي صحفيان كانا يدعمان في جريدتهما ويؤيدان الشيخ تاج الذي كان فيما مضى موظفاً في دار الحديث، فأصبح بين عشية وضحاها رئيساً للدولة، فقد استغل الفرنسيون مركز والده الشيخ بدر الدين الحسني ليكسبوا الجانب الديني القوي في البلاد.

لقد عرّفني الصافي على الكثير من شعراء العراق، ومن بينهم الشاعر الجواهري وغيره، وينتقل الصافي في آخر أيامه إلى بيروت ويظل فيها سنوات، وقد رأيته مرة هناك في مطعم «البحري» القديم، وبينما كنت جالساً معه إذ طلب إليّ بكل وقاحة أن أبتعد قليلاً عن المجلس لأنه يريد أن يتحدث مع أحد الجالسين قربه حديثاً خاصاً لا يريد أن أطلع عليه، وقمت لتوي فانهلت عليه شتماً صك أذنيه وطلبت إليه أن يقوم هو بما عليه من بذاءة ولؤم، وقام رفاق عراقيون فأنبوه واسترضوني وهم يقولون: إنه مجنون، لقد كان يخرج في النجف إلى صحن جامع الإمام فيجلس وليس عليه إلا ثوب رقيق والحرارة في الصفر أو تحت ذلك فلا تؤاخذه، وكانت هذه الحادثة آخر العهد به. وسمعت فيما بعد أنه أصيب في أحداث بيروت في صدره بجراح كثيرة وكان قد تجاوز الثمانين من العمر وفقد بصره فأصبح كفيفاً ثم نقلته الحكومة العراقية إلى بغداد، وفي بغداد نظم أبياتاً منها هذا البيت الرائع الجميل:

يا عودة للدار ما أقساها أسمع بغداداً ولا أراها

رحم الله الصافي لقد كان من أحسن الأصدقاء لو كان صافياً.

وحين مات فخري البارودي انزوى حسني تللو في بيته لا يريم، وقد زرته مرة أنا والأخوان العمري، صبحي وعمر، فوجدناه في حالة يرثى لها، فقد ذهب صوته وانقطع طعامه وأصبح غذاؤه قاصراً على العصير من البرتقال والليمون، وكررت الزيارة له فلم أظفر منه بحديث أو غيره، وبعد أيام وبينما كنت سائراً رأيت ورقة النّعي، يذكرونه وقد مرت على وفاته أيام فثرت وقلت: لم يبق في الدنيا وفاء، وتحدثت إلى

ولده الكبير عدنان فاعتذر ولكني لم أقبل اعتذاره، لقد مات الرجل الصديق بعد أن أصبح بلا صديق.

مما أذكره في هذه الفترة أنني كنت مرة جالساً في مقهى اللونابارك الجميل الفسيح في شارع بغداد، وكان معي الصافي الشاعر وإذا بأحد الصحفيين يتقدم منا ويعلمنا بوفاة أمير الشعراء أحمد شوقي، وبينما كنت أستفهم عن جلية الخبر نظرت إلى وجه الصافي فإذا به ممتقع اصفراراً، وإذا بالصافي الذي كان يمرح ويضحك منذ دقائق قد أصبح ساهماً مفكراً في شيء بعيد بعيد، وقلت له: ما بك؟ قال: لقد فوجئت يا أحمد، موت العظيم عظيم، قلت: ولكنك كنت تنتقده وتفضل عليه إيليا أبا ماضي؟ قال: هذا صحيح ولكني لم أنكر شاعرية شوقي، إن من ينكر شوقي أشبه بمن ينكر النهار وهو في النهار، أو بمن ينسى البحر وهو أمامه، لقد كنت أنعي على شوقي مديحه للملوك والأمراء وتزلفه وحبه للتقرب من هؤلاء، أما عن شاعريته فلم أنكرها أبداً، قلت: وما علاقة الناس بميوله الشخصية وصداقاته؟ لقد كان صديقاً للبيت المالك في مصر وهم الذين ربوه وغذوه وعلموه أما سمعت قوله:

أأخون إسماعيل في أولاده ... ولقد ولدت بباب إسماعيلا

قال: هذا صحيح ولكن طبيعتنا نحن لا تتلاءم مع هذه الفكرة، قلت: لأن الفقر هو الذي يملي عليكم الابتعاد عن مثل هذه الأجواء.

كان جو دمشق في الثلاثينات جواً أدبياً فالصحف كثيرة، والصحفيون عندهم بعض الميول الأدبية، لا بل إن منهم من كان أديباً، مثل معروف الأرناؤط ونجيب الريس الذي نظم الشعر في فترة من الزمن. وقد قلت نكتة شعرية حول شاعرية الريس مرة، فقد نظم قصيدة من قافية الباء المفتوحة وضمنها بيتاً لشوقي يقول:

ضموا الجهود وخلّوها منكرة ... لا تملأوا الشدق من أقوالكم عجبا

فالتفت إليه أحد الصحفيين الخبثاء وقال له: إن هذا البيت أحسن ما في القصيدة، والبيت كان لشوقي. وكان من أولئك الصحفيين من كان يفهم الشعر فهماً جيداً مثل يوسف العيسى صاحب ألف باء، وأذكر أن هذا الصحفي كان أول مشجع لي في أبيات نظمتها تلك الأيام حول المتنبي وبمناسبة المهرجان الذي أقيم في دمشق بمناسبة الذكرى الألفية للشاعر، هذا المهرجان الذي كان فاتحة عهد بالنسبة للشاعر عمر أبي ريشة، كما كان مفتاح شهرته، وقد أفسح له المجال في صحيفته الكبرى «الأيام» المرحوم نصوح بابيل الصحفي المعروف، ولقد أرسلت الأبيات إلى الأستاذ العيسى وكان مطلعها هذا البيت:

عَلَـمٌ أنت في مهب الرياح ... مشمخرّ الذرا بعيد النواحي

فنشر الأبيات في مكان بارز من الجريدة وعلق عليها بكلمة ضافية كانت وصفاً جميلاً فرحت له فرحاً عظيماً، وكانت الصحف تفسح المجال للشعراء، فتنشر لهم بين حين وآخر قصائد يقرأها الناس بإمعان، لأن الشعر كان قليلاً والشعراء أقل، وقلة الشعراء تدل على أن الشعر بخير، وأما كثرتهم فتدل على العكس كما يقول شوقي: كثرة الشعراء تدل على قلة الشعر. وهناك فئة من الناس كانت تحوي الصحافة والأدب، فهو صحفي في الأخبار ولكنه أديب حين يكتب بحثاً أو تاريخاً أو تعليقاً أدبياً.

أول الأدباء في تلك الفترة هو الشاعر شفيق جبري وقد كان يسمى شاعر الشام، ولقد كان كاتباً وشاعراً، كما كان مؤلفاً في الأدب العربي، وقد كتب كتابين أحدهما عن المتنبي والآخر عن الجاحظ هما من خير ما كتب في الحديث عن هاتين الشخصيتين ونقدهما وتثمين عبقريتيهما، وقد كتبهما يوم كان مديراً لكلية الآداب التي أنشئت في الثلاثينات ولم يطل الزمن بها لأن شهادتها لم تكن محددة أو مقبولة في جهة ما، إذ لم تكن هذه الكلية مرتبطة بجامعة وكان شفيق جبري شاعراً، ولي رأي بشاعريته ما أظنه يعجبه لو كان حياً، كان هذا الشاعر مهاباً ضخم الجثة، وكنا أنا وصديقي المصري القديم عبد الهادي عرفان الذي أتيت على ذكره فيما مضى، كنت وإياه نضحك وننقول عن الأستاذ شفيق: أهذا شاعر؟ إن جسمه جسم مصارع، وكان أكثر وهرة صامتاً لا يتحدث إلا قليلاً، ولي معه أحداث وأحداث ولكنها كلها انتهت إلى صداقة عميقة وثقة خالصة بيني وبينه، حتى لقد كان يفرض عليّ أن أصلح له مقاله المنشور في مجلة المجمع مطبعياً ولا يكلف بهذا العمل أحداً غيري. من بين الأحداث التي مرت لي معه حادثة

طريفة، فقد جئت إلى دمشق في عام ١٩٣٣ خالي الجيب من كل شيء إلا قروشاً قليلة ولقد حاولت أن أوظف وكنت من أحق الناس بهذا لأني كنت أحمل شهادة البكالوريا «فلسفة» كما أحمل اختصاص «البكالوريا الزراعية»، وقد حرت كيف أصل إلى المسؤولين عن شؤون وزارة التربية «المعارف القديمة» وقلت إن مدير المعارف العام الأستاذ جبري هو كل شيء في الوزارة، وذلك هو الواقع كما كان يشغل رئاسة ديوان الوزارة، وقلت إنه شاعر فلأكتب له أبياتاً أرسلها من دار الحكومة مع آذنِه لعله يقابلني لأفصح له عما بنفسي من شوق إلى المال والتعيين في إحدى وظائف التعليم، وكتبت الأبيات التي لا أذكر منها شيئاً إلا قولي له في نهايتها: بحرمة الأدب، وكانت بائية القافية ورأيت الآذن يدخل بالأبيات على الأستاذ ورحت أنتظر رائحاً جائياً أمام غرفته ولكن الأستاذ لم يخرج إلا آخر الدوام. وقد خرج وحدجني بنظرته القاسية، وظل ماشياً لم يلتفت ولم يتلطف حتى بالاعتذار، وقد عاتبته بهذا بعد أكثر من ثلاثين سنة فلم يتذكر الواقعة وقلت له: طبعاً لأنك لم تهتم، وكان أكبر واجب أن تنظر في طلبي لأني خاطبتك شعراً صحيحاً وأنت شاعر الشام فضحك ـ رحمه الله ـ وحادثة أخرى كانت لي مع الأستاذ جبري، فقد كنت مرّة ماراً أمام مقهى الهافانا الشهير وإذا بالأستاذ يناديني ويشير إليّ بيده الضخمة، وكان من عادته أن يدخن الأركيلة، فجئت إليه فقال: لقد أسهرتني ليلة بكاملها في القاهرة فقد اشتريت عدد مجلة العربي الكويتية الأخير فوجدت فيه مقالاً بتوقيعك عني فأطبقت المجلة ولم أقرأ المقال، وكان الوقت مساءً وقلت في نفسي: لا أريد أن أسوّد ليلتي فيما لو كان المقال مسيئاً إليّ وأرجأت قراءة المقال إلى اليوم الثاني، ولما قرأته كنت راضياً عنه فأهنئك، وضحكت وقلت له: والله لو عرفت أن النقد يشغلك إلى هذا الحد لأسهرتك ليلة ليلاء لن تنساها وضحكنا، مع انني والحق يقال نقدته في المقال وبخاصة في القصيدة التي رثى بها أمير الشعراء شوقي وأبديت رأيي في اضطراب قوافي القصيدة، وهذا ما لم يكن أحد يجسر عليه به غيري.

وهنا لا بد من ذكر حادثة للعبرة والاعتبار، فقد كان وزير التربية المرحوم مظهر أرسلان الحمصي المعروف، ثم جاء بعده المرحوم سليم جنبرت وهو حلبي من الوزراء الوطنيين ومن كبار التجار، وقد ظللت أياماً أحاول مقابلة أحدهما فلم أجرؤ ولم يتيسر لي الإنسان الذي يعينني على ذلك، وخطرت على بالي فكرة، فقد لجأت إلى مستشار المعارف يومئذ «المسيو كوليه» وكنت أرى فيه الرجل المهذب، وقد كنت أعرفه جيداً في زياراته لمكتب عنبر يوم كنت فيه، ثم إنه هو الذي قرأ أسماء الناجحين في شهادة البكالوريا إذ كان رئيساً للّجنة الفاحصة، ولعله كان ذا تأثير في نجاحي حين رأى علامتي باللغة العربية وانخفاض علامتي بالرياضيات وربما كانت صفراً فجبّرها حتى أصبحت واحدا أو جزءاً من الواحد كي لا أسقط، لأن الصفر كانت ضربة قاضية تُسقط التلميذ مهما كانت علاماته عالية في الدروس الأخرى، وكتبت كتاباً باللغة الفرنسية عرضته على صديقي وأستاذي جميل الأخرس ليراه من الناحية الفرنسية، وأرسلت الكتاب بالبريد ووضعت عنواني في الفندق الذي كنت فيه، وبعد يومين وردني كتاب من المستشار يعين لي فيه الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي لمقابلته؟ أليس هذا عجباً؟ شاعر الشام العربي لا يستقبلني رغم مديحي له، والفرنسي الأجنبي الذي لا يعرفني أكتب له فيلبي طلبي، إنها لعبرة لمن يعتبر. ومع ذلك فقد أخطأت لأنني لم أذهب لمقابلة المستشار وكان ذلك خطأ كبيرا. كان تعييني بالوظيفة أمراً صعباً، فقد أفهمني أحدهم أن التعيين يُسأل عن طالبه من البلدة التي ينتسب إليها ويكون نجاح الطالب وفق سياسته المناسبة للحكومة الفرنسية، أو غير مناسبة، فإذا كانت سلبية فإن تعيينه يكون أشبه بالمستحيل، وعلى هذا، قنعت من الغنيمة بالإياب، وذهبت أفتش عن عمل أعيش فيه بدمشق، فقد أحببت هذه البلدة لاتساع جوها وكثرة الأصحاب فيها وتعدد الملاهي والمقاهي، وتنويع المآكل الشهية التي كانت تنفتح لها النفس من مثل الحمص وفتّة المقادم واللحوم المشوية مع الخبز الرقاق الذي كان منظره ينعش الرائي وبخاصة عند ذلك البيروتي صاحب الدكان الصغير في المرجة، والذي كان في مكان فندق «سمير» الآن، لقد رغبتني هذه الأمور في الإقامة فيها حتى لم أكن أستطيع مغادرتها.

إذن لقد أفلست من الوظيفة الرسمية فسعيت في عمل يسد نفقتي ويساعدني على البقاء في دمشق،

فوجدت مدرسة ابتدائية في حي القنوات وكان صاحبها رجلاً معمماً، وبدأت أدرّس بعض الدروس الفرنسية والعربية، وقد وجدت أن جو المدرسة جوٌ ديني محض، ووجدت المعلمين والتلامذة والمدير كلهم يصلّون «جماعة»، وكنت أظل وحدي بلا صلاة لما تتطلب الصلاة من نشاط، وبات المدير ينظر إليّ غير النظرة التي عرفتها حين قابلته لأول مرة وكانت المدرسة داكنة مظلمة كأنها سجن، وبعد يوم أو يومين حدثني المدير مسائلاً: لِمَ لا أصلي؟ فقلت له: إنني رجل غريب وليس عندي متسع من الوقت للاغتسال والوضوء ثم إني أشكو من وجع في مفاصلي، ونظر إليّ وهو يقول: صلِّ جالساً، لا مانع، ووجدت أن الاعتذارات غير مجدية وكان آخر الشهر قد قرب، وجئت في آخر يوم لأبلغ المدير أنني وجدت محلاً آخر وتركت المدرسة بعد أن ناولني بعض الوريقات. وذهبت في اليوم التالي إلى صديقي ـ رحمه الله ـ رشاد عيسى في مكتب الأمير بهجت الشهابي للمحاماة وكان معه محمد الجيرودي المحامي الصديق الآخر، فعرضت عليهم أمري وكنت يومئذ أسكن في غرفة واحدة في زقاق الصخر القديم مع صديقي المصري الذي لم نكن أنا وهو نفترق، ووعدني الاثنان بالبحث لي عن عمل، وبعد أيام اتصلا بي وأعلماني أن هناك مدرسة ولكنها بعيدة كائنة في آخر سوق مدحت باشا وفي «حارة الجورة» التي تجاور حي اليهود وقالا: إنها المدرسة الأمينية أو «مدرسة الأرفاض» كما كانت تدعى هذه الحارة، والتي نقل محلها اليوم فأصبحت المدرسة المعروفة «المحسنية». نسبة إلى السيد محسن الأمين، العالم الشيعي الكبير صاحب المؤلفات ووالد أصدقائي حسن الأمين الذي كان رفيقاً لي في كلية الحقوق في الفترة الأولى التي انتسبت فيها لهذه الكلية، وعبد المطلب الأمين الشاعر الذي مات في شبابه، وهاشم الأمين الذي كان أخاً لأب لهما وكان شيوعياً بارزاً، وذهبت سريعاً إلى المدرسة لأرى المدير وكان اسمه «أحمد صندوق»، وهو من العائلات المعروفة بين جماعة الشيعة، وقد كان قصيراً أسمر يحمل نظارتين تشعان فوق عينيه، وحين قابلته أدركت أنه رجل ذكي وأنه ليس هيناً كما يقال.

وصلت إلى المدرسة مشياً على قدمي من «زقاق الصخر» إلى حي «الأمين»، ودخلت المدرسة من بابها الصغير فوجدت المدير في استقبالي ومعه لفيف من الرجال، أدركت أنهم الأساتذة وبادهني المدير بقوله: لقد أجرينا القرعة بين المعلمين وأنت منهم لتعيين الدروس فكنت أنت معلم الحساب؟ وفوجئت بهذا النبأ الغريب؟ أنا معلم الحساب؟ وقد سقطت في درس الحساب عشرات المرات في حياتي وأخرها السقطة التي كادت تودي بحياتي المدرسية في البكالوريا، وقلت له ولكني أفضل أن يكون لي غير هذا الدرس؟ وقال مستعجلاً، ولكنه درس بسيط، وأنت تحمل البكالوريا كما قيل لي، وهذا شيء هيّن بالقياس لدراستك، واعترضت قائلاً: ألا يمكن تغيير هذا الدرس وإعطائي درساً آخر، كاللغة العربية أو التاريخ مثلاً؟ وقال: والله لقد أنجزنا كل شيء ووضعنا الساعات والبرامج ولم يعد في الإمكان أبدع مما كان، فاتكل على الله. واتكلت على الله ولم أعلم أن اتكالي سيكون عليّ وبالاً، ونظر المدير إليّ ثانية بعد أن خرج الأساتذة كل إلى صفه، وقال لي: هذا هو صفك وأشار إلى غرفة في آخر باحة المدرسة. واتكلت ثانية ودخلت الصف وتحدثت إلى التلامذة وكان فيهم الكبار والصغار بين الخامسة عشرة والثامنة أو التاسعة، وبدأت الحديث عن الحساب وأنا مضطرب خائف وأخذت أكتب على اللوح بعض الأرقام لأفهمهم الجمع الذي هو أول هذا العلم. وسار الجمع سيرة حسنة حتى أنهيت بحثه وسررت للنتيجة كما سر التلامذة، وقد لاح ذلك على تصرفاتهم ونظراتهم وجدّيتهم في كتابة ما أكتبه على اللوح، وقلت: لعلها فاتحة خير إن شاء الله، وانتقلنا بعد يومين إلى درس الطرح، وبدأت ولكن السهل لم يلبث حتى تحول إلى صعوبة أربكتني بعض الشيء وصرت أقف أمام اللوح لأكتب فأطيل التفكير فالطرح فيه أصفار، وفيه استعارات تضطرب معها مجموعات الأرقام، وربما اعترض الخطأ، وكنت التفت إلى الطلاب بين حين وآخر فأراهم يتهامسون ولم يكونوا يفعلون ذلك أثناء «الجمع»، ولكن «الطرح» مر بسلام ولو أنه تطلب أياماً أطول من أيام «الجمع» ووصلنا إلى «الضرب»، وكنت أحفظ الجدول منذ الصغر طبعاً، ولكني كنت ارتبك في ضرب الأرقام ما بين السبعة والتسعة أحياناً وأخذت أكتب على اللوح وأقف أحياناً بين لحظة وأخرى لأتذكر، وأخذ العرق ينزّ عن جبيني خوفاً من الخطأ، وخطيئة المعلم لا تغتفر عند الطلاب والطالب هو وحده الذي يقدّر مقدرة

المعلم وكفاءته، وهو يغفر للمعلم كل شيء حتى الجنون إذا كان كفؤاً في درسه وتدريسه، أما إذا لاحظ عليه الضعف في علمه فلن تقوم للمعلم قائمة مهما يكن شكله أو هندامه أو حديثه أو ادعاؤه. وأنجزت «الضرب» بعد أيام ولكن وضع الطلاب تغير بالنسبة إليّ فقد بت محتاجاً إلى إسكاتهم بين لحظة وأخرى، وربما صرخت فيسمع صوتي خارج الصف فيلتفت أحد الآذنين أو المعلمين أو المارين بالساحة، ومع ذلك فقد انتقلنا إلى التقسيم ويا ويلي من التقسيم، الذي كان أصعب من تقسيم «فلسطين» على العرب، في التقسيم ازداد ارتباكي وأصبحت أنسى، كما أصبحت وقفاتي على اللوح طويلة لا تحتمل من الطلاب، وأخذت الحركات من الطلاب تتعاظم وكنت كالخجل مما أنا فيه حتى لقد بت أخجل من الالتفات إليهم، وراح العرق ينهمر من جبيني فلا أستطيع كبحه وراحت الحوارة «الطباشير» التي أكتب بها تبدو آثارها على وجهي فلا أفطن لها، ولقد وقفت مرة وقفة طويلة ثم التفت فجأة فرأيت نظارتي المدير بين الطلاب، وعلمت لحظتها أن الطلاب قد ذهبوا إلى المدير فأطلعوه على كل شيء، وشكوني إليه طبعاً، وخاصة الكبار منهم ونظرت إلى المدير وحدجني بنظرة واخرى ثم طال النظر. ووجدت سبيل الخلاص المفاجىء بأن قذفت بقطعة «الطباشير» إلى اللوح وخرجت من الصف إلى باب المدرسة، وكان آخر درس لي في الحساب في كل حياتي.

ذهبت من المدرسة إلى مكتب المحامي الأمير بهجت فوجدت الصديقين الجيرودي ورشاد عيسى وحدثتهم حديثاً أخفيت فيه واقع الأمر، ولكنهما أدركا اني عجزت عن تدريس الحساب، وقلت لهما: أنا لا أستفيد شيئاً من المدة التي قضيتها في المدرسة وأجابا بالإيجاب وكان حاضراً هذا الحديث الصديق القديم في المدرسة الإنجيلية بحمص المرحوم ناصر حدة، الذي تعهد بأن يذهب للمدرسة ويحصّل لي ما لي بذمتها من أجور، فقد كان يعرف المدير، إذ كان مدرساً للرياضيات فيها ولكن كان بعكسي تماماً، إذ كان عبقرياً في هذه المادة وذهب الرجل فعلاً وجاءني بست ليرات سورية كان يومها ثروة بالنسبة إلي.

تناولت الليرات الست ولم أكد أضعها في جيبي، وكنت في المرجة حتى رأيت صديقي ـ رحمه الله ـ خالد الكنج الدندشي وكان صديقاً لي وقلت أدعوه إلى بعض الشراب فعندي متسع من المال الآن، ودخلنا إلى أقرب مشرب وكان مشرب «بقلة» الشهير في آخر شارع (رامي) الذي يصل بين المرجة وشارع النصر «جمال باشا»، وكذلك كنت في حياتي كلها، لا أحسب حساباً إلا للساعة التي أنا فيها:

ما مضى فات، والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

ودخلنا المشرب وطلبت لنفسي الطعام والشراب، أما هو فاختار شراباً غالياً لم أحسب له حساباً، وقلت في نفسي: إنها مقدمة سيئة، وأخذنا نأكل ونشرب وصاحبي لا يكل ولا يمل، فقد كان من أهل الريف الذين يملكون المعد القوية التي لا يعجزها طعام أو شراب، وكنت كلما طلب شيئاً حسبت مقدار ما معي من المال حتى تجاوز ما ذهب النصف وضاقت نفسي وأخذت أتنفس بصعوبة ويدي الثانية على الدراهم لئلا تطير كلها؛ وبينما كنت في المأزق مر بي صاحب قديم هو «أكرم الكيلاني» وكان من الظرفاء الذين درسوا في ألمانيا، وأظنه ما زال عائشاً بين ألمانيا والمغرب كما قيل لي، وحين رآني دخل مسرعاً وسلم سلاماً أخوياً وداعبني لحظة ثم جلس دون استئذان وصفق لعامل المشرب فجاءه وطلب منه شراباً أغلى مما كان يشرب صاحبي ثم طلب طعاماً، وكان كلما طلب شيئاً انحنيت خوفاً وإفلاساً، ثم تحدثنا قليلاً وأنا شارد اللب موزع الفكر وتركني بعد قليل ثم ذهب وقد وقف عند الباب قليلاً يصافح صاحب المشرب وكان يعرفه، فقد كان هذا المكان من أكثر الأمكنة ارتياداً من الشباب، وبعد ساعة أو أقل قمت أنا وصاحبي وقد نويت أن أترك ساعتي عند الرجل أو أي شيء يقبل به لأن ما معي لم يكن كافياً لسداد نفقتي أنا وهذان الأخوان اللذان أرسلهما الله لنكبتي وإحراجي، وما كدت أتقدم من صاحب المشرب حتى ابتسم وقال بصوت حنون: خالص، وكنت ماشياً فوقفت وكأنّ ماءً مثلجاً لامس ما بين كتفيّ وقلت له: ماذا هناك؟ قال: لقد دفع الحساب أكرم بك، وخرجت أنا وصاحبي خالد الكنج الذي كان يجهز عليّ وأنا رافع الرأس شامخ الأنف لا عليّ ولا لي. وكنت كلما رأيت أكرم بعد ذلك أحدثه بهذا الحديث كما وقع فيقول: والله لقد عرفت ما أنت فيه وأدركت أن الرجل غريب عن البلدة وأنك أنت الذي سوف تحمل العبء، وكان أكرم من

أذكياء الشباب النادرين في دمشق فعلاً. جرني إلى هذا الحديث علاقتي بالأستاذ شفيق جبري الذي كان الشخصية الأدبية البارزة في تلك الفترة، يدلك على هذا أنه اختير لاستقبال شاعر النيل حافظ ابراهيم وزميله شاعر القطرين خليل مطران يوم زارا لبنان بدعوة من الجامعة الأميركية هناك، وألقى يومها حافظ قصيدته الرائعة المشهورة.

حيا بكور الحيا أرباع لبنان ... وطالع اليمن من بالشام حياني
أهل الشآم لقد طوقتم عنقي ... بمنّة خرجت عن طوق تبياني

وفيها الأبيات الشهيرة:

ولّى الشباب وجارتني فتوّته ... وهدم الشيب بعد الشيب أركاني
وقد وقفت على السنين أسألها ... أسوّفت أم أعدت حرَّ أكفاني
كم من صديق نأى عني فأحزنني ... وكم حبيب مضى عني فأبكاني
إذا تصفحت ديواني لتقرأني ... وجدت شعر المراثي نصف ديواني

لقد اختير شفيق جبري يومها ليستقبل الشاعرين الكبيرين بقصيدة من شعره كانت من أحسن ما نظم، وقد جاءت في هذه القصيدة أبيات رائعة منها هذا البيت الذي خاطب فيه شاعر النيل بقوله:

يا طاوي اليم في دجناء زاحفة ... على صفيح من الأمواج مرنان

ومطلع هذه القصيدة:

أنشدت شِعرَك في أفياء لبنان ... فرحت أغمز وسواس شيطاني

وشعر شفيق جبري قوي الديباجة، نقي الألفاظ، ليس فيه عيب لغوي أو نحوي أو عروضي وإنما الذي يشكو منه أنه جاف، وكأن هذا الشعر انتزعه الشاعر من طبعه وحياته، فحياة شفيق جبري مختصرة نائية عن الناس بعيدة عن الحياة العامة، ومع ذلك فإذا توصلت إلى طبيعته التي تختبىء وراء هذا السجن وجدت شخصاً يحب النكتة والحياة واللهو والمرح، ولكن أمثال شفيق جبري يخافون المجتمع ولا يقربونه خوفاً وحساباً منهم لئلا يختلفوا مع الناس فيكون من وراء ذلك ما يسبب لهم «وجع الرأس». جلس مع شفيق جبري واحد من صانعي الحلوى وأظنه من آل الغراوي المشهورين بهذه الصناعة وتحدث إليه حديثاً لا طعم له، وضاق صدر جبري بهذا الحديث والتفت إليه بعد لأي يسأل: ما هي أسعار المالضمينا؟ والمالضمينا أرخص أنواع الحلوى والقصد غير خاف، إنه يقول له بصراحة، اشتغل بالحلوى ولا تتكلم بشيء آخر، وزاره يوماً أحد «القبضايات» من أصحابنا وهو المرحوم رسلان برنجكجي وكان من الشباب الوطني وله صحبة مع الرئيس القوتلي، لقد رأى شفيق جبري جالساً في المقهى وحده وهو يدخن الشيشه فتقدم منه وسلم، وبعد قليل قال فجأة: أسمعنا يا شفيق بك بعض الشعورة «والشعورة هذه هي التعبير العامي عن الشعر»، فما كان من الأستاذ جبري إلا أن لفّ أنبوب الشيشه «النربيج» وقام من المقهى وخرج مكتئباً، ولقد جمعتني الظروف بالعمل الذي كان يعمل فيه، فقد سميت مقرراً للجنة الشعر في المجلس الأعلى للآداب والفنون التابع لوزارة الثقافة، وقد أرسلت إليه مع أخيه نسيب أعتذر لقبولي هذا العمل الذي لم يكن لي الخيار فيه، فأرسل إليّ أنه راضٍ عن اختياري لهذا العمل كل الرضي، وقبل ذلك كان هو الذي رشحني للتحدث عن غزل البحتري في المهرجان الذي أقيم لهذا الشاعر والذي أجهض قبل أن يتم بسبب الحركة الانفصالية عن مصر ولم يقرأ الحديث الذي كتبته إذ كان توقيته في يوم الانقلاب بالذات أي في ٢٨ أيلول ١٩٦١. كان شفيق جبري متهماً بالبخل، ولا نعلم شيئاً عن هذا، فلم تكن لي صلات اجتماعية به إلا العلاقة الأدبية، وأذكر أنه أقدم على عمل أفخر به فخراً لا ينسى فقد حدثني مرة بالهاتف لأوافيه إلى بيته الذي كان في حي نوري باشا فذهبت فاستقبلني استقبال الأخ الأكبر وجلس يقرأ لي قصيدة من قصائده الجديدة التي يريد إرسالها للصحف، وعجبت لهذا التصرف فلم يكن من عاداته أن يتنازل إلى قراءة شعره على أحد، وكنت صريحاً معه في بعض

الملاحظات التي سر منها وذهبت إلى صديقنا عمر الكحالة ـ رحمه الله ـ فقصصت عليه القصة فكان قوله: هذه ليست قليلة، قالها بلهجته الشامية الأصيلة، وكان الأستاذ جبري أكثر دهره في بلودان، فكان يملك بيتاً فيه ولم يكن يبارحه إلا نادراً، فإذا نزل إلى دمشق تردّد على مطعم من المطاعم الممتازة فلم يكن يقبل دعوة من أحد إلا ما ندر.

وربطة وقع فيها الأستاذ جبري مصادفة، فقد كان بلغ الخمسين من العمر ولم يتزوج، ولكنه وافق على الزواج من فتاة من سكان اللاذقية، وقد جرت بينهما مكاتبات، والذي فهمته منه أنها هي التي طلبت منه الزواج وأنه أهداها الهدايا المعتادة في مثل هذه المناسبة ولكن شخصاً من أقرباء الفتاة حال دون استكمال هذا المشروع، أما الشخص المعارض فكان المرحوم صديقنا عابدين حمادة، مدرس التاريخ المعروف، وفسد المشروع وضاع ما أنفقه الأستاذ من هدايا ونفقات سفرية، ورأيته بعد وهلة فحدثني بالمشكلة وهو متألم وكأنه يقول: لقد وصلت اللقمة إلى الفم ثم سقطت من يدي. وقد قيل لي بعد وفاته ـ رحمه الله ـ أنه خلف أربعة آلاف ليرة ذهبية أعطى منها مئة ليرة للخادم التي كانت تخدمه مدة طويلة وورث الباقي أخوته الثلاثي الذين لم يتزوج منهم إلا واحد.

شاعر آخر عرفته منذ القديم هو الصديق القديم وشاعر الشباب كما يسمونه، رغم أنه تجاوز الثمانين اليوم هو عمر أبو ريشة، وعمر سمعت باسمه أول مرة في الثلاثينات حين جاء مع فرقة تمثيلية حلبية إلى حمص تمثل رواية شعرية وضعها الشاعر وأسماها: «رايات ذي قار»، رأيته يومها من بعيد، فرأيت شاباً وسيماً طوالاً بين الشباب أبيض الوجه واسع العينين ذا شعر أجعد قليلاً أميل إلى النحافة، ولكن «ذي قار» لم تكن فاتحة عهده في الشعر الذي رفع من شأنه، لذلك بدأ يطرق باب السياسة وكانت مغامرته تهدف إلى المعارضة، تلك المعارضة التي سببت له الشهرة ثم سببت له الوظيفة الكبرى في السفارات المحترمة مثل الهند والبرازيل والولايات المتحدة وغيرها، لقد هاجم الكتلويين في شخص جميل مردم يوم ألقى قصيدته الشهيرة التي يقول فيها:

أمّتي كم صنم مجّدته ... لم يكن يحمل طهر الصنم

ولكن هذا البيت الذي يعتبر شيئاً جديداً في شعر تلك الفترة كان مأخوذاً من شعر المتنبي في قوله يصف ناقته:

أسيرها بين أصنام أشاهدها ... ولا أشاهد فيها عفة الصنم

والذي يبدو أن عمر كان ينظر فعلاً إلى ما فعله المتنبي من معارضته زمنه، فقد شتم المتنبي الملوك المعاصرين له وهي هذه الأصنام التي مرت في البيت السابق، وانساق عمر مع الشهبندر في معارضته للكتلة ولكن معارضته لم يعرف لها سبب سوى المعارضة، أما مسيرته مع الشهبندر فأعتقد أن نصوح بابيل هو الذي أولجه هذا الباب الضيق، وكان جريئاً من غير شك، ولو عارض عمر في عصر غير عصر القوتلي لكان عمله خطيراً ولكان معرضاً لخطر الزوال من دنيا الشعر، وأنشد قصيدته يوم قتل الشهبندر التي ردد فيها قوله:

بنت قاسيون أي جرح أداوي ... في هواك وأي جرح أداري

كما تعرض للكتلة من بعيد حين ألقى قصيدته في المتنبي:

في فمي الشعر غاضب ... أنا أخشى إذا انفجر

وقد فتح له نصوح بابيل صدر جريدته فكانت وقفاً على أشعاره وعاونته من غير شك على دخول أرض الشام فاتحاً منتصراً. إمتاز شعر عمر بنكهة جديدة، فقد استعمل استعمالات جديدة في الشعر بألفاظ يتسع فيها الخيال كالألفاظ التي استعملها شوقي وبدوي الجبل وبشارة الخوري، وفي غزلياته كان رقيقاً لطيفاً كما كان شيئاً جديداً، ومن أجود شعره حديثه في رثائه صديقه كميل شمبير عازف البيان الشهير والموسيقي الكبير فقد قال عنه:

إنّما لم تزل رفاق لياليه ... كراماً على عهود وداده

تجمع الكأس شملهم فيخلون ... مكان اتكائه واستناده

كلمـا مـر ذكـره قلبـوا الكـأس عـلى الأرض حسرة لافتقـاده

وتعرفت إلى عمر وأصبحت بيننا إلفة، ومرة ذهبت إلى حلب فتغديت في بيته واعتذر لي عن مشـاركتي فيما كنت أشارك فيه أثناء الغداء ودعا لي الشاعر «السـوريالي» المرحوم أورخـان ميسر الذي كـان يحب الشراب حباً جماً وقد مات من تأثيره، كما قيل لي، ويومها لم يقدم لي خبزاً فطلبت الخبـز وقال لي: عنـدي الخبز الإفرنجي فقلت له: أعطنيه وأنا أترجمه، وكانت نكتة تناقلتها المجالس.

وعمر من أصل بقاعي، فعائلته، أبو ريشة، من القرعـون في البقاع، والعـائلة منـاسبة لآل القـادري الكيلانيين أصلاً، وأم عمر بنت شيخ الشاذلية الطائفة المعروفة والتي كانت متمركزة في «عكـا» من أعمال فلسطين، وأبوه شافع أبو ريشة كـان قائمقـاماً يتنقـل في أقضية الـدولة العثمـانية إلى أن نقـل إلى بلدة «منبج» شمالي حلب وهي البلدة التي ولد فيهـا الشاعـر عام /١٩٠٧/، فهـو اليوم تجـاوز الثمانـين وقد تعرض أخيراً لعمليـة تبديـل شرايين القلب ولكن صحتـه جيدة الآن بحمـد الله، وعمـر ينوه بـاسـم «أبي ريشه» هذا وهو اسم لقبيلة الشيوخ الموالي الذين ينصبون مضاربهم بجوار المعرة ويقول إنه من أقربـاء هؤلاء، وهو قول يتطلب إثباتاً صعباً. وقد درس في الجامعة الأميركية وتعلم اللغة الانكليزية وأتقنها إتقـاناً جيداً، وهو يقول أنه ينظم بعض الشعر في هذه اللغة ولكنا لم نطلع على شيء منه ولم يترجم شيء منـه إلى اللغة العربية والعهدة على الراوي، وشارك عمر مـرة في الاحتفال بـانقلاب حسني الـزعيم في الحفلة التي أقيمت في سينما «الروكسي» بدمشق بعد انتزاع الرئاسة من السيد شكري القوتلي وفيهـا وصف سياسـة الكتلويين بقوله:

إن الفراش على المصباح ينتحر

وقد كانت مشاركته هذه في الشماتة بالرئيس القوتلي محل تفكير حتى من أصدقائه. ويأتي عمر اليوم بـين حين وآخـر إلى دمشق فينزل في بيت أخيـه ظافـر أبي ريشه، وهـو أيضاً مشـارك في الشعر والأدب والترجمة عن الفرنسية، وكان فيما مضى طبيب أسنان، لقد شغـل أبو ريشـه سفارات هـامة وخـاصة في الهند وكانت له صحبة مع جواهر لآل نهرو الزعيم الهندي المعروف ومساعد غاندي الشهير وقـد استطاع مرة أن يدعوه إلى دمشق، وجاء نهرو فعلاً ومكث أياماً حل فيها ضيفاً على الحكـومة السـورية، كمـا كان عمر سفيراً في البرازيل، وقد رحبت به الجالية السورية هناك وفيها بعض الشعراء والأدباء العرب. ولعمر طباع غريبة فهو كثير الشرود، ذهنيًّا، وقد رويت عنه مرة نكتة اخترعتها كانت قريبة من الصحة لـولا أنها من اختراعي، فقد دعي مرة إلى حماه وكلفت باستقباله في محطة القطار القادم من حلب ورافقته بالعـربة وحين تركنا المحطة رويت له قصة هي: إن والدتي كانت تستمـع للمذيـاع في البيت وكان الصـوت عاليـاً فقلت لها: من فضلك اخفضي المذياع، فأمسكت به ورفعته عن منصته ووضعته على الأرض: رويت له هذه النكتة فلم يضحك ونظر إليّ نظرة المستفهم وحين كدنا نصل إلى البلد رأيته ينفجر ضاحكاً ويقول: حلـوة، نكتة ظريفة، أعدها من فضلك، وكان قد مر على روايتي لها أكثر من نصف ساعة وقلت لـه: إنك تضحـك مع وقف التنفيذ أو مع التأجيل، فإذا قلت النكتة «ماتينه» فإنـك تضحك: سـواري. وعمر شـاعر كسـول جـداً، ولا أدري كيف أعبر عن طبـاعه فهـو قد ذهب إلى انكلتـرا ودرس «علم الصباغـة» وهـو نـوع من الكيمياء كما أظن ولكنا لم نلمح أي أثر لهذه «الصباغة» فهـو لم يوظف في الصبـاغة ولم يكتب ولم يبحث فأين ذهب هذا الاختصاص لا أحد يدري؟ وهو قد وعد منذ أكثر من ثـلاثين سنـة بأنـه عامـل على نظم ملحمة تتضمن التاريخ الاسلامي كله، وعنده قصيدة أو قصيدتـان تتعلق بالتـاريخ العـربي يقول دائمـاً إنهما من أصل هذه الملحمة ولكن الملحمـة لم تظهر حتى الآن، والمعتقـد عندي وعنـد من يعرفـون حقيقة الأمر أنه لم يكتب منها شيئاً، وأنها لم تزل مشروعاً أو فكرة، وحـدثني أحدهم أنـه سمع عمـر يقول إنـه انتخب عضواً في أكثر من ستة أو سبعة مجامع علمية كلها أجنبية غريبـة ـ وليت شعري ـ مـا نفع عمـر من هـذه العضويـة، وهو في رأيي غـير محتاج إليهـا، وقلت له مـرة: إنك وصلت إلى الشيء الـذي يسعى الشعراء إلى الوصول إليه وهو: الشهرة فماذا تريد غير ذلك، وقد جاء منذ مدة وجيزة فألقى مختارات من

شعره في دمشق في مكتبة الأسد وخرج الناس من عنده دون أن يسمعوا بيتاً جديداً، فكل ما قرأه منشور في ديوانه القديم الذي طبعه عدة مرات وغير اسمه عدة مرات دون أن يزيد فيه شيئاً، ولكن عمر صديق صادق ووفي لأصدقائه فقد كان وفياً لوالده وقد رثاه بأبيات تقطر دمعاً، كما رثى شقيق زوجته وهو من أسرة مراد من عائلات المعلّقة القريبة من زحلة وكان رثاؤه أيضاً قطعة باكية. وهذان دليلان على وفاء الشاعر وفاءً صحيحاً.

٤٢ أدباء آخرون

إذا ذكر المثقفون في دمشق منذ مطلع هذا القرن فينبغي أن نذكر الصديق المرحوم صلاح الدين المحايري هذا الذي ظلمه التاريخ وظلمه طبعه وجنى عليه اقتصاده وجمع المال فلم يخلف أثراً أدبياً أو علمياً أو تاريخياً، مع أنه كان يستطيع أن يترك من تأليفه مكتبة كاملة بعدد اللغات التي يحفظها ويتقنها، كان يتقن اللغة العربية وكان راوية للشعر والتاريخ العربي، كما كان يتقن اللغة الإنكليزية كأهلها واللغة الألمانية واللغة الفرنسية وأخيراً اللغة الطليانية. والمحايري من أسرة قديمة كانت تقطن في حي القيمرية الشهير الذي كان يسميه أهل دمشق «الهند» لاتساعه، وهو منسوب لرجل يدعى «قيمر» كان ذا شأن في العهود المظلمة من تاريخ هذا البلد. وصلاح كان يدّعي أنه من مواليد /١٩١٢/ ولكنه كان مبالغاً في اختصار سنه، فهو مولود من غير شك قبل عام /١٩١٠/. وكان والده تاجراً وقد خلف ثلاثة أولاد: منير ورياض وصلاح، أما منير فكان صيدلياً يملك صيدلية كبرى في حي باب البريد قرب المدرسة الظاهرية ورياض لم يعش في دمشق بل كان في القاهرة وقد مات شاباً وقد روى لي صلاح عنه صفات حبّبتني به إذ كان ذا صوت جميل وكان صديقاً للفنانين المصريين من مثل سيّد درويش وزكريا أحمد ومحمد عبد الوهاب أما صلاح الدين فهو أصغرهم، وكان خال الجميع الدكتور الشهبندر الزعيم السوري المعروف والذي اغتيل غدراً عام ١٩٣٨، وقد كان المثل الأعلى لصلاح المحايري في كل شيء، ودرس صلاح الدين في الجامعة الأميركية وحصل على شهادة الـ: (ب أي)، أي البكالوريوس في الأدب، ودرس بقية اللغات التي عددتها لك آنفاً لنفسه. وكان لصلاح أختان لم تتزوجا وقد توفيتا أخيراً والأخوة الثلاثة أيضاً لم يتزوج منهم أحد، والذي تزوج هو الأخ الأكبر الذي كان من أم غير أم الأولاد وهو والد عصام المحايري زعيم الحزب القومي الاجتماعي والذي ورث العائلة كلها وقد تزوج عصام وعنده أولاده.

عُيِّن صلاح الدين في ديوان مجلس الوزراء، وقد كان من الظرفاء المحدثين المقلدين، كان يقلد المصريين والعراقيين والديريين والحلبية وكثيراً غيرهم، وكانت علته المال الذي قيل فيه بحق:

العلم يرفع بيتاً لا عماد له ... والمال يهدم بيت العز والكرم

فالمال أكبر من الجهل في الإساءة إلى الإنسان، وليس من المبالغة أن أسجل هنا أنني عرفت كثيراً من أصحابي وغيرهم ماتوا من البخل، فمنهم من لا يتغذى بما يكفيه، ومنهم من لا يلبس ما يليق به أمام الناس، ومنهم من لا يتداوى فيضنّ على نفسه بالحكمة والدواء، ومن الغريب أن أكثر هؤلاء من الأغنياء وليسوا من الفقراء، أعرف منهم واحداً مات يملك الملايين وكانت عنده بناية كاملة وهو ساكن بالأجرة في بيت يرتفع فيه درج أكثر من ثلاثين سلّمة، كان يصعد عليه مرات في اليوم إلى أن أصيب بمرض القلب، ولم يخرج من بلده ليتداوى مع أنه يستطيع السفر إلى المريخ فمات فجأة وهو يحلق ذقنه. وهذا صلاح رغم علمه وثقافته كان يلبس البذلات التي كانت عنده منذ أربعين سنة ولم ألمح عليه في حياتي بزة جديدة خاطها أو لبسها جاهزة، وكان ينام في بيت عداده ثماني عشرة غرفة في حي القيمرية الذي أكل الزمن عليه وشرب، ينام وحيداً لا صانعة ولا خادم ولا طباخ، مع أنه كان يستطيع العيش في الشيراتون أو المريديان من الفنادق الفخمة في دمشق، ومات وهو يقرأ كتاباً على سطح بيته المجاور، وقيل لي إنه خلّف أكثر من ثماني ملايين ليرة لا يدري أحد ماذا كان ينوي الفائدة منها وهو يعلم أنه لن يفيد منها شيئاً إن لم ينفق منها. لا أقول هذا انتقاداً ولكنه شيء شاهدته فأنا أنقله كما شاهدته. وكان يحمل عدداً من الكتب وأكثرها أجنبي بل كلها فإذا فتحت الكيس الذي يضم هذه الكتب وجدتها ثلاثة أو أربعة، وكنت أسأله: احمل يا أخي كتاباً واحداً، وهل تستطيع أن تقرأ ثلاثة أو أربعة كتب دفعة واحدة، وكنت موقناً أنه حين يصل إلى المقهى يجلس إلى أحد معارفه، وقد كنت واحداً من هؤلاء، فيتعطل عن القراءة ولا يكون قد عمل شيئاً إلا حمل الكتب وإعادتها إلى مكانها حين يعود إلى بيته، ولم أكن أراه يأكل في مطعم

من المطاعم المعروفة في البلد فكيف كان يتدبر أمر طعامه؟ لقد كان صلاح المحايري عجيبة من الأعاجيب، الرجل الذكي الظريف الساخر صاحب النكتة اللاذعة العالم المثقف يعيش هذه العيشة المتعبة لا بل الخطيرة، لقد وقع مرة من الحافلة «الباص» فكسرت نظارته ولم يبدل طريقه فلم يكن يركب «التكسي» أبداً، وهذه الشاحنة أصبحت اليوم غير قابلة للاستعمال من قبل المسنين أمثالي وأمثاله لكثرة الناس فيها ولأن الناس لا يتعارفون فيها فلا يقوم أحد لأحد مهما كانت سن الواقف متقدمة. ولقد مات صلاح المحايري دون أن يصنع شيئاً، لم يتسل ولم يمرح ولم يطرب فكأنه لم يعش في نظر الكثيرين لأنه عاش حياة معذبة، ومع الأسف الشديد وبالكره مني أن أكتب عن صلاح بعد وفاته ما لا يجب ولكنها ذكريات أسجلها، وأنا متأسف للنهاية التي انتهى إليها هذا الرجل الذي كان أكبر مثقف في دمشق في عصره.

سعيد الجزائري: رجل من نوع آخر، قد كان صديقاً لكل الناس كما كان عدواً لكل الناس، إذا أحب مدح، وإذا مدح جعل ممدوحه فوق السماء السابعة، وإذا كره هجا هجاءً مقذعاً يجعل المهجو عند المائع الناري. كان عصبي المزاج شاحب الوجه في عينيه حَوَلٌ مضحك، وكان أنيقاً ينتقي أو يُنتقى له أحسن القمصان والبزات مع ربطات العنق والأحذية والجوارب. وهو جزائري من البربر الذين يسمون في الجزائر «القبائل»، وقد جاء جده قاسم على ما أذكر مع الأمير عبد القادر الجزائري الزعيم العربي المعروف الذي توفي في دمشق في القرن الماضي ونقلت رفاته إلى الجزائر بعد تحريرها، تزوج سعيد مرتين ولم ينجب ومات بلا وريث غير زوجته الأخيرة. لقد نشأ سعيد نشأة عجيبة ترك المدرسة وهو في الصف التاسع أو العاشر وانضم إلى جماعة الصحفيين الشباب «المتسلطين» كما أسميتهم، هو ويسين الحمصي ونصوح الدوجي وهؤلاء كلهم كانوا من مدرسة فوزي أمين الذي يعد زعيماً لهذه المدرسة الصحفية، كانوا أذكياء ولا تنقصهم عبقرية الصحفي وذكاؤه مع قليل من العلم، وكان أهدأ هذه الجماعة المرحوم عباس الحامض الذي كان أقربهم إلى التعقل والرزانة كما كان اقربهم إلى الناس. كان سعيد مرافقاً لعدد من الوزراء السابقين في رحلاتهم إلى لبنان والبلدان السورية ولقد رأيته في حماه وفي سلمية وفي حمص وحلب واللاذقية وطرطوس مرات عديدة، وكان مدمناً على الشراب والدخان بشكل دائم، وأعتقد أن الدخان هو الذي سبب له المرض الوبيل الذي ذهب ضحيته منذ سنوات. لقد كان سعيد جباراً في حياته، كان يقاتل ويهاجم ويتحرش ولا يكتم عاطفة مطلقاً، إذا كره شخصاً قال له علناً أنه يكرهه، وقد تعرض من جراء ذلك إلى كثير من المشاكل حتى الضرب أحياناً وكان لا يستطيع أن يقاتل ذبابة. إنه كتلة من المتناقضات، كان ـ رحمه الله ـ تأتيه الهدايا دراكاً من كل صوب من أناس يحسبون حساباً لطول لسانه وكان محبوه قلائل، وقد يغضب على إنسان قضى حياته كلها يتلقى منه الهدايا كما صنع مع الأديب المعروف الصديق عبد السلام العجيلي الذي غمره فيما مضى بهداياه ولكنه كما يبدو قصّر في المدة الأخيرة فسلقه بلسانه الحاد، حتى لقد تحمس أحد الأدباء للدفاع عن العجيلي لأنه يعرف ما قدمه لسعيد وكاد سعيد أن يتعرض للضرب من ذلك المدافع. لقد كان صديقي ولكني كنت أتحاشى الاحتكاك به احتكاكاً دائماً لأني كنت أخشى بدوات نفسه وقد اختلف وإياه فتحل المصيبة بيني وبينه. كان سعيد أذكى جماعته وأحسنهم أسلوباً في الكتابة، لا بل كان أديباً، فهو راوية وحافظ وحسن الجملة الكتابية، وقد كانت له برامج في الإذاعة منها، برنامجه الذي عاش مدة طويلة والذي كان برنامجاً ممتعاً حقاً، وهو «أدب وأدباء» وكان يقلد فيه القراء المصريين ويتكلف اللهجة الأزهرية في قراءته، وكانت له حركات أيام سهرة ومصطلحات ما زال الناس يحفظونها له ويقلدونه حتى في لهجته الكلامية، وكانت له مصطلحات مضحكة، كان يسمى وداد سكاكيني: وداد خناجيري، وكان يسمي علي الخش: علي «ادخل»، وكثيراً ما كان يسهر إلى الصباح فإذا انتهت الجلسة قام يترنح ليذهب إلى أقرب بائع لحم ليشتري كمية من اللحم تكفي عشر عائلات يأخذها معه إلى البيت ولا أحد يدري ما يصنع بها، وترك الصحافة بعد أن تولّى رئاسة تحرير «النقاد» سنين طويلة، وانتهى موظفاً لا في العيد ولا في النفير في دار الإذاعة، يعدّ أياماً ويقبض راتباً، لقد كانت جريدة «النقاد» لصاحبها فوزي أمين ميداناً واسعاً لسعيد، وكان سعيد يهمه أن يقال فيه إنه خالق الأدباء، وبالفعل لقد نجح في هذه الغاية نجاحاً كبيراً. وكل الأدباء الذين كانوا شباباً

وأصبحوا اليوم كهولاً مدينون لسعيد الجزائري أدبياً ومدينون له بما نالوا من شهرة حتى اليوم ومنهم: إسكندر لوقا، جان المكسان، محمد الماغوط، شاكر مصطفى، إسماعيل العامود وغيرهم وغيرهم، وكان يائساً في آخر أيامه لأن بعضاً من هؤلاء لم يكن يعترف له بهذا الدعم الذي أعطاه. ومات سعيد بالمرض الخبيث واتصلت بزوجته أحاول أن أراه بعد أن اعتكف في البيت، ولكنها أجابتني بأن السلم صعبة وقد تتعب فعلمت أنه لا يريد أن يراه أحد في الحالة التي وصل إليها من الضعف والهزال، وقد علمت أنه عُرض عليه أن يرسل إلى بلد أوروبي للمداواة ولكنه أبى بعد أن علم نوع مرضه. وهكذا مات ولم يشيعه إلا قلة قليلة من الناس، ولقد تحدثت عنه في الإذاعة واعتقدت أني أنصفته، رحمه الله.

عباس الحامض: أما عباس الحامض فهو الصورة المناقضة تماماً لسعيد الجزائري، كان قصيراً أسمر شديد السمرة واسع العينين سعة عجيبة، فإذا نظر إليك خلته يحملق فيك. ورغم قصره الشديد كان قوي الصوت يهدر به هديراً، وكان يسمى «صحافي جيب» تشبيهاً له بالسيارات الصغيرة «جيب» التي عرفت في الحرب العالمية الثانية، وهي نكتة قيلت بحق الصحفي المصري المعروف «البهنساوي» الذي كان أيضاً قصيراً جداً، وتوفي عباس بنفس المرض الذي توفي فيه سعيد. وقد أخبرني بوفاته صباح اليوم نفسه ابنه الذي كنت أعرفه ولكني لم أكن قادراً على تشييعه، فقد كنت مريضاً مرضاً أقعدني عن الخروج من البيت أياماً. كان عباس شيعياً متعصباً لشيعيته، وكثيراً ما تبادلنا المزاح وأتينا على ذكر معاوية ويزيد ومن لفّ لفهما وضحكنا طويلاً، واسم عباس في دمشق خاص بالشيعة، فكل عباس فيها شيعي، بقي عباس في مكتب عنبر إلى الصف الثامن، كما أعتقد، ولم يصل إلى البكالوريا ولكنه كان صحيح الكتابة وقد استأثر به نجيب الريس وبقي يعمل مدة طويلة في جريدة القبس إلى أن تغيرت الأمور وتبدلت الأحوال مع الأحداث السياسية. وقد سافر مرة بدعوة من الحكومة البريطانية فزار أوروبا وحدثني عن زيارته لبلدة شكسبير شاعر إنكلترا العظيم، وهي بلدة «ستراتفورد»، ووصف لي بيت الشاعر ومخلفاته العجيبة والعناية التي تعامل بها هذه المخلفات. كان رب عائلة وأولاد، وكان هندامه بسيطاً، وما من شك في أنه كان فقيراً فكل ما يأتيه لا يكاد يكفيه. كنت سائراً وإياه فرأيته يستعجل في سيره، وكان كما يبدو يخاف السيارات فقلت له: لا تخش السيارات فإن السائق لا يراك لصغرك كما كنت أقول له ضاحكاً: إني يا عباس إذا ذكرت اسمك أشعر بالحموضة في فمي.

زهير المارديني: صديق عرفته أيضاً منذ القديم وهو يمتاز بذكاء معروف بين إخوانه، ولكنه كأخوانه لم يكمل دراسته حتى التجهيزية منها، وهذه ظاهرة غريبة أن يتفق هؤلاء الصحفيون الشباب ـ هاتيك الأيام ـ طبعاً على عدم الحصول على شهادات، حتى الذين نجحوا منهم بتفوق في عمله، مثل نشأت التغلبي لم يكن يحمل أي شهادة، وزهير من الأشخاص الذين يقال فيهم عامياً، شاطر، فهو يعرف كيف يدير العمل لنفسه فينتقل من جريدة إلى جريدة فيكتب ويراسل ويتحدث في المقاهي فيحسن الحديث، وهو ميال للنكتة يحبها ويرويها، وهو كبقية اخوانه الذين ذكرتهم يعرف صنعة الكتابة فجملته سيالة معقولة ولكنه يشكو ـ أحياناً ـ من ضعف في اللغة والنحو، فهو قليل المطالعة لهاتين المادتين، ولكنه سريع الكتابة لأنه موهوب كتابياً، وكل اخوانه الذين عددتهم هم على هذه الشاكلة وعندي أن زعيم هذه الفئة غير المتعلمة علماً كافياً هو سعيد فريحة صاحب الصياد، والذي أسس لنفسه ولأولاده مجداً صحفياً دون أن يجلس على مقاعد الدرس إلا أياماً معدودة، وكان يكتب في النهار عشر مقالات يوزعها على الصحف والمجلات التي أسسها، وزهير المارديني من أصحاب العدل العريض، فهو كثيراً ما يتدخل في أمور لا علاقة له بها، وكثيراً ما كان هذا الأمر سبباً في زيارته السجن مرات متعددة، فهو يجب أن يصنع صداقات مع علية القوم ومع متوسطيهم، ومع الدراويش أيضاً، عرفني مرة بأحمد الشقيري السياسي العربي الفلسطيني المعروف، وعرفني بأحمد بهاء الدين الصحفي المصري المشهور، وفي بيروت يوم رافقته في رحلة خاصة رأيته يعرف أهل بيروت على بكرة أبيهم، إنه إنسان خلق ليتحرك مع أنه لا يقل عني مساحة وضخامة، كتب في الفن عن «محمود بيرم» الزجال المصري المعروف، وبحث في الكتاب عن الموسيقى وهو من الذين لا يهمهم السماع في كثير أو قليل كما لا يهمهم الشعر إلا قليلاً، ومع ذلك يكتب

في الشعر وفي الموسيقى، وعندي أن اختصاصه كائن في السياسة أو الصحافة السياسية، وهذا ميدانه الذي يجب أن لا يتركه ولا يخرج عنه، وهو ما زال في بيروت وقد كان في السودان منذ أشهر أما لماذا فذلك علمه عند الله.

نشأت التغلبي: شاب صحفي وسيم عرفته منذ أيام حمص إذ كان تلميذاً في ثانويتها التي كانت في دار آل (البنك) على طريق حمص ـ حماه، وكنت في الصف الحادي عشر، أي البكالوريا الأولى، بينما كان هو في الصف الثامن، وهو دمشقي ومن عائلة قديمة يدلك على ذلك اسمها «التغلبي» ولعله منسوب إلى قبيلة تغلب التي قالوا عنها: لولا الإسلام لأكلت «تغلب» العرب. كان أنيقاً جداً، ومتطوراً في ألبسته فربما كان أول اللابسين «للموضة» الجديدة، من بنطال واسع عريض، أو سترة طويلة جداً، أو ربطة عنق عريضة جداً أو ضيقة جداً، إلى آخر هذه التنويعات التي لا تخطر على بال الرجل العادي. ولم يكمل دراسته كبقية اخوانه أصحاب هذه المدرسة عدوة الشهادات المدرسية، لكنه سرعان ما انخرط في الصحافة وأظنه عمل في القبس وغيرها، كما عمل في الصحافة الأدبية أعني في المجلات، ولم يكن أديباً، ولا علاقة له بالشعر، وإنما كل علاقته بالخبر الصحفي والسبق الإخباري الذي يتبارى به هؤلاء، ولكن نشأت يعتبر من أكثرهم لباقة وحركة «ديناميكية» كما يقال في الفرنجية. وكنت مرة في محافظة اللواء التي انتهيت إليها بعد ذهابي إلى السويداء، ورجعت منها، وإذا بهاتف من نشأت يقول لي: إرسل لي ما عندك ولتكن قطعة شعرية لك، وقلت له: ستصلك بعد نصف ساعة، وكان في جيبي مجموعة من أشعاري فأرسلت له الأبيات إلى مجلة الجندي وهي مجلة جيش الشعب، وكان هو مديرها يومذاك وبعد أيام تحدث إليّ وقال لي أرسل الآذن، لأعطيه (٢٥) ليرة مكافأة لك فقد أذعت الأبيات في برنامج «الجندي» في الإذاعة، وكان المبلغ باهظاً تلك الأيام يكفي للإنفاق أسبوعاً كاملاً إذا حسبت أن أوقية اللحم مع كل ملحقاتها من مقبلات وغير ذلك لا تساوي أكثر من نصف ليرة سورية، وعملت معه في مجلة الجندي وقد كانت في /١٢/ صفحة فقط وتوصلت في عهده إلى /٤٨/ صفحة، لأن نشأت نشيط وقدير في مهنته، وقد اتفقت وإياه على عدة مشاريع صحفية كان لها ضجة في الأوساط الصحفية، فقد كلفني أن أكتب شيئاً أهاجم فيه الشجاعة والشجعان، وأخذت أكتب تباعاً فيرد عليّ عدد من المتحمسين الذين أسخر من شجاعتهم ويدعونني للمبارزة فأضحك أنا ونشأت طويلاً إلى أن كتبت آخر مرة أسخر من عنترة ومن شجاعته ومن الزير أبي ليلى المهلهل وأتهم الشجعان بالغباء والبلادة وعدم فهم الدنيا وما فيها من لذائذ وأطايب، وكانت صدفة فظيعة أن هاجم الاسرائيليون موقع «اسكوفيا» في الجولان وقتلوا عدداً من الجنود السوريين وظهر العدد في اليوم الثاني وكانت مشكلة دُعي على أثرها نشأت للاستفسار منه عن كتابة هذا المقال في ذلك اليوم، وقد أخذت القضية دوراً بين تحقيق وسؤال وغير ذلك، وسكت وسكت هو ونحن نضحك همساً لهذه الصدفة غير المحسوبة، ولقد كان لنشأت بعض الفضل في توجيه الكاتبة المعروفة «غادة السمان» التي كانت تكتب في مجلة الجندي يوم كان والدها الصديق الدكتور أحمد السمان رئيساً لجامعة دمشق، وأذكر أن أول مقال كتبته يومها كان بعنوان: «عيناك قدري» ولم يعجبني هذا العنوان فهو قد كان جديداً بالنسبة لأسلوب الكتابة يومئذ وقلت للسيدة غادة: الأفضل أن تغيري هذا العنوان، ودخل نشأت أثناء الحديث وتدخل في البحث ولكنه غيّر الحديث ووجهه إلى ناحية أخرى. ولما كان نشأت مديراً للإذاعة خلال فترة من الفترات كما أذكر وأرجو أن لا تخونني الذاكرة، أقول في تلك الفترة جاءت إلى دمشق مطربة من أجمل ما عرفنا من الأصوات الغنائية وهي المرحومة ماري عكاوي، ولقد كنا نسمع صوتها وهي تغني من إذاعة الشرق الأدنى أثناء الحرب العالمية الثانية وكذلك من إذاعة القدس وكانت تردد الأغنية الشهيرة: يا جارتي ليلى، التي نظم كلماتها الشاعر المرحوم جلال زريق صديق ورفيق ابراهيم طوقان وأبي سلمى «عبد الكريم الكرمي»، هذه القصيدة التي لحنها المرحوم محمد عبد الكريم عازف البزق العبقري، وقد كان صوت ماري يشد السامعين بحلاوته وعذوبته وقد تعرف إليها نشأت بحكم عملها بالإذاعة وتزوجها بعد ذلك وقد ولدت له عدداً من البنات كما أعلم وماتت عنده إلى رحمة الله، وترك نشأت العمل الصحفي الرسمي مرة وأصدر مجلة اسمها «عصا الجنة» كانت موفقة في شكلها

وإخراجها وموادها ولكنها لم تستمر طويلا، ولي مع هذه المجلة قصة:

كان في دمشق محل تجاري هام لبيع الألبسة والأحذية والعطورات، مما يسمى «نوفوتيه»، قد أسسه آل شمسي باشا، وهما الاخوان صلاح الدين وخير الدين اللذان ذهبا إلى فلسطين قبل النكبة، وقد جمعا من هناك ثروة لا بأس بها افتتحا بها هذا المحل الذي كان مثابةً ومركزاً لشخصيات رسمية وأدبية كثيرة، وكان شريكاً لهما السيد عبد الهادي المعصراني التاجر الحمصي المعروف، وكنت من رواد هذا المعرض حين أزور دمشق وقبل أن أترك حماه، وقد جئت يوماً لأزور صاحب المحل صديقي خير الدين فوجدت عند الباب آنسة واقفة ووراءها صناديق البضاعة ومن بينها أحذية كانت تستورد من خارج القطر، فاقتربت من الآنسة وخيّل إليّ أنها موظفة في المحل، وقد كان فيه فعلاً عنصر نسائي يعمل في البيع، وسألت الآنسة: بكم سعر هذا الحذاء؟ وأشرت إلى ما ورائها، ورأيتها انتفضت وقالت بكل جفاف: أنا لست بائعة واقترب مني خير الدين ليقول لي: أقدم لك الآنسة «هند بادي» الأديبة الشاعرة، وقدّمني لها، وكانت تعرفني طبعاً عن طريق الصحافة، وابتسمت ابتسامة صغيرة، واعتذرتُ لها عن خطئي وقلت لها بعد الاعتذار: ما رأيك أن أعتذر إليك شعراً وأقدم لك أبياتاً لقاء هذا الخطأ؟ فكبرت ابتسامتها وانشرح وجهها وقالت: أكون ممتنّة، واتفقنا على ذلك وودعتها، وبعد أيام كتبت أبياتاً وأرسلتها لمجلة «عصا الجنة»، وصاحبها كما قلت آنفاً نشأت التغلبي صديقي، ولكني أرسلت الأبيات إلى صديقي، عن طريق، محي الدين رسلان ليوصلها، وهو صديق نشأت أيضاً، وبعد مدة قرأت في المجلة الأبيات ولكنها كانت بتوقيع محي الدين رسلان لا بتوقيعي، وكان في مطلع الأبيات اسم الآنسة هند بادي تضميناً وهو:

حب هند على جبينيَ بادي وهواها الحيران ملء فؤادي

لست أنسى أريجهَا يوم مرّت كمرور النسيم بين الوراد

وحين اطلعت على «المقلب» الذي صنعه «اللئيم» محي الدين ركبت السيارة وجئت إلى دمشق فوجدته جالساً في مقهى «الهافانا»، وحين دخلت عليه أخذ ينقر بيديه الاثنتين على الطاولة أمامه وضحكت وسألته: لِمَ تصنع هذا؟ فأجاب وهو جاد: لأجل الوزن. ثم انهلت عليه ضرباً وشتماً والناس من حولنا يعجبون ويضحكون. وكان نشأت وحدوياً محترفاً، وقد ترك دمشق والتحق بمصر وما يزال إلى اليوم يتنقل بين مصر وبيروت وقد بلغني أنه يعمل في جريدة «الحوادث» القديمة. ونشأت صديق قريب إلى القلب لكنه منشغل دائماً بحيث لا يستطيع التفرغ لأحد، ولم أقابله منذ أيام الوحدة.

صحافة الكبار: شيخهم وأكبرهم سناً الأستاذ يوسف العيسى، الفلسطيني الأصل، والكاتب الأصيل صاحب «مباءة نحل» التي كانت أهم زاوية في كل الجرائد السورية، كان الأستاذ العيسى يكتب المقال الافتتاحي مختصراً مفيداً في لغة صافية واضحة يختار فيه حادثة بارزة أو خبراً هاماً يجلب النظر فيقلبه ويداوره حتى يستوفيه ثم يختمه بهذه الزاوية «مباءة النحل» التي يسخر فيها من أحد الناس أو من قانون من القوانين أو تدبير من التدابير الإدارية أو المالية أو الاجتماعية التي لا تعجبه، فكانت الجريدة «ألف با» تطير طيراناً من أيدي الباعة إلى أيدي القراء الذين يلتهمون بعيونهم الافتتاحية ثم المباءة. وكان يوسف العيسى محترماً جليلاً عند أخوانه، وقد كان يجلس في مقهى «السرايا» كما كان يسمى، وكان قرب وزارة الداخلية اليوم وفي الساحة التي تحيط بتمثال جامع آيا صوفيا الموضوع على العمود أمام دار الوزارة. وكان يدخن الشيشة يومياً ويتحلّق حوله على الغالب معروف الأرناؤوط ونصوح بابيل ونجيب الريس وأحياناً وجيه الحفار صاحب «الإنشاء» والأستاذ العيسى من العائلة الفلسطينية المعروفة في الوسط الأرثوذكسي، وقد خرج من العائلة رجال اشتغلوا بالعلم والمحاماة وغير ذلك. ومنذ أن أممت الصحف لم نعد نسمع بما انتهى إليه هذا الرجل الفاضل الذي كان من أبرز الصحفيين في العالم العربي. ويجب أن نذكر هنا أنه هو الذي سمى الشاعر بدوي الجبل بهذا الاسم الذي لزم الشاعر أكثر مما لزمه اسمه الأصلي، وهو الذي شجعه وعرفه على شعراء دمشق جميعاً.

نجيب الرّيس: أما نجيب الريس فمن أسرة «**الريّس**» المعروفة في حماه، وفيها العالم، كالدكتور محمود خضر الريس الطبيب المعروف في حماه ورفيق الدكتور سبح، والدكتور الأسطه والشماع والكيالي،

إلخ هذه السلسلة، وهم الذين أنهوا دراساتهم في مطلع العهد الفيصلي، وقد ذهب الدكتور الريس إلى فرنسا وتخصص بالأشعة وعاد لحماه وكان صديقاً، ولي مجالس معه، وكان في غاية التهذيب، ومن العائلة منير الريس وهو من أبطال الثورات المتلاحقة في سوريا وفلسطين وقد شهد فيه فوزي القاووقجي في مذكراته شهادة يتمناها كل ثائر، ومنهم الأستاذ المدرس نظمي الريس وسعيد الريس والزراعي عثمان الريس وغيرهم كثير. ولقد نشأ نجيب الريس ميالاً للدرس وخاصة دروس الفقه واللغة والنحو وبعض العلوم الدينية، وكان يتردد على جوامع المدينة ويتنقل من أستاذ إلى أستاذ حتى حصل على بضاعة جيدة من كل هذه الألوان الثقافية، وانتقل نجيب إلى دمشق وبدأ العمل من أوله إلى أن وصل إلى نهايته كما بدأه صديقه وزميله نصوح بابيل، وكانت مهنة الصحافة والطباعة تتسم بالصعوبة البالغة في صف الحروف والتصحيح وكثرة الأخطاء، فكان الواحد من هؤلاء المشتغلين بهذه الصناعة يقضي الليل كله في العمل ولا يستريح إلا عند الفجر. وأخذ نجيب ينتقل من صحيفة إلى أخرى حتى تكونت شخصيته التي كان منها جانب هام هو جانب الوطنية التي امتاز بها عن غيره من الصحفيين والتي جعلته صحفياً بارزاً في الصحافة وفي السياسة في آن واحد، حتى لقد رشحته دمشق ليكون نائباً عنها، وكان من أفضل النواب وأجرأهم، أول ما عرفت نجيب الريس أنه زار المدرسة الزراعية بعد أن أفرج عنه من سجن أرواد يوم كان مرافقاً للشهبندر وغيره من الأحرار الوطنيين، وفي هذا السجن نظم نشيده الذي ما تزال الجماهير تردده في كل مناسبة وطنية وهو:

يا ظلام السجن خيّم   إننا نهوى الظلاما

هذا النشيد الذي ادعاه غيره ولكنه من صنع نجيب دون مراء أو شك. وكانت زيارته للمدرسة الزراعية في سلمية، أنه كان متزوجاً شقيقة مدير المدرسة السيد عمر الترمانيني، وقد دخل علينا في الصف الذي كنا فيه وتحدث إلينا حديثاً ظريفاً في موضوع الدراسة والسياسة والحياة وقد أعجبنا به إعجاباً شديداً، وقد كان يومها في فجر الشباب أنيقاً نظيفاً واضح الصوت والنبرات. وحين انتقلت إلى دمشق كنت صديقاً له، ولكن اجتماعاتنا كانت قليلة، فقد كان هو منهمكاً في عمله بجريدة «القبس» التي كانت أخطر جريدة بحسب المستعمر الفرنسي حسابها، وإني أذكر عددين من هذه الجريدة قد أخذا حيزاً بين ذكرياتي السياسية، ففي عام ١٩٣٢ قامت حركات شديدة في دمشق خاصة وفي منطقة المرجة وقد أغلقت من قبل الجيش جميع المنافذ التي تؤدي إلى هذه الساحة المشهورة، وخرج بهيج الخطيب يومها، وكان أكبر مسؤول في وزارة الداخلية، وأخذ يطلق النار من مسدسه وهو واقف في شرفة البلدية القديمة التي كانت تطل على الساحة، وقد قتل عدد من الأشخاص، وكنت أنا واقفاً في مدخل البحصة أنظر إلى صنع الجماهير، وقد نقم الناس يومها على بهيج الخطيب لتظاهره على هذا الشكل ضد أبناء وطنه، ويومها صدر العدد من جريدة «القبس» وعليه جملة كتبت بالخط العريض «مانشيت»: إلى شحيم يا بهيج الخطيب، وقد تساءلنا يومها عن هذه الكلمة «شحيم» فتبين أن بهيج الخطيب من مواليد هذه القرية في القطاع الجنوبي من لبنان، وأخذ أبناء الشعب من الشباب في الأزقة والشوارع ينادون: إلى شحيم يا بهيج الخطيب، ولعلنا نذكر بهذه المناسبة أن الشاعر الوطني المعروف الشيخ فؤاد الخطيب هو أيضاً من قرية «شحيم» هذه ولعله ابن عم بهيج الخطيب.

ومن الطريف هنا أن استطرد بمناسبة ذكر الشاعر الشيخ فؤاد الخطيب وأن أذكر شيئاً عن هذا الرجل، على أن أعود إلى استكمال الحديث عن الصديق نجيب الريس.

فالشيخ فؤاد هو صاحب القصيدة التي نظمت إبان الحرب العالمية الأولى، وهي القصيدة الوطنية التي كان يتغنى بها الشباب في مظاهراتهم وفي مدارسهم والتي تقول:

لمن المضارب في ظلال الوادي   ريانة الجنبات بالوارد
الله أكبر تلك أمة يعرب   نفرت من الأغوار والأنجاد

وكان الشيخ فؤاد في الأردن حين تأسيس المملكة الأردنية الهاشمية، وكانت ما تزال إمارة، أميرها، الأمير عبد الله الذي صار ملكاً فيما بعد، وكان الأمير يمنح رتب الباشوية وغيرها لرجاله الكبار الذين خدموا إمارته، ومن بينهم مظهر باشا رسلان، وفؤاد باشا الخطيب، وجاءت النكتة على لسان أحدهم فأرسل برقية إلى الأمير عبد الله وكان شاعراً يحب الشعر ومحاوراته؛ وقد جاء في البرقية قوله.

سهم الحقيقة طاشا مذ أصبح الشيخ باشا
والشيخ ليس براضٍ إن لم تزيدوا المعاشا

وقد أجاب الأمير على هذين البيتين بأن زاد معاش الشيخ فعلاً، وأجاب ببرقية يقول فيها:

زدنا المعاش رشاشا

نعود إلى جريدة القبس لنقول إن أصلها «المقتبس» وكانت قديماً بهذا الاسم، ومؤسسها هو العلامة محمد كرد علي، وقد كان نجيب الريس جريئاً إلى أبعد الحدود، وكانت جريدته سيدة الموقف في المناسبات الوطنية، فقد كان يعرف كيف يستفيد من المواقف فيضع النقاط على الحروف ويمس الأعصاب في كلمات كان يخترعها هو، من جملة ذلك أنه قامت حركة دينية في بلدتنا سلمية تناهض العقيدة الإسماعيلية «الآغا خانيه» وكان القائم بهذه الحركة شقيقي الأكبر محمد الجندي يؤازره بعض الشباب والشيوخ ممن لم يعتنقوا العقيدة الإسماعيلية الجديدة أعني الآغا خانيه، وقد سعى أخي وجماعة عن طريق التبرعات وغيرها إلى إصلاح الجامع القديم المتهدم أعني الجامع المسمى «الإمام اسماعيل» وهو رضي الدين عبد الله ومن الأئمة الذين كانوا يسكنون سلمية، وكان لأهل القدموس الذين نزحوا إلى سلمية يوم حوادث الشيخ صالح العلي جامع آخر، وفي مرة من المرات تهجم جماعة من شباب الإسماعيلية على المصلين في الجامع «السنيّ» كما كانوا يسمونه، وقذفوهم بالحجارة أثناء الصلاة وقامت قيامة الدنيا من أجل هذه الحادثة، وفي اليوم الثاني ظهرت «القبس» وعليها عبارة بالخط العريض «المانشيت» تقول: «رُجم الإسلام مرتين: مرة في مكة ومرة في سلمية»، ولقد أحدثت هذه العبارة ضجة كبرى وتناقلتها الصحف في كل مكان، وكان نجيب هو الذي اختار هذه الكلمة الموفقة. وقد ترك نجيب زوجته الأولى وتزوج من امرأة ثانية هي شقيقة زوجة الأستاذ وصفي زكريا الذي كان مديراً للمدرسة الزراعية والذي تحدثت عنه بإسهاب فيما مضى، وزوجته الجديدة من أسرة «سُمَيْنة» الطرابلسية، وقد تزوج أختها الأكبر، أسعد آغا الفياض من آغوات الدنادشة المعروفين في تل كلخ، وقد ولدت له ولدين وبنتاً أحدهم الأستاذ رياض الريّس الصحفي والناشر المعروف في سوريا وخارجها، والثاني الطبيب الدكتور عامر الريّس الذي يعمل في كاليفورنيا بالولايات المتحدة، وكوكب الريس الموظفة الديبلوماسية في الجامعة العربية حالياً. ومن الطريف أن نذكر شيئاً لا يعرفه إلا القليل وهو أن نجيب الريس هو أخ لأم الشاعر العاصي المرحوم بدر الدين الحامد صديقنا العزيز في حماه والذي أتينا على ذكره حين مررنا على هذه المدينة في ذكرياتنا هذه.

ويموت نجيب الريس، وكنت من مشيعيه، ولا أحد يعرف كيف أصابه المرض، فقد كان موته مفاجأة في حادثة قلب أصابته ولم يتداركه الأطباء في الوقت اللازم، فذهب، وقد كنت أنا وبدر الدين ـ رحمه الله ـ يوم التشييع، وقد أبّنه بدر الدين في قصيدة باكية منشورة في ديوانه الذي حققته بين منشورات وزارة الثقافة السورية.

كان نجيب يحبني ويعتبرني أخا أصغر، وأذكر أنه كان إذا زار حماه فلا بد أن يزور فريد بك العظم فقد كان له صديقاً حميماً، وكان ينزل في فندق حماه وهو النزل الوحيد في البلدة عند صديقه المرحوم محمد الحافظ الذي كان صديقاً لي أيضاً، فإذا عاد من عند فريد بك لقيني في الفندق المكان الدائم لاجتماعنا، فيناديني وأصعد معه إلى مطعم الفندق لنتغذى سوية، وقد يطول بنا الغداء ساعة أو ساعتين نستمتع بالصحبة والحديث؛ وأذكر أنني تحرشت به مرة فسألته: أصحيح أنك أتيت دمشق وأنت تلبس القنباز الحموي؟ فقال لي ضاحكاً: نعم، لقد جئت دمشق لابساً القنباز ولكنه كان قنبازاً حريرياً. ومن

صفات نجيب أنه كان فصيح اللسان تخرج الكلمة من فيه وكأنه التزم بها قواعد التجويد لذلك اختير لإلقاء قصيدة شوقي الشهيرة يوم جاء إلى دمشق عام ١٩٢٤ وهي التي يقول في مطلعها:

قم ناج جلّق وانشد رسم من بانوا | مشت على الرسم أحداث وأزمان
هذا الأديم كتاب لا كفاء له | رثّ الصحائف باق منه عنوان

ولقد حدثني نجيب فقال: لقد كان موعد حفل استقبال شوقي مساءً، ورأينا شوقي يجالسنا في الفندق وغيره ولم يذكر لنا شيئاً عن قصيدته، وجئت عند الظهر لأرى ما صنع شوقي، وطرقت باب غرفته فسمعت إلى خارج الغرفة همهمة عرفتها، فقد كان من عادة شوقي أن يهمهم بصوت كبغام الريم أو هديل الحمام حين يريد أن ينظم شعره، وبالفعل، لقد أنجز القصيدة قبل الحفل بوقت قصير وكان لي شرف إلقاء هذه القصيدة الخالدة، رحم الله نجيباً، فلقد كان نجيباً حقاً.

معروف الأرناؤوط: هذا الرجل لبناني الأصل وقد يكون من أصل ألباني، فكلمة «أرناؤوط» تعني هذا الانتساب. وقد ظل رغم إقامته الطويلة جداً في دمشق يتكلم باللهجة البيروتية حتى كان رفاقه يقلدونه بها مازحين. كانت جريدة «فتى العرب» جريدة معتدلة في كل شيء حتى في انتشارها بين القراء، وكانت أميل إلى الجد، كما كانت بعيدة عن التطرف في كل شيء حتى في السياسة الوطنية، فلم يكن يناصر في شيء من المقالات الحادة كما كان يفعل نجيب الريس ونصوح بابيل أحياناً. وكان معروف يتقن اللغة الفرنسية، وقد أفاد من هذه المزية في كثير من المناسبات، كان أيضاً يجالس يوسف العيسى في مقهى السرايا الذي وصفته لك آنفاً ويدخن الشيشة أيضاً كيوسف العيسى ولكنه كان أصغر منه سناً ـ كما أعتقد ـ وقد تزوج من عائلة شيخ الأرض وصاهر صديقنا المرحوم المهندس صلاح شيخ الأرض. وأبناؤه وبناته اليوم كلهم في أوروبا يعملون؟ وكانت لغة معروف العربية قوية مما يدل على أنه كان من رجال المطالعة الأدبية بين رجال الصحافة في ذلك العهد، وقد انتمى في آخريات أيامه الى الناحية الأدبية، فكتب القصة التاريخية ونجح في هذا المضمار، وإن كانت لنا ملاحظات على هذه القصص وخاصة قصته الشهيرة «سيّد قريش». إن أسلوب معروف الأدبي أسلوب جيد لا غبار عليه، بل هو أميل إلى القوة، ولكنه كما يبدو لم يكن يعرف كيف تكتب القصة، فكل جملة يكتبها الأديب محسوبة عليه وهذا ما جهله معروف، لقد كان يكتب ما يريد من أحداث القصة حتى إذا جاء إلى موقف يقتضي الوصف أسهب في هذا الوصف إسهاباً يدخل الملل على القارىء، فإذا وصف العجوز وصفها بصفحة كاملة، وإذا عرض للصحراء كتب في نعتها صفحات كاملة، ومن الواضح أن أهم شيء في القصص كلها الأحداث التي تتوارد في القصة، أما الأوصاف فيجب أن يمر عليها الكاتب القصصي باختصار على أن ينتقي لها الجمل المدروسة التي تدل على المعنى الكبير في اللفظ القليل؟ مع ذلك فإن قصص معروف الأرناؤوط قد تركته بين كتّاب القصة العربية بارزاً ممدوحاً ومشكوراً.

نصوح بابيل: حدثني صديقي القديم الأستاذ حمدي بابيل الصحفي المعروف، أن والده كان يعنى بتربية الخيل الأصائل، وأنه كان يقتني الجياد وقد اختار لها إسطبلا لتربيتها في بناء من حيّ سمي «البحرة الدفاقة» خلف بناء المجمع العلمي «المدرسة العادلية»، أما نصوح بابيل فقد مال إلى الصحافة بعد أن انتقل بيتهم إلى حيّ «ستّي زيتونة» من منطقة سوق صاروجة، وعاش نصوح مع زملائه نجيب الريس ومعروف الأرناؤوط وأديب الصفدي وفوزي أمين وبسيم مراد، ولكنه سرعان ما برز في السياسة وانحاز إلى المعارضة فكان الساعد الأيمن للمرحوم الدكتور الشهبندر الزعيم الوطني المعروف، وكان المدافع والمنافح عنه حياً وميتاً. وفي العام الثلاثين على ما أظن أسست في دمشق جريدة سميت «الأيام»، وكان مديرها المرحوم عارف النكدي، كما شارك فيها الدكتور نجيب الأرمنازي صهر آل مردم والحموي الأصل الذي درس مدة طويلة في فرنسا وكان عالماً حقوقياً، كما كان لمدة طويلة مديراً للقصر الجمهوري، وكان نصوح بابيل محرراً أول في هذه الجريدة الجديدة أو كان عضواً في لجنتها، لا أدري، ومن الطريف أن يكون في عداد محرري هذه الجريدة خالد بكداش أمين سر الحزب الشيوعي الذي كان جديداً هاتيك الأيام، كما كان فيها محرراً ـ وهذا أطرف ـ انطون سعادة زعيم الحزب القومي السوري، الذي أصبح

اليوم: الحزب القومي الاجتماعي، وقد كان رئيساً لقلم الترجمة في الجريدة، إذ كان يتقن اللغة الألمانية والإسبانية، وأظنه كان ملماً باللغة الفرنسية والإنكليزية، كما كانت لغته العربية جيدة، وكان مكان دار الأيام في مكان محافظة مدينة دمشق اليوم أو قبلها بقليل. وقد عقد اجتماع مرة في هذه الدار وخطب بعض الشباب ومن بينهم الأمير أحمد الشهابي المحامي والخطيب، وأحد رجال الكتلة الوطنية من الشباب، كما أجابه بخطاب الأستاذ النكدي، وفي هذه الأثناء قام رجل اسمه فؤاد الشمالي - وهو لبناني - فأراد أن يلقي خطاباً لمس فيه الحاضرون شيئاً من المعارضة، فقام من نافذة البناء فوق الجمهور الأستاذ رشيد الملوحي - الصحفي المعروف - ينادي ويصرخ بأن هذا الخطاب دسيسة وإنها لمؤامرة شيوعية، وهكذا انفض المجتمعون ومن بينهم خالد بكداش الذي رأيناه بعد قليل في منطقة زقاق الصخر ومعه رفيق من الشيوعيين وقد لبس «الترانشكوت» مشمعه المعروف الأصفر ووضع يديه في جيوبه وهو يروح ويجيء بانتظار شيء لم نعرفه، وقد اشتهر هذا الاجتماع وما زال الناس يذكرونه إلى اليوم.

وقد تزوج السيد نصوح بابيل من أسرة الدسوقي المعروفة وشقيق زوجته أنور الدسوقي صديق قديم وكان في أحد صفوف مكتب عنبر حين كنت فيه. وقد أنجب الأستاذ نصوح عدداً من الأولاد أكبرهم المحامي غسان ومروان وزياد صديقنا في دمشق وجنيف ولوزان. ولي مع نصوح بابيل - رحمه الله - حوادث طريفة منها: إنني كنت يوماً في مقهى الروضة وإذا بعامل المقهى يناديني فخرجت وإذا سيارة على الباب والأستاذ بابيل يناديني منها، وحين خرجت إليه قال: إن معي الصحفي والأديب المصري المعروف «مصطفى حمام» وأنت تعرفه جيداً وقد شغلت اليوم بعمل لم أستطع التفرغ فيه لهذا الضيف فأرجو أن تتولى أنت أمره، وقد اعتبرت هذا الشيء لوناً من الصداقة التي أنا حريص عليها مع الأخ نصوح. وتسلمت الضيف وناديت سيارة أخرى ركبت فيها وإياه وذهبنا إلى مقصف «كيلوبترا» الظريف في منطقة دمر، وفي المقصف أحضرت الطعام وما يلزم وأخذ الأستاذ حمام يحدثني، والأستاذ حمام خير من يتحدث ويقلد ويحاكي في العالم العربي، حتى لقد رأيت صالح جودت وأحمد رامي في مجلس من المجالس عند الأستاذ حسن البحيري، الشاعر والأديب الفلسطيني المعروف، لقد رأيتهما يكبرانه ويجلانه ويطلب منه صالح جودت أن يسجل هذه القصص التي يرويها ويخترعها في أكثر الأحيان، لقد كان مصطفى حمام يضحك السامعين ويبكيهم في لحظة واحدة، فهو محدث ليس له نظير على الإطلاق، وهو الذي استعار اسمه «أستاذ حمام» الفنان الكبير نجيب الريحاني في فلمه الشهير: «غزل البنات»، هذا دليل على أن الرجل معروف ومشهور. كان يقلد توفيق دياب الصحفي الكبير صاحب جريدة «الجهاد» المصرية كما كان يقلد العقاد، وكان أبرع ما يكون حين كان يقلد سعد زغلول في لهجته الخطابية المشهورة. وحادث آخر مع نصوح بابيل، فقد كان له صديق مشهور يسمى «محمد علي الطاهر» ويلقب بأبي الحسن، وكان صحفياً معروفاً، ولكنه كان أحول بطيء الحديث ولم يكن - سامحه الله - قريباً للقلب، فكان نصوح بابيل صديقاً له بالرغم منه؛ وفي مرة كنت سائراً إلى عملي في الشارع الذي فيه جريدة الأيام وإذا بالأخ نصوح بابيل ومعه الأستاذ شفيق جبري ينادياننى من الشرفة لأصعد سريعاً إليهما، ولبيت الطلب قلت: لعل في الأمر خيراً يصيبني، وعندما وصلت إلى بهو البناء الكبير وجدت أحد العاملين في الجريدة يقودني إلى غرفة دخلتها فإذا أنا أمام محمد علي الطاهر وجهاً لوجه، فجلست وسلمت عليه وحين سألت عن نصوح بابيل والأستاذ جبري، قيل لي إنهما ذهبا بشغل لهما وتركا الدار، وضحكت بيني وبين نفسي وقلت: والله إنها لمزاحة موفقة. وكنت مرة في بيروت وفي مقهى «الدولشي فيتا» على الروشة وإذا بالأخ عباس الحامض يناديني وهو يطل من باب مطعم نصر الشهير فجئت إليه أسلم عليه، وقال: تفضل الأخ بابيل يريدك فدخلنا وإذا بالأخ بابيل أمام طاولة غاصة بالمآكل وما لذ وطاب من الفاكهة والحلوى وغير ذلك لا سيما الكبة الفخمة التي يصنعها هذا المطعم، وجلسنا، وبعد قليل ذهبت إلى المغسلة ولا أدري كيف تراجعت إلى الوراء وإذا بي أسقط سقطة أصطدم بها في زاوية المكان، صدمة أصابت أذني فجرحتها وسال دمها ولكني تحملت بحمد الله ومسحت الدماء، والأخوان بابيل والحامض ينتظرانني ولبثت قليلاً ثم جئت إليهما بعد أن جف الدم وأزلت أثره عن أذني وجلست معهما نكمل

الحديث وكأن شيئاً من هذا لم يقع، وقد رويت له الحادثة حين رجعنا إلى دمشق فتعجب من صبري وتحملي.

كان الأستاذ بابيل من الكرماء المشهورين، ولعل كرمه كان من أسباب موت صديقه وزميله المرحوم رشيد الملوحي، الذي كان متيماً بالأكل، فقد دعاه إلى مقهى الجرجانية القريب من الزبداني وظل الملوحي يأكل وظل بابيل يناوله من الطعام حتى نزل المسكين إلى بيته فارتفع معه حامض البول فجأة، كان قضاء الله فيه، وكان المرحوم بابيل يروي هذه القصة ويستغرب كيف استطاع الملوحي أن يزدرد هذه الكمية الكبيرة من الطعام التي تكفي كتيبة بكاملها. وكان نصوح بابيل أيضاً لطيف المعشر ناعم الصوت أنيق الشكل طوالاً بين الرجال، وقد جعل لنفسه مقاماً رفيعاً بين الصحفيين، حتى لقد كان عميدَهم ونقيبَهم يتولى أمورهم في كل شيء. وقد كان لي حظ المشاركة في تأبينه ونظمت فيه قصيدة كانت محل إعجاب أهله وذويه وأصحابه، رحمه الله رحمة واسعة.

رشيد الملوحي: هذا الرجل صديق قديم لي وهو شقيق صديقي في المدرسة الزراعية في سلمية، وقد مر ذكره آنفاً، وأسرة الملوحي أسرة متوسطة الحال تسكن في حي «ضهر المغارة» في حمص القريب من سوق الحشيش الشهير، وقد عرف من هذه العائلة علماء منهم الشيخ سعيد الملوحي، كما عرف منهم فنانون مثل راغب الملوحي الذي كان صاحب صوت مطرب معروف، ومنهم القاضي العادل المرحوم أنيس الملوحي الذي وصل إلى مرتبة عليا في القضاء. ورشيد أو الحاج رشيد كما كان اسمه أخيراً من خريجي دار المعلمين، وقد عُمل في التدريس مدة ثم انتقل إلى الصحافة وكان من الشباب الوطني ومن الذين شاركوا في الحركة الفنية للتمثيل هو وأنيس ابن عمه وابن عمه الآخر السيد عبد الرحمن الذي كان يمثل هذه الناحية الفنية في حمص، أول ما رأيت الحاج رشيد في المدرسة الزراعية فقد حصل إضراب في المدرسة على أثر ثورة حماة عام ١٩٢٥، فجاء إلى المدرسة ليرى أخاه عبد الحكيم الذي كان في الصف الأول وقد قدمني إليه أخوه صديقي، فرأيت رجلاً أسمر ظاهر السمرة ذا كرش كبير وصوت حاد أجش يحمل عصاً غليظة جداً، كما كانت العصي الدارجة في تلك الفترة، ويلبس بنطالاً واسعاً جداً في كمّه، كما كانت السراويل هاتيك الأيام أيضاً، وبعد أن جئت إلى دمشق عرفته عن كثب فكان صديقاً، لقد كان الحاج رشيد أقوى الصحفيين جميعاً لغة وأكثرهم اطلاعاً على التاريخ، وكان خطيباً بارزاً في المجتمعات السياسية ولكنه لم يستطع أن يكون صاحب جريدة ولا أدري السبب في هذا، إلا أنه لا يملك مالاً، فقد كان متلافاً كما قلت يسهر ويشرب ويأكل، وكل ذلك في أقصى الحدود ثم يذهب بعد منتصف الليل إلى مقهى علي باشا القديم في أول سوق علي باشا المجاور لسوق التبن وللمرجه فيدخن شيشة، وربما أمسك الشيشة لينام ساعات كاملة دون أن يوقظه أحد، فقد كان الناس يعرفون فيه هذا الطبع العجيب، كانت مصيبة الحاج رشيد في طعامه فقد كان عبداً طيعاً لمعدته لا يهادنها ولا يرفض لها طلباً، ولعله كان يود أن تكون له أكثر من معدة واحدة، ومن مفارقات الطبيعة أن أصحاب الشهية هؤلاء كلهم من أصحاب المعد السليمة التي تقاوم الظروف والأحداث، فهؤلاء ليس عندهم طعام عسير الهضم، فكل طعام عندهم سهل إذا وجد، ولذلك فهم يأكلون ليلاً ونهاراً ولا يشكون عسراً في الهضم، يشربون الماء مع الأكل وبعده وقبله فلا يهمهم الترتيب ولا تعمل فيهم النصائح الطبية بل لعلهم يسخرون منها، قلت للحاج رشيد مرة ناصحاً: لا تشرب بعد الطعام مباشرة لئلا ترتبك معدتك فضحك وقال: إذا كان الطعام على النار محتاجاً للماء، ألا تضع له الماء؟ قلت: بلى، قال: وهذه المعدة إنها تحتاج للشراب بعد الطعام، وقال لي: لقد جاء في الحديث الشريف: استروا الماء بلقمة، وهذا يعني أن المرء يستطيع الشرب بعد الأكل شرط أن يأكل لقمة أو لقمتين بعده، قلت: كأنك يا حاج لم تحفظ من الأحاديث إلا هذا، وعمل الحاج رشيد فترة من الزمن في دوائر الحكومة وخاصة في وزارة الداخلية ورئاسة مجلس الوزراء والقصر، وقد رافق مرة إلى حماه السيد حسني البرازي الذي كان رئيساً للوزراء في حقبة من الحقب، وألقى خطاباً في الحفل الاستقبالي الذي أقيم للسيد البرازي في بهو الفندق الكبير أيام رئاسة الشيخ تاج الدين الحسني. وكان الحاج رشيد يروي أحسن الشعر كما كان يقدر الجمال حق قدره على اختلاف مصادره، فهو رجل يحب أن يعيش وأن

يستمتع مع عقيدة صالحة، فقد كان مؤمناً صادق الإيمان لأنه نشأ نشأة المشايخ في بيت أبيه، ولقد تزوج وأنجب أولاداً أكبرهم معاذ، وقد رأيته مرة دائباً على كتابة فصول من التاريخ الإسلامي، كما رأيته يرجع في قراءة طويلة إلى كتاب أسد الغابة وابن أبي الحديد والطبري وابن الأثير، ولا أدري ما صنع الله بهذه الصفحات الكثيرة التي كتبها وربما كانت ما تزال مخطوطة عند أولاده. ومات الحاج رشيد وكأنه لم يأت إلى هذه الدار الفانية، رحمه الله.

أديب الصفدي: وهذا صحفي من الأذكياء وكان زميلا من المعدودين، ولكنه لم يؤسس صحيفة لنفسه بل كان أكثر دهره رئيس تحرير لجريدة «الشعب» لصاحبها توفيق جانا صاحب الصحف المعروف الفلسطيني الأصل، والذي كانت له جريدة مشهورة ضاحكة هي «جراب الكردي» أو «الحمارة» كما لست أذكر، وكانت جريدة انتقادية ثم انتهى في آخر أمره إلى جريدة «الشعب» التي عمل فيها رئيساً للتحرير، كما قلت، السيد أديب الصفدي وعمل إلى جانبه السيد حصريّة الذي استولى على الجريدة فيما بعد، كما عمل فيها محرراً، الكاتب الأديب وصديقنا القديم نسيب الاختيار. وأديب الصفدي من أسرة قدورة المعروفة في بلدة صفد الفلسطينية وهي أسرة كبيرة بقي قسم منها في صفد، وانتقل قسم آخر إلى دمشق وإلى عمان، وبعد نكبة فلسطين تركت العائلة صفد لتتوزع في مشارق الأرض ومغاربها. كان أديب كاتباً صحفياً، لم يعمل بغير ميدان الصحافة، أما شكله فقد كان أميل إلى القصر، كما كان كبير الرأس جهوري الصوت، يحب الحياة بل قد يتطرف في حبها أحياناً، وهو أخ شقيق لحمدي الصفدي التاجر المعروف في عمان والذي كان صديقاً للسيد فخري البارودي حين هاجر إلى عمان، وله يقول فخري بك من قصيدة:

وهذا الحر يا حمدي أفندي   حكى بالحر خط الاستواء

وقد عارض هذا البيت المرحوم سعيد التلاوي الصحفي الظريف معارضة بذيئة لا يستطاع ذكرها فأثار البارودي إثارة كبرى حتى عدها سخراً لاذعاً، ونقم على سعيد حتى كان يستبعد وجوده في داره، لا سيما بعد أن ضغطت المعارضة، ورددها الناس أكثر من ترديدهم للبيت الأصل. ولقد ذهب أديب الصفدي ضحية حادث مشؤوم، فقد كمن له رجل في طريقه إلى البيت وأشبعه طعناً من سكين كانت بيده فقضى على الأثر ـ رحمه الله ـ وقد مات دون أن يتزوج أو يترك ذرية ما.

فوزي أمين: هذا صحفي غريب الوضع غريب العمل، كان ظريفا وساخرا وقوي الشكيمة، عند اللزوم، وفي لسانه امتداد أحياناً، لم يتعلم ولم يدرس ولا كتب ولا قرأ، وكل ما في الأمر أنه كان يجلس في زاوية معروفة من مقهى الهافانا يدخن شيشته ويجأر بضحكته التي كانت أشبه بطلقات البنادق جهارة وقوة. كان سميناً جداً يحمل رأساً أصلع وشفتين ضخمتين وابتسامة دائمة تتبعها ضحكة دائمة، وكان أنيقاً إلى أبعد الحدود ينتقي أحسن الملابس، وكان في أول أمره صاحب جريدة «النظام» التي كانت من أخطر الجرائد على من يعادي صاحبها، ثم أسس مجلة أدبية اسمها «النقاد» وقد كان لهذه المجلة دور كبير في النهضة الأدبية المعاصرة، وكان لها الفضل في ظهور الكثير من أدباء الشباب الذين ذكرت أسماءهم حين تحدثت عن المرحوم سعيد الجزائري، وكان لفوزي مكتب يجتمع فيه أخوانه كل مساء وهو يقابل مقهى الهافانا، وكان يتردد على هذا المكتب شفيق جبري وعبد الرزاق كرد علي وفائق النحلاوي وعباس الحامض، كما كنت أتردد عليه بين الفينة والفينة لأستمع إلى ما يدور فيه من مجادلات تضحك في أكثر الأحيان، لأن فوزي أمين لم يكن يميل إلى الجد كثيراً. وهذا الصديق القديم من أسرة حمصية الأصل قديمة من المشايخ وقد عرفت بيت العائلة القديم في حي الصليبة القريب من بستان الديوان الحي المسيحي المعروف في حمص ولهم أوقات قديمة، ولعل من الطريف أن مقصف ديك الجن في حمص ملك لهذه العائلة، وقد كانت أرضه خالية من البنيان إلا بعض الأكشاك من الحصر، وكان الناس يجلسون هناك يستمتعون بمنظر العاصي ويحضرون معهم طعامهم وشرابهم لقاء دريهمات قليلة كان يتقاضاها صاحب المكان المستأجر، وهو كائن في أول منتزه الميماسي الشهير بحمص، وما زلت أذكر المستأجر الذي كان اسمه «مختار سعديّه» وقد كان من «القبضايات» المعدودين في البلدة كما كان ظريف اللقاء كأكثر الحمصيين. ولا أدري كيف انتقل فوزي أمين إلى دمشق وأظن أن والده هو الذي نزح إليها ليعمل موظفاً أو تاجراً وبدأ فوزي حياته شرطياً كما قيل لي، ولم يطل عمله في الشرطة فانتقل إلى سلك الصحافة، ويبدو

أن الذي عمل معه قد استغل شخصية فوزي في جهارة الصوت والصراحة التي تقرب من التهديد وأخذ يقوم بالتجول في أنحاء سوريا يجمع الاشتراكات لجريدة أو جريدتين، وكان يتناول عما يحصل نسبة معلومة مما يحصل. وفي زمن الشيخ تاج، كان فوزي صاحب جريدة «النظام» التي آزرت الشيخ دون أن يخشى صاحبها لومة لائم، وظل صديقاً للشيخ حتى بعد أن ترك الحكم، وفوزي كان شاباً جريئاً، وقد دافع عن الشيخ تاج مرة علناً وفي شارع رامي المتفرع من شارع النصر والمرجة وهاجم السيد فخري البارودي زعيم الشباب في ذلك الوقت وضربه بعصاه، فما كان من السيد البارودي إلا أن ضربه بالمسبحة التي كانت بيده كما ضرب الشرطي الذي كان قريباً منه لأنه لم يتدخل لحسم النزاع، وكان هذا العمل من جانب فوزي جرأة تذكر له. وكان فوزي يعرف من أين تؤكل الكتف، فقد كان صديقاً للموظفين الذين يدفعون المال لاتقاء شر الصحافة ومن بين هؤلاء الأمير ميرزا في سلمية ومحمود نديم في منبج وجمال الجابي في الرقة وغير هؤلاء كثيرون. وله قصة طريفة مع قريبنا الأمير ميرزا.

في عهد من العهود الوطنية سُرِّح الأمير ميرزا من قائمقامية السلمية « «مديرية المنطقة» كما تسمى اليوم، وعاد الحكم الفرنسي المباشر فأعيد الرجل إلى الخدمة، وكان رئيس مجلس المديرين في أثناء الحرب الثانية السيد بهيج الخطيب المعروف، وقد أوعز لفوزي مع عدد من الصحفيين هم مفيد الحسيني وبسيم مراد ولا أذكر غيرهما وكانا معه في ضيافة عبد المجيد آغا سويدان الزعيم القلموني المعروف وصديق بهيج الخطيب، لقد أوعز إليهم أن يذهبوا إلى السلمية لتهنئة الأمير ميرزا بالعودة إلى الوظيفة وذهبوا بقيادة فوزي أمين طبعاً، فرحب بهم الأمير ميرزا وهو يعرف طبعاً الداعي لقدومهم الميمون، وبعد أن تناولوا الغداء الشهي، دخل الأمير فأخرج لكل واحد منهم مئة ليرة وكانت مبلغاً لا يستهان به هاتيك الأيام، ولكن فوزي المتكلم باسم الجماعة رفض المبلغ واحتج فرجع الأمير إلى داخل البيت وأخرج لكل واحد منهم مئتي ليرة وصاح فوزي محتجاً فسكت الأمير وأعادالكرة ودخل ثالثة إلى الداخل وأخرج معه لكل واحد ثلاثمئة ليرة ولكنه أخرج هذه المرة ورقة بيضاء مع طابع رسمي وقال لفوزي: إما أن ترضوا بهذا المبلغ أو أتقدم باستقالتي لأستريح منكم وهذا هو الطابع والورقة وأنت تراهما. فرضي فوزي ورضي الجميع بما أخذوا، وحدثني فوزي - شفاه الله وعافاه مما هو فيه من وعكة - فقال لي: لقد أعطاني الأمير على حدة بيني وبينه عشرين ليرة ذهبية عثمانية ما زلت محتفظاً بها إلى الآن وكان هذا الحديث منذ أكثر من ثلاثين سنة، ولا أدري إن كانت هذه الثروة بالقياس إلى أيامنا باقية عند الأخ فوزي أمين، أم ذهبت مع ما ذهب من عالم الصحافة، كان فوزي صديقاً حميماً للأمير ميرزا وكان يمازحه وكان الأمير نفسه من أصحاب النكتة التي مرت بك، وقضية الاستدعاء تدلك على خفة دم هذا الأمير، وقد كنت أنا أيضاً أمازحه وهو ابن عمة والدي وكان يسميني «الأبرش» لشقرة شعري، فقد روى صديقنا فوزي أنه دعا الأمير وولده الذي كان يرافقه إلى السينما وما كاد ينتهي فصل المناظر قبل الفيلم، حتى صاح به الأمير: قوموا لننام، وضحك فوزي وقال له: ولكن السينما لم تبدأ بعد، فجلس الأمير مرغماً، ولكنه لم يكمل الفلم على كل حال. وكان فوزي صديقاً لسعيد التلاوي لا بل كان يوده، ولكنه كان يستغل حسن نية سعيد فيشبعه مزاحاً وكان سعيد يحسب له حساباً ويخشى لسانه، مع أن سعيداً لم يكن ذلك الطفل المهذب الذي يزينه الخفر والحياء، حدثني سعيد أنه كان هو وفوزي في جنيف ودخل سعيد كعادته «الغريبة». إلى مكان اللعب بالقمار ولم يكن فوزي معه، وحين دخل رأى أحد الأمراء السعوديين وأظن - كما ذكر لي - هو الذي كان يسمى أبا الشرين ورأى أمامه من عملة القمار «الفيش» كومة تعادل آلاف الفرنكات السويسرية، وحين رأى سعيداً وكان الأمير قد ملّ أو تعب، صاح لسعيد ودفع له كل ما كان أمامه من عملة وخرج فأخذ سعيد المبلغ الضخم وصرفه بما يعادل ثلاثين ألف ليرة وعاد سريعاً إلى غرفته في الأوتيل فأخرج حقيبته وحاسب الفندق وذهب مسرعاً إلى المطار دون أن يوقظ فوزي جاره في الغرفة ورجع إلى دمشق. وسألت سعيداً، وأنا أعرف الناس به، وبعد ذلك؟ ماذا صنعت بالمبلغ؟ فقال خسرته كله بعد أسبوع، وهكذا كان سعيد، لم يربح في حياته قرشاً واحداً في القمار، وإذا ربح فلا بد أن يضيع ما ربح ولو بقي أياماً وراء الطاولة.

وغادر فوزي أمين هذه البلدة إلى سويسرا فعاش في جنيف يتلقى راتباً من صديقه الأمير السعودي وأظنه الأمير ماجد، إلى أن صدمته ـ وللمرة الثانية ـ سيارة عجز بعدها عن المشي وعاد إلى سوريا ليرقد في بيته في حي الروضة، وأذهب إليه فأراه وقد تضخم وأصبح جسمه غير قابل للحركة، وكنت أنوي الاستمرار على زيارته بين حين وآخر، ولكني سمعت أن بعضاً من أصحابه ذهب ليزوره فلم يفتح لهم باب البيت فرجعوا وخفت أن ألقى الذي لقوه، ولعل له عذراً وأنت تلوم، وعلى كل حال لا بد من القول أن فوزي أمين من أخلص الناس لأهله وذويه فهو لم يتزوج وقد وقف نفسه على خدمة والدته وأخواته البنات وأولادهن، ولقد ضحى في سبيل هؤلاء كل ما يستطيع حتى جعلهم أطباء ومهندسين وقضاة، ولعله لم يلق خيراً كبيراً من أولئك أو من بعضهم على الأقل، وأعتقد أنه ما زال حياً في داره. ولفوزي أمين قصة طريفة تدل على وفائه، فقد كان دائم الانتقاد لحزب الشعب وخاصة رئيسه المرحوم رشدي الكيخيا، وقد جاءته واسطة للمصالحة مع السيد الكيخيا على أن يحدد هو المبلغ الذي يريده فلم يطلب شيئاً واكتفى بالقول إني لا أقبل إلا ببطاقة تأتيني من سعد الله الجابري، وقد قصد فوزي أن يجعل رشدي الكيخيا ممتناً لسعد الله بك، ولا أدري ماذا تم بالأمر. كما كان وفياً لسعيد الجزائري الذي كان يعمل عنده، فقد كان يفيض عليه الهدايا فوق راتبه، ويوم أصيب سعيد بحادث سيارة خطير ومكث في مشفى «تل شيحا» بزحلة كان يزوره دائماً، وكلما زاره كان يضع له تحت المخدة مبلغاً من المال. كان فوزي أمين تحفة نادرة.

بسيم مراد: هذا صحفي لا يكتب ولا يقرأ ومع ذلك فهو صحفي وصاحب جريدة نسيت اسمها لكثرة الجرائد التي تولى إدارتها. جاء يوماً إلى الشيخ نوري الشعلان رئيس عشائر الدولة والنائب الدائم في المجلس النيابي وشكا له ضعف الموارد من الجريدة وقال له في جملة ما قال: يا أمير لقد غيرت اسم الجريدة هذه مرات فلم أستفد شيئاً، وكان جواب الشيخ المحكم: غير اسمك يا ولدي. وبسيم مراد، أو بسيم الواني نسبة إلى البلدة الكردية المعروفة في تركية. كان والده مدير مال في سلمية خلال الحرب العالمية الأولى ثم نقل إلى حماه في آخر الحرب، وأما ابنه الكبير نديم فقد كان مدير البرق والبريد في سلمية مرتين، وأسس صداقة عميقة مع أهل سلمية حتى أنه كان يتكلم أحياناً باللهجة السلمونية إذا تحدث إلينا، وكان صديقاً مخلصاً ومحباً وظل كذلك بالنسبة لأهل سلمية، كما كانت والدته من الكريمات اللائي تركن أثراً طيباً بين كل العائلات في سلمية. وكان والده في حماه صديقاً لآل العظم وبخاصة مصطفى بك الذي قتل من قبل ثوار إبراهيم هنانو بعد انتهاء الحرب العالمية. كان بسيم مرافقاً لفوزي أمين، وكان الرأي دائماً لفوزي فهو الحركة الدائمة بينما كان بسيم يكتفي بالابتسام من فمه الذي ملء بأسنان الذهب اللامعة. وهكذا فقد حُسب على مهنة الصحافة جماعة ليس لهم علاقة بالصحافة لأنهم أبعد الناس عن الكتابة والإنشاء.

نسيب الاختيار: هذا الرجل كان صديقاً وكان أديباً يتكلم اللغة الفرنسية ويتقن اللغة العربية، وقد شارك في النشاط الإداري خلال الثلاثينات والأربعينات كما شارك في كتابة تاريخ الغناء في الصحف والمجلات، وأخيراً في الإذاعة، وقد بدأ حياته معلماً للأدب العربي في بلدة إنطاكية قبل انفصال محافظة الاسكندرون والتحاقها بتركيا. وفي هذه المحافظة كان شاباً على شيء من الوسامة وقد أعطى هذه الوسامة حقها من سهر وطرب وغرام وغزل ونظم بعض الشعر، ولكنه لم يوفق فيه إلى الشهرة فكف عنه ورجع إلى حلب ومن حلب رجع إلى دمشق، وفي دمشق أخذ يدرس في بعض المدارس، ويبدو أنه في هذه الوهلة اعتاد على الشراب فراح يديم التردد على خمار اسمه إلياس مالك كان تحت بناء العابد الشهير، فكان يقضي أكثر نهاره في هذا المشرب، يأكل قليلاً ويتحدث كثيراً إلى أن أصبح في حال لا يحسد عليها، وقد بات يشكو لإخوانه إفلاسه وحاجته إلى المال، ومنهم من كان يعطف عليه مادياً ومعنوياً، وكنت آتي إلى دمشق فأجالسه وأسر بمجلسه وصوته الناعم وثقافته الواسعة، ولكنه كان لا يفارق القدح الذي يبقى أمامه سحابة النهار وهزيعاً من الليل دون أن يكثر من مادته ولكنه لا يفارقه حتى ولو كان فارغاً، واشتدت به الفاقة فصار لا يستطيع الحركة، وكاد أن يسلم نفسه إلى مصح أو غير ذلك إلى أن جاءت الوزارة التي كان فيها السيد منير العجلاني وزيراً للتربية فدبر له عملاً في وزارة الإعلام أو بالإذاعة في عمل كتابي

وأقلع عن الشراب، وتزوج امرأة من أصل تركي وأنجب ابنة على ما أظن، وبقي هكذا يتنقل بين الإذاعة والصحافة إلى أن أصيب بالمرض العضال ونفض الأطباء أيديهم منه، وزرته في مشفى المواساة فإذا به جثة تكاد تكون هامدة ثم توفي بعد أيام إلى رحمة الله، كان إنساناً لطيفاً ومحدثاً خفيفاً وكان والده مراد بك الاختيار من الضباط العلماء في الجيش التركي وكان يعرف عدة لغات منها، الإفرنسية والألمانية كما عمل فترة من الزمن أستاذاً للرياضيات في المدرسة الزراعية بسلمية خلفاً للأستاذ القديم أمين بك الدوخي الذي توفي بعد أن عاش حوالي التسعين سنة. لقد خلف نسيب الاختيار كتاباً أو كتابين حول الغناء عند العرب نظر فيه إلى ما في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وهذا كل ما فعل.

توفيق جانا: هذا إنسان لم تكن له علاقة بالكتابة ولا بالصحافة ولا باللغة العربية، ولكنه كان يبيع الورق كما أعتقد، وعنده مخزن لهذه الغاية ومع ذلك كان مسؤولاً عن عدد من الجرائد من «الحمارة» إلى «جراب الكردي» الانتقاديتين و «الأخبار» و «الشعب» السياسيتين، وقد وظف وشغل عدداً من الصحفيين الكبار من أديب الصفدي إلى نسيب الاختيار إلى عزّت حصرية إلى غير هؤلاء. كان يجلس في مقهى الكمال وكنا نلتقي معه ونحن نقصد إلى المزاح والسؤال عن الأخبار الصحفية، وهو فلسطيني الأصل يتحدث في كل أمر ولا نصل منه إلى نتيجة في أي أمر. وكان له ولد من ضخام الجثة وكان ظريفاً يحب المعاشرة. وانتهى توفيق جانا دون أن يخلف أثراً صحفياً أو أدبياً، وقد ورث جريدته «الشعب» السيد عزت حصريه ثم لا أدري ما الذي تم بهذا الميراث.

وديع الصيداوي: هذا شخص من الصحفيين المثقفين كان يعرف اللغة الإنكليزية ويلمّ بالفرنسية، وكانت لغته العربية حسنة، وقد أسس جريدة «النصر» التي احتلت مكاناً مرموقاً بين الصحفيين، وخرّج من هذه المدرسة عدداً من الصحفيين فمنهم، أحمد شكري وبشير كعدان، أما أحمد شكري، فقد أصبح في جريدة البعث التابعة لوزارة الإعلام، وأما بشير كعدان فقد توفي ـ كما أعتقد ـ وكان في يوم من الأيام معتمد الجريدة في كتابة التعليقات والأخبار، ولكن هذين الصحفيين ظلا في مكانهما محررين يعاونان أصحاب الجرائد ببعض الكتابة العادية ولم يتركا أثراً يذكر، وكذلك وديع الصيداوي فإنه لم يترك ضجة لا في الصحافة ولا في السياسة رغم كفاءته ولياقته.

أمين سعيد: هذا أخطر صحفي على الإطلاق فقد عمل في الصحافة مدة طويلة وكانت عنده جريدة «الكفاح» التي كانت مشهورة في يوم من الأيام كما كان يعتبر من الكتّاب البارزين، فقد قضى وقتاً في مصر كان يكتب في جرائد القطر الشقيق، ثم عاد إلى سوريا وأذكر أن لي موقفين غريبين خلقتهما المصادفة بيني وبينه، فأنا أذكر أني رافقته في سيارة «الباص» يوم ترك أديب الشيشكلي هذه الديار ووجدته شامتاً وهو يتحدث إليّ ويؤيد شماتته بأبيات من الشعر وأقوال مأثورة، فقد كان بالقياس إلى أكثر الصحفيين مثقفاً عربياً وسياسياً، وفي الموقف الثاني وجدته صامتاً وقد كنت وإياه عند فخري البارودي يوم /٨/ آذار ١٩٦٣ أي يوم ثورة البعث وكنا ونحن جالسون نشاهد الطائرات تروح وتجيء والمنشورات تتطاير منها وكان يعلق على الأحداث بهدوء، هذان موقفان لهذا الرجل الذي كان مسناً بالنسبة لزملائه الصحفيين، وهو لاذقي الأصل وقد ترك اللاذقية لحادثة مجهولة كما ذكر الأستاذ خير الدين الزركلي في قاموس الأعلام الذي وضعه وجاء على ذكر أمين سعيد فيه، وكان في تعليقه عليه يبدو غير معجب ولا محب، بل لقد لمست فيما كتب نوعاً من التحامل على الصحفي القديم. ولقد كتب أمين سعيد عدة كتب حول الثورة العربية وهي تعتبر مراجع لهذه الفترة. وأمين سعيد رجل جبار في رأيي فلقد اختلف هو وسعيد التلاوي وراح الاثنان يتهاتران ويتسابان على صفحات الجرائد بما يخزي ويؤذي حتى توصلا إلى نشر صور تدين كل واحد منهما، كما نشرا بعض الرسائل بالزنكوغراف التي تثبت بعض التصرفات من كليهما لا تعني القراء ولا تفيد إلا الشامتين بكليهما، ولقد تحدثت مع الأستاذ أمين وقلت له: بالأمس كنتما صديقين فكيف توصلتما إلى هذا العداء بينكما دون مسوغ أو مبرر؟ وضحك الأستاذ وقال لي: هذه هي الصحافة ليس غير، إنها مهاترات ومشاغبات وأحاديث متبادلة وليس في هذا ما نؤاخذ عليه، وحين سمعت رده البسيط هذا ضحكت وقلت في نفسي: إن هذا النوع من الصحفيين لنوع غريب عن الأناس

، إنهم يعيشون في جو خاص لا يشاركهم فيه أحد.
، هناك غير هؤلاء الصحفيين الذين عرفتهم وعددتهم لك آنفاً، نصوح الدوجي، وهذا كان شاباً
في مكتب عنبر لكنه شاب من النوع «المشاغب» يتدخل في السياسة وفي العليا منها، ويتقدم
ت، وقد تعرض كثيراً للضرب والقتل وهو من أسرة من حي الميدان، والدوجي والمهايني كما أظن
حدة، وكلمة دوجي تعني بالتركية، الجمّال، وقد صار أخيراً صاحب جريدة وأظنها «دمشق
وقد تقبلها الجمهور تقبلاً لا بأس به، فقد أصبحت تنشر الكثير من الأخبار التي تهم أهل دمشق
وكثيراً من أخباره كانت تشتمل على عنصري الفكاهة والاختراع ولكنه كان يجيد إخراجها بذكاء
ظر، وقد توفي كما أظن وهو شاب ولم يكن أنيقاً ولا وسيماً، وكان حديثه شامياً ميدانياً يعرف من
س فيه شيء جديد يستحق الذكر، إلا أنه لم يكن بعيداً عن القلب.

ساقتنا الأحداث إلى الحديث عن الشاعر «شفيق جبري»، وكان الحق يقضي بأن نبتدىء بخير الدين الزركلي الذي يعد، بل إنه أكبر الشعراء السوريين في العصر الحاضر، ولمعرفتي بهذا الشاعر الكبير تاريخ. في العشرينات من هذا القرن كانت في حماه جريدة صغيرة اسمها «الهدف» كان يصدرها صحفي عتيق عريق وصديق لي ومن الوطنيين الأحرار الذين تحملوا في سبيل هذا الوطن كل شيء حتى الفقر، ولم يكافئه هذا الوطن بشيء حتى ولا بوسام صغير يضعه على صدره، لقد شرد واختفى وسجن وحكم بالإعدام وكان في هذه الأحداث كلها لا يملك ثمن الخبز كما أعلم، ولقد كان كاتباً مجيداً ومفكراً صحيح الرأي. وإنساناً تخطى مستوى بلده وأصبح ذا شخصية سياسية وصحفية بارزة وهو الأستاذ عبد الحسيب الشيخ سعيد، وقد كانت «الهدف» تنشر بعض القصائد؛ وأظن أنها نشرت قصيدة كبيرة بلا توقيع لا أذكر اسمها ولكني أقدر أن هذا الاسم كان «عذراء سوريا» أو ما يشبه هذا الكلام، وهي ذات موضوع سياسي يتعلق بالاستعمار الفرنسي الذي داهم سوريا دون أن تتخذ له عدته ولا الأهبة لدفعه عنها بعد أن استمتعت مدة قصيرة بالاستقلال أيام الملك فيصل الذي لم يحسن التصرف لا هو ولا الذين كانوا يعاونونه، فدخلت فرنسا البلد دون تضحية كبيرة بل دخلته بصلف وكبرياء لأنه جاءها مجاناً. ومطلع هذه القصيدة وقد أتينا على ذكره فيما مضى وهو:

سكنت ضوضاء من في الحي لا حي تراه ... وغفا الساهر لا يلهج إلا بمناه
رقد الساهر واعتادته أحلام هواه ... وبكى الموجع حتى بلل الدمع ثراه

وكان موضوع القصيدة فتاة يعتدي عليها غاصب، والمقصود بالفتاة سوريا والغاصب هو فرنسا، وكانت القصيدة مجهولة الناظم، وقد عرفنا فيما بعد أنها لخير الدين الزركلي، وهناك قصيدة أخرى لم يُعرف قائلها نسبت أيضاً لخير الدين الذي كان بحق شاعر هذه الحقبة من العهد الفيصلي وما تلا الحرب من فترة قصيرة، وتقول القصيدة:

أظلم الليل وغاب القمر ... وتناءى عن عيوني السحر
صحت ليلاً وأليفي الضجر ... ليس في ليلي رقيب ينظر
غير عين من عيون الشهب

ورُويت في تلك الحقبة أبيات لخير الدين كان يرددها المغرضون الذين يدسون عليه ويدعون أنه مدح بها جمال باشا القائد التركي الذي حكم بإعدام الشهداء ويقول فيها:

غضّوا الجفون واخفضوا الهامات ... هذا جمال مفرّج الكربات

وقد تكون هذه الأبيات الأخيرة لخير الدين أو تكون مخترعة، وهب أنها له فإنه لا يلام، والموقف مع جمال باشا الذي لا يعرف الرحمة والذي يقتل على الظن. ولم تكد تصل فرنسا إلى سوريا حتى هرب خير الدين إلى الأردن وهناك أخذ ينشر شعره، ورحب به الأمير عبد الله الذي كان يعطف على الشعراء بحكم ممارسته الشعر في اللغتين العربية والتركية، إذ ان والدته تركية تزوجها والده الشريف حسين يوم كان مقيماً في الأستانة إقامة شبه إجبارية، وكتب خير الدين بعد ذلك بمدة كتاباً تحدث فيه عن إقامته في الأردن وسماه «عامان في عمان» أما شعر خير الدين فهو أهم شيء في حياته، ولقد كانت السياسة شيئاً إضافياً لديه، كما كانت وسيلة للعيش، ولم تطل إقامة خير الدين في عمان فقد انتقل إلى المملكة العربية السعودية وأصبح موظفاً في الخارجية عند الملك عبد العزيز ابن سعود، وفي هذه الفترة طبع مجموعة من شعره الأولى ولم يكمله بسبب تنقلاته الكثيرة من بلد إلى بلد، ولكنه قضى أطول مدة في مصر، وفي مصر سكت خير الدين ولم نسمع عنه شيئاً إلا في الفترات المتباعدة، وكان فيها صديقاً للمازني الكاتب المعروف

كما كان صديقاً للشاعر «الارتجالي» الشهير عبد المحسن الكاظمي، العراقي الأصل، ولم نعرف عنه غير ذلك كما لم نقرأ له شعراً جديداً، ولي معه قصة:

حين كنت في المدرسة الإنكليزية عام ١٩٢٨ أقيم حفل خطابي كبير دعي إليه كبار القوم في حمص، كما دعي إليه رئيس المجلس التأسيسي يومئذ السيد هاشم الأتاسي الذي كان الشخص الأول في الحفل، وقد كنا أربعة خطباء، أنا والسيد عادل موقع وشاب لبناني أظن أنه من الكورة، وقد نسيت اسمه، وشاب أصغر منا كان اسمه فيكتور حبوش من بلدة مشغرة المعروفة في البقاع. وبحثت عن أبيات أحفظها لإلقائها فعثرت على ديوان خير الدين الجديد الذي أشرت إليه آنفاً، ووجدت قصيدة له عنوانها «صقر قريش». وقد علمت فيما بعد أنه اشترك في مسابقة كبرى في قصيدة تتحدث عن صقر قريش وفاز بالدرجة الثانية، كما فاز بالدرجة الأولى شوقي أمير الشعراء الذي نظم في هذا الموضوع موشحاً شهيراً من خير ما نظم يقول في مطلعه:

من لنضو يتنزّى ألماً   برّح الشوق به في الغلس
حنّ للبان وناجى العلما   أين شرق الأرض من أندلس

وكما هو معلوم فإن صقر قريش غير معروف القبر، وقد أشار شوقي إلى هذا بما عرف عنه من فطنة خاصة وانتباهة إلى ما لا ينتبه إليه غيره فقال:

كنتَ صقراً قرشياً علما   ما على الصقر إذا لم يرمس
إن تسل أين قبور العظما   فعلى الأفواه أو في الأنفس
فأرق فيها ترق أسباب السما   وعلى ناصية الشمس اجلس

أما أبيات خير الدين التي اخترتها فهي عن صقر قريش أيضاً ـ كما قلت ـ وتبدأ هكذا:

للملك أهل وللتيجان أهلونا   لا يهدم الدهر ما هم فيه بانونا
وللحضارة ذكراها يقدسها   عبادها ولها عنها محامونا
في الذاهبين لمن يتلوهم عبر   وربما سبق الآتين تالونا

ولم أفطن لقضية مرت علي وكانت سبباً في حيازتي الدرجة الثالثة فقط، ذلك أن السيد عادل موقع نظم أبياتاً بهذه المناسبة صححها له المدير الأستاذ فريد مسوح الذي كان أيضاً يحاول نظم الشعر ولم يكن شاعراً كذلك السيد الموقع فإنه أيضاً لم تكن فيه شاعرية ولكنه نظم القصيدة وصححت له، وكان جيد الإلقاء فحاز الدرجة الأولى خاصة وأنه تعرض لبعض الأفكار السياسية والوطنية مما لفت الأنظار إليه أكثر من غيره، أما الشخص الثاني فهو اللبناني الكوراني كما قلت فقد بدأ قصيدته على الشكل التالي:

مفاعلة، مفاعلة، فعول   مفاعلة، مفاعلة، فعول
مفاعلة وأين الفعل منا   وأين القول منا يا جهول

وكانت هذه الأبيات كما يراها القارىء مفاجأة تلفت النظر وذلك بجعله مطلع القصيدة تفعيلات البحر الوافر، أما أنا فكانت حالي على العكس فقد كان في القصيدة بيت اقترح المدير أن لا أقوله وأن اجتازه وأنتقل لما بعده، ولما وصلت إلى البيت كلمني المدير همساً وكان ورائي، ولما حاولت اجتيازه طارت القصيدة كلها من رأسي، ووقفت أتذكر أكثر من دقيقتين والحاضرون يحدجونني بأنظارهم ثم قلت البيت وأكملت القصيدة، ولكن الوقفة أثرت أثراً سيئاً في النتيجة، ولكني على كل حال ظفرت بليرة عثمانية ذهباً، وكانت هاتيك الأيام ثروة محترمة، وكنت بعد ثلاثين أو أربعين سنة كلما اجتمعت بخير الدين في بيروت أو في دمشق ذكرته بفضله عليَّ بهذه الليرة التي نعمت بها أسبوعاً كاملاً.

ونظم خير الدين شعراً كثيراً في أحداث سوريا وخاصة الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥، وحين ضربت دمشق بالقنابل وأصيب حي الميدان وحيّ سيدي عامود، قال شوقي قصيدته الشهيرة:

سلام من صبا بردى أرق   ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعة والقوافي   جلال الرزء عن وصف يدق
وبي مما رمتك به الليالي   جراحات لها في القلب عمق

وقد أجاب خير الدين بقصيدة رائعة يقول فيها:

الأهل أهلي والديار دياري ... وشعار وادي النيل بين شعاري
ما كان من ألم بجلق نازل ... وأرى الزناد فزنده بي واري
إنّ الدم المهراق في جنباتها ... لدمي وإن شفارها لشفاري

وفيها يصف حال المدينة حين تلقت الضرب:

والشيخ متكىء على عكازه ... يرمي وما للشيخ من أوزار
ستروا بضرب الآمنين فرارهم ... فأعجب لعار ستّروه بعار

وله قصيدة أخرى لا تقل عن هذه تعبيراً عن أحداث الثورة في سوريا يقول فيها:

الله للحدثان كيف تكيد ... بردى يفيض وقاسيون يميد

وهناك قصائد أخرى نشرت دون أن يوضع توقيع خير الدين عليها، فكان مجلياً وبارعاً وعارفاً بما يقول. إن شعر خير الدين هو الشعر السلس ذو الديباجة الصافية واللغة النظيفة واللفتات الذهنية اللافتة التي ترفع من شأن الشعر، ونحن نذكر قوله يوم قيل إن مكتبته أحرقت ورأى القمر في تلك الليلة الصاحية وكأنه يبتسم وهو حزين لما أصابه فقال:

لم تُبقِ أيدي الحادثات ولم تذر ... فعلام تضحك في سمائك يا قمر

ولكني حين سألته في بيروت عن حريق المكتبة أنكره وقال: إن القصيدة أوحى بها القمر وكان هو بعيداً عن دمشق فعبّر عن شوقه إليها. وله قصيدة اشتهرت أيضاً وحفظها الكثير من القراء وهي:

العين بعد فراقها الوطنا ... لا ساكناً ألفت ولا سكنا

وفيها البيت المعروف:

أذكرتني ما لست ناسيه ... ولرب ذكرى هيجت حزنا

وقد كنت أشرت إلى أصل خير الدين الكردي، وأن جده جاء تاجراً للأغنام إلى دمشق وأقام فيها، وكان آخر عمل له هو في سفارة المملكة العربية السعودية في المغرب ومنها جاء إلى بيروت ولم يبرحها بعد أن أحيل على المعاش. وكان في آخر أيامه منعماً وغنياً ولم تكن لديه عائلة إلا فتاتين أرمنيتين كما أظن كانتا تخدمانه في بيته الضخم في بيروت، وقد زرته هناك وأهداني كتابه عن السعودية، كما سبق له أن أهداني قاموسه العظيم «الأعلام» الذي عاونه فيه صديقه العالم «أحمد عبيد» ويموت خير الدين منذ سنوات قليلة ممتعاً بسمعة حسنة وشهرة ضافية، رحمه الله.

لقد دارت بيني وبين خير الدين أحاديث كما كتبت عنه حول هذا المعجم الذي أعجبني وأعجب غيري، ولكني قلت له: إن هذا ليس من عمل شاعر كبير مثلك، أنت ينبغي أن تنظم الشعر وهذا أكبر ما يمكن تقديمه لقوميتك ولغتك وأمتك العربية، فكان يضحك ويكثر من الأعذار وكنت أتصنّع القبول، ولقد قلت له: إن الشاعر الفرنسي الكبير: «ليكونت ده ليل» قضى عمره يترجم الإلياذة والأوديسا عن اليونانية في حين كان يقدر على إخراج عشرة دواوين بدلاً منها، ولكنه لم يفعل إلا ما أراده.

خليل مردم بك: من نافلة القول أن أقول أن شعراء الشام كانوا أربعة، وقد وجدوا في عصر واحد، وإذا أردت تعدادهم حسب مكانتهم الشعرية فكانوا على هذا الترتيب: ١ ـ خير الدين الزركلي. ٢ ـ خليل مردم بك. ٣ ـ شفيق جبري. ٤ ـ محمد البزم. وخليل مردم بك يأتي بعد خير الدين وهو ابن أحمد مردم بك، وهذه البكوية موروثة في هذه العائلة التي أشرت إلى أنها كردية الأصل، وخليل كان غنياً جداً لا بل كان من أغنياء دمشق المعدودين، فهو يملك الدكاكين الكثيرة في سوق الحميدية على ذمة المرحوم سعيد الجزائري وله أراضٍ في منطقة الغوطة وغيرها كثيرة كما يملك بيتاً في حي المارستان من أفخم البيوت، وقد درس خليل مردم بك دراسته الأولى في دمشق ثم ذهب إلى إنكلترا فتزود من الأدب الإنكليزي وعاد إلى سوريا ليعمل أستاذاً للأدب العربي في الكلية الوطنية لصاحبها الدكتور منيف العائدي، وقد أخرج أثناء عمله هذا عدداً من الكتب الأدبية الصغيرة التي تكفي مادتها لطلاب الشهادة الثانوية، كما أخرج فيما بعد وحين أصبح رئيساً للمجمع العلمي ديوانه وعدداً آخر من المخطوطات التي حققها. كان خليل

مردم يمثل الأخلاق الحميدة والهدوء والرزانة والعزلة المعقولة، فقد كان رب عائلة حقيقي وهو من الأقرباء الخلص لآل حمزة وبينهم مصاهرة وجده «حمزاوي الأصل» وهذا ما دعاه إلى كتابة دراسة مستفيضة عن الشاعر «الحمزاوي» ابن النقيب الذي شاركت في تحقيقه مع السيد عبد الله الجبوري العراقي الأصل، كان خليل بك طوالاً في الرجال ضخم الجثة واسع العينين يمشي ويتكلم بهدوء ظاهر ولكنه لم يعش طويلاً فقد تجاوز الستين سنة بقليل، ولقد رأيت صورته لأول مرة مع صور رجال العهد الفيصلي إذ كان موظفاً في القصر ـ كما أعتقد ـ ثم سافر إلى انكلترا وعاد، فانتخب عضواً في المجمع العلمي، ومن ثم أصبح رئيساً له بعد الأستاذ محمد الكرد علي وبعده جاء الأمير مصطفى الشهابي: وخليل بك شاعر فحل وأديب محترم اشتركت معه في لجنة لاختيار أناشيد للجيش السوري تقدم لها عدد من الشعراء فلم تعجبنا، أنا وهو أية قصيدة، وتبادلنا الابتسام في آخر جلسة في إدارة مجلة «الجندي» وخرجنا متفقين. وأذكر له بهذه المناسبة قصيدة أعتبرها من عيون الشعر السياسي الذي قيل في زمن الاستعمار الفرنسي. فقد أقيمت حفلة بمناسبة عيد شهداء سوريا في /٦/ أيار في ساحة المرجة ونظم خليل بك قصيدته التي ألقاها المحامي والخطيب المعروف يومئذ الأمير أحمد الشهابي وكان مطلع القصيدة:

أدال الله جلق من عداها   وأحسن عن أضاحيها فداها

إلى أن يقول، وكان هذا بيت القصيد مخاطباً الشهيد:

فدىً لك بل لنعلك كل تاج   تصرفه الطغاة على هواها

والمهم في هذا أن الشيخ تاج الدين الحسني كان يومها رئيساً للجمهورية، وكانت التورية ظاهرة والقصد كان أكثر ظهوراً مما أثار ضجة إعجاب وتعجب لهذا التوفيق باستغلال هذا الاسم شعرياً استغلالاً نادراً. ويختتم الشاعر الموفق قصيدته التاريخية بهذا البيت:

دعوني فالقوافي اليوم حجر   أخاف على المسامع من لظاها

وهذا قول يمثل كل الصحة والواقع في ذلك الوقت الذي كانت فيه الأفواه مكمومة والكلام حتى الهمس ممنوعاً تحت طائلة العقوبة القاسية. وبهذه المناسبة نشير إلى أن النشيد السوري «حماة الديار» هو من نظم خليل بك وقد نظمه على ما أعتقد في الأربعينات ولحنه الأخوان فليفل الموسيقيون المعروفون في بيروت، والذي انتقده فيما مضى الشاعر إيليا أبو ماضي انتقاداً لم يحدث أثراً. ومن أشهر قصائده أيضاً قصيدة الرقص التي يبدأها بقوله:

نفخ البوق فهبوا مسرعين   مثلما نقرت طير بالصفير
وعلى الأقداح كانوا عاكفين   من رأى سرب قطاً حول غدير

ولا تنس أيضاً مداعبته مع فخري البارودي يوم زار قريته الجربا ولم يجده فكتب له على حائط الغرفة:

ألا يا ساكن الجربا   بلاك الله بالجرب

وقد أثير فخري بك يومها وأجاب خليل بك بعدد من القصائد والأبيات التي كان ينظمها البارودي. ولقد أصيب خليل مردم بكارثة ضعضعته فقد مات له ولد اسمه «هيثم» ظل يذكره طوال حياته، وكان هذا الرجل الكبير متّهماً بالاقتصاد الشديد، ولكني أبرىء أكثر هؤلاء الأغنياء من عادة البخل لأن الناس يريدون من الغني أن ينفق جميع ما لديه ليصبح فقيراً كغيره، ومن هنا تأتي التهم بالبخل والشح والاقتصاد، فالرجل ـ أعني شاعرنا ـ كان يعيش أفضل حياة وكان لا يقصر في أمر يتعلق به وبعائلته ولكنه لم يصنع طبعاً كما صنع البارودي الذي ضيع ثروته كلها تقريباً على الإنفاق والسهر وحياته السياسية، ولكل إنسان طريقة في الحياة ولا أدري كيف يوصف الإنسان بالبخل أو كيف يعرف بخله ما دام لا يحتاجه أحد وعندي أن التعرض للناس بهذا الوصف قد يكون أكثره صادراً عن حسد أو غيرة أو طلب «ضمني»، من صاحب الغنى ليعطي المتهم «بكسر الهاء» مما عنده. ويصاب خليل بك بالمرض الوبيل فيموت وهو في عنفوان الصحة لم يتجاوز الستين ـ كما قلت ـ وقد خلف ثروة لا تقدر، ثم انه أهدى

مجمع اللغة العربية قبل وفاته نصف مكتبته الهامة.

لقد كان خليل مردم شاعراً يؤمل منه أكثر مما قدم ولكنه ـ من غير شك ـ كان مهتماً بالحياة من الناحية الاقتصادية، ولعل هذا الاجتهاد والاهتمام قد عرقلا حياته الفنية، وكانا عثرة أمام عمله الشعري الذي كان ينبغي أن ينصرف إليه أكثر مما فعل، رحمه الله.

محمد البزم: المرة الأولى التي رأيت فيها البزم كانت في مكتب عنبر، وكان هو يدرس الصفوف الإعدادية، وكنت في الثاني عشر فلم تكن لنا به علاقة لأن الصف الذي كنت فيه تنتهي الدروس العربية قبله أي في الحادي عشر، ورأيته شاباً في الأربعين أنيقاً يلبس طربوشاً ميالاً إلى السواد ويحمل وجهاً متناسباً مع شاربين مفتولين اشتهر بهما، وكان البزم من أشهر الناس ذكاء وخاصة في تدريس النحو، فقد كانت له طريقة مفيدة يذكرها له طلابه إلى اليوم، وكان عملياً في التدريس فلم يكن يتكلم إلا باللغة الفصحى وهذه الطريقة في رأيي مفيدة شرط أن تُصحّح الأغلاط إذا وقعت، وقد كنت أرافق في مدرسة الروم بحمص أستاذنا الروسي الذي مر ذكره في هذه المذكرات، وكنت أتحدث معه بالفرنسية لأنه يجهل العربية وكنت أشترط عليه أن يصحح لي أخطائي إذا وقعت فإن هذا التصحيح هو الذي يعلم اللغة بإتقان. وكان للبزم اجتهادات في النحو مفيدة وقصته معروفة مع المبارك يوم اختلفنا على كلمة «غَلاظة» بفتح الغين أم كسرها وقد خسر البزم الشرط يومها، ولكنه كان كسولاً جداً، فقد كان يلتفت في شبابه إلى التسلية واللهو إذ كان من خيرة اللاعبين بـ «البلياردو» والشطرنج والضاما وكل الألعاب الأخرى. والبزم لم يتعلم إلا على نفسه فلم ينتسب إلى مدرسة وقد عمل في شبابه الباكر بصناعة الأحذية وقضى حياته في التدريس، وكان يحب السهر والسماع، أما شعره فيختلف عن شعر زملائه الثلاثة الآخرين، فقد كانت تسيطر عليه ميوله النحوية والعلمية، والشعر ليس ضد العلم لكنه يخشاه وربما أساء للشعر فأضعفه كما كان يردد الصافي النجفي: ومن العلم ما قتل، وقد شارك في الكثير من الاحتفالات الشعرية ومن بينها الاحتفال بالعيد الألفي للمتنبي. والبزم دمشقي عريق فقد سكن أهله في حي «السمانة» المتشعب الذي ينتهي إليه «حي سوق صاروجة» المعروف، ولقد كان ميدانه الأدبي البارز، عدا التدريس، في جريدة «الميزان» الأدبية التي أنشأها صاحبها أحمد شاكر الكرمي أخو أبي سلمى «عبد الكريم الكرمي» الشاعر، وكان «مشاغباً» في أدبه إن صح هذا التعبير، إذ كان يعمل على إثارة الأدباء في أحاديثه وشعره كما صنع مع الأستاذ المبارك يوم أن نظم أرجوزة على لسانه قلد فيها شعر الفقهاء وسخر منه. أما قصيدته في المتنبي فكان مطلعها:

أجل هو يوم الشعر تطغي عباقره ... وتملأ أسماع الخلود منابره

مشى مهرجان الشعر فيه مباهراً ... فخفت له الأفلاك نشوى تباهره

ويلاحظ في هذا الشعر قوة اللغة ومحاولة اعتصار الفكر لإخراج الفكرة الشعرية مما يدل على أن الإلهام الشعري كان ضعيفاً عند البزم. ولقد وقعت له حادثة مع الصافي النجفي أضحكتني طويلاً، فقد كان الصافي ـ كما لا يخفى ـ لا يقدر شاعراً إلا القلائل، كان معجباً بأبي ماضي، وبالجواهري ـ عن طريق التشجيع لأنه كان أسنّ منه ـ كما كان معجباً بشاعر عراقي اسمه «علي الشرقي» وهو من بلده النجف وقد يكون قريبه، وكذلك أعجب بالحبّوبي، شاعر الموشحات العراقي أيضاً، ومن هنا كان يهاجم الشعراء، حتى شوقي الذي لم يعترف به إلا بعد وفاته وكان يسخر من البزم ويبلغ البزم ذلك السخر فيثور ويتساءل: من أين جاءت هذه المصيبة ويقصد الصافي طبعاً، ودعي البزم مرة إلى حماه ليلقي قصيدة فكتب قصيدة طويلة جداً حشر فيها كل الألفاظ اللغوية المناسبة وغير المناسبة ثم جاء على وصف السيارة التي ركبها فوصفها وصفاً مضحكاً بقوله:

تخالها من غَنَج ومَيَد ... عريقة الأنساب في الفواجر

فالفكرة كما يُرى بعيدة عن الأسلوب الشعري، وعلق الصافي على هذا البيت هو وصحفي فلسطيني، عرفناه واسمه الخطيب، وأصيب بمرض عصبي ومات مبكراً وفي حال يرثى لها، لكن هذا الخطيب كان ذكياً وسريع النكتة، وجلس الاثنان في مقهى «الحمراء» القديم وسأل الخطيب، إذا كانت هذه السيارة

فاجرة على حد تعبير البزم فمن الذي يتزوجها؟ لا شك أن زوجها سيكون «الباص» ونظر الصافي وقد اضطربت جفونه وانفرج فمه وقال: كلا إن زوجها هو الترامواي وبلغت هذه النكتة البزم ومرّ في اللحظة التي كنت فيها جالساً مع الصافي، ونظر إلى الصافي وعيناه تقذفان الشرر، وقال بلهجة المضطرب الثائر: أشكرك، أشكرك، وخرج من المقهى ولم يجلس، وضحكنا ضحكاً طويلاً، وحدثنا الصافي بالقصة فازددنا ضحكاً على ضحك. كان السبب في نقل البزم من المدارس الخاصة إلى الرسمية وزير المعارف القديم شاكر بك الحنبلي، وقد ظل في مكتب عنبر حتى بلغ الستين فأحيل على المعاش وبعد مدة أصيب بمرض الشيخوخة الذي رافقته أمراض أخرى عجز بعدها عن القيام فنقل إلى مستشفى «العظمة» بزمن أديب الشيشكلي ومات في المستشفى. وقد طبعت وزارة الثقافة والإرشاد القومي السورية ديوان البزم، لكن الديوان ترك بلا مقدمة، وكان ذلك محلاً للاستغراب، وأظن أن المشرفين عليه كانا المرحومين سليم الزركلي وعدنان مردم بك.

بدوي الجبل: هذا هو الشاعر الذي عرفته منذ نشأتي ومنذ نشأته الشعرية، ولم يتغير حتى وفاته لقد ظل شعره قوياً كما كان في مطلع شبابه وانتهى قوياً دون أن يتغير أو يختلف فهو شعر قوي النسج متفق السدى واللحمة مبرأ من العيب في كل شيء فيه. واسم بدوي الجبل: محمد سليمان الأحمد، فهو ابن الشيخ سليمان الأحمد العالم المعروف وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق، واسم البدوي جاءه في دمشق، والذي أسماه به هو الأستاذ يوسف العيسى صاحب جريدة «ألف باء» وقد أشرت إلى هذا الموضوع سابقاً في هذه المذكرات، فقد أعجب به الأستاذ العيسى ونشر له شعره الذي لفت الأنظار إليه منذ القصيدة الأولى، ومنذ أن أخذ يتغنى بمنازه دمر والربوة والهامة، ورأى قوة شعره فأطلق عليه هذا اللقب الموفق، بدوي الجبل، والبدوي من الجبل طبعاً، وقد ولد في قرية اسمها «السلاطة» أو «عين ديفه» ولا أجزم في هذا، كما لا أجزم في عمر البدوي فقد اختلف فيه كثيراً، وأرجح أن يكون سنة ١٩٠٢ أو ١٩٠٤ على أكثر تقدير، أول ما عرفته جاءني صديقي وقريبي المرحوم عبد الله تامر يقول لي في مقهى السلمية: أنظر هذا هو بدوي الجبل، فنظرت إليه فوجدته صغير الجثة نحيفاً - وإن تغير فيما بعد فأصاب بعض السمنة - ورأيت عينيه السوداوين العميقتي السواد كأن الواحدة منهما بحيرة ماء عميق، ورأيت أنفه الأقنى العربي ولكني لم أسمع صوته، وقد كان جاء إلى قرية «صبورة» إلى شرقي السلمية ليزور أقرباء له فيها، أما معرفتي الشعرية به فتعود إلى مجلة «العرفان» التي أسسها وحررها الشيخ أحمد عارف الزين في مدينة صيدا، كما تعود إلى أبيات حفظناها له وأملاها علينا أستاذنا في اللغة العربية في المدرسة الزراعية نافذ غنام الذي التقيت به بعد سنوات في «مكتب عنبر» وكان أستاذاً للتاريخ فيه، كانت الأبيات:

غضّ الشباب وإن تلن عذباته	خلقت لإدراك المنى عزماتُهُ
لا ييأس الوطن المدلّ بأهله	الباسمون مع الشباب حماتُهُ
هذا أسيرك يا مذاهب ملّه	عضّ القيود ألم يحِن إفلاته
صلّى لتفريق الشعوب فبغضت	عندي الديانة والتقى صلواته

ولقد كلفتني هذه الأبيات مبلغاً من المال فاشتركت في مجلة العرفان من أجل قصائد البدوي التي كان ينشرها تباعاً في هذه المجلة، وكان وسيلة الاشتراك الصديق والرفيق في المدرسة الزراعية المرحوم أديب الزين ابن الشيخ أحمد عارف - صاحب المجلة - ولقد جاء بدوي الجبل إلى دمشق في شبابه الباكر ولم يكن معروفاً وقد تعرف مصادفة بيوسف العيسى الذي عرفه بالشعراء الدمشقيين فبدأت هنالك رابطة بينه وبين أكثرهم، ولقد لقي منهم احتراماً وإعجاباً مع شيء من الغبطة لما أبداه من موهبة كانت جديدة بالنسبة إليهم، لقد تغنى بمنازه دمشق كقوله يصف الحياة بدمر:

بدمر لا السفوح معطلات	من الغزل الضحوك ولا الروابي
فإن تذبل خمائلها فإني	خلعت على خمائلها شبابي

ويأتي شاعر العراق الزهاوي إلى دمشق فينشد قصيدته التي يقول فيها:

لقد كان شعري يحسن الشجو إن شدا ... فما بال شعري اليوم لا يحسن اللحنا

وقد أجابه البدوي على قصيدته بقصيدة ألقاها في المجمع يقول فيها مخاطباً الزهاوي:

نُحْ ما تشاء على العراق ... فإنني بالشام نائح

واسفح دموعك إنها ... أخوات أدمعي السوافح

وفي هذه الفترة قال قصيدته المشهورة التي تناقلتها الصحف كلها تقريباً ورواها الناس في البيوت والمقاهي وهي التي يقول فيها:

أتجدي ما أجدى الحسام ولا أغنى ... قوافٍ من الأشعار تبقى ولا تفنى

أدرت على الأسماع منها سلافة ... فأرضيت فيها الله والعرب والفنّا

وفي عين سلمى قد قرأت قصيدة ... وفي الشفة اللمياء والمقلة والوشنى

وهددني بالسجن قوم جهالة ... فتى العرب الأمجاد لا يرهب السجنا

إذا طرقوا باب الملوك فإنهم ... بغير العوالي السمر لم يطلبوا إذنا

وتتبدل الظروف وتتغير الأحوال فيذهب بدوي الجبل إلى اللاذقية وفيها ينتخب نائباً عن منطقته في الجبل، وكأنه قد خجل من تصرفه هذا لإظهاره الرضى عن الانفصال فلم يعد إلى دمشق بعد ذلك وسكت عن قول الشعر فترة طويلة إلى أن سمعنا له القصيدة التي اعتبرت حادثاً أدبياً فريداً في الشعر العربي، وهي قصيدة «أطلّ من حرم الرؤيا فعزاني». فقد كان للبدوي صديق يسمى أديب مظهر المعلوف وأديب هذا من قرية لبنانية هي «بيت شباب»، وكان شاعراً مجدداً ولعله أول شاعر أدخل الرمزية الحديثة على الشعر العربي المعاصر في لبنان وسوريا، وكانت هذه الرمزية معقولة، غايتها أن يأتي الشاعر بالكلمات التي تحمل من المعنى أكثر مما تحتمل بحيث يشع معناها إلى الكلمات المجاورة على أن يكون المعنى في البيت مشوباً بشيء من العمق وبسحابة رقيقة من الظلمة تجعل القارىء يفكر وينتبه حين يقرأ، ولعل البدوي استفاد من هذه الطريقة حين أصبح يستعمل هذه الألفاظ المجنحة التي عرف بها شعره منذ سنين طويلة، وقد أصيب أديب مظهر بالتيفوئيد ودعي إلى حفل راقص في قريته فشرب وأكل ورقص ولم يصبح الصباح حتى كان الرجل ميتاً بسبب مرض التيفوئيد الذي لم يكن دواؤه معروفاً هاتيك الأيام، ويبلغ البدوي الخبر وكان صديقاً له، وقد كان يومها في حمص ضيفاً على صديقه السيد فيضي الأتاسي الذي كان وقتئذ رئيساً لبلدية حمص، وقد دعاه إلى العاصي في جلسة مسائية فتذكر صديقه، فكانت هذه القصيدة الفنية الرائعة التي بلغت مئة وبيتاً، وقد أتى فيها على بعض الأفكار الفلسفية والصوفية التي ليست معروفة بالشعر العربي المعاصر كما في قوله في مطلعها:

مرابع الخلد لا أرباع لبنان ... وفتنة السحر لا آيات فنان

شب النبيّون في أفيائها وحبت ... فيها خيالات إنجيل وقرآن

وربما فقهت من أمرها عجباً ... قبل الهُداةِ عصا موسى بن عمران

وينطلق بعد هذه المقدمة وفي أبيات أخرى هذه النظرية حول الخلود في الجنة أو في جهنم فيقول:

وللخلود على أهل الجحيم يدٌ ... تجزى مع الدهر إحساناً بإحسان

لا يألمون ولا تشكو جسومهم ... من اللظى فهي نيران بنيران

وهو يعني أن العذاب لن يتعذب به الإنسان لأنه يتعود على هذا العذاب فيزول أثره ثم إن الأجساد تتحول إلى نيران فهي والنيران سواء والنار لا تحرق النار، ثم يقول عن الجنة واصفاً أهل النعيم بقوله:

ملّ المقيمون فيها من هناءتهم ... كما يملّ السقام المدنف العاني

يعني أن النعيم إذا استمر فإنه يفقد لذته ومن الخير لمعرفة فضل النعيم أن يتركه الإنسان ويعود إليه حتى يتلذذ به مجدداً حين اللقاء به ثم ينتقل إلى الحديث عن صديقه فيقول:

مليحة الدلّ من غسان لا بليت ... شمائل الصيد من أقيال غسان

أتأذنين بإنشادٍ فما جليت ... إلا لحسنك أشعاري وأوزان

طوّفت في هذه الدنيا على مهل | طواف أشعث ماضي العزم يقظان
مفتشاً عن عزاء النفس لا تعبي | أدى إليه ولا حلمي وعرفاني
إذا ندبت جهودي وهي ضائعة | أطل من حرم الرؤيا فعزاني

لقد بحث عن عزاء نفسه فلم يعثر عليه رغم كل شيء، وعاد يندب جهده الذي لم يفده، وعندئذ وجد العزاء بإطلالة صديقه عليه في الرؤيا فهدأت وقرّت بلابله. والاستشهاد بشعر البدوي باب واسع جداً يستهلك وقتاً طويلاً وصفحات كثيرة. لقد كان البدوي مخلصاً لأصحابه فقد كان السباق لرثائهم، رثى هنانو، ورثى الجابري ورثى رياض الصلح، ولكنه ترك نقطة سوداء في صفحته البيضاء الواسعة حين تعرض لشكري القوتلي صديقه القديم والذي كان يدعمه في كل شيء يوم كان يقول فيه:

شكري الذي لقي السيوف بصدره | فأعادها مزقاً على الصحصاح

ولكنه عاد فقال فيه ما يجب ألا يقال بين صديق وصديق مهما أساء هذا أو مهما ظن أنه أساء، وقد عرفت القصة التي دعت البدوي إلى تنكره لشكري فأكد لي العارفون أن الشاعر كان مخطئاً بحق الرجل الذي لم يكن يستطيع عملاً يوم كلفه الشاعر العمل الذي أراده منه. وشعر البدوي يمتاز بكل ما يمتاز به الشعر الرائع وما من شك أنه أضاف إلى الشعر العربي أسلوباً جديداً ومعاني مخترعة غير معروفة وبحسبه قوله في رثاء شوقي الذي برّ به القائلين:

لا الأمس يسلبك الخلود ولا الغد | هيهات أنت على الزمان مخلد
تتجدد الدنيا ونفسك وحدها | دنيا تنمّق حسنها وتجود
قيس وليلى بعد طول كراهما | ثغر يرفّ ووجنة تتورد
فاذهب كما ذهب الربيع على الربا | منه يد وعلى النفوس له يد

وهو يلمح هنا إلى قصة «مجنون ليلى» التي كتبها شوقي وكانت من روائع الشعر العالمي.

ويمرض البدوي، فقد أصيب في حادث لم يعرف من الذي ارتكبه إذ صدمته سيارة بينما كان يقوم برياضته المعتادة في صباح يوم من الأيام، وأصيب بعاهة في دماغه، ذلك الدماغ الذي كان ديواناً من الشعر لا ينضب، ويموت منذ سنوات ويدفن في قريته التي ولد فيها إلى جوار والده وأهله.

سليم الزركلي: هذا صديق لي وصداقته تمنعني من أن أكون صريحاً معه في الحديث عن شعره وشاعريته، ونقد الشعراء مشكلة كبيرة فإني حتى الآن لم أجد شاعراً يحتمل النقد ولو كان صحيحاً ومخلصاً وعن نية سليمة، كل الشعراء يريدون أن يكونوا ممدوحين ومقدّرين ومعظمين فإذا ذكرت لأحدهم عيباً في شعره ثار عليك وغضب وقاطعك مقاطعة لا صلح وراءها، حتى شوقي الذي كان كالشمس بالنسبة لسماء الشعر قال فيما مضى:

ومن النقد والجدال كلام | يشبه البغيَ والخنى والفضولا

ولكن شوقي كان محقاً في هذا، لأنه قصد به العقاد وحده، لأن العقاد لم يكن ناقداً بالنسبة لشوقي بل كان كارهاً وحاقداً وحاسداً، ومع ذلك فقد تراجع بعد موت شوقي وعدل الكثيرَ من رأيه، وكذلك فعل المازني، لذلك ينبغي على الناقد أن يفكر أكثر من مرة حين يريد أن ينقد شاعراً مهما كان هذا الشاعر ضعيفاً. ولقد توفي سليم الزركلي منذ أشهر إلى رحمة الله بعد أن تجاوز الخامسة والثمانين من العمر، ولقد كان ـ يشهد الله ـ متين الأخلاق يحب النكتة ويحترم نفسه احتراماً كبيراً، وكان أصحابه قليلين، ولكن صداقته لمن يصادق كانت دائمة قد تطول حتى الموت، هكذا كان بالنسبة لفخري البارودي ولداوود التكريتي ولروحي الخياط وغير هؤلاء، وكان يحبني ويرى فيّ صديقاً وإن كنت لا أختلط به إلا لماماً، فقد أقف وإياه في الطريق وتطول وقفتنا ونتحدث بشتى الأمور، وكنا نجتمع أطول مدة عند البارودي في لياليه التي كانت زينة ليالي الشام. ولم يكن سليم الزركلي كثير الشعر فقد كان ينظم في المناسبات البعيدة وأكثرها الوطنية وكان جيد الإلقاء، ولكن شعره كانت تنقصه الثقافة الحديثة، فهو مدرّس قديم في المدارس الابتدائية ولا أدري إذا كان قد نقل جهده إلى المدارس الثانوية لأنه لم يكن يحمل سوى شهادة دار المعلمين الابتدائية كما أعتقد، وشعره لذلك قليل «الدسم» إن أمكن هذا التعبير، روى لي أحمد رامي

أنه أسمع حافظ إبراهيم شيئاً من شعره الأولي في أيام شبابه الباكر فقال لـه حافظ: هـذا الشعر لا يضر إنه مثل: السلام عليكم: وهو طبعاً يشير إلى أن هذا الشعر كلام ولكنه كـلام ينقصه الشعـر وهكذا كـان شعر سليم الزركلي، إنه شعر صحيح اللغة صحيح الأسلـوب لكنه أشبـه بالنثـر لأن مزايـا الشعر ليست فيه، وسليم الزركلي عندي أشبه بعدنان مردم، وهذان كنت أسميهما شاعرين بـالوراثـة، فسليم حاول أن يرث خير الدين ابن عمه ولكنه لم يقترب منه، وعدنان حاول أن يكون خليفة أبيه في الشعر فلم يـدانه ولم يستطع تقليده. وكان سليم ـ كما قلت ـ صحيح اللغة، صحيح الوزن ولكنه لم يكن غزير المادة في حـديثه لأنه ـ كما أسلفت ـ قليل القراءة كما أظن وإذا قرأ فإنه يقرأ الأمور التي لا تتعلق بالشعر، كما أظن أنه بدأ النظم وهو كبير السن، ففي السنين الأوائل من هذا القرن لم نسمع لسليم الزركلي شعراً، ولا قرأنا له شيئاً. ولكنه كان إنساناً طيباً يحب المباسطة، ويحرص على أخـوانه وأصحـابه، وهـذه قضية نـادرة هذه الأيام.

عدنان مـردم بك: وهـذا أديب عمل في ميـدان الشعر ولكنـه في رأيي لم يوفق الى مـا أراد، لقد نظم ولكنه لم يقل شعراً، وتعجبني كلمة لخير الدين الـزركلي يـرددها بمنـاسبة بعض النظـامين من أصحـاب الدواوين في قاموسه «الأعلام» فيقول عن أحدهم مثلاً: وله ديوان وليس بشـاعر. وقـد جاءت أيضـاً ملكة نظم الشعر لعدنان بالوراثة، ويبدو أنه كان يقلد أباه منذ صغره وأن أباه شجعـه على ذلـك وكان من حق أبيه أن يدله على الطريق الواضحة لقول الشعر حتى لا يجوز عن القصـد. ولقد تـوفي منذ سنـة أو أكثر (١٩٨٨) وشاركت في حفل تأبينه وذكرت شعراء اليوم «المجددين» أو «المخربين» وقلت:

بتنـا وراء الـركـب نلـهـث لـهفـة	لقصيـدة منظـومـة عصمـاء
ونُـهيـب بـالشعـراء أن يتبينـوا	تـعـب القـريض وكثـرة الشعـراء

ولقد تورط جماعة من مؤبنيه فراحوا يذكرون رواياته التمثيلية ويـذكرون معهـا روايات شـوقي، وقد أثارتني هذه المقارنة وقلت لبعضهم: أنتم تسيئون إلى الرجل، أبنوه كما تشاؤون ولكن لا تقرنوه بـرجل لم يقرن به أحد لأنه علا على الأقران. وروايات شـوقي أصبحت من الأدب العالمي أمـا تمثيليات عـدنان فلم نسمع عنها شيئاً لا من النقاد ولا من القراء. وأنا لا أحب أن أظلم الرجل ولكنني أصفـه، فقد كـان يجيد النظم وكانت لغته سليمة وقوافيه مطمئنة أكثر الأحيان، ولكن الشعر شيء آخر غـير هذا كلـه، إنه الكـلام الذي يمس النفس والشعور، ويفتح باب الخيال واسعاً أمام القارىء. وعدنان صديق مهذب عالي الأخلاق يمشي هادئاً ويتحدث هادئاً، فالهدوء والتأني هما سمة حياته كلها، وهو لم يعرف حياة في رأيي ولو عرفهـا لكان شاعراً كبيراً لأنه لا يخلو من موهبة ما دام قد نظم هذه الأشعار كلها وذلك دليل على الشاعرية وقد عني بشعره إذ كان يستطيع طبع كتبه في أي مكان أراد، بينما الشعراء الفقـراء يكتبون وينظـرون إلى ما يكتبون والحرقة في قلوبهم لأنهم لا يستطيعون طبع كتبهم وعـرضها عـلى الناس كمـا يحب كل شـاعر أو أديب. تـزوج عدنـان ثلاث مـرات وأنجب، ولكنني لم أره في حياتي في مقهى أو مطعم أو مشرب أو مكـان للنزهة، ولم يقتن سيارة مع انه كان يستطيع اقتناء قطار كهربائي، فقد كان يركب «الباص» وربما تـأفف من الزحام وكنت أشاهده في الباص فأنظـر إليه آسفـاً وأقول لـه: ليس معي عملة صغـيرة «فراطـه» من فضلك، فيدفع عني وعنه وأضحك وإياه. وكان موظفاً في القضاء وظل حقبة طويلة يـركض وراء الوظيفـة متنقلاً من بلد إلى بلد مع أنه كان أغنى الناس عن الوظيفة التي يستطيع الحصـول على راتبهـا السنوي من أجرة أحد الدكاكين التي كان يملكها في سوق الحميدية، وقد أقام مدة في حمص بعيداً عن أهله وبيته من أجل الوظيفة، وكنت ألومه في هذا فيضحك، وكثيراً ما قلت له: أترك الوظيفة يا رجـل للفقراء أمثـالنا، فلا يجيب. ولم يكن أنيقاً بل كان لباسه عادياً، ولم أعرف أنه سـافر أو ذهب إلى أوروبـا أو أميركـا، وكان بيته الذي انتقل إليه في حي المارستان القديم مستأجراً فلم يشتر بيتاً يسكنه، وكان بيته قـريباً من بيتي في حي المهاجرين فكنت أزوره في الفترات، فقد كان حديثه مقبولاً وكان يتحدث عن تسكـع الأدب وتقهقره وعن أولئك المجددين الذين يريدون أن يخربوا الشعر باستغنائهم عن الوزن والقافية اللذين همـا كل شيء في الشعر، لقد كان عدنان مسكيناً في رأيي، لم يعرف اللهو ولا المرح في هذه الحياة مع أنهما كل الحياة.

عبد الكريم الكرمي: عرف هذا الشاعر بلقبه «أبو سلمى»، فقد نظم قصيدة جيدة في مطلع شبابه تغزل فيها بفتاة سماها «سلمى»، وقد أعجبت القصيدة صديقه الشاعر إبراهيم طوقان فدعا عبد الكريم «أبا سلمى» ونصح له أن يتخذ هذه الكلمة اسماً له في كل ما ينشر من شعر وكان ذلك. وأبو سلمى شاعر فلسطينيّ الأصل من بلدة «طول كرم» ووالده كان من العلماء ومن أعضاء المجمع العلمي بدمشق واسمه «الشيخ سعيد الكرمي»، وقد سمى أبو سلمى ابنه الوحيد سعيداً وهو طبيب مشهور اليوم في الولايات المتحدة. جاء أبو سلمى إلى دمشق منذ عام ١٩٤٨ أي يوم الهجرة الفلسطينية إلى البلاد العربية ودخول اليهود، وعمل أول أمره مدرساً للغة العربية كما عمل محامياً أحياناً، ولكنه لم يستمر في كليهما، وأظنه كان يتقاضى في أيامه الأخيرة راتباً من منظمة التحرير الفلسطينية، وأبو سلمى له ولد واحد كما قلت هو الدكتور سعيد المقيم في الولايات المتحدة وهو متزوج من أميركية. وزوجة عبد الكريم من عكا وكانت سيدة فاضلة، وقد عرف له أخوة كثيرون، فوالده تزوج من أربع نسوة آخرهن أم عبد الكريم (أبو سلمى) وأخوانه لأبيه منهم: أحمد شاكر الكرمي صاحب جريدة «الميزان» الأدبية التي كان لها مكانة في عالم الأدب والأدباء، وله أخ صديق لي هو الأستاذ حسن صاحب البرنامج الشهير في إذاعة لندن «قول على قول»، ومن أخوته محمود وقد قتل في حادث سياسي وعبد الغني وكان مذيعاً في إحدى الإذاعات الأجنبية. أما أصدقاؤه فهم: إبراهيم طوقان وجلال زريق ووجيه البارودي وحافظ جميل «العراقي» وكلهم شعراء. وقد اشترك هؤلاء حين كان الثلاثة: إبراهيم ووجيه وحافظ جميل، في الجامعة الأميركية في بيروت في نظم الكثير من الشعر، وكان أكثره شعراً واقعياً وأحياناً كان شعراً «لا أخلاقياً»، ولقد شجعهم على هذا الشعر اللاأخلاقي تصفيق الناس لهم، والناس مولعون بالشذوذ ولكن هذا الشعر كان له تأثير سيىء على ابراهيم طوقان بشكل خاص، فالشاعر «المحترف» إن صح التعبير والمعروف بالتقدم بينهم هو إبراهيم طوقان وقد ألهاه هذا الشعر الماجن الذي لا يروى عن كثير من الشعر الجميل الذي كان ينظمه إبراهيم في أوقات جدّه وفراغه، ومن هذا الشعر المستكره ـ في رأيي ـ تعرضه في قصيدة مشهورة للعقائد الدينية مما سبب له أن يترك عمله في دار الإذاعة في القدس ويذهب إلى بغداد بسبب هذه القصيدة، فتطور المرض الذي كان يشكو منه في معدته وحين أجريت له العملية الجراحية توفي تحت العملية، وكانت هجرته وترك فلسطين بسبب تلك القصيدة الملعونة التي أساء فيها إلى الكثير من الناس حتى من محبيه وعارفيه. وأول شيء قرأته لأبي سلمى قصيدة نشرت في «ديوان الثورة» مع مجموعة من القصائد قيلت في الثورة السورية، وحين جاء إلى دمشق عرّفني إليه صديقي المرحوم المحامي رشاد عيسى فقدّرت أن تكون لأبي سلمى بعض الميول اليسارية وقد صدق تقديري بعد ذلك فقد ذهب وزار البلدان الاشتراكية كلها، وأصيب بالمرض المفاجيء بموسكو في رحلته الأخيرة بينما كان جالساً في سهرة وقد خرج من المجلس ولم يعد إليه فتفقده الجالسون فوجدوه في بهو البناء جالساً على مقعد فيه وقد أمسك بخاصرته وأسرعوا به إلى الأطباء الذين قرروا إجراء عملية له لاستئصال «البروستات»، ولكنهم بعد أن أجروا العملية وجدوا أن البروستات لم تكن تحتاج إلى عملية وكان أن تسمم دمه كما قيل لنا بسبب وجود بعض الالتهابات التي كان يجب أن تداوى قبل أي عمل جراحي، وتأزمت حالته فاستدعي ابنه من أميركا وجاء إلى موسكو لينقل والده إلى مشفاه هناك ولكن أبا سلمى لم يحتمل السفر والتنقل فتوفي، وقد شيعناه إلى مثواه الأخير في مقبرة دمشق بعد أن أحضره ابنه إلى دمشق، وهكذا انتهت حياة هذا الصديق بخطأ طبي في أكثر البلاد تقدماً بالطب؛ في الفترة الأولى كانت معرفتي به بسيطة فلم أكن أختلط به إلا قليلاً، ولكنه في المدة الأخيرة أصبح الصديق الوحيد وبتنا لا نفترق، وأشهد لقد كان من أكرم الناس إزائي، فكان إذا علم أني فارغ الأشغال دعاني إلى بيته، كما أنه إذا دعا أحداً أو دُعي هو فلا بد أن أكون رفيقه: ولقد بكيت من أجله يوم ماتت زوجته أم سعيد ـ رحمها الله ـ وبكيت عليه حين شيعته ولقد قلت فيه قصيدتين في حفلين تأبينيّين أقيما له، فقد كان محترماً عند الناس جميعاً وبخاصة الفلسطينيين حتى كانوا يسمونه «زيتونة فلسطين» إشارة إلى قوته في شعره ونضاله. كان صديقاً لكبار الأدباء من مثل المازني في مصر وخير الدين الزركلي، ولكن صديقي عمره كانا الشاعر إبراهيم طوقان والشاعر الأديب الآخر جلال زريق، وقد روى لي

أنه شارك في القصيدة المشتركة التي شارك في نظمها أكثر من شاعر وهي:

يـا تـين يـا تـوت يـا رمـان يـا عنب يـا درّ يـا مـاس يـا يـاقـوت يـا ذهب

وكانت القصيدة من أجل رفيقة كانت تلميذة في الجامعة الأمـيركية من أصـل شامي اسمهـا: أليس تين. لقد وقف أبو سلمى أكثر شعره على القضية الفلسطينية التي لم تكن تبرح باله، وكان يذكر كل شبر من أرض فلسطين بلوعة وحرقة، وأشهر دواوينه هو «المشرّد»، رحمه الله رحمة واسعة.

محمد الحريري: هذا الشاعر كان يتعب في شعره ليستخلص منه معاني جديدة وكأنه كـان ـ رحمه الله ـ لا يعرف أن الشعر يأتي من نفسه ولا يأتي قسراً، لقد أتعب نفسه ولم يصل إلى ما كان يـريد من تفوق وسمو فيما كتب لأن موهبته كانت ـ كما اقدّر ـ ضعيفـة، ولو عمـل في مجال النثـر لكان أفضـل له وأضمن للنجاح. وكان يحفظ قول البحتري من غير شك بصفته أستاذاً للأدب العربي وهو:

والشـعـر لمـح تكفـي إشـارتـه وليس بـالـهـذر طـولـت خطبه

كما كان يحفظ قول شوقي:

والشعـر مـا لم يكـن ذكـرى وعـاطفـة أو حكمـة فـهـو تقطيـع وأوزان

وهو شاعر بالوراثة كشعراء الوراثة الذين عددتهم لك من قبل: سليم الزركلي وعدنـان مردم بـك. لقد كان جده محمد الحريري مفتي حماه الشهير وصديق أبي الهدى الصيادي شـاعراً أيضـاً، وكان والـده عز الدين الحريري يقـرزم في الشعر ولم يكن شـاعراً، وإنمـا كان يحـاول رصف بعض الكلمات ليخـرج النكتة التي يريدها شعراً، ولم يكن ينجح فيما يريد لأنه لم يكن متعلماً ولا دارساً، ولـو اكتفى بأحـاديثه الطريفة ورواياته الخفيفة على السامع لكان أفضل له وأضمن للشهرة.

عرفت محمد الحريري منذ أن كان في مطلع شبابـه وفي سن الخامسـة أو السادسـة عشرة يوم كنت أزورهم في بيتهم العـامر بحي «الفـرّاية» بحمـاه المتفرع عن جـادة «المرابط» الشهـيرة. وكان محمـد منذ صغره يحاول نظم الشعر وكان والده معجباً به ومادحاً له في كل شيء حتى لو نطق كفـراً، وعز الـدين من صنف الآباء الذين يرون أبناءهم عباقرة وهم مثل بقية الناس لا أكثر ولا أقـل، وكنت أرى مديـح الأولاد من قبل الآباء أثقـل شيء على طبعي، لـذلك كنت عـلى عكس هؤلاء فقد كنت أذم أولادي إذا بـدرت منهم بادرة لم تعجبني ولا أخجل من ذلك لأن الحق يجب أن يقال، وقد عبر أبو تمام عن هـذا بقولـه حين أراد أن يمدح رجلاً فقال:

ويسيـيء بـالإحسـان ظنّـاً لا كمـن هـو بـابنـه وبشعـره مفتـون

فالإنسان ضعيف أمام ولده وأمام شعره، لأنك لا تجد إنساناً يذم شعره ولا إنساناً يذم ولده، وهـذا في رأيي ناحية من أضعف النواحي عند الإنسان. كان عز الدين يرى في ولده محمد أنه شـاعر كبـير منذ صغره وكنت أحذره من هذا وأنصح له أن يتأنى وأن يحاول إصلاح هذا الشعر وتعويد ولـده على النظم حين يشتهي النظم لا حين يريد النظم، فمع الاشتهاء يجيء الشعر طبيعياً ومن نفسـه، وهذا هـو الإلهام الشعري الذي يفرق بين الشاعر وغيره، أما إرادة النظام فتعني أن الشعر يأتي قسراً وغصباً وهذا يعني فقدان الإلهام الذي يجعل الكلام شعراً، كان محمد ـ رحمه الله ـ ينظم الشعر بطريقة عجيبة خاصة بـه فهو يفكر أولاً فتجيئه الفكرة أو ربمـا رأى منظراً لفت نظـره، وكثيراً مـا يكون المنظـر غير شعـري فيفكر ويفكر فتأتيه الكلمات موزونة في شطـرة ثم يحاول إكمـال الشطرة ويبـدأ البيت الثاني بـاستكمال المعنى الذي كثيراً ما يستعصي عليه وكأنه يـريد أن يجعـل في كل بيت معنى جـديداً، فتخـرج القصيدة وكـأنها درس في الرياضيات يتألف من معادلات كل بيت فيه معادلة، ولهذا كانت القصيدة تكلفه أياماً وليالي حتى ينجزها، أما موضوعاته فمضحكة في أكثر الأحيان وهو يحاول في كـل شعره أن يكـون خفيف دم، فيصف مثـلاً: امرأة تحمـل مظلة، أو رجـلاً يحمل كيسـاً من البرتقـال أو يصف معلماً سميناً يسعل أو يعطس وهكذا. وأنت ترى أن هذه الموضوعات لا توحي شعراً ولا تبعث قـريحة من رقـادها. كـان محمد جميـل الصورة وخاصة في صغره فلما كبر أسرف في الطعام فكان يأكل أكـلاً مرهقـاً لجسده، وقـد حدثني أحد تلامذته أنه كان يأكل في الصباح وقبل دخوله الصف عشر بيضات مسلوقة تكفي عائلة بكاملها وكان يترك

بيته في حماه ليذهب إلى حي الحاضر ليأكل «المغطوط» الذي ينطف سمناً ودهناً فيأكل ما يأكلـه ثلاثـة أو أربعة رجال دفعة واحدة وأصبح محمد سميناً جداً، وهذه السمنة كما أعتقد أثرت حتى في عقليته فبـات مهملاً للباسه، فربما رأيته وقد خرج من البيت وهو لابس حذاءً رقيقاً «شحاطة» مما يلبس في البيت فقط، وأكثـر ما تـراه مفتوح القميص بـادي الصدر لا ربطـة ولا ما يشبـه ذلك، وكـان شعره كلـه مكتوبـاً في قصاصات ورقية شبه مهترئة، لذلك لقي من حقق له ديوانه بعد وفاته جهداً كبيراً حتى جمـع له شعـره، ومع ذلك فقد بقيت قصائد كثيرة لم تدخل الديوان لأنها غير كاملة، وربما ترك محمد القصيدة عنـد شطر لا يكمله أو ربما كتب من القصيدة ثلاثة أبيات ونصف وهكذا دواليك، ويُنصـح محمد الحـريري بتخفيف الطعام فيلجأ إلى «الريجيم» القاسي دون استشارة الطبيب ويهبط وزنه هبـوطاً خطيـراً تصاب بـه كليتاه، كما يظن، ولقد رأيته وهو في هـذه الحال في الإذاعـة حين قـدمت أنا وإيـاه ورياض نعسـان آغا الشـاعر القروي في التلفزيون فكان محمد ضعيفاً بادي الهزال وقد جلس على الكرسي، وحين سألته أجابني بلهجته المعروفة: والله ما بعرف، وبعد أيام بلغني أنه حُمل إلى مشفى حرستا في حال خطـيرة وذات صباح أبلغت وأنا في دائرة عملي أن محمداً قد مات إلى رحمة الله. كان طبيبه آخذاً في العناية به فسـأله محمـد: أليس عندكم في المشفى موسيقـا نسمعها؟ وأشفق عليـه الطبيب فذكـر له بعض التسجيـلات الأجنبية فطلبهـا ليسمعها، ورجع الطبيب يحمل التسجيلات وإذا بمحمـد قد فـارق الحياة، كـان محمد الحـريري ظـريفاً مقلداً، وقد كان يجيد تقليد أستاذنا قدري العمـر حتى يخيل إليـك أنه هـو كذلـك كان يسخـر من بعض الشعراء الذين يتصنّعون الشعر وهم أولى بـالاشتغال في الـزراعة أو بـالاشغال العـامة بـدلاً من الشعر والشعور، فكان تقليده لهؤلاء بالغ الإضحاك والظرف.

هنالك ظـروف تقع لـلأولاد في بيت أبيهم فتؤثر فيهم تـأثيراً سيئـاً. فقد عـرف محمد بعض الحـزن لافتراق أمه عن أبيه منذ صغره، فكان دائباً على الطواف بين أبيه وأمه وقد تركت هـذه الحالـة نوعـاً من التعقيد في تفكيره وشعره. وكنت مرة في قريتهم «جرجيسة» وهي مجاورة لنهـر العاصي فنـزلت وإياه لأرى منظر النهر ونزل هو فسبح وقبل أن يخرج نظر إلى فـلاح يجلس على ضفـة النهر قـريباً منـه فناداه كي يحضر له «البرنس» من القرية وكانت القرية بعيدة نوعاً ما فاعتذر الفلاح، ولما خرج محمد من الماء انهال على الفلاح ضرباً لأنه لم يلب طلبه وحلت بينهما وتألمت لضرب الفلاح، وقلت وأنا غاضب محنق: قاتل الله ستالين لأنه لم يجيء إلى هذه البلاد ليعلمكم الديمقراطية، وغضب هـو من هذه العبـارة وأبلغها إلى أبيـه الذي شاركه الغضب وسألني فقلت له ورويت الحادثة: إن الفلاح لم يخطيء لأن الذهاب إلى القرية غـير ممكن، ووافقني الأب على خطأ ابنه ولكنه قال: ولكن كان عليك أن لا تذكر اسم ستالين بهذه المناسبة. لم يتزوج محمد الحريري وقضى شبابه يركض وراء الجمال ولا يصل إليه، يتنقل من مسبح إلى آخر، يحدث هذا ويمازح هذه، وذهب كأنه لم يأت إلى هذه الحياة، وقد حُقّق ديوانه ولكنه طبـع طبعاً رديئـاً فكأنـه لم يحقّق.

٤٤ ظرفاء دمشق

حين نذكر الظرفاء في دمشق أول ما يتبادر إلى الذهن الاسم الظريف المشهور أبو درويش سويد، فهذا الرجل العجيب لم يكن ظريفاً فحسب بل كان سياسياً وتاجراً كبيراً وغنياً، كان عليلاً جسدياً يشكو من العرج في رجله ورغم انتسابه إلى صنف التجار، فقد كان رفاقه كلهم من أصحاب الوجاهة والعلم وأهل الفضل، بينما كان هو جاهلاً يكاد لا يعرف القراءة والكتابة. كان قصيراً أبيض الوجه يحمل عينين صغيرتين وصوتاً رقيقاً ونظارة تغطي قسماً كبيراً من وجهه، فإذا مشى أمامك خلته يقفز أو يرقص لعرج في إحدى رجليه، رأيته أول مرة في حياتي عام /١٩٣٢/ وكانت المظاهرات في أشدها وكان هو ناخباً ثانوياً في حي سوق صاروجة حين كانت الانتخابات على درجتين، رأيته واقفاً بين الدبابات والمتظاهرين يتحدث إلى هذا وإلى ذاك، وكنت أقرأ عنه دائماً في مجلة «المضحك المبكي» التي كان يصدرها المرحوم حبيب كحالة الصحافي المتقن الأنيق، وكان دور أبي درويش في المجلة: المدعي العام، فكانت ترد إليه وباسمه الشكاوى المضحكة مما كان يخترعه الأستاذ حبيب. ورأيته مرة عند فخري البارودي، وهي مناسبة لا أنساها، لأن أبا درويش كان نجم السهرة التي ضمت محمد كرد علي صديق أبي درويش المخلص وحسني سبح وحسني تللو والبارودي وأنا. ويبدو أن البارودي قدمني إليه قبل مجيئي، فكان ينظر إليّ مبتسماً بين حين وآخر، ويبدو، من ناحية أخرى أن البارودي قد بالغ في وصفي له فشوّقه إلى معرفتي وفاجأني أبو درويش بقوله: تفضل تكلم لنرى مبلغ شطارتك؟ وسكت كمن أصيب بصفعة وقلت: هل أستطيع أن أتجرأ يا أبا درويش، وقال: إذن ابعد قليلاً حتى نبحث عن رزقنا، يا بني لا تتخذ من «التهريج» صنعة فهو أكره صنعة عندي، وأنا أحفظ مركزي وقد أهرج لنفسي، ولا يخفى أن التهريج هنا يعني «المزاح»، وأتم حديثه بقوله: إن رفاقي محمد فوزي باشا العظم والد خالد بك المعروف لديك وعبد الرحمن باشا اليوسف، ولكني إذا جلست إليهم جلست بكل جد ووقار وأنا أريدك يا بني أن تكون مثلي. فسكت، ووقف يتكلم وهو واقف وكأنه خطيب في مجتمع كبير، وكانت الحكايات ترد على لسانه الواحدة تلو الأخرى وكأنه حفظها منذ دقيقة. وهدأ المجلس قليلاً، وبعد لأي، وقف أبو درويش ثانية ليتكلم فقال: كنت في المحطة مرة فرأيت جماعة من العمال الفقراء يأكلون الخبز مع أقراص البندورة الخضراء فجزعت لهذا المنظر المحزن والتفت إلى آخر الفسحة فرأيت ضابطاً تركياً كبير الجسم برتبة مقدم، وقلت: أمازح هؤلاء العمال المساكين فأروي لهم حكاية أضحكهم بها شفقة عليهم وحسنة تكتب لي، ورويت لهم القصة التالية: جاء رجل إلى جماعة فقال: السلام عليكم، ولكن أحداً ممن سمعوا السلام لم يرد عليه، فتألم كثيراً وحلف يميناً معظماً بالطلاق أن لا يسلم على أحد بعد اليوم ونسي كل شيء، وجاء وقت صلاة العصر فوقف يصلي ولما انتهى أراد أن يسلم كالعادة ولكنه ذكر أنه حلف يميناً غموساً بالطلاق وخشي أن تطلق امرأته فالتفت إلى الكتف الأيمن وقال: مرحبا. وحين أنهى أبو درويش قصته ضحكنا، ولكنه قال: انتظروا، وانتظر أنت بشكل خاص وأشار إليّ، حين رويت هذه القصة للعمال ضحكوا كثيراً وإذا بالمقدم التركي يناديني من بعيد قائلاً: أولان مسخرة، كل بوريا «بالتركية» أي: يا مسخرة تعال: ثم التفت إليّ أبو درويش وهو يقول بلهجة الحزين المخفق: وهذه كانت نتيجة المزاح، لقد أردت أن أحسن إلى العمال الفقراء فإذا بالمقدم اللئيم يعتبرني «مسخرة» وأنت يجب أن تحذر من كل هؤلاء الناس الذين يرون النكتة وكأنها «قلة عقل» مع أنها من أرقى الفنون وأعلاها. وسئل أبو درويش مرة عن سبب عرجه فروى القصة التالية: لقد ولدت بيوم واحد مع محمد فوزي باشا العظم وعبد الرحمن باشا اليوسف، فجاءت القابلة لمحمد فوزي باشا تقول له: انزل يا بني، فأبى، وقال: أريد سيارة، فقالت: انزل وسأحضر لك السيارة التي تريدها، فنزل، وكانت ولادته سهلة، وجاءت القابلة لعبد الرحمن باشا تقول له: اهبط يا بني فامتنع، وقال: أريد عربة سوداء فقالت له انزل وستكون العربة جاهزة، وجاءتني القابلة تقول لي: انزل يا بني، فقلت لها: لا أريد النزول أريد فرساً أركبها، فأمسكت برجلي وسحبتني وهي تقول

لي: تضرب، فإذا بي أصبح أعرج كما تراني. وكان أبو درويش تاجراً غنياً ومن أصحاب الذمة المشهورين، فقد مرض أحد زملائه التجار، وقبل موته أوصاه بولده الصغير من امرأته الجديدة، وقد كان له ولد كبير من امرأة سابقة، وسلم أبا درويش مبلغاً كبيراً من المال، وقال له: هذا المبلغ لولدي الصغير هذا أضعه عندك على أن لا تذكره له ولا لأخيه، فإذا كبر وبلغ سن الرشد أعطه إياه. وبقي المبلغ مع أبي درويش دون أن يعلم به أحد حتى نما وكبر وحين بلغ الولد السن القانونية أتى به وأعطاه المبلغ مضاعفاً لأنه شغّله وتاجر فيه على حساب الولد فربح ربحاً كبيراً وأصبح المبلغ ثروة تناولها الولد شاكراً دون أن يكون له بها علم. ويموت أبو درويش بعد أن أسن وكبر فحزن عليه أصحابه الكثر، وكتبت عنه مقالاً ملأ صفحة من جريدة «النقاد» لصاحبها فوزي أمين وأعجب الناس بالمقال وشكروني، إلا جماعة من أعداء اللطف والدماثة استكثروا المقال على أبي درويش وفاتحوني بالأمر فقلت لهم، أنتم الذين لا تستحقون الكتابة والرثاء لأنكم لا شيء، أما أبو درويش فأحد معالم دمشق كبردى وقاسيون وسوق الحميدية وسيذكره الناس إلى زمن بعيد، أما أنتم فقد متّم يوم ولدتم.

حبيب كحالة: وما دمنا ذكرنا أبا درويش و «المضحك المبكي» فلا بد من أن نعرج على حبيب كحالة الصحفي الأنيق الذي كان يبدو جاداً مفكراً، ولكنه كان يجيد النكتة المكتوبة كأحسن أربابها، فهو من هذه الناحية أشبه بنجيب الريحاني الذي كان نادر الضحك، ولكنه إذا تحدث ملأ الدنيا ابتساماً وانشراحاً، كان ينتقي ملابسه من أجود الألبسة وكان لا يضع إلا الربطة الصغيرة «البابيون» أي الفراشة، باللغة الفرنسية ولم يضع أبداً ربطة طويلة تسيل إلى الصدر، وكان إذا سئل قال ضاحكاً: الربطة الطويلة أشبه بالجورب يوضع على الصدر ثم أنها ترافق الإنسان في أكله وشربه وربما حركها الهواء الشديد فكانت متعبة وشاغلة للمرء. كان حبيب كحالة قريباً لآل الخوري فارس بك وأخيه فائز بك الأستاذين المعروفين، كما كان نائباً بزمن الانتداب في المجلس النيابي، وقد تعرض لحادث يومئذ إذ أقدم على ضربه بيده شاب حمصي اسمه توفيق عجم أوغلي وهو ابن محمد عجم أوغلي، الغني والمزارع الكبير في حمص ومنطقة السلمية، ولكن الضارب كان كما يبدو بحال عصبية بقيت تصاحبه كل حياته وهذه كانت بسبب إقدامه على ما فعل. ولقد أنشأ الكحالة جريدة «المضحك المبكي» وكان موفقاً، فقد أوجد فيها أشياء جديدة لم تعهدها الصحافة في هذا البلد من أحاديث طريفة مثل: مذكرات حشاش وغيره، كما اخترع محاكمة يكون فيها النائب العام أبا درويش سويد فكانت قراءة هذه المجلة شيئاً مرغوباً عند الكثير من الناس. ولقد كلفني مرة أن أشاركه في العمل بمجلته، وحاولت أن أكون خفيف دم ولكني لم أستطع فأنا في شعري ونثري لا أشبه حياتي الخاصة المرحة لأني لا أستطيع أن أكتب شعراً أو نثراً، إلا في الأمور الجادة، ولذلك فإن ما كتبت لا يعطي عني صورة صادقة يدلك على هذا حكاية أرويها: نظمت أبياتاً في حمص يوم كنت في العشرين من العمر ولعلها من أولى أبياتي الصحيحة المنظومة وقد جاء فيها:

أرى الدهر يهدم من قوتي ليبلي الشباب ويؤذي الأثر
أزال معالم شرخ الصبا وأوحى إلى النفس خوف الكبر
فصرت ولم أخط فجر الحياة أحس الممات وأخشى القدر

وأرسلت هذه الأبيات إلى جريدة دمشقية نشرتها لي وأظنها «ألف باء»، وبعد أيام قرأت مقالاً للصديق الأستاذ الدكتور إبراهيم الكيلاني يقول فيه: انظروا إلى شباب اليوم كيف ينغمسون بهذا الحزن الذي يقعد بهم عن كل نشاط أو قوة، إن هذا الكلام الحزين المتشائم لا يناسب الشباب وهو غير صحيح، ولو أنه كتب كتابة صحيحة، وكأن الصديق أثارني فجئت إلى مقهى الكمال فوجدت الأستاذ الكيلاني وعاتبته في هذا وقلت له: من أدراك بحالي حين كتبت هذه الأبيات، وما رأيك أني كنت لا أملك ثمن طعامي، وهل الحزن يتناقض مع الشباب، وهل الحزن وقف على المسنين والشيوخ، فاعتذر إليّ وقال: لقد عرفني بك صديقي ورفيق دراستي في معهد اللاييك على الأبرش الذي وصفك بالمرح والمزاح والنكتة الموفقة، فاستغربت أن يصدر عنك مثل هذا الشعر الباكي.

عادل يسين: هذا الإنسان من أطرف من عرفت، لقد رأيته شارباً ثملاً في سهرة من سهرات البارودي وهو يروح ويجيء في أرض الغرفة وينظر إلى حسني تللو ويتحداه، ويروي لنا أن إنساناً وقع منذ أيام على رأسه فاستعصى طربوشه في رأسه حتى أخرج بآلة، كان أبيض الوجه نحيف الجسم نحافة ملحوظة لأنه كان مع الأسف مدمناً على الشراب لا يصحو إلا نادراً، وكان أول أمره يلعب الورق ويخسر معاشه منذ الليلة الأولى في الشهر، فكان موظفاً في المصالح العقارية ضارباً على الآلة الكاتبة أو في شيء آخر لا أعلمه، ولكني أؤكد أنه لم يكن يعمل شيئاً، فقد كان صديقاً للسيد عارف الخطيب مدير المصالح العقارية وكانت بينهما صداقة بحيث لم يكن يفارقه في ليلة من الليالي. ومرض الرجل مرض الإدمان وقبل أن يموت بساعات أدرك الأطباء أنه مشرف على الهلاك، فسمحوا له أن يشرب قليلاً من الشراب يعطى نقطاً لئلا يجف حلقه جفافاً يمنعه من الكلام. ولعادل هذا قصص كثيرة مضحكة، فقد ذهب إلى النادي العصري كعادته كل ليلة فخسر كل ما معه من الراتب كالعادة، وكانت عادته أيضاً أنه يعرف عربجياً، قبل عهد السيارات، وهذا العربجي كان يعرفه وكان ينقله كل ليلة إلى بيته على أن يتقاضى منه ربع ليرة سورية يوم كان الفرنك يعمل عملاً، وفي ليلة من الليالي خرج عادل وهو ناش ولم يبق معه من الراتب إلا نصف ليرة وحين وصل قريباً من البيت نزل من العربة وأعطى السائق صاحبه نصف الليرة ووقف قليلاً، لكن السائق لم يعطه الربع الآخر فتألم ومشى وصاح به السائق: عادل بك بقي لك فرنك، ونظر إليه عادل وقد أدرك اللعبة وقال له: لا بأس زمّر لي بالباقي أي «طوط لي بالفرنك». ومرة دخل على دائرته رجل من المشعوذين فأخذ من الحاضرين فرنكاً وتلاعب به فاختفى الفرنك ومد يده إلى رجل آخر فأخرج من أذنه ليرة بدلاً من الفرنك، وتقدم منه عادل يقول له: أرجوك أنا عادل يسين فهل تستطيع أن تبتلعني وتخرجني عادل الخوجه، وعادل الخوجه كما هو معروف هو الغني الكبير وأحد الأصحاب والمؤسسين للشركة الخماسية المشهورة. وضرب الإفرنسيون دمشق بالقنابل أثناء الثورة السورية فهدموا قسماً كبيراً من الميدان ومن زقاق سيدي عامود الذي كان يسكن فيه الأستاذ شفيق شبيب الموسيقي المشهور وعازف العود البارع، وقد احترق بيته في الحي المذكور واحترق عوده مع ما احترق من أثاث البيت وتساءل أحدهم: على أي شيء سوف يدق الأستاذ شبيب؟ فقال له عادل: سوف يدق على صدره، ودق الصدر كما لا يخفى علامة التفجّع والحزن. وأخوال عادل هم آل الأسير العائلة العريقة في بيروت، وقد ناله بعض الميراث بعد موت خاله فذهب إلى بيروت ليستوفي ما له فلم يجد شيئاً، وعاد إلى دمشق وحين سألوه قال لهم: لم أرث شيئاً، فقيل له: كيف هذا، وعلى أي مذهب اقتسموا الميراث: فقال لهم: على مذهب: شيلو لب، وهذا المصطلح لا أعرف أصله ولكنه يعني: على مذهب البلع. لقد كان عادل يسين تحفة من التحف، وقد مات باكراً إلى رحمة الله.

ابراهيم نصري: كان طويل القامة شديد السمرة حتى لقبه أصحابه «الحنش» لسواده وطوله، وكان موظفاً في وظيفة بسيطة في المجلس النيابي، وكان موظفو المجلس كبارهم وصغارهم يمازحونه حين يرونه فتكون له حكايات طريفة. روى أنه لما توفي والده وكان يسكن طابقاً ثانياً، فنظر من النافذة فرأى المشايخ الصغار المرتزقة مجتمعين لتناول ما يجاد عليهم به من قبل أهل المتوفى، ورجع ابراهيم وصبر ردحاً من الزمن وأطل مرة أخرى من النافذة فوجد المشايخ في مكانهم مصرين على البقاء، وهكذا أطل مرات عديدة إلى أن عيل صبره فناداهم: ماذا تريدون، إنه والدي وأنا أريد أن أجعله «قاورما»، والقاورما هي اللحم المجفف المعروف(*). ودعي إلى «الجربا» قرية البارودي، وهناك اختلف مع حسني تللو وكادا يتضاربان، ووقف حسني وراء البارودي محتمياً به وقال له: أأنت تتهجم عليّ، يا شقفة شحاذ، وثار ابراهيم يرد عليه ويقول: أنا شقفة شحاذ؟ أي لست شحاذاً كاملاً وهمّ يريد أن يضرب حسني تللو إلى أن أجرى المصالحة فخري بك وحسم النزاع، ونظر إليه فرحان سكر ـ رحمه الله ـ وهو يتحدث إليه فقال له: قم يا ابراهيم طوّق هذه الشجرة ونم قليلاً وهو يعني لقبه «الحنش»، والحنش حين ينام يطوق المكان الذي يستريح فيه.

(*) تسمى في دمشق: البسطرما.

واحتاج فخري البارودي أن يقترض بعض المال من أجل عمل له في دار الحكومة، فسأل إبراهيم إذا كان لديه شيء من المال فقال إبراهيم: أنت تأمرنا يا أبا الحسن وأخرج محفظة وهو يقول له: أتريد تذكرة جلب أم تذكرة إحضار أم تذكرة توقيف، وكلها وسائل للسجن والعقوبة وضحك البارودي وانصرف.

علي الزركلي: وهذا ظريف آخر له مكانته لقد مر مسجل أرقام البيوت من قبل دائرة المالية فوجد أمام داره كمية من بذر الزيتون، فسجل الدار معصرة زيتون وحين الكشف تبين أنها دار علي الزركلي، وجن الزركلي وذهب إلى فخري بك ليقول صائحاً: أيستكثرون علي بذر الزيتون ماذا يريدون أن آكل؟

ومن الظرفاء الشباب الذين عرفتهم في شبابي هشام الميداني الذي يجيد الحديث ويجذبك إليه بما يصوره من قصص، وكذلك قريبه غسان الألشي الذي سأله عن والده أحد رفاق والده فقال له لقد توفي إلى رحمة الله، ويبدو أن الرجل نسي ما قال له غسان أول مرة فسأله ثانية: كيف الوالد؟ وأجابه غسان: إنه ما زال متوفياً. وكنا عند فخري البارودي وكان الطعام من «المجدرة البارودي» كما كان يسميها ـ رحمه الله ـ وإلى جانب المجردة كان صحن فيه قليل من «اليبرق» واستذوق غسان اليبرق وانهال عليه أكلاً وبلعاً ولما رآني أرمقه شزراً قال لي: كل هذه إنها خفيفة، فقلت له: أهي خفيفة أم يدك؟ وغسان الألشي له جولات في عالم الظرف والنكتة وهو مشهور معترف له بهذا، وكذلك هشام الميداني قريبه.

بدأت الموسيقى في دمشق وسوريا كلها مع أبي خليل القباني الذي توفي عام /١٩٠١/، وقد أوجد هذا الرجل مدرسة موسيقية وتمثيلية وغنائية ومن مخلفاته عمر الجراح ومحمد الجراح وقد عرفهما فخري البارودي وحدثنا عنهما، فالأول، عمر كان عازفاً على القانون وكان مبدعاً في عزفه كما كان يعزف بلا عرب، أعني هذه القطع المعدنية التي تركب فوق الأوتار لتقصيرها وتطويلها وبحسب ذلك يتغير النغم، وكان يكتفي «بالتكبيس»، أي يجعل الأصابع هي التي تقصر وتطول الأوتار لتغير النغم وهذه هي الطريقة القديمة التي كان يعزف عليها العقاد الكبير في مصر الذي كان يرافق عبده الحامولي والشيخ يوسف المنيلاوي وغيرهما من كبار المطربين، ويعزف على قانونه على الطريقة التي وصفتها لك آنفاً، أما محمد الجراح فكان عازفاً على العود، والاثنان كانا رائعين عظيمين في عزفهما كما حدثنا البارودي، وهو ثقة في هذا الموضوع.

عازف الناي تحسين: رأيته ولم أسمع عزفه، ولكن فخري البارودي أخبرني عنه بأنه أعجوبة من الأعاجيب في العزف على الناي، فهو يمسك الناي ذا العيون الست أي المسمى «الستاوي» وهناك طبعاً السبعاوي، ثم أكثر فأكثر حسب عدد الثقوب، وتحسين هذا من أصل تركي وكان يتحدث مع السيد البارودي باللغة التركية، وهو من العائلات التركية التي عمل جدها في هذه البلدة واستقر فيها، وكان شرطياً مدنياً، فإذا عزف أقام الناس وأقعدها وهو عدا إتقانه العزف، مصور في عزفه، والمصور في الموسيقي يعني أن لكل نغمة مساراً على العود والكمان أو الناي، فالبيات مثلاً يتركز على وتر الدوكا، إذا كان بياتاً من نوع الدوكا، ولكن المصور يعطي البيات الدوكا وإنما على الوتر الراست أو على اليكاه، يعني أنه يعطيك النغمة من أي محل أراد على آلته دون أن يتقيد بالأصل وهذا أهم شيء عند العازفين، وكان معروفاً ببراعته، نقل مرة في عمله إلى مخفر القدم وأراد الذهاب فحمل نايه الصغير واجتاز محطة الحجاز ثم مشى بحذاء السكة الحديد، وعلى هذه السكة كان يجلس الكثير من أهالي باب السريجة وقبر عاتكة والشويكة وباب المصلى والميدان، يسمرون وربما شربوا وغنوا وعزفوا، وحين مرّ تحسين رآته جماعة من هؤلاء فأمسكوا به وجلس إليهم يعزف لهم، وانتقل من جماعة إلى أخرى، فظل خمسة أيام حتى وصل إلى المخفر الذي أرسل إليه. لقد كان عازفاً عبقرياً، ولقد وصف «العقاد» الكاتب، الناي بأبيات لا مثيل لها قال في بيت منها:

كان هذا الهواء طلقاً فلما سجنوه أفضى ببث أنينه

شفيق شبيب: كان شفيق شبيب موظفاً كبيراً في المصالح العقارية، إذ كانَ مفتشاً وهو من عائلة قديمة فيها الأثرياء وفيها الفقراء، كان طوالاً في الرجال صغير العينين يضع النظارة السميكة ويخترع بعض النكات التي اشتهر بها، كان صديقه أحمد كرد علي فكانا يقضيان الليل سواء، وقد حدثني وهو يستغفر الله على ما بدا منه أنه كثيراً ما كان يجلس على طاولة في مطعم هو وصديقه كرد علي فيرى أحد المتأنقين وقد عنى ببزته عناية فائقة، فكان يأخذ بإصبعه قليلاً من «المتبّل» أو الحمص، وينقفها فتقع على ظهر لابس البزة فتترك أثراً من الزيت مضحكاً، ويضحك هو وصديقه، وكنت أقول له: ولِمَ هذا الأذى؟ فيقول لي، ذلك طبع الشباب ـ غفر الله لنا ـ وكانت أحواله جيدة كما يقال، فهو الذي باع بيته إلى فخري بك وكان على طريق الربوة وهو البيت الذي تهدم بالتنظيم كما أعتقد، وكان بيتاً ريفياً جميلاً، وقد انتقل فخري بك بعد هذا البيت إلى البيت الذي توفي فيه في حي ركن الدين. كان شفيق شبيب عازفاً على العود من الدرجة الأولى وله أسطوانات مسجلة قديمة، ولكني لم أسمعه لأنه كان قد أضرب عن العزف لسبب عقائدي عجيب، فقد زار دمشق في يوم من أيام العشرينات عالم ديني هندي هو ممثل السيد أحمد القادياني، وقد جلس كما أظن في الجامع الأموي يعطي بعض الدروس التي رأى فيها المشايخ والعلماء

خروجاً على الدين فجادلوه وجادلهم، ولكن بعض الذين استمعوا إليه مالوا إلى الاعتقاد بما يقول، ومن بين هؤلاء شفيق شبيب، فكان مذهبه «القادياني»، وقد ترك الموسيقى على إثر هذه الحادثة، ولكنه تسلم فيما بعد الإشراف على دائرة الموسيقى في الإذاعة السورية وقد أحسن عملاً في ذلك، فهو الذي اكتشف الكثيرين من المغنين والموسيقيين والعازفين، من مثل الرحابنة وفيروز ووديع الصافي وفائزة أحمد وسعاد محمد. ولشفيق شبيب معزوفات محفوظة تعزف إلى اليوم ومن بينها معزوفة من نغمة «النهوند» المشهورة. وقد اختير فيما مضى عضواً في الوفد السوري الذي شارك في أبحاث مؤتمر الموسيقى الذي عقد في القاهرة عام ١٩٣٢ والذي أشرف عليه البارون «دورلنجر» المستشرق المختص بالموسيقى الشرقية وكان رفيقه في هذه الرحلة عازف الكمان الشهير توفيق الصباغ وقد كانت بينهما لقاءات وفكاهات كثيرة رويت عنهما. وسكن شفيق، وكنيته «أبو طريف» في أيامه الأخيرة في الزبداني، وقد زرته هناك وتحدثنا عن الذكريات القديمة والحديثة ولم أعد أسمع به إلا لماماً بعد هذا اللقاء، فكنت ألقاه في الطريق فنقف ملياً ونضحك ونروي بعض ما كنا نحفظ من أضاحيك. ثم مات الرجل ولم أعلم بموته إلا بعد مدة وقد تجاوز الثمانين كما أعتقد، رحمه الله.

توفيق الصباغ: هذا الرجل من أعظم العازفين على آلة الكمان في الشرق، ولهذه الآلة سلسلة من عباقرة العازفين أولهم: إبراهيم سهلون وكان يهودياً ويرافق عبده الحامولي في سهراته وحفلات غنائه، وجاء بعد هذا أنطون الشوّا، ثمّ ولده سامي الشوا وهما حلبيان من حي «الهزازة»، كما روى لي المرحوم مجدي العقيلي مؤلف الموسيقى المعروف، وتوفيق الصباغ مسيحي من طائفة الروم الكاثوليك، وكان والده عازفاً مشهوراً على القانون كما حدثني هو في أخريات أيامه، كانت أصبع توفيق الصباغ آية في البراعة والإيحاء الموسيقي، ولقد سمعته مرة وهو يعزف فأيقنت أنه يستحق من التقدير أكثر مما ناله بكثير، وقد روى لي أنه لم يكن يعترف لسامي الشوا بالقدرة على العزف وأنه تحداه مرة فعزف قطعة موسيقية على وتر واحد، وقام سامي بعده فعزفها على الأوتار كاملة، وسأل الحاضرين أي العزفين أفضل؟ فكان الرأي مع سامي الشوا، وأنا من الذين يؤيدون فكرة الشوا في هذا، فالعزف مهما كان العازف بارعاً لا يمكن أن يعطي النتيجة الكافية في وتر واحد وهذه من باب البهلوانية غير المقبولة في عالم الفن، ولكن الصباغ وقد لازمته مدة طويلة لم يذكر لي هذه الحادثة ويبدو أنها مخترعة. وكان للصباغ فضل انتشار تعليم «النوتة» أي العلامات الموسيقية، فقد كان العازفون يعزفون ما يريدون حفظاً، وربما أخطأوا الحفظ لأنهم لم يكونوا يعرفون قراءة العلامات وكان الصباغ من دعاة تعليم «النوتة»، وقد وفق إلى تعليم عدد كبير من العازفين هذه الطريقة من القراءة التي سهلت العمل وجعلت العازف يعزّف أية مقطوعة أراد من تدريب واحد أو اثنين بدلاً من أن يقضي أياماً في حفظها كما كانوا يصنعون في الماضي، كان الصباغ صاحب مزاج خاص عجيب فكان ينتفض ويغضب لأقل بادرة لا تعجبه، ولقد تحدثت عنه في حديث إذاعي أثنيت فيه عليه فكتب لي كتابين يشكرني فيهما وهما ما زالا محفوظين عندي، كما كان يعزف في إذاعة حلب إذ كان له فيها ركن خاص، وقد انتقل إلى دمشق ولم يكن له صديق فيها إلا حسني كنعان وكان أستاذاً في المعارف. ولهذا الرجل قصة مع آلة الكمان، فقد ظل يتدرب عليها أكثر من خمسين سنة ولكنه لم يتقدم في العزف قيد أنملة وظل عزفه خطأً إلى آخر حياته، وقد جلست وإياه مرة عند الأستاذ توفيق، وطلبت من الأستاذ حسني أن يرافقني على الكمان، وبدأت الغناء، فكان اتفاقنا من أجمل المصادفات إضحاكاً، وقد كاد توفيق الصباغ يقع عن كرسيه لكثرة ما ضحك، وهذه حال لم تصادف إلا نادراً، فالصباغ كان قليل الضحك، ولكنه كان طيباً يتحدث دائماً وحديثه مفيد، ولكن الناس من الثقلاء كانوا يثيرونه فلا يستطيع التحمل، وللصباغ تساجيل كثيرة في الإذاعة، وله مؤلفات موسيقية مسجلة على اسمه من سماعيات وبشارف وغير ذلك، كما أن له كتباً في الموسيقى، لقد انتقل إلى دمشق مع شقيقتيه اللتين لم تتزوجا، أما هو فقد تزوج وخلف ولداً ولكنه مات وهو صغير، وكان موت هذا الولد من أسباب نقمته على الحياة كما كان سبباً في قلب حياته من المرح إلى الضجر والملل، وبينما كان سائراً في بهو بيته وقع ميتاً لا حراك فيه ـ رحمه الله ـ وقد شاركت في حفل تأبينه في مسرح أبي خليل القباني بدمشق، وأنشدت فيه قصيدة ما

زالت محفوظة عندي، وكان الحفل برعاية وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ومن الواضح ان توفيق الصباغ يحب أن يذكر مع النوابغ الذين أجادوا العزف على الكمان في كل البلدان العربية، هذا الرجل الذي شارك في العزف حين كان في القاهرة التي عاش فيها ردحاً من الزمن، لقد شارك كبار المغنين من مثل محمد السبع وأحمد جابر والشيخ يوسف والصفتي وغيرهما، وكان مكانه محفوظاً ومحترماً وقد تجاوز الستين من عمره على ما أظن.

سامي الشوا: هذا أيضاً أشهر عازف كمان عرف في عصرنا هذا، أي منذ مطلع هذا القرن وحتى الأربعينات منه، لقد عزف مع عبده الحامولي الذي توفي عام ١٩٠١ وكان عمره أربع عشرة سنة كما حدثني هو يوم استقبلناه في حمص باسم نادي دوحة المياس، والده أنطون الشوا وجده سليمان الشوا، وكلهم من أهل الفن الذين نزحوا من حلب إلى مصر، ولقد رافق سامي الشوا كل المغنين الذين عاشوا وغنوا في مصر منذ الحامولي إلى أن نصل إلى ابراهيم حمودة وعبد الغني السيد من المطربين المعاصرين، وكان موهوباً في عزفه القوي، وكان أشهر ما فيه إتقانه مرافقة المغني، وهو يعرف كيف «يحاسب» له منذ أن يفتح فاه بالغناء، كان ميالاً إلى القصر ممتلىء الجسم، ذا عينين كبيرتين كبراً يقرب من الجحوظ، ومما هو عجيب عند هذا الرجل ومما يدل أيضاً على براعته، أنه لو عزف بين أربعين آلة موسيقية لبدا وكأنه وحيد بينهم فكمانه ظاهر لا يعوقه عازف آخر. سمعته أول مرة في مدرج الجامعة السورية في الثلاثينات مع أحد النوادي الموسيقية، ولقد لفتني بإعجازه في العزف، وما زلت إلى اليوم اعتبره أكبر عازف استطاع أن يرافق الغناء في هذا العصر، ويوم استقبلناه في القطار بحمص في الثلاثينات أيضاً حدثني أنه عزف مرة لأم المحسنين أم الخديوي عباس، فسالت الدموع من عينيها وأعطته خاتماً من الماس ثميناً، وكان يمتدح الحمولي وقد قلده لي كيف كان يغني واعتذر لي لأن صوته لا يطاوعه، كما كان معجباً بأبي العلا محمد الذي درب أم كلثوم والذي كان أستاذ الغناء في القصيدة الشعرية، قال سامي الشوا: كان أبو العلا يأتي إلينا ونكون نحن جاهزين للتسجيل في شركات الأسطوانات، ونسأله ما الذي يريد أن نعزفه فيقول: اللي يفتح الله به، ثم يقول: اعزفوا مقدمة من نغمة السيكاه مثلاً فنعزف ويبدأ يغني إلى آخر الأسطوانة ارتجالاً دون أي استعداد أو تحضير. ولكنه كان يحمل على عبد الوهاب ويتهمه بأنه أساء إلى الغناء، وقد عللت هذا بأن سامي كان العازف الأول المرافق لعبد الوهاب وخاصة في مواويله الشهيرة مثل: «اللي انكتب على الجبين»، أو: «اللي راح راح يا قلبي»، ولكن عبد الوهاب بما عرف من ذكاء خطير، ترك سامي واصطحب عازف الكمان الآخر جميل عويس الحلبي الأصل أيضاً، مع أن الفرق بينهما بعيد، فسامي موهوب في العزف، وذاك أي «عويس» ضعيف في العزف ولكنه عالم بالموسيقى، فهو الذي سجل كل أغاني سيد درويش بالنوتة وهو الذي عاون عبد الوهاب في كل ما غناه وسجله له وصنع له السماعي «النوا اثر»، ولم يكن الشوا قديراً في «النوتة» وإن كان شارك منصور عوض المشتغل بالموسيقى في تدريس هذا الفن. ورأيت سامي الشوا حين جاء إلى حمص في الثلاثينات وقد جاء معه عازف البيان الشهير كميل شمبير الحلبي أيضاً ومعهما مغن كانت له بعض الشهرة، كما كان له صوت جميل هو الشيخ احمد إدريس. وكان شيخاً معمماً ولكنه ذو صوت جميل، وقد سمعت لهذا الشيخ إسطوانات كانت ذات شهرة في يوم من الأيام منها.

عيون من السحر المبين تبين يغازلها العشاق وهي تخون

وقد غنى في حمص يومها دوراً من نغمة البيات معروفاً، كما غنى بعض القصائد، ولكنه لم ينجح، وعزف يومها سامي عزفاً عظيماً، وكذلك كميل شمبير الذي جيء له ببيانو من عائلة الحسيني بحمص، ويبدو أن البيان لم يكن صالحاً، فهجاه بموال مصري للفكاهة يومها، أيضاً سمعنا محمد عبد الكريم ليلتها وهو يغني بمفرده مع آلة البزق أغنية أم كلثوم الشهيرة:

إن حالي في هواها عجب أي عجب

ليس يرضيني رضاها ثم يشقيني الغضب

وسامي هو الذي اكتشف هذا العازف العبقري وقد اصطحبه معه إلى مصر يومها. وقد كانت من

عادة سامي الشوا أن يعمل مستقلاً، فإذا حضر كان هو رئيس الفرقة ومرجعها، ثم يحضر معه مغنياً من الدرجة الثانية أو الثالثة مثل إبراهيم حمودة الذي شارك أم كلثوم في أحد أفلامها وعبد الغني السيد والشيخ أحمد إدريس وأمين حسنين وأمثال هؤلاء، لأنه أقلع عن مصاحبة المغنين الكبار مثل عبد الوهاب وأم كلثوم وفتحية أحمد ومنيرة المهدية. ولقد حدثني عنه مجدي العقيلي ـ رحمه الله ـ فقال: لقد دعاني سامي الشوا إلى بيته في العمارة التي هي ملكه، وقد أغدق عليّ من الكرم ما لست أنساه، ومات سامي الشوا بعد أن قارب التسعين من العمر ولم يتزوج ولم يخلف وريثاً.

كميل شمبير: هذا فنان غريب الأطوار، انصرف إلى آلة «البيان» وبرع فيها براعة كبرى حتى لقد حاول أن يصلحها لتؤدي النغمات العربية الشرقية التي تعتمد على ربع الصوت والتي لا تعزف على البيان الذي صنعه «باخ» الموسيقى الألماني الشهير الذي جعل سلم البيان الموسيقي مقسماً إلى الواحد ونصف الواحد فقط، وألغى الربع المعروف في الموسيقى الشرقية، لذلك فالبيان الغربي لا تظهر فيه نغمة البيات والسيكا مثلاً لأن هذه تعتمد على الربع، إلا أن كميل شمبير استطاع أن يعزف نغمة الحجاز وغيرها من نغمات «الربع» لأنه أدخل على البيان تعديلاً خاصاً مكّنه من استعماله شرقياً، وكميل شمبير كان ملحناً أيضاً وله الأغنية الشهيرة التي رددها المغنون جميعاً وهي:

نويت أسيبك خلص نويت... إلخ

وله ألحان كثيرة غيرها لم تنتقل إلينا من مصر، حيث كان يعمل في الفرق التمثيلية مثل فرقة الكسار وعكاشه وعبد الرحمن رشدي، وهو معاصر لسيد درويش ولعله كان صديقاً له، وربما شاركه في عزف بعض أغانيه لأن سيد درويش كان يستعمل البيان في أكثر معزوفاته وكان عازفه الشهير يوناني الأصل هو «سلفاتوري» الذي انتقل بعد موت درويش إلى سوريا. ولقد أدمن كميل شمبير المخدرات، كما حدثني المرحوم البارودي، حتى أنهكه ذلك، ومات في دمشق وشيعه البارودي نفسه مع عدد من أصحابه، وقد رأيت له صورة عنده وهو مسجّى في فراش الموت ـ رحمه الله ـ وكميل شمبير حلبي أيضاً، ومن طائفة الروم الكاثوليك أيضاً، وكان له أخ اسمه فاضل شمبير عمل ترجماناً في سوريا وكان عازفاً بارعاً على العود.

آلة العود: ثلاثة من عازفي آلة العود لا أنساهم أبداً هم: صليبا القطريب وعمر النقشبندي وجميل بشير شقيق منير بشير العازف المجدد الآخر.

أما صليبا فهو طرابلسي الأصل وهو خال عائلة «البندلي» الموسيقية المعروفة، وقد نشأ عازفاً على والده نخلة القطريب من طرابلس، ولكن والده كان متجولاً كما يبدو، فقد كان يرافق بعض الفرق الموسيقية، وقد أقام في حماه مدة يسهر عند وجهاء العائلات من عظمية وبرازية وكيلانية وغير ذلك، وكان صديقاً لعبده آغا البرازي شقيق نجيب آغا البرازي الوجيه المعروف، وتعلم صليبا العود وهو طفل بعد، ونبغ فعلاً منذ صغره ولعله أسرع عازف في ضربات الريشة مع إتقان في تأدية النغمات، وكان صوته مقبولاً مسموعاً وقد شارك الكثيرين من المغنين المصريين الذين كانوا يفدون إلى سوريا ولبنان وفلسطين في مطلع هذا القرن فقد رأيته مع فتحية أحمد كما عزف مع محمد عبد الوهاب في فيلمه «دموع الحب» وبخاصة مقطوعته المفرنجة «التانجو» «سهرت منه الليالي» التي كانت من نظم حسين شوقي ابن أحمد شوقي أمير الشعراء، ثم سافر صليبا إلى العراق حيث عاش زمناً طويلاً يشارك في العزف والغناء ودار الإذاعة، وقد عرفته في طرابلس في قصة مضحكة: كنت في طرابلس أسير ليلاً مع صديقي الأمير خالد الشهابي القاضي المعروف ـ رحمه الله ـ فصعدنا إلى مقصف يسمى «البروكة»، وحين وصلنا إلى السطح الذي اتخذ مقصفاً، رأينا في آخر السطح ضوءاً خافتاً وقد اجتمع حوله جماعة يسمرون ويشربون ومعهم رجل هرم يعزف على العود عزفاً لم يكن جيداً فلم نهتم، لأن العزف لم يعجبني وبعد قليل رأيت شاباً يخطف العود من الشيخ ويبدأ بالعزف عزفاً عجيباً وسمعته يغني بصوت مقبول مسموع، أغنية مشهورة للمطربة الكفيفة سكينة حسن وهي التي تقول:

لست أنسى الأحباب ما دمت حياً ... مذ نأوا في الهوى مكاناً قصيا

وتَلَوا آيةَ الوداع فخرّوا خيفةَ الهجر سجّداً وبُكيّا

والقصيدة كما هو ظاهر قد استعارت قوافيها كلها من سورة «مريم» من القرآن الكريم، وكانت نغمة الأغنية من «الصّبا» ، ولم نستطع الاحتمال فحملنا طاولتنا وانتقلنا إلى طاولة الجماعة واعتذرنا لهم عن هذه المفاجأة بأننا «سمّيعة» من حمص وقد رحبوا بنا، وكان بين الحاضرين شاب من آل الرفاعي وهي عائلة معروفة في طرابلس، وآخر من آل كرامي العائلة الشهيرة أيضاً، وامتدت السهرة فما كان مني إلا أن قلت للعازف وبكل شدة وثقة، قسّم لي من نغمة البيات إذا أردت وابتسم الرجل وأجاب، وبدأ يقسم لي وكأنه خدع بي كما قدرت، وغنيت هذا الموال الذي حفظته عن المطربة الكبيرة فتحية أحمد وهو يقول:

يا جنة الملتقى مين فات سأل عنا ومين عطف بعدنا عَ الورد ياجنة

اللي نساك انتسى واللي جنى اتهنا أنا اللي طبيعي الوفا ما اقدرش أنساك

امتى تعودي وننسى ما جرى بينّا

وقلت بعد الليالي الموال، ولا أدري كيف كان التأثير الغريب، وبعد أن انتهيت سمعت أحد الحاضرين يناديه قائلاً: يا أستاذ صليبا؟ وقمت واقفاً أسأله عن اسمه، ولما علمت الحقيقة ركضت إليه أصافحه وأعتذر، فقد كان صليبا الشهير جداً والذي لا يجرؤ على الغناء معه إلا فحول الغناء، وانتهت تلك الليلة عند طلوع الفجر. لقد اشتهر صليبا بسرعة العزف هذه السرعة التي لا تجارى مع ضبط في الريشة وكل ما يلزم، لقد كان من أشهر العازفين الذين عرفوا في البلاد العربية، وقد توفي كما أظن من سنوات قليلة، رحمه الله.

أما جميل بشير: فهو عراقي من الموصل وسرياني الأصل، وشقيقه منير بشير وكلاهما عازف على العود، ولكن هناك فرقاً بين الاثنين، فجميل يعزف للتطريب ومنير يعزف ليجدد، وجميل أقدر وموهبته أكبر، وعزف العود يستند إلى شيئين: الجس في الأصابع على زند العود والضرب بالريشة على الأوتار في صدر العود، وجميل أفضل من أخيه في كلا الناحيتين وإن تفلسف منير أخوه وغيّر وبدّل في العود، ومن الملاحظ أن الكثيرين حاولوا إصلاح العود بإضافة أشياء له أو اختصار في شكله أو تغيير في الشكل والقالب، ولكن كل هذه لم تؤد إلى تغيير حقيقي، وظل العود كما عرفناه وعرفه أجدادنا. عرفني بالأستاذ جميل بشير ـ وأظنه مات إلى رحمة الله ـ السيد منير العمادي صديقي الحلبي الوطني المعروف الذي كان في يوم من الأيام الساعد الأيمن للسيد سعد الله الجابري، لقد عرفني بجميل بشير وأسمعني عزفه الذي شد ذهني وأعجبني إعجاباً كبيراً، فهو مطرب إلى أبعد الحدود ويمكن أن يعتبر العازف الكامل إلا أن فيه نقصاً لم يكن يخطر على بالي، وهو أن هذا العازف النابغة القدير لا يتمكن من متابعة المغنين أو المحاسبة إذا غنى أحدهم، والمحاسبة هي إعادة الغناء عزفاً فإذا أردت أن تسمع جميل بشير فاسمع تقاسيمه التي لا تقلد ولا يستطيع أحد أن يصنع خيراً منها، أما أخوه منير فقد شغل بالتجديد فهو تارة يقلد الأوروبيين في معزوفاته، وطوراً يغير شكل العود، أما شرقياً فإن ريشته ثقيلة على الأوتار وعزفه بطيء وضربته على الوتر تترك ضجة تُسيء إلى الطرب.

النقشبندي: هذا أطرب عازف كنت أسمعه وأتغذى بعزفه خلال مدة طويلة أثناء إقامتي في حماه، فقد جاء زائراً إلى هذه المدينة وضيفاً على صاحبه النجار «خالد كلبون»، فظل فيها سبع سنوات يعزف في السهرات والحفلات، ويرافق الذاهبين إلى القرى ليعزف لهم، وعزف عمر هو العزف الكامل، ريشة مريحة واضحة رنانة وجس بالأصابع كجس الطبيب القادر للمريض و «محاسب» رائع يتبع المغني مهما أبعد ومهما أخطأ في غنائه فهو مصور أيضاً. إنه يصور لك النغم من أي مكان أردت يخرج العجم من محل السيكا ويخرج الراست من محل الكرد وهكذا دواليك فلا يعجزه شيء في العود، فهو يحوي السرعة والطراوة والخفة وحفظ كل المسافات اللازمة على الزند، ومن الممكن أن تقضي سهرة كاملة مع عمر النقشبندي دون أن تحتاج إلى مادة أخرى من غناء أو رقص أو عازفين آخرين، إنه جوقة كاملة يغني عن غيره غناءً كاملاً، سمعته أول مرة في مسرح مقهى اللونابارك القديم، وكانت يومها تمثيلية تقام في المسرح يخرجها عبد الوهاب أبو السعود الفنان الممثل المعروف، وقد غنى يومها عمر بين فصول الرواية وأذكر أنه

غنى في أول فترة وعلى عوده وحده قصيدة: «تلفتت ظبية الوادي»، وهي من كلمات أحمد شوقي في رواية مجنون ليلى ومن ألحان عبد الوهاب الجديدة في تلك الأيام (١٩٣٢)، ولقد قضيت أياماً طويلة وليالي أطول مع عمر النقشبندي، فكنت أسمع منه عزفاً يملأني طرباً ونشوة، وكان عمر ظريفاً يحب النكتة ويرويها، كما كان صوته مناسباً يستطيع أن يؤدي، وعمر من أسرة كردية الأصل وأهله من جماعة الفرقة الصوفية «النقشبندية»، كما تسمى عائلته «آل الحضرة»، ووالده صادق بك النقشبندي، وكان ضابطاً في الجيش التركي برتبة مقدم، كما عمل بعد الحرب العالمية الأولى أستاذاً في المدارس الثانوية لمادة التاريخ، كما كان فاحصاً في البكالوريا لهذه المادة. لقد سمعته كثيراً ولا انسى عزفه في ليلة من ليالي البارودي، وكان هو ومحمد العقاد عازف القانون المصري وعازف البزق الشهير محمد عبد الكريم، وقد عزف الثلاثة ما يسمى «تحميلة»، وهو عزف دوري لكل واحد منهم دور، ثم العودة إلى قطعة تعزف سوية. وقد كان من دواعي سروري أن فخري بك كان يمسك الطبلة وكنت أمسك الدف لضبط الإيقاع، ولا أنسى أيضاً الليالي التي قضيناها عند البارودي، يوم كان ضيفه الأمير فهد السالم الصباح الكويتي، وكانت المطربة ماري جبران ذات الصوت العجيب مع فرقة الإذاعة الكاملة، كما أذكر ليالي حماه يوم استأجرنا بيتاً للسهر في شتاء عام ١٩٥٠ وقبل انتقالي إلى دمشق، تلك كانت من ليالي العمر، وكان عمر يعزف على عود صغير جداً لا يكاد يتجاوز طوله ثلاثين سنتمتراً صنعه له خالد كلبون الفنان وصانع الأعواد الذي لم يسبقه في صناعته وإتقانه أحد. وما يعاب على عمر ـ رحمه الله ـ أنه كان قليل العناية بهندامه زاهداً بالأناقة زهداً يلفت النظر، وعندي أن من حق الفنان أن يكون أنيقاً كما يفعل عبد الوهاب، وكما كانت أم كلثوم ومنيرة المهدية التي كانت تشتري ملابسها بآلاف الجنيهات، ومن أشهر معزوفات عمر رقصة «ستّي» التي لم يستطع تقليده فيها عازف من العازفين.

الحلواني: هذا عازف يستحق الشفقة، فقير مهلهل الثياب سميك النظارة، كان يعمل في المسارح الفقيرة وكان مكثراً من الشراب حتى لم يكن يستطع الإفصاح عما يريد، أما عزفه فصورة مصغرة عن النقشبندي، مع الفارق البعيد بينهما، وعزفه لا بأس به ولكنه رخو شديد الليونة، لا يشكل طرباً إلا في بعض فترات عزفه. كان يحفظ الكثير من الأغاني، وكان كثير السؤال عن تاريخ الغناء لكنه لم يكن يعي لشيء من هذا لانشغاله بنفسه عما سواه، وله اليوم ولد من العازفين المعروفين في الإذاعة.

محمد العاقل: هذا إنسان نابغة ولكنه أضاع نفسه لا أدري بأي شيء! كان صوته جميلاً وكان عازفاً على البزق، وكان من خيرة ضابطي الإيقاع، وقد اكتفى بهذه المهمة ـ ضبط الإيقاع ـ على الطبلة والدف وترك مواهبه الأخرى فلم يستعملها إلا نادراً، وفي المزاح وفي الليالي الخاصة التي كان يسر بها، كان دمه خفيفاً وغناؤه رائعاً إذا صرخ في الموالات التي كان يغنيها بين حين وآخر، ولو عمل مغنياً لبزّ المغنين الذين عاصروه جميعاً. وكان شعره خفيفاً جداً بسبب مرض أصاب رأسه في صغره فكان يلبس الطربوش ولا يكاد ينزعه عن رأسه، وكان وهو يرافق المطربات والمطربين ضابطاً للإيقاع يغني بعض المواويل فيعجب الناس بصوته القوي الملآن طرباً وشجناً، ثم يرشف من سيكارته دخاناً يختزنه في صدره ويخرجه قليلاً قليلاً مما يسلي الحاضرين، ويعجبون لما يصنع، وكان محمد العاقل من خيرة صانعي الأحذية في دمشق وأذكر أن السيد البارودي لم يكن يلبس إلا من صنعه. وهكذا يذهب الكثير من الفنانين دون أن يؤدوا مهمتهم القادرين عليها لأسباب لا تكشف في حال حياتهم وقد يكشفها الزمن بعد وفاتهم.

عثمان قطريه: هذا فنان من أسرة فنية فهو عازف قانون، وأخوه صاحب صوت جميل، وابن عمه عازف عود معروف، أما عثمان فقد امتهن صناعة «الخياطة» وبرع بها، ثم ترك هذه المهنة ليعمل تاجراً عادياً في دكانه التي كانت دكاناً للخياطة، وعثمان كان شاباً من أجمل الشباب خلقاً وشكلاً وقد امتاز بحلاوة عزفه وبأصابعه الحلوة على القانون، ولو أنه لم ينصرف تماماً للفن، والأصابع عند مصنفي الموسيقى قسمان: قسم أصابع حلوة، وقسم أصابع مالحة وهي التي لا تعطي الطرب اللازم لخشونة فيها، وكان عثمان عضواً في أكثر النوادي التي أسست في دمشق كما كان دائماً عازف القانون الأول،

ولكني أرى أنه دون عازفي القانون المصريين المحترمين، وأن عثمان لم ينصرف إلى آلته انصرافاً كلياً يمكنه من إتقانها إتقاناً تاماً، وأن من أسباب نجاح العازف أن يرافق المغنين الكبار حتى يبرع في العزف وعثمان اقتصر في عزفه على بعض السهرات الخاصة وهذا لا يكفي. وعثمان صديق لي وجار، وهو من مواليد /١٩١٠/ كما أعتقد، ولكنه ما زال محتفظاً بشبابه وأناقته وابتسامته الهادئة الرزينة.

نصوح الكيلاني: هذا رفيق لعثمان قطرية ولكنه عازف كمان، وقد برع بهذه الآلة أيضاً حتى عد بين الدمشقيين الأول، وكان موظفاً كبيراً في رئاسة ديوان محكمة التمييز «النقض»، وأعتقد أنه نسب لأمه فسمي «الكيلاني»، وهو كما أظن من عائلة أخرى، وكان رفيقاً لعثمان في النوادي والسهرات.

رجب خُلْقي: هذا رجل كان موظفاً في «سكة الحديد»، وكان يعزف على القانون، وقد سمعته أكثر من مرة ولكنه لم يطربني فقد ظلت يده قاصرة عن الطرب، وعازف القانون ينبغي أن تتلامح يداه كالبرق على أوتار الآلة، أما البطء وخاصة في القانون فيحول دون التطريب والقدرة الفنية. ولكنه كان يرافق المغنين، كما كان صديقاً لنجيب زين الدين مغني حمص العبقري، ولقد أدمن رجب الشراب مدة طويلة في حياته كلها وهو من أصل تركي كما يدل على ذلك اسمه. وعلى كل فإن آلة القانون كانت آلة ثانوية في سورية، فلم يبرع فيها أحد البراعة التي عرفناها عند المصريين من مثل القضابي والعريان وعبده صالح. ولقد نشأ في هذه الأيام عازفون على القانون توصلوا إلى نتيجة حسنة في حلب ودمشق، ومنهم من يعمل في الإذاعة السورية مثل سليم سروة والجارور وعدنان الجارور وهو شقيق عازف الكمان الناجح وأدناهم مرتبة في العزف أمين الخيّاط الذي ما تزال يداه متصلبتين لم تكتسبا الليونة المطلوبة للعازفين.

يحيى السعودي: هذا رجل من أصل فلسطيني وقد تدرب على الغناء والعزف على العود منذ زمن مديد في الإذاعات الفلسطينية «الشرق الأدنى والقدس»، التي أسست في الحرب العالمية الثانية للدعاية للحلفاء. أما أصله، كما حدثني هو، فصانع أحذية ثم قادته موهبته إلى الغناء، وعزف العود ثم التلحين ودراسة العلامات الموسيقية «النوتة»، وفي رأيي أنه بقي محدوداً لم يصل إلى المرتبة التي يصل إليها النوابغ، فقد كان صوته جافاً وكان عوده وسطاً. سمعت يحيى السعودي أول مرة في حمص وفي الثلاثينات وقد جاء هو وعمر الزعني ناظم وملحن الأغاني السياسية المعروفة القديمة ومنها: «حاسب يا فرنك»، و «على الهوب الهوب»، «قوم تفرج آه يا سلام»،... الخ، ورافقهما إيليا بيضا صاحب الصوت العظيم، وأبو المواويل التي لا تجارى وأول من غنى أغنية: «يا رتني طير لأطير حواليك» ثم غناها بعده فريد الأطرش، وقد غنى الثلاثة في مقهى الروضة بحمص فكان استعراضاً غنائياً أكثر منه غناءً للطرب، ولاحظنا يومئذ أن صوت السعودي يمكن الاستفادة منه في التلحين وتعليم الغناء، لا في الطرب لأنه تنقصه صفات كثيرة، وقد لحن لي أغنية أعطيتها لماري جبران حول فلسطين في الخمسينات وهي التي تقول:

يا فلسطين يا أعز بلاد... إلخ

وشاركته في بعض البرامج التي كنت أقدمها على الهواء بعنوان «مع الموسيقى العربية». كان طيب المعشر يحفظ الكثير من قصص المغنين والمطربين، وقد رافق الكثير منهم في رحلاته المتكررة إلى مصر، وكانت لنا معه جلسات كثيرة عند فخري البارودي.

ماري جبران: هذه مطربة ندر أن يوجد مثلها في حلاوة صوتها وقوته في إجادتها الغناء إجادة تامة، ولو عددت ثلاثة أو أربعة أصوات إلى جانب أم كلثوم لعددت ماري جبران، فهي وفتحية أحمد ومنيرة المهدية وليلى مراد ووردة الجزائرية يمشين في وصف واحد وربما فاقت بعضهن. أصلها من فلسطين وكانت خالتها التي ربتها تعمل في التمثيل، ثم انتقلت إلى لبنان، ثم ذهبت إلى مصر وعادت إلى دمشق لتستقر فيها ولتغني في حلب أحياناً. كانت في شبابها جميلة جداً حتى أطلق عليها الناس اسم «ماري الجميلة»، إذ كانت بيضاء واسعة العينين متناسبة أعضاء الوجه والجسم، ولكنها كانت ذات طبع حاد، فهي عصبية المزاج لا تحتمل ما لا يوافقها أبداً حتى لقد أقدمت على ضرب موظف كبير في مصر مما أدى إلى إخراجها وعودتها إلى سوريا. واشتهرت ماري بسوء الحظ، فقد أصيبت بالسمنة المفرطة حتى لم تعد

تستطيع المشي وحتى أصبح أصحاب المسارح يرفضونها لأن شكلها أصبح مبعثاً للضحك رغم قدرتها الفنية وجمال صوتها. ومن سوء حظها أنها ذهبت إلى حمص وقد غنت ليلتين لفتت فيهما الأنظار وقبل أن تنتهي مدتها جاء محمد عبد الوهاب فاضطرت الى الانسحاب وجلست في مقصورة من المقهى تستمع إليه، وفي اليوم التالي عادت إلى دمشق. دعتنا مرة إلى بيتها وكنت أنا وشفيق شبيب ورجاء الشربجي، ومنذ دخولنا وقفت وراء الباب تشير إلينا أن لا نتكلم، واستغربنا ذلك ونحن آتون لنطرب، وإذا بجارتها المقابلة قد ماتت عصارى ذلك النهار وإذا بالكهرباء أيضاً مطفأة فجلسنا في الظلام الدامس إلا بعض شمعات وضعتهن لنرى طريقنا أو لير بعضنا بعضاً، وقضينا الليلة في أسوأ حال لا غناء ولا شيء يشبه الغناء.

كانت صاحبة صوت رائع، وكانت تحفظ الأدوار، ولكن موهبتها أكبر من علمها بكثير، فقد كان ينقصها أن تتصرف في الغناء فتنتقل من نغمة إلى أخرى، فهذا التصرف يجعل الغناء أكثر طرباً من التكرار والإعادة التي عرفناها عند عبد الحليم حافظ وأم كلثوم في أيامهما الأخيرة ولقد أحبها أناس كثيرون، ومن أصدقائها كان صديقنا المرحوم فرزة المملوك الذي ظل محسناً إليها حتى وفاتها. ومرضت ماري المرض الخبيث وانقطعت مواردها إلى أن ماتت في حال من التعاسة والفقر عجيبة، وقد شيعها الفنانون في دمشق وعلى رأسهم فخري البارودي الذي حفظ لها ذكرها فظل يبكي عليها إذا سمع غناءها إلى آخر حياته.

فايزة أحمد: يقال إن أصلها من بلدة صور وإنها من عائلة «الروّاس»، وهذه المعلومات أنقلها غير متأكد منها، أما كيف وصلت إلى دمشق فلا نعرف عن هذا الأمر شيئاً مؤكداً، ولكننا نعرف أنها كانت تعمل في صالات الغناء الفقيرة من مثل ملهى النصر أو الكواكب أو غير ذلك، ثم كنت أراها عند البارودي بعد أن صار لها دور في الإذاعة فقد اكتشفها لأول مرة صديقنا شفيق شبيب الذي قلت إنه كان مشرفاً على الموسيقى في دار الإذاعة السورية. كانت نحيفة وغير جميلة ولكن صوتها ناعم وفيه مادة الطرب ظاهرة، فإذا غنت أطربت وهي تغني وكأنها تحس بما تغني فيختلط غناؤها بالتمثيل الذي يزيد غناءها حلاوة، وقد أعجب بها المصريون لما وجدوه في صوتها من مادة الطرب التي لا توجد إلا نادراً، وكان هذا الإعجاب سبباً في انتقالها إلى مصر، وقد وفّقت في أغانيها الأولى فلفتت الأنظار إليها وأصبحت هي ووردة من مغنيات الدرجة الأولى مثل أغنية «يمّا القمر على الباب»، والأغنية الثانية: «أنا قلبي إليك ميال»، وأظن أن الاثنتين من ألحان محمد الموجي، ولكن فائزة أحبها كثيرون ولقد تزوجها شاب شامي من آل العابد وأولدها ولدين، كما تزوجت في مصر الملحن المعروف محمد سلطان، كما تزوجت غير هذين وأصيبت بالمرض الخبيث منذ سنوات وتوفيت في القاهرة، وقد رأيت محمد عبد الوهاب في باريس مرة وهو مهتم بها وبمرضها، وقد حاول الاتصال بها في الهاتف ولم يستطع وكان بالغ التأثر، فهو كان معجباً بصوتها، وقد لحن لها الاغنية الشهيرة «ست الحبايب يا حبيبة».

أم أحمد: هذه امرأة فاضلة، ومن أسرة كريمة، كانت فيما مضى من زمنها سيدة المجالس شكلاً وصوتاً وكرماً وذوقاً، كانت جميلة الشكل لدرجة السحر، وكان صوتها من أحلى الأصوات في عصرها وقد تعلمت العزف على العود وبلغت من ذلك مرتبة حسنة تستطيع بها أن تغني غناءً حسناً. وكان زوجها موظفاً بسيطاً ولكنه كان أبعد الناس عن عالم الطرب، لذلك كان موقفه في البيت موقف الحياد، وقد أصابته سيارة مجرمة فذهبت بحياته منذ سنوات، ولهذه المرأة الفنانة الفاضلة عدد من الأولاد وما زال بيتها مفتوحاً لرفيقاتها وللفنانين جميعاً، وهي كريمة إلى أبعد حدود الكرم ولكنها ليست غنية، ومع ذلك فإنها لا تبخل بشيء مما لديها تقدمه للضيف، وقد جمعتني المصادفة عندها بميادة الحناوي قبل أن تنتقل رسمياً إلى عالم الطرب والغناء في الأماكن العامة وكان يرافقها عازف جيد على العود حلبي الأصل من آل شبابي، وقد غنت وأعجبت بصوتها ولكني ولأول وهلة فضلت عليها أختها «فاتن»، لأن صوت فاتن أكمل وفيه عرض محبب وبحة وهي أكمل من بحة صوت ميادة، ولا أدري لماذا تركت الغناء ولم نعد نسمع لها شيئاً، وقد يكون الزواج هو الذي منعها من ذلك؛ كما سمعتها مرة أخرى تغني وتصاحبها سيدة حلبية أيضاً وهي تعزف جيداً على العود، بل لعلها المرأة الوحيدة التي أعجبت بعزفها، فما أعرف

من النساء عازفات برعن على هذه الآلة. وما زلت أزور أم أحمد التي تجاوزت اليوم السبعين من العمر فتحضر عودها وتحضر لي الدف ونغني سوية بعد أن فرغ هذا الزمان من الطرب والمطربين، وعند أم أحمد هذه سمعت مرة سيدة لبنانية نسيت اسمها مع أحداث لبنان، وكانت هذه المرأة صاحبة أجمل صوت سمعته في سوريا وقد كانت تغني أغنية أم كلثوم الشهيرة «سيرة الحب»، وهي من أولى ألحان بليغ حمدي لسيدة الغناء، وكانت هذه اللبنانية تجيد غناء هذه الأغنية بشكل غير معقول حتى أفضل سماعها منها بدلا من أم كلثوم. وما زالت أم أحمد الصديقة الوفية وما زال بيتها مفتوحاً للضيوف رغم أنها ليست غنية ولا متمولة ولكن حلاوة الاستقبال وبشاشة الوجه أمر طبيعي عند بعض الناس، وقد قيل قديماً: إن الكريم لطروب. لقد حرمت هذه الفنانة الغنى والحياة وحرمت أشياء كثيرة في الحياة، ولكنها تظل راضية قانعة بما قسم الله لها، مد الله في عمرها.

عازف الناي: هو أشهر عازف ناي اليوم في سوريا وكان البارودي يسمي هذه الآلة «ناي زان» وهو اسم فارسي كما أعتقد، وكان القدماء يستعيضون عنها بالزمر ولا أدري من أين جاء إلينا، ولكني أعرف أن الفلاحين والعوام والبدو أيضاً يستعملون هذه الآلة ويسمونها «القصبة» من أجل الدبكة والرقص البدوي في أفراحهم وأعراسهم. وعبد السلام سفر هو ما أريد الحديث عنه وهو الصديق الوفي المخلص لفخري البارودي ولأصدقاء البارودي، وقد كان كثير الزيارات لمجلس البارودي لما فيه من طرب ومجالس كان يفيد منها عبد السلام في تقوية فنه وزيادة خبرته. ولقد عرفته شاباً لم يتجاوز العشرين، ومع ذلك فقد كان يرافق المغنين والمغنيات، وقد رأيته لأول مرة مع ماري جبران، كما أذكر، وفي مقهى «القطة السوداء» القديم وقد ظهرت براعته منذ صغره وهو إلى اليوم أحسن عازف على الناي، كما أنه يعمل في التلحين أحياناً في المسرح العسكري، وأصل عبد السلام من منطقة الحفة المجاورة للاذقية، وهو خفيف الدم، ظريف يحب المزاح والضحك ويستعمل العود أحياناً إذا لم يجد آلته المفضلة، الناي، ولكنه ليس عازفاً على العود وإنما يستعمله لعدم وجود غيره.

وكان ينافسه في العزف بالإذاعة على آلة «الناي» عازف حمصي اسمه «الحلبية»، وكان قديراً أيضاً وقوي النَّفَس، والنفس أهم شيء في هذه الآلة، ولكني كنت أراه متصنّعاً أحياناً ومتكلفاً في أوضاعه حين يعزف، فهو يتمايل كثيراً وينحني على الناي حين يعزف ويفتح عينيه ويغمضهما، وكنت لا أحب هذه الحركات من الموسيقيين، ولقد نهرت مرة عمر النقشبندي - رحمه الله - حين رأيته يعزف على عوده الرائع وقد وضع يده معكوسة على الزند، أو مقلوبة ليجس الأوتار، وقلت له: أترك هذه البهلوانية وعد إلى طبيعة العزف فالطبيعة أفضل شيء، وقد قال الشاعر المتنبي، رحمه الله:

أحسن ما يطلب النجاح به الطبع   وعند التعمق الزلل

مثل هذا العازف عازف آخر أعرفه، وهو طلعت شيخ الأرض - رحمه الله - وكان يعزف على آلة القانون، ولكنه بدلاً من الأصابع المعدنية التي هي ريشة القانون كان يستعمل أحياناً قلم الرصاص ليظهر براعته فيضرب به على الأوتار ليخرج الصوت المطلوب، وقد وجدت هذه اللعبة سمجة وهي لا تؤدي الطرب الصحيح، وقد ذكّرتني هذه الحادثة كلاماً كان يقوله أحد ظرفاء حماه صالح بك العظم وكان موسيقياً، كان يقول: إذا أصلحت أوتار القانون جيداً وإذا مشت عليه فأرة فإنها تخرج النغم المطلوب، ومن ظرف هذا الرجل أنه دخل على قوم في المقهى فسلم وأجيب، ولكن واحداً من أصحاب الكآبة لم يهتم به، وكان كاتباً في المحكمة ويعزف على العود أحياناً، فأخرج صالح بك من جيبه ورقة كتب عليها ما يلي:

الناس على صدرهم قلم   وأنا على صدري اثنين
واحد لقبض السلف   واحد لقبض الدين
وحياة من زين استامبول بالمابين(*)   أنا أفندي ولكن ما معي قرشين

وألقى الورقة لصاحب العلاقة فقرأها وقام فاعتذر له، وبالفعل لقد كان هذا الرجل يضع في جيبه الخارجية عدداً من الأقلام المختلفة.

(*) المابين هو الديوان الملكي في الأستانة.

لم تكن تخطر على بالي أن أرحل من دمشق إلى خارج القطر السوري، فالرحلة تكلف مالاً لا أستطيع تأمينه أو تدبيره، لذلك لم أكن أفكر بهذا الأمر لولا المصادفة التي هيأت رحلات متعاقبة، حتى لقد رأيت أكثر البلاد العربية وعدداً لا بأس به من البلدان الأوروبية وكل ذلك عن طريق المصادفة، أما الرحلة الأولى فهي التي ذهبت فيها إلى بغداد والموصل وزرت الآثار العراقية المقدسة بدعوة من وزارة الإعلام العراقية، وقد فصلت وقائع هذه الرحلة في حديث خاص سيأتي بعد أن أتم الرحلات الفرعية التي لم تكن أدبية.

في عام /١٩٧٠/ وكانت آخر سنة من سنوات خدمتي في الوظيفة وفي مجمع اللغة العربية لأنني أحلت على المعاش في نهاية عام ١٩٧١ وقد بلغت خدمتي /٣٤/ سنة، في هذه السنة عين قريب لي من السلمية قنصلاً عاماً للجمهورية العربية السورية في استامبول، وكان أصلاً ضابطاً في الجيش وقد سعى فنقل نفسه من العسكرية إلى الخارجية دون أن يحمل شهادة في الحقوق أو السياسة أو الإدارة، وكل ما كان يحمله شهادة الكلية العسكرية في حمص، وهي شهادة لا علاقة لها بالدبلوماسية ولا الخارجية، وهناك تدبير اتخذ منذ أيام الوحدة بنقل الضباط الذين يشك في سلوكهم السياسي إلى السلك الخارجي، وكان من المفروض أن ينقلوا إلى سلك قريب من سلكهم مثل الأمن والداخلية والشرطة والإدارة المحلية مثلاً ليستفاد منهم. وجاء قريبي هذا وعرض عليّ أن أرافقه في رحلته إلى استامبول فقبلت على الفور لأن في استامبول ذكريات كثيرة عندي، وخطرت على بالي البلدة التي كنت فيها مع والدي يوم كان منفياً في تركيا وهي الحادثة التي أشرت إليها في مكان سالف من هذه المذكرات. وفي أوائل أيام شهر حزيران ١٩٧٠ استقليت السيارة الصغيرة «فولكسفاكن» مع قريبي السائق وسرنا على بركة الله، فتوقفنا قليلاً في حلب ثم اتجهنا إلى باب الهوى غرباً على طريق اسكندرون واجتزنا الحدود السورية بسهولة فقد كنا معروفين، ووصلنا إلى حدود تركيا وهناك توقفنا، وأخذ قريبي يتحدث مع الموظف التركي وجلست أنا أنتظر وأنتظر إلى أن مللت فصعدت لأرى أن خلافاً قائماً بين الموظف وقريبي، ووجدت ترجماناً يتوسط بينهما ويتصل بالاسكندرون طوراً وطوراً يعود ليتحدث مع الموظف ثم مع قريبي، وقد دامت هذه الأزمة أكثر من ساعتين رغم أن قريبي كما هو معروف من السلك الدبلوماسي الذي يجب أن تسهل مهمته، واتفق الاثنان على أن يذهب قريبي إلى الاسكندرون وهناك يسوي الخلاف الذي كان بسبب معاملة دخول سيارته إلى تركيا. وسرنا، وفي اسكندرون توقفنا من أجل المعاملة وخرجت أنا فجلست في المقهى أنتظر قضاء الله في هذه الرحلة التي بدأت بداءة غير مطمئنة، وأنا بطبعي كثير الحسابات كثير التشاؤم أؤوّل الأمور تأويلاً سيئاً في غالب الأحيان، ولكن المقهى الذي جلست فيه كان جميلاً وواقعاً على خليج اسكندرون الشهير، ثم جاء قريبي بعد أن أنجز المهمة ووقع الكفالة المطلوبة وكانت الساعة قد قربت من الثانية وتوجهنا من اسكندرون شمالاً فوصلنا أضنه، وفي هذه البلدة تذكرت والدي - رحمه الله - يوم أن أوقفه الأتراك عن الرجوع إلى وطنه بسبب تدبير طارىء يتعلق بالمنفيين، ووقفنا قليلاً في أضنه ثم اتجهنا شمالاً وبدأنا نتسلق جبال طوروس الشهيرة، وقد خشيت دخول هذه الجبال التي ظننت أنها عالية وخفت من تعرجات الطريق والمنعطفات الخطيرة وقريبي مولع بالسرعة في قيادته للسيارة ولكنه طمأنني، وأخذنا نسير مصعدين سير الهوينة حتى وصلنا إلى قرية لها ذكريات في فكري وهي قرية «بوزانتي»، هذه القرية التي نمنا فيها ليلتين في طريقنا إلى المنفى، وحين سمعت باسمها ورأيت اللوحة التي كتب عليها اسمها أشرقت عيناي وأخذت أتنفس نفساً عميقاً وذكرت المكان الخشبي الذي نمنا فيه، كما تذكرت البرد القارس الذي تعرضنا له فيها ونحن أطفال وكان عمري لا يتجاوز السادسة أو السابعة، وركضت إلى رصيف المحطة التي ركبنا القطار فيها لنكمل طريقنا وجلست على الرصيف أتصفح تلك الحجارة والتلال

المحيطة بالقرية وأستعيد ذكريات خمسين سنة مرة كلمح البصر، وكان قريبي يستعجلني وأنا لا أستجيب وقلت له حين ركبت السيارة معه: إنني جئت من أجل هذه الذكريات فلا تعترضني بعد الآن وسكت هو وسكت وسرنا على بركة الله، وطال الطريق هذه المرة دون أن نجد مكاناً نستريح فيه إلا مقهى جميلاً في آخر جبال طوروس الطويلة العريضة، وكان مقهى رائعاً ما زلت أذكره إلى اليوم بموقعه الجميل، وبلغنا محطة للركاب وبقربها على مسافة قليلة بلدة صغيرة اسمها «آق سراي» أي البناء الأبيض بالتركية، فنزلنا وتناولنا غداءنا، وكنت أنا الترجمان لقريبي فقد كنت أحفظ بعض الجمل والكلمات التركية منذ عهد المنفى القديم، وبعد الغداء بقليل استأنفنا سيرنا إلى انقرة عاصمة تركيا وفي الطريق مررنا على صحراء الملح الشهيرة التي كانت تعبر منها الجيوش المحاربة العربية، وغيرها لتصل إلى أنقرة، وأنقرة بلدة معروفة في الشعر العربي فهي التي مات فيها امرؤ القيس الشاعر الكبير على رأي الرواية العربية وفيها قال أبياته التي تقول:

رب وقعة محيرة وجفنة مثعنجرة

تبقى غدا في أنقرة

وفيها أيضاً قال أبياته الحزينة حين أثر فيه السم الذي استعمله قيصر الروم ليقتله، وقد ألبسه ثوباً مسموماً ورأى قبل أن يموت قبر امرأة عربية فقال:

أجارتنا إن الخطوب تنوب وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ها هنا وكل غريب للغريب نسيب

وعسيب هو جبل مطل على أنقرة وقد سألت عنه فلم يعرفه أحد مع الأسف الشديد. وفي أنقرة نزلنا في فندق اسمه بالتركية «جهان أوتيل» أي فندق الجنة كما أظن، ومنه صعدنا إلى حي مرتفع جميل كثير الورود والخضرة وبخاصة الوردة والحمراء لشجر «الدفلة» المعروف ووصلنا إلى السفارة السورية في أنقرة فدخل قريبي ليقابل السفير ـ حسب الأصول ـ وبقيت أنا في الديوان فقد عرفت أحد أبناء السلمية هناك وكان ملحقاً بالملحق العسكري الذي كان مأذوناً، وعلم السفير بمجيئنا فدعانا في اليوم الثاني إلى غداء فخم وكان كريماً غاية الكرم، وهو الدكتور أديب الأصفري من كرام أهل إدلب ـ رحمه الله ـ وقد مات شاباً بعد سنوات، وفي اليوم الثاني جاءتنا السيارات إلى الفندق لتقلنا إلى «حديقة الشباب» أشهر حديقة في تركيا إذ تبلغ مساحتها عشرات الكيلومترات المربعة، كما ذهبنا إلى سد جميل بني على نهر اسمه «شبوق»، والكلمة معناها السبيل الذي يستعمل للتدخين، كما ذهبنا إلى قبر زعيم تركيا «أتاتورك ـ مصطفى كمال» فشاهدنا كل شيء يتعلق به من ألبسته إلى سياراته إلى قبره العظيم الذي وضع في مكان مرتفع من الرخام ووضعت فوقه حجراً مسدسة الشكل وزنها /١٤/ طناً من الرخام الإيطالي الراقي.

استأنفنا سيرنا في الصباح الباكر واتجهنا هذه المرة صوب استامبول، وكان الطريق هذه المرة مشجراً وفيه الكثير من القرى، وقد رأيناهم يصلون على جانبي الطريق وارتفعنا في سلسلة من الهضاب المشجرة الخضراء إلى أن وصلنا إلى محطة كبيرة فيها مطعم ومشرب وبقربها بلدة كبيرة سميت المنطقة باسمها وهي «بولو» وتعد مصيفاً جميلاً، فتناولنا غداءنا مع القهوة التي كانت قليلة في تركيا، وسرنا بعد ساعتين فمررنا في منعطف هناك بكوخ أثري كتب عليه اسم موسيقي تركي شهير أظنه «عثمان بك» أو «يوسف باشا»، وهذان من الموسيقيين المشهورين في تركيا ولهما مؤلفات كثيرة نعرفها ونسمعها بين حين وآخر، وكان يحب الجلوس وحيداً في هذا المكان ليضع ألحانه، وبدأنا ننحدر صوب استامبول وظللنا نسير أكثر من ثلاث ساعات حتى وصلنا إلى مشارف المدينة فأخذت أقرأ الأسماء التي تذكرتها من مثل: قاضي كوى، أرنكوى، و «كوى» تعني «القرية» إلى أن وصلنا إلى شاطىء البوسفور فوقفنا وهذه المنطقة كلها، أعني المنطقة الآسيوية، تسمى «أسكدار»، وأخذت أتلفت يمنة ويسرة وقد ظهر لي من بعيد قصر السلطان عبد العزيز العظيم «ضولمة باغجة»، كما ظهرت لي الجوامع والمآذن الكثيرة، واستامبول تسمى: مدينة الألف مئذنة، ولم يكن قد بني الجسر الحديث الذي نعرفه الآن والذي يصل بين شطري المدينة الآسيوي والأوروبي، وكان الانتقال إلى الشطر الثاني يتم بواسطة باخرة تنقل الركاب والسيارات وكل شيء،

وانتظرنا الباخرة التي وقفت على رصيف خشبي صعدنا فيه وهبطنا في وسط الباخرة وسارت بنا وكان منظراً يخلب العقول، الماء من حولنا، والقصور تحف بنا، والمآذن تطل علينا ونحن في منظر لا يوجد مثله في العالم، ووصلنا إلى البر فمشينا في البلدة وكان قريبي يعرفها فقد زارها من قبل ذلك، وهكذا ظللنا نمشي وهو يدلني على الأماكن الجديدة من مثل فندق الهيلتون، وكلية الهندسة إلى أن وصلنا إلى الحي الذي فيه القنصلية واسمه حي «التشويقية» ورأينا فيه بيت عصمت إينونو أعني عصمت باشا القائد والسياسي التركي المعروف ورفيق مصطفى كمال في جهاده، وهبطنا من القنصلية فتعرفنا على القنصل الذي جاء مكانه قريبي وهو من آل المرابط العائلة الدمشقية المعروفة، وكان شاباً طيباً استقبلنا أحسن استقبال، وقد نقل هو أيضاً إلى طهران عاصمة إيران، وقد دعانا إلى الغداء وكان كريماً جداً، ثم وجدنا فندقاً صغيراً أو «بانسيون» نزلنا فيه وهو قريب جداً من القنصلية، وكانت صاحبة الفندق تركية متوسطة في العمر لكنها تبدو محترمة وكان لها ماض في الجمال رائع، وكان ينزل إلى جوارنا جماعة من السياح اليابان تعرفنا عليهم أيضاً، كما تعرفنا في هذا المكان على شقيق صاحبة الفندق وهو يعمل موظفاً في البحرية ويتكلم الفرنسية جيداً. ودخلت في اليوم الثاني إلى القنصلية فمررت بالبهو الكبير وإذا بشاب يجلس وحيداً، فجلست قريباً منه وأردت أن أسأله عن شيء لا أذكره وإذا به يتكلم العربية فسألته عن بلده فعرفت أنه من أهالي بلدة مصياف المعروفة لدي وكان ابن الضابط القديم حسين الحكيم ووالده صديقي، وكان هذا الشاب تلميذاً في كلية الهندسة وقد جاء ليبحث عن عمل يستعين فيه على دراسته إذ كانت حال أبيه لا تساعده على الإنفاق لا سيما وأن أخاه كان معه لدراسة الهندسة أيضاً، وقد كلمت من أجله قريبي فوجد له عملاً يقال له اصطلاحاً «موظف محلي» وهو عمل كتابي يعمل به في أيام عطلته، وأصبح هذا الشاب صديقاً لي ورفيقاً رغم أنه لا يتجاوز العشرين من العمر، وكان اسمه «فتحي» وهو اليوم مهندس كبير في الكويت، ولكنه خيب ظني وما زال يخيبه بعد أن أصبح غنياً وبعد أن بات ينزل في فندق الشيراتون الغالي الثمن، فهو يزور الشام هذه الأيام ولا يكلف نفسه عناء السؤال عني مع أن صحبتي له دامت في استامبول أياماً طويلة لأنه كان دليلي لكل معالم استامبول على اعتباره يعرف اللغة التركية معرفة جيدة.

بعد أن تعرفت على المهندس فتحي بدأت الطواف والبحث عن آثار استامبول الشهيرة وهذه كانت غايتي في السفر، وقد بدأنا بقصر «ضولمة باغجة» الذي بناه السلطان عبد العزيز، دخلنا القصر من بابه الواسع وهو يقع على ضفة البوسفور ذلك المضيق العجيب الذي يصل بين البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط والذي يبلغ عرضه الكيلومتر الواحد أو يزيد أو يقل قليلاً، وهناك من السابحين من يجتازه سباحة وبسهولة، وعند الباب وبعد أن دفعنا الرسم الرسمي تحدث إلينا الترجمان السياحي فسألنا عن اللغة التي نريدها فاخترنا اللغة التركية، وتبعنا الترجمان التركي ورحنا نطوف في الغرف وما فيها من تحف عجيبة، وقد رأينا «النجفة» الكبرى في قاعة القصر الكبرى التي كانت تقام فيها الاحتفالات والسهرات الموسيقية، وفيها أي في النجفة /٧٥٠/ زجاجة كهرباء ومن هذا المكان رأينا الحواجز الشبكية الخشبية «الشعرية»، وخلفها المقصورات التي كانت تجلس فيها النساء المسلمات المحجبات ومنها تطل على الحفلة المقامة في هذا البهو، ودخلنا الحمام الملكي فرأينا «الأجران» العجيبة التي تكاد تكون شفافة فإذا وضعت يدك من خلف ونظرت بصرت بيدك من وراء الرخام السميك، ودخلنا غرفة السلطان عبد العزيز وسريره الضخم إذ كانت جثته أضخم من المعتاد، كما رأينا قميصه وعليه آثار الدم الذي نزف منه يوم انتحر قبل أن ينزل عن العرش، ورأينا الغرفة التي مات فيها مصطفى كمال «أتاتورك»، ورأينا سريره البسيط وحذاءه وصحناً بسيطاً صغيراً ما يزال فيه رماد سيجارته، ورأينا الساعة التي أوقفت ساعة وفاته، وأظنها وقفت على التاسعة والثلث إن لم أكن مخطئاً في التذكر. وخرجنا من هذا القصر إلى قصر السلطان عبد الحميد الثاني وهو قصر «يلدز» والكلمة معناها «الكوكب أو النجم»، وصعدنا إليه وكان على هضبة مشجرة في حديقة واسعة ولكن القصر كان مغلقاً مع الأسف ولم يكن يسمح برؤيته إلا للأشخاص السياسيين من كبار الزائرين، وفي الحديقة خارج القصر وجدنا بناءً صغيراً

قيل لنا إنه المكان الذي أُوقف فيه مدحت باشا، وهو الذي عمل على خلع السلطان عبد العزيز وأخيه مراد وجاء بعبد الحميد إلى سدّة الحكم فكافأه بالسجن ثم أوفده إلى الحجاز، وفي الحجاز عمل على قتله في «الطائف» وكان مدحت باشا يقول مفتخراً: أنا خالع الملكين، أي عبد العزيز ومراد، وهو المسمى بأبي الدستور ويقال إن أصله عربي.

في اليوم الثاني صحبت ترجماني المهندس فتحي وركبنا الباص «إلى القصر الشهير» طوب قبوسراي «ومعناه: سراي المدفع» ودخلنا إلى باحة واسعة جداً تحيط بها أبنية كبيرة ضخمة فدخلنا أول بناء وجدناه مستودعاً لآثار الكؤوس الكبيرة من القيشاني الصيني الشهير بحيث يرتفع الإناء الواحد إلى متر وهو يأخذ البصر لمعاناً وطرافة، وتنقلنا في هذا المتحف من بناء إلى آخر فوصلنا إلى الغرف التي شاهدنا فيها مجموعات من الأحجار الكريمة العجيبة من زمرد وياقوت وذهب وماس، ورأينا الماسة الكبيرة التي هي أكبر من اليد المقبوضة، وقيل لنا إنها ثاني ماسة في العالم بعد الماسة الكبرى التي يمتلكها التاج البريطاني، وشاهدنا اليد المعروقة للنبي يحيى ـ على قول الدليل ـ كما رأينا ألبسة الملوك الأتراك من السلطان سليم الأول وسليمان القانوني حتى آخر ملك مع أحذيتهم وعمائمهم، ثم رأينا العروش المهداة من ملوك العجم إلى ملوك الأتراك، وقيل لنا إن هذا المتحف يحوي بردة الرسول (ص) وعصاه، ولكن المكان الذي وضعتا فيه كان مغلقاً لإصلاح يجري في البناء، وخرجنا من «طوب قبو» الذي كان مستقراً للملوك الأتراك قبل إعمار يلدز وخولة بغجة و «شراغان» الذي احترق ورثاه الشعراء العرب ومن بينهم ولي الدين يكن، وهو القصر الذي بناه السلطان عبد المجيد والد السلطان عبد الحميد. ومن هذا المتحف العظيم ذهبت مع المهندس فتحي إلى جامع الذكريات جامع أبي أيوب الأنصاري المسمى عند الأتراك «أيوب سلطان» وقد كان أبو أيوب من وجهاء أهل المدينة وعند بيته وقفت ناقة الرسول (ص) عندما وصل إلى المدينة يوم هجرته وقد اشترك في إحدى الغزوات ومات فيها بجانب سور استامبول، هذا السور الذي ما زال باقياً أكثره إلى اليوم وعند قبر أبي أيوب شاهدنا عدداً من قبور الصحابة الآخرين، وفي هذا الجامع شاهدنا منظراً طريفاً فإن الأتراك معروفون بتدينهم وعقيدتهم الدينية القوية، فهم إلى الآن يأتون بالأولاد والمختونين يتبركون بقبر أبي أيوب الأنصاري، ورأيت إمام الجامع يدخل إلى الجامع فينزع عنه «البرنيطة» ويلبس العمامة والجبة ليصلي بالناس، وهو تقليد ديني معروف في استامبول لأن اللباس الرسمي في تركيا كلها هو «البرنيطة» ولو كان تحتها قنباز وشروال مما يلبسه الفلاحون هناك. وبجانب أبي أيوب مقبرة شهيرة تسمى باسم «مقبرة أبي أيوب» وفيها قبر توفيق فكرت الشاعر الكبير الذي مات عام ١٩١٦ وهو من الشعراء المجددين وله ديوان شهير اسمه «القيثارة المحطمة»، كما له كتاب أهداه إلى ولده «خلوق» وسماه «دفتر خلوق».

وفي اليوم الثالث ذهبنا إلى المتحف العسكري وهذا المتحف وجدت فيه الأعاجيب مما يدل على أن الأتراك لم يتركوا أثراً من آثار تاريخهم إلا وحفظوه ولم يضيعوا منه شيئاً. دخلنا المتحف العسكري وهو قريب من بناء القنصلية السورية كما هو قريب من فندق «الهيلتون»، ومن الباب رأينا الجنزير الحديدي الضخم الذي يبلغ طول كل حلقة منه متراً وهو الجنزير الذي استعمله محمد الفاتح في إغلاق المضيق ليتمكن من حصار القسطنطينية، ورأينا بعد قليل العربة كاملة وهي التي قتل فيها محمود شوكت باشا قائد الانقلاب الذي أطاح بالسلطان عبد الحميد، وهو شقيق حكمت سليمان الذي تولى الوزارة العراقية يوم انقلاب رشيد عالي الكيلاني أثناء الحرب العالمية الثانية وهو من أصل تركماني، وزجاج العربة ما زال كما هو وأثر الرصاص فيه باق حتى الآن، ودخلنا فوجدنا في غرفة من الغرب جلسة من رجال تخالهم أحياء وقد لبسوا بذلاتهم العسكرية وهم مجتمعون للمداولة وعلى رأسهم مصطفى كمال وعصمت إينونو وفوزي جقمق القائد الشهير، وقبالتهم بزة عسكرية عليها آثار الدماء عرفنا أنها بزة القائد اليوناني الذي قتل يوم حرب سقاريا الأخيرة بين الأتراك واليونان.

وبمناسبة ذكر محمود شوكت هذا، لا بد من القول أن الذي قام بتنحية السلطان عبد الحميد عن العرش هم اليهود، أما المنفذ فهم الاتحاديون وعلى رأسهم محمود شوكت الذي أشرت إليه، ثم أنور باشا

الذي هو تركي الأصل ومن ولاية قسطموني الشهيرة وطلعت باشا وهو من أصل بلغاري، أعني من إسلام بلغاريا الذين يسمون «بوماخ»، وكان المحرك الكبير بين الاتحاديين طبعاً هو جاويد واسمه الحقيقي دافيد، وهو يهودي الأصل ومن فئة «الدونما»، وهم اليهود الذين دخلوا في الإسلام شكلاً لا مضموناً، ومن الدليل على تدخل اليهود في هذا الموضوع أن الانقلاب ضد السلطان وقع على أثر المفاوضات التي جرت بين السلطان و «هرتزل» مؤسس الصهيونية اليهودي المعروف الذي رفض السلطان عروضه المغرية من أجل استيلاء اليهود على فلسطين، وكان أول الداخلين على السلطان لتنحيته مختار حي اليهود وهو من أسرة «قره صو» الموجودة إلى اليوم. ومن معلوماتي حين كنت في استامبول أن عدد اليهود في البلدة يبلغ /٥٠/ ألفاً، ولهم جريدة حاولت الحكومة السورية شراءها مرة ثم صرف النظر عن ذلك لأسباب لم أعلمها.

كان المهندس فتحي ذا أخلاق عالية وكان يسكن هو وأخوه في بيت زرته معهما وقد رأيت معه من الآثار أشياء كان من غير الممكن أن أراها. ثم خطرت على بالي البلدة التي كنت منفياً فيها منذ أكثر من خمسين سنة أي سنة ١٩١٦ ـ ١٩١٨، ونحن في هذه المرحلة في ١٩٧٠ وعولت على رؤية هذه البلدة رغم الصعوبات والعراقيل المادية والمعنوية التي وضعها قريبي أمامي، ثم وفقت إلى الرحلة، فاصطحبت معي السيد خيري وهو سائق القنصلية وكان لا يعرف إلا اللغة التركية، وهو في الأصل من ولاية طرابزون التي تقع في شرقي البلاد التركية، كما اصطحبت فتحي الترجمان وسرنا من استامبول صباحاً وظللنا نسير على الطريق الذي جئنا منه إلى استامبول، فاجتزنا بلدة «أزميت» التي توقفنا فيها قليلاً، وبعد قليل انحرفنا إلى الجهة الغربية على طريق ولاية بورصة وأخذنا نسير ونسير، فمررنا ببلدة اسمها «عثمان بك»، وبالنهر الشهير «سقاريا» الذي وقعت قريباً منه المعركة الشهيرة بين الأتراك واليونان في عهد التحرير التركي على يد مصطفى كمال، وقبل أن أصل إلى «بيلجك» البلدة المقصودة أخذ قلبي يخفق خفقاً سريعاً وشعرت بالدموع تكاد تنهمر من عيني لهذه الذكرى المؤلمة، ذكرى عهد الطفولة المحبوبة، وقبل أن نصل بقليل رأيت بيوت المدينة الحبيبة ولقينا اثنان من الأطفال طلبا منا سيجارتين، فأعطيتهما كل ما معي من دخان وأكملنا الطريق، وفي مدخل البلدة رأيت الجسر الحديدي الذي كان جسراً خشبياً يوم كنت فيها، وكنا نمشي عليه فيسمع له صوتٌ كنا نسرّ به، وأكملنا مسيرتنا إلى أن وصلنا إلى ساحة في قلب المدينة وجدنا على جانبها مقهى جلس فيه عدد من الفلاحين وبعض الموظفين، كما رأينا قبالته مطعماً صغيراً دخلنا وتناولنا غداءنا فيه، ثم قمنا إلى المقهى فجلسنا وتحدثنا إلى أول رجل رأيناه، وكنت أذكر أسماء أساتذة مدرستي؛ ومدرستي التي كان اسمها «أورخانية مكتبي» أي المدرسة الأورخانية نسبة إلى أورخان شاه جد الملوك الأتراك، ورأيت القوم لا يعرفون شيئاً مما سألتهم عنه، وتحدث إليّ أحدهم وهو يشير إلى هضبة بجوار المقهى وقال: في هذه الهضبة قبر أكثر من مئتي شخص قتلوا يوم هاجم اليونان هذه البلدة وأحرقوها، وكانت بيوتها كلها خشبية، وحدقت في الرجل، وقلت: لقد احترق بيتنا الحبيب حين احترقت هذه البيوت، كما احترقت شجرات التوت والرمان والدالية التي كانت تحيط بالبناء كله مرتين، وقام أحد الجالسين حقاً وقال: أنا أدلكم على بيت المختار فهو رجل مسن وقد يفيدكم، وقمنا فعلاً إلى بيت المختار، وفي الطريق كنت أرى زهر الرمان وهو ملقى على الأرض بجوار حوائط البيوت فتذكرت هذا المنظر القديم، والبلدة مشهورة بالفاكهة وبخاصة الرمان والعنب، ووجدنا المختار وقد تجاوز السبعين من عمره وقد تذكر أحد الذين ذكرتهم له وهو من سكان البلدة القدماء، وسألتهم عن شارع «١٠ تموز» الذي كنا نقطن بجواره فلم يذكره أحد. وركبت السيارة فوصلت إلى مكان المزار الذي كنا نرتاده ونحن صغار، وليس هو مزار وإنما هو بناء دفن فيه أحد الملوك الأتراك قبل أن يحتلوا استامبول، وأظن أن اسمه «أرطغرل» أو «أورخان»، وصعدت على الدرج الذي كنت أصعد عليه وأنا طفل وكنت أتوقف عند كل درجة من درجاته متذكراً متألماً لضياع كل هذه الآثار التي جئت من أجلها، ومن هذه القبور ذهبت إلى المحطة وجلست على الرصيف القديم، ورأيت عربات القطار القديم المهملة المستبدلة بعربات جديدة، فصعدت إلى إحداها وكأني أصعد إليها يوم كنت في السابعة من عمري، ونظرت إلى بعيد فرأيت عين ماء ثرّة، فسألت عنها

وعرفت أنها العين المسماة «قره صو» أي العين السوداء والتي كنا نسبح فيها وقد غرق فيها أحد رفاقنا في المدرسة، ورجعت بالسيارة وأنا أمشي الهوينا على الدرب الذي دخلنا فيه إلى البلدة وخرجنا منه ومعنا الرفيقتان الأرمنيتان ـ رحمهما الله ـ لقد حاولت كثيراً أن أرى شيئاً من آثار الماضي ولكني فشلت، وقد أخطأت في شيء واحد، إذ كان عليّ أن أبحث في المدينة القديمة فقد يجوز أن نكون حصرنا أسئلتنا وبحثنا في البلدة الجديدة فقط. ولقد حاولت في الرحلة الثانية أن أصل إليها عن طريق قونية ولكني فشلت أيضاً وسأذكر ذلك. ثم رجعت إلى استامبول فوصلت المغرب وكان مجموع ما مشيت أكثر من /٨٠٠/ كيلو متر. وفي استامبول كان قريبي مشغولاً دائماً وهو حيادي في كل شيء فلا يسهر ولا يتنزه ولا يسمع غناء، وقد صحبته مرة إلى البحر الأسود وهو آخر استامبول وفي منطقة اسمها «كيليوس» ثم عدنا، وكان طعامنا كله في البيت وكان طعاماً مختصراً، لأن قريبي لم يكن مولعاً بالمغذيات الغنية. وفي ليلة من الليالي قررت السهر والسماع، ففي تركيا غناء وأصوات لا مثيل لها في العالم العربي وخاصة العزف فهم عازفون عباقرة إلا أنهم مختلفون عنا في عزف القانون فعزفهم لا طعم له لأنه لا ينتهي إلى «قفلة» كما يفعل المصريون والسوريون واللبنانيون، وهم يسرعون كثيراً في العزف، والسرعة وحدها لا تعطي طرباً، أما في بقية الآلات وخاصة العود وما شابه العود من طنبور وبزق وغيتار فهم نابغون في هذا كله، وسهرنا تلك الليلة في «كازينو ببك» أي مقصف حي «ببك» واشترطت على قريبي أن الدفع يقسم علينا نحن الاثنين. ورأينا عامل المقهى يضع أمامنا صحناً وراء صحن دون أن نفطن إلى ما وراء ذلك، وقد ظنناه على حساب ما دفعناه عند الدخول، وإذا بالحساب آخر المطاف شيء يخيف بالنسبة لتلك الأيام وسمعنا ولكنا خسرنا كل نشوة بعد أن دفعنا المبلغ الضخم. بعد يومين قررت السفر والرجوع إلى دمشق وذهبنا إلى الكرنك عند العصر وكان موقفه في ساحة «تقسيم» الشهيرة، فركبنا ومشينا طوال الليل ووصلنا ثاني يوم عند العصر إلى الاسكندرون ومنها أخذت السيارة عند الحدود إلى حلب وقضيت ليلة في حلب ثم عدت إلى دمشق.

لا أخفي أنني لم أكن مسروراً في الرحلة الأولى من قريبي فهو متحفظ يحفظ لكل شيء حسابه، وأنا لا أحسب حساب شيء، وفي رأيي إني يجب أن أستغل الحياة ما دمت في الحياة، أما التفكير في المستقبل فأمر يعرقل كل مرح عند الإنسان، على كل حال فقد شكرت قريبي هذا، الذي لا أنكر أن حسنته الوحيدة أنه سهل لي أمر هاتين الرحلتين، ولكنه كان يستطيع أن يهيىء لي أسباب سرور أكثر بكثير غير أن هؤلاء الموظفين الذين يقبضون رواتبهم بالدولار لا يمكن أن يكونوا مبذرين أو من أهل البذخ والإنفاق لأنهم يعتبرون الدولار كأخ لهم وهم أوفياء له، فإذا أنفقوا دولاراً فكأنهم خسروا أخاً أو أباً، ومع ذلك فقد كتب لي قريبي أن القنصل السوري في اليونان المرحوم «جمال جبر»، وهو ضابط قديم ومن أهل سلمية أو من قراها ومن عائلة معروفة، كتب لي أن هذا الضابط موجود في دمشق ويريد العودة إلى أثينا عن طريق استامبول، وأنني يمكنني السفر معه ثانية لأمكث أياماً في ضيافته، واتفقت مع جمال جبر وهو صديقي كما أن أهله منهم كثير من أصدقائي، وفي اليوم الموعود جاءني الساعة الرابعة صباحاً فركبت سيارته الصغيرة أيضاً «الفولسفاكن» وكأني محظوظ بهذه السيارات، وسرنا على بركات الله، فاجتزنا حمص ثم حماه ثم أخذنا يسارنا قبل حلب إلى باب الهوى فصرفنا بعض العملة السورية وأخذنا بعض التركية، وسرنا، وقبل أن نصل إلى اسكندرون، وعند بلدة اسمها «قرقخان» كما أذكر، فوجئنا بزجاج السيارة الأمامي يتحطم وينزل كالحصى الصغيرة فوق ركبنا أنا وجمال. ووقفنا نتساءل دون أن نعرف سبب هذه الكارثة ولم تعد تستطيع السيارة المشي بسبب الهواء القوي، مما اضطرنا إلى فتح الأبواب من اليسار واليمين لتعديل جريان الهواء وانحرفنا إلى مرآب هناك فنظفنا السيارة ولم ندر السبب إلا أن أحد الصبيان في الطريق قد حدفنا بحجر أو أن حجراً طار من تحت الدولاب وأصاب الزجاج، ولما وصلنا إلى اسكندرون اضطررنا إلى البقاء أكثر من ساعتين حتى تمكنا من تركيب زجاج جديد ودفع مبلغ كبير لم أشارك فيه لأني غير مسؤول عن السيارة ولأني ملتزم ـ بالحياد الإيجابي ـ وضحك جمال حين قلت له هذا وقال: أنا موافق، وسرنا بعد إصلاح السيارة وكان الأول من رمضان وقد فوجئنا بأن الناس جميعاً

صائمون وأن بائعي الأكل أشبه بالمضربين، وقد مشينا جائعين ونسينا أن نصطحب معنا بعض الطعام من اسكندرون إلى أن توقفنا عند دكان على الطريق من بائعي البنزين فلم نجد عنده إلا قليلاً من الزيتون والجبنة الجافة فأكلنا وقد حسبناها من أطيب المآكل، وظللنا سائرين واقترحت على صاحبي أن نترك جبال طوروس ونغير طريقنا فإني عرفت الطريق الأول ووافقني ـ رحمه الله ـ وسرنا على طريق ترسوس فوصلنا حوالي المغرب، وقبل أن نصل إلى منتصف البلدة وجدنا شباناً واقفين، فنادينا أحدهم فأقبل إلينا فتحدثت إليه أنا بالتركية وعرف أننا عرب فتحدث معنا بلغة عربية ركيكة جداً وأفهمنا أنه من أصل عربي وكان اسمه كما أذكر «عارف»، وقد بقي معي عنوانه سنوات ثم ضاع، ودلنا على فندق اسمه «أيبك بالاس» أي فندق الحرير، وعند وصولنا قلنا له إنا جائعان ونريد أن نأكل، وتحدث إليّ جمال بصوت خافت يقول: قل له إننا نأكل لحم الضان المذكر أي الخروف ولا نأكل لحم الأنثى، ولم أكد أخبره بهذا حتى وجدته يقف احتراماً فأدركت والفضل لجمال، أنه شيعي، وقد عاوننا بحمل الأغراض وهو يخاطبني بلقب: حجي، ثم جلس معنا عند بائع اللحم ليوصيه بنا، ولم يذق الطعام خجلاً كما اعتقد واحتراماً، وأراد أن يدعونا إلى بيته فاعتذرنا ونمنا تلك الليلة في ترسوس، ولترسوس عندي ذكريات فهي البلدة التي أكلنا فيها أطيب لحم بالفرن حين ذهبنا في المنفى وفيها تعلمنا كلمة «أوقّة» أي نصف رطل و «باطمان» أي رطل. وترسوس بلد أثري ففيها قبر المأمون الخليفة العباسي، وفيها وُلد القديس بولص المسمى «أبو النصرانية»، ويقال إن الكهف الذي رويت عنه في الكتب المقدسة قصة أهل الكهف موجود في ترسوس. خرجنا من الفندق إلى مقهى قريب في ساحة البلدة فشربنا القهوة واتجهنا صوب الساحل إلى بلدة «مرسين» الشهيرة، وقد ذكرت فيها جمال باشا الثاني الذي كان قائداً كبيراً وطغى عليه اسم جمال السفاح، وهذا يسمى أيضاً جمال المرسيني لأنه من بلدة مرسين، واجتزنا مرسين وهي على الساحل إلى بلدة جميلة صغيرة هي «سيلفكا»، ومنها استلمنا طريقاً من أجمل ما رأيت في حياتي هي طريق جبلية سهلة ليس فيها إلا سيارات نادرة، فكنا كأننا في تلك المنطقة وحدنا، وجعنا على الطريق فأوينا إلى كوخ على هضبة هناك فأكلنا لحماً أشبه بالجلد لا تعمل فيه الفؤوس ولا السكاكين، وسرنا إلى بلدة قونية وهذه البلدة هي «عمورية» التي ذكرها أبو تمام الشاعر في قصيدته الشهيرة:

وفيها يقول:

السيف أصدق إنباء من الكتب	في حده الحدّ بين الجدّ واللعب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت	عنك المنى حفّلاً معسولة الحلب

وصلنا إلى قونيا وفيها لي ذكريات كثيرة محزنة، ففيها اختلفت مع أخي المرحوم «سليمان» الذي مات شاباً في الثامنة عشرة من العمر وكان زين الشباب، وما زلت أعد موته أكبر خسارة أصابت بيتنا، لأنه كان يمكن أن يمنع أخانا الأكبر من التصرف بما تصرف به ولم يكن راضياً عن تصرفاته كلها، وحين اختلفت معه ضربني ضرباً مؤلماً ـ سامحه الله ـ فقد كان بطلاً قوي الشكيمة لو اجتمع عليه عشرة شباب لم يكونوا يخيفونه بل لعله يتغلب عليهم جميعاً، ورآني والدي أبكي وهو في حال مؤلمة من النفي والتشريد فأمسك بالسيجارة ووضعها على يد أخي بكل قسوة مستغربة حتى أحرق له يده، وورمت، وندم الوالد ـ رحمه الله ـ وأراد أن يسترضيه، وكنا في محطة القطار فأخذه في رحلة قصيرة إلى البلدة وأطعمه شيئاً من الشواء ترضيةً له وعاد وإياه وتصالحنا بعد دقائق طبعاً.

وفي قونية الحزينة فقدت صديق العمر رفيق فاخوري الذي دهسته سيارة ضخمة مجرمة وهو خارج من المصعم وهو يعدّ ما معه من الدراهم، وقد مات بعد ثلاث ساعات وكان موته فاجعة لي لن أنساها ما حييت، وقد كنت يوم وفاته في باريس، وعدت بعد أسبوع لأسمع نعيه من زوجتي ـ رحمها الله ـ التي توفيت هذه السنة في ١٢ تموز ١٩٨٩، وفي قونية أيضاً سألنا عن الطعام فتحدث إلينا رجل يقول: قونية مدينة مقدسة والشهر رمضان والناس صائمون فليس معقولاً أن تسألوا فيها عن الطعام إلا عند العصر. وفي قونية أيضاً قبر جلال الدين الرومي صاحب كتاب الشعر الشهير باسم «المثنوي»، وقد كتبه باللغة الفارسية وهو رمز القداسة عند طائفة «المولوية»، وما زالت الأغاني تتكرر عند قبره في المسجلات ليلاً

نهاراً، وأنا لا أحب هذه الطوائف التي خرجت على الأصل الإسلامي وكانت بدعاً لا شأن لها إلا الغناء والرقص والفنون، وكل هذا مخالف للدين لو عقل العارفون، وقد اشتهر من هؤلاء المولوية موسيقيون كبار من مثل عزيز داده التركي، و «داده» تعني الشيخ المولوي، ولهذا الرجل ألحان من البشارف والسماعيات وأظنه كان من عازفي الناي، وهذه الآلة من اختصاص موسيقى المولوية، ومن هؤلاء العلّامة الموسيقي الكبير ملا عثمان الموصلي الذي كان مولوياً أيضاً، والذي كان عازفاً على عدة آلات ومنها القصب والقانون والعود، كما كان ملحناً كبيراً ومغنياً، وقد كان صديقاً لأبي الهدى الصيادي يزوره في استامبول، كما كان صديقاً لمفتي حماه محمد أفف الحريري والد عز الدين الحريري وجدّ الشاعر محمد الحريري.

ذهبنا من قونية جائعين وقد أقنعت صاحبي أن نذهب عن طريق «أسكي شهر» البلدة الشهيرة لكي أصل إلى منفاي القديم «بيلجك»، ولكنا تهنا في الطريق وأخذت السيارة تقف معنا فندفعها فتسير كأنها المرأة الغاضبة، وبعد أن سرنا قليلاً وجدنا الطريق مشعثة فغيرنا الاتجاه وذهبنا من طريق أنقرة، ولكنا لم نقف في أنقرة وأكملنا طريقنا إلى البلدة الجميلة «بولو»، التي مر معنا وصفها آنفاً، فنزلنا في الفندق والمطعم الجميل ونمنا تلك الليلة، وفي الصباح فتحت باب غرفة رفيقي جمال فإذا برائحة قوية من الكولونيا فقلت له ضاحكاً: ما هذا هل غسلت الغرفة، فقال: كلا، لقد وضعوا في البيت زجاجة كولونيا في حقيبتي فانفتحت وانقلب ما فيها على ثيابي كلها ولا أدري ما فعل الله ببقية الثياب، ونزلنا وجمال مضطرب من هذه المفاجأة، وحين حاسب الأوتيل أضاع في الحساب عشرة دولارات لم يفطن لها إلا بعد خمسين كيلومتراً من سيرنا وأقنعته بالرجوع فلم يرض، وأكملنا طريقنا إلى استامبول فوصلنا بيت القنصل قريبي حوالي العصر وتقدمنا للغداء وكان الغداء بسيطاً جداً، وكأن القريب العزيز لا علم له بمجيئنا مع أنه كان يعلم تماماً بذلك، وقد غضب جمال ـ رحمه الله ـ وكان صديقاً وزميلاً للقريب فلم يسكت وأنبه على غدائه الذي لم يستعدّ له، وظل يضحك ويذكر هذه الحادثة إلى أن مات المسكين في تنزانيا بعد أن نقل إليها، وقد مات وهو يلقي كلمة باسم سوريا ونقل إلى قرية «المفقر» شرقي سلمية. كان قريبنا القنصل قد انتقل إلى بيت جديد وقنصلية جديدة متصلة به في حي اسمه «والي قناقي» أي: قناق الوالي، والقناق هو المضافة أو المنزول كما يسمى في سلمية، وكان البيت فخماً، وفي اليوم الثاني اجتمعنا مع الأخ محمد السيد الذي كان ممثلاً للجامعة العربية في استامبول ومكتبه في بناء القنصلية نفسها وهو من أكرم الناس خلقاً ويداً وله ثقافة لا بأس بها، وقد عني بي عناية لا تنسى وأراني الكثير من الآثار وبخاصة جامع بايزيد، وفي قربه توجد مكتبة للكتب العربية والتركية بالحروف العربية القديمة، وزرت هذه المرة مكتبة الجامعة، وهي من أرقى المكتبات وكذلك متحف الخطوط العربية الرائع. ودعانا أحد التجار السوريين إلى سهرة في الكازينو الذي أشرت إليه آنفاً، أي كازينو «ببك» على مضيق «البوسفور»، وفي هذا الكازينو حدثت لي حادثة غريبة، فقد كانت طاولتنا مرتكزة إلى المسرح، وقد غنى عدد من الفرق، وأهم فرقة كانت هي فرقة المغنية الشهيرة «مظفر آق كول» أي الورد الأبيض، وهي سيدة تجاوزت الثلاثين من العمر جميلة مهابة ذات صوت عجيب، وفي أثناء الغناء أخذت أضرب بيدي محافظاً على الإيقاع فلفتُّ نظر العازفين إليّ، وقد أعجبت بعازف رائع على آلة «الكلارينيت» وسألته وهو يعزف: هل تعرف شكري بك؟ وشكري بك هذا أعظم عازف بهذه الآلة وله تسجيلات رائعة في إذاعة دمشق التي زارها في فترة من الفترات، وشكري هذا كان العازف الأول في فرقة «زكي موران» المغني الشاب الرائع الذي يعتبر أول مغنٍّ في تركيا، لقد كان يعزف له شكري ليغني، وكان شكري يتكىء بركبته على الأرض حين العزف وبينما كان يعزف في إحدى الليالي وقع ميتاً، فكان أن أغلقت كل مقاصف الوطن التركي حداداً على هذا العازف العبقري. حين سألت الرجل العازف عن شكري، ترك الآلة: وقال لي بصوت عال: إنه أستاذي، وأخذت المغنية تردد أغانيها بصوتها الساحر وأنا لاهٍ عمن حوالي من قريبي والرجل الذي دعاني وغيرهم من الأشخاص، وبصرت حينئذ بالمغنية الكبيرة تتقدم من طاولتنا وتأخذ الكأس وتقدمها لي فشربت منها وشكرتها ثم انفتلت راجعة وهي تبتسم لي وكان الغناء من الإيقاع «السماعي» المعروف الذي

لا يستطيع ضربه إلا أهل الصناعة، وهذه كانت إشارة وكأنها رمز بيني وبين الفرقة التي ظلت تبتسم لي إلى آخر السهرة. في هذه الرحلة وجدت موظفاً جديداً في السفارة اسمه علي الحسن وهو برتبة حسنة وقد وجدت فيه الأخلاق الرضية والأنس والأدب الكامل وسرعان ما صار صديقي، وهو من قرية صغيرة إلى جوار بلدة الحفة من محافظة اللاذقية، واسم القرية «حبيت» وكانت معه سيارة صغيرة، وفي ذلك اليوم دعاني إلى بيته فأطعمني سمكاً طيباً وثمر «الفريز» الذي اشتهرت به بلاد تركيا، وبعد يومين أو ثلاثة دعاني إلى رحلة في سيارته فذهبنا إلى أجمل بقعة في استامبول وهي التي تسمى «فلوريا»، وكانت تسمى قديماً «يشيل كوي»، أي القرية الخضراء فجلسنا وشاهدنا عن بعد القصر الأبيض الكائن داخل البحر على مسافة مئتي متر والمخصص لرئيس الجمهورية، ومن هذا المكان الجميل ذهبنا إلى المطار ومررنا بمكتب «الحلقة لي» الزراعي الشهير الذي تخرج منه وصفي زكريا مدير مدرسة السلمية الزراعية في عام ١٩٢٣. وكان في القنصلية عدا من مر بك شاب نسيت اسمه الأصلي وكنيته أبو هشام وهو من أطيب الناس معاملة وخلقاً، وأصله من قرية خبب المسيحية في حوران وله أخ يدعى مارسيل كان يومها في زياته، وقد رافقني يوم عدت إلى سوريا وكان يعمل في السفارة الأميركية بدمشق، كان لدى أبي هشام سيارة أخذني بها يوماً فزرت وإياه دار بطريرك القسطنطينية للروم الأرثوذكس وهو «أثينا غورس»، وهو من أكبر رجال الدين في العالم الشرقي، وزرنا الكنيسة الأثرية في ذلك المكان، كما زرنا كنيسة أخرى اسمها «كاريان»، وفيها من الصور الفنية ما يذكرك بكنيسة البابا في روما «سيكستين» لقد كانت هذه الكنيسة مغطاة الجدران بالكلس لتغطية الصور التي لا يقرها الإسلام، واستعملت مدة من الزمن ثم أعيدت كنيسة في العهود التركية الجديدة. وزرنا معه أيضاً السور القديم على طريق البوسفور وهو السور الذي اجتازه محمد الفاتح، وبهذه المناسبة نقول إن الشخصين اللذين يجوز تعليق صورتيهما هما: محمد الفاتح ومصطفى كمال فقط، وتعليق صورة غيرهما غير جائز في القانون التركي. وذهبت مرة مع قريبي إلى مكان اسمه «صاري ير» أي الأرض الصفراء، وفيها محل مشهور بالأكلة التركية الشهيرة: صدر الدجاج، وهي من مركبات الحليب المطبوخ بصدر الدجاج، إذ يأخذون الصدر فينسلون منه شعيرات لحمية بواسطة دبوس أو إبرة ويطبخونه بالحليب فيخرج من أطيب الطعام، وأكلت حتى امتلأت من هذه الحلوى ورجعت إلى البيت فأفقت في الليل على مغص شديد لا عهد لي به وأصبت بزحار شديد، وفي اليوم الثاني وجدت نفسي مصاباً «بالديزانتاريا» الفظيعة وهكذا اضطجعت في البيت لأخرج كل ربع ساعة ولأنزف دماً من أمعائي، واستعملت كل أنواع الدواء إلى أن ذهبت إلى المشفى الكبير في استامبول وهو مشفى «آق سراي» فكشف عليّ طبيب الأمراض الداخلية ولم يصدق أنني في الستين من عمري، وكان هذا عمري سنة سبعين، وأعطاني دواءً مركباً من حبوب قديمة مع إبر قديمة أيضاً فأخذت أستعملها إلى أن استطعت تناول شيء من الطعام الذي أصبح من اللحم المشروح المشوي، ثم قررت العودة إلى الوطن فسافر معي قريبي والسيد محمد السيد إلى أنقرة، وفي أنقرة نمنا ليلة وفي اليوم الثاني وعند العشاء ركبت سيارة الكرنك وعدت إلى دمشق.

كان في المجمع شاب أصله من «أعزاز» شمالي حلب واسمه الدكتور عزت حسن، وقد كان مديراً للمكتبة الظاهرية، وكان حسن المعشر مثقفاً، وهو متزوج من تركية وله منها ولد واحد، ويتكلم التركية كأهلها، ولعله من أصل تركي، كما أن له بيتاً في استامبول وقد عرض عليّ السفر لرؤية عائلته فاتفقت معه على مرافقته، وبالفعل لقد رافقته أول الأمر إلى حلب وبت وإياه ليلة، وفي هذه الليلة تركته لأبحث عن سهرة جميلة، وقد وفقت إلى سهرة لم أحلم ولا حلمت بعد ذلك، لقد كانت جلسة فيها كل ما يطلب المرء من جمال وطعام وشراب ورقص وغناء ونزهة، إنها سهرة لا تحدث في الخيال، ولقد أمضيت الليل بطوله وجئته الساعة الخامسة صباحاً ونحن على سفر في الساعة السابعة، ولقد ظللت في هذه الرحلة التي دامت أياماً وأنا لم أشبع من النوم لكثرة ما سهرت في ليلة حلب، وسرنا في الصباح كالمعتاد إلى باب الهوى ومنها إلى الاسكندرون فركبنا «الباص الكرنك» أيضاً إلى استامبول وفي استامبول عرجنا على بيته في «قاض كوي» الحي الراقي، ومنها ذهبنا إلى دار القنصلية حيث كان قريبي بانتظارنا. هذه الرحلة كانت

أبسط الرحلات فلم أر فيها جديداً لأني كنت قد رأيت كل شيء، وكان قريبي يصحبني في بعض الأيام إلى بهو فندق الهيلتون فنجلس فيه ونشرب القهوة، ومرة التقينا بالأمير عبد الله الجابر الصباح الذي كنت عرفته في شتورة بصحبة فخري البارودي،. وكانت جلسة موسيقية جميلة فيها السيد رشيد كرامة رئيس وزراء لبنان السابق، والصحفي المعروف سعيد فريحة وكان حسني تللو موجوداً أيضاً. وذهبنا إلى البيت الكويتي الضخم في شتورة ودعونا الأمير عبد الله المشار إليه فجاء مع زوجته وكانت معنا فرقة الإذاعة وعلى رأسها عمر النقشبندي العازف الشهير، وأذكر أن الأمير يومها أمسك العود وغنى غناءً كويتياً لم أسمع بمثله أبداً، وكان منظر سعيد فريحة أثناء الغناء يبعث على الضحك الصارخ. قلت إني رأيت الأمير في بهو فندق الهيلتون وكان يعاني الرياضة البدنية وقد رأيته يذهب ويجيء في البهو مدة ساعة تقريباً فقمت إليه ودعوته ليجلس معنا فجلس ولكنه أبى كل ضيافة نقدمها له ولم يتناول شيئاً ومكث معنا قليلاً ثم ذهب، وقلت لقريبي لقد أبى الضيافة كي لا يدعونا إلى ضيافة مثلها، ومن المقتصدين الأفذاذ من يفعل هذه الفعلة نفسها اتقاءً للكرم الضار.

٤٧
في أوروبا

في عام /١٩٧١/ وفي آخر سنة من عملي في المجمع وفي الوظيفة كلها أصبح لي صهر، فقد تزوجت ابنتي من هذا الشاب الفلسطيني «من غزة» وكان يحمل شهادة التربية البدنية من القاهرة، كما كانت تحمل ابنتي شهادة الإجازة من كلية اللغة العربية بدمشق، وقد قرر الاثنان استكمال دراستهما على أن يدرس هو الدراسة المناسبة لاختصاصه وهي «العلاج الطبيعي»، وعلى أن تدرس هي الأدب العربي باللغة البلغارية، وقد وفق الاثنان فأحضر كل منهما شهادة الدكتوراه في اختصاصه وعادا، واليوم هو مدير مشفى «الحمّة» للعلاج الطبيعي المرتبط بمشفى يافا الكبير في ضاحية «المزة»، وهي تعمل مدرسة للغة العربية في كلية العمارة (هندسة) بجامعة دمشق.

وحين ذهبا إلى بلغاريا التي اشتهرت بمداواة العلاج الطبيعي كان عندهما ولدان، الكبير وعمره أربع سنوات والثاني عمره سنتان ونصف، وحين زواجهما كان الزوج يعمل مدرساً للرياضة في بنغازي «ليبيا». وبعد أن مكثا مدة في بلغاريا وتعلما مبادىء لغتها كتبا إلينا لنذهب في الصيف فنقضي الإجازة عندهما وهكذا كان، فقد استخرجت جواز سفر لي ولزوجتي المرحومة وركبنا «الكرنك» إلى حلب فبتنا ليلة عند صديقنا المرحوم المقدم السابق في الجيش السوري محمد دياب وهو من أهالي قرية «تلدرة» القريبة من سلمية ومن أخلص الأصدقاء الذين عرفتهم في حياتي. وقد تولى محمد دياب أمر سفرنا إلى اسكندرون بواسطة صهره وهو من أهل قرقخان ولديه سيارة جميلة فمررنا ببيته أولاً ثم وصلنا إلى الاسكندرون، واتفقنا مع المرآب على أن نسير الساعة الرابعة بعد الظهر، فذهبنا إلى مقهى كان صاحبه الصديق صلاح الشيشكلي شقيق المرحوم أديب الشيشكلي رئيس الجمهورية السورية السابق، جلسنا في المقهى بعد أن تناولنا غداءنا من السمك الممتاز في مطعم «آل عروس» الكائن والمشرف على خليج الاسكندرون الجميل، وقد حاول صلاح أن يطعمنا شيئاً مما لديه فأبينا لأنّ لهجته كانت مشوبة ببعض التردد، ومع أننا تناولنا غداءنا، إلا أن الرجل لم يدعنا دعوة ملحة وأنا أكره هذه الدعوات المختصرة المترددة التي تقال للمسايرة لا للتنفيذ. وذهبنا إلى المرآب في الوقت المحدد وكان السائق ومعاونه من أهل الاسكندرون الذين يتكلمون العربية لأنهم عرب قبل أن يكونوا أتراكاً، إلا أن التكلم بالعربية كان ممنوعاً إذ ذاك، ولا أدري إن كان هذا المنع مستمراً إلى الآن أم لا. وسرنا على بركة الله فاجتزنا كالعادة «أضنة» البلدة الكبيرة فنزلنا فيها قليلاً وتناولنا بعض الفاكهة وبخاصة الإجاص التركي الشهير، وكانت ـ رحمها الله ـ تحب هذه الفاكهة، كما كنت أسليها في الطريق فأتحدث إليها عن منفانا القديم وما شاهدناه في أضنه هذه التي حجز فيها والدي ونحن عائدون، واجتزنا جبال طوروس، وكانت ـ رحمها الله ـ تخاف السرعة وتخاف المنعطفات فكانت ترجوني أن أنبه السائق إلى السرعة، وكانت تمسك بي كلما اجتزنا منعطفاً مع أن الطريق في هذه الجبال لا يخيف أبداً وهي ليست مرتفعة ارتفاعاً مخيفاً، بل على العكس كنت أراها كالهضبات الهينة، وكنا في الطريق نمرّ بالمطاعم المبثوثة هنا وهناك في كل ٤٠ أو ٥٠ كيلومتراً فنجد طعاماً وشراباً طيباً حتى وصلنا إلى قرب استامبول، وكنت بعد أن اجتزنا أنقرة أسمع لغطاً وأناساً يتكلمون بالعربية ولهجة سورية إلى أن هبط من السيارة أحد هؤلاء في أحد المواقف فتقدمت منه وقلت: أنت ابن عرب، فلماذا لا تتحدث معنا في الطريق والطريق طويلة مملة، فما كان منه إلا أن نظر إليّ مبتسماً وقال: والله إني أعرفك ولم أجرؤ على التحدث إليك ألست فلاناً؟ ولفظ اسمي فقلت: بلى ولكن لِمَ تخشاني؟ ألا تراني مرتبكاً؟ وكان اسمه: شفيق نوفل، وهو من أهل «القرداحة» ـ بلدة الرئيس حافظ الأسد رئيس جمهورية سورية ـ وكان الرجل لطيفاً فقد أشرف على خدمتنا وقد رافقنا في القطار وكان ذاهباً إلى المانيا، وفي استامبول رافقنا وحمل لنا أشياءنا وحقائبنا إلى عربة مناسبة، أما هو فكان في عربات النوم «قاكون لي» العربات ذات الأسرة، وما كاد القطار يسير بنا حتى تذكرت قول شوقي وهو داخل إلى الشام:

سار القطار بنا والنار تدفعه ... ما بين رائع أشجار وأنهار
فكان أعجب شيء مر في خلدي ... قوم يساقون للجنات بالنار

وتذكرت ذلك الفيلم الذي اشترك فيه الممثل الأميركي «ريتشارد ويدمارك» وهو فيلم «قطار الشرق السريع»، وهو القطار الذي كان يسير بنا من استامبول إلى صوفيا، دام سيرنا من عصارى ذلك اليوم إلى ظهيرة اليوم الثاني حين وصلنا إلى صوفيا. ولكنا لقينا ضيقاً في الطريق فقد ازدحمت العربة بركاب من الأكراد والأتراك وكانت هيئتهم مؤذية وألبستهم مقرفة وكانوا ذاهبين إلى ألمانيا للعمل فيها كعمال ومعهم مأكلهم العجيبة والكثير من الجبس والخبز وقد ملأوا العربة بقشور الجبس، وكان يمر شرطي القطار فلا يكلمهم ولا ينبههم إلى تلك القمامة التي تركوها، وكانوا نائمين أكثر الوقت وهم يشخرون ويسعلون وليس بينهم غريب إلا أنا وزوجتي المسكينة التي كادت تنفجر من الغضب. وكان شفيق يدعوني أثناء الرحلة إلى عربته فيسقيني القهوة والشاي فهو يعمل تاجراً بين ألمانيا وسوريا، وكان فيما مضى موظفاً في السفارة السورية في صوفيا، فهو يلم ببعض الكلمات البلغارية، وحين وصلنا نزل معنا في محطة صوفيا العظيمة التي تعتبر أكبر محطة في أوروبا، وصعد معنا سلم المحطة إلى حيث السيارات فركبنا السيارة ومعنا أشياؤنا وسلمناه الورقة التي تشير إلى عنوان صهري في مجمّعات «الدرفنتزا» وهي مجمعات الطلاب، وفي الطريق سألنا عما حل بالعرب في مواجهتهم إسرائيل، وكانت حرب الـ ٧٣، ولا أدري ماذا تكلم بالبلغارية، ولكنه كان كلما تكلم قليلاً هز برأسه تعجباً وتأملاً. وقفت السيارة بنا أمام البناء الذي فيه صهري وهو مؤلف من ثمانية أدوار واتصلنا بالمشرفة على البناء لأن لكل بناء مشرفة واتصلت بابنتي فنزلت ونزل معها ولداها الصغيران وهما يصرخان فرحاً وتهليلاً، فكان منظراً من أحلى المناظر التي مرت بحياتي، وصعدنا بالمصعد إلى السكن الذي خصص لهما واسترحنا بعد الطعام ونمت نوماً عميقاً تجاوز ثلاث ساعات، إذ كنت متعباً لقلة النوم على الطريق، وفي اليوم الثاني ذهب الصهر إلى المشفى الذي يعمل ويدرس فيه وذهبت ابنتي إلى الجامعة ونزلت أنا إلى المقهى الذي اخترته طوال مدة إقامتي في صوفيا وهو «مقهى يالطة»، وهو مقهى جميل مكشوف من جميع جوانبه وفي مركز البلدة وأمامه الجامعة البلغارية، وهناك تعرفت على بعض الفلسطينيين والسوريين وكنت أذهب إليه كل يوم تقريباً. وبعد يوم أو يومين ذهبنا إلى بناء ضخم لعله أضخم بناء في صوفيا هو «التسوم»، وهذا هو بناء البضاعة التي تباع لكل سكان بلغاريا بأسعار محدودة وفيه كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين من ملبس ومأكل ومشرب، وهو مؤلف من خمسة أدوار واسعة وبعد فترة نزلنا إلى أحد المطاعم فلفت نظرنا أن المطاعم كلها مغطاة نوافذها بحيث لا يرى الآكل من الناس خارج البناء ولَفَت نظرنا أيضاً صحن السَّلَطة المؤلف من البندورة والخيار والجبنة، واستغربنا الجبن مع البندورة والخيار وقلنا: لكل بلد طعام، وفي مرة من المرات جاءت الموظفة المخصصة للخدمة تقول هناك أكلة اسمها: «الموساكا»، وهي أكلة جيدة وطلبنا صحناً منها وإذا بها: المسقعة المعروفة بدمشق المؤلفة من الباذنجان والبندورة والفليفلة المطبوخة، وإن كلمة «موساكا» مأخوذة من مسقعة وقلنا: هذه ثقافة جديدة استفدناها. وكنت مرة جالساً في مقهى «يالطه» وبجانبي كرسي فارغ فإذا بشخص يشير إليّ مستأذناً للجلوس فأشرت له بالموافقة فجلس وأحببت أن أداعبه وسألته بلهجة إنكليزية وكلمة لا أعرف غيرها وقلت له: إنكليش، فالتفت إلي وهو يقول «نو أراب» وعندئذ تحركت بسرعة وسألته: من أي بلد عربي أنت؟ فقال لي: من سوريا، وقلت من أي بلد في سوريا، فقال: من مصياف، وقلت: من أية عائلة أنت؟: قال من آل سليمان، فقلت: لا توجد في مصياف هذه العائلة، هذه من سكان قرية «البيضاء»، فقال: نعم، وقلت له: فصيح ماذا يكون لك، قال: والدي، وهكذا تعارفنا مجدداً وإذا به من تلامذة بلغاريا وهو يدرس فيها هندسة البترول، وكانت معه سيارة «فولكسفاكن» التي لا تفارقني في رحلاتي كما عرفت في هذه المذكرات وأقلني إلى حي الطلاب حيث يسكن صهري، ودعاني في اليوم الثاني إلى سهرة جميلة كما وعدني، وقلت له: أحب أن أسمع الغناء والرقص «النَّوَري» المسمى «تزيكان» في بلغاريا. ففي أوروبا الوسطى والشرقية عدد كبير من «النور» الذين يسمون عندنا: القرباط، وبالفعل لقد انتظرته في اليوم الثاني الساعة الثامنة مساءً فجاء بسيارته إلى المنطقة الطلابية، وحين

دخلت السيارة وجدت شخصاً أسود كالليل يحمل في رأسه شعراً كثيفاً حالكاً كأنه المظلة على رأسه وضحكت، فقال: مِمَّ تضحك، ونظرت إلى الأسود وهو تلميذ سوداني، فضحك هو أيضاً كما ضحك السوداني وقلت: لقد عتّمت المكان، وفي الطريق تحدثت إليهما ما رُوي لي من حكايا الطلاب في مدينة الطلاب التي تضم أكثر من ثلاثين ألف طالب من الغرباء. لقد رُوي لي أن القادم إلى مدينة الطلاب إذا رأى ضوء نافذة مشعلاً فينبغي أن يعلم أن هناك ثلاثة إمكانات: إما أن تكون الغرفة لطلاب سودانيين سكارى، أو طلاب كوريين يدرسون، أو طلاب سوريين يبدلون العملة، وتبديل العملة في بلغاريا عمل يتعاطاه أكثر الطلاب وهم يعيشون من هذه الطريق، فقد يربحون مبالغ من وراء ذلك، وعملتهم هي «الليفا» التي كان الدولار يساوي منها ثلاث «ليفات»، والليفا هناك تعمل عملاً لأن البلدة رخيصة لا غلاء فيها. وذهبنا بالسيارة إلى خارج البلدة وحين نزلنا وجدنا فتاة واقفة تنتظر سيارة فقلنا لها، أو قال لها صاحبي عبد الكريم وهو يتقن اللغة البلغارية: نحن معنا سيارة فادخلي إلى المقصف واسهري معنا ثم نأخذك إلى حيث تريدين بعد انقضاء السهرة فقبلت الفتاة دون اعتراض أو ملاحظة، واستغربت الأمر! فقال لي عبد الكريم: لا تستغرب هذا فهنا الحرية مطلقة، ودخلنا فسمعنا غناءً جميلاً ورأينا هؤلاء «النوَر» بألبستهم الخاصة الموردة ورقصنا، وراقصت الفتاة بعد أن لبست لباس السهرة الذي كانت تحمله في حقيبتها، وظللنا هكذا حتى ساعة متأخرة من الليل، وما زال عبد الكريم هذا صديقاً لي وقد غير بلدة صوفيا بعد ذلك وذهب إلى بلدة أخرى، وأظنه أكمل دراسته بعد أن مكث في تلك البلاد أكثر من عشر سنوات.

وفي صوفيا منتزهات ليس لها مثيل في أوروبا كما أظن، وكانت عند صهري سيارة من نوع «أوبل» وقد ساعدتنا كثيراً على التنقل من مكان لآخر، وأول مكان أعجبني هو الجبل العظيم المطل على صوفيا والذي يقع إلى جنوبيها واسمه «الفيتوشا»، وأذكر أنني صعدت إلى أعلاه في شهر تموز وجلسنا في المقهى الكائن هناك، وأذكر أني لم أتحمل البرد الذي وجدته في ذلك الجبل المشجر العالي مع اننا كنا في عز الصيف، وهناك بجوار صوفيا مكان رائع يسمى «البانشيريفو»، وهو سد هائل يشكل بحيرة وبجانبها مطعم كنا نتغدى فيه وننظر إلى ماء البحيرة وكأنه سماء ثانية، وكنت أتذكر قول البحتري الشاعر في وصف بحيرة المتوكل:

إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً حسبت سماء ركّبت فيها

وبجانب هذه البحيرة طريق جميل مشجر ومسوّى، كنا نذهب فيه مسافة ثلاثين كيلومتراً لنأكل السمك النهري الذي كانوا يصنعونه بعد أن يصطادوه من النهر أمامنا فيشوونه بعد أن يقطعوا رأسه ويتركوه معلقاً في آنية الفخار ويجعلون تحته من البندورة والبصل والفليفلة «كالكاواج» المعروف لدينا فتكون أكلة رائعة ممتازة. في مكان تحيط به الجبال والهضاب الخضراء التي كنا نرى فيها الغزلان رائحة وجائية مطمئنة لأن الصيد ممنوع إلا في أوقات معينة من السنة. وصوفيا أنظف مدينة في أوروبا من غير شك، أو أعز بلدة على أهلها، وهناك وقريباً من صوفيا على مسافة ثلاثين أو أربعين كيلومتراً قرية رائعة لم أر مثلها في حياتي هي قرية «بانكيا» وهي مصح للأمراض العصبية لأن فيها مياهاً معدنية، وقد ذهبنا إليها في القطار وحين وصلنا إلى المحطة وأردنا أن نأخذ تذاكر السفر حدث معنا حادث غريب، فقد كانت الموظفة الجالسة وراء نافذة «القطع» عصبية المزاج صرخت بوجهنا وأردنا أن نقابلها ولكن رجلاً تقدم منا وقال: تعالوا معي أنا أساعدكم، ثم قال أنا مسلم وأخرج لنا مصحفاً صغيراً من صدره ولكنه مع الأسف لم يكن يعرف شيئاً من اللغة العربية ولقد ذهب إلى مكان آخر فقطع لنا التذاكر وشكرناه، وبهذه المناسبة فإن في بلغاريا مسلمين كثيرين من أصل تركي، كما أن هناك مسلمين من أصل بلغاري محض ومنهم طلعت باشا الوزير التركي الشهير، وهم يسمون «بوماخ» كما أشرت إلى ذلك في مكان سابق من هذه المذكرات.

ركبنا القطار إلى بانكيا الجميلة، وأنا والصهر العزيز وزوجتي المرحومة والأولاد وسرنا بين الحقول والبساتين الخضراء مسافة ثلاثين كيلومتراً، فوصلنا إلى قرية لا تكاد تظهر لكثرة الخضرة والأشجار، إن

شوارعها المبلطة المزفتة محفوفة بالشجر، ورأينا في المنطقة بناءً منخفضاً عن الأرض قرابة متر وهو واسع كأنه ملعب روماني، وفي وسطه سبيل من الماء له حنفيتان إحداهما باردة والأخرى ساخنة وبجوار هذا المكان شارع يخرج من البلدة لا يرى الشمس وهو كالرواق يسير فيه المرء وهو يكاد يلتمس الطريق العظيم الظلال والأشجار المتكئة إليه. ورجعنا بنفس القطار وحين وصلنا وأردنا أن نصعد بسلم المحطة الكهربائي أخذت أنا طريق السلم العادي وصعدت الزوجة المسكينة بالسلم الكهربائي بناءً على رأي ابنتها ولكنها سقطت لعدم تجربتها وأوقف السلم حالاً، فقد كان هناك رجل مهمته أن يوقف السلم عندما يسقط أحد عليه ممن لا يعرفون أسلوب هذا السلم، وهو عمل جيد وقد شكرنا الرجل على نباهته ويقظته لأن الكثيرين يسقطون هذه السقطة التي ظللنا ذاك المساء كله نضحك منها.

بجانب صوفيا دير قديم يسمى دير «ريلا»، وريلا اسم جبل هناك كما يوجد في صوفيا فندق ضخم بهذا الاسم، وقد ذهبنا بالسيارة إلى هذا الدير وطفنا في جوانبه فإذا هو عال علواً عجيباً وإذا بالسحاب يمر ويجتاز شرفاته التي تلامسه وكأنه مبني في السماء لا في الأرض، لقد كان ذلك منظراً عجيباً، وبجانب الدير مطعم جميل تناولنا فيه طعامنا ثم عدنا عند المساء إلى صوفيا.

بعد سنة قررنا أيضاً السفر إلى صوفيا وكانت هذه رحلة متعبة حقاً، وكان السبب نحن لأننا فضلنا السفر في السيارة «الباص» بدلاً من القطار، وحين وصلنا إلى استامبول اضطررنا للبقاء في مكتب السيارات أكثر من ثلاث ساعات، وكانت السيارات يومها مضربة ولم أعلم سبب ذلك، وقد نقلنا إلى السيارة التي وقفنا قربها ننتظر أن تتحرك، وظلت هي تنتظر أكثر من ثلاث ساعات ونحن جالسون على الرصيف إلى أن أذن الله بالسير، وسرنا عند المغرب واتجهنا صوب صوفيا وسارت السيارة، وكانت تسير قليلاً ثم تقف لتأخذ البانزين فلا تجد، وكان معنا بعض الركاب العراقيين الذين كثيراً ما يزورون بلغاريا للاصطياف، وكانت الزوجة المرحومة تنام أكثر الطريق بينما كنت أنا مستيقظاً، وهكذا حتى وصلنا عند الفجر إلى صوفيا ومن منتصف المدينة في موقف السيارة أخذنا سيارة أخرى إلى مدينة الطلاب التي وصفتها لك، وكان صهري قد بدل البناء الذي كان فيه فوصلنا بالسيارة وكان الظلام مخيماً فرأينا رجلاً وامرأة يخرجان من بيتهما فأعطيناهما رقم البناء فدلانا عليه وصعدنا بالمصعد وكان صهري والجميع نائمين وطرقنا الباب ولما رآنا شهق للمفاجأة وقام الجميع فاستقبلونا، وهكذا شربنا قليلاً من القهوة ثم أخذنا النعاس فنمنا إلى قرابة الظهر. وفي اليوم الثاني قررنا أن نذهب إلى «فارنا» البلد السياحي المشهور في بلغاريا وأوروبا كلها وفيها المسبح الشهير المعروف الذي يوجد فيه يومياً حوالي ثلاثين ألفاً من السابحين.

بعد أيام امتطينا السيارة في رحلة العمر التي لا تنسى منذ الصباح الباكر وسرنا على الطريق الرحب السهل، وكنا ننتقل من قرية إلى بلدة ومن بلدة إلى مطعم طوال الطريق الذي بلغ ستمائة كيلومتر ووصلنا عند المغرب إلى فارنا الكائنة على شاطىء البحر الأسود وفي فارنا اهتدينا إلى بيت له حديقة واسعة وغرف نظيفة، وقد استأجرنا غرفتين لي وللزوجة واحدة وللصهر وعائلته وأولاده غرفة واحدة، وكانت الأجرة رخيصة جداً، فلم تكن تكلفنا الليلة الواحدة أكثر من عشرين أو ثلاثين ليرة، وكان مجموع ما دفعنا /٤٢/ ليفا فقط، وقد أهدانا صاحب البيت قطرميزاً من العسل ولكنه مع الأسف الشديد سقط من السيارة وانكسر ولم نذقه، ومن المهم أن نذكر بأن البلغاريين من أكثر الأمم نظافة، ففي كل صباح تجد كل بلغاري في الحمام وهذا شيء لا بد منه يومياً، ولكنهم يحبون البصل والثوم والفليفلة والمخللات، وناحية الضعف التي أملّتنا هو أن طعامهم في المطاعم ليس لذيذاً وليس مما يؤكل، والسبب هذا النظام الاقتصادي الضيق الخانق المطبق عندهم والذي يحرم الشعب هناك من طيبات الحياة كلها في سبيل المبادىء التي لم يوافق عليها الشعب إطلاقاً ولا هو راض بها، إن سائق التاكسي يتقاضى راتباً فهو إذا طلبته لا يجيب لأنه سيتناول راتبه القليل سواء عمل أم لم يعمل، ولذلك كنا نشير إليه أننا سندفع له ضعف المبلغ وعندئذ يقبل. وهذا يعني أنه يعطي أحد المبلغين إلى الدولة ويحتفظ هو بالمبلغ الثاني. والذهب محرم عليهم وهو ممنوع، ولقد شكوا في مرة أنني أحمل ذهباً فلم يتركوا سنتمتراً من جسمي إلا

وفتشوه حتى أنهم انتزعوا حذائي من رجلي ليفتشوه ولا أدري أين الحرية بالنسبة لمثل هذه المعاملة التي تجعل من الإنسان حجراً أو دابة أو قرداً، ولقد تنبأت بزوال هذا النظام وهو الآن ما يقع في أيامنا هذه من الإصلاحات التي تناولت الدول الأوربية الشرقية وعلى الأخص بلغاريا التي استغنت عن رئيسها السابق لكي تحور النظام تحويراً يتناسب مع الديموقراطية التي حرم الشعب منها باسم العدالة المصطنعة المكذوبة، وأنا أذكر أنني لم أذق لحم الخروف والغنم ببلغاريا أبداً لأني لم أجده لا في المطاعم ولا في أماكن بيع اللحم الرسمية عندهم، وقد كنا نعيش على لحم البقر أو الدجاج، ثم اني لم أشاهد برتقالة واحدة في كل بلغاريا، وكنت أتعجب من هذا في حين أن الإجاص والتفاح يسقط على الأرض لكثرته ولا يأكله أحد، الفنادق مراقبة وأبنية الطلاب مراقبة وكل شيء حتى النفس مراقب. كنت أخرج كل يوم مع العائلة كلها إلى الشاطىء العظيم المسمى «الرمال الذهبية» فأشاهد آلاف السابحين وأغلبهم من الغرباء من أواسط أوروبا وشماليها ومن البلدان الشرقية العربية وغيرها، وكنا نجلس في عربات صغيرة متنقلة وضعت فوق الرمال الصفراء الجميلة.

إنها لبذاءة حقاً وهل يخطر على بال الإنسان أن يجتمع أناس محترمون فيكونون عارين بلا أي ستار حتى ولا أعضاؤهم المخبأة التي تستر عادة حتى عند المتوحشين من آكلة البشر، وكذلك هل يظن المرء أن يجلس نسوة محترمات عاريات حتى من ورقة التين، ويدخل الرجال فيرونهم وهن غير خجلات ولا خفرات وكأنهن لم يصنعن شيئاً مخالفاً، ثم أن هناك شيئاً رأيته عجيباً ومنافياً للشعور الإنساني وللعقل، فقد تمر بمحطة السيارات فترى أحد الشباب وقد أمسك بفتاة يضمها إلى صدره ويقبلها بوقاحة أمام الناس جميعاً ولا يعترض أحد على هذا إطلاقاً، حتى أن من يعترض ربما تعرض للجزاء لأنه يكون بنظر هذا القانون البذيء يتعرض لحرية الآخرين، فهل رأيت إلى الحرية التي تخالف العقل والحياة والإنسانية، وما نفع المرأة وأين جمالها إذا كانت سلعة ملقاة في الطريق؟ وأين مناظرها الجميلة من صدر وبطن وأثداء وأعضاء أخرى، أين جمال هذه الأشياء إذا كانت عارية مكشوفة لكل راءٍ دون حياء أو خفر؟ لقد قال شوقي: (وجمال البقريات الحياء)، وأنا أقول إن جمال المرأة في حيائها، والمرأة الوقحة تسمى مسترجلة والمسترجلة هي المرأة التي خالفت أنوثتها ومن حقها أن تعيش في قطعان شاردة في العراء بدلاً من أن تسكن في أبنية أو عمارات لا تستحقها.

وعدنا من فارنا بعد ستة أيام إلى صوفيا، وكانت رحلة من أمتع الرحلات لولا ما نوهت به من قلة الحياء وقلة الإنسانية.

٤٨ سفر وإرهاق

قبل أن ينتهي من الدراسة الصهر وابنتي قررا أن يزورا دمشق وأن يحضر الأولاد معنا على أن يعود هو إلى صوفيا بعد أيام، وكانت السيارة «الأوبل» قد أخذت ترتبك في سيرها بين يوم وآخر وإصلاح السيارات من أصعب الأمور في بلغاريا بسبب نظامها السياسي، لأن هذا النظام من شأنه أن يعطل الإتقان فلا تجد صناعة متقنة عندهم لأن العامل ليس له علاقة بما يعمل كما ليس له علاقة بإنتاجه ما دام كل شيء للدولة وراتبه مستمر إن عمل أو لم يعمل، وقد أحضر الصهر أحد طلاب كلية الكهرباء فجاء وأصلح السيارة من الناحية الكهربائية، وكنا مرة في زيارة لأحد الأطباء من أصدقاء صهرنا فخرجنا لنشغل السيارة ونعود إلى مأوانا وما كاد يلمس المحرك حتى هبت السيارة وكأنها قنبلة، وأخذت السيارة المسكينة تروح وتجيء بين الصهر وبين هذا المهندس «الغلط» إلى أن رأيناها أخذت تسير بهدوء ولم نعرف ما خبأه لنا القدر، وآخر شيء صنعه صهرنا أن بدل «البطارية» وكان هذا أيضاً خطأ كما يبدو، إذ تبين لنا فيما بعد أن البطارية غير سليمة وغير صحيحة. ولا أدري إلى اليوم كيف وافقته على السير في هذه الرحلة الطويلة من صوفيا إلى دمشق، وأنا أعرف أن السيارة غير مطمئنة ولا هي صالحة صلاحاً تاماً.

وسرنا في صبيحة يوم من أيام النحس، وما كدنا نسير خمسين كيلومتراً حتى مرت بنا سيارة تحمل الحجارة، وحين انفتلت عند المنعطف ألقت على سيارتنا كمية من الحجارة فكسرت زجاج الضوء الأمامي وكسرت أشياء أخرى لا أذكرها، وتوقفنا قليلاً ويا ليتنا عدنا إلى صوفيا لنغير وجهة سفرنا ولنسافر في القطار فهو أضمن سبيل لمثل هذه الرحلات الطويلة، وقال الصهر وهو سائقنا: يجب أن نرى الشرطة في أقرب موقع للشرطة حتى ينظموا تقريراً بالحادث وإلا فهم يعيدوننا إلى صوفيا، وذهبنا إلى بلدة كبيرة هي «بورغاس» نفتش عن الشرطة فلم نجد شرطياً واحداً، وقيل لنا إنهم في عمل زراعي يجنون الثمار، وتصور شرطة الدولة المكلفة في الأمن يتغير عملها وتترك الأمن معطلاً لتجمع الثمار من الحقول، وسكتنا ثم استأنفنا سيرنا إلى بلدة أخرى لنرى الشرطة وقد دلونا على مكانها، وجلسنا ننتظر ساعات إلى أن أقبل شرطي يركب دراجة عادية فأومأنا إليه، فوقف، وجئنا نحدثه بالموضوع فقال: ليس لي علاقة. ولا أستطيع إعطاءكم تقريراً، وللمصادفة العجيبة أن الطفل الصغير وعمره ثلاث سنوات بادر إلى الحديث مع الشرطي وكان يتقن اللغة البلغارية خيراً من أهلها وقال للشرطي: نحن مسافرون ونرجو منك أن تقضي هذه المهمة، ونظر الشرطي إلى الطفل ثم نظر إلينا وقال: سأقوم بهذا العمل إكراماً لهذا الطفل الصغير الذي يجيد التكلم باللغة البلغارية وهو غريب عنها، ومشينا وقلت للصهر العزيز: إن هذا الشرطي كان يريد منا رشوة ولكنا لم نفهم ما أراد؟ ووصلنا إلى مكان في آخر بلغاريا فسألنا عن الطعام فقيل لنا: إن الوقت انتهى ولا يوجد طعام، وهذه حال كنا نراها دائماً، فكل شيء في بلغاريا موقت ومحدود لأن الناس فيها من الآلات والأدوات ولم يكونوا في النظام القديم من البشر، وسرنا بعد أن تناولنا شيئاً من «السلطة» واجتزنا الحدود بسهولة ولكن أحداً لم يسألنا عن معاملة السيارة التي أضاعت من وقتنا أكثر من خمس ساعات، ولم أعاتب صهري في تفكيره هذا كي لا يتأثر أو يغضب وهو كان وما يزال مهذباً جداً وذا تربية نادرة ـ بحمد الله ـ وما كدنا نجتاز الحدود حتى دخلنا في الظلام ولم نسر إلا قليلاً حتى وصلنا إلى بلدة أدرنة الشهيرة.

لم يخطر على بالي في يوم من الأيام أن أرى هذه المدينة التاريخية وأن أنام فيها ليلة من أسوأ ليالي العمر في بلاد بعيدة عن بلدي، وبجانبي امرأتان وولدان صغيران وسيارة لا تسير إلا متقطعة النفس واهية القوة، ولقد وصلنا إلى البلدة عند العشاء لتأخرنا حسب رأي الصهر من أجل الشرطة دون أن يسألنا أحد عن معاملة الشرطة، وقد كان تقديرنا أن نبيت في استامبول بدلاً من هذه المدينة الصغيرة

البعيدة، وسألنا الاستعلامات السياحية التي وجدناها في مدخل البلدة فدُللنا على فنادق لا فندق واحد، ومشينا في شوارع منحدرة إلى أن وصلنا إلى فندق صغير أشبه بالكوخ، وفيه رجل كبير السن استقبلنا واتفقنا معه على الأجرة وكانت أسرة الفندق أشبه بأسرة المشافي ضيقة وفيها أسرة بعضها فوق بعض كسرر الثكنات العسكرية، وطلب الأولاد الأكل كالعادة فخرجت أنا والصهر إلى سوق البلدة فأحضرنا معنا الجبنة والبطيخ ولم نجد شيئاً آخر، فأكلنا ونمنا نوماً عميقاً من الكدر والهم لا من التعب، وفي الصباح الباكر أعطينا الرجل الأجر وذهب صهري ليرى ما تحتاجه السيارة ثم ركبنا وانطلقنا وقد مررنا من جانب الجامع الكبير الذي بناه السلطان سليم الأول في هذه البلدة يوم ألحقت بتركيا عند الغزو وسرنا.. وسرنا، وكانت السيارة هذه المرة نشطة لم تقف ولم تتعبنا وقلنا: الحمد لله، ولكنا حين وصلنا إلى استامبول ووقفنا بجانب السور القديم لنتصل بقريبنا الذي كان قد أصبح ممثلاً للجامعة العربية بدلاً من القنصلية، حين وقفنا كانت السيارة في شبه غليان، ولما فتحنا الغطاء اندفع منها بخار ساخن ورأينا أن المحرك كله على أهبة الانفجار لأن الصهر نسي أن يضع الغطاء على مكان الزيت وقد نسي الغطاء بجانب الفوهة وأخذ الزيت يخرج من الفوهة وينتشر في جو السيارة الداخلي كله وإذا بالزيت قد نفد من زمن بعيد وكان ذلك أكبر الخطر، واتصلنا بقريبنا الذي طلب إلينا أن نأتي نحن إليه لأن مجيئه يكلف كثيراً، وهو لا يحب الكلفة قليلة كانت أم كثيرة، وسرنا إلى مكان القنصلية وعرضنا له مشكلة السيارة وسعينا إلى وضعها عند ميكانيكي مختص وكان عنده صديق حمصي جاء سائحاً إلى استامبول فدعانا إلى الطعام وذهب معنا قريبنا طبعاً، وبعده دعاني الحمصي لأنام معه في غرفته بأوتيل «الهلتون» لأن السرير خال وقد كان فيه أحد أصحابه الذي سافر، فوافقته على ذلك ونزلت العائلة في الفندق الذي كان فيه قريبنا والذي كان منشغلاً دائماً بشؤون الجامعة العربية، ولم نكلفه شيئاً طبعاً لأنه أبدى عدم الاستعداد، وقد أسمعته بأنا بحاجة إلى شيء من المال فغيّر الموضوع وتحدث بشيء آخر وبطلاقة، وأمضينا تلك الليلة وجئت إلى الفندق الذي كانت فيه العائلة فدفعنا الحساب، وقالت لي الزوجة ـ رحمها الله ـ : إن قريبنا يرجوك أن لا توقظه لأنه متعب، وقد أدركت ما يقصد فقد نكلفه بما يتعبه وهو يتعب من التعب وسرنا دون أن يودعنا أو نودعه وكان يشجعنا على السير أن الجو حسن والسيارة قوية، مع أن الجو كان سيئاً جداً لأن المطر وبعض الثلج لم يتركانا حتى اجتزنا أنقرة، أي لمسافة خمسماية أو أكثر من الكيلومترات، وفي تلك الفترة صادفنا شخصاً من آل الجندي كنت أعرفه من قديم واسمه عبد الحميد ـ رحمه الله ـ وهو من آل الجندي الحمويين وولده يشتغل في استامبول ومعه سيارة، وقد رافقنا هذا الرجل الطيب هو وابنه وزوجته مسافة كيلومترات عديدة حتى اجتزنا الجسر الكبير الجديد بينما ظل القريب الصهر يغط في نومه وقد استطاع إقناعنا بالسفر قبل الأوان، وسرنا ثم سرنا حتى وصلنا إلى مكان بعد مئات الكيلومترات، فعرجنا على المكان لنأكل، وبعد أن أكلنا خرجنا لنسير وإذا بالسيارة مضربة عن العمل، فحاولنا ثم حاولنا فلم تتحرك حتى استعنا بغلام شاب عابر جاء إلينا وحرك السيارة لا أدري كيف؟ فتحركت بإذن الله وأعطيناه ما فيه النصيب وسرنا وظللنا نسير ونحن في هلع من هذه السيارة اللعينة إلى أن اجتزنا أنقرة بعشرين كيلومتراً تقريباً فوقفنا، لا أدري لماذا؟ ولما حاولنا تحريكها أضربت عن السير، وحاولنا فلم نفد شيئاً، وسألنا عمن يصلحها ولكن الليل والبرد داهمانا فسألنا عن مأوى فدللنا على مكان أشبه بحبس الموقوفين، فندق صغير كل نازليه من فلاحي الأتراك، ولكن صاحب الفندق كان رجلاً طيباً جداً، وهنا بدأ العذاب القاتل في إصلاح السيارة وذهبت إلى المطعم القريب مع العائلة بعد أن خلفنا أغراضنا في غرفتنا في الفندق وأخذنا مفتاحها كما نصحنا صاحبه وجلسنا لنأكل ونحن ننظر من باب المطعم إلى السيارات المطهمة للسعوديين والعراقيين وغيرهم وهي تمر بنا تسابق الريح، وكنت أنظر إلى سيارتنا القابعة أمام الفندق بلا حياة ولا من يحزنون. ونمنا تلك الليلة دون نوم فقد تقلبت في فراشي وأنا انظر إلى النائمين حولي إلا زوجتي المسكينة فقد خافت مما أنا فيه من همٍّ وضيق وأخذت تحدثني بأن الصبح سيأتي والهم سيزول ومعنا المال والمصلحون للسيارات كثر، وهكذا حتى نمت قليلاً وفي الصباح قمت أبحث عن مصلح للسيارة فوجدت رجلاً جاراً للأوتيل، فدعوته فلم يتأخر وأخذ يعالج السيارة ولكنه

لم ينجح في عمله بشيء وحين أردت أن أنقده الأجر أبى أن يأخذ شيئاً، ونصح إلينا بالذهاب إلى مصلح بجوار بلدة أنقرة فوافقناه ثم أعاد تحريك السيارة فتحركت ولكن بصوت مخيف غير طبيعي، وسرنا برغم ذلك فوجدنا مكان التصليح، انتظرنا زهاء ساعتين ودفعنا مبلغاً كبيراً وعدنا إلى الفندق، وبعد أن دفعنا ما علينا للفندق وأنزلنا الحقائب حركنا السيارة فتحركت حركة غير طبيعية إذ كانت تنفجر انفجاراً ولا تعمل عملاً طبيعياً، ونادينا الرجل الذي بدأنا بالنصح فقال: إن الإصلاح ليس كاملاً ويجب أن نعود إلى الرجل، وعدنا ثانية إلى قرب أنقرة فأعدنا الإصلاح وتبين أن البطارية التي اشتراها صهرنا في صوفيا لم تكن صالحة أو هي مغلوطة، والله أعلم، وعدنا فاستأنفنا سيرنا وكنت في حال لا تحتمل من الغم، وكان صهري وهو المعروف بطيبته ينظر إليّ ويأسى لما أصابني في هذا السفر، وكان يناولني القهوة المرة التي اصطحبها من صوفيا بين حين وآخر، ولم نسر إلا بضعة كيلومترات حتى رأينا الماء يسيل من السيارة ويترك خطاً وراءنا على طول الطريق، ونزلنا من السيارة فعلمنا أن أداة الماء معطلة أو مثقوبة لا أدري، وقد انتقل الوجع في السيارة العزيزة الآن إلى مكان آخر حتى وصلنا إلى «آق سراي»، وفيها مطعم كبير فنزلنا في الفندق محاولين الاستراحة وتناولنا غداءنا وذهبنا نصلح السيارة وحاول المصلحون الأكارم، فغيروا أداة الماء ونظروا في البطارية فأصلحوا عيبها ونزلنا لنسافر ونكمل رحلتنا الخبيثة، وما كدنا نحرك السيارة حتى عادت إلى انفجارها غير الطبيعي فشتمت الحظ وخطر على بالي أن تتعطل في جبال طوروس فتكون كارثة وأين نجد المصلحين في تلك الجبال الخالية الخاوية وقلت لصهري أن يترك السيارة وأن نكمل طريقنا بالباص ولكنه أبى، فقلت له: إذن أنا أسافر أنا والزوجة ومن يريد منكم، فقرروا جميعاً أن ينتظروا السيارة لإصلاحها وقررت أنا السفر بالباص أنا والزوجة وهكذا كان، فقد أعطيت ابنتي كل ما كان معي من دراهم وأبقيت ما أستعين به حتى الوصول، وفي الصباح الباكر قمت كالسكران المخبول أنظر إلى الولدين النائمين وإلى ابنتي الوحيدة لأتركهم في هذه المنطقة النائية، ونزلت فركبت بالسيارة الكبيرة واتجهنا صوب الاسكندرون.

وصلنا إلى الاسكندرون وأنا أكاد أموت من الحنق والحزن لهذا المصير الذي لم أحسب حسابه والذي كان بسبب قبولنا السير بالسيارة المريضة مع أن القطار جاهز وسهل وأسلم نتيجة.

في الاسكندرون عرجت على مطعم «آل عروس» المعروف لدي وطلبت الأسماك المشتهاة مع المقبلات، ولكن الشهية مفقودة وكيف آكل وقد تذكرت مصير الولدين وأمهما وماذا تم بشأنهم وكيف يستطيعون اجتياز جبال طوروس المتعرجة العريضة وكانت الساعة الحادية عشر، فخرجت إلى الشارع أتحسس أصوات السيارات وأتلفت يمنة ويسرة وهكذا بدأت أجلس نصف ساعة ثم أخرج إلى الشارع ربع ساعة وقد واعدتهم إلى هذا المكان، وظلت حالتي على هذا المنوال أتقدم ظاناً سيارتنا قد أتت فإذا بها غيرها فأرجع خائفاً وأعود إلى طاولة الأكل فآكل لقمة أو لقمتين ثم أخرج إلى أن سمعت زموراً قوياً فالتفت فإذا الطفلان ينظران من نافذة السيارة وكأنهما فرخا عصفور يطلان من عشهما، وما كدت أراهما حتى انهارت أعصابي وانهرت إلى الأرض باكياً ناشجاً من فرحي ومما أصابني من تعب وإرهاق لا يحتمل، وحملت الطفلين وانتقلت بالجميع إلى الطاولة والأسماك التي كانت تنتظرهم وتكلمنا عن سفرهما، وقال الصهر: إن السيارة لم تتعطل مطلقاً وأنهم أكلوا اللحم الشواء على الطريق وهذا سبب تأخرهم، وقلت لهم: نحن هنا بالويل والثبور وأنتم تشوون اللحم وتأكلون يا لكم من مجرمين. وعدنا بعد الغداء إلى السيارة فركبت إلى جانب صهري وأنا محطم الأعصاب لا أكاد أعي من التعب، وكنت غير مطمئن للسيارة الملعونة واجتزنا الحدود التركية بأمان ووصلنا إلى الحدود السورية وحين أبرزنا أوراقنا رأيت الموظف ينظر إليّ نظرة كئيبة ويقول: المعاملة ناقصة ولا سفر اليوم وحرت في أمري، وأين ننام؟ وأين نجلس؟ وكيف لا نطمئن وقد وصلنا حدودنا؟ وحاولت الاتصال بموظف آخر عرفني فلم أستفد منه شيئاً، وخطر على بالي في ساعة من ساعات الإلهام رئيس قسم الجوازات في حلب الذي يتبعه هذا المكان أعني مركز باب الهوى، وقلت للرجل اتصل بالسيد جمال الدين محمود فقال لي: وماذا تفيد؟ قلت له: هذا الذي أريده وإلا فإنني أذهب إلى حلب وأحضره إلى هنا ويبدو أنه خاف، واتصلت فقال لي مرحباً: أهلاً وسهلاً:

أعطني الموظف وأعطيته الموظف فكلمه ويبدو أنه كلمه بلهجة جادة آمراً إياه أن يخلي لنا الطريق دون تأخير، وأخذ الموظف الجواز فوقعه وختمه ثم رمى به أمامي على الحاجز الخشبي وهو يكاد ينفلق من القهر، فأخذنا الجواز وركضنا إلى السيارة وسرنا، وكانت ساعة المغرب ساعتئذ، وحين وصلت إلى حلب وقصصت القصة على من أعرفه قال لي: إن الموظف كان ينوي الرشوة منكما وقد أفلتم من يده رغم أنفه. وعلى الطريق إلى حلب صادفنا بعض الشرطة فعرفوني وسهلوا أمرنا ووصلنا إلى فندق «الكلاريدج» القديم فنزلنا جميعاً في غرفة واحدة وطلبنا بعض الطعام، وما كدنا ننهي طعامنا حتى أخذنا النوم فنمنا كالسكارى إلى الصباح، وفي الصباح أراد بعض رفاقنا أن يمضوا بعض الوقت في حلب فقلت لهم: لن تروا منها شيئاً، أريد أن أستريح وأنام ثلاثة أيام متوالية بعد هذا التعب الذي سببته سيارتكم اللعينة، وسرنا في طريقنا وأنا لا أطمئن للسيارة وقلت لصهري لن أطمئن حتى أصل إلى سريري في بيتي في دمشق، وعرجنا في حمص على مطعم ديك الجن المحبب، فأكلنا من الكبة المشوية واللحم الطري ومكثنا ثلاث أو أربع ساعات واستأنفنا سيرنا إلى دمشق، ومن الغريب أن السيارة لم تتوقف ولم تتأخر ولم تحتج شيئاً من الإصلاح طوال الطريق من الاسكندرون إلى دمشق، ولقد عاد بها صهرنا إلى صوفيا حين انتهت إجازته فلم تقف على الطريق أبداً، وهذا من مفارقات القدر التي لا تترك الإنسان في راحة، وقد ظللت ثلاثة أيام لا أخرج من بيتي بعد أن شعرت بالتعب الكثير بعد النوم الطويل.

في أوروبا مجدداً

كنت في الجزيرة عام /١٩٣٨/ وكنت أسمع باسم رجل من وجهاء القامشلي اسمه: عبد الباقي نظام الدين، وقد علمت أنه في الأصل من بلدة ماردين الشهيرة على الحدود السورية التركية، وأن أسرته انتقلت من ماردين إلى نصيبين ومن نصيبين انقسم قسم منها وجاء إلى القامشلي، فأسس هذا القسم ثروة زراعية وعقارية كبيرة وأصبح الشخص البارز في المنطقة بين العرب المسلمين، وماردين لها ذكريات أدبية عندي، ففيها عاش الشاعر الكبير صفي الدين الحلي، وفيها كان الأمراء الأرتقيون الذين مدحهم صفي الدين في مجموعة من قصائده سماها: الأرتقيات، نسبة لهذه العائلة. وكنت في ذلك العام /١٩٣٨/ في ديوان محافظة الجزيرة؛ وقد خلت الديار من المحافظين ورؤساء الدواوين بسبب الأحداث الدامية التي وقعت في تلك المحافظة بتدبير الفرنسيين مع بعض الأهلين، وكان عبد الباقي نظام الدين على رأس الوطنيين في تلك الفترة وهو وقريبه المرحوم عبد الرزاق الحسو شيخ عشيرة الراشد أحد أفخاذ عشيرة طي الشهيرة الكبيرة. وكنت يوماً في غرفتي في المحافظة وإذا بصديقي القديم ورفيق صفي في المدرسة الزراعية بسلمية السيد نجيب الفرا ـ رحمه الله ـ يدخل عليّ ضاحكاً ويدخل أمامه رجل مهاب واسع العينين ممتلىء الجسم عريض الصوت قدمه اليّ بقوله: عبد الباقي بك نظام الدين، وكنت كما قلت آنفاً قد سمعت باسم الرجل فرحبت به وبصديقي الفرا. ولم ألتقِ بعدها بالسيد عبد الباقي نظام الدين، ولكني بعد سنوات جئت في زيارة لدمشق وكنت يومها في حماه وذهبت للجلوس في المقهى القديم: «ديب الشيخ»، وكان حديقة جميلة في شارع بغداد، وكان قصدي اللقاء بابن عمتي سليمان نصر وقد وجدته في المقهى وهو يلاعب شاباً عمره خمس عشرة سنة بالطاولة، وقد جلست إليهما وبدأت كعادتي بالمزاح، ولكني وجدت رغم ضحكي أنا وسليمان هذا الشاب يلتزم الجد والوقار وقد لاحت لعيني هيئته التي تدل على الغنى وصحته التي تدل على الرفاه والدلال. وبعد قليل ذهب الشاب وسألت سليمان عنه فقال لي: إنه إحسان بن عبد الباقي نظام الدين فهل تعرفه؟ فقلت: بلى أعرفه من الجزيرة فقال: تماماً إنه هو. ولم أعد أرى إحسان إلا نادراً، فقد أخذت عنه فكرة أنه مدلل وأنه مترفع وأرستقراطي، وكل هذه الصفات لا تناسبني شخصياً عدا فارق السن الكبير بيني وبينه، ولذلك نسيته بعد اللقاء الأول: وتعرفت إلى عمه الصديق توفيق نظام الدين الذي هو أخ غير شقيق لعبد الباقي نظام الدين، وقد عرفني به صديقي المرحوم محمد دياب وجمعتني به مناسبات كثيرة لا سيما بعد أن أصبح قائداً للجيش في فترة من الفترات، وقد قدم لي خدمة لا تنسى، ذلك أنه كان لي ابن عم وابن خالة في آن واحد، وهو أخو زوجتي المرحوم طلعت الجندي، وكان عاطلاً عن العمل كما كان شاباً وسيماً يحسن العشرة ولكنه كان فقيراً جداً، إذ لم يخلف له أبوه ما يستطيع به العيش الهنيء، وقد حدثني مرة أن أجد له عملاً، فوجدت له مرة عملاً في حماه في دائرة الميرة ولكنه لم يستمر لأنه أهمل عمله فسرح بعد قليل، وكذلك وجدت له عملاً في التعليم عن طريق صديقي المرحوم بدر الدين الحامد الذي كان مفتشاً للمعارف في منطقة حماة ولكن اتفق هو وأحد المعلمين فتصرف بأموال الصندوق المدرسي للطلاب فسرّح أيضاً من الوظيفة، ولا أدري ما الذي جاء به ذلك اليوم إلى دمشق، وتحدث مع صديقي المرحوم أبي الهدى الباقي من أجله لأجد له عملاً فدلني على اللواء توفيق نظام الدين، على أن أحصل منه على بطاقة توصية للسيد بطرس قعنّص، الذي كان مديراً عاماً للمصرف السوري، وبالفعل أخذت البطاقة للسيد قعنص الذي وافق على تعيين طلعت كاتباً في المصرف السوري بطرطوس، ولكنه لم يلبث إلا أشهراً حتى سرح من العمل، وركضنا للمرة الثانية أنا والمرحوم صديقنا فرزت المملوك إلى السيد بطرس قعنص لإعادة طلعت إلى عمله ولكنه اشترط أن يعود للاذقية لا لطرطوس، وقبلنا منه شرطه وأبلغنا طلعت الذي ذهب فعلاً إلى اللاذقية وبقي فيها سنوات، نقل بعدها وبزمن ابن عمه عبد الكريم الجندي مديراً للمصرف بطرطوس الذي ظل فيه حتى أحيل إلى

المعاش، وقد مات بعد ذلك بأشهر نتيجة إرهاق جسمه بالسهر وغيره ولم يتجاوز الستين إلا بسنوات قليلة. بعد هذه الحوادث العرضية صرت أرى أحسان بين حين وآخر وقد تغير طبعه وأصبح ميالاً للنكتة وللغناء وللغزل، وأصبحت له علاقات بعد أن كبر مع المطربة صباح ومع محمد عبد الوهاب ومع محمد عبد المطلب ومع غير هؤلاء من المطربين والمطربات والفنانين والفنانات، وكان بطبيعة الحال أصدقاؤه أصدقائي وأخذت الأيام تقربنا الواحد من الآخر للاتفاق الأكيد بين طبيعتنا، وعمل على التقريب رجاء الشربجي ورجاء الصيداوي وغيرهما ممن لا أذكر إلى أن صرت وإياه بين عشية وضحاها صديقين نجتمع كل يوم أو كل يومين ولكنا لا ننقطع أكثر من ذلك، إلى أن دعاني مرة إلى فالوغا حيث كان والده مصطافاً مع عائلته فذهبت إلى لبنان بدعوة منه فأنزلني بفندق حمّانا المشرف على أهم واد في لبنان وبقيت فيه أربعة أيام على ما أظن، وكنت أتأمل ذلك الوادي الذي تغنى به لامارتين الشاعر الكبير والذي ذكره مطولاً في كتابه «رحلة الشرق». وقد زرت مع إحسان في هذه الرحلة أكثر المطاعم المشهورة من مثل مطعم المطعم في بحمدون الذي توجد فيه أحسن كبة مشوية في لبنان، ومطعم العجمي الشهير في بيروت ومطعم فيصل قرب الجامعة الأميركية، وإحسان أحسن من يعرف المطاعم في سوريا ولبنان فهو ذواقة شهير في الطعام.

جاءني إحسان مرة منذ سنوات يقول لي: ما رأيك في السفر إلى باريس وكان ذلك في أول الثمانينات فضحكت وقلت له: باريس؟ وما الذي يحملني إلى باريس، إن هذا كان حلماً وانقضى، وهل أفكر بباريس بعد هذه السن؟ قال: سنذهب سوية فهيّء جوازك وأعطني إياه حتى أؤمن لك التأشيرة وقلت له: أنا سأبحث منذ اليوم من أجل الحصول على بطاقة مجانية في الطائرة وقال: لا يهم، مجانية، أو غير مجانية ولكني ذهبت فعلاً إلى سيادة العماد طلاس ورجوته أن يتصل بوزير النقل من أجل الحسم فقال مبتسماً: ولِمَ الحسم، أنا أعطيك بطاقة للذهاب والعودة وغداً تصلك إلى النادي «الذي أعمل فيه»؛ وفعلاً لقد تلقيت في اليوم الثاني البطاقة على الطائرة السورية وكانت التأشيرة سهلة هاتيك الأيام، وقد انتهى كل شيء ولم يبق إلا السفر. وسبقني إحسان إلى باريس فقد كانت معاملته جاهزة وتولى أمري أخواه الصديقان حكمت وبشير، فأرسلا لي سيارتهما مع السائق إلى البيت في الوقت المحدد وزوداني بالعنوان الكامل للفندق الذي ينزل فيه إحسان وكان هناك أيضاً أخوه حكمت الذي لحق به، ووصلت إلى مطار باريس، فاستقبلني الأخ حكمت شقيق إحسان في المطار، ولكني حين نزلت من الطائرة فكرت طويلاً في كيفية الوصول، وكان علي أن أجتاز المطار على سلم كهربائي أرضي لم أجرؤ على السير عليه فمشيت على الأرض المطمئنة وظللت كذلك مسافة طويلة حتى وصلت فشاهدت السيد حكمت وكان غاية في اللطف، لقد استقبلني ضاحكاً وعني بي عناية رائعة وركبنا السيارة، وفي الطريق قال: إن إحسان ذهب البارحة إلى جنيف وسيعود غداً والتفت كالملسوع، إذن هو غير موجود في باريس، وقال حكمت ضاحكاً أيضاً غداً يصل، فلا تهتم نحن موجودون، ووصلنا إلى الفندق واسمه «فورفيك»، وهو كائن في حي من أحياء شارع الشانزليزه الشهير هو حي «ده بيري» وأثناء الطريق كنت أقول لنفسي: أحقيقة أنا في باريس أم أنا حالم؟ ومررت بمقهى «الدوم» وتذكرت أن هذا المقهى كان يجلس فيه لينين الزعيم الشيوعي المعروف حين كان منفياً في باريس وكان يتنقل على دراجته من مكان إلى آخر، وقيل لي: إن المكان الذي كان يجلس فيه من المقهى ما يزال كما هو حتى اليوم، ووصلنا إلى الفندق فصعدت أنا وحكمت إلى غرفة إحسان وقال لي: استرح قليلاً هنا وسأعود إليك، وإذا خطر على بالك الخروج من الفندق فالمقاهي مبثوثة في الشارع على اليمين واليسار شرط أن لا تبعد كثيراً كي لا تضيع؟ وتركني بعد أن زودني بما يلزم من معلومات وغيرها، ونزعت ثيابي وقد أعجبني السرير الضخم فنمت ولا أدري كيف نمت لأول مرة وأفقت بعد ساعتين أو أكثر، فلبست ثيابي وخرجت من الفندق أقدم رجلاً وأؤخر أخرى خائفاً وجلاً من الخوض في هذا البحر من البنايات السامقة والشوارع الواسعة الشاسعة، وأخذت يميني فأنا أتفاءل باليمين ولا أحب الشمال ووصلت إلى قوس النصر الذي كان قريباً وعلى خطوات من الفندق وأخذت أنظر إلى هذا الأثر الشامخ وذكرت نابليون وأمجاده ساعتئذ، كما خطر على بالي كل ما قرأته من الأدب الفرنسي من لامارتين وهوغو وموسه وبودلير وفيرلين وقد مروا جميعاً من هذا المكان، ووجدت قرب القوس جماعة من السياح فحاولت

التحدث إليهم والسؤال عن اسم الشارع الذي كنا فيه ولكنهم لم يجيبوا لأنهم كانوا من الألمان، وهم كما بدا لي أجهل مني بمحتويات باريس ورجعت إلى أول مقهى قريب من الفندق بعد أن عينت الشارع بالبناء الذي كان في أوله لكي لا أتيه عنه، وجلست في المقهى وكلمت النادل الفرنسي بلغته الفرنسية وطلبت القهوة وأنا أنظر إلى الشارع من الباب الواسع الأنيق، وما كدت أرشف رشفة من الفنجان حتى رأيت رجلين واحدهما يصيح قائلاً: غير معقول، غير معقول، أستاذ أحمد، وشدهت لهذه المصادفة العجيبة، لقد كان صديقنا وأخا صديقنا سليمان دهمش، إنه حسان دهمش الممثل الذي يتخذ لنفسه اسم «عواد» في تمثيلياته، ولقد رحب بي الرجل فتركت فنجان القهوة في نصفه وقمت وإياه وهو يدلني على المقهى الكبير لا بل على أهم مقهى في الشارع وحتى في باريس إنه مقهى «الفوكيه» الشهير، وكان معه دكتور من آل العاني من دير الزور أيضاً، وما كدت أدخل المقهى الآخر حتى رأيت المرحوم صديقنا توفيق الحبوباتي، الذي بادلني التحية أيضاً، وهو صديق قديم، وعرض عليّ خدماته فشكرته وجلست مع حسان ورفيقه وجاء المصور فأخذ لنا صورة جميلة ما زلت أحتفظ بها لأنها تمثل عندي اللحظات الأولى من حياتي الباريسية. وطال جلوسي في المقهى الرائع وأنا لا أصدق نفسي وأحسست بالجوع فطلبت كأساً من الحليب الساخن مع قطعتين من الخبز المحلى المسمى «كرواسان» أي الهلال، وقمت إلى الفندق فنمت إلى الصباح، وفي الصباح الباكر اتصلت بالسيد حسن شبيب التاجر السوري المعروف وسألته عن ابن عمي أحمد الباريسي الذي مضى على وجوده في باريس قرابة خمسين عاماً، فقد ترك سلمية حوالي عام ١٩٣٠ وقد استدعاه آغا خان الكبير إلى باريس ليدرس هناك ولم يدرس فقد استمرأ الإقامة دون درس وكان شاباً جميلاً أنيقاً ظريف المحضر، وقد ظل يتناول راتبه من آغا خان إلى أن تدخلت ظروف كان منشأها سلمية فانقطع عنه الراتب، ومع ذلك بقي هناك ولم يحضر إلى سورية إلا مرة في عام ١٩٥٨ فمكث سنة ثم عاد إلى باريس. بعد نصف ساعة جاءني هاتف منه يقول أنا قادم إليك في فندقك، وانتظرته فجاء فعلاً وأنزلني من الفندق ليصحبني إلى منزله حيث كان ـ شبه متزوج ـ فوجدت امرأته قد هيأت لنا غداءً عربياً من كبة الصينية والبيرق وغير ذلك، وبعد أن استرحت بعد الغداء صحبني إلى الفندق وصرت أراه في كل يوم تقريباً. وفي ذلك النهار وحين وعدت إلى الفندق من بيت ابن عمي رأيت إحسان يسلّم عليّ سلاماً حاراً وقلت له: يا رجل؟ ألم يكن بإمكانك تقديم سفرك أو تأخيره حتى أراك، إنني لولا أخوك حكمت لكنت من نزلاء المطار حتى الآن، فضحك وانتهى العتاب.

كنت أخرج مع إحسان صباحاً فننزل إلى المقهى «الفوكه» وهو في الرصيف المقابل للفندق، فنجلس حتى الظهر وعند الظهر نذهب إلى الفندق لننام حتى الساعة الخامسة ثم نخرج إلى المقهى فنجلس أيضاً حتى الساعة العاشرة أو العاشرة والنصف ونعود إلى الفندق، وكانت هذه المنطقة التي نسير فيها ثلاث أو أربع دقائق هي كل باريس بالنسبة إلى إحسان. وأصابني الضجر من هذه التحركات المحدودة وقلت له: أريد أن أرى باريس، إني لم أر شيئاً حتى الآن، أين: فرساي، واللوفر والأنفاليد، «قبر نابليون»؟ ونتيجة لهذه الأسئلة التي اعتبرت احتجاجاً على إحسان دلني على العمل للذهاب إلى «فرساي» قصر الملك لويس الرابع عشر. الذي كان يسمى الملك «الشمس»، وفعلاً أخذت السيارة من الأوتيل ووصلت إلى المكتب السياحي الخاص في شارع الهرم «البيراميد» قرب قصر اللوفر، فحصلت على بطاقة لرؤية فرساي وبعد قليل وقفت السيارات ونودي على السياح حسب اللغة فاخترت اللغة الفرنسية التي أتحدث بها، وركبت السيارة الضخمة الكبيرة وكانت إلى جوار السائق دليلة سياحية كانت تتحدث بالفرنسية عن كل شيء يمر بالطريق، فمررنا بتمثال للحرية أشبه بالتمثال الموضوع في مرفأ نيويورك بالولايات المتحدة والذي أهدته فرنسا للولايات المتحدة ووصلنا إلى فرساي التي تبعد عن باريس حوالي ثلاثين كيلومتراً فوقفنا أمام الباب ونزلنا إلى طريق مبلّط يصعب فيه المشي لتشعثه، وسرنا ثم سرنا ثم انعطفنا يميناً حيث دخلنا إلى باحة واسعة جداً بقربها ساحة أخرى هي أشبه بالحديقة، فيها بناء صغير قيل لنا إنه يسمى «كوخ العشاق»، وأصبح خلفنا تمثال لويس الرابع عشر الكبير العالي وهو راكب على حصانه، ووقفنا في الصف ثم دخلنا القصر وصعدنا بسلم ثم سرنا من غرفة إلى أخرى ولكني تعبت واحتجت إلى الجلوس فلم أجد

كرسياً أو ما يشبه الكرسي وقد أخذ مني التعب كل مأخذ لذلك قررت اختصار الرحلة والرجوع، وبدأت أهبط السلم رجوعاً والسياح ينظرون إليّ ويستغربون، ولم أشاهد قاعة المرايا التي كانت تستعملها «ماري أنطوانيت» زوجة لويس السادس عشر، والتي أعدمت هي وزوجها من قبل الثائرين عام ١٧٩٣ بعد أن قبض على الملك وعائلته حين هربوا إلى خارج الحدود، وحين رجعت مشيت حتى خرجت من القصر ووجدت ناساً قعدوا في مقاهٍ صغيرة أشبه بالدكاكين، فجلست في إحداها وفيها تعرفت على مهندسة إنكليزية تعرف اللغة الفرنسية كما تعرفت إلى امرأة مصرية ضخمة يمكن تقسيمها إلى ثلاث نسوة، وكانت خلال حديثها مع رجل آخر تدافع عن أنور السادات فعاكستها وأسكتها وطال الحديث مع المهندسة الشابة واتعدنا على أن نلتقي في مقهى «الفوكه» مقهانا في الشانزليزه، ولكنها لم تفِ بالوعد كما كنت أتوقع، ورحم الله ذلك الشاعر الذي وصف غدر المرأة وعدم وفائها بالوعود.

أيقنت بعد رحلة «فرساي» أن إحسان انتهت مهمته، فكان عليّ أن أبحث بنفسي عن رحلاتي فاتصلت بابن عمي فجاء إليّ في المقهى هو وامرأته وأخذنا السيارة إلى «الأنفاليد»، ولهذا الأثر الذي صنع تكريماً لجثمان نابليون الأول القائد الذي رفع اسم فرنسا عالياً بما قام به من حروب وفتوحات، ولو أنها انتهت إلى مأساة وقعت عليه بسبب الخيانات والمؤامرات الكبيرة في أوروبا كلها التي اتحدت ضده، وقد مات سجيناً في جزيرة «القديس هيلانه» في البحر المحيط الهادي وذلك في عام ١٨٢١ وفي ١٨٤٠ وفي عهد الملك لويس فيلب نقل الجثمان من الجزيرة، ولما وصل إلى فرنسا وضع الجثمان في سفينة اجتازت نهر السين الذي يخترق باريس حتى وصل إلى العاصمة فأنزل في احتفال رسمي وأنزل إلى القبر الذي شيد خصيصاً له، وهو يقع على باب البناء الكبير في مكان عميق إلى أكثر من ثلاثين متراً وحول فوهة المكان حائط حجري يقف وراءه الناظر إلى القبر ويضطر كل ناظر إلى الانحناء احتراماً للقائد العظيم، ودخلنا البناء وانتقلنا إلى آثار الأمبراطور فوجدنا مكاناً مليئاً بالخيول المصنوعة من البلاستيك بالحجم الطبيعي وبجانب كل حصان علم من الأعلام التي ربحها القائد في المعارك وهي ما تزال باقية إلى اليوم كما هي، وهناك غرفة لآثاره ومخلفاته الخاصة ولكنها كانت مغلقة بسبب إصلاح البناء. وانتقلنا من هناك إلى مطعم في أحد شوارع الشانزليزه الفرعية اسمه «مطعم فيير» وهو يقدم الأكلة المغربية «الكوس كوس» الشهيرة وبالفعل لقد استمتعنا بالأكلة الشهية التي ترافقها أطعمة كثيرة مطبوخة وكذلك الفاكهة حتى «المانجا»، وفي اليوم التالي كنت على اتفاق مع ابن عمي لزيارة القصر الشهير «متحف اللوفر» الذي كان مقراً للملوك الفرنسيين، ثم تحول إلى متحف بعد الثورة وبجواره حدائق اللوفر الكبيرة الواسعة ودخلنا من الباب الرئيسي الكبير ودفعنا الرسوم المعتادة، وصعدنا لنرى البناء عجيباً يكاد لا يصدق العقل وجوده في نظافة ولمعان حجارته الرخامية، وصعدت سلم القصر الذي تمنيت أن أسير عليه حافي القدمين حتى وصلنا إلى البهو الكبير وهو أحد الأبهاء التي لا تحصى في القصر فرأيت أول ما رأيت عدداً كبيراً من «المومياءات» المصرية المحنطة كأنها حنطت منذ ساعات، كما رأيت الكثير من الآثار الفرعونية المصرية إلى جانبها وهي الآثار التي انتقلت إلى باريس أيام احتلال نابليون في الحملة المصرية وقد حضرت مع هذه الآثار المسلّة المصرية التي وضعت في ساحة «الكونكورد» في بلدة باريس، وتنقلنا بين الغرف نشاهد تلك الآثار الرائعة العظيمة حتى وصلنا إلى الصورة الخالدة «الجوكوندا» التي رسمها الرسام الخالد «ليونارد ده فنشي» الإيطالي والتي تسمى أيضاً «الموناليزا»، وقد رأيناها لا تزيد عن المتر ارتفاعاً وفي عرض أقل من متر، وقد وقف ضابط من الشرطة لحراستها وحولها شريط من الحديد الضخم الحلقات للمحافظة على هذا الأثر الفني الذي لا يقدر بثمن، وقد جرى فيما مضى أن فرنسا كادت أن تعلن الحرب على إيطاليا لأن إيطالياً تجرأ فسرق هذه الصورة، وقال الناس يومها: لقد فقد اللوفر ابتسامة الموناليزا، الساحرة، وإلى جانب هذه الصورة رأينا صورة للرسام «فورونيج» وهي بمساحة عشرات الأمتار فوقفت أمامها ذاهلاً لعظمة ما فيها من إتقان، وانتقلنا بعد ذلك إلى الجناح الخاص بالمصور «داڤيد»، وفيه شاهدنا صورة لتتويج نابليون وبقية الأحداث التي وقعت بزمنه، وكنت ساعتئذ قد أصبحت متعباً بسبب كثرة الصعود والهبوط فانتقلنا سريعاً إلى مطعم «إيتالي» في الشانزليزه أيضاً، وقد نسيت اسم هذا المطعم الذي تكررت

وجباتي فيه وتعرفت إلى صاحبه واسمه «جـو»، وكنت أناديـه باسمـه وهو شـاب أسمر لطيف، وبعـد أن ناديته مـرات تقدم مني وحـدثني باللغـة العربيـة وهو يقـول: أنا اسمي «محمـد» وليس «جو»، وأنـا من الدنادشة من أهل تل كلخ هل عرفتني الآن، وقمت فصافحته مجـدداً وأجلسته إلى جـانبي وإذا به فعـلاً من هذه البلاد السورية ومن تلك العشيرة «الدنادشة» المشهورين بـالفروسيـة، وقد جـاء إلى باريس منـذ سنوات ووفق إلى أن أصبح شريكاً في مطعم كبير كهـذا المطعم يقع عـلى أفخم شارع في بـاريس. وأصبح محمد صديقاً لي حتى كان كثيـراً ما يهيىء لي الطعـام في بيته ويحضره خصيصـاً إلى مطعمه من المـآكل الشامية، وكنت إذا أقبلت هيأ لي المكان المناسب أنا ومن معي حتى ولو كان المطعم غـاصاً بـالزبـائن مع الالتماس الخاص والعناية البالغة والمهاودة في الأسعار.

وكنت أعود بعد الغداء إلى الفندق، إلى غرفتي المجاورة لغرفة إحسان، وكثيراً مـا كنت أجلس في بهو الفندق الكبير أشاهد الداخلين والخارجين، وكثيراً ما كنت أذهب غرباً إلى المحـل العظيم «بريـزونيك» أي «السعر المحدود» وهو متجر أكبر من قرية صغيرة لما فيه من طوابق وأماكن وبضاعة عجيبة وقد اشتريت منه كثيراً من الأغـراض من مثل حقيبـة صغيرة وأحـذية لي ولأحفـادي، كما كنت أشتـري منه الفـاكهة العظيمة من تفاح وعنب مغربي من أشهى العنب الذي عرفته في حياتي خاصـة لأنه ليس بـالغ الحـلاوة فكنت أستطيع أن آكل نصف كيلو في الجلسة الواحدة. وبعد يومين أو ثلاثة عدت إلى دمشق.

في الصيف الذي تلا هذه الرحلة اتفقت مع إحسان على تكرارها، وقد رافقني فيها الأستـاذ الدكتـور الصديق محمد خير فارس الأستاذ في جامعـة دمشق، وكانت معـه زوجته وهي امـرأة لطيفة طيبـة القلب وكان معها كمية من «الملبّس» فأطعمتني منـه بإشـارة من زوجها ولكني لم أشبـع، وحدثتني بـأنها تحب البزر الأسود «بزر الجبس»، وقد لاحظت وأنا جالس في الطائرة بعيداً عنها أن شاباً يـأكل من هـذا البزر فطلبت منه أن يعطيني من بعض ما عنده وكان كريماً، فأعطاني كل ما كان معه وهي كميـة لا بأس بهـا، وقد حملت البزر إلى السيدة فبادلتها على الملبّس وكنت انا الرابح؛ وما زلت كلما رأيتها مع زوجها أذكـرها بهذه المبادلة الظالمة فتضحك ويضحك زوجها. وكان معي في الطائرة صديق ممن كـانوا ذاهبـين من أجل عمل وهو السيد البطيخي، وهذا البطيخي أشبه باسمه فهو عريض الصوت كأنه من القبضـايات، ولكنـه أيضاً كان طيب القلب. وكان إحسان بانتظاري في باريس ووصلت أنا وصـاحبي هذا إلى المطـار فإذا بـه مزدحم بالسياح والمسافـرين، وجاء دور رفيقي البطيخي الـذي قام بمسـاعدتي مسـاعدة لا تنسى، ولقـد اتصل بالمدينة وتحدث مع «نجدت» شقيق إحسان الـذي وعد بـانتظارنـا في مكان معـين عينه للبطيخي ووصلنا بعد عذاب طويل حتى وجدنا سيارة تقلنا والتقينا بالأخ نجدة الذي دعانا إلى عشاء ليـلي في مكان قريب من الشانزليزه وصحبني إلى فندق «المريديان» الشهير في باريس، فنمت تلك الليلة على أمل أن يأتي في اليوم الثاني إحسان أخوه، وفي هذا الفندق بهو كبير جـداً، وفي الصباح البـاكر طلب إليّ أن أنتقـل إلى فندق آخر فقمت وجمعت أشيائي واستأجرت سيارة أقلتني إلى شارع اسمه شـارع «شاتـوبريـان» وهو الكاتب الفرنسي الشهير أبو المـدرسة الـرومانتيكيـة في الأدب الفرنسي وعـدو نابليـون اللدود. وكـان اسم الفندق «أرومانش» وهو فندق بسيط ولكنه نظيف ككل فنادق باريس، وقد بقيت في هذا الفنـدق عشرة أيام وتعرفت على زوج مديرة الفندق، وقد كان في الماضي جندياً في سـوريا، ولكني كنت نسيت في «المـريديـان» قميص نومي وعصاي التي لا أستغني عنها وتحدثت إلى ابن عمي الـذي طمأنني إلى أن الأشيـاء في مثل هذه الفنادق لا تضيع، وبالفعل لقد جئت ظهـراً فوجـدت العصا والقميص سـالمين. في هـذه الرحلـة كان الفضل الأول فيها بإنسانيته وحسن صحبته وثقافته للأخ برهان قصاب حسن، الضابط المتقاعد. وترجع معرفتي ببرهان إلى أيام مجلة «الجندي» التي أصبحت اليوم «جيش الشعب» في الإدارة السياسيـة، وقد أعجبت يومها بنشاطه في عمله وما زلت أعجب كيف يعمل في عدة مجالات، فهو يشرف على مطعم كبير وهو عضو عامل في المجلس البلدي وفي جمعية أصدقاء دمشق وله نشاطات أخرى لا أعلمها، ثم هو يعلم كيف يعيش، فهو كريم بشكل معقول وهـو يحب السياحـة والسفر ويحب أهـل الفن والأدب وهو حـريص على أصدقائه كما هو حريص على أن يكون أصـدقاؤه متفـاهمين، وكثيـراً ما يلعب دور الـوسيط ليزيـل سوء

التفاهم بين أصحابه، وأخوه نجاة قصاب حسن المحامي والأديب والموسيقي وأشياء أخرى لا أحصيها وهو من أذكياء دمشق، ولهما أخ ثالث هو رجل أعمال وهو غاية في اللطف والأنس كما هو قريب للقلب بإنسانيته ومحبته لأصحابه وكرمه الذي لا يجارى. لقد قابلت مصادفة الأخ برهان في باريس وكانت معه سيارته وقد رافقته زوجته وابنته وكأنه حين رآني لقي الغيث الهاطل، فقد حملني بسيارته وبدأ يطلعني على ما خفي عليّ من باريس وما خفي عليّ شيء كثير، وأول ما بدأ أنه أنزلني إلى «المترو» أي العربات تحت الأرض فنزلت مرغماً، لأن برهان أراد ذلك ومن الصعب مخالفته، وركبنا هذا القطار العجيب الذي يخترق باريس من جميع أنحائها وذهبنا إلى حي «التروكاديرو» وهو من الأحياء المشهورة في باريس، كما رأينا «متحف الإنسان» هناك، وفي اليوم الثاني أخذني إلى «البيجال» وهو الحي المشهور أيضاً بملاهيه وفيه «الطاحونة الحمراء» الشهيرة القديمة، وهو الملهى الذي صنع رسومه على حيطانه الرسام الشهير «تولوز لوتريك» الذي كان قصيراً جداً أو مشوّهاً خلقياً ـ على أصح تعبير ـ وإن كان من عائلة تمتّ إلى العائلة المالكة الفرنسية بنسب، ومن «البيجال» صعدنا إلى المكان الأثري القديم «مونت مارتر» أو جبل مارتر ـ إن جازت الترجمة ـ فرأينا المقاهي القديمة وفيها واحدة ترجع أيامها إلى عام ١٧٩٧ أي بعد الثورة الفرنسية بقليل وفي مطلع نشاط عبقرية نابليون، وشاهدنا الفنانين الرسامين الذين يصورون الرجل بدقائق فتكون صورة رائعة، وذهبنا إلى الكنيسة المسماة «القلب المقدس ـ ساكره كور» فأشرفنا من هناك على باريس الشاسعة والواسعة، وفي عودتنا مررنا بحي «سان دنيس» وهو الحي الذي يرخص فيها الإنسان فشاهدنا النساء أنصاف العاريات وقد وقفن ينتظرن ـ والله أعلم ـ ماذا ينتظرن؟ وأسرعنا من هناك إلى الشانزليزه مستقرنا الطبيعي في باريس. في اليوم الثاني جاء برهان إلى المقهى فقلت له: أريد أن أطلب منك شيئاً ولكني أخشى أن تسخر مني، قال: ما هو أنت تأمر، قلت له: أريد أن أذهب إلى مقبرة باريس العظيمة «بيرلايشز» فقد قرأت عنها كثيراً، قال: والله وأنا أشتهي أن أرى هذا المكان الأثري ولك الفضل في لفت انتباهي إليه. وركبنا فعلاً وذهبنا إلى ذلك المكان وأظنه على طريق غابة «فانسان»، ووصلنا إلى المقبرة العظيمة فإذا هنالك حراس على الباب وشبه مخفر لرجال الشرطة ودخلنا المكان فرأينا بلدة من القبور المصطفة المنظمة، وبين القبور ممرات واسعة، وقد عرفت من بين هؤلاء قبر «الفريد ده موسه» الشاعر العظيم، ومن كبار شعراء فرنسا وصاحب الليالي المشهورة في الشعر الفرنسي وهو الذي سئل فيكتور هوغو: من أشعر الناس في فرنسا؟ فقال هوغو: موسه هو الثاني، يعني أنه ترك المرتبة الأولى لنفسه، وموسه هو صديق الكاتبة المحببة «جورج صاند» صديقة العظماء وحبيبتهم، موسه وشوبين الموسيقي الرائع ولاكروا ـ الرسام العظيم ـ كما شاهدنا قبر: «ارستيد بريّان» وزير خارجية فرنسا والخطيب المشهور وقبر «بوانكاره» رئيس الجمهورية وغيرهم كثير جداً، إنها كما قلت بلد سكانها في العالم الثاني.

في اليوم الثاني جاءني برهان إلى المقهى واتفقنا على زيارة جنينة الحيوانات وقد وافقني وشكرني على هذه النواحي التي أذكره بها وقال لي: أنا معجب كيف تذكر هذه الأشياء التي لا يذكرها غيرك فالناس لاهون بالسينما والمقاصف والرقص والغناء، فقلت له: لكلٍّ محله، وذهبنا بالفعل إلى حديقة الحيوان ودخلنا فرأينا أول شيء مجموعة من العصافير رائعة أخاذة، وانتقلنا من مكان إلى آخر وقد لفت نظري في هذا المكان نمر أظنه أميركياً ولكنه ضخم بشكل عجيب، وقد وضع في قفص عالٍ بعيد عن الناس ورأيته وهو يروح ويجيء ويزأر بين حين وآخر ويهمهم وكأنه مغلوب على أمره، لقد كان منظره مرعباً لذلك لم أطل الوقوف أمامه لئلا آلف نظره الرهيب. وخرجنا من مكان النمر فرأينا فهداً أسود منزوياً في قفصه وقد أدار ظهره للناس وهو لا يتحرك ولا يبدي إشارة، وقيل لنا إنه من أشرس الحيوانات، ورجعنا يومها إلى مطعم صاحبنا «محمد جو» فتناولنا غداءنا.

في اليوم الثالث جاءني أيضاً برهان ومعه السيارة العزيزة التي كان فضل كبير في ثقافتي الباريسية والتقينا مصادفة باللواء المتقاعد «عبد الله زيادة» الرجل الطيب والذي كان وزيراً للقصر في يوم من الأيام، وأظن أنه صار مرة وزيراً للدفاع، وهو متزوج من شقيقة صاحبنا القديم برهان صوفان ـ رحمه

الله ـ واتفق الاثنان ـ وأنا أسمع ـ على زيارة مؤسسة «بومبيدو» الشهيرة وصاحب هذه المؤسسة كما لا يخفى هو السياسي الكبير ورئيس وزراء الجنرال ديغول والذي أصبح فيما بعد خلفاً للجنرال في رئاسة الجمهورية. ذهبنا إلى المؤسسة فإذا بها بناء من الحديد الخالص ليس فيه رائحة الخشب مطلقاً وكان الصعب فيها أن سلالمها كلها كهربائية، فلا بد من المغامرة في الصعود على هذه السلالم الخطرة بالنسبة إليّ، ولكن برهان وعبد الله زيادة أركباني المركب العسير مرغماً وكادا يحملاني على صعود السلم، وهكذا حتى وصلنا إلى الطابق الخامس وقد رأينا في هذه المؤسسة العظيمة عجباً، ففيها مكتبة تضم كل التراث في كل العالم، وفيها قسم للتراث الأدبي العربي وقد حرص العاملون في هذه المؤسسة على أن يجمعوا لها كل ما يمكن جمعه من كل لغات العالم. ولقد تناولنا الغداء في الطابق الأخير ففيه مطعمان، واحد عادي والآخر مطعم يخدم الإنسان فيه نفسه وفيه الصحون والأدوات الأخرى تسير بالطريقة الكهربائية أمام الزبائن فيلتقط كل واحد الطبق الذي يعجبه والدفع في آخر هذا الشريط المتحرك، لقد ملأني برهان قصاب حسن ثقافة واطلاعاً، وفي ذلك النهار أخذني مرغماً إلى شقته الصغيرة في حي جميل من أحياء باريس الهادئة وتناولت الغداء عنده من الطبخ الشامي الذي كنا باشتياق إليه.

كنت خلال إقامتي في باريس في كل الرحلات التي مرت دائم الاتصال بابن عمي أحمد الذي ذكرته في صفحات سابقة، ذلك المقيم في باريس منذ سنين طويلة. كما قلت لقد ذهب على حساب آغا خان الكبير ليدرس هناك على اعتباره من رعاياه الإسماعيليين في سلمية، وبالفعل فقد كان عمي والده ـ رحمه الله ـ إسماعيلياً صرفاً وقد عاش ابن عمي هذا عيشة البذخ والثراء بالقياس إلى الطلاب الذين كانوا يوفدون من قبل الحكومة السورية للدراسة. فقد كان التلميذ يتقاضى خمسين ليرة سورية، بينما كان ابن عمي يتقاضى /٢٥/ ليرة ذهبية من مؤسسة آغا خان الغنية، ولكن خصومة وقعت بين ابن عمي وبعض المقربين من آغا خان في سلمية فكتبوا إلى مؤسسة آغا خان بأن هذا أي أحمد، من عائلة تركت العقيدة الآغا خانية وأصبحت تدين بالمذهب السني، ففكر هؤلاء في طريقة يستغنون بها عن وجود أحمد إرضاء لأصحابهم في سلمية فسألوا من الجامعة عن دراسته فقيل لهم إن هذا الاسم غير معروف ولا هو موجود في سجلات طلاب كلية الحقوق التي يدّعي أنه يدرس فيها، وهكذا، ذهب المسكين في آخر الشهر لتناول مخصصه من الراتب ففوجىء بأن مخصصاته قد ألغيت، وذهب إلى البيت وهو يكاد ينفجر غيظاً وعلم أن الضربة القاصمة جاءته من أقربائه في سلمية وهم الذين كانوا يدعون له كل صداقة ومحبة، وكان مفلساً بطبيعة الحال في آخر الشهر، وهكذا ترك الدخان واشترى كمية من البطاطا أخذ يأكلها يومين أو ثلاثة، ولكن أحمد هذا كان له طبع غريب، فإن الغضب كان أبعد شيء عنه مهما كان سبب الغضب، وخطرت على باله فكرة، فإن آغا خان كان يقطن في فندق اسمه «ريتز» في حي «الفاندوم» وكان يملك نصف الفندق الكبير، فكتب له أحمد: إنني فوجئت بإلغاء مخصصاتي، وأنا اليوم مدين وأحتاج إلى العودة إلى بلدي وأحتاج أيضاً إلى ملابس ونفقة في الطريق لذلك أرجو إعادة النظر في أمري، وبعد إرسال الكتاب بثلاثة أيام تلقى هاتفاً يطلب منه أن يذهب إلى فندق «ريتز» ليقابل من يهمه أمره، وهناك وجد بطاقة للباخرة التي نقلته إلى سوريا باسمه، كما وجد مبلغاً من المال لشراء حوائجه ودفع ديونه. وحدثني أحمد قال: وأخذتُ البطاقة فبعتها لمن تهمه وقد كفتني تلك الدراهم لنفقة سنتين كاملتين في باريس، وحين كنت في باريس خلال هذه الرحلات كان أحمد قد استفاد من إقامته الطويلة فحصل على بطاقة تمنحه كل شهرين عدداً من الفرنكات تعينه على الحياة وأخذ يعمل عند أسرة «شبيب» التي ذكرتها أيضاً في مكان سابق، وكان يقطن مع المرأة التي يعايشها فهي تملك بيتاً في باريس وقد زرت البيت وعرفته. قلت لأحمد يوم رأيته في رحلتي الثالثة. أريد أن أرى بلدة «فونتين بلو» وحين سألني عن سبب هذه الرغبة قلت له: لقد قرأت تاريخ نابليون مفصلاً وأنا معجب بهذا الرجل ولا أهتم للنهاية التي انتهى اليها، وقد قرأت فيما قرأت انه قرر الاستقالة من الامبراطورية في بلدة فونتين بلو هذه وأنه ودع جنوده في هذا المكان بعد أن استقال، فقال لي: صحيح وأنا سمعت هذا القول من غيرك إذاً غداً نذهب إلى هذه البلدة التاريخية بالقطار.

وفي اليـوم الثاني وكنت في مقهـاي الخاص ـ غـير الفوكـه ـ واسمـه: مقهى دوفيـل، وهـو أيضـاً في الشانزليزه ورأيته ومعه امرأتـه وناداني من المقهى فـركبت معه في السيـارة إلى المحطة الشهـيرة «محطة ليون» أو محطة الشمال وقد أعجبت بالمحطة إعجاباً شديداً لنظافتها وضخامتها وكثرة الناس فيها، ووقف ابن عمي أمام شباك التذاكر فقطع ثلاث تذاكر إلى «فـونتينبلو» وخـرجنا من البـاب الثاني للمحطـة فإذا بالقطارات التي لا تحصى مصفوفة الواحد إلى جانب الآخر، وشاهدت القطار الكهربائي الذي يسير بسرعة /٣٠٠/ كيلومتر بالساعة فقلت: أعوذ بالله، وأخذنا القطار الآخر وهو أقل سرعة ولما صعـدت رأيت شيئاً عجيباً، إنه لا يشبه قطارات بـلادنا بمـا فيه من عنـاية وكـأنّ فيه طـابقين لا طـابقاً واحـداً، وتحرك القطـار الذي يتحرك كل عشر دقائق تقريباً، وظللنا نسير بين الحقـول والأنهر والحـراج إلى أن وصلنا، وحـين وصولنـا مررنا بطريق كالقبو ووصلنا إلى مقهى في أول البلدة الصغيرة فجلسنا وتناولنا بعض القهوة أو الشـاي ثم أخذنا سيارة أوصلتنا إلى القصر العظيم وبين الباب والبناء ما لا يقل عن خمسمايـة متر كلهـا من البلاط الأزرق مما ذكرني بقصر فرساي، ولدى الباب وضعنا الرسم كالمعتاد وصعدنا إلى الطابق الأول فشاهـدنا من الـرسوم والآثـار ما هـو أعجب من العجب وخاصـة الغرفـة التي كان يجمـع نابليـون وزراءه فيهـا، وشاهدنا كرسيه الذي كان يجلس عليه وتحت رجليه مخدة سميكـة من القطيفة لأنـه كان صغـير الجسم كما قيل لنا، وانتقلنا من هناك إلى البيت الذي كان يسكنه أحياناً فشاهدنا آثاره كلها وقد تعجبت خـاصة لقبعته وضخامتها فإنها تغطي رأسين عاديين، ومـا زال أثر اللبس بـاقياً عليهـا وشاهـدنا سريـره وسرير زوجته جوزفين وأحذيته كما شاهدنا الورقة التي كتب استقالته عليها يوم عاد من روسيا مغلوباً على أمره، وبعد أن استمتعنا بهذه الآثار الغريبة خـرجنا إلى أرض القصر أي السـاحة الكبـرى وفيها ودّع جنـوده حين ذهب منفياً إلى جزيرة «ألبا» في جزيرة كورسيكا أو قريباً منها، وخرجنا من القصر فاتجهنا إلى الجهة الشمالية منه فوجدنا دكاناً صغيراً وفيه بعض الكراسي فعلمنا أنه مطعم صغير «بـوسترو» كمـا يسمونـه بـالفرنسيـة وقلنا: نستـريح هنـا بعد تعبنـا في الطواف بـين غرف القصر العظيم، وطلبنـا بعض الشراب وجلسنا نتحدث وما كدنا نبدأ الحديث حتى نظرت المرأة إلى ابن عمي وقامت تسأله عما به، ونظـرت إليه فإذا وجهه أصفر كالأموات، وخفت خوفـاً شديـداً أن يقع لـه حادث ونحن في هـذه المنطقة البعيـدة عن باريس، وجاء صاحب المطعم ينصح إلينا أن نخرج به إلى خارج المطعم أي على الرصيف من أجل الهواء الصافي وخرجنا به وهو ما زال مضطرب الشكل يشير إلينا بيده أنه غـير مريض ولكن المـرأة قالت لي: إن هذه الظاهرة قد تكررت معه وهي تخشى عليه منها خشية شديدة ولكنه بعد ربع ساعة أو أكثـر عاد إليـه صحـوه وأصبح طبيعيـاً، فخرجنـا من المطعم لنذهب إلى مطعم آخـر للطعام وفي الطـريق أخذ ابن عمي يركض ويبتعد عنّا والمرأة تصيح به أن يمشي الهوينة لأنه متعب ولكنه لم يسمع منها، ووصلنـا إلى مطعم رائع فتغدينا هناك وخرجنا إلى المحطة ثانية ننتظر القطار العائد إلى باريس، وجلسنا مقدار نصف سـاعة ثم ركبنا القطار وعدنا إلى المحطة العظيمة «محطـة الشمال»، وفي المحطـة وجدنـا الناس قـد غطوا أرض المحطة والشارع فانتظرنا دورنا في الصف حتى وجدنا سيارة وركبت فيها وحدي وسرت إلى الفندق الـذي كنت فيه، وقد حدثني السائق فعلمت أنه عربي جزائري وسألته كيف عـرفني عربيـاً فقال لي أنـه عرفني قبل أن أتكلم فتعجبت من ذلك، والسائقون الجزائريون والمغاربة كثيرون جداً في باريس خاصة.

في اليـوم الثاني صـادفت في المقهى السيد بـركات وهـو الموظف الـذي يستقبل الطـائـرة التي تقـل السوريين في المطار «أورلي» فذهبت وإياه إلى السفارة السورية الكائنة في شارع «فانو» وهو شـارع عرفت اسمه من قراءاتي، إذ كان يقطن فيه لفتـرة قصيرة الشـاعر الفـرنسي المعروف «شـارل بودلـير» صاحب ديوان: «أزهار الشر»، وهناك قابلت السفير اللواء شكور، الحمصي الأصل، كمـا قابلت قـريبة لي تعمـل في السفارة وهي من سكان المنطقـة «الخوابي» التـابعة لبلـدة طرطـوس على السـاحل السـوري، وعدت إلى المقهى. وفي المقهى تعـرف إليّ شخص من حلب من آل الكيالي وهـو شقيق وزير الثقـافة السـابق السيـد فوزي الكيالي صديقي وأحد معارفي القدماء، وقد وجدت ترحيباً كبيراً من هذا الشخص وما زلت أذكـر له كرمه وحسن استقباله لي، وقد تبين لي أنه من أغنياء التجار وله علاقة زراعية ببلدتنا سلمية، وكـان ينزل

في فندق محترم هو «الفندق الكبير» الذي يقع فوق مقهى السلام «كافي ديه لابيه» وقريباً من دار الأوبرا الفرنسية الشهيرة، وقد دعاني أنا وقريبتي إلى مطعم هذا المقهى القديم الأثري الذي كان يجلس فيه الشعراء القدامى من مثل هوغو وموسه وغيرهما، وقد تناولنا العشاء في هذا المطعم الشهير، ولا أنسى أنني رأيت هذا الشخص مرة أخرى في القاهرة وفي فندق «الهيلتون» فاستغربت وأعربت له عن تعجبي من كثرة أسفاره.

في شارع الشانزليزيه من باريس مطعم يسمى «مطعم بعلبك» يقدم المآكل العربية وكأنك في مقصف من مقاصف لبنان القديمة: الكبة واللحم المشوي والبصل الأخضر والمخللات والشنكليش وكل شيء كنت تأكله في سوريا أو لبنان، وفي المطعم فرقة موسيقية وراقصة عربية، وقد عرفني أحد العازفين في الفرقة فكنت أزور المطعم وأحضر بصفتي من أهل السماع، وكنت ذات يوم جالساً أتناول الغداء مع شخص آخر وإذا برجل شكله صيني يجلس إلى جانبي ومعه سيدتان عرفت أنهما مغربيتان، وسرعان ما أخذ الرجل يتحدث إليّ بعد أن سمع مزاحي مع رفيقي الذي جئت معه وبسرعة البرق أصبحت أنا وهذا الرجل صديقين، فقد أخذ يمازحني كما أن السيدتين بدأتا تتحدثان إليّ بلغة عربية لا فرنسية فيها، وخرجنا من المطعم سوية. وقد عرفت فيما بعد أن اسمه: عبد الرحمن الخطيب وأنه تاجر محترم في بلدة «جدة» السعودية، وفي اليوم الثاني التقينا في مقهانا المعتاد «الفوكيه» فرأيته يتقدم ليسلم على الأمير عبد الله الفيصل الشاعر السعودي المعروف. ورأيت الأمير يحترم الرجل ويتحدث إليه حديثاً خاصاً، وأصبحت الصداقة قائمة بيني وبين هذا الرجل، ورُفع التكليف بيننا فصار يأتي إلى فندقي ليأخذني كل يوم منذ الصباح الباكر ورحت أقضي أكثر النهار معه إذ كان لطيفاً جداً، وقد دعاني إلى إنكلترا لأرافقه في رحلة خاصة وعلمت منه أنه يملك مزرعة في بلدة «برايتون» قيمتها سبعة ملايين جنيه، وقد ثبت لي ذلك من بعض الأصحاب السعوديين الذين كانوا يجالسوننا في المقهى الذي لا يخلو أبداً من الزبائن العرب وبخاصة السعوديين، ولقد دعوت صديقي هذا إلى زيارة سوريا ووعد ولم ينفذ، لقد كان هذا الرجل من أحسن الأصدقاء الذين قادتني إليهم المصادفة العجيبة، فهو ذواقة في الطعام وفي الأماكن التي يعرفها وبخاصة الأماكن التي فيها المبيعات الأثرية العالية، وقد دعاني مرة لا أنساها إلى مطعم هندي في شارع «سان جيرمان» ووجدته يتكلم الهندية كأهلها، وقد تحدث مع صاحب المطعم فقدم لنا سفرة من «الكاري» المعروف في الهند وكانت حفلة جميلة.

وبعد أيام جلست في مقهى «الفوكيه» وإذا بصديق سوري يقدم لي بعض أخوانه الذين رحبوا بي ورجوني أن أجلس معهم فلم أعترض، ورأيت بعد قليل شخصاً عرفت من لهجته أنه مصري ومعه امرأة إنكليزية قدرت أنها رفيقة طريق ولكنها لا تعرف كلمة واحدة بالفرنسية فصار الحديث بيني وبينها بالإشارة، وعلمت أثناء الجلسة أن الرجل المصري هو الذي دعا رفاقه هؤلاء ومن بينهم صديقي السوري إلى العشاء فاعتذرت بأني تناولت عشائي، فأصروا كي أجلس معهم وجلست وطلبت كأساً من «البوظة» الرائعة التي تصنع في باريس، أما هم فتناولوا العشاء الذي كان غالياً جداً، ووجدت المصري في نهاية الطعام يعطي الكرسون بطاقة يأخذها الرجل ثم يعيدها له فعلمت ان القضية قضية مالية وأن الحساب يدفع من حساب صديقنا في المصرف وعن طريق هذا الكرت الذي لم أعرفه قبل الآن. وأصبحت الصداقة قوية بيني وبين هذا المصري اللطيف وكان من سكان المنصورة وقد تحدثت وإياه مطولاً وصار يأتي إلى فندقي عند الصباح وهو فندق «أمينة» الكائن في شارع «بويسي» الشهير فيأخذني معه منذ الصباح وقد دللته على مطعم بعلبك وقلت له إن الطعام في تلك المطاعم «النارية» حرام فسُرّ لما رأى من عاطفتي نحوه وقد أعطاني عنوانه، وهو مهندس يعمل في هندسة آلات النقل من سيارات وغيرها، وقد مرّ على وجوده في إنكلترا حوالي عشرين سنة، ولكنه كان لطيفاً للغاية، ولست أنسى لطف هذين الصديقين السعودي والمصري.

وكنت يوماً جالساً في مقهى «الفوكيه» وإذا بشخص جالس إلى جانبي يسألني: ألست حضرتك أحمد الجندي، واستغربت وسألته: من أين عرفتني يا أخ وكيف؟! قال لقد عرفتك من صوتك حين كلمت رفيقك

لأنني أسمع صوتك دائماً من الراديو وأنا من المملكة العربية السعودية واسمي محمد السهيلي وصاحب مجلة «الجيل» التابعة للحرس الوطني السعودي الذي يرأسه سمو ولي العهد الأمير عبد الله، فسررت بمعرفته، وقلت له: أشكرك ما دمت تصغي إلى أحاديثي في الإذاعة، وتفضل الرجل فدعاني إلى سهرة في مقصف اسمه «القمر» الكائن في غابة بولونيا، وقد علمت أن هذا المقصف فيه غناء عربي ورقص مصري، والزبائن فيه كلهم من العرب تقريباً، واتفقنا على أن نلتقي الساعة السادسة مساء في مقصف قريب لمقهى «الفوكيه» وهو أيضاً مقصف جميل، وحين جئت في الموعد المحدد وجدت معه شخصين فلسطينيين أحدهما عرفته لأنني كنت رأيته قبل هذه المرة، كما وجدت مع الجماعة، صديقنا الشاعر السوداني «محمد الفيتوري»، وما كدنا نجلس حتى رأيت خلافاً دب بين الفلسطينيين الرفاق، وعلمت فيما بعد أن الفلسطيني الذي كنت أعرفه قد كتب ورقة لمضيفنا السعودي يطلب منه مساعدة مالية، ويبدو أن الفلسطيني الآخر لم تعجبه هذه البادرة فاعتلقا في قتال كلامي كاد يؤدي إلى المضاربة بالأيدي ثم انتهت المشكلة، وانتقل الحديث الذي بدأه صديقنا السعودي إلى الشعر، وأخذ الفيتوري ينشدنا من هذا الشعر الحديث الذي لا أحبه ولا أعتبره شعراً، وحين انتهى من مقطوعته الأخيرة قلت له: أصلحك الله، كان عليك أن لا تتعب من أجل كلام لا يفهمه أحد غيرك، ولما اعترض على كلامي قلت له: أنتم لستم شعراء إنما أنتم مخربون، تريدون إزالة الشعر العربي الأصيل ليحل محله كلامكم هذا الذي لا طعم له ولا رائحة ولا لون. وغضب الفيتوري فاعتذر وترك الجلسة، وضحك السعودي وكان رأيه معي ضمناً ولكنه لم يصرح بذلك لأن الفيتوري صديقه، ثم انتقلنا إلى المسرح حيث كان هنالك عدد من المغنين العرب ومن بينهم مغن سوداني وواحد سعودي وواحد مصري، وحين دخلنا كان المصري هو الذي باشر الغناء وجلسنا قرب المسرح وأخذت أحدث هذا المصري من بعيد فسر مني سروراً كبيراً واستأنس بي عربياً وموسيقياً، صعدنا في سلم نظيفة إلى المقصف الكبير وكانت الفرقة الموسيقية مصرية وفيها الآلة التي أحبها «القانون»، وأخذت أنادم المغني المصري وطلبت منه أغنية «أنا والعذاب وهواك»، وهي لمحمد عبد الوهاب ومن النغمة العراقية المعروفة «اللامي»، وقد ذكرت ذلك للمغني فازداد طرباً، وظللنا ساهرين هكذا إلى الساعة الرابعة حين داهمني النعاس فاستأذنت وقام واحد من الرفاق معه سيارة فأوصلني إلى الفندق وكان سهرة جميلة حقاً. كان لهذه المعرفة مع الصديق السعودي أثر بعيد، فقد كانت سبباً في رحلة دعيت فيها إلى المملكة السعودية عن طريق هذا الصديق وسيأتي حديثها مع حديث الرحلات هذا. في اليوم الثاني وجدت في المقهى صديقاً من الضباط المتقاعدين اسمه سليم حسن كان يعرفني معرفة جيدة، وكنت قد نسيته لبعد الشقه بيني وبينه فهو في أوروبا منذ زمن بعيد وكان معه شاب من سلمية من جيراننا، كان والده صديقي وقد دعانا الضابط إلى مكان رائع في غابة بولونيا الشهيرة وإلى مطعم هو أعجب مطعم عرفته في تلك الديار إذ أنه سفينة قديمة موضوعة على ضفة نهر «السين» في وسط الغابة الرائعة، وهذه السفينة كما قيل لنا كانت تستعمل لنقل العبيد أيام بيع الرق، وقد تناولنا في هذه السفينة العجيبة الأسماك الدسمة مع المقبلات التي كان يعرفها صديقنا الضابط وشكرنا له دعوته المخلصة الموفقة.

في باريس، وفي هذه الرحلة التقيت بالصديق القديم «رجاء الشربجي»، ورجاء هذا قد افترق عنا أياماً وسنين، ولكنا حين نلتقي تلتقي صداقتنا من جديد وكأنا لم نفترق أبداً، وكان لرجاء صديق أعرفه أنا من قديم ولكنه أصبح في هذه الأيام من الأغنياء، وهو رجل أعمال شهير بين الشرقيين الذين يقطنون باريس لأعمالهم وأقصد به الأخ المرحوم «نزار العظم»، ونزار هذا والده صديقنا ومن فرع «الأسعدية» من آل العظم وقريبه فريد بك الزعيم الحموي المعروف، وكنت في المقهى عصارى ذلك النهار فإذا بسيارة تقف قريباً من المقهى وفيها اثنان عرفتهما من بعيد لأني أعرفهما من دمشق، أحدهما السيد عبد الرحمن الكيلاني، والثاني السيد نائل العظم وهو تاجر أيضاً ولكنه يعمل في الكويت أو السعودية لا أذكر، وأشارا إليّ واقترب أحدهما مني ودعاني إلى بيت نزار بك ولكنهما طلبا أن نعرج على فندق «أنتركونتننتال» الذي يقطن فيه محمد عبد الوهاب الموسيقار المعروف وزوجته السيدة نهلة القدسي الدمشقية الأصل، وصلنا

إلى الفندق العظيم القريب من حديقة «اللوفر» وأمامه فندق «موريس» الذي دخل التاريخ إذ كان مقر القيادة الألمانية التي احتلت باريس أثناء الحرب العالمية الثانية، ونزل عبد الوهاب الهوينة وقد أمسكت به امرأته لأن نظره لا يساعده على الرؤية تماماً، وسرنا نحن بسيارتنا وسار هو وراءنا وفي الطريق قال لي السائق: أتحب أن تتكلم مع البيت في دمشق؟ وقلت لـه: كيف؟ فقال: أعطني الرقم فأعطيته ما طلب، وناولني السماعة وقال لي تكلم فتكلمت مع ابنتي وأنا سائر بسرعة سبعين أو ثمانين كيلومتراً في وسط باريس وكانت مفاجأة طريفة، ووصلنا إلى حي «أوتُويْ» وهو من أرقى أحياء باريس وقد قيل لنا أن منبّه السيارات ممنوع في هذه المنطقة الدبلوماسية، ودخلنا إلى دار قوراء كما يقال في كتب الأدب أي الواسعة وكانت الطاولة الكبيرة موضوعة في باحة الدار الحشيشية الخضراء، ثم دخلنا إلى الغرفة الكبيرة وقد جلست إلى جوار محمد عبد الوهاب وتحدثنا في أمور الموسيقى، ولكن المرحوم نزار صرفه عن حديث الموسيقى إلى حديث الأبنية والعمارات وما شاكل ذلك، وقد سمعت عبد الوهاب يقول: لقد طلبت أن أتحدث مع فايزة أحمد المطربة المريضة فلم أستطع ذلك بسبب الهاتف البعيد، وذكرنا أغانيه القديمة ولكن الحديث كما قلت لم يطل، وعبد الوهاب ليس محدثاً، إنه يحب أن يسمع ولا يُسمع (بضم الياء) فهو لا يعتبر محدثاً، وأظن أنه اقتبس هذه العادة من صديقه العبقري القديم الشاعر أحمد شوقي. ثم انتقلنا إلى سفرة عامرة وكان إلى جواري فيها المرحوم نزار الذي أشرف على تغذيتي إشرافاً كاملاً، وقد أكل محمد عبد الوهاب وهو من أصحاب المعد الجيدة كما قال لنا «أنا دباغ، ودباغ تعني في مصر قوة الشهية. وأعدنا هذه السهرة في ليلة أخرى لم يكن فيها عبد الوهاب. وقد أكرمنا نزار العظم بشكل خاص ولم ينس المعرفة القديمة في حماه وقد توفي إلى رحمة الله بعد هذه اللقاءات بسنة أو أكثر. وقد عرفت في باريس شخصاً لم يكن يخطر على بالي أن يصبح لي صديقاً مخلصاً ومحباً لا أنساه ذلك هو سركيس سركيس، هذا الرجل كان شاباً بعثياً متطرفاً في حزبيته، وقد اختلف هو وبعض أصحابه وكنت أعرفه من اسمه فقط، وأذكر أني رأيته من بعيد مرة واحدة فقط في دمشق وحين وصلت إلى باريس ورآني فكأنه رأى أعز الناس لديه لأني كنت صديقاً لخاله المرحوم بولص ديبة في أيام طرطوس، وكان بولص من الشباب الناهض حمل شهادة الحقوق من الكلية اليسوعية في بيروت وعمل محامياً معروفاً وله قصة حياة نذكرها هنا للتاريخ، فقد أحب فتاة في صافيتا وحالت الظروف دون الوصول إليها وكانت هي أيضاً تريده، ثم تزوجا بعد أن خُطبت لغيره، ولكنه لم يعش المسكين بعد زواجه إلا سنة أو بعض سنة وقد استولدها ابنة ولم أدر بعد ذلك ما فعل الله بهذه البنت، أظن أنها ماتت. لقد استقبلني سركيس ببساطته القروية المعهودة فهو زميلي في ضخامة الجسم، وهو حسن التفكير له آراء صائبة في كثير من الأمور، وقد وفقه الله مادياً عن طريق التجارة، ودعاني إلى بيته الأنيق في حي «باسي» وزوجته أيضاً أهلها من أصدقاء أيام الشباب لأن والدها السيد بدري ريشة كان تلميذاً لي في المدرسة الأرثوذكسية كما أصبح رفيقاً فيما بعد حين أصبح عضواً بارزاً في محكمة النقض بدمشق؛ وحي «باسي» هذا هو الحي الذي توفي فيه الشاعر الفرنسي الكبير لامارتين، ومنزله ما زال محفوظاً إلى الآن كما تركه يوم وفاته، ولهذا الشاعر قصة ذكرت لي فقد جاء في أخريات أيامه ليشتري كتاباً أو مجلة من إحدى المكتبات وكان في حالة توحي بالفقر وعرفت المسؤولة عن المكتبة الشاعر الكبير، فقامت إليه تقدم احترامها وأعطته المجلة دون أن تتقاضى ثمنها، وقد لاحظت أن قبة معطفه قد أصبحت بالية فنقلت هذا الحديث إلى أقربائها، وقد علم بهذا النبأ لويس نابليون ابن أخي نابليون الأول والذي كان أمبراطوراً وانتهى حكمه بحرب السبعين مع الألمان، حين علم بحالة لامارتين أمر بتخصيص راتب له يكفيه وأن يكون الراتب مدى الحياة، وقد تناوله الشاعر الكبير سنتين فقط ثم مات عام ١٨٦٩.

ولا أنسى أيضاً بعض الأخوان الدماشقة الذين رأوني في دمشق وكأنهم رأوا أخاً أو أباً وهم، آل العشي التجار المعروفون هناك، فقد أبدوا من المحبة والصداقة ما يضيق عن وصفه القلم.

حين ركبت الطائرة بتاريخ ١٩٨٥ عائداً إلى دمشق خطرت على بالي أفكار لم أعرف مصدرها، ولكني عرفتها بعد وصولي إلى البيت، إنها أفكار سوداوية الهتني حتى عن الخوف من الطائرة لا سيما وأنني

اختلفت مع إحسان من أجل السفر، فمن طباع إحسان، كما بدا لي مرات عديدة أنه متردد، يعمل العمل ثم يغير رأيه فيتراجع عنه أو يحوّره أو يبدل فيه، ومن عادته أن يسألني في يوم وصولي إلى باريس قائلاً: إن الأفضل أن تأخذ تذكرة الطائرة للعودة منذ اليوم لأن الركاب كثيرون والمحلات قليلة، ولقد تكررت هذه العبارة منه مرات وقلت له: الركاب كثيرون دائماً ألا يصبحون قليلين مرة واحدة على الأقل. ولا أكتم شيئاً حين أقول إنه هو السبب في كل هذه الرحلات وهو الساعي إليها وهو دائماً متحمس عند السفر، وعندما أصل إلى باريس كان يريد دائماً أن يختصر إقامتي، ولا أدري السبب سوى كثرة الركاب وقلت له مرة. إنني مستعد للعودة ماشياً؟ فضحك وغيّر الحديث، وفي هذه المرة أضرب عن الذهاب إلى مكتب الطيران للحجز ولا أدري السبب وأركبني سيارته وذهبنا إلى أمام المكتب فوقف في السيارة بعيداً ودخلت أنا المكتب وأجريت المعاملة بذاتي، وأنا أكره هذه المعاملات وأكره كل عمل أقوم به وحدي لأني لم أعتد على مثل هذه الأمور وأخاف الغلط خوفاً شديداً، ومع ذلك فقد يسرها الله وأتممت المعاملة ورجعت في اليوم الثاني، كما قلت، وحين دخلت البيت في دمشق وجدت في استقبالي ظاهرة جديدة، فإن زوجتي - رحمها الله - نظرت إليّ نظرة فهمت منها أن هنالك حدثاً ينتظرني خبره، وسألتها رأساً وكأن شيئاً يأمرني بهذا السؤال: هل مات أحد؟، من مات؟ ونظرت إليّ ثانية تقول: لا تحزن هذا حال الدنيا لقد مات رفيق، وصحت رفيق مات؟ وكيف، ومتى، وأشارت إلى أنْ أنتظر قليلاً وأستريح لكي تطلعني على الخبر الفاجع، قالت: لقد دهسته سيارة كبيرة وهو خارج من المطعم في بلدة قونيا التركية، وقد اتصلوا بك مرات وأفهمتهم أنك مسافر في باريس وفكرت وأنا في مثل الحلم المزعج واتصلت بحمص وتحدثت مع دري الأخرس فأفهمني الحادثة كما أفهمتني الزوجة - رحمها الله - وسكتُّ طوال تلك الليلة، لقد انقلب فرحي برؤية الأهل إلى حزن لا يعدله حزن في حياتي. لقد بكيت رفيقاً أياماً وليالي، لقد كان جزءاً من حياتي، بل كان نصف حياتي لأني عرفت حياتي وأنا معه كما قلت يوم رثيته:

سألوني رثاءه قلت مهلاً كيف أرثي من كان فيه بقائي

ولم أستطع يومها إكمال القصيدة إلا بصعوبة بالغة، فقد غلبني الدمع وظهرت آثار الحزن عليّ في المقهى وفي الشارع. تركت حمص في اليوم الثاني عائداً إلى دمشق هرباً من الذكريات التي أحاطت بي من كل جانب وسوّدت ما بقي من أيام حياتي التي سأعيشها وحيداً بعد موت رفيق، لأن رفيقاً كان تتمة حياتي كلها.

في صبيحة يوم من أيام صيف عام /١٩٨٥/ رن جرس الهاتف فسمعت صوتاً أعرف صاحبه ولكني لم أتبينه يقول لي باللهجة البدوية: كيف حالك يا شقيقي؟ وتبينت اللهجة بعد لحظة فعرفت أنه زياد بابيل، الصحفي الإعلامي المعروف وابن صديقنا الصحفي المعروف المرحوم نصوح بابيل، وسألته: من أين تتكلم؟ فقال: من جنيف، فقلت: أهلاً وسهلاً، كيف حالك؟ فلم يجبني وقال: اقطع تذكرة إلى جنيف بالطائرة وأنا بانتظارك مع الاخوان هنا وسألاقيك في مطار جنيف فمتى تستطيع المجيء، قلت: أنت تمزح أم تتكلم الجد؟ قال: يا أخي المسألة جدية جداً وإلا ما كنت قلت لك إدفع ثمن التذكرة ونحن نحاسبك بها في جنيف، هنالك كتاب مترجم عن الإنكليز نحب أن تقرأه لتصحح لغته في «دار المختار» التي تشرف عليها ليبيا، ووجدت الكلام جدياً فقلت له: حسناً، اتصل بي بعد ثلاثة أيام حتى أنهي معاملة التأشيرة والبطاقة والحجز على الطائرة قال: حسناً، بعد ثلاثة أيام وفي مثل هذا الوقت، ذهبت إلى إحسان صديقي ليتولى هذه الأمور بمعرفته العميقة فهو صديق لمكتب الطائرة السويسرية وأنجزت كل شيء بأسرع من البرق وجاءني الهاتف من زياد فأعلمته بالطائرة التي سأصل عليها، وبدأت المعركة منذ ساعتئذ مع النوم والأرق، وأذكر ولأول مرة أن الفرح أو الانشغال الفكري أو الهواجس يمكن أن تفعل هذا الفعل، وما زلت مقتنعاً أنني لم أنم منذ أن قررت السفر إلى جنيف خمسة أيام بلياليها، مسألة لم تمر بي في حياتي لقد سافرت إلى باريس وإلى إستامبول وإلى القاهرة وإلى الديار الحجازية فلم أضطرب كما حدث لي هذه المرة، ودخلت إلى الطائرة صباحاً في مطار دمشق فاستقبلت مضيفات لا عهد لي بهن، فإن المضيفات السوريات بالقياس إليهن كالمصارعات أو كلاعبي الكرة أو لاعبي الملاكمة؛ أشكال رائعة وحديث كأنه النسيم العليل كما يقول بيرم التونسي: «النسمة أحسبها خطاك والهمسة أحسبها لغاك»، ومشينا على بركات الله وبعد قليل جاء دور الضيافة.

وأنا معرض دائماً في الطائرات إلى مشكلة لم أدر لها حلاً وهي قضية تناول الطعام بواسطة هذه الخشبة المتحركة التي يوضع عليها الطعام ولأنني ضخم، فإنها لا تقف مستوية بل مائلة لأنها لا تصل إلا إلى صدري وبهذا لا يمكن وضع الطعام عليها، ونظرت المضيفة الرائعة فقالت لي بإفرنسية جميلة: استعمل الكرسي الذي بجانبك أيضاً لتستطيع الأكل، وقلت لها بالفرنسية: إذن القضية بحسب المسافة أو الوزن، وابتسمت قليلاً جداً وانفتلت راجعة إلى مقدم الطائرة، وإذا بها تعود ثانية لتقول لي: جرب حزام الطائرة فلا بد من ربط الأحزمة فوق البحر وفوق جبال الألب وحاولت ربط الحزام ولكن الحزام كان قصيراً بحيث لم يحط إلا بنصف جسمي، فذهبت عني مسرعة وعادت بقطعة أخرى من الأحزمة وربطتها إضافة إلى الحزام الأصلي، وهكذا أصبح الحزام مناسباً ولكن أكثر من كان حولي ضحك وابتسم حتى لقد أصبحت منظراً خاصاً في الطائرة. وفي الطريق وقبل الوصول إلى جنيف رأيت شخصاً تذكرت أني أعرفه ولكنه لم يكلمني فلم أكلمه ونسيت أين عرفته، وبعد قليل نظر إليّ وسلم فقلت: أنا عارفك ولكني ناس فمن حضرتك؟ فقال: نايف الشعلان، فتذكرت المعرفة القديمة، وكان واسطة المعرفة ابن عمتي سليمان نصر الضابط المتقاعد بالجيش السوري، ولكني لم أسكت وقلت له: ما دمت تعرفني فلم لم تحدثني منذ أول الرحلة وأنت تراني في الطائرة وحدي، فاعتذر بأنه لم يتبين شخصيتي ولكني لم أصدقه وأظهرت له أني لم أصدقه، وبالفعل فإن الطائرة ما كادت تصل حتى اختفى الرجل من أمام عيني ولم أعد أراه ونزلت وحيداً ضائعاً شارد الذهن من الأرق، ووصلت إلى بناء المطار الداخلي والمطر بدأ يهطل رذاذاً، ودخلت من باب البناء فإذا هناك طريقان واحد إلى اليمين والآخر إلى اليسار وحرت في أيهما أسير، ثم قررت المشي من اليسار ووصلت إلى ساحة البناء المخصصة للحقائب فشاهدت الحقائب تسير أمامي على السلالم وأنا أنظر ولا أتبين حقيبتي وذهبت إلى أحد الواقفين فحدثته فلم يجبني الجواب الشافي وإذا

بالحقيبة تبدو لعيني فهجمت عليها هجوم الأسد الهصور، وإنما أتمثل بقول الشـاعر: «بـدا حاجب منهـا وضنت بحاجب»، حملت الحقيبة وأردت الخـروج فرأيت مكتبـاً وشرطياً جـالساً فيـه وحين رآني نـاداني وسألني عن جواز السفر فأعطيته إياه ولا أدري مـاذا فعل فيـه وأنا شـارد ضائـع وأخذت أتلفت يمنـة ويسرة وإذا بي أرى زياداً الخبيث يرمقني من بعيد وهو يضحك ملء شدقيه فشتمته ما شاءت لي براعتي الشتمية، وخرجت إليه فاستقبلني استقبـالًا حاراً ومشينـا في شوارع جنيف، وأنـا لا أصدق نفسي حتى وصلنا إلى فندق ضخم تحدث فيه مع المسؤول ودلني على غـرفتي وقلت له: دعني الآن فـإني لم أنم منذ أيام، فتركني على أن يعود إليّ بعد ثلاث ساعات فقلت لـه: كلا، بعـد خمس ساعـات وهكذا كـان، ولكني ولأمر غريب لم أغف ولم أنم كما أردت بل لقد كان نومي متقطعاً لا يروي غلّة ولا يشفي تعباً. في الساعة السادسة جاءني زياد إلى الفندق فأخذني بسيارتـه إلى المكتب الذي سـأعمل بـه، «دار المختار» فـوجدت مكاتب ضخمة ورأيت هناك صديقاً لبنانياً قديماً هو فاروق البقيلي الذي كان يعمل في جريدة الديار سابقـاً أو في الأسبوع العربي لا أذكر، واطلعت على عمـلي الذي سـأقوم بـه، وأرجأنـا العمل إلى اليـوم الثاني، وذهبت مع زياد إلى بيته وهو شقة ظريفة في حي جميل من أحياء جنيف كائن إلى جوار المركـز السعودي. وقد أغدق عليّ زياد من كرمه المعـروف الشيء الكثير، وقمنـا من هناك فـذهبنا إلى المقهى العظيم في فنـدق الهيلتون فتناولنا المرطبات التي لا تنسى، وفي اليوم الثاني جاء إلى الفندق ثانيـة لأني لم أكن تعلمت كيف أسـير في الطريق إلى المكتب، وفي المكتب تعـرفت إلى سيدة فلسطينيـة تعمل هنـاك وقد رحبت بي أيضـاً، وأخذت أقرأ التـرجمة وأصلـح فيها الكلمـات التي وجدتها غير صحيحـة، وفي الليل ذهبنـا إلى الأخوان الليبيين نسهر عندهم بعض الوقت وقد تناولنا طعام العشاء عندهم، وكـان اليوم الثـاني هو الأحـد، وفيه يغلق المكتب فذهبت أنا وزياد إلى بلدة لوزان الشهيرة ذات المعاهدات الكثيرة، وخاصة معاهدة لوزان بـين الحلفاء والأتراك في نهاية الحرب العالمية الأولى. وكانت رحلة ممتازة وقد تناولنا الغداء عـلى شاطىء نهـر الرون العظيم وكان أمامنا جبـل الثلج الشهـير الذي يطـل على لـوزان واسمه «السـاليف Salève»، وعند عـودتنا لحقت بنـا سيارة مسرعـة للشرطة فـأوقفتنا وصمتّ أنـا وقال زيـاد: تحدث معـه فأنـا لا أعرف الفرنسية واستغربت أن لا يعرف لغة عاش بين أهلها أكثر مما عاش بين أهله، وتفاهمنـا مع الشرطـة مع أنهم لم يجدوا مع زياد شيئاً مما يسألون عنه، فليس معه جواز سفر ولا رخصة سير بالسيارة ولا هويـة شخصية، وقلت له وأنا غاضب: أتسافر عارياً «بالزلط» هكذا؟ وكان سبب إيقافنا أننا كنا بطيئين في السير وكان الواجب أن نسير بسرعة أكثر من ثمانين كيلومتـراً لمصلحة المـرور، وعلى كـل حال لقـد كانـوا لطفاء ولكنهم غرموا زياداً ثمانين فرنكاً سويسرياً وهو مبلغ ضخم بالنسبـة للعقوبـة. وأخذت أداوم صبـاحاً في المكتب فأعمل إلى الظهر وأنزل إلى المطعم القريب فأتناول طعامي، وكثيـراً ما كـان يدعـوني زياد، وزيـاد كريم معروف بين رفاقه، وفي آخر يوم أنجزنا الكتاب وتقـرر سفري إلى بـاريس كما كنت مخططـاً منذ أن خرجت من دمشق، وفعلاً لقد كنت حصلت على تأشيرة السفر إلى فرنسا مع سويسرا، وفي الصباح جاءني زياد وناولني / ١٠٠٠/ ألف دولار، فشكرته وركبت الطائرة مـع الأخ فاروق البقيـلي الذي كـان ذاهباً إلى باريس لعمل صحفي، وما كدت أركب الطائرة وبعد دقائق ناولني الأخ فاروق مقالاً له لأقرأه وقد شـك أن فيه بعض الأخطاء، وفعلاً لقد استغربت أن يرتكب هذه الأخطاء التي رأيتها وهو صحفي قـديم، خاصـة وأنني كنت مشغولاً بخوفي من الطائرة وهي تتسلق جبال الألب مع أن الوقت لا يتجاوز الساعة بين جنيف وباريس، ووصلنا إلى باريس وكنت متفقاً على أن أكون ضيفاً في شقة الأخ عبده قطرميز.

كانت «مافـالدا» زوجـة عبده قطـرميز سيـدة البيت آنئذ، وهي سيـدة تحوي كـل اللطافـة واللياقـة والشطارة في الطبخ والنظافة وكل شيء، وكانت تحترمني جداً وتقدرني أكثر من كل الرفـاق الذين تعـرفت عليهم عن طريق زوجها عبده، ومع الأسف لقد انفصمت الزوجية بين مـافالـدا وعبده، وقـد أسفت لذلـك شخصياً لأنهما كانا على وفاق عجيب ولا أدري ما الذي حدث بينهما حتى انقلبت هـذه العلاقـة إلى فتور أعقبه فراق لا رجعة بعده، والضيافة عند عبده قطرميز أهنأ ضيافـة، فما شئت من طعـام وشراب ومزاح وحديث ونكتة ولطف دائم وهو في بيته أشبه بمن وصفه الفرزدق بقوله:

مـا قـال لا قط إلا في تشـهـده لـولا التشـهـد كـانـت لاءه نـعـم

ومن الحوادث التي مرت بي عند عبده أن رفاقه كانوا أميل إلى الثقل منهم إلى الخفـة، وقد كـان من رفاقه إنسان حمصي بكل معنى الكلمة، بدليل أنه غاب في دراسته بأمريكا سنين طويلة فعاد وليس معه إلا كلبان كبيران أحضرهما معه لوالده الذي بقي سنوات يتحدث لرفاقه عن دراسة ابنه ونبوغه.

وهناك إنسان آخر ليس له عمل إلا الطاولة والورق والضامة والـدومينو فـإذا لم يجد أحـداً يلاعبه لاعب نفسـه، وربما غضب بعضـه على بعض فيمـا إذا خسر أحدهمـا، وخطر عـلى بالي يـوماً أن أستحم فدخلت الحمام وفيه «البانيو» فتركت الماء في البانيو ويبدو أنني أسأت تقدير نظريـة نورشـلي المعروفـة في تـوازن السائـلات وألقيت بجسمي كله في المـاء، وإذا بالمـاء يقفز من فـوقي ليملأ البيت كلـه والبيوت في باريس ليس لها مصاريف «بلّاعة»، وحرت في أمـري وقامت المسكينـة مافـالدا لتعمـل طوال الليـل حتى جففت البيت الذي ذهب ضحية جسمي الخفيف. كانت هذه آخر رحلات باريس الأربع.

إلى أثينا

كانت رحلاتي كلها تعتمد على الهواتف، ولقد جاءني أحد الأيام هاتف من عبده قطرميز وكان في أثينا عاصمة اليونان، يقول الهاتف احضر إلى أثينا والبطاقة، أي بطاقة الطائرة، رخيصة فلا تتأخر واحضر معك كل ما تستطيعه من الخضار القابلة للطبخ: ملوخية، لوبية، باذنجان، كوسا، بندورة... الخ، وقلت له: هل أنت تعيش في صحراء نيفادا؟ كيف أستطيع حمل كل هذه الأشياء وأنا لا أكاد احمل جسمي؟ ومع ذلك لم أقصر فقد أنجزت معاملتي في دمشق، وكانت السفارة اليونانية في دمشق لطيفة جداً وقد عرفني القنصل من التلفزيون السوري، وركبت الطائرة السورية إلى أثينا، وفي الطريق صادفت الممثل الفنان الصديق هاني الروماني، وقد حملت عدا الخضرة معي عدداً من الزجاجات التي تهم عبده في لياليه، ووجدته ينتظرني في المطار وركبنا السيارة إلى فندق جميل قريب من البحر وصاحبه هو الصديق السيد أسامة بيرقدار، وهو شقيق الشاعرة المعروفة «مها بيرقدار» وهو متزوج من سيدة راقية إيطالية، نزلنا في الفندق وبعد نصف ساعة أو أقل صحبني عبده إلى مطعم على الشاطىء تماماً، ولكنه أبى إلا أن يستعمل المزاح منذ وصولي إليه فقد بدأني بتناول وجبة قال إنها الوجبة الرئيسية في اليونان، وجاءت الوجبة وأكلت ولكني شككت بنيته غير السليمة، وعبده يستعمل المزاح في أهم شيء ما دام المزاح مضحكاً ومسلياً، لقد كانت الوجبة وبالاً على عبده لأنها كانت من «الأخطبوط» اللعين الذي لا أحب شكله ولا أذوقه إلا غصباً، ونال عبده نصيبه من السباب والركل وضحك أسامة صاحب الفندق ولامه على فعلته، لكن عبده ضحك وما دام قد ضحك فكل شيء لديه هين.

كان في أثينا رجل من مسيحيي دمشق، هو وأهله أصدقائي واسمه «فؤاد الزيات»، وكان والله من كرماء هذا البلد، لديه مكتب فيه عدد من الموظفين والموظفات ولديه عدد من السيارات، وقد دعانا إلى تناول الغداء أكثر من مرة، وأرسل إليّ سيارته ومعها سائقه اليوناني فطاف بي كل الأماكن الأثرية في اليونان، ولكني لم أصعد إلى الأكربول لصعوبة ذلك على مثل جسمي، ولكنه عرفني بالمدرج الأثري وبالمتحف وأراني قصر رئيس الجمهورية والحرس المحيط به باللباس اليوناني القديم، والتقيت في المقهى التابع لفندق الهيلتون مع عبده، وكانت جلسة من أطرف ما مر بي في حياتي، وأثينا بلدة قريبة للقلب نعمت فيها بصحبة هؤلاء الأشخاص الذين بالغوا في إكرامي، وفي اليوم الثاني وصلت إلى الفندق السيدة مها بيرقدار شقيقة أسامة ولم أعرف أنها شاعرة إلا بعد سنوات ولا هي كلمتني بالشعر إطلاقاً، وإنما كانت تجيد بعض الأغاني وبخاصة أغنية أم كلثوم القديمة الحزينة «ياما ناديت من أساي» وقد غنتها بلهجة حزينة ناعمة فأبدعت فيها أيما إبداع، وفي المساء أعلموني أننا مدعوون لسماع الغناء اليوناني الأصيل في مسرح من أكبر مسارح أثينا. ولقد وصلنا أخيراً حوالي الساعة التاسعة مساء إلى مسرح شاسع واسع كائن على شاطىء البحر، فوجدنا مسرحاً كبيراً، وصعد العازفون والمغنون وراحوا يتبادلون الأغاني التي وجدت فيها طعماً شرقياً ظاهراً، وذكرت المرحوم الشيخ سيد درويش الذي غنى في يوم من الأيام أغنية هاجم فيها اليونانيين لمحاربتهم الأتراك وهي أغنية «مطفاكي بزيداك» بالنسبة لمصطفى كمال، والتي يصرخ فيها بقوله: «أنت رومي؟» وهذه الأغنية من مسروقات عبد الوهاب التي أخذها عن سيد درويش في أغنية: الليل يطول عليّ، سهران بنادم شجوني، وقد أخذ موسيقاها حرفياً، وأهم ما لفت نظري في المسرح عزف العود أو الأعواد الصغيرة والكبيرة، فقد كان العازفون فيها أعجوبة في البراعة والقدرة على العزف، وكان يقوم بعض المشاهدين ليشاركوا العازفين بالرقص اليوناني الهادىء الجميل، وقد ظللنا هكذا حتى ساعة متأخرة من الليل. وفي اليوم الثاني كنا جهزنا أنفسنا للسفر من أثينا إلى مطار فرانكفورت العظيم في ألمانيا، ومن ألمانيا إلى باريس حيث حللت ضيفاً على عبده الصديق العزيز، أما مطار فرانكفورت فيقال انه أكبر مطار في أوروبا ولكننا نكبنا فيه برفيق ثقيل جداً من أهالي البنك، ولا

أدري كيف يتعثر الحظ بمثل هؤلاء وفي فرانكفورت بالذات، لقد جلس الرجل يحدثنا ونحن في أحلى نشـوة من مناظر الطائرات والمضيفات اللائي يملأن النفس إعجاباً ونشوة، لقد جلس يحدثنا عن عملية «باسور» أجراها لا أدري أين، ولقد دعونا له بعدم الشفاء لكثرة ما فصّل في هذه العملية المقرفـة. وركبنا الطـائرة من فرانكفورت بعد استراحة قصيرة واتجهنا إلى باريس ومنها عدت إلى دمشق بعد أسبوع.

ليس من الشك أن الدافع الأول، بل الباعث الوحيد على هذه الرحلات هو إحسان نظام الدين، فقد جاءني ذات يوم يقول لي: ما رأيك برحلة إلى القاهرة تكمل بها سلسلة رحلاتك الفنية؟ فقلت مندهشاً: إلى القاهرة، أأنت تمزح؟ قال: أنت تعرفني، أنا لا أمزح بمثل هذه الأمور، قلت: إذن وماذا ننتظر؟ قال: أنتظر موافقتك، وقلت له: هذه لا تحتاج إلى موافقة لأن الموافقة في السفر ذاته، ولو وددت أن أذهب إلى القاهرة منذ خمسين أو ستين سنة، إذن لرأيت فيها كل أحبائي من المغنين والممثلين والشعراء الكبار، ومع ذلك فهيّا إلى القاهرة، وذهبنا صباحاً فركبنا الطائرة اليمنية إذ لم يكن يوجد غيرها يسمح له بالسفر إلى القاهرة، ومن عادة إحسان أن يميز نفسه دائماً، فهو يركب في الدرجة الأولى وأنا كنت في الدرجة العادية وسألته متباهياً: هل الدرجة الأولى أسرع؟ وبلع النكتة ولم يردّ ولكنه ضحك مرغماً. وصلنا إلى القاهرة مساء فلقينا سيدة كان اتصل بها وهي محامية تعرف القاهرة جيداً، وبعد أن غيرنا العملة وصرفنا مما معنا بعملة تتعلق بنظام المطار ركبنا السيارة وسرنا لأول مرة في حياتي في أجواء القاهرة، هذه الأجواء التي ذكرت فيها سيد درويش وأبا العلا ومحمد عبد الوهاب والصفتي ونجيب الريحاني وفتحية أحمد وغيرهم وغيرهن. ووصلت إلى فندق كليوبترا وهو واقع على رأس شارع قصر النيل وهذا الشارع لم يكن اسمه غريباً عليّ، ففيه وعلى خطوات من فندق كليوبترا «سينما قصر النيل» التي كانت تغني فيها أم كلثوم أحسن لياليها، ونزل إحسان في فندق «شيراتون الجزيرة» وهو من أضخم فنادق القاهرة كما أقدّر، وبعد ساعتين جاءني فتناولنا عشاءنا في الشارع نفسه قريباً من فندقي وفي مطعم راق اسمه «كرم» ويمكن أن يكون لبناني الأصل، وذهبنا بعد العشاء إلى المقهى الشهير القديم «كروبي» المشرف على ميدان سليمان باشا وهناك دلني على مطعم شعبي شهير هو «فلفلة»، وفعلاً إنه شعبي، فهو يقدم كل المآكل المطبوخة وهذا الذي أريده فقد تغيرت شهيتي بعد أن تقدمت بي السن وأصبحت أكره اللحوم على اختلاف أنواعها ما عدا السمك طبعاً وكذلك الدجاج وأفضل صحنا من الخضار يريحني ويلذني، وبدأت الزيارات المتبادلة بيني وبينه، ورحت أسأل عن أصحابي المصريين ولكني لم أعثر على واحد منهم، وصادفنا في القاهرة المرحوم الأستاذ علي بوظو السياسي المعروف والوزير السابق، فدعانا إلى مكان ظريف شهير هو «المريلاند»، فتناولنا غداءنا فيه وكان مدعواً معنا يوسف مزاحم موظف البلدية السابق وجادو عز الدين العسكري السابق، ورحنا نتجول بين فنادق القاهرة الشهيرة الهيلتون، شيراتون القاهرة ـ وهو غير شيراتون الجزيرة الذي نزل فيه إحسان ـ وفندق الميريديان، ومن طبعي في السفر أن لا أقترح ولا أعترض فكان إحسان لا يغير مخططه، يدور بين هذه الفنادق ثم يعود إلى غرفته في الفندق، وقد التقى مع صديق له سعودي فسهرنا ليلة في الهيلتون حيث كان يعمل المطرب ـ علي الحجار ـ والراقصة نجوى فؤاد؛ وضاق صدري فأنا أحفظ كل معالم القاهرة ولكني لم أر شيئاً منها، وتحدثت مع صاحب الفندق فقال يمكنك أن تستأجر سيارة «تكسي» تطوف بك كل القاهرة وسائقك هو الذي يدلك على كل شيء، وبالفعل لقد أتاني بسائق اسمه أحمد فاستأجرت منه السيارة بـ ٢٨ جنيهاً وركبنا منذ الساعة التاسعة صباحاً واتجهنا صوب شارع الهرم مجتازين الدقّي وحي الجامعة إلى أن وصلنا إلى الأهرامات، وفي الأهرامات نظرت فرأيت هذه الأكوام الحجرية، وصعد إلى جانبي أحد البدو الذين يعملون أدلّاء في تلك المنطقة ولكن السائق صرخ به وأنزله ومررت قرب أبي الهول، وأراد السائق أن يريني بعض الآثار ولكني كنت متعباً من المشي الطويل في النهار السابق، وعدنا من الهرم إلى حديقة الحيوان فتناولنا القهوة وبقينا فيها قرابة الساعة، وخطر على بالي صديقي الكاتب الشاعر محمد عبد الغني حسن وكنت أعرف عنوانه في الزمالك «شارع الفواله»، ولكن هذا الشارع لم يعرفه أحد ودرنا في الزمالك فمررنا قرب بيت أم كلثوم وحديقة الأسماك والجسر الكبير ولكني لم أعثر على بيت صديقي، وعندما عدت في المساء قرأت في جريدة الأهرام، إن المسكين قد توفي في النهار ذاته فتألمت وكانت خسارة بالنسبة إليّ لأن هذا الأديب كان آخر

الأدباء الذين اشتركوا بجمعية «أبوللو» الأدبية المعروفة التي كان رئيسها شوقي الشاعر وخلفه فيها خليل مطران وكان من أعضائها البارزين أحمد زكي أبو شادي وصالح جودت وإبراهيم ناجي، وهذه السلسلة العريقة من الأدباء الذين لم يبق منهم أحد اليوم. وقد أعجبت في هذه الرحلة كلها بطوافي في حي «غاردن سيتي» الذي كان مقراً للمندوب البريطاني وكذلك انتقلت من هناك إلى حي الأزهر وأمامه جامع سيدنا الحسين، وزرت مقهى الفيشاوي فلم يعجبني ولكني اخترت مقهى جميلاً يقع بين الأزهر والحسين فتناولت فيه الأركيلة، وكان السائق لطيفاً معي، وبجانب الأزهر تناولنا غداءنا عند «الحاتي» المشهور هناك ولفت نظري أنهم يسمون قطع اللحم «كباب» ويسمون الكباب المعروف عندنا كفتة، فكنت أخطىء في الحديث عنهما، ومشينا بطريق الموسكي الشهير، وعدت إلى الفندق الساعة الرابعة بعد الظهر وقد أعطيت السائق /٣٠/ جنيهاً عن هذه الرحلة التي لم أفد منها شيئاً.

حين كنت في معهد الحقوق في عام ١٩٣٢ تعرفت إلى شاب مصري كان يدرس الصيدلة في جامعة دمشق، كما كان هنالك طلاب مصريون يدرسون الطب وطب الأسنان لأن مصر لم يكن فيها يومئذ سوى جامعة القاهرة للطب «القصر العيني» وكانت الدراسة فيها صعبة ودقيقة، فكانوا يأتون إلى دمشق فيحصلون على الشهادة ثم يذهبون إلى أوروبا، وفي أوروبا يتقدمون لفحص هناك يأخذون على أثره شهادة وهي الشهادة التي تعطى للغرباء من غير الفرنسيين، وهذه الشهادة كانت تمكنهم من العمل في مصر، وصديقي هذا اسمه عبد الهادي عرفان(*) وهو من أهل بلدة «ملّوي» القريبة من أسيوط في الصعيد، وكانت حاله لا بأس بها فقد كان يصله من أهله ـ حسب قوله عشرة جنيهات شهرياً، وكان هذا مبلغاً ضخماً بالقياس إلينا في سوريا، اجتمعت بعبد الهادي مصادفة وفي بيته الضخم الذي كان أشبه بالخربة لأنه كان مشعثاً غير منجز كما كان يبدو وكان يسميه للمزاح: البيت الأبيض، وكان عبد الوهاب قد مر بدمشق يومها وهو عائد من بغداد بعد أن أنشد فيها قصيدته التي نظمها له شوقي وهي: «يا شراعاً وراء دجلة يجري»، واتفقنا يومها على أن نسمع عبد الوهاب سوية، وكانت سهرته ستقام يومها في مدرج الجامعة السورية وهو مكان قريب من بيت صاحبي، وذهبنا ليلتها فعلاً وسمعنا عبد الوهاب وسررنا لسماعه سروراً عظيماً، فقد غنى دوره الشهير الذي لم نكن نعرفه: «القلب ياما انتظر»، كما غنى: «ردت الروح»، قصيدة شوقي الشهيرة، وموال: «مسكين وحالي عدم»، وكأن هذه الليلة الوهابية كانت فاتحة عهد طويل عريض بيني وبين عبد الهادي، والتقينا في الليلة الثانية التي غنى فيها عبد الوهاب في سينما «عائدة بالاس» القريبة من فندق «الشرق» «أوريان بالاس» الذي كان جديداً يومئذ، وتأكدت الصداقة بيني وبينه فاستأجرنا غرفة في بيت واحد في زقاق الصخر بعد أن ترك «البيت الأبيض» وأخذنا نعيش سوية: في المطعم والمقهى وفي الربوة ودُمَّر، وذهبنا سوية إلى حمص فسهرنا في الميماس مع رفيق فاخوري ودري الأخرس ومحي الدين الدرويش ونور طليمات وقد أعجب بالحمصيين ومرحهم وكرمهم.

وكان من رفاقنا في دمشق خالد بكداش السياسي المعروف ورشاد عيسى ـ رحمه الله ـ الذي مات من مدة قريبة وسالم اليافي ونظمي الرفاعي، وهؤلاء كلهم من الشيوعيين المحترفين والمؤسسين لهذه الفكرة، ويبدو أن الفرنسيين لاحظوا وجوده مع هؤلاء، فحين حاول الرجوع إلى سوريا بعد أن قضى إجازته في مصر وعاد عن طريق درعا، منع من دخول سوريا فعاد أدراجه إلى الأردن. ومن الأردن انتقل إلى فلسطين حيث تعرف على صحفي معروف هو إبراهيم الشنطي صاحب جريدة «الدفاع»، فوجد عملاً في الجريدة وتزوج فيما بعد أخت ابراهيم هذا، وما زالت تعيش معه في القاهرة وهي أم أولاده. أردت أن أرى هذا الصديق الذي قضيت وإياه سنوات والذي لم يكتب لي كتاباً واحداً خلال خمسين سنة من افتراقنا، وقد درت في السيارة التي استأجرتها إلى أن عثرت في البنك العربي بشارع سليمان باشا على رجل يبدو أنه فلسطيني وكان يعرفه فاتصل ببيته وتحدثت أنا مع زوجته وأعطيته عنواني في الفندق «كليوبترا» ولكني لم أره، وبينما كنت في اليوم الثاني على الغداء في فندق الهيلتون إذا بعبد الهادي يدخل قاعة الطعام ومعه شخص آخر تبين فيما بعد أنه ولده، وهو طبيب، وحين رأيته جننت فرحاً واعتنقنا طويلاً ثم دعوته

(*) مرّ اسم هذا الصديق في هذه المذكرات اكثر من مرّة.

للغداء، سويّة، وخرجت معه وبسيارة ابنه فذهبنا إلى فندقي فأطعمته من الحلويات التي كانت معي وأعطيته منها قسماً لزوجته، وفي اليوم الثاني زارني في الأوتيل وتحدثنا طويلاً عن الماضي والحاضر وحدثني عن أخيه عبد الحفيظ الذي توفي من مدة قريبة كما حدثني عن خلافات بينه وبين أقربائه من أجل الميراث، واتفقنا على أن أدعوه في اليوم الثاني لنرى سوية «القناطر الخيرية» الشهيرة في القاهرة وانتظرت الموعد فلم يأت واتصلت بالهاتف وإذا بزوجته تقول: إنه مريض ولا يستطيع القيام من فراشه ولم أصدق هذا الكلام ولكني سكت مُحنقاً غاضباً ولم أعد أراه بعد تلك الساعة؟ هذا هو الصديق الذي كان من أعز أصدقائي في الحياة، هذا هو الصديق الذي لم يجلس وحده في مقهى من مقاهي دمشق أبداً لأنني كنت دائماً إلى جانبه، وهو كان يحب أن يكون معي دائماً حتى ان عمال المقاهي كانوا يعرفون هذا الشيء، فإذا كان أحدنا مفرداً بلا رفيقه لم يجلس في المقهى، ومع ذلك نسي عبد الهادي كل شيء وكأنه لم يعرفني أبداً، ولقد عدت إلى فندقي بعد هذه المحاولة وأنا ألعن الصداقة والصداقات التي لا تدوم، وما نفع الصداقة المؤقتة أو الصداقة النفعية، إنها مخالفة لطبيعة الحياة، وبعد يومين اتصلت بصديق قديم سوري من أهل حمص وهو رجل الأعمال السيد راتب الحسيني الطرزي، فرحب بي ترحيباً عظيماً وأرسل سيارته إليّ ليضعها تحت تصرفي، ولقد لقيت من هذا الشخص الذي لم تكن صداقتي به قوية بل كانت أقرب إلى المعرفة المدرسية أو معرفة المقهى، وقد ذهب فدرس المعامل في فرنسا وعاد إلى مصر ليصبح صاحب أكبر معمل للمنسوجات في البلد الشقيق، لقد دعاني إلى الهيلتون ودعاني إلى مقصف في المعادي اسمه «كودشات» وهو على النيل فاستمتعنا بالمناظر الخلابة وتذكرت الشعر الذي قيل في هذا النهر الخالد: «من أي عهد في القرى تتدفق وبأي عهد في المدائن تغدق»، وهي قصيدة شوقي الخالدة. وحين سافرت بعد يومين أرسل إليّ سيارته وسائقه فأقلتنا إلى المطار بعد أن تناولنا غداءنا في شيراتون هيلوبوليس أي مصر الجديدة، وهو فندق لم أر أجمل منه إلا فندق ماريوت العظيم في القاهرة نفسها، والذي كان قصراً للخديوي إسماعيل ثم اشتراه منه آل لطف الله. كان من أهم ما رأيت في رحلتي إلى القاهرة الراقصة «سحر حمدي»، ومع إنني عرفت نابغات الرقص في مصر من عهد تحية كاريوكا ونجوى فؤاد وسهير زكي وهدى شمس الدين، ومع انني عرفت غير هؤلاء أيضاً، ولكني لم أر كهذه «السحر» التي كانت سحراً كلها، ولقد كنت أنا وإحسان يوم شاهدت الراقصة العجيبة وسمعنا مطربة لم نعرفها من قبل هي «منى عبد الغني» وأردنا أن نجالسها عن كثب، وقد أسمعتنا لحن زكريا أحمد لأم كلثوم «غني لي شوَيْ شوَيْ» ونادينا عامل الفندق كي يدعوها إلينا وطلبنا زجاجة الشمبانيا الرائعة وكان ثمنها أربعين جنيهاً، وبعد قليل جاء رجل فسلم علينا وجلس فتناول شيئاً من الشمبانيا وكأنها عملة صعبة بالنسبة إليه واعتذر إلينا بأن المطربة لا تجالس أحداً عادة وأنه هو خطيبها، وضحكنا، وسأل هو لِمَ تضحكان؟ وسكتنا والدمع تكلم كما تقول أم كلثوم.

لقد عدت من القاهرة دون أن أرى شيئاً لأن إحسان لا يحب أن يخرج من الفندق إلا نادراً، ولكن الحظ أتاني هذه المرة أيضاً فقد جاء أخوه حكمت وهو صديقي مثل إحسان، وحين جاء حكمت «هلت ليالي القمر»، لقد ذهبت وإياه إلى ملهى «سعيد صالح» الممثل المعروف فشاهدنا مسرحية «كعبلون»، وذهبنا إلى ملهى «عادل إمام» فشاهدنا مسرحية «واد سيّد الشغال»، ولم تعجبنا مثل مسرحياته الأخرى: مثل «شاهد ما شافش حاجة» والمسرحية الرائعة «مدرسة المشاغبين»، ودعانا إحسان في اليوم الثاني إلى غداء من السمك الطري في شارع القصر العيني، وفي الرحلة الأولى رجعت مع إحسان، أمّا في الرحلة الثانية فقد بقي إحسان في القاهرة وسافرت وحدي، وأنا أكره السفر وحدي وخاصة في معاملات المطار، وبالفعل لقد تبين أن معي زيادة في الوزن، وأراد الموظف مني عملة سورية ولا أدري لماذا؟ ولم يكن معي إلا القليل منها ثم اقتنع بعد أخذ وردّ بالعملة المصرية فدفعت /٢٤/ جنيهاً، وركبت الطيارة وقد وجدت فيها امرأة قريبنا منذر الجندي أم مصطفى التي عنيت بي عناية فائقة كما عني بي الأخ وابن الأخ لؤي الذي كان من الطف الناس والذي هيأ لي السيارة التي أقلتني إلى بيتي في دمشق وهو ابن أخت الصديق القديم ابي الهدى اليافي الوطني والمحامي المعروف.

حين تحدثت عن رحلاتي إلى باريس ذكرت شاباً صحفياً سعودياً اسمه كما أذكر «محمد السهيلي» وهو يعمل في مؤسسة الحرس الوطني، كما أنه يخرج مجلة اسمها «الجيل»، وقد تحدثت عن سهرتنا معه في باريس يوم كان الشاعر الفيتوري، ونسيت هذا الإنسان فقد مر على عودتي إلى دمشق شهور لم أسمع بـه، وفي يوم من الأيـام هتف إليّ الصديق القـديم والصحفي الأديب عبد الغني العطـري يقـول لي: أنت مدعو في رحلة إلى المملكة العربية السعودية، فيرجى أن تزورنا في السفارة بدمشق مع جواز سفرك لإجراء المعاملة اللازمة لأن سفركم مستعجل، ونزلت فعلاً وفي اليوم الثاني سُلم إليّ الجواز مع التأشيرة اللازمة وكل شيء، وبعد يومين آخـرين خرجت إلى المطـار وقد لبست الكـوفية والعقـال لأنه ليس من المعقـول أن أذهب بملابسي العادية وأنا ألبس «البرنيطة» في بلاد عربيـة مسلمة ومقـدسة، وفي المطـار لم أجد أحـداً يرافقني، وحين أزف موعد قيام الطائرة جئت فوجدت صديقنا الدكتور عبد الكـريم اليافي ومعـه الشاعـر الفلسطيني يوسف الخطيب، وسألتهما لِمَ لم يتصلا؟ فكان عذرهما أقبح من ذنب، فإن كل إنسان في هذا البلد مسؤول عن نفسه ولا يهمه غيره كما لاحظت، وركبنا الطائرة الممتازة «إرباص» فـاستقبلنا استقبـالاً حسناً وفي الموقع الممتاز وبعد ثلاث ساعات تقـريباً أشرفنـا على مطـار الريـاض في سهل لا يحـده البصر فتذكرت ما قرأته عن هذه الديار، لقد تذكرت نجداً ومن مر بنجد من الشعـراء والأدباء والـدول والقبائـل وهبطنا من الطائرة، فاستقبلنا نفر من رجال الحرس الوطني بكل احتـرام، وسرعان مـا أنجزت معـاملات الجـوازات ونزلنـا إلى مكان استـرحنا فيـه وخرجنـا فإذا السيـارات تنتظرنـا، وكان السـائقـون أشبـه بـالأندنيسيـين أو الهنود، ووصلنـا أنا وعبـد الكريم والخطيب إلى الفنـدق المخصص لنا واسمـه فنـدق «المنهل» ودعينا إلى الطعام فاعتذرنا بأننا غير جائعين، وصعدنا إلى غرفنا. لقد كـانت الغرفـة ممتازة بكـل شيء فيها من مقاعد وبراد وسرير مريح وحمام جميـل، وبعد قليـل نزلنـا إلى بهو الفنـدق فتناولنـا القهوة الممتازة ووجدنـا أناسـاً كثيرين من زوار الفنـدق من ركابـه وغيرهم، ووجـدنا بعض المتـاجر لجمـاعة من اللبنانيين ولكن أسعار هذه الدكاكين أسعار خيالية، لذلك لم أكن أجرؤ على النظر إلى البضاعة المعروضـة فيها. فقد كـان سعر القميص مـا يقارب ستمـاية لـيرة سوريـة، وبهذا المبلـغ اشتري ملحفـة أو أكثر في سوريا. فعلمت أن هذه المتاجر تستغل من أجل السياح وخـاصة الأوروبيـين منهم. بقينا في هـذا الفندق ثمانية أيام وكان الطعام شهياً، وفي الفندق مطعمان أحدهما هندي يحضر المآكل الهندية لكثرة زوار هاتيك البـلاد والثاني مطعم عـادي وهو الـذي اخترنـاه في إقامتنـا. في اليوم الثـاني دعينـا إلى مـوقـع يسمى «الجنادرية» وهو المكان الذي سيقام فيه الاحتفال بعيد الحرس الـوطني، وقد ألقيت فيـه بعض الخطب، وفيه تعرفت على بعض الأشخاص الذين عرفتهم فيـه ومن بينهم الأستاذ معـروف الدواليبي، ولكنـه كان بعيداً عني فلم أكلمه ولم يكلمني، وهناك تناولنا الغداء على سفرة عـامرة كبـيرة تتسع لمئـات الأشخاص، وفي قاعة الطعام شاهدت الأصدقاء المصريين ومنهم رجاء النقاش وفاروق شوشـة وغيرهمـا، والتقيت فيما بعد بجمال الغيطاني ومحمود أبي زيد وبالدكتور يوسف إدريس ومحمود السعـدني، كما عـرفت صديقـا أردنياً أعجبت به وبأخلاقه الحميدة هو مازن العـرموطي الـذي افتتح مهـرجانـات جرش لأول مـرة منذ سنتين أو ثلاث، وفي عصارى النهار استمتعنا بسباق «الهجن»، كما يسمى، أي الجمال المهجّنـة والمربّـاة تربية خاصة، وعـدنا مسـاء إلى الفندق، وفي اليـوم الثاني دعينـا إلى جامعـة الملك سعـود وهي من أكبر الجامعات التي رأيتها بما فيها من استعدادات وساحات للدراسة وللنشاطات الـرياضيـة، ومن الجامعـة ذهبنا إلى الدرعية وهي بلدة محمد بن عبد الوهاب مؤسس الفرقة الوهابية وتلميذ العلماء الأعلام من مثل ابن تيمية وابن ملاّ القارىء وابن الجوزي وابن حنبل، وهو أستاذ المجمع وعدنا من هناك إلى الفندق، وفي اليوم الثالث صباحاً دعينا إلى تناول طعام الفطور في البرج القائم بين دارَي الإذاعة والتلفزيون وارتفـاعه

سبعون متراً، وقد أعجبنا بالبناء كله، وفي المساء دعانا أحد أصحاب السمو الأمراء وأظنه الأمير ماجد إلى نادي الفروسية العظيم، فتناولنا فيه طعام العشاء، وبعد أن انتهينا اقترب مني أحد الأشخاص وأسرَّ في أذني قائلاً: أنا حموي، قلت له: أهلاً وسهلاً يا ريحة الحبايب، فابتسم واسمه إبراهيم التركماني، وهو كما ظننت قريب لآل الشوّاف الذين عاشوا ردحاً من الزمن وبكثرة في تلك البلاد السعودية، ولقد دعيت إلى الإذاعة وسجلت بعض الأفكار كما جاء التلفزيون إلى الفندق لأخذ بعض الأحاديث مني ومن عبد الكريم اليافي، وكان معنا الأديب السعودي سعد البواردي، وهو صديق قديم وجاء يوم الجمعة فدعينا إلى الصلاة في جامع كبير جديد في الرياض، وهيئت لي كرسي لأني لا أستطيع أداء الصلاة إلا وأنا جالس بسبب ضعف الرجلين وعدم استجابتهما للركوع والسجود. وكنت مرة جالساً في بهو الفندق أتحدث مع عبد الكريم اليافي عن غلاء الأشياء في السعودية فسمعني أحد رجال الشرطة وكان قد تعرف إليّ هو ورفيقه وهما من الفريق الذي خصص للعناية بنا، جاء إليّ يقول: ليس عندنا غلاء أتحب أن أريك البضاعة الرخيصة؟ قلت: طبعاً أحب، قال: تفضل معي، فخرجت أنا وعبد الكريم إلى السيارة وسرنا إلى مكان كتب عليه: المؤسسة العسكرية، ودخلنا المكان فإذا فيه بضاعة من جميع الأجناس، وبالفعل لقد كانت الأسعار متهاودة جداً بالقياس إلى مخازن الفندق، وقال الشرطي، اختر ما تريد؟ ما الذي كنت تريد شراءه، فالتفت فرأيت حذاء جميلاً قسته فوجدته مناسباً فهيأ لي علبة وضعت فيها الحذاء، وجئت إلى المحاسب أريد دفع الثمن فوجدت الثمن مدفوعاً، والتفت إلى الشرطي أقول له لقد دللتنا وهذا يكفي ولا نريد أن نكلفك شيئاً، فضحك وقال: أنتم أهلنا، وبالفعل لقد جاء هذا الرجل الطيب إلى سوريا وهو يحمل لي سجادة صلاة جميلة هدية منه، وقد حاولت أن أستضيفه فأبى واحتججت عليه من أجل هذا الرفض ولكنه وعدني بالعودة ولم يعد حتى الآن. في ذلك اليوم جاءنا قائد الشرطة المرافقة يقول: غداً السفر إلى المدينة المنورة للزيارة ففرحت فرحاً لا يوصف، وفي اليوم الثاني ذهبنا إلى المطار لنأخذ الطائرة إلى المدينة وقد استغرق الطريق قرابة ساعة وحين خرجنا من مطار المدينة رأينا الجبال التي وقعت فيها المعارك وعرفت من بينها جبل «أُحُد» الذي كان يبدو لي من بعيد وأنا في السيارة الضخمة، ورأيت تلك الجبال الداكنة التي لا تعرف الخضرة ولا النباتات وكأنها المسلات في ارتفاعها، ووصلنا إلى المدينة فنزلنا في فندق لا بأس به اسمه فندق النخيل، وقد تناولنا الغداء، وفي العصر خرجت وأنا في ثيابي العادية لا الإفرنجية ومشيت متباطئاً حتى وصلت إلى المسجد النبوي فدخلت فيه لأرى آلافاً من المصلين في ساحة الجامع عن اليمين وعن اليسار، وبعد قليل مشيت إلى مكان القبر الشريف وحين وصلت إلى الباب وجدت شخصاً مصرياً يرحب بي ويناديني: يا حجي، وركض إلى الشرطي الذي يقف إلى باب القبر الشريف وحدثه قائلاً: إنه ضيف الأمير فناداني الشرطي وفتح لي نافذة صغيرة أطللت منها على القبر الشريف وبجانبه ثلاثة قبور أخرى هي لأبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان. ودلني المصري على الروضة الشريفة وهي الزاوية التي كان يصلي فيها النبي الكريم ويأتيه الوحي بها، كما دلني على قبر السيدة فاطمة وراء قبة النبي (ص)، وخرجت في المغرب فدرت حول المسجد ومررت بمكتبة المدينة الكبرى التي أسسها «عارف حكمت» أحد ولاة الأتراك، وفي الليل أوعز إلينا بأن نلبس ثياب الإحرام لأننا سنقوم بالعمرة في اليوم الثاني، وعلينا أن نستبدل ثيابنا منذ خروجنا من المدينة وأحضرت لنا ألبسة الإحرام، وحرت كيف أستعمل هذا اللباس الذي أشبه بما كنا نضعه على أجسامنا حين خروجنا من الحمام الداخلي إلى الخارجي، ولكن عبد الكريم دلني على قضية هامة وهي استعمال الزنار الجلدي فوق الحزام لتمسكه، وهكذا كان، وخرجنا صباحاً وكان الجو بارداً فركبنا الطائرة إلى مطار «جدة» فوصلنا قبل الظهر ونحن في ثياب الإحرام، ونزلنا في فندق «هوليداي إنْ» وهو فندق لا مثيل له إطلاقاً، وصعدنا إلى الغرف البديعة وجلست أستريح وأنا أشرف على حديقة جميلة، وعند الغداء نزلنا إلى سفرة لا مثيل لها، فيها ما يلذ الأعين والقلوب، ثم قمنا إلى السيارات وأسرعنا سيراً إلى مكة التي كانت لا تبرح خاطري، وقبل أن أصل مدخل البلدة التاريخية وجدت لوحة ضخمة على الطريق الآخذ إلى الطائف كتب عليها: «من هنا طريق الكفر». فعلمت أن الطائف يمكن أن يزورها الأجانب من غير المسلمين أما المدينة ومكة فغير

مسموح بزيارتهما إلا للمسلمين، ودخلنا الشارع الرئيسي في مكة المكرمة، وقد رأينا أبنيتها كلها بيضاء وظللنا في سيرنا إلى الباب الكبير للحرم الشريف وهو الباب الذي شاده الملك عبد العزيز آل سعود والتفتنا إلى خلفنا فقال الشرطي: انظروا هذا الجبل العالي فهو العلامة لكي لا تضيعوا، ودخلنا إلى جامع كبير جداً يتسع للآلاف من الناس فلم نجد أناساً كثيرين لأن الوقت لم يكن حجّاً، وأخذنا نطوف حول الكعبة التي كانت في وسط هذه الساحة الكبيرة الشاسعة المدرجة درجات واسعة متقاربة، وعندما أنهيت الأشواط السبعة تلفت فلم أجد رفقائي جميعاً وإذا بي وحدي في هذا المكان العجيب فذهبت إلى قرب الحائط فوجدت كرسياً جلست عليه أنظر إلى الناس من حواليّ رائحين جائين، ومللت الانتظار فخرجت إلى باب الجامع قرب سياراتنا فجلست أنظر إلى المدينة التاريخية التي لا تبرح خيال كل مسلم في العالم وبعد نصف ساعة جاءني أحد الشرطة يقول: أولم تسعَ؟ فلم أفهم عليه ما أراد، ثم استدركت وقلت له: كلا، والمسعى هو السير بين الصفا والمروة؛ والسعي من أركان الحج، وحين أنكرت أني سعيت قال لا تجوز العمرة لا بد أن تسعى، وقلت له: لقد تركني رفاقي وأنا لا أعلم ماذا أفعل، قال: أنا أعينك على السعي، وقلت له: لا أستطيع فالمسافة ثلاثة كيلومترات ونصف وهذه مسافة مرهقة لأمثالي، قال: أنا آتيك بعربة صغيرة تركبها ويدفعك رجل فتسعى بين الصفا والمروة لتتم «العمرة»، قلت: حسناً، وذهبت برفقة الشرطي فوجدت مكاناً في زاوية من زوايا صحن الجامع وفيه جماعة واقفون وأمامهم عربات كالعربات المستعملة للمعوقين فأشار الشرطي بأن أستقل واحدة منها، ولم أتردد ففعلت، وجاء رجل ضخم الجثة فدفع بي ومشت العربة بإذن الله بين تلّين صغيرين يصل بينهما طريق منقسم إلى فرعين للرائحين والعائدين، ووصلنا إلى التل المقابل وهو المَرْوَه، وبجانبه عين «زمزم» الشهيرة، وكنت وفي كل مرة تصعد العربة إلى أعلى التل يطلب إليّ أن أتشهد؛ وهكذا حتى تمت الأشواط السبعة، وفي نهايتها تناول الرجل راسي وقصّ شيئاً من شعري وبهذا انتهت العمرة وخرجت من هناك بعد أن أديت ما عليّ في هذه الزيارة المباركة التي فرحت بها فرحاً كبيراً. كما أعجبت بالترتيب والنظام وأنا أندفع بعربتي الصغيرة والناس يهرولون حواليّ رائحين جائين في منظر يدل على الاستسلام للعقيدة الراسخة في أذهان هؤلاء الناس المؤمنين. وخرجت من الجامع لأرى جماعتي وقد جلسوا في مقهى مرتفع قليلاً عن الساحة العامة أمام الجامع وهم يتناولون الشاي، وبعد فترة قمنا فركبنا السيارات وعدنا إلى فندقنا: «هوليداي إنْ» في جدة فاسترحت قليلاً، ونزعت عني ثوب الإحرام وجلست في البهو الكبير ومعي الوفد العراقي وخاصة الصديق العزيز السيد «العَلُوجَي» الذي كان مثال اللطف في كل رحلتنا وهو متعلم ومحقق وكاتب، ثم تناولنا طعام العشاء، وانتقلنا إلى حديقة الفندق وهناك اجتمعنا للسهر مع أخواننا المصريين وعلى رأسهم الدكتور يوسف إدريس القصاص الشهير ومعه عدد من الصحفيين المعروفين أيضاً في مصر، وبتناول الأحاديث المصرية والنكات اللطيفة، ورويت لهم ما أحفظ من القصص عن سيد درويش ونجيب الريحاني وغيره، وامتدت السهرة بنا إلى أواخر الليل وذهبت إلى النوم في الغرفة العامرة. وفي الصباح الباكر نزلت إلى البهو في الفندق وكنا على أهبة السفر ووضِعت أشياؤنا في السيارة وذهبنا إلى المطار، وفي المطار انتظرنا قليلاً حتى جاء الموعد فدخلنا في شبه دهليز واسع وإذا بالطائرة جاثمة فيه فصعدنا إليها، ولا ندري كيف خرجنا مع الطائرة من ذلك الدهليز ثم طرنا حتى هبطنا بعد ثلاث ساعات في مطار دمشق بعد أن صادفنا كثيراً من الغيوم التي غامت لها نفوسنا خوفاً، وخاصة الأستاذ عبد الكريم الذي رافقته أكثر من مرة فكان سبب خوفي، لأنه الوحيد في العالم الذي أراه أشد خوفاً مني.

كنت حين أتحدث مع رفاقنا الطلاب المصريين في دمشق أذكر لهم كثيراً من أسماء الأماكن في القاهرة وغيرها، فيسألني أحدهم: هل زرت مصر؟ فكان صديقي عبد الهادي الذي ورد اسمه سابقاً يجيبهم عني بقوله: أبوه راح شفهي؟ وهذا الذي قصدته من قولي، رحلات لم تحدث. فقد كتبت إليّ وزارة الإعلام في البحرين منذ سنتين تدعوني إلى إلقاء محاضرة في نادٍ من نوادي المنامة عاصمة هذه البلاد، واتفقنا على الموضوع الذي سألقيه وكان موضوعي «سيد درويش»، وتحدثوا معي بالهاتف واتفقنا على الموضوع ورحت أنا أنتظر وبعد أخذ ورد عدة أيام، تحدث إليّ وكيل وزارة الإعلام البحريني يقول: عفواً

يا أستاذ لقد قرب موعد رمضان شهر الصيام وطلب إلينا بعض ممثلي الدول العربية أن نؤجل الموعد حتى المهرجان الأدبي إلى ما بعد هذا الشهر، وقلت: الأمر يومئذ لله، ولكني ما زلت أنتظر حتى الآن دون أن يردني خبر، ويبدو أنهم مددوا الشهر إلى مالانهاية، فهل يعقل أن تتفق وزارة رسمية مع إنسان ثم تؤجل الاتفاق وتلغيه بعد ذلك دون سبب؟ ولكن هذا كثيراً ما يقع في دولنا العربية التي أصبحت في هذه الأيام عبرة من العبر في عدم التزامها بالقانون والنظام والأصول، إن حياة البداوة ما زالت تسيطر على حياة الحكومات العربية كلها مع الأسف الشديد، وهذا دليل آخر على قولي:

منذ سنتين اتصلت بي سفارة قطر في دمشق وتحدث منها رجل عرفته فيما بعد وطلب إليّ أن أهيّىء نفسي للذهاب إلى قطر لإلقاء محاضرة مع عدد من الأدباء، في ناد اسمه «الجسرة» ورجا إليّ الرجل أن أحضر إلى السفارة فحضرت وتحدث إليّ بلسان حلو، ثم قال: لقد أرسلنا برقية بالموافقة وأرجو أن تهيىء نفسك، وذهبت بعد أيام ولكني لم أتلق شيئاً واتصلت بالرجل، فقيل لي: إنه غير موجود، وهكذا تكررت اتصالاتي، وما زال الرجل غير موجود إلى الآن مع أنه تكلم باسم السفارة. وحالنا مع مجلات هذه المنطقة العربية نفس الحال، فهم يعدون ويكتبون ويتفقون ولكن دون نتيجة وتتكرر هذه الأمور فإن الأفكار الشخصية وربما المداخلات من خارج المجلات تؤثر في الموضوع فتعطل الأمور، ولا من يسأل ولا من يفهم.

كانت الطائـرة أبداً حلمـاً مزعجـاً لي، واختراعـاً خطيراً، إذا ذكـرته اضطـربت وإذا لاح لي في كبد السماء جزعت وفزعت، ولعل مخترع هذه الآلة البغيضة كان أبغض الناس إليّ، لأنه حقق ما حلم بـه أبو العلاء وهو يتحدث عن المستحيل في قوله:

سر إن استطـعـت في الـهـواء رويـداً　　لا اختيـالاً عـلى رفـات الـعبـاد

ولعلي كنت في حياتي كلها مصداقاً لقول شوقي، رحمه الله:

أركـب الليـث ولا أركبـهـا... الـخ

وكأن شوقي قد ندم في قولي هذا على ما قـاله فيمـا مضى وأخطأ في هـذا الاختراع العجيب في قـوله البديع:

يـا فـرنسـا نلـت أسبـاب السمـاء　　وتملّكـت مقـاليـد الجـواء
غلـب النسر عـلى دولتـه　　وتنحّـى لـك عـن عـرش الـهـواء
مـركـب لـو سلـف الـدهـر بـه　　كـان إحـدى مـعجـزات القـدمـاء

ولعمري، إنني لا أستطيع أن أتصور رجلاً بديناً مثلي يصعد في السماء لا يلوي عـلى شيء حتى يبلغ ارتفاع الآلاف من الأقدام أو الأمتار لا أدري؟ كل ذلـك حباً في السرعـة واختصاراً للـوقت وقتلاً للـزمن، والزمن عندي أغلى شيء في هذه الحياة، ولوددت لو أن الساعات تمتد بي إلى ما شاء اللـه حتى أشبع من هذه الحياة تأملاً واسترخاءً وكسلاً.

ورن جرس الهاتف في صباح يوم من أيام كانـون الأول ١٩٧١، وأطل من الهـاتف صوت فتـاة ذكية مهذبة تقول: الأستاذ الجنـدي؟ هنا السفـارة العراقيـة، أنت يا أستـاذ مدعـو إلى مهرجـان أبي تمام في الموصل والسفر في اليوم السادس من هذا الشهر بعد الظهر وعلى الطائرة العراقية، وقلت للآنسة: شكراً، وجن بي الفرح ولكني كدت أقفز من الكرسي حين ذكرت أن السفر في الطائرة وأن الرحلـة ستكون ليليـة، وهذا أنكى وأشد بلاءً، وحاولت عـلى البديهـة أن أطلب السفارة العـراقية لأرفض السفـر ولكنني تريثت ووازنت بـين خوفي، وبـين الفرحـة في الذهـاب إلى بلد من بـلاد الأحـلام، بلـد ابن الـرومي وأبي نـواس ومسلم بن الوليد وغـير هؤلاء من الشعراء والأدبـاء الذين عشت معهم ومـا زلت أعيش بعقلي وحـواسي، ناسياً هذه الحياة التي يحياها جسدي في زمان لست منه وليس مني. وسرعان ما تغلب العقل على الشعور بـالخوف، وقلت في نفسي لعلهم يـرحمون ضعفي وضمـور عزيمتي أو يشفقـون عليّ فيبعثـوا بي على متن طائرة أرضية بطيئة يمكن التغلب عليها بالحنكة والدراية، وتركت الأمر لأسوّيَ من أمـري ولأهيىء نفسي للسفر. وأخذت أتحدث إلى معارفي وأخواني أفصح لهم عن خـوفي وضعفي أمام هـذا البلاء الـذي يدعى بالطائرة، ولكني لم أجد عند أولئك المردة المارقين سوى السخر والضحك والغمز واللمز وقـد انقلبوا كلهم سؤالاً واحداً ساخراً مؤلماً: أتخاف الطائرة؟؟؟ لقد صاروا كلهم شجعاناً وأفذاذاً وأصبح أقل واحـد منهم عنتـرة العبسي أو ربيعـة بن مُكَـدَّم، وكنت أسكت عـلى مضض، وأنّى لي أن أنـافس أو أفـاوض وكلهم مجمعون على أن اجمل الرحلات هي تلك التي يقضيها الراحل الكريم على متن الطائرة التي لا يعرف على التأكيد متى تحط على الأرض فيزول عن عشاقها الخطر الذي لا خطر مثله على وجه البسيطة.

ولقد علمت برفاق الرحلة وكانوا ثلاثـة، السيدة الأديبـة الكبيرة سلمى الحفـار الكزبـري، والأستاذ عبد القادر عياش والأستاذ عبد الكريم اليافي، وقلت في نفسي: أتصل بـأحد هؤلاء عسى أن يهـديني سواء السبيل أو يجد لي من هذا الضيق مخرجاً، أما السيدة الحفار الكزبري فلم أجرؤ على التحدث إليها، فأنا رجل معروف بي الخجل الشديـد حين أتحـدث إلى شخص تربطني بـه علاقـة شبه رسميـة، وأنا أضيق الناس ذرعاً بأولئك الذين أحترمهم احتـراماً كبيـراً، بل لا أبـالغ إذا قلت إنني أحب الإقـلال من الظهور

أمام هذا النفر ممّن أحترمهم وأعزهم لكيلا يطلعوا فيّ على ما لا يعجبهم، لذلك ألجأ إلى التخفي والإقصار من الحديث معهم والإقلال من الاجتماع إليهم حتى أظل في نظرهم محافظاً على الصورة الأولى التي تعرفوا بها إليّ. وأردت الاتصال بالدكتور اليافي وهو صديق قديم، ولكني خشيت أن أحتاج إلى شيء من الفلسفة العميقة حين أتحدث إليه، فسكت على مضض ولم أجد أمامي غير الأستاذ العياش فهو رفيق في الدراسة القديمة ارتفعت بيني وبينه الكلفة واتّحدت بيننا المشاعر والأحاسيس في كثير من الأمور، وهكذا فقد أوضحت له مخاوفي من الطائرة فكان شر أصحابي عليّ، لقد استسخفني وحاول إقناعي بكل مغلظةٍ من الأيمان، ولكن الخائف لا يمكن أن ينقلب مقداماً، والبخيل لا يصبح أبداً كريماً، والثقيل لا بد أن يكون ثقيلاً ولو انقلب كتلة من الهواء العليل.

وجاء اليوم الموعود!

سيدة الرحلة، لقد تبادر إلى ذهني هذا الوصف، للسيدة الكريمة الفاضلة سلمى الحفار التي رافقتنا، فالذي لقيته منها لم ألقه من أحد، وأقسم أني لولاها لعشت في الطائرة الخبيثة دقائق من الحياة لا أنسى ألمها وعذابها والخوف منها، ولكن هذه الفاضلة هي التي خففت من عبء الجو وألم الطيران والخوف الذي أمسك بجسدي كله حتى عجزت رجلاي عن المشي وحتى فارقتني الابتسامة وقد حسبتها ذهبت إلى الأبد. وإليك القصة:

وصلت إلى المطار مع الأخ عبد القادر عياش وكان الحظ يرتقب خطواتي والأقدار تقف لي على الطريق كالصُّوى أو كالعلامات الرهيبة المرعبة، وأمطرت السماء وابلاً واضطربت الدنيا برعد يصمّ الآذان بما يهلع له القلب وينخلع الفؤاد، وأقسم لقد كان الجو مخيفاً لي حتى لو أنني كنت في مقصف من مقاصف الربوة أو دمر، فكيف بي وأنا سائر إلى لقاء الأجواء البعيدة، وأقدم على الخوض في هذا الفضاء الذي لا يحدّه العقل أو الخيال، ودخلت مبنى المطار وأنا أكاد أعجز عن المشي ووصلت إلى استراحة المسافرين، فوجدت السيدة النبيلة سلمى ومعها زوجها الصديق الفاضل الدكتور نادر الكزبري، وما كدت أجلس حتى لمحت في وجهي علامات رابتها ولفتت فكرها إليّ، وبدأت الحديث بلا استئذان تذكر به حياة السفر والرحلات وتصف رحلاتها البعيدة العجيبة من أقصى الأرض إلى أقصاها، وأخذت أحملق فيها وعجبت لهذه المخلوقة التي جعلت السندباد تلميذاً ابتدائياً بالنسبة إليها، وقد أخذ الخوف يسري في عروقي ليخرج إلى الأبد بعيداً عني، وألحت في حديثها هذا وهي تصور لي الأمن والاطمئنان، وتؤكد لي أن الأخطار في الطائرات قد أصبحت شيئاً قديماً بالياً، وأن هذه الأخطار لا تنجم إلا عن أخطار قد أصبح من السهل اليوم تحاشيها وتفاديها، وحلّت ساعة السفر فقمنا، وما كدنا نصل إلى بهو الانتظار حتى دخل أحد المسافرين وهو يرغي ويزبد وقد تشنج شكله وتقلصت وجنتاه وضاقت عيناه وراح يصرخ بقوله: إن السماء ملأى بالرعود والعواصف، والطائرة لا يمكنها السفر لكثرة الأخطار، وأنا، شخصياً، لا أريد أن أسافر هذا اليوم، ولا بد من التأجيل، ووقع هذا الحديث عليّ وقع الصاعقة، فقد عادني الخوف أشد مما كان واستولى عليّ الرعب القاتل، والتفتت السيدة الفاضلة لتتحدث إلى المسافر الخائف حديثاً فيه القوة واللطف والعقل ولتقول له: إنك تتكلم بكلام غير منطقي لا سيما وأنت قد سافرت مراراً عديدة، أفلا تتعلم الهدوء من الأستاذ وأشارت إليّ، وهو الذي لم يسافر قبل هذا اليوم، ومع ذلك فأنت تراه رزيناً رصيناً يقرر السفر بلا خوف ولا ارتياب، ونصحت للمسافر الذي ملىء رعباً، أن يكف عن هذا الحديث وأن يتوكل على الله، وذلك ما وقع... ونظرت من نافذة بهو المطار إلى الطائرة وهي تدفّ على الأرض كالنسر المهيض تتجه يَمنة ثم يَسرة، واقتربت السيارة منا فصعدنا إليها لتقلنا إلى المصير المحتوم، المصير المعلق بأكف القدر، وصعدنا على السلم الحديدي وأنا أكاد أميل من فرط الإعياء والخوف والتفكير المخيف وكان المطر يتساقط على أكتافنا، ودخلنا في ما يشبه الدهليز فرأيت المكان غاصاً بالسكان من المسافرين. في وجوه قاتمة باسرة قد لاح عليها الإعياء وبدا فيها الاضطراب والتفكير الطويل، ومشينا في رواق بين المسافرين حتى وصلنا إلى آخر الطائرة فجلست وجلست سيدة الرحلة في المقعد الأخير إلى جوار رفيقها الدكتور، وأخذت السيدة تحبّذ الركوب في آخر الطائرة فهو أسلم من

الأمكنة الأمامية، ثم أخذت تحكم إنزال الستائر على النوافذ حولي حتى لا يقفز بصري إلى الفضاء فأرى ما فيه مما يشل النظر ويصعق الرائي، وتحركت الطائرة فتحرك قلبي معها صاعداً بين الأضلاع حتى كاد يبلغ عنقي وكدت أقف من رعبي والسيدة الفاضلة ما تنفك عن التحدث إليّ والسؤال عني، وقد أدركت أن منظري كان يوحي بالشفقة والعطف كالطفل الذي نرفع عليه العصا فيحاول أن يستر وجهه خوفاً وهلعاً. وتشجعت بعد أن قامت الطائرة واستسلمت لنوع من اليأس المضني وأخذت أصطنع الكلام والحديث ولساني ما يكاد يدور في فمي، ورحت أروي شيئاً من الأشعار فكانت الألفاظ والكلمات تضطرب في فمي تبعاً لاضطراب الطائرة علواً وهبوطاً، ورأيت رجلاً في المقعد أمامي وقد أخرج من جيبه مشطاً حديداً يقوّم به ما أعوج من شعره القاسي الذي يشبه المسلات، وكان يلتفت إليّ كلما رويت بيتاً من الشعر بعينين واسعتين مخيفتين، وقد هممت بالتحدث إليه ولكنه لم يشجعني على ذلك فغيرت اتجاهي وانصرفت إلى سيدة الرحلة أروي لها أبياتاً من الشعر الذي أحفظ. ولم تمضِ دقائق حتى خرجت المضيفة لتقول: نحن على ارتفاع اثنين وثلاثين ألف قدم.

وكاد يخرج قلبي من صدري حين سمعت هذه الجملة المختصرة الرهيبة ولعنت الطيران وشتمت الطائرين وكدت أجن من حنقي، فقد عادت بي قصة الخوف إلى مبدئها ونسيت كل ما تحدثت به سيدة الرحلة من عبارات ونصائح وثارت السيدة الفاضلة ثورة عارمة، وحاولت أن توحي إليّ بأن ما تقوله الآنسة المضيفة هراء في هراء، فهي لا تعرف شيئاً عن ارتفاع الطائرة وأدركت وهذا ما زادني خوفاً، أن السيدة تحاول تخفيف المصاب وتهوين الأمر.

ولم أكد أنتهي من هواجسي حتى أخذت الطائرة تهتز وحتى أخذتُ بالاهتزاز تبعاً لحركتها واضطرابها وازداد الاضطراب، فلمحت راكباً إلى جانبي يحاول ربط جسده بزنار المقعد الذي يجلس عليه، وأدركت أن في الأمر خطراً؛ فقد قرأت أن هذه الزنانير إنما تستعمل في حالة الخطر ومددت يدي إلى زنار مقعدي وأدرته حولي فلم يصل إلى نصف المسافة من بطني العظيم البارز، ونظر الركاب من حولي فضحكوا وأنا أكاد أتميز من الغيظ، وحاولت استعمال الزنار فأخفقت وناديت المضيفة وسألتها عن الحل لهذا المشكل فضحكت وقالت: لم نحسب حساباً لأمثالك من الأخوة المسافرين. ولم أفهم النكتة فليس الوقت مساعداً حتى على الابتسام، ورجعت إلى نفسي أعنّفها وأسخر منها، والتفت إلى سيدة الرحلة فوجدتها ضاحكة ولم تفارقها الابتسامة، ولكن ضحكتها ذكرتني بضحكة الأم الرؤوم تريد أن تسريّ عن ولدها الوحيد وقد وقع في مأزق، وكأنني أيقظتها من سبات عميق، فرجعت إلى نفسها وأخذت تتحدث إليّ وتذكر محاسن الطيران ولذة التحليق وجمال الصعود والهبوط، وراحت الطائرة رغم كل ما مرّ بي تتأرجح وتتمايل كأنها هضبة تضطرب في زلزال كما قال عبد العزيز البشري يصف زيوَر باشا، وامتد هذا الاضطراب زمناً يكاد يبلغ نصف ساعة ثم أخذت الهزة تخف شيئاً فشيئاً، واعتادتني لحظة من السكون أشبه بما يسبق الإغفاء في النوم، وانتبهت على صوت من السيدة الفاضلة وهي تربّت على كتفي وتقول: انظر انظر، ها هي أضواء بغداد، وكأنها قد لقيت ضالة منشودة أو شيئاً ضاع منها، لقد وصلنا، لقد وصلنا بحمد الله. والتفت فرأيت خطاً من القناديل وكأن بعض النجوم قد وقع على الأرض وأدركت أنه المطار الذي طال انتظاره وأحسست في تلك اللحظة بشوق عجيب إلى الأرض التي وصفها الشاعر صَرُّ دُرّ بقوله الرائع:

هذه الأرض أمنا وأبونا حملتنا بالكُره ظهراً وبطناً

وشعرنا بالطائرة تحط شيئاً فشيئاً، ورأيت المسافرين وقد انفرجت أساريرهم، فكلهم كان خائفاً، ولكن أكثرهم يصطنع الشجاعة ويتظاهر بالجبروت الذي لا يعرف على حقيقته إلا حين يزول الخطر، لأن السرور لا يبدو إلا بعد الكدر، والاطمئنان لا يكون إلا بعد الخوف الحقيقي الأكيد.

وحطت الطائرة فسمع لها صوت شديد حين مست الأرض، ووقفت وقفة الجواد الحرون بعد سفر طويل، ونزلنا من الطائرة، وأخذ السرور العميق يحل في صدري مكان الخوف الرهيب، ولم أكد أصل إلى بهو الضيوف من المطار حتى رأيت الرجل صاحب المشط الحديدي والشعر الفولاذي يتقدم مني ويقول:

أنا محمود حسن إسماعيل وقلت على الفور وقد عادت إليّ الحياة: أهلاً بالنهر الخالد.

كان محمود حسن إسماعيل على رأس قائمة الشعراء الوافدين إلى العراق، وكان معه شاعر يمني كفيف هو الأستاذ عبد الله البردوني وقد صار له شأن فيما بعد حين ألقى قصيدته الباكية، وسنتحدث عنه عند الحديث عن أيام المهرجان، وكان هناك شعراء مصريون من «الطران» الحديث، منهم الشاعر محمد عفيفي مطر كما كان هناك شاعر لبناني صحفي هو «جورج رجّي»؛ وقد رأينا فيما بعد نزار قباني وشفيق الحوت والشاعر السوداني (محمد الفيتوري)، كما رأينا في العراق الشعراء حافظ جميل وعبد الوهاب البيّاتي وهلال ناجي وغيرهم كثير جداً، وكان للموصل في المهرجان شعراؤهم الذين اختصّوا بيوم من أيام المهرجان الثلاثة.

لم نكد نبرح أرض المطار في الليلة التي وصلنا بها أرض العراق حتى آخذت الراحة والسكينة تعود إلى قلبي الخائف وحتى رحت أنظر في نفسي وكأني غير مصدق أنني في البلد الذي عاش فيه أبو نواس وابن الرومي الذي تغنى به فقال:

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثل في الضمير رأيته وعليه أغصان الشباب تميد

وحتى ذكرت ذلك الهجّاء المقذع الذي شتم بغداد بقوله الظالم:

بغداد دار لأهل العز طيبة وللمساكين دار الهم والضيق
ظللت حيران أمشي في أزقتها كأنني مصحف في كف زنديق

ولقد خدعنا هذا الشاعر وكذب علينا، فبغداد بلد الغريب منذ عرفنا اسمها وتاريخها؛ والعراق كان دائماً البلد المضياف الذي حمل الوافدين إليه من البلدان العربية على اختلاف مللهم وأوطانهم ولعل هذا الشاعر الهاجي من المهووسين الذين لا يرضيهم شيء، ولقد ذكرت أيضاً بيت الشاعر الزهاوي العجيب الذي لا يفهم معناه ولا يدرك القصد منه وخاصة الشطر الثاني منه:

لقد كنت في درب ببغداد ماشياً وبغداد فيها للمشاة دروب

ولعمري أنني لم أذكر هذا البيت إلا وضحكت منه ومن الزهاوي كيف تأتّى له هذا القول الذي يضحك الثكلى، ولعل قوله أشبه بأن يحال إلى وزارة المواصلات.

واستقبلنا أدباء العراق وعلى رأسهم الشاعر عبد الوهاب البياتي، وامتطينا السيارات إلى البلد وأنا أتأمل رقعة المدينة الكبيرة التي بناها ابو جعفر المنصور عاصمة لملكه وأسماها دار السلام، كما كان اسمها الزوراء، وبغداد، وبغدان، وبغداذ، ولعل كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى كما قيل. وأخذت السيارات تجتاز بنا الطريق السهل الجميل، وتذكرت ما شاءت لي الذاكرة هذا البلد ومر بخاطري الكثير ممن عبروا هذا الطريق، ولم يفارقني طيف المتنبي، شاعري المفضل الذي كنت أحمل ملحمته التي نظمتها قبل أشهر، وورد على خاطري مقتله في أرض قريبة من هذا الدرب الذي أسير عليه وتكاثرت هذه الذكريات حتى ضاع صالحها بطالحها، ولم أجد نفسي إلا بين الشوارع الجديدة من بغداد وعلى جانبي الطريق الدكاكين والمحلات من مقاهٍ ومطاعم وبائعو فاكهة، وكنت ألتفت إليها جميعاً فأجد صورة حية من دمشق ومن كل بلد عربي مررت به في حياتي الطويلة العريضة، وقد لفت نظري أن الشوارع عريضة متسعة ونظيفة إلى حدّ ما، وأن البيوت متواضعة لا يزيد أعلاها على طابقين أو ثلاثة، فلم أجد فيما مررت به من المدينة قصوراً منيفة أو أبنية باذخة ناطحة للسحاب كما في بيروت والقاهرة، ووجدت نفسي فجأة أمام فندق «عمر الخيام» الجميل.

وضعت الحقائب في بهو الفندق واستقبلنا أصحابه اللطفاء فرحبوا بنا أجمل ترحيب، وخصصت لكل ثلاثة منا سيارة تقف في انتظارهم أمام الفندق وصعدنا إلى الغرف، وكانت غرفاً أنيقة حقاً، نظيفة جداً، يتمنى المرء لو عاش فيها أبداً واستغنى عن مشاكل الحياة الأخرى، فكل شيء فيها جاهز حاضر حتى الورق والمغلفات والأقلام ولاحت مني نظرة خاطفة، فأبصرت بحقيبتي ولم أكد أعرفها إذ كانت يدها قد نزعت بفعل يد قوية، لعلها أقرب إلى يد محمد علي كلاي أو جام دمبسي من أبطال الملاكمة، فأحزنني أن

أرى الحقيبة مخلوعة اليد وآلمني أن استفتح إقامتي في بغداد بهذه الفاتحة التي تبعث على التشاؤم، وأنا ممن يؤوّلون الأشياء والمناظر والوجوه والحوادث لأني واسع المخيلة كثير تـداعي الأفكار، وتنـاسيت هذه الفاجعة الكبرى وانحدرت من غرفتي إلى باب الفندق حيث البهو الفسيح الذي أجتمع فيه الأخوة الأدباء والشعراء، وقبل أن أهبط سمعت أصـواتاً غـريبة ومشـادة يتخللها صراخ وزعيق، ووقف شعـر رأسي من الخوف وأطللت من سلم الفندق فوجدت شخصاً يتكىء على مكتب إدارة الفنـدق وهو يتلـوى يمنة ويسرة فعل السكران الذي تعتعته الخمرة، ورأيت مدير الفندق يضحـك له ويسترضيه وذاك يثـور ويصيح، ثم خرج من الباب إلى الشارع وهو يتوكأ على عصاه الغليظة ويميل ميلاناً غير طبيعي، وعرفت فيما بعد أنـه طبيب أقعده السكر عن صناعته وأنه مليونير لا عائلة له ولا أولاد، وأنه يعيش في هذا الفندق منذ سنوات وينفق من ماله الكثـير نصف ما ينفقـه سكان الفنـدق جميعاً، وأدركت حينئـذ سبب ثورتـه العارمـة كما أدركت سبب تحمل إدارة الفندق له، ذلك أنه يغني الإدارة عن النازلين والضيوف ولو ظل وحده أبداً.

كدت لا أصدق أن بغـداد بلد حـار تصل فيـه حرارة الصيف حتى الخمسـين، واستغربت مـا كنت أقرأه من قصص حول تلك الدهاليز والأقبية التي كان يبتنيها سكان العراق هرباً من الحر وتفادياً لضيق الصيف اللاهب، وذكرت ذلك الرجل الذي مـر ببشار بن بـرد فوجـده في دهليزه قـائماً وبصر بـه طويـلاً عريضاً يكاد يسد مهب الريح، كما يقول ابن خفاجة، فقال له: أأنت القائل؟

إن في بُـرْدَيَّ جسمـاً نـاحـلاً لـو تـوكـأت عليـه لانـهـدم

والله لو أن الريح التي أهلكت عاداً وثمود قد أصابتك لما زحزحتك من مكانك.

ذكرت كل هذا حين أصبح الصباح وحين أحسست بالبرد يلفحني ونظرت إلى شارع السعدون وفيـه فندقنا «الخيام»، فبصرت بالأرض قد مسها المطر، ورأيت السماء قـد اربدّت وتنقلت فيهـا الغيوم رائحـة جائية ونزلت من الفندق فاتجهت إلى شارع أبي نواس فوجدته خالياً خاوياً. وكأن أبا نواس قد فارقه لتوّه وتبين لي أن برد بغداد لا يقل شدة وقسوة عن برد دمشق، فعجبت لهذا الجـو كيف يتبدل ولهـذه السماء كيف تصحو وتصرّح بعد القتام والاسوداد، ورأيت مساحة مدينة بغداد شاسعـة واسعة يكـاد لا يحدهـا البصر، وعلمت أن طولها لا يقل عن ٥٠ ـ ٦٠ كيلومتـراً ولكني لاحظت، من جهة أخـرى، فقدان الأبنيـة الفخمة والشاهقات من العمارات والناطحات من البيوت فعجبت من ذلك أشـد العجب ثم علمت أن البناء في بغداد أكثره من الأجرّ (الطابوق) وأن البناء فيها لا يتجاوز الطابقين إلى الثلاثة وأن البيوت كلها تقريباً ذات فسح وحدائق تساعد على تخفيف الحر، وهذا سبب اتساع رقعتها وانفساح مكانها. شوارع واسعة جداً، طويلة جداً، ولكنها لا تحوجك إلى رفع رأسك لترى ما فيها، لأنهـا كلها قـريبة من الأرض. وقفت في اليوم الأول على باب الفندق وأدركت للوهلة الأولى أن الحي الـذي يقع فيـه فندقنـا حي منعزل بعيـد عن مزدحم السكان، ناءٍ عن ملتقى الرائحـين والغادين، والتفت يمنـة ويسرة فلم أعثر إلا عـلى نفر قليـل من النـاس يروحـون ويجيئون، ورأيت المخـازن ذات اليمين وذات اليسـار وكلها مـلأى بالبضـاعـة غـاصـة بالمبيعات، وما كدت أجلس في بهو الفندق الأمـامي حتى رأيت الرفـاق من الأدباء والشعـراء يهبطون من السلم أو المصعد إلى ذلك البهو فيجلسون ويتعـارف بعضهم إلى بعض، هذا من الكـويت وذاك من اليمن وذلك من لبنان، ودارت الأحاديث شتى والحكايات كانت شجوناً.

وكنت أحس بتعب ولكنه تعب محمول، وهو تعب الرجل الذي لم يكتفِ نوماً أو راحـة ويبدو أن سفـر الطائرة متعب، ولا يعرف تعبه إلا في اليوم التالي، وذكرت أنني لم أنم إلا قليلاً، والقليل هنا يعني، الساعة أو ما يزيد على ذلك قليلاً. ومـا كدت أستـريح حتى جـاء أصحابنـا من الوفـد السوري، السيـدة النبيلة وزوجها، والأستاذ ياسين والأستاذ اليافي، وتداولنا بما يجب أن نملأ به النهار الأول فاتفقنا عـلى أن نزور سفارة سوريا في بغداد، فهي أول الأمكنة بالزيارة رسمياً وأدبياً، واتصلنا بالسفير واتفقنا على موعـد، وفي الفراغ ما بين الموعد والوقت الذي نحن فيه اقترحت على الـرفاق زيـارة المجمع العلمي العـراقي بصفتي مديراً لمجمع اللغة العربية في دمشق، وللصداقة التي تـربطني بأمينـه العام الـدكتور يـوسف عز الـدين الأديب المعروف.

واستقللنا السيارات التي خصصتها لنا وزارة الإعلام العراقية ومعنا المرافقون الذين أبدوا كل لطف وإيناس في صحبتنا ودلالتنا على كل مكان أثري أو علمي أو تاريخي، ووصلنا إلى بناء المجمع العلمي العراقي الضخم، وصعدنا في سلم نظيفة جميلة التنسيق وشاهدنا الغرف الصغيرة المربعة المقسمة والتي خصصت كل واحدة منها لعضو من أعضاء المجمع، عدا القاعات الكبيرة والغرف المخصصة للموظفين الإداريين ووزعت عليهم أقداح الشاي كما وزعت علينا مطبوعات المجمع الجاهزة الجديدة وانتقلنا بين غرفه وأبهائه، وهذا المجمع قد تبرع ببنائه الغني الأرمني الأصل المعروف «كلبنكيان» وكان يقيم بإسبانيا، وهو المليونير صاحب الأسهم الكثيرة في واردات النفط العالمي، ويقال إن له ٥٪ بالمئة من أرباح هذا القطر حتى أطلق عليه اسم خمسة بالمئة للدلالة عليه، وقد حاول مجمع اللغة العربية بدمشق الاستفادة من هذا الغني الذي لم ينس أصله الشرقي، ولكن القدر عاجله فتوفي قبل أن يفيد منه هذا المجمع.

وانحدرنا من مجمع اللغة العربية بعد أن تعرفنا على الكثير من أعضائه العاملين والعلماء الذين يعملون فيه مثل الأديب الأستاذ عبد الرزاق الهلالي والأستاذ علي جواد الطاهر وغيرهما ممن لا أذكر أسماءهم، كما أننا لم نستطع لقاء رئيس المجمع الأستاذ عبد الرزاق محي الدين لمرضه وغيابه عن بغداد.

اتجهنا بعد المجمع إلى السفارة السورية في بغداد ولم نكن نعرف السفير وهو الأستاذ عز الدين نعيسه، ولكني تذكرت أني رأيته مرة في وزارة الداخلية السورية وكان هو محافظاً لمحافظة الجزيرة ـ الحسكة ـ ، ووصلنا إلى السفارة بعد أن دارت بنا الطرق وتعددت المنافذ واختلفت الجوّاد، ودخلنا داراً قوراء ذات حديقة جميلة، ولكن الباب في البناء كان أشبه باب السرداب، لقد كان صغيراً قصيراً قميئاً حتى حار الرفاق كيف أنفذ منه بجسمي الضخم وبطني الفخم، ووصلنا إلى مكان استقبال السفير فهب من مكانه يناديني باسمي وكأني تركته منذ هنيهة، وكأنني أعرفه ويعرفني منذ زمن بعيد، ولقد كان والحق يقال، طلق المحيا دائم الابتسامة، بائن الطول ضاحك الأسارير أشقر اللون، وكان ترحيبه بالغاً في الأنس واللطف، وأصر على دعوتنا لقضاء السهرة والعشاء في بيته الجميل، وقبلنا بلا تردد، فقد ضقنا ذرعاً بحياة الفندق وحديث الأدب الأدباء.

وفي المساء تقدمتنا سيدة الرحلة بابتسامتها المتألقة وعينيها الضاحكتين وصوتها الذي لا يهدأ ولا يفتر حديثاً ورواية وإشارات نافعة مفيدة كلها، ووصلنا إلى الدار العامرة فاستقبلنا السفير وعقيلته معه، وقد دعي إلى الحفل، الوزير المفوض الأستاذ موفق القدسي وعقيلته، وكانت أسرة السفير تشرف على الترحيب بنا وتقديم ما يمكن تقديمه في مثل هذه السهرة من طعام وشراب وحديث وإيناس.

كان من ذوق السفير الرفيع أن قدم لنا كل ما هو عراقي ظريف وشامي ظريف، لقد قدم السمك المسقوف البغدادي إلى جانب الأباذير والشنكليش الشامي الجبلي وصنع لنا المقلوبة إلى جانب الأسماك العراقية المختلفة، وهكذا كنا في دار السفير وكأننا في بيوتنا، لا تكلف ولا تصنع ولا رسميات ولا ما يشبه ذلك، وقد أضفت السيدة النبيلة على الجلسة ثوباً ضافياً من النكتة الصافية، وكان لي نصيب بارز في إثارة النكتة عندها وإيراد الأفاكيه التي جعلت من جو السهرة جواً لطيفاً ظريفاً، وظللنا كذلك حتى ساعة متأخرة من الليل، ثم عدنا إلى الفندق ونحن ما نكاد ننتهي من الضحك ونذكر هاتيك العشية اللطيفة شاكرين للسيد السفير كرمه الأصيل وأنسه النبيل.

كان السفير أديباً يفهم الشعر يقدره ويدلي برأيه فيه غير خائف ولا وجل، ولا بدع فأهل هذا الجبل الغربي أكثرهم شعراء، لأن طبيعة هذا الجبل شاعرة تلهم سكانه الفن والشعر، وكان حديثه السياسي متزناً عاقلاً لا يتعدى حدود المعقول بالنسبة إلى عمله الرسمي وبالنسبة إلى المفاهيم التي تناسب العقل ولا تتطرف أو تثنيه في شعاب من الأفكار الغريبة الضائعة.

لقد أعجبنا بالسفير حقاً وأعجبنا بما قدم إلينا من طعام وحديث ولطف وأنس.

كان اليوم الثاني حافلاً في بغداد، حافلاً بالمصادفات وبالأماكن الأثرية الكبيرة التي شاهدناها وكنا

نسمع بها منذ زمن بعيد، بدأ النهار بزيارة حي الأعظمية، وقد سمي كذلك لأن فيه قبر الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، ولقد وصلنا إلى الضريح وهو كائن في جامع كبير فخم، جامع قريب إلى النفس بما فيه من هدوءٍ واطمئنان واتساع، وقد درنا في صحن الجامع وفي كل مكان منه وزرنا قبر الإمام العبقري فأخذتنا الرعشة أمام العلم الكبير والفهم العميق والتشريع الذي ما زال نبراساً يهتدي به وهو التشريع الذي يسير عليه أكثر العالم الإسلامي ويستقي منه، ونحن ما زلنا نذكر يوم كنا طلاباً في معهد الحقوق بدمشق حين كنا ندرس «مجلة الأحكام العدلية» التي أخذت موادها الكلية من الفقه الحنفي، رأينا قبر الإمام بسيطاً حلواً وقد أحيط بشبك من المعدن المذهب وقرأنا كتابة كتبت حوالي الضريح مفادها أن المرحوم الملك فيصل الأول قد رمم هذا القبر وقام بإصلاحه وتزيينه، ورأينا إلى جانب الجامع آثار عمران، فقيل لنا أن هنالك مشروعاً لبناء مئذنة ضخمة تتناسب وكرامة هذا الجامع الذي يؤمه الكثيرون من المعجبين بعلم الإمام وعقله وفضله.

ودعنا الإمام بعد أن تذكرنا هذه الحياة العظيمة التي أخلصت للعلم والحق واجتهدت اجتهاداً كان القصد من ورائه إعلاء كلمة الدين والعدل والشرع، وتذكرت قصة أخذت من نفسي كل مأخذ، تذكرت أن الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ قد زار ضريح الإمام الأعظم ووقف يصلي أمام الضريح تحية المسجد، ولكنه أسبل يديه في الصلاة وفق ما كان يقول به الإمام الأعظم وخلافاً لما كان يقول به هو نفسه، أي الإمام الشافعي، فحين انتهى من صلاته، اعترضه الناس وسألوه قائلين: أنت تقول بوضع اليد الواحدة فوق الأخرى أثناء الصلاة ثم تأتي هنا وفي حضرة الإمام الأعظم فتسبل يديك مخالفاً رأيك نفسه، فكان جواب الشافعي، وهو جواب ملء حكمة وذوقاً واحتراماً لأستاذه العظيم، قال: لقد كرهت أن أخالفه وأنا بحضرته احتراماً له.

وتذكرت رأي الإمام الأعظم في النبيذ وشربه أو تركه وأبيات ابن الرومي الشهيرة:

أحلّ العراقيّ النبيد... إلخ

والعراقي هو الإمام أبو حنيفة، والحجازي، هو الإمام مالك. وقد ولد الإمام أبو حنيفة واسمه الفحل النعمان بن ثابت عام ٨٠ للهجرة وتوفي عام ١٥٠ هـ، وقد سجنه المنصور لأنه أبى القضاء. وكان من الطبيعي، بعد الإمام أبي حنيفة أن نزور إماماً آخر هو إمام الشيعة الكبير، موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ عليهم السلام ـ وموسى الكاظم هو الإمام الذي افترقت فيه الشيعة إلى قسمين كبيرين: الإسماعيلية، وقد اتبعوا إسماعيل بن جعفر الصادق وهو أخو الإمام موسى الأكبر، والموسوية الذين اتبعوا موسى الكاظم وهم الذين تعددت أئمتهم فسموا بالاثني عشرية، لأن أئمتهم وصلوا إلى الاثني عشر عدداً، وآخرهم المهدي المنتظر، وسموا في بلاد الشام بالمتاولة، وسموا بالعامليين نسبة إلى جبل عامل في جنوبي لبنان، وقد اختلفت الشيعة أيّ الأخوين هو الأمام، فالإسماعيلية قالوا بإمامة إسماعيل لأنه الولد الأكبر، وهو ولي عهد أبيه، وقال الموسويون إن الإمامة تتعلق بمشيئة الأب، وقد كان الحسين إماماً مع أن أخاه الحسن أكبر منه وكذلك محمد بن الحنيفة، ولكل من الجانبين حجج غير هذه أيضاً. وموسى الكاظم هو الإمام السابع بين الاثنى عشر إماماً، وقد ولد عام ١٢٨ وتوفي عام ١٨٣ للهجرة وعاش أغلب حياته بين المدينة وبغداد.

وصلنا إلى مقام موسى الكاظم فرأينا جامعاً ضخماً فسيحاً يكاد يتعب السائر فيه، وكان الجو مكفهرّاً والريح عاصفة والغبار يملأ العيون والآذان، واستقبلنا المسؤولون عن خدمة الجامع بالاحترام والترحيب. وكانت سيدة الرحلة، موضوعاً هاماً في زيارة الجامع، فقد اتخذت الأهبة لهذه الزيارة، وإنها تعلم الكثير من العادات والتقاليد التي تتبع في زيارة هذا الجامع والضريح المقدس عند الشيعة خاصة، فغطت رأسها بغطاء ووضعت نظارتين على عينيها، وما كدنا نصل إلى باب الضريح حتى سمعنا ضجة حولنا، وشاهدنا شاباً يحتدم غيظاً ويصيح ملء فيه، كما شاهدنا مرافقنا موظف وزارة الإعلام ينحدر إليه يريد أن يحطمه بقبضة يده، وكان مرافقنا كبير الجثة ضخم اليد، وقد علمنا فيما بعد أن الخلاف كان يتلخص في أن

الشاب الشيعي حاول منع السيدة من الزيارة لأن يديها ظاهرتان وكذلك وجهها، وتولى شيخ الجامع حل الخلاف فألبسنا السيدة الحفار عباءة سميكة غطتها كلها ولم يظهر منها شيء وأتممنا الزيارة، وقد وقف شيخ الجامع يشرح لنا تاريخ الإمام موسى الكاظم بكلام فصيح صحيح، ثم ختم الشرح بدعاء وجدنا فيه كل هدوء ورزانة وعقل لم يتطرف ولم يسبح في الخيال، بل كان كلامه كله موزوناً معقولاً لم نجد فيه ما يؤخذ عليه.

ودرنا حول ضريح الكاظم فرأينا كل شيء عجيباً، رأينا الأبواب المذهبة والقفص الذهبي حول الضريح وبداخله ما شاء الله من مجوهرات وحليّ وكلها هدايا أهديت للضريح المقدس، ورأينا ميتاً يحمله ذووه على محفة وهم يدورون به حول الضريح وأفواههم لا تفتر عن القراءة والدعاء، وقيل لنا: إن الموتى لا بد أن يزوروا الضريح زيارة الوداع وذلك قبل الدفن، ورأينا أناساً كثيرين قد أمسكوا بالقضبان المحيطة بالضريح ومنهم الحفاة وأنصاف العراة، وأنصتّ إليهم وهم يبكون فأدركت أن أكثرهم من العجم والباكستان والهنود وأناس من بلاد أخرى بعيدة غير تلك، وكلهم قد جاء للتبرّك بزيارة الضريح والبكاء أمامه محبة وشفقة ورثاءً، ولكن الفقر كان السمة البادية عليهم، فقد كانت ثيابهم رثة قاتمة لا يلوح عليها شيء من النظافة أو العناية وكأن الدروشة والزهد يلازمان الفقر والمسكنة والهلهلة التي تقذي العيون.

خرجنا من جامع سيدنا موسى الكاظم إلى سوق المدينة، وهو سوق متشعب كبير جداً، تدخل فيه فلا تنتهي منه وكله مسقوف والدكاكين على جانبيه وقد جلس أصحابها ينتظرون السائحين، وقد ذكرني ذلك المنظر بأسواق حلب وحمص وحماه القديمة وشاهدنا في الدكاكين العباءات البغدادية الشهيرة والحرامات الصوفية المعروفة في العراق وأنواعاً من التمور التي اشتهرت بها هذه البلاد، وظللنا نسير بين سوق وسوق حتى وصلنا إلى بناء عال مرتفع وباب مزين قديم فوقفنا أمامه مشدوهين لأناقته ودقة صنعه وانسجام أحجاره وأعمدته، وقيل لنا: هذه هي المستنصرية. وذكرت قصيدة الزهاوي في هذه المدرسة وقوله:

وقفت على المستنصرية باكيا ربوعاً بها للعلم أمست خواليا

ودخلنا من الباب الكبير إلى ردهة واسعة جداً تحيط بها غرف متعددة وأبهاء مختلفة، ووجدنا وسط الردهة ما يشبه حوض الماء، أو الفسقيّة، كما تدعى في دمشق، ومررنا بدهاليز البناء إلى غرف وجدنا بها متحفاً للخطوط العربية وصوراً مختلفة متسعة جميلة.

والبناء كان مدرسة بناها المستنصر العباسي الخليفة واسمه منصور بن محمد بن الناصر بن المستضيء المولود سنة ٥٨٨ والمتوفى سنة ٦٤٠ للهجرة وقد بنى هذه المدرسة على شط نهر دجلة من الجانب الشرقي.

كان اليوم الثالث اليوم المليء بالمفاجآت التاريخية والغرائب الأثرية، وكان يوماً كاملاً بدأ ببغداد عاصمة الخلافة العباسية وانتهى بالكوفة عاصمة علي بن أبي طالب (رض) المدينة الأثرية، مدينة علي والمتنبي، مدينة النحو والصرف والفقه، مدينة الحبوبي والشبيبي واليعقوبي والصافي والجواهري. بدأت الرحلة منذ الصباح وكان على ما أذكر التاسع من كانون الأول ١٩٧١ م، وخرجنا من بغداد بعد أن مشينا مسافات بعيدة عجبنا فيها لاتساع المدينة وامتداد شوارعها، ودخلنا في غابة من بساتين النخيل والكروم والأعناب وكنت في سيارة واحدة مع سيدة الرحلة والأستاذ عبد القادر عياش(*)، رحمه الله. طال بنا السير على ضفاف السواقي والأنهر، ومن خلف هذه السواقي والأنهر أشجار النخيل الكثيفة وتذكرت التاريخ كله في هذه الرحلة، تذكرت أجدادي العرب الذين درجوا على هذه الدروب وسواقي هذه السهوب، وشربوا من هذه المياه وتفيأوا هذه الظلال، من هنا مرّ البحتري وأبو تمام والمتنبي وابن الرومي وفي هذه الأماكن وقعت المعارك القديمة العربية، إنها طريق تنبت الذكريات وتوقظ التاريخ؛ ولقد اجتزنا في طريقنا

(*) توفي الأستاذ عبد القادر عياش بعد هذه الرحلة بسنوات قليلة.

بقرى جميلة عملت فيها أيدي التنظيم والتخطيط، وكنا ننزل أحياناً من السيارة فنشرب ماءً أو نتناول المرطبات. وقد أضر بي الجوع في حين أني كنت في العراق قليل الطعام، ونحن أصحاب السمنة البدينين لا نخشى شيئاً خشيتنا الطعام الكثير، وكان طيف الأطباء يلاحقني، وشبح الريجيم يراودني، وارتفاع الضغط لا يبرح مخيلتي، وكل ذلك كان أوهاماً غرسها في نفسي الأطباء الذين يبحثون عن الوهم بحثاً ليسكنوه في قلوب مرضاهم وليجعلوا من حياة هؤلاء المرضى جحيماً لا يطاق. لقد أضرّ بي الجوع فاستشرت سيدة الرحلة التي أشرفت على وجودي كله في العراق فأشارت عليّ بازدراد شيء من التفاح، ونزلت من السيارة فاشتريت كمية تزيد على الكيلو، وحاولت إطعام السيدة وزميلنا الأستاذ عياش والسائق ولكنهم أضربوا جميعاً عن الطعام، فاضطررت إلى أكل الكمية كلها باعتبارها من الفاكهة، ونظرت إليّ السيدة بعد لأي وسألتني: أين التفاح؟ فأجبتها بأنني أكلته جميعاً، وضحكت ضحكة مجلجلة، وقالت ساخرة مقهقهة ما شاء الله على الريجيم الجديد، أتدري أن هذا الكيلو يحمل من الغذاء أكثر مما يحمل غذاء فاخر من الكبة والشاورما في مطعم صديق الشهير بدمشق؟ وقلت لها مضطرباً ضيق الصدر: ما هذا يا سيدتي؟ حتى على التفاح لا أخلو من الحسد؟

ولاح لنا بناء من بعيد وقد بلغت الساعة العاشرة صباحاً وسألنا السائق فأجاب بأنه بناء استراحة منطقة «بابل» الأثرية. وكلمة بابل لم تمر بسمعي مروراً بسيطاً، فقد قفز الذهن بها إلى الماضي السحيق إلى ماضي آشور والكلدان وماضي السومريين والعبرانيين، وجاء على خاطري طيف بختنصر وسميراميس والإسكندر المقدوني فاتح هذه الديار ودارا، أو دار يوس، ملك فارس القديم، جاءت كل هذه الأسماء وتمنيت لو تقف السيارة حتى أجمع هذه الذكريات وأعيد النظر فيها واحدة واحدة كمن يحصي دراهمه وأيامه وعدد السنين التي عاشها، ووصلنا إلى الاستراحة فإذا هي بناء حديث جميل فيه بهو جميل رائع وقد فرش بالطنافس وركزت فيه المناضد والمقاعد المخملية الفاخرة. وما كدنا نجلس حتى جاءتنا القهوة والشاي والحليب وقطع الحلوى، وقد كانت وزارة الإعلام أعدت لنا طعام الصباح في هذه الاستراحة الجميلة على مقربة من آثار بابل الشهيرة، ثم خرجنا من الاستراحة وصعدنا في طريق لاحبة، ما زالت أيدي الحفر والتنقيب تعمل فيها ليل نهار باحثة عن آثار هذه المدينة البابلية العريقة.

وعاد فكري إلى الذكريات الأدبية، فهذه المدينة العريقة كانت مشهورة بخمرتها الطيبة كما اشتهرت بها دارين والأندرين وعين رأس وغير هذه من المدن القديمة، وذكرت أقوال شوقي في بابل من مثل ما جاء بقصيدته في الأندلس:

ما سرت من حرم إلا إلى حرم كالخمر من بابل سارت لدارينا

وذكرت قوله في قصيدته الزجلية الرائعة التي غناها محمد عبد الوهاب منذ أربعين سنة:

اللي يحب الجمال يسمح بروحه وماله

ويقول في آخر يصف عيب المحبوب:

الاسم عين وتلاقيها قدح وخمر وساقي
وسحبة الرمش فيها من بابل السحر باقي

وذكرت الشيخ عبد الغني النابلسي وديوانه الظريف وعنوانه: برج بابل وشدو البلابل، هذا الديوان الذي عملت في تحقيقه سنتين وما زلت أنتظر أن يتفضل من بيدهم الأمر بإقرار طباعته بنفقة مجمع اللغة العربية، وما أظنهم فاعلين(*).

وذكرت سحر هاروت وماروت وأحاديث بشار بن برد وأبي نواس وغيرهما من الشعراء.

وقمنا من الاستراحة وسرنا في الطريق التي وصفت لك مصعدين قليلاً إلى أن دخلنا بين خرائب من الجدران والسقوف، وسألنا عن هذه الآثار فقيل لنا إنها الجنائن المعلقة الشهيرة، وتسمرت في مكاني!

(*) طبع الكتاب في دمشق في دار المعرفة.

أهذه هي الجنائن التي عدّت أحد عجائب الدنيا السبع؟ ولكني مشيت وحيداً فريداً أتأمل في هذه الأرض التي حملت آلاف السنين والملايين من الناس، ووصلنا إلى أسد بابل وهو تمثال من الغرانيت الأزرق الصلب، ولقد وقفنا إلى جانبه وهو يبلغ الأمتار الثلاثة ارتفاعاً ومثلها طولاً، وأخذت لنا صورة تذكارية ما زلت أحتفظ بها وهي تمثلني واقفاً بقضي وقضيضي بين السيدة وزوجها الصديق، وأكملنا طريقنا إلى آخر المدينة الأثرية، فزرنا بعض الغرف والبيوت القديمة المبنية على الطريقة البابلية، الكلدانية، ودرنا فدخلنا في متحف خاص لبابل أعدته مديرية الآثار العراقية وفيه نموذج مصغر لبرج بابل وللجنائن المعلقة ولبقية الآثار التي أعجبنا بها أيما إعجاب، وصعدنا إلى السيارات من جديد.

سرنا من بابل، كما سارت خمرة شوقي، من بابل إلى دارين، سرنا في طريق أخذت تنكشف شيئاً فشيئاً، وأخذت خضرة البساتين تنحسر عن الأرض، وأخذت طلائع الصحراء تبدو لأعيننا من بعيد، وكانت وجهتنا إلى المدينة المقدسة الخالدة، المدينة الحزينة المحزنة، كربلاء، وهي المدينة التي وقعت فيها المعركة التاريخية الشهيرة بين الإمام الحسين بن علي ـ عليه السلام ـ وجيش بني أمية بقيادة عبيد الله بن زياد، وعدت إلى الذكريات، ولكنها هذه المرة كانت ذكريات مؤلمة مؤثرة ما زالت تنحت في أثلة العرب وتفرق شملهم وتشتت مجتمعهم، كانت وقعة كربلاء جرحاً باضعاً في جسم الخلافة الإسلامية والدولة العربية، وكان المؤلم فيها أنه كان يمكن تجنبها بوجود العقلاء من المخلصين، وكان المسيىء فيها إلى العرب جميعاً أن أسرة مؤلفة من عدد من الرجال والأولاد والنساء والبنات قد اعتبرت جبهة مناوئة للخلافة وهي أسرة النبي الكريم، الرجل الذي بعث به الله تعالى ليهدي قومه فهداهم وجعلهم أعزة بعد أن كانوا أذلة، فكان من نكران الجميل، ومن الاستهانة بأقدار الناس أن يقتل أولاد هذا النبي وأن تسبى بناته وأحفاده في سبيل الملك، لا الخلافة، وكان العامل في هذه المذبحة الانتقام، إذ كان بالإمكان مضايقة الحسين والقبض عليه بصورة من الصور، ثم كان من الممكن إبعاده أو سجنه، أما قتله، وقتل ذويه على هذه الصورة الوقحة فأمر لا يستطيع الإنسان أن يقف أمامه إلا باكياً على القتيل الكريم ونافراً من القاتل اللئيم الذي تجرد قلبه من الرحمة والدين والعقيدة والعروبة.

واستفاد الشريف الرضي، الشاعر الكبير من اسم المدينة الفاجعة فنظم قصيدة رثى بها جده الإمام الحسين مطلعها:

كربلا، لا زلت كرباً وبلا ... ما لقي فيك بنات المصطفى

فجعلها كرباً وبلاءً مستفيداً من اسمها المركب وهي صنعة محببة في غير هذا المقام الذي لا يبعث في النفس إلا الحزن والأسى، وقد نظم الشريف الرضي في الحسين ـ عليه السلام ـ خمس قصائد. ومراثي الحسين من الشعر المشهور في الأدب العربي، وهو شعر كله شكوى وبكاء وتفجع لذكرى هذه الحادثة الغريبة التي لا يقدم عليها رجل فيه مسكة من دين أو مبدأ. وقد جمعت المراثي في ديوان واحد صنعه العلّامة السيد محسن الأمين وأسماه (الدر النضيد في مراثي السبط الشهيد). واسمع معي هذا الوصف لمقتل الحسين:

وخرّ للموت لا كف تقلّبه ... إلا بوطء من الجرد المحاضير
ظمآن سلّى نجيع الطعن غلته ... عن بارد من عباب الماء مقرور
لله ملقى على الرمضاء عضّ به ... فم الردى بين إقدام وتشمير
تحنو عليه الربى ظلاً وتستره ... عن النواظر أذيال الأعاصير

والمتفق عليه أن الحسين مات ظمآناً وهذا ما يحزّ بالنفس المسلمة ويؤلم القلب المؤمن، لقد بخل العدو اللئيم على الحسين حتى بشربة ماء، وأرسل أخاه العباس إلى الماء فقتل على شاطىء النهر دون أن يستطيع إنقاذ أخيه من الظمأ، لقد استبدل الحسين الماء بالدم لأنه لم يصل إلى الماء، إنها لفاجعة وحيدة في تاريخ العالم فاجعة الرجل العفيف الفارس المقدام يغتاله الجبناء من أبناء عمه، وقد كانوا أولى الأنام بالعطف عليه والإعذار له.

ولا تُنسى هنا، ونحن بمعرض الذكرى، مراثيَ دعبل وأشهرها قصيدته الشهيرة:

مدارج آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

وفيها يصف أهل البيت وكرم أنفسهم وسجاحة طباعهم بقوله:

إذا وُتروا مدوا إلى واتِريهمُ أكفاً عن الأوتار منقضبات

ونتذكر هنا أيضاً، هاشميات الكميت، وقصائد السيد الحميري، ولا ننسى الشاعر المتأخر ابن معتوق الذي يصف حادث كربلاء ولؤم ابن زياد:

أهدى السرور لقلب هند وابنها وأساء فاطمة وأشجى حيدرا
رزء له فلقد تقمص خزية يُلقى بها يوم الحساب مؤزرا

ومعاوية هو ابن هند، وحيدرة هو علي بن أبي طالب تشبيهاً له بالأسد، والحق أن يُشَبَّه الأسد بفحل الرجال وسيد الأبطال.

كل هذه الذكريات مرت بي، وأنا من أسرة شيعية عريقة في شيعيتها قد تطورت عقيدتها بتأثير الثقافة ولكن رواسب التشيع ما زالت عالقة بها. وإني لأذكر كم بكيت في طفولتي للقصص التي كتبت عن سيدنا علي وسيدنا الحسين مثل: قصة الهضام، وفتح خيْبر، ومصرع الحسين، والرياض النضرة، وكلها من القصص الموضوعة التي عمل فيها الخيال والتعصب، ولكنها رغم المبالغة التي وقعت فيها ظلت تحمل حقيقة واحدة جارحة هي أن الحسين قتل مظلوماً، وأن حق سيدنا عليّ قد راح ضائعاً مهضوماً.

ووصلنا المدينة الحزينة وأشرفنا على جامع الشهيد الحسين، وهو جامع عظيم له صحن واسع جداً ككل جوامع العراق، واستقبلنا جماعة من المشرفين على شؤون الجامع، وخلعنا أحذيتنا كالعادة في زيارة كل هذه الأماكن المقدسة ودخلنا حفاة إلى مكان الضريح، وقد خيم علينا الحزن وعلتنا سحابة من الكآبة، وإنه لمن الحقائق الصريحة العجيبة أن الوفد الذي كان يمثل مهرجان أبي تمام كان يضم إخواناً من المسيحيين، وأشهد لقد أثر فيهم الحزن الذي يغمر مدينة كربلاء، فبدا عليهم الحزن كما بدا علينا، ووقفنا نقرأ الفاتحة وقد بسطنا أيدينا، وبسط المسيحيون من إخواننا أيديهم كما فعلنا وقرأوا مثلما قرأنا الفاتحة وأهديناها إلى روح الشهيد الذي يمثل أعلى نوع من أنواع التضحية في تاريخ البشرية. وكان إلى جانبي أحد المسيحيين الأجلاء من أخواننا فهمست إليه مازحاً: لقد سبقتنا ورعاً ولكنه لم يجب إلا جاداً، وأمسكت نفسي أستمع جوابه، وقال: في مثل هذه العبر تلتقي الأديان جميعاً وتزول الفوارق. وأعجبت بالصديق العالم وندمت على مزاحي، فإن الموقف لم يكن يحتمل إلا الجد ولكنه بالطبع الذي يغلب التطبع والمزاح الذي يغلب الجد في كثير من الطباع والأحوال، وربّ جد جره المزاح. ودرنا بالضريح الشريف وقد ذهلنا لما فيه من أحجار كريمة وجواهر وعقود ورأينا الناس يدورون حوله وهم يقرأون آيات الذكر الحكيم، ووجدنا ما وجدناه عند الإمام الكاظم، فإن الأموات كانت تحمل على المحفات ويُدار بها حول الضريح مرات لا أعلم عددها وداعاً وتعظيماً للإمام الشهيد، وكان منظر الأموات مما يؤثر ويشجي. وتقدمنا أحد المشايخ فقرأ علينا مختصراً لتاريخ الشهيد الحسين ـ رضي الله عنه ـ وخرجنا من الجامع، ولكني قبل أن أخرج سألت الشيخ أن يدلني على المكان الذي قتل فيه الحسين حقاً، فأخذ بيدي إلى ظاهر الجامع وإلى بناء صغير في زاوية المكان، ودخلت فوجدت أرض المكان قد رصفت بالرخام وعلى إحدى الرخامات بقع حمراء كأنها الدم القاني وقال الشيخ: هنا انتهى الإمام الحسين، وهو، كما قال محدثي، المكان الحقيقي للجريمة النكراء. ولم أكتف بما رأيت وما سمعت فسألت أحد المشايخ في الجامع عن «الحرّ»؟ فقيل لي: إنه مدفون على بعد أثني عشر كيلومتراً من كربلاء. وللحر هذا قصة، فاسمه المفصل: الحر بن يزيد التميمي اليربوعي، وكان قائداً من أشراف تميم أرسله الحصين بن نمير التميمي في ألف فارس من القادسية لاعتراض سيدنا الحسين في طريقه إلى الكوفة فالتقى به، ولما أقبلت خيل الكوفة تريد قتل الحسين وأصحابه أبى الحر ذلك وانصرف إلى الحسين فقاتل بين يديه قتالاً عجيباً حتى قتل. وقد توفي عام ٦١ للهجرة مع الحسين، أما الحسين الشهيد (رضي) فقد ولد في العام الرابع للهجرة، وتوفي شهيداً عام ٦١ للهجرة.

وانتقلنا من جامع الحسين ـ عليه السلام ـ إلى جامع العباس بن علي الذي قتل معه، وهو أشبه

بجامع أخيه وإن كان أصغر منه مساحة، ولكن أبوابه وقبته والضريح كلها مطلية بالذهب.

بعد أن أنهينا زيارة القبرين الشريفين استقبلنا المشايخ في بناء مبني خصيصاً لاستقبال الزوار، وهو بهو كبير وزعت علينا فيه القهوة المرة والشاي العراقي الشهير، والتقينا هناك بمعلم مؤلف أهدانا كتاباً عن تاريخ كربلاء، وفيه شرح وافٍ للمكان الذي قتل فيه الحسين، وهو «الطفّ»، وتصوير تاريخي للمعركة. وكربلاء مدينة كبيرة وفيها حوانيت ومتاجر كثيرة وهي تشبه إلى حدّ كبير هذه القرى والدساكر السورية، وخرجنا من كربلاء لنتجه إلى النجف ثم الكوفة آخر نقطة نصل إليها في هذه الرحلة الجميلة المفيدة.

تركنا كربلاء بعد أن لقينا فيها كل كرب وبلاء من ذكريات حزينة وتاريخ كئيب قاتم رغم ما لاحظناه في البلدة من لطف سكانها وأناقة متاجرها وكثرة خضارها وفواكهها وبضائعها، ولقد فتشت فيها السيدة النبيلة عن أداة لآلة التصوير، ولم تكد تسأل عنها حتى جيء بها إليها فاستغربت وقالت لي: إن هذه الأداة قد تفتش عنها في بيروت فلا تجدها أحياناً.

خرجنا من كربلاء واتجهنا إلى الشرق، على ما أظن، فقد أضعت الجهات في العراق ولم أحاول السؤال لأني أحب هذا الضياع في الجهات كي لا أحمل نفسي عناء التذكر والتذكير. وضربنا في عرض الصحراء في طريق مستوية سهلة مناسبة، وكان السهل منبسطاً أمامنا وكأنه الأمل الذي لا ينتهي أو الرجاء الذي لا يتحقق، وكانت الأرض دكناء مائلة إلى السمرة تلوح عليها أمائر الظمأ والعطش، وقد ذكرت حين رأيتها تنبسط أمامي بيتي أبي تمام الرائعين:

ديمة سمحة القياد سكوب	مستغيث بها الثرى المكروب
لو سعت بقعة لإعظام أخرى	لسعى نحوها المكان الجديب

كما ذكرت بيتي مسلم بن الوليد في وصف الصحراء الرائع:

ومجهل كاطراد السيف محتجز	عن الادلاء مسجور الصياخيد
تجري الرياح به حسرى مولهة	حيرة تلوذ بأكناف الجلاميد

وكانت تلوح لنا من بعيد بعض القرى الترابية والجدران وبعض الأشجار كالواحة في الصحراء، ولكنها لم تكن تغير شيئاً من تأثرنا بالمنظر الظامىء الصحراوي، وقد ذكرت بعض قراءاتي الشعرية للشاعر الفرنسي العظيم «الكونت ده ليل» في ديوان «القصائد البربرية» ووصفه «الظهيرة»، و «الفيلة»، وقد كان من سكان الصحارى في جزائر المارتينك المستعمرة الفرنسية القديمة. وطال بنا السير ولم أحس بما حولي فقد أخذ الملل يعتريني ورحت أتأفف وأتحدث إلى زميلي في السيارة الأستاذ عبد القادر عياش وإلى السيدة، ولكن الملل كان قد عدا عليهما مثلي فسكتا ورحت أتحدث وأسأل فلا يجيبني أحد، بل إن سيدة الرحلة قد اصطنعت النوم تخلصاً من أحاديثي المعادة المكرّرة، وأما الأستاذ عياش فقد تذرع بنافذة السيارة وراح يطل على الصحراء المربدّة الكالحة وكأنه ـ رعاه الله ـ قادم من جنيف أو برلين لا من دير الزور عاصمة صحراء بلادنا. وبلغ بي اليأس حده فاندفعت أغني بما كنت أحفظ من الأغاني القديمة وأنا أحفظ الكثير، بل ما زلت أحفظ هذه الآثار الفنية الرائعة، وبدأت بأبي العلا محمد ومن أغانيه الشهيرة: «يا عاذلي لا تلمني انه عبث» و «غيري على السلوان قادر»، و «أفديه إن حُفِظ الهوى أو ضُيِّعا»، والقصيدتان الأولى والثانية للشاعر المصري ابن النبيه، والوسطى لابن الفارض أو للبهاء زهير فهي مختلف بها، وتركت أبا العلا لآخذ شيئاً من آثار سيد درويش الخالدة فبدأت بدور: «أنا هويت» وانتهيت بالدور الشهير «يالي قوامك يعجبني»، وقد يستغرب القارىء أن أخوض في الموسيقى وأنا من المشتغلين في مجمع اللغة العربية، أعمل في اللغة وتحقيق الكتب والتعليق على المؤلفات الجديدة وأنظم الشعر وأكتب المقالات، ولكني أضم إلى هذا النشاط المتعدد الجوانب، نشاطاً موسيقياً لا أتخلى عنه ولا أضيق به. إن لي أذناً تحس النغم وتفرق بين البيات والحجاز، وأن لي الملكة وزّانة ساعدتني كثيراً في نظم الشعر قبل أن أتعلم العروض، واندفعت أغني، وكان صوتي في الماضي مناسباً أو كان أقرب إلى الجمال وخاصة في حسن الأداء والمحافظة على الأصول الموسيقي والغنائي، ولكن صوتي هذه المرة خانه السن

وأثر فيه الجوع ووعثاء الطريق ومع ذلك فقد لفت نظر الصديقين الرفيقين سيدة الرحلة والأستاذ عبد القادر عياش، العالم الأديب الأثري، وجاءت النكتة تهدر هدراً بين شفتي وقلت للأستاذ العياش: لقد أعجبك صوتي لأنه بعض الآثار القديمة؟ وضحكنا جميعاً حتى السائق.

والتفت فجأة إلى مقدم السيارة فلاحت القبة العظمى، قبة الإمام علي الشهيرة في مدينة النجف المقدسة، بل لقد لاحت المدينة التاريخية، مدينة العلم والعقل والشرح والفقه، ووصلنا إلى المدينة التي يرقد فيها (باب مدينة العلم)، كما روي عن النبي (ص) في الحديث الشريف: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»، وما كدنا نصل إلى طرفها حتى مالت بنا السيارات في اتجاه آخر خرجنا به إلى طريق وسألت مضطرب الذهن: أنمر بالنجف ولا نراها؟ وقيل لنا أن غداءنا في الكوفة ثم نعود إلى النجف.

مشينا زهاء العشرين دقيقة فوصلنا إلى بلدة صغيرة متواضعة الأبنية والشوارع والسكان، ورأينا اللباس الذي يمتاز به أهل هذه المناطق من كربلاء حتى النجف فالكوفة، العمامة السوداء أو الخضراء والرداء ذي الشقين «القنبان» والجبة التي تعلوه، فالبعد بين النجف والكوفة لا يتجاوز ١٠ ـ ١٢ كيلومتراً، وفي الطريق بين البلدتين لمحنا عدداً كبيراً من قضبان الحديد في جانبي الطريق، ولم نعلم بسبب وجودها في هذه المنطقة الخالية من السكان، ولمحنا إلى جانب السيارات عدداً من الفتيات اللائي يرتدين العباءات السوداء، فقيل لنا إنهن من آنسات الكوفة يذهبن إلى النجف للدراسة في معاهدها، ورأينا في الطريق قبة رائعة خضراء وسألنا فقيل لنا: هذا ضريح «ميسم المسار»، وميسم هذا كما قيل لنا، رجل طيب القلب قوي الإيمان كانت له دكان في الكوفة يبيع فيها التمر، وكان الإمام علي (رض) يجلس فيها ويتحدث إلى هذا البائع المسكين، وقد وجه إلى الإمام بعض النقد لمجالسة هذا الرجل البسيط، وكانت إجابة الإمام تدل على أن الرجل طيب السريرة حسن الدين مخلص في عقيدته وإيمانه، وقد قتل هذا الرجل يوم قتل الإمام (ع) كما أذكر.

كانت نفسي تتهيأ للقاء الكوفة، هذه المدينة العريقة بشهدائها وعلمائها وشعرائها، فمن شهدائها الإمام علي ومسلم بن عقيل وهاني بن عروة وغيرهم كثير، ومن علمائها، النحويون الذين أسسوا المذهب الكوفي في النحو وهم كثيرون، وكان من شعرائها، بل أهم شعرائها أبو الطيب المتنبي الذي ولد في حي كندة من هذه البلدة الشهيرة.

دخلنا المدينة في الساعة الثالثة بعد الظهر على وجه التقريب ومشت بنا السيارات ذات اليمين وذات اليسار وقد لمحنا الجامع الكوفي الكبير والشهير على يميننا، وأكملنا الطريق ثم استدرنا على شاطىء النهر وهو فرع من الفرات يسمى بـ «الهندية»، ويقال أن هندية غنية قد تبرعت بجلب الماء إلى الكوفة فدعيت هذه القناة الكبيرة باسمها، ووصلنا إلى قصر الضيافة الذي يقع على شاطىء النهر، ومن وراء النهر كنا نلمح أشجار النخيل التي تغمر هذه المنطقة، ودخلنا إلى البناء الذي قيل لنا انه كان استراحة للملك السابق فيصل الثاني وأن الملك غازي هو الذي ابتناه، ودخلنا إلى بهو فسيح جلس فيه قبالتنا قائمقام البلدة وهو شاب في الأربعين من عمره أسمر متوسط القامة، وكان إلى جانبه رجل بائن الطول جهوري الصوت ويبدو أنه كان على شيء من العلم، أو كان من طلبة العلم، فقد تحدث إلينا مطولاً عن الكوفة وتاريخها وعدد سكانها، وأورد لنا قصصاً تتضمن النكتة الأدبية عن شعراء المدينة وشعراء النجف وخاصة اليعقوبي والحبوبي، ثم قمنا إلى الطعام وكان بارداً لتأخرنا مدة طويلة على الطريق، ولكننا أكلنا ثم استرحنا قليلاً في بهو الاستراحة. وفي أثناء الاستراحة تعرفنا إلى سيدة أديبة كانت من المدعوات، ورغم انها متعلمة ومثقفة، فإن البساطة كانت تبدو عليها في كل حديث لها، ولقد رأيتها لأول مرة في الكوفة وكأنها هبطت علينا في طائرة خاصة ودخلت مع الداخلين إلى بهو الاستراحة ورأت بعض بنات جنسها، ومنهن السيدة النبيلة فلم تبتسم ولم تسلم ولم تشترك بالحديث، وكان هذا الوضع الخاص مثيراً لفضولي وقررت إجبارها على الكلام وأخذت أنهال عليها بالأسئلة دراكاً، وهي تجيب حائرة مرتبكة إلى أن بدر منها جواب يدعو إلى الضحك فضحكنا جميعاً وهي معنا، وقدمتها لسيدة الرحلة وتم التعارف مفصلاً، وبذلك أزلنا شيئاً من الجهامة والهدوء الممل في الرحلة.

وقمنا بعد ذلك فاتجهنا إلى السيارات التي أقلتنا إلى جامع الكوفة التاريخي الشهير، أعني جامع الإمام علي وسعيد بن حبير ومسلم بن عقيل والحجاج وزياد بن أبيه وولده عبيد الله وغيرهم من الصحابة والتابعين والقادة والولاة، إنه الجامع الذي التقت فيه أحداث كثيرة هزت العالم الإسلامي. في هذا الجامع اغتيل الإمام علي، وفيه ألقى أكثر خطبه حماساً وأكثر مواعظه حكمة وإفادة، وفيه حصب أهل الكوفة الحجاج ورموه بالحصى فألقى خطبته الشهيرة، يا أهل العراق... الخ، وفيه تقررت دعوة الحسين لمبايعته بالخلافة، وفيه تم الاتفاق مع مسلم بن عقيل... الخ، ووصلنا إلى الجامع الكبير بعد أن طوفنا في أزقة الكوفة ومنعطفاتها، ومشينا في الأماكن التي مشى فيها الفراء والأخفش وابن الأعرابي والمتنبي وابن حجاج وغيرهم وغيرهم، وانحدرنا من باب الجامع إلى صحنه المنحط عن مستوى أرض البلدة، وهو باحة شاسعة واسعة، وكان الجامع قبالتنا وهو بناء صغير، وحين دخلنا أخذتني رعشة غريبة وارتجافة عجيبة. فأنا رجل علوي العاطفة نشأت على حب عليّ وتقديري له وإعجابي ببطولته وعلمه وفصاحته، وحزنني لمقتله وهو في أوج أمجاده، وما كدنا نصل من باب الجامع الخارجي إلى باب المسجد الداخلي حتى أخذ رئيس بلدية الكوفة يتحدث إلينا عن مقتل عليّ، وكان إلى جانبي الشاعر اليمني عبد الله البردوني، وبعد أن أنهى رئيس البلدة حديثة علق على مقتل الإمام بقوله: وقد أصيب ـ رضي الله عنه ـ من قبل عبد الرحمن بن ملجم المرادي، والتفت الشاعر اليمني ليقول: رضي الله عنهما (بالتثنية) وهو يقصد سيدنا علي وابن ملجم، وثار رئيس البلدية في وجه الشاعر وقال له: علي رضي الله عنه، وأما ذاك فعليه لعنة الله، ووكزت الشاعر بيدي وأنا أقول له: لا تعرض نفسك وتعرضنا لما لا يحسن، وقال الشاعر، ولكن ابن ملجم مرادي وأنا مرادي فهو يمني ومن قبيلتي بالذات، وقلت له، اعذرنا يا أستاذ وتناولت رئيس البلدية بسؤال أذهله، عن اضطرابه وثورته ضد ملاحظة الشاعر اليمني المرادي. قلت لرئيس البلدية: أنا أحب التدقيق في المشاهدة ولم يتبين ما أردت، وعدت أقول: أريد أن أرى المكان الذي وقع فيه الإمام يوم ضربه الخارجي ابن ملجم، فدلني على المكان وقد حجز عن الناس بشبك من الحديد، وقد قتل سيدنا عليّ وهو خارج إلى صلاة الصبح من بيته القريب من الجامع ولم يصنع شيئاً، فقد كان أعزل وهو على أهبة الصلاة ولكنه نادى بالناس: امسكوا بالرجل لا يهرب، وكان سيف القاتل مسموماً فتراكض الناس وقد ألقوا عليه الحصر والسجاد فارتمى، وأحضر إلى سيدنا علي فقال عليه السلام: إن نجوت فسوف أرى رأيي فيه وإن كانت النهاية فضربة بضربة ولا تمثلوا به فإني سمعت رسول الله يقول: إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور، ووقفت أمام مصرع الإمام ضائع الذهن، وقد حرت في هذا التفكير الذي ساق هذا الخارجي الأرعن إلى القتل، والغريب أن الخوارج كانوا من أشد الناس تمسكاً بالدين الحنيف، حتى لقد قيل: إن القادم إلى معسكر الخوارج كان يسمع ضجيجاً أشبه بصوت دوي النحل من كثرة التسبيح والتهليل، فكيف يقدم مثل هؤلاء المتدينين على القتل والاغتيال المحرم في الإسلام وفي كل الديانات السماوية؟ إنه لشيء غريب غرابة أكثر الحوادث الدامية التي وقعت منذ انتقال النبي عليه الصلاة والسلام، والذي أعتقده أن الحقد اليهودي قد عمل عمله في هذه الأحداث منذ مقتل الخليفة عمر بن الخطاب في منتصف العهد الراشدي، وقد شارك اليهود في هذا عدد كبير من أبناء الشعوب الأخرى التي دخلت في الإسلام، فقد دخل من هذه الشعوب في الدين الإسلامي نفر لم يكن يؤمن بالإسلام أو بأي دين آخر، هؤلاء انتسبوا إلى الدين الحنيف: لينتقموا من أصحاب هذا الدين وأعني العرب بصورة خاصة، وقد فعل اليهود ذلك وما زالوا يفعلون حتى يومنا هذا، ولن ننسى الفئة التي عاشت في الخلافة العثمانية، وهي فئة اليهود التي أعلنت إسلامها وهو إسلام غير صحيح، وسميت بفئة «الدونما» ومنها وزير مالية الدولة العثمانية «جاويد» الذي كان له ضلع كبير هو وأبناء فئته في تنحية السلطان عبد الحميد عن الخلافة لأنه ـ في حقيقة الأمر ـ لم يوافق على منح اليهود أرضاً في فلسطين، وقد رافق شباب الاتحاديين من الضباط الذين دخلوا على السلطان عبد الحميد يوم خلعه، رافقهم عدد من اليهود الأتراك وعلى رأسهم المدعو «قره صو» وهو مختار الحي اليهودي، ومن الغريب أن يكون لهذا اليهودي ضلع في عملية الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد.

إن الخوارج، بتجردهم الديني كانوا أولى الناس بأن ينحازوا إلى جانب عليّ الذي كان مثالاً للتجرد والإخلاص، ذلك الرجل الذي لم يشأ إبقاء معاوية في ولاية الشام لحظة واحدة لأنه اعتبره غير كفوء، واعتبر نفسه مسؤولاً عن كل دقيقة يقضيها معاوية في دست الولاية رغم نصح الناصحين، من عبد الله بن العباس إلى المغيرة بن شعبة وغيرهما، لقد كان يعرف أن السياسة والحنكة تقضيان بأن يتريث قليلاً في أمر معاوية حتى يأخذ الحجة عليه ولينقله من دمشق ولكنه أبى عن علم ومعرفة، ذلك أنه كان صاحب دين لا صاحب دنيا، وكان من حق الخوارج الذين تطوعوا لنصرة الدين والحق أن يعرفوا هذا لسيدنا عليّ وأن يكون إماماً ومقدَّماً لهم في نظرتهم الجديدة.

درنا في أنحاء المسجد الصغير ضمن الجامع الكبير وكان الوقت عصراً وأجهزة المذياع ترتفع بالقراءة والتهليل والتكبير، فكان الجو حزيناً غريباً علينا، ولقد استعرضنا بالذاكرة الأحداث الكبيرة والمقاتل التي درجت على هذه الأرض أرض الكوفة، كما تذكرنا ما استمر من القتل في أنحاء هذا الجامع خاصة حين انحدرنا إلى الجهة اليسرى من باب الجامع وشاهدنا ضريح الشهيد مسلم بن عقيل وهو ابن عم الحسين الذي أرسله من المدينة إلى الكوفة ليتلقى الدعوة إلى المبايعة بالخلافة ضد بني أمية، وقد قتل مسلم مع من دافع عنه وخاصة هانىء بن عروة الذي دفن قريباً منه، ويقال إن مسلم بن عقيل قد ألقي من القصر الذي كان إلى جانب الجامع والذي ما تزال آثاره باقية إلى اليوم. وكذلك شاهدنا قبر المختار الثقفي الذي أخذ بثأر الحسين فقتل عبيد الله بن زياد كما قتل عدداً كبيراً ممن اشتركوا في مقتل الحسين، ولكن ملاحظة بدت لي لا بد من ذكرها، فقد شاهدت قبر ابن عقيل وابن عروة وهما في أبهى حلة، قد كسيا بالحرير وزينا بالمجوهرات وطليت قبتاهما بالذهب، بينما كان قبر المختار مهملاً يبدو خشبه للعيان وقد كسي بثوب مهلهل من القماش الأخضر البالي وقلت: يا عجباً، حتى في الموت تكون الدرجات ويظهر أثر التصنيف والترتيب!

لقد غامت نفوسنا وضاقت صدورنا بما أوحته هذه المناظر من تاريخ حزين دام كأنني عدت إلى طفولتي يوم كنت أقرأ مصرع الحسين فأبكي ومقتل علي بن أبي طالب فتسيل دموعي الطفلة الصغيرة، لقد تذكرت كل هذا وأنا أخرج من الجامع لأنتقل إلى منظر آخر لا يقل إيلاماً عن هذا الموقف الذي وقفناه في جامع الكوفة الشهير، لقد انتقلنا إلى بيت صغير ذي باب خفيض بني بما يشبه الآجر، فقيل لنا: هذا هو البيت الذي كان يقطنه سيدنا عليّ. ولم يكن عنده بيت رغم أنه كان الخليفة الشرعي ولقد أهدته إليه أخته أم هانىء، وهي الأخت الكبرى واسمها جمانة، والبيت له دهليز ضيق وعن يساره غرفة الإمام، وإلى جانبها غرفة صغيرة كانت للحسن والحسين، ثم انتقلنا في الدار إلى مدخل آخر هو مكان الحرم ووصلنا إلى ما يشبه البهو الصغير وحوالي البهو غرف صغيرة أشبه بفسحة الحمام وفي جانب حائط البهو مساحة مرتفعة قليلاً عن مستوى الأرض قيل لنا: إن الإمام قد سُجّى فيها يوم مقتله، وفي الغرفة المجاورة الصغيرة غسل الإمام قبل التكفين وفي هذا الجناح من الدار بئر كان الإمام يستقي منها هو وعائلته، وقد شربنا منها تبركاً، والماء ينزح منه بواسطة دلو على الطريقة القديمة. لكني لم أؤمن كثيراً بأن هذا البيت هو نفسه بيت الإمام، فقد يكون هذا المكان هو مكان البيت القديم، فإن هذا الآجر لا يستطيع أبداً مقاومة الزمان ومجالدة الدهر على البقاء هذه المدة الطويلة، ثم إن الغرف صغيرة جداً وكأنها لم تصنع لإنسان يريد أن ينام ويتحرك في أوقات راحته واستجمامه.

خرجنا من بيت الإمام وقد امتلأتُ حزناً، فإن الذكريات الأليمة لا تبعث غير الألم في النفوس وانتقلنا إلى منخفض من الأرض أشرفنا منه على بقايا بناء قديم كبير قيل لنا أنها بقايا قصر الحجاج وهشام الخليفة الأموي، وأن مسلم بن عقيل قد ألقي من هذا القصر إلى جانب الجامع الكبير يوم قتل، كلها ذكريات حزينة وتأريخ لمجزرة رهيبة عملت بها أيدي الأطماع والعصبية القبلية والثارات المتتابعة والدسائس التي جهدت دائماً في سبيل إفساد الدين الإسلامي وبالتالي، إفساد العروبة والعرب جميعاً.

ولم أنس، خلال هذه الزيارات المتعددة، لم أنس صديقي وشاعري المتنبي وهو من أهل الكوفة البلد الذي أقف فوق ترابه وأنشق عبير هوائه وأشرب ماءه، هذا البلد الذي درجت عليه أكبر شاعرية عرفتها

البلاد العربية في كل عصورها، الشاعر المفكر الفيلسوف اللغوي العالم الشجاع، والتفت كمن فطن إلى نفسه، وسألت رئيس بلدية الكوفة الذي كان يتولى شرح الغوامض وتوضيح الآثار التي شاهدناها، وسألته: وأين محلة كندة التي ولد فيها المتنبي؟ ونظر إلى الجهة الجنوبية من الجامع الكبير وهو يقول: هذه هي كندة، هنا عاش المتنبي وما تزال هذه القطعة من بلدة الكوفة تحمل هذا الاسم حتى يومنا هذا، وقلت في نفسي أين بيت الشاعر؟ أين الكتاب الذي عاش فيه ونظم أول شعره؟ أين الجرز الذي رأى العامري ورفيقه يجرانه؟ وقد اتهمهما بقتله من وراء لأن به عضة في الذنب:

لقد أصبح الجُرَز المستغير ... صريع المنايا أسير العطب
رماه الكنانيّ والعامريُّ ... فأيهما غال حر السلب
وأيهما كان من خلفه ... فإن به عضةً في الذنب

أليس من العار أن يذهب هذا الشاعر الذي تحدث باسم الأمة العربية يوم كان أعداء العرب يحكمون البلاد ويضطهدون العرب؟ هذا الرجل الذي قال في أشد الأوقات خطراً:

وإنما الناس بالملوك وما ... تفلح عرب ملوكها عجم

هذا الرجل الذي هجا كافور لأنه عبد لا يليق به أن يحكم الأحرار العرب، حتى كانت هذه الآراء الأسباب الرئيسية في قتله. لا بيت ولا أثر ولا تاريخ، لقد جهل التاريخ الأدبي اسم أبيه واسم أمه وأخوته وأبناء قرابته، ولم يذكر سوى جدته التي ذكرها الشاعر وخلد ذكرها بقصيدة ميمية شهيرة قالها في سجنه، ولينظر أبناء هذا الجيل كيف ضاع التاريخ العربي واختلط حابله بنابله، ثم لينظر من جهة أخرى إلى ما صنع الغرب في شعرائه ونابغيه، لينظر المكان الذي عاش فيه شكسبير أو غوته أو فيكتور هوغو أو بوشكين، إنه ليرى كل شيء يتعلق بهؤلاء، إن النابغين في الغرب ما زالوا بين مواطنيهم في ذكرياتهم ومخلفاتهم وكأنهم ما زالوا يحيون، أما نحن فلا نعرف شيئاً من شعرائنا إلا القليل النادر الذي اختلط فيه الكذب بالاختراع وبالمبالغة. لقد حزنت لأنني لم أقع على أثر للمتنبي في بلدة المتنبي، ولكني شفيت نفسي بالقصة التي كنت أحملها في حقيبتي، وهي القصة الشعرية التي تصور حياة المتنبي وجزعي على آثاره، وقد تولت وزارة الإعلام العراقية مشكورة طباعتها وتوزيعها، ولعلها تكون حافزاً على إحياء ذكر هذا الشاعر العربي الأصيل.

صعدنا إلى السيارات واتجهنا إلى الطريق الذي جئنا منه وقصدنا النجف، المدينة التي عاشت معي في صباي، والبلد الذي يضم أنبل إنسان عرفه العرب بعد الرسول الكريم.

وصلنا إلى ظاهر البلدة فرأينا لون البناء العراقي ذاته، بيوت مربعة غير مرتفعة لا تتجاوز الطابقين أو الثلاثة، ورأينا تنظيماً جديداً وشوارع منسقة كما رأينا أثر الهدم والبناء في الشوارع التي اجتزناها، وكان العراقيون من أخواننا المرافقين يسمون النجف المدينة المقدسة. عدد سكان المدينة يتجاوز الثلاثمائة ألف وفيها جامعة خاصة بها، وأظن أنها مختصة بتدريس الفقه الجعفري «نسبة إلى الإمام جعفر الصادق» وهو مصدر الفقه الشيعي كله. استدرنا بالسيارات ثم وقفنا أمام بناء عالي الجدران له باب واسع، وقد وجدنا أمام هذا الباب عدداً كبيراً من موظفي المدينة والأهلين عرفنا منهم القائمقام، الرئيس الإداري للبلدة. وما كدنا نجلس حتى دارت فناجين القهوة المرة والحلوة وكان جلوسي إلى جوار القائمقام وسألته: ألا توجد حتى الآن جماعة من أسرة الشاعر محمد سعيد الحبوبي؟ وضحك القائمقام كما ابتسم الجماعة النجفيون جميعاً، وقال الرجل: أنا شخصياً من أسرة الحبوبي وهو يعتبر من أعمامي، ثم عرفني على رجل إلى جواره بأنه الأستاذ البلاغي صاحب مجلة «البلاغ» الشهيرة، والتفت ثانية إلى الحاضرين أسألهم عن أسرة صديقي القديم الشاعر أحمد الصافي النجفي، نزيل دمشق وبيروت والنازح عن النجف منذ قرابة نصف قرن، فقيل لي: إن له ابن أخ اسمه «محمود» يعمل رئيساً لبلدية النجف وسيحضر بعد قليل، ولا بد من الوقوف قليلاً عند هذين الشاعرين: الحبوبي والنجفي، فهما من معالم هذه المدينة البارزة ومن شخصياتها التي دخلت في التاريخ.

فالحبوبي واسمه: محمد سعيد بن محمود الحسني النجفي وهو شاعر عراقي نجفي، ولد في النجف

عام ١٢٦٦ هـ (١٨٥٠ م) وتوفي عام ١٣٣٤ هـ (١٩١٦ م)، أقام مدة في الحجاز وله ديوان مطبوع، وقد اشتغل مدة بتدريس الفقه وأصوله، وكان من بين العلماء الذين أفتوا بالجهاد في بدء الحرب العالمية الأولى لصد الزحف البريطاني عن العراق وقاتل على رأس جماعة من المتطوعة في «الشعبية» مع الجيش العثماني، ولم يعد بعد فشل المقاومة إلى النجف بل ذهب إلى الناصرية ومات فيها؛ واشتهر شعره بألوان الموشحات الغزلية والخمرية على الطريقة التقليدية وهو القائل:

لح كوكباً وامش غصناً والتفت ريما فإن عداك اسمها لم تعدك السيما

وله في الخمريات:

أعطني كأساً وخذ كأساً إليك فلذيذ العيش أن نشتركا

أما الصافي النجفي فقد عرفته في عام ١٩٣٠، يوم كنت في مكتب عنبر وكان قد جاء إلى دمشق في عام ١٩٢٨ م - ١٩٢٩ م، واتخذ له مجلساً في المقهى العربي مع عدد من الأدباء، وكنا من هواة الأدب والشعر، فكنا نجلس إليه وقد وجد فيّ صديقاً يحب النكتة ويسعى إليها وكان هو كذلك، وقد جمع هذا الميل إلى المرح بيني وبينه وما زالت صحبتنا قائمة حتى الآن ولكنه في هذه الأيام أصبح يقيم في بيروت أكثر مما يقيم في دمشق، وهو شاعر كبير من لون خاص قد يكون اللون الفريد في الشعر العربي كله، إنه صاحب أسلوب قصصي مع بساطة ووضوح يكسوان شعره، ولعله الشاعر النادر الذي يستطيع أن يسخّر الشعر لكل ما يخطر على بال الإنسان من أغراض، وهو سريع النكتة طيب المعشر والحديث، وقد تقدمت به السن وأظنه قد شارف الثمانين، وما زال متنقلاً بين سوريا ولبنان، ولم يفكر أبداً في العودة إلى النجف، ولعل له حتى اليوم عشرة دواوين من بينها: التيار والهواجس، وأشعة ملونة، كما أن له ترجمة شهيرة لرباعيات الخيام.

وقد سر المجتمعون حولنا في ذلك البهو الواسع وانبسطت أساريرهم، لأننا أوحينا إليهم بأننا غير غرباء عن المدينة المقدسة وأن لنا أصدقاء بين أهلها، وأننا واقفون على الأدب النجفي الذي يشتمل على شعراء اشتهروا كثيراً في تاريخ الشعر من مثل الشاعرين اللذين مرا بك والشاعرين الأخوين محمد رضى الشبيبي وباقر الشبيبي والشاعر الأخرس وصديقنا الجواهري واليعقوبي وغير هؤلاء كثير، وكان الوقت بعد المغرب، ولقد زاد النجفيون من إكرامنا فقدموا لنا الحلوى مما يشبه حلوى الديار الشامية من الكنافة وأشباهها، ثم أزف موعد زيارة الإمام الأعظم سيدنا علي بن أبي طالب، وانتقلنا بالسيارات فوقفنا أمام جامع كبير متسع وقبة عالية سامقة خضراء ودخلنا ونحن نحمل الكثير من المهابة والخشوع والرهبة للرجل الذي ملأ التاريخ شجاعة وتقى، الرجل الذي كان مثلاً أعلى في كل شيء والذي لم يختلف في محبته أحد ولم يتخلف عن تعظيمه إنسان. وقد لاحظنا حين دخولنا أثر الإصلاحات في المكان المحيط بالضريح الشريف، ودخلنا بناء الضريح والقبة الخضراء، فرأينا شيئاً عظيماً جليلاً، إنه أكبر مقام رأيناه حتى الآن، وأخذنا ندور حول الضريح المذهّب وقد لمحنا ما بداخله من مجوهرات ومصاحف مذهبة وقناديل وزخارف كلها مطلية بالذهب مطعمة بالحجارة الكريمة، وكان دليلنا شيخاً جليلاً من شيوخ النجف، وقد كان قريباً مني في رحلة الطواف حول الضريح ثم همس بأذني يقول: انظر إلى هذا الصندوق داخل الشبك إنه يحتوي على مصحف بخط سيدنا علي نفسه فإذا استطعتم الحضور بعد الساعة العاشرة استطعت أن أطلعكم عليه، واعذرنا إذا ضربنا لكم موعداً لأننا لا نستطيع الكشف عن هذا الكنز المقدس أمام الناس جميعاً خشية الازدحام. وشكرت الشيخ ثم اعتذرت له بأننا سنكون في بغداد - إن شاء الله - قبل الساعة العاشرة، ورأينا ونحن نطوف حول الضريح عدداً عديداً من الناس وجلهم من الغرباء وخاصة الهنود والباكستانيين والفرس والأفغان وكل واحد منهم قد أمسك بجانب من الشبك الذهبي المحيط بالضريح وهو يبكي بدموع سخية ويتحدث إلى نفسه بصوت متهدّج مضطرب وكأنه يبكي وليداً عزيزاً عليه فقده منذ هنيهة ولم نستكثر هذا وأنا شخصياً، لم أجد شيئاً غريباً في ما رأيت حول ضريح الإمام علي، لأنني أذكر بكاء والدتي يوم كانت تقرأ قصة مقتل الإمام عليّ والحسين ومسلم بن عقيل، وهؤلاء الذين قدموا كل شيء ضحية في سبيل الحفاظ على نقاء الدين الإسلامي، الدين الذي جاء به الرسول

الأعظم جدهم عليه الصلاة والسلام، وفي سبيل تخليص الأمة العربية من شرور العهود الأخرى التي وصفها الرسول (ع) بقوله في حديثه الشريف: الخلافة بعدي ثلاثون ثم تصير ملكاً عضوضاً، ويعد المؤرخون عدد السنين التي استمر بها العهد الراشدي ثلاثين سنة منها ستة شهور هي مدة خلافة الحسن بن علي بعد استشهاد والده العظيم، فقد تحولت الخلافة مع معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية إلى ملك عضوض لم يستمر أكثر من تسعين سنة. ولعل الدليل الوحيد لاستشهاد سيدنا الحسين هو في هذه الفكرة ذاتها: أن يقتل الحسين ويضحي بنفسه ليكون استشهاده حافزاً للعرب على القيام ضد الأمويين وانتزاع الخلافة من أيديهم وإعادتها إلى ما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين من نقاء وصفاء. ولعل هذه التضحية هي التي أوحت إلى العقاد الكاتب الكبير، عنوان قصته الرائعة حول هذا الحديث فأسماها (أبو الشهداء).

بعد أن ملأنا العين والقلب والنفس من مشهد ضريح الرجل الذي خص بالتكريم لكرامة نفسه وعزة إيمانه وقوة عقيدته فقيل فيه: كرم الله وجهه، انفتلنا راجعين وكنت متأبطاً ذراع الكاتب الصحفي الأستاذ البلاغي، وقد دعاني لمشاهدة قبر الشاعر الحبوبي فعرجت وإياه على بهو كبير إلى جانب صحن الجامع العلوي الكبير ودخلنا فقرأنا الفاتحة على ضريح الشاعر ومن دفن حوله من العلماء والأدباء المشهورين في المدينة المقدسة في جو من الخشوع والهدوء وخرجنا إلى باب الجامع وأنا أذكر حياتي الماضية وتربيتي البيتية في بيت كله محبة وتقديس للإمام عليّ وأسرته التي راح أكثرها شهيداً أو قتيلاً، وذكرت تلك الأبيات العامية يوم زار النجف أحد أبناء الطائفة الإمامية في سوريا، وأخذ يقرأ هذه الأبيات التي نظمها على هواه وطريقته الخاصة عندما وقف إلى جانب القبة الخضراء، وانهالت دموعه بكاءً ولوعة وهو يغني:

أرض النجف فاض دمعي وانتجف
بدمي شوقاً إلى الأسد المخصوص بالكرم

إنها كلمات لا وزن لها ولا قافية ولكنها ملأى بالعاطفة الصادقة والعطف واللوعة، وكان يروي الناس من أهلنا ان ميزاباً من الذهب قد سقط من القبة فوق رأس الرجل واعتبر ذلك نوعاً من الحوادث الخارقة واستجابة من جانب صاحب الضريح إلى بكاء الرجل المخلص الوفي لعقيدته واعتقاده.

استأنست بالأستاذ البلاغي فقد أوحى لي بالمحبة والصداقة في لحظة واحدة رأيته فيها، ووددت لو كانت الرحلة أطول حتى أقضي نهاراً أو بعض النهار في هذا البلد التاريخي أتحدث إلى شيوخ الأدب والفقه فيه ولكن برنامج الرحلة أعجلني عن قصدي ومنعني من الإفادة من هذا البلد المقدس الطيب. وكانت السيارات بانتظارنا، وكان علينا أن نسير في الليل مئات الأميال لنصل إلى بغداد ولنتناول طعام العشاء على مائدة الوزير السوري المفوض الأستاذ موفق القدسي.

ومشينا في وقت العشاء وأخذت أتلفت إلى الوراء لأودع الإمام الشهيد والقبة الخضراء والمآذن الضخمة الرائعة وقد أرسلت أنوارها في السماء الصاحية واستعرضت، والسيارة تنهب فينا الطريق، تاريخ هذه الأسرة والتاريخ الإسلامي في فجره اللماح وبريقه الأخاذ، ثم انصرفنا إلى الأحاديث التي لا تنتهي مع سيدة الرحلة والأستاذ العياش الذي أشرف على إيوائي في الفندق والذي نصرني في كثير من المواقف الأدبية، كما وقع لي في النقاش الذي دار بيني وبين الشاعر نزار القباني في بيت الأستاذ موفق القدسي. مررنا في الطريق الذي أتينا منه ووقفنا في قرية من تلك القرى فاسترحنا قليلاً وتناولنا المرطبات، وكان الجو جميلاً والرفاق مواتين والدنيا ضاحكة مستبشرة.

عدنا إلى بغداد، بغداد الرشيد، والعود أحمد، ولم نكد نقف في فندقنا الظريف فندق الخيام، حتى هيأنا أنفسنا للذهاب إلى بيت الأستاذ القدسي، وقد وجدناه بانتظارنا، والأستاذ القدسي أبيض اللون ممتلىء، أقرب إلى القصر ولكنه ضحوك الفم طلق الوجه يكاد فمه لا تفارقه الابتسامة، وهذه الصفة عندي أعلى صفات الرجل المضياف، ولقد قال المثل العامي السوري: (اضحك لي ولا تطعمني).

وصلنا إلى بيت تجلى فيه الذوق الشامي الأصيل، فالمقاعد والمساند والموائد كلها مرصوفة بطريقة

فنية جذابة واللوحات الفنية والأصص والأواني المزينة قد وضعت وضعاً كله إحساس ودقة، وما كدنا نجلس جميعاً حتى وصل الأستاذ نزار القباني، وكانت الوهلة الأولى التي أراه فيها في بغداد، فقد تأخر عن المهرجان يوماً أو يومين. ومعرفتي بالأستاذ القباني قديمة، فقد كنت كتبت عنه دراسة مستفيضة في مجلة العربي في السنوات الأولى لصدورها، وقد أنصفته، كما قال لي على مسمع من الأصحاب والأدباء، رغم أني انتقدته نقداً في الصميم، ولكنه كان نقد الرجل الذي لا يحمل على أحد والكاتب الذي يسعى إلى الحقيقة وحدها، وجلس الأستاذ نزار وكان السفير الأديب الأستاذ نعيسة مدعواً إلى العشاء أيضاً، ولم يكن مجال في أيام المهرجان لحديث غير حديث الأدب، وسألني عن قصيدتي في المهرجان فأكدت له أنني سألقيها في اليوم الثالث منه وأحب أن يسمع منها شيئاً وألحت سيدة الرحلة لأقرأ شيئاً منها، ولكني لم أرد ذلك واعتذرت بأن من عادتي أن لا أقرأ شعري على أحد وإنما أنا أنشره في الصحف أو ألقيه في مواطن قراءة الشعر حين أكون مدعواً للإلقاء. وعندي أن هذه الطريقة هي أسوأ ما يصيب الشاعر في حياته، لأن الحياء بلاء، وهذه كلمة أقولها لأنها أضرّت بي ضرراً بالغاً ومنعت عني الكثير من الشهرة التي يحتاجها كل أديب، وليس الشاعر وحده، ولقد عرفت كثيرين من الشعراء ممن ليسوا شيئاً في الشعر، ولكنهم تمتعوا بشهرة كبيرة ونعموا بسمعة مستفيضة لأنهم كانوا لا يفترون عن قراءة شعرهم في مناسبة وبغير مناسبة، وعندي أن يكون الإنسان ثقيلاً ومشهوراً أفضل بكثير من أن يكون خفيف الظل غير مشهور إلا من فئة قليلة تقدر الشعر وتفهم الأدب حق فهمه، ولو ألحت بقراءة شعري كما قال لي الكثيرون لأصبت من الشهرة أضعاف أضعاف ما أنا عليه الآن، ولكن ما عساي أن أصنع بهذا الحياء الذي لازمني طوال حياتي وكان ذا أثر سيء جداً في أدبي وكتابتي نظماً ونثراً. لقد أحرجني مرة الشاعر أمين نخلة فطلب إليّ أن أسمعه أبياتاً لي سبق أن أسمعته إياها عن طريق المصادفة، وقد طلب إليّ ذلك بحضور الشاعرين الصديقين أحمد رامي وصالح جودت، وأسمعت الثلاثة أبياتي فأعجبوا بها وخاصة، صالح جودت، الذي أكبرني وقدرني، والشاعر كالطفل، يحب التقدير والتربيت على الكتف، ويسر للمديح والإطراء.

لقد جلس بيننا الأستاذ القباني، ورغم دماثته وأخلاقه الطيبة واحترامه للناس كانت تبدو عليه مسحة الرجل الذي يعرف أنه مشهور، وأنه شخصية أدبية وشعرية مرموقة، كان يبدو عليه ذلك واضحاً، وكان الحاضرون، من أخواننا يعينونه على هذا المظهر بإطرائهم إياه وترحيبهم به وخاصة صاحب البيت الأستاذ القدسي الذي كان صديقاً له من قديم، إذ كان في إسبانيا، يوم كان القباني موظفاً في وزارة الخارجية السورية، ولا أكتم أني تضايقت، وقد كنت أفضل أن يذهب الحديث في وجهة غير وجهة الأدب حتى يعود الأستاذ القباني إلى وضعه العادي، وتناول الحديث بطبيعة الحال شأن الساعة في الأدب وهو يتعلق بالمقارنة بين الشعر القديم والحديث، وأراد الحظ أن يخدمني هذه المرة وأن يخرج القباني مغلوباً بدلاً من أن يكون الغالب، وقد التفت إليّ ليقول: أنا لست مضطراً إلى السير على طريقة الشنفري، ويرمز القباني في ذلك إلى ضرورة التجديد وعدم التقليد للشعر العربي القديم، وقلت له: إن الشنفري يمثل جيلاً أدبياً عربياً أصيلاً ويمثل طريقة للشعر عند أمة لها تاريخ وتراث، وليس من حقك أنت أن تبتدع طريقة جديدة، إلا في المعاني والأغراض أما القوالب والألفاظ فهي ملك الأمة، والأمة هي التي تستطيع تجديدها أو تطويرها عن طريق مجامع علمية مؤلفة من أهل الاختصاص في اللغة والنحت والاشتقاق والترجمة والاستعارة من اللغات الأخرى والمصطلحات العلمية والأدبية، أنا لا أدعوك ـ والخطاب موجه إلى الشاعر القباني ـ إلى وصف الجمل إلا إذا ذهبت إلى الصحراء وشاهدت الجمل وشعرت بوجودك في الجو الذي وجد فيه الشاعر الشنفري، وأنت حر في أن تصف، بل يجب أن لا تصف إلا ما تقع عليه عينك، وهذا هو التجديد، أما أن نعمد إلى رفع «المفعول به» واللغة العربية تقضي بنصبه، فأمر لا يدعى تجديداً بل يدعى عناداً مقصوداً، ومخالفة، هي من النوع الذي نراه عند أصحاب «الموضة» المقلدين. ولم أكد أنهي عبارتي حتى انفتح الباب على الشاعر القباني وتناوله الدكتور الكزبري، وإلى جانبه الأستاذ العياش، ومن يمينه الدكتور اليافي، ثم السفير السوري وقد أحدقت به الآراء فلم يدر كيف يتخلص من هذه الفئة التي

أجهزت عليه واضطرّته إلى السكوت سكوتاً عميقاً. بعد هذا، ما رأي القارىء في أن الأستاذ القباني قد عاد من الموصل إلى دمشق فألقى قصيدة لا تشبه شعره على الاطلاق لأنها من البحر «البسيط» الذي نظم عليه أصحاب المعلقات، وكانت معانيه كلها من هذه المعاني التي مرت بنا في شعر بشارة الخوري وشوقي وبدوي الجبل من أصحاب الديباجة العربية الأصيلة.

لقد عجبت للشاعر القباني، ولم أجد تفسيراً لعجبي هذا حتى اليوم، لأنه نظم قصيدة في الموصل من النوع الجديد الحديث، فحين جاء دمشق أنشد على الطريقة القديمة، وأدركت السر، فالقوم - وأعني الشعراء - في الموصل قد مشوا على الطريقة الجديدة التي تهمل القافية والوزن، أو هي تصطنع وزناً لا رنة له أو لا وزن له إذا أردت الحقيقة الجلية وسايرهم الشاعر قباني فنظم على طريقتهم، فحين جاء إلى دمشق رأى اللون الغالب هو لون الشعر العربي الأصيل، ولا أسميه القديم لكي لا أظلمه، ومعنى هذا أن للشاعر نزار القباني طريقتين، أو له في كل بلد طريقة، وهذا ما لا يتفق مع الشعر ولا مع النثر.

ومع ذلك أقول، كما قال أنطونيو يوم مقتل يوليوس قيصر، أقول: ولكن نزار القباني رجل مشهور. ولا بد من الملاحظة، أن شعر نزار حتى في طريقته التي يجدد بها، شعر مفهوم وفيه ألفاظ شعرية كثيرة يمتاز هو بها. وفيه وزن صحيح والرجل صاحب طريقة خاصة، وليت المحدثين من أصحاب التجديد يسيرون على طريقته إذن لكان في شعرهم الكثير من الشعر. والفرق الواضح بين أصحاب الشعر العربي وشعر نزار - وهو عربي طبعاً - أن نزاراً يستعمل بعض الألفاظ العربية التي استنفد جدتها الاستعمال العامي، أو استهلكها على قول الاقتصاديين، وهي طريقة خاصة به وحده، ولعلها هي أسلوبه الواضح الذي يعطيه شارته الخاصة، وأظن سبب هذه الطريقة يرجع إلى قلة الحفظ للشعر القديم وكثرة الحفظ للشعر الجديد، وقد يكون السبب أيضاً إدمان الشاعر لقراءة الشعراء الجدد ممن أساءوا كثيراً للشعر، ولو رأيته كيف يحدق به الطلاب والفتيات وهم يطلبون منه أن يوقع لهم على دفاترهم الصغيرة لعذرته ولقلت: رجل يكتب ما يوافق هؤلاء ويسرهم فمن حقه عليهم أن يحبوه وأن يفضلوه حتى على المتنبي، قمنا بعد الحديث الأدبي إلى المائدة الحافلة، وكأن الحديث قد أذهب شهيتي إلى الطعام، وبهذه المناسبة فقد كنت أقل الناس طعاماً خلال الرحلة، وهذه خطتي الدائمة حين أسافر، فإن أعدى أعداء الإنسان هو الطعام، والمعدة بيت الداء كما جاء في القول المأثور، مع انني من هواة الطعام والألوان الملونة من مستحضرات المطابخ. وأنا من الذين يتأنقون في طعامهم، والطعام الأنيق مغذٍّ دائماً وهو الذي يورث السمنة ويربك الجسم والفكر والروح، وكم كان يعجبني صديقي القديم حسني تللو - رحمه الله - فقد كان مولعاً بالطعام يود أن لا يفارقه، حتى إذا انتهى من الوجبة في الظهر أو العشاء حمل في جيبه شيئاً من الموالح أو السكاكر أو غيرها فهو يحرك لحييه، أو فكيه، دائماً، ولقد سمعته مرة يتحدث فيقول: لقد دعيت إلى مائدة فلان السخية، وكان الطعام مؤلفاً من كذا وكذا من الأصناف الشامية المشهورة، وبدأت الطعام بقلب منشرح ومعدة متحفزة متوثبة، ولكنني وجدت نفسي، وبدون إنذار لا أطيق الطعام لقد شبعت فجأة خلافاً لعادتي، وما أصنع؟ لقد بكيت من القهر ومن حرماني هذا الطعام الشهي الحبيب إلى نفسي، قلت إني لم أستطع الأكل إلا قليلاً في بيت الأستاذ القدسي، وخرجت منطبق الصدر غير مسرور، فإن الحديث الذي يحمل شيئاً من الإثارة يقهي عن الطعام ويمنع من السرور والانسجام، على عكس ما كان في بيت السفير السوري الأستاذ نعيسة، فقد كان الحديث فيه مقسماً بين الغناء والنكتة والقصص الشهية المسلية، ولقد ذكرت في ليلة السفير بيتَيْ ابن الرومي الطريفين:

ولقد خبرت مآربي فكأن أطيبها خبيث
إلّا الحديث فإنه مثل اسمه أبداً حديث

إنه لما يؤسف له أن ينقلب الخلاف الأدبي في زمننا هذا خلافاً مشوباً بالكره والعداء، وأن يصل هذا التخالف بين الجانبين - القديم والحديث - إلى الإساءة والجرح.

مضى على وجودنا في بغداد أربعة أيام وفي اليوم الخامس قمنا بزيارة وزارة الإعلام والتقينا فيها بالأستاذ سالم الألوسي وهو المسؤول - كما علمنا - عن قضيّة النشر لدى الوزارة، وقد قدمت له السيدة

النبيلة بعض مؤلفاتها هدية وقدمت له قصتي الشعرية عن المتنبي «قصة المتنبي» فتقبلها بترحيب، ولقد أقرت وزارة الإعلام العراقية مشكورة طبع القصة، رغم العقبات والاعتراضات والمداخلات التي لا تمت إلى الأدب بصلة، بل تمت إلى الغيرة والحسد، وهما عدوّا الشعر والأدب.

ولقد دعينا في ذلك اليوم إلى مأدبة شهية عند الأخ الصديق الأديب المحقق هلال ناجي. وقبل الظهر وصل الأستاذ ناجي إلى فندق الخيام حيث نحلّ، ثم نزلنا إلى الباب فاستقلينا السيارات المخصصة للوفود من قبل وزارة الإعلام وذهبنا إلى دار المضيف الأديب، وهي دار قوراء ذات حديقة جميلة وجلسنا في بهو اتسع لأكثر من خمسين مدعواً، عرفت منهم أستاذنا الكبير الشاعر والأديب والعالم والفقيه بهجت الأثري، ولقد سرني ما قاله لي الأستاذ ناجي أنه دعا الأستاذ الأثري بمناسبة وجودي وأن الأستاذ الأثري قبل الدعوة رغم مرضه لأني موجود، وترجع معرفتي بالأستاذ الأثري إلى زمن قديم أيام كنت أتتبع الأخبار الأدبية في المجلات والصحف المصرية والعراقية واللبنانية، وقد كان لهذا الأستاذ العلامة مشاركات كثيرة في البحوث الأدبية التي كانت تنجم بين العلماء والأدباء حول قضايا اللغة والأدب والتاريخ والفقه، فهو حجة ثبت في كل هذا، ثم رأيته في مجمع اللغة العربية بعد عام ١٩٦٠ بقليل وقد لبس الزي الإفرنجي على غير عادته وخرج مكشوف الرأس، واستمتعت بفصاحته وكثرة حفظه وقوة عارضته وحجته، ثم أصغيت إلى نقده اللاذع وصرامة ألفاظه حين يتعرض لمن لا يراهم أهلاً للمديح، وسمعت رأيه في الرصافي وقد امتدح علمه فقط وسكت عما عداه، كما سمعت رأيه في الزهاوي والشبيبي والألوسي وغيرهم من أعلام العراق، ثم جمعتني بعد ذلك به المصادفة الأدبية على صفحات مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، فلقد تصفحت قصة حياة مالك بن الريب صاحب القصيدة اليائية الشهيرة:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة … بجنب الغضى أزجي القلاص النواحيا

ورأيت اضطراباً بقصة الرجل وتاريخه، وقد حفزني على تبيين هذا الاضطراب رأي قرأته لطه حسين على ما أذكر وفيه، أن هذه القصيدة قد تكون مؤلفة من عدة مقطوعات، نظمها شعراء عديدون، وهذه النظرة معروفة عند عميد الأدب العربي في أكثر الشعر الجاهلي والمخضرم والأموي، فإن شكه يمتد حتى إلى أوائل العهد العباسي في صحة عزو القصائد إلى أصحابها، ولقد رأيت تداخل تاريخ مالك بن الريب، هذا التاريخ الذي يمتد من عهد معاوية بن أبي سفيان إلى عهد الحجاج، وبينهما أكثر من أربعين سنة، وشككت بوجود هذه الشخصية، ثم رجحت أن تكون قصة موته بعضة الأفعى مصطنعة كلها وأن أحد الرواة كحمّاد أو خلف الأحمر أو أبي عبيدة أو غير هؤلاء من الفرس قد اخترع القصة والقصيدة كلها وعزاها إلى رجل أسطوري هو مالك هذا، وكأن الأستاذ الأثري قد عز عليه أن أتأثر بطريقة طه حسين في الشك بالكثير من الأدب العربي فأجابني موضحاً الأمر، وأوضح في رده أن هنالك شخصيتين بهذا الاسم وأنه لا ينبغي الخلط بينهما، أو هكذا أجاب على ما أذكر.

دخلنا بهو الاستقبال في بيت ناجي فوجدنا، عدا الأستاذ الأثري، عدداً عديداً من الأدباء، عرفت منهم الأستاذ خالد الشواف، الشاعر والأديب، والأستاذ ماهر الكنعاني، والأستاذ علي جواد الطاهر، وقد كان الاجتماع أدبياً رائعاً حقاً، وكان أكثر الحديث والحوار يدور بيني وبين الأستاذ الأثري، وأذكر أني رويت له قصة نحوية أدبية مروية عن الأديب والعالم اللغوي المصري المرحوم صادق عنبر، وقد ضحك لها الأستاذ الأثري حتى بانت نواجذه، كما يقولون، قلت: عمل الأستاذ صادق عنبر في أخريات أيامه مدرساً في الجامعة الأميركية في القاهرة، وكان يدرس مادة اللغة العربية، وكان الطلاب يحضرون إلى الصف وهم على الطريقة الأميركية والإفرنجية فالسراويل قصيرة والأيدي مكشوفة والصدور بائنة، والشعور مصففة ممشطة مصقولة، وفي الجامعات الأميركية تصف المقاعد الطويلة مستندة إلى جدران الغرف ويجلس الطلاب فلا يكون أمامهم ما يتكئون عليه وهم مكشوفون كلهم أمام الأستاذ، وقد كان من عادة هؤلاء أن يُلقوا أرجلهم الواحدة فوق الأخرى، وهذه الطريقة من الجلوس كانت تعتبر قلة اهتمام أو عدم احترام إذا فعلها الصغير أمام الكبير، وكانت هذه الفكرة موجودة عند الأزهريين أو المحافظين أمثال الأستاذ عنبر، وكان الدرس في النحو يبحث في موضوع «الإدغام»، ونظر الأستاذ عنبر من تحت نظارته

السميكة فرأى أحد أولئك الطلاب وقد جلس قبالته بسرواله القصير وقد ظهر لحم فخذيه وهو يضع رجلاً على أخرى، فتألم وصالح بالطالب: تسمح تفك الإدغام؟ وكانت نكتة موفقة من الأستاذ عنبر ضحك لها الأستاذ الأثري حتى اضطربت جوانبه ودمعت عيناه.

ولاحظت في الجلسة أن عنصر المرأة مفقود تماماً، فلا حس لها ولا حسيس، كما يقال، وقد ذكرت بهذه المناسبة قصة قديمة، فقد كنت في مدينة حماه منذ ربع قرن أو يزيد وكنت موظفاً في وزارة الداخلية، وكانت دار الحكومة تشرف على الشارع الرئيسي الذي يقطع حماه من شمالها إلى جنوبها فيصل ما بين طريق حلب وحمص، وكنت أنظر من النافذة التي أجلس بقربها فأرى كل ساعة أو ساعتين شبح امرأة مغطاة من قرعها إلى قدمها بالسواد وهي تمر كأنها الخيال الطارق، وقد مر بمدينة حماه تلك الأيام الكاتب المصري المعروف الدكتور سعيد عبده فكتب مقالاً ضافياً في جريدة «أخبار اليوم» القاهرية على ما اذكر وكان عنوان المقال: مدينة بلا نساء.

وقمنا إلى مائدة سخية بل كانت أكثر من سخية وأخواننا العراقيون مشهورون بموائدهم العامرة، وخاصة بالسمك (المسقوف) وهم يلفظون القاف هنا الكاف التركية «ك» أي كالجيم المصرية، وهو سمك مشهور، سمي مسقوفاً لأن شيّه يكون بأن يثبت السمك عمودياً وتكون النار وراءه لا تحته، ويحرك السمك بقضيب من الحديد يخترقه فيستدير تحريكاً حول النار حتى يشوى جيداً، وكل بلد مشهور بأكلة يستطيبها الناس، وهذا السمك هو صحن بغداد المحلي الخاص. وكان الحديث عن الطعام على الطريقة الاميركية ـ وقوفاً ـ دون مقاعد، وكان الحديث كله حول مهرجان ابي تمام وما يتعلق بذلك من أبحاث أدبية طريفة تسلي وتفيد.

دعينا في اليوم الثاني إلى جلسة عقدتها الندوة الثقافية في بغداد، ويبدو أن هذه الندوة ذات علاقة بمجمع اللغة العربية لذلك كانت الدعوة موصى بها من الأستاذ يوسف عز الدين أمين المجمع، ولكنني كنت في اليوم ذاته مدعواً إلى التلفزيون العراقي بدعوة من الأستاذ سليم البصري، كما أذكر اسمه، وقد أتت سيارة من قبل دار الإذاعة والتلفزيون فأقلتني إلى الدار، وقد ذكرت حين دخلتها مصرع الرئيس العراقي عبد الكريم قاسم صاحب الخطابات المعروفة زعيم الانقلاب العراقي الأول على الحكم الملكي، ولكنني لم ارد هذا السؤال والبحث في هذا الموضوع وإن كنت أثناء وجودي في الدار كثير التلفت محاولاً أن أسمع كلمة حول هذا الموضوع، وقد انتقلت بين أبهاء الدار وسمعت أحد المقرئين، أو القراء على الطريقة العراقية فأعجبت بصوته إعجاباً كبيراً وانتقلنا إلى صالة أخرى أو مشرب الإذاعة في تعبير أدق ـ الكافتريا ـ انتظاراً لتهيئة ـ الاستوديو ـ ودخلنا وكان المتحدث إليّ رجل ظريف أديب نسيت اسمه مع تطاول الأيام ولعل اسمه الأول ـ ابراهيم ـ وقد أعجبت بلباقته وسرعة بديهته وطريقته في السؤال وانتزاع الجواب المناسب المفيد، وفي الجلسة تحدث إليّ منظم اللقاء وأسمعته شيئاً من شعري كما أسمعته أبياتاً قلتها في بغداد مطلعها:

بغداد جئتك بعد طول غياب	فتلفتي لتحيتي وعتابي
أشفقت أن يمضي الزمان ولا أرى	بلد الرشيد وصفوة الأحباب

ودار حديث عن الموسيقى والأدب بصورة عامة، كما تطرق الحديث إلى النكتة والحياة الضاحكة، وأبصرت به وقد أحضر عوداً إلى جواره فارتج عليّ وامتُقع لوني، وقلت بنفسي، لعله يريد أن يحرجني، ولكنه عرض عليّ أن أعزف فأبيت وأقنعته أنني لا أحسن العزف وأن الفن ينبغي أن يكون بارعاً وإلا فهو ليس فناً، وكان غاية في اللطف واللباقة فسكت، وغير الحديث بمفاجأة بارعة حين كلفني الالتفات إلى الوراء لأرى صورتين، إحداهما، تمثل منظراً طبيعياً أخاذاً، وأخرى من الرسم الحديث، الذي لا يعرف أوله من آخره، وطلب إليّ أن أحدد إعجابي في أحدهما، فأشرت إلى الرسم الطبيعي، واشحت بوجهي عن اللوحة الحديثة وقلت له إن هذه ليست لوحة وإنما هي: لوح، واللوح في اللغة المصرية كما لا يخفى، تعني سماكة الذهن والبلادة والثقل الروحي. وكم سررت بعد مدة من مغادرتي العراق حين علمت أن هذا اللقاء

قد عرض على شاشة التلفزيون في كل من البصرة والموصل وقد شاهده عدد من أصحابي من سكان دمشق المسافرين إلى هاتين البلدتين.

خرجت من دار الإذاعة لأهيىء حقيبتي للسفر إلى الموصل، وأظن أن الموعد كان في مساء الحادي عشر من كانون الأول ١٩٧١.

وصلت إلى الفندق ـ الخيام ـ فوجدت في غرفتي بطاقة السفر في القطار إلى الموصل مع رقم العربة ـ الفاكون لي ـ المخصصة لي، وقد اطمأننت إلى ذلك كله وهبطت إلى بهو الفندق لنجتمع بالأخوان الشعراء والأدباء.

أمضينا يوم السفر بالاستعداد للسفر، وقد ذهبت إلى الأسواق في بغداد، ورأيت فيها خيالات وأشباحاً أحدقت بي من التاريخ العباسي وما تلاه من الأيام والسنين، ذكرت، بصورة خاصة، درب الختلية، وهو الحي الذي ولد فيه الشاعر ابن الرومي، وذكرت أبيات محمود الوراق الشاعر:

ناحت مطوقة بباب الطاق فجرت سوابق دمعي المهراق

إن صدقت الذاكرة في رواية البيت رواية صادقة صحيحة، وباب الطاق على ما أظن هو أحد أبواب بغداد المؤدية إلى «طاق» كسرى، أعني الإيوان الذي وصفه البحتري بأحسن قصيدة له وهي قصيدته السينية ومطلعها المعروف:

صنت نفسي عما يدنّس نفسي وترفعت عن جَدا كل جِبْس

وكم أسفت لأنني لم أستطع سماع الغناء العراقي الذي له في أذني مزية خاصة، فإن أوزانه العجيبة وأسلوبه المزيج من العربي والفارسي والتركي والكردي كل ذلك يغريني بسماعه ويجذبني إليه، ولقد مات المطرب المرحوم ناظم الغزالي فأسفت لموته ولجمال صوته وحسن أدائه بلهجة بلاده ولأنه اختصر شاباً لم يتجاوز الثلاثين بكثير، ولقد كنت أود سماع الأستاذ محمد القبنجي، وهو مطرب عراقي كبير من السلف الطيب، ولعله أكبر منشد عراقي بعد ملا عثمان الموصلي ولقد رأيته سنة ١٩٣٢، على ما أذكر، وقد جاء كشافة من العراق إلى دمشق، وكان القبنجي عائداً من المؤتمر الموسيقي الذي عقد في مصر تلك السنة، وكان المشرفون على المؤتمر كبار المستشرقين من الألمان خاصة، وقد بلغني يومئذ أنه حاز الإعجاب كل الإعجاب لجمال صوته وحسن إلقائه وتقيده باللهجة العراقية الموسيقية، وكان الذي عرفني إليه صديقي العراقي القديم المحامي الأستاذ عبد الرحمن خضير، والصحفي العراقي الآخر الصديق الأستاذ خالد الدرة، وكان رفيقي في معهد الحقوق القديم بدمشق. ولقد رجوت مدير الفندق «الخيام» أن يدلني على مكان أستطيع فيه سماع الغناء العراقي، فاستغرب ونصحني بأن لا أذهب إلى أماكن الغناء لأنها أصبحت مسارح لا تُعنى بالغناء مثلما تعنى باللهو العابث والسهر الذي لا يفيد ولا يطرب، وقد أسفت أسفاً كبيراً لعدم استطاعتي إرضاء ميلي إلى الموسيقى في بلد له موسيقاه الخاصة وطابعه الفني المميز.

في مساء ذلك اليوم ذهبنا بالسيارات المخصصة لنا إلى محطة بغداد وهي محطة قديمة مشهورة تناولتها يد التجديد، ومنها تمر القطارات الكبيرة الآتية من البصرة مارة بالموصل وحلب إلى تركيا فالأقطار الأوروبية حتى باريس، وفي جملتها قطار الشرق السريع وهو القطار الذي خصص لنا، نحن جماعة مهرجان أبي تمام لينقلنا إلى الموصل بلدة أبي تمام التي سيعقد فيها المهرجان.

وصلنا في الساعة العاشرة ليلاً فرأينا كل شيء جاهزاً، الغرف والبهو المخصص للجلوس والاستراحة والمطعم، ووجدنا المشرفين على المهرجان بانتظارنا لاستقبالنا، ولفت نظرنا حسن الترتيب في القطار وهذه اللوحة من القماش التي جللت مقدمة القطار وكتب عليها بخط كبير «قطار أبي تمام»، وذكرت أقوال أبي تمام وحبه للأسفار ونغمته الحزينة:

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرقمتين وبالفسطاط أخواني

وحين أصبحنا جميعاً في قطار أبي تمام، تحرك واتجه إلى الشمال صوب الموصل، وأخذت أتلفت يمنة ويسرة وكان يخطر ببالي ساعتئذ كل من مر بهذه الديار من قبائل وشعراء وأدباء وقواد وخلفاء، عن

يميني الزروع وعن شمالي الزروع، والقرى والمدن الصغيرة تغيب وتظهر على مدى مسيرة القطار المتعرج السائر بغطرسة وكبرياء، كما يقول الزجال البدوي «عياش الرطبي» ـ نسبة إلى قبيلة الرطوب من بني خالد النازلين إلى جوار بلدة سلمية:

يطوي الفيافي طيّ حبل الركية يصفر صفير الجن هاذي البلية

وضعت حقيبتي في الغرفة المخصصة لي واطلعت على ما في الغرفة من أدوات للسفر في غاية الدقة والأناقة والظرف. ثم خرجت إلى البهو فإذا أنا أمام وجه لن أنسى جماله ما حييت، ولن أنسى ما ترك فيّ من حزن عميق في شحوبه وهزاله وسمرته، وذكرت يوم كان هذا الوجه ملتقى الأعين ومراد الناظرين. وابتسم الوجه الجميل فابتسمت ومددت يدي لأصافح صاحبة الوجه وقد ابتسمت ابتسامة نمّت عما يعتلج في صدرها من مرض، وقلت: ما بك أرجو أن تكوني أحسن حالاً! كانت السيدة أجمل سيدة في عصرها: مدورة الوجه بيضاء شفافة يكاد المرء يرى وجهه في وجهها حين يراها لصفاء بشرتها ونعومتها، وكانت لها عينان سوداوان واسعتان دون مبالغة، دعجاوان دون زيادة. وكان لها ثغر كالوردة التي وصفها أمين نخلة الشاعر المريض الدائم(*)، وكان شعرها أسود فاحماً أما ذقنها وأما الشفتان وأما الأنف فأشياء لا يمكن للشعر أن يصفهم الدقة انسجامها وتناسبها وتناسقها، وأمسكت بيدها وقد بدت شاحبة وكانت تبدو عليها سيماء الحزن، وهذا ما جعلني ألازمها هذه الدقائق التي عثرت عليها فيها مصادفة وفي القطار السائر كالجواد الحرون إلى ناحية الموصل. جلست إليها وأخذت تحدثني وأعطتني هاتفها وطلبت إليّ أن أراها فهي تجد عزاءً برؤيتي، وهل يطمع رجل بلغ سني أكثر من هذه الملاطفة التي ملئت شعراً وسحراً، وكان الرفاق قد تواردوا إلى البهو وكان الدكتور قد حضر مع سيدة الرحلة زوجته الأديبة الكبيرة، وكان معنا إنسان من العراقيين الطيبين هو الأستاذ «فؤاد عباس» الذي علمت نبأ موته أخيراً فجزعت للنبأ وآلمني الخبر، فقد كان فؤاد عباس رجلاً طيباً وأديباً وشاعراً وصديقاً، لقد أحب مجلسي وأحببت حديثه فكان ألزم لي من ظلي، ولقد كان ـ يعلم الله ـ يشكو الوحدة وموت الأصدقاء، وكان قد تزوج بعد أن تجاوز الخمسين من عمره ولم يكن سعيداً بحياته الجديدة فإن من تعوّد على الوحدة في البيت يصعب عليه أن يساكن إنساناً أو يشارك مخلوقاً. وفؤاد من أهل بعقوبه على ما أظن، وهي بلدة مشهورة من بلدان العراق وقد عاش ما يزيد على الستين عاماً، كان أسمر طوالاً أشيب الرأس ولكنه كان حلو القسمات ناعم الصوت يروي الشعر ويحفظ النكتة، وكان رفيقنا في القطار تلك الليلة.

وانتحينا جانباً، أنا والرفاق، فؤاد عباس، الدكتور رفيق الرحلة، وسيدة الرحلة، ودارت الأحاديث كما دارت النقول، وأخذت أردد بعض الأغاني القديمة لسيد درويش وعبد الوهاب وأبي العلا محمد ومن شابههم من مطربي الزمن الماضي، وكان القطار يتمعج يمنة ويسرة بين الحقول والبقول والبساتين وكانت لصوته رنة رتيبة أشبه بنقر الدفوف، وكنت أطرب لهذا الصوت الرتيب فهو يذكرنا بكل شيء في هذه الحياة الشرقية التي لا تتطور إلا بصعوبة ومشقة؟ ظللنا في جلستنا الهادئة حتى الثانية عشرة حين أذن الليل بالهدوء، وسكنت الأصوات إلا صوت القطار الدائم الذي لا يني ولا يستريح، وجاء النذير بضرورة الانتقال إلى غرف النوم المتحركة المتقلقلة، التي ذكرتنا بقول المتنبي الذي سبب له كثيراً من النقد والإثارة:

وقلقلت بالقلب الذي قلقل الحشا قلاقل عيسى كلهنّ قلاقل

واضطجعت في سريري الضيق، وكان تحتي سرير وفوقي سرير، وإن كنت وحدي في الغرفة ولكن أين النوم، وليل القطار أشبه بليل امرىء القيس، يقيم ويقعد ولا يترك فرصة للجفنين أن يغتمضا، وقد نمت نوماً مزعزعاً مشتتاً لا راحة فيه ولا هدوء، ولكني، مع ذلك، نمت، كشرب الطائر الفزع، وقد أفقت في الساعة الرابعة صباحاً حين أخذت أضواء الفجر تتسرب إلى قبة السماء، وأخذ الأفق ينكشف شيئاً فشيئاً، وقمت إلى مغسلة صغيرة في زاوية الغرفة الصغيرة فغسلت وجهي وخرجت من غرفتي وأخذت

(*) كان يومها على قيد الحياة، رحمه الله.

أتنقل في ممشى القطار إلى جوار الغرف المصطفة، وقد كنت أرى حين عبوري الأخوان منهم الراقد ومنهم الساهر، حتى وصلت إلى البهو الكبير الذي قضيت فيه سهرتي، وكم كان عجبي حين رأيت صديقة الأمس المريضة جالسة وحدها في البهو ووقفت متهيباً الدخول، ورأيتها تبتسم وتقول بصوت مجهد مجرح تعب: أوَلَم تنم؟ وأجبتها بأنني قد نمت نوماً لم يفدني شيئاً، لأن النوم القليل عند أصحاب السهر الدائم يتعب ولا يريح، ولم نتحدث كثيراً فقد كنت وإياها منشغلين بالمناظر الخلابة والسهول الفسيحة المنداحة حولنا عن يمين القطار وشماله، وكنت بين الحين والآخر ألتفت إلى جليستي فأجدها قد التفتت إليّ كأننا على موعد في اللقاء، ولكن منظرها المريض هو الذي سيطر عليّ وملك سبيل كل تفكير عندي، ولمحت، أو لمح كلانا بعيداً منا شبح رجلين ينظران إلينا ويبتسمان ابتسامة الرجل الذي ظفر بصيد بعد يأس من البحث والسؤال، وأشحت بوجهي، وأشاحت بوجهها مثلي إلى الجهة الأخرى، وما لبثت أن قامت وهي تستأذن باسمة تلك الابتسامة التي تقول في معناها: حُفَّت الجنة بالمكاره. وحاولت القيام كما فعلت ولكن الرجلين اقتربا مني وأخذا يضحكان ويحاولان معرفة اسم السيدة، وأدرت ظهري إليهما ثم غادرت البهو بعد أن انقطع حبل ذلك الحديث الذي سيظل حديثي الخاص بيني وبين نفسي، وفي اليوم الثاني، وبعد وصولنا إلى الموصل، جاءني الرجلان يضحكان كعادتهما، وهي ضحكة لم تطب لي ولم أجد فيها ما يدعو إليها، وأطلعاني على قصيدة، أو شبه قصيدة، لا شعر فيها ولا نكتة، ولا ما يشعر أنها شعر، وقد وصفا بها منظر اللقاء بيني وبين السيدة المريضة، فأسفت لهذه المصادفة وأبديت لهما عدم رضاي عن نشر الأبيات التافهة وقلت لهما ما معناه: إنني لا أحب المزاح الجارح ولا النكتة المؤلمة، كما لا أحب التعرض لإنسان أو إنسانة لا صلة بيني وبينها وقد غمزت من تفكيرهما، فذهبا ثم عادا يعتذران ويبينان أن الغاية إنما هي النكتة الأدبية وأن هذه الطريقة معروفة في تاريخ الأدب، وقد وجدت نفسي أمام الأمر الواقع، فغيرت وبدلت من الأبيات والقوافي حتى خرجت الأبيات الثقيلة مجردة من الغمز واللمز المستكرهين في مثل هذا المعرض من الكلام، وقد علمت فيما بعد أن الأبيات نشرت في إحدى جرائد بيروت فلم تلفت نظراً ولم تحدث أثراً.

وبمناسبة النكتة، لا بد لي من القول هنا أن أصحاب النكتة الموهوبين يُعرَّضون إلى الكثير من الإساءة والحرج من أولئك الذين يريدون المشاركة في هذا الفن الرفيع من الكلام، أعني النكتة، فتؤدي مشاركتهم إلى الإيذاء دون أن يعلموا ما يصنعون، وقد يضحكون وحدهم من نكتة يصنعونها وهي عند الناس أثقل من جبل أُحُد، وأكثر الناس تعرضاً لمثل هذا الجرح هم أولئك الظرفاء من مرهفي الحس الذين تأتي النكتة على ألسنتهم عفو الخاطر فتفعل فعل الكهرباء في قلوب السامعين، لأنها شعر والشعر مجاله الحس المرهف والإحساس اليقظ، وبقدر ما تطربنا النكتة الموفقة تجرحنا النكتة «التافهة السيئة» ويا ويل الظرفاء من الثقلاء ويا ويل أصحاب النكتة من أصحاب الطبع الغليظ.

كل هذا الذي مر والقطار يقطع السهول والسهوب ويمر بالزروع والحقول ويجتاز الأنهر والجسور، عن يمينه القرى والخرائب وعن يساره الآثار والمضارب، كان ذلك هو الطريق الذي قطعه أبو تمام بين بغداد وسامراء والموصل، وعن يمين الطريق لاحت لنا أضواء مدينة تكريت الشهيرة بلدة صلاح الدين الأيوبي، يوم كان ذووه يسمون «آل شاذي» وعن يسار الطريق لاح لنا ما سموه لنا بقصر العاشق، وهو يقع قبالة سامراء، وقد قيل إن المتوكل بناه لأمه، ويفصل القطار بين هذا القصر وسامراء بلدة المتوكل، وكانت تسمى أيضاً: سر من رأى. وفي هذه البلدة ما تزال آثار الأبنية العباسية موجودة، تلك القصور التي كانت لها أسماء مشهورة معروفة، ذكر البحتري أكثرها في شعره، فقد كان هذا الشاعر مولعاً بوصف القصور والفن العباسي العمراني كالبحيرة الشهيرة وغيرها، ومن هذه القصور: الصبيح والمليح والكامل، الذي قال فيه يمدح المتوكل:

لما كملت رويةً وعزيمةً ... أعملت رأيك في ابتناء الكامل

وكما وصف القصر الآخر بقوله:

عالٍ على لحظ العيون كأنما ... ينظرن منه إلى بياض المشتري

ولا ننسى وصفه الشهير لإيوان كسرى وغيرها من الآثار الشهيرة في زمنه، بل إن في ديوان البحتري قسماً خاصاً بوصف هذه الآثار العمرانية. ولكن البناء مع الأسف الشديد لم يكن من الحجر الذي يقاوم الزمن ويقف أمام تقلب الأحوال الجوية، فقد كان كله مما يسمى بـ «الطابوق» وهو نوع من القرميد الذي لا يعيش كثيراً، لذلك فإن أكثر هذه القصور والآثار الفنية قد تهدم وشاركت في تهديمه الثورات المغولية الجائحة والحروب الوحشية الطاحنة، التي كان من همها القضاء على المدنية العباسية علمياً ومدنياً وعمرانياً وسياسياً.

أخذت معالم الموصل تظهر في الصباح الباكر، والقطار ما يزال في سيره وضجيجه ورتابة ضرباته وإهتزازاته على الخط الحديدي الذي لا تعرف نهايته، وأخذنا نعد العدة للنزول، وانصرفنا إلى ترتيب الحقائب وتهيئتها إلى المكان الذي أعد لنا في بلدة أبي تمام وإبراهيم وأسحق الموصليين، ثم وقف القطار بعد أن ترنح قليلاً واهتز هوناً ما كما يهتز الجواد بعد وقوفه من جري شديد في ميدان القتال، ونزلنا لننتقل إلى فندق كبير عظيم في محطة الموصل ذاتها، لقد كان الفندق شاسعاً واسعاً لا يكاد يتبين المرء عدد غرفه وأبهائه وأقسامه المتفرعة عنه، وأخذت حقيبتي لتوضع في الغرفة التي عينت لي، ولكن غرف هذا الفندق كانت دون غرف فندق الخيام ببغداد، جدة وأناقة ونظافة؛ ويبدو أن الفندق قد أنشىء من زمن بعيد ثم طرأت عليه إصلاحات وإضافات وزيادات فجعلته كالبلدة التي تدخلها المدنيّة فيبدو فيها لونان من الحياة الجديدة والقديمة، وما كدت أضع حقيبتي في الغرفة ذات السريرين حتى سمعت طرقاً على الباب وسمعت صوتاً يناديني بقوله: الريوق ولفظ الخادم، هذه الكلمة «الريوق» باللهجة البدوية، ولكني لم أفهم شيئاً وظللت في غرفتي ولكن الخادم عاد ليطرق الباب ثانية وليلفظ الكلمة العويصة، ويشير إلى فمه بما معناه الأكل، ففهمت، وبحكم عملي في مجمع اللغة العربية بدمشق أدركت أن الريوق مشتقة من الترويقة والريق، وهي: طعام الصباح وسجلت الكلمة في مكان خاص من مفكرتي، وخرجت إلى المطعم لأرى قسماً من الرفاق في مطعم كبير واسع وأرى أنواعاً من أغذية الصباح الشهية الكثيرة، فإن الطعام كثير دائماً في العراق القطر الشقيق المضياف. بعد طعام الصباح حدث فصل مثير مضحك.

وأحببت أن أستريح في غرفتي، فأنا من الذين يؤمنون بفائدة الراحة الجسدية في الوقت الذي يحتاجه الجسم دون تقيد بزمن أو بوقت من أوقات الليل أو النهار، وفتحت الباب ولم أكد أتم فتحه حتى وقفت مشدوهاً، فقد كان في السرير الثاني المجاور لسريري رجل نحيف البنية معروق اليدين أصفر الوجه قد وضع نظارة كبيرة في أسفل أنفه، ووضع وراء رأسه عدداً كبيراً من المخدات حتى خيل إليّ أنه أحضرها معه، ونظرت إليه ونظر إليّ فلم أسلم ولم يسلم وظل يحدجني بنظره، وأنا ألاحظه، وخطر ببالي العمل لإخراجه من الغرفة على طريقة «التطفيش»، وفتحت حقيبتي ولبست ثوب النوم «الجلابية»، فبدوت أشبه بالكيس الكبير من القطن، وألقيت بثقلي فوق السرير فخرج صوت فظيع أحسست أن الرجل قد ملىء منه رعباً، وغطيت رأسي باللحاف وأنا أتماسك كيلا أضحك فتفسد اللعبة، ثم أخرجت رأسي والتفت إليه أسأله: ما اسمك؟ قال: فيكتور، ولا أذكر تتمة الاسم، قلت: ماذا تصنع وعلام وجودك هنا؟ واستغرب لهجتي ولكنه أجاب: أنا موظف في وزارة الإعلام وأكتب القصة. وانتقلت إلى الفصل الذي أريد تنفيذه لأقول له: أنا رجل متشائم، وحملق فيّ الرجل وكأنه لم يفهم، وأكملت حديثي: أنا أكره المجتمع أكره البشر أكره أولادي ونظر إليّ نظرة الخائف المصعوق ليقول: عجيب! ورفع نظارته ليراني عن كثب، ولم أنظر إليه بل رفعت اللحاف وغطيت به رأسي ثانية وتصنّعت النوم، ولكني كنت متعباً من السفر وأفقت بعد ساعة ونيف ونظرت إلى جاري فوجدت سريره خالياً، وكان ذلك آخر العهد به، ولكنه الحق يقال، كان لطيفاً وظريفاً ومهذباً، فقد سأل عني رفاق الرحلة من السوريين واللبنانيين فأفهموه إني ممازح ومحب للضحك فسر كثيراً لهذا الدور الذي مثلته، وجاءني في اليوم التالي يحمل إليّ مؤلفاته القصصية وكلها مهداة إليّ وممهورة بتوقيعه الكريم.

كان الرفاق قد نزلوا في فندق آخر لا يقل فخامة عن فندق المحطة وهو فندق الإدارة المحلية، والإدارة المحلية في العرف العراقي بناء حكومي يشتمل على فندق ودار للسينما وقاعة للتمثيل مع مسرح ومطعم

ومقهى، وكأنه قرية صغيرة تعيش على الاكتفاء الذاتي، لذلك تركت فندقي لأنضم إلى الرفاق في فندقهم وقد وجدتهم مجتمعين في بهو الفندق كل جماعة في زاوية من زواياه الكثيرة، وكانت تقدم إلينا القهوة والشاي والمرطبات دراكاً وعلى حساب الحكومة العراقية في الموصل. ولست أريد أن أنوه بكرم الضيافة العراقي، لأن ذلك يصبح من قبيل ذكر ما هو مفروغ من ذكره، وعدت الظهر إلى فندقي لأتناول طعام الغداء ودخلت غرفتي للاستراحة فوجدت على السرير الآخر صحيفة الموصل، وقد خصصت لأخبار المهرجان كما وجدت بعض البرامج السياحية التي رتبتها لنا وزارة الإعلام العراقية للتفرج على آثار الموصل.

في ذلك المساء التقينا بالشعراء أحمد عبده المعطي حجازي «مصر»، ومحمد الفيتوري «السودان»، وعفيفي مطر «مصر»، كما إلتقينا بالأستاذ عبده عزام الأديب المخضرم «مصر»، كما التقينا بشاعر من يبرود ـ سورية ـ وقد جاء ممثلاً للكويت وهو الأستاذ ـ البرادعي ـ كما أذكر. وعدد كبير آخر من المغرب ولبنان، ولكن الأكثرية الكاثرة من الشعراء العراقيين، وعلى رأسهم الأستاذ حافظ جميل رفيق إبراهيم طوقان ووجيه البارودي في جامعة بيروت الأميركية، وزميلهما في الكثير من أشعار هذا الثالوث في عهده الذهبي بين العشرين والثلاثين من هذا القرن.

وحضر الأستاذ «شفيق الكمالي» الشاعر والأديب ووزير الإعلام في الجمهورية العراقية، حضر لافتتاح المهرجان الذي حدد موعده بثلاثة أيام هي ١٢ و١٣ و١٤ من شهر كانون الأول ١٩٧١.

كان الجو بارداً بالنسبة لبغداد، وكان المطر يهطل رذاذاً ومتقطعاً، فالنسيم بارد والهواء رطب قاس ومدينة الموصل منداحة على ضفتي دجلة من الغرب والشرق وهي تنبض بالذكريات وتتنفس الأغاني من عهد إبراهيم الموصلي وابنه إسحق إلى عهد ملا عثمان الموصلي.

ولا بد من ملاحظة أخذت عيني في الصباح الباكر من إقامتي في فندق المحطة، فقد رأيت تمثالاً ضخماً من البازلت على ما أعتقد، وقد لبس صاحبه «الكلاه» وهو لباس المولوية، فأدركت أنه الموسيقي الكبير الملحن والنابغة الموصلي ملا عثمان صاحب الأذكار والأشعار والموشحات والأغاني العراقية الشهيرة.

وعثمان الموصلي من موالد الموصل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الماضي وقد عاش حتى نهاية الربع الأول من القرن العشرين الحالي، كف بصره وهو طفل وولدت معه ملكة موسيقية بارعة أخذت بيده إلى حفظ الأغاني والنغمات والأوزان، وقد شرّق وغرّب في البلاد العربية والعثمانية من استامبول إلى سوريا فمصر فالمغرب فالحجاز، وكان في كل رحلاته هذه موضع الاحترام ومحل الإعجاب. كان ينظم الشعر على الطريقة القديمة التي تعتمد على المحسنات اللفظية، وكان بارعاً في نظم التاريخ الذي كان يمتهنه الشعراء آنذاك، يرتجله ارتجالاً بين أبيات القصيدة التي كان يرتجلها في كثير من المناسبات والأحوال، على صعوبة هذا الارتجال وعلى ما في التاريخ من تعقيد وإشكال. يضاف إلى هذه الملكة الموسيقية ذكاء حاد غريب يذكر بأذكياء التاريخ من العميان من أمثال بشار وأبي العلا وأبي العيناء ـ نصف الأعمى ـ فقد تحدث مفتي حماه المرحوم السيد محمد الحريري أنه كان ضيفاً عند أبي الهدى الصيادي شيخ السلطان عبد الحميد العثماني، وكان مريضاً فدخل عليه ملا عثمان ووقف بباب غرفته وسلم عليه وتحدث معه قليلاً. يقول الحريري: وبعد ٢٠ أو ٢٥ سنة، كنت في بيروت فقيل لي: أنظر إلى هذا الكفيف الذي يقوده الغلام الصغير، إنه ملا عثمان الموصلي الموسيقي العراقي المولوي المعروف، وأسرع الشيخ الحريري إليه وقد مدّ إليه يده وهو يحييه وصاح به الموصلي: انتظر قليلاً، وهز ذاكرته وصاح به بعد ثوان: الحريري؟ وقد دهش الحريري لهذا الذكاء الخارق الذي جعله يذكر صوت الحريري بعد لقاء لم يدم أكثر من دقائق وبعد مضي أكثر من ربع قرن. وبالإضافة إلى ما سبق كان عازفاً على القانون والناي كما كان يجيد اللعب بالشطرنج، فأعجب لهذا المعري الجديد الذي عرفت فضله الأوساط العراقية فكرمته بأن صنعت له تمثالاً أقامته في أبرز ساحة من ساحات بلدة الموصل وهي ساحة المحطة. ومن أهم الأحداث الموسيقية أن سيد درويش الموسيقي الشهير قد عرف الملا عثمان وأفاد منه وحفظ عنه الكثير من الأصول الموسيقية التي أعانت سيد درويش في حياته.

في المساء كان موعد افتتاح المهرجان، ولقد ذهبنا إلى المهرجان فوجدنا قاعة ضخمة فيها مسرح كبير؛ وقد قامت دار إذاعة الموصل بتسجيل القصائد والخطابات التي ألقيت، وقبل افتتاح المهرجان بقليل رأينا الشعراء يتوافدون، وفي الرعيل الأول منهم حافظ جميل ونزار القباني ومحمود حسن اسماعيل، وكنت إلى جانبه في المقعد، ومحمد الفيتوري وغيرهم وغيرهم، وكانت الدعايات قد سبقت نزار إلى المهرجان وتكأكأت حوله الفتيات الجامعيات والشبان من طلبة كلية الآداب يقدمون له دفاترهم ليوقع عليها، وقد قدمت لي ولمحمود حسن اسماعيل بعض الدفاتر للتوقيع عليها، على الطريقة النزارية القبانية، ولكن سبحان مقسم الأرزاق. وجاءت إليّ سيدة الرحلة، وكانت أعطتني كلمتها عن أبي تمام لأبقيها لدي بعض الوقت وكانت حول «أبي تمام والمرأة»، والسيدة خير من يكتب في هذا الموضوع وصعقت حين طلبت مني كلمتها وكانت لدي في الفندق، وعلى بعد عدة كيلومترات فاعتذرت إليها، ولكنها ذهبت إلى الغرفة وأحضرت كلمتها، فقد طلب إليها أن تلقيها في حفلة الافتتاح. وأول المتكلمين كان نزار القباني، وقد قدم قصيدة صغيرة من الشعر الحديث أو من اللون القباني الجديد، لأن نزار ينظم على الطريقتين، العمودية، وغير العمودية، ففي الموصل نظم شعراً جديداً، وفي دمشق نظم قصيدة من البحر البسيط والقافية الموحدة لأن الجو الشعري في دمشق كان أميل إلى الطريقة العمودية. لقد صفق المعجبون لنزار، وخاصة أولئك الذين هم في طور الشباب، وقد تعرضت القصيدة طبعاً، وكالعادة، للقضية الفلسطينية وإلى تخاذل العرب عن الدفاع عن الأرض السليبة.

وبهذه المناسبة لا بد من القول سلفاً، إن قصائد المهرجان لم يكن لأبي تمام فيها نصيب كبير، لأن الكثير من الوافدين من المشتركين، من شعراء وخطباء، قد كان همهم أن يبتزوا التصفيق والتحايا والإعجاب، ما عدا القلائل من مثل حافظ جميل الذي قدم لقصيدته بمقدمة جميلة تحدث فيها عن أبي تمام، زميله في إدارة بريد الموصل، وقد كان حافظ جميل يشغل هذا المنصب وهو توافق تاريخي عجيب، وكذلك محمود حسن إسماعيل الذي أنشد قصيدة من بحر قصير صغير لم تعلق بالأذن نغمته، وكان إلقاؤه بسيطاً فليس هذا الشاعر الكبير من فرسان المنابر وإن كان نابهاً في شعره وقد سألته، لِمَ اختار هذه الطريقة وهو من الشعراء المرموقين؟ فقال: لقد كنت أعددت قصيدة أخرى ثم عدلت عنها إلى هذه التي نظمتها البارحة، والله أعلم.

أما قصيدة حافظ جميل فقد كانت طويلة تحدثت عن العلاقات العربية بين الدول العربية، وقد كانت سيماء الكبر ظاهرة على هذا الشاعر، فهو كما قيل لي صديق الليل ومن محبي السهر إلى مطلع «التمارى والكعك» كما يقول أحد الظرفاء المصريين. أما سيدة الرحلة فقد كانت كلمتها جميلة مختصرة أدت ما يراد منها ورسمت الخطوط الملونة التي وصلت بين أبي تمام والمرأة.

ولقد سمعت الفيتوري فلم أفهم كثيراً مما قال، لأنه تحدث عن عبد الخالق محجوب الذي قتل في حوادث السودان ذلك العام، وكأنه نسي لِمَ جاء إلى الموصل، ولقد رأيت منه ظاهرة عجيبة، فقد نظم ما أسماه قصيدة، على الطريقة الحديثة، بلا قافية موحدة ولا وزن تدركه الأذن، وما كاد ينتهي من قصيدته حتى رأيته ينتقل إلى أبيات من الشعر العمودي الموزون المقفى. ومن الغريب أن المستمعين لم يصفقوا إلا اعتباراً من الأبيات الموزونة والمقفاة وقد هنأته مازحاً بقولي: أهنئك على القسم الأخير.

أما الصديق العزيز أحمد عبد المعطي حجازي فقد كانت قصيدته أيضاً بعيدة عن موضوع أبي تمام، لقد تحدث كما أذكر عن موضوع فلسطين والأمة العربية ولا أظن أنه تعرض لذكر أبي تمام إلا من بعيد، ولكن قصيدة الحجازي كانت غامضة وغامضة جداً، ولقد سكت الناس فلم يفهموا أول الأمر قوله وصمتوا فلم يصفقوا ولم يبد أي أثر للشعر فيهم، ثم أخذت الأسماء والأعلام تتوالى في القصيدة وكلها أسماء شخصيات لها علاقة بالتاريخ العربي الحديث فتزحزح السامعون عن سكوتهم وأخذوا يصفقون هوناً ما، وانتهت أزمة عبد المعطي حجازي وكانت أزمة خانقة، أما الأستاذ عبد الوهاب البياتي فإنه لم يلق شيئاً من شعره ولكنه كان له أثر في المهرجان الكبير على اعتباره موظفاً مرموقاً في وزارة الإعلام. وأعتقد أن عدم إلقائه الشعر ناشىء عن عدم اهتمامه بالمهرجان وعدم إعجابه بشعراء المهرجان وخطبائه،

ومن بينهم أنا الفقير إلى الله تعالى، فالأستاذ البياتي، وهو صديقي يرى نفسه في القمة من الشعر، وأن كل الناطقين بهذه الموهبة يزحفون على السفح متعبين منهكين وهو ينظر إليهم من عل، ولقد سألته مرة عن شاكر السياب وكنت أظنه صديقاً له ولكني فوجئت بقوله: كان يحسدني. والذي قرأ عدد مجلة الأسبوع العربي اللبنانية الذي أدلى فيه البياتي برأيه في نفسه وفي الشعراء، ورأى التصريحات التي فاجأ بها القراء على لسان فاروق البقيلي، يدرك رأي البياتي بالشعراء وأنه قد بلغ المرحلة التي لا يعجبه فيها أحد بشهادته هو على نفسه.

مر اليوم الأول من المهرجان وجاء اليوم الثاني:

كان هذا اليوم، الثاني من المهرجان، يوماً بائساً، وكان مأتماً للشعر لا مهرجاناً، فقد استولى على المنبر شعراء الموصل وهم، في أكثرهم من الشعراء الحديثين، أو المجددين، كما يحلو لهم أن يسموا أنفسهم، وكان أكثرهم من الشباب الجامعيين، ولقد اجتمع الناس يريدون أن يسمعوا ولكنهم صموا آذانهم منذ اللحظة الأولى؛ فقد كان الشعر خليطاً عجيباً من ألفاظ غامضة غير مترابطة لا معنى فيها ولا وزن ولا قافية، وكنت أشاهد الحاضرين وقد اشرأبوا يريدون أن يفهموا شيئاً فلا يستطيعون. حتى إذا أعجزهم الفهم التفت أحدهم إلى الآخر متسائلاً مستفهماً مستفسراً، فيجيبه الحاضرون بشارة استفهام ضخمة تضحك الثكلى، ومع ذلك فشعراء الموصل الرمزيون أو الحديثون أو المجددون قد أصروا على إسماع الناس هذه اللغة التي يعجز عن فهمها العارفون بالعلم والجاهلون له.

ولم يكن المجددون وحدهم هم الذين عكروا اليوم الثاني من المهرجان، فقد كان الشعراء التقليديون أيضاً من هؤلاء. وما رأيك بشاعر منهم يأتي بقصيدة تزيد على المائة بيت عداً ونقداً، فيلقيها دون أن يتلكأ أو يتوقف أو يتنحنح أو يسعل، وكأنه آلة تسجيل تطلق كلامها دراكاً كالرصاص من فم لا يعرف الرحمة ولا الشفقة بالحاضرين.

ليست هذه الآراء خاصة بي فقد أكون متهماً عند أصحاب الشعر الحديث، ولكن هذا الاتهام لا يجعلني حاقداً ولا منتقماً حين أكتب، فأنا معروف بأني صديق للجميع وأنا من أكثر الناس محبة لأصدقائي، أقول ليست هذه الآراء لي وإنما هي آراء الأخوان الذين رافقتهم أيام المهرجان، وقد وافقتهم طبعاً على أكثر آرائهم ولهذا تبنيتها وكتبتها في هذه «الرحلة».

ولا بد من القول هنا: إنني أستغرب كثيراً أن يكون هنالك عداء بين الأدباء القدامى والمجددين، والحق في هذا العداء يقع أكثره على المجددين الذين لا يقبلون نقاشاً ولا يريدون مناقشة فيما يقدمون عليه من تغيير وإلغاء لقواعد الشعر ومفهومه وطرائق صنعه. فهم، أي المجددون، يريدون إلغاء عنصر القافية، لأنها تعيق الشاعر عن الاسترسال مع الطبيعة والخيال ويعتبرونها قيداً يجب التخلص منه وهم، أيضاً، يريدون الاستغناء عن الوزن واللجوء إلى طرائق في الوزن لا ترضي الشعور ولا الأذن وتحيد بالقارىء عن المتعة الموسيقية في قراءة الشعر الذي يلتزم بشرط الوزن، والوزن أيضاً عند أخواننا المجددين قد يسيىء للخيال الشعري ولحرية الشاعر ويجب الخلاص منه. أما المحافظون فيقولون: إن المجددين لم يتثقفوا الثقافة العربية الأصيلة من قراءة للشعر وحفظ لمختاراته الجيدة، ولم يتمرسوا بالنظم على يد أساتذة تقدموهم في إتقان هذه الصناعة، وهم يتهمون أكثر المجددين بأنهم لا يملكون الموهبة اللازمة للشاعر، هذه الموهبة التي يهون عندها شرط القافية والوزن الشعري، وقد أشار إلى هذا، الأستاذ السقاف مندوب الكويت في مهرجان تونس للشعر الذي عقد في شهر نيسان ١٩٧٣ ونشر في عدد لاحق لمجلة العربي الكويتية. لذلك، وبلا حق، تجد الشعراء الجدد هم الذين يحملون على الشعراء القدامى ويحاولون قطع الطريق عليهم في الكتابة والنشر وحضور المؤتمرات الأدبية لكي يخلو لهم الجو فيقولون ما يريدون دون حسيب أو رقيب. ويرد القدامى على هذه ـ المعاملة ـ بقولهم: نحن نأتي إليكم، أتريدون الاستغناء عن القافية؟ نحن معكم، ونريد أن نعفيكم من هذا الشرط الذي لجأ إليه الشعراء القدامى حين لجأوا إلى طريقة الموشحات، فالموشح يشتمل على قواف متعددة لا تتعب القارىء ولا الناظم ـ كما هو رأيكم ـ والموشح أيضاً يشتمل على أوزان مختلفة تساعد الناظم على التنقل من بحر إلى بحر،

كل هذا مع شرط لا بد منه ولا يمكن التساهل به ـ من قبلنا نحن القدامى ـ وهو شرط وجود الوزن والقافية، فالقافية للشعر كالرأس للجسد، والوزن للنظم كالدم للإنسان، ولا يمكن الاستغناء عن هذين بحال من الأحوال. وهناك توضيح لا بد منه لكيلا يُساء فهم هذا التقارب بين القديم والجديد. إن صح أن هناك قديماً وجديداً، وهو أن الوزن ينبغي أن يكون ظاهراً بارزاً، أما أن يعتمد على التفعيلة، كما يقول بعض المجددين، فأمر غير مقبول لأنه غير معقول، ولأنه لا يعطي الرنة الموسيقية المطلوبة، والشاعر يستطيع أن ينظم البيت بشطرين موزونين وزناً واحداً ليتم التطابق والإيقاع وهو ما يهدف إليه كل ناظم للشعر. أما القفز من بحر إلى بحر في البيت الواحد والتنقل من تفعيلة إلى أخرى في الشطر الواحد فمضيعة للوزن والموسيقى والشعر.

بقي «المعنى» وهو العقدة التي نختلف فيها ـ نحن القدامى ـ مع المجددين، فإن أكثر الشعر الحديث يبدو غير مفهوم، وأكثر الشعراء المجددين غموضاً، هم أولئك الذين يتمتعون بالشهرة، تقرأ لهم فلا تحس بما يريدون لأن معانيهم تختلط بألفاظهم فيضيع الجانبان. وهم على الأكثر لا يرمون من نظمهم إلى معنى، وقد يقول لك أحدهم غير هياب ولا وجل: إنني آتي بأفكار لا يمكن التعبير عنها ولذلك تبقى غامضة، وبعد هذه الأطروحة، يرمون بنظريتهم القائلة: إن الشعر ليس مشروطاً فيه أن يكون مفهوماً بل إن المفهوم منه يسقط حالما يفهم؟ وبهذا أخرج الأخوان المجددون شكسبير ودانتي وكورني وراسين وشوقي والمتنبي وأبا النواس من نطاق الشعر لأن شعر هؤلاء جميعاً يرتكز على الفهم الواضح الصريح العميق. إن هذا الادعاء من جانب الأخوة المجددين باطل من أساسه لأن القائلين بهذا القول من الفرنجة يقصدون إلى العمق ونفاذ الكفر والإحساس الشعري إلى أعماق المفاهيم الإنسانية، مما يجعل هذا الشعر مقترناً بالفكر العميق الذي يعين على الاستمتاع واللذة الفنية، لا أن يكون الكلام سطحياً عائماً فلا يخرج منه زبد ولا معنى ولا شيء يشبه المعنى، وهذا العمق لا يأتي إلا عن طريق الموهبة الملهمة والثقافة الكبيرة العميقة واللغة القوية المتماسكة والأسلوب الذي تحس به شخصية الرجل الذي يكتبه.

ولا أخفي أن الأخوان الجدد يحاولون جهدهم إبعاد من تقدمهم من الشعراء ومن علموهم في الماضي والحاضر، ويعملون على إقصائهم عن الساحة ليخلو لهم الجو فيكتبوا في الجرائد والمجلات ويحضروا المؤتمرات والمهرجانات ويحاضروا في المراكز والدور الثقافية ويسمعوا أصواتهم في الإذاعة والتلفزيون والمسرح، وقد تكون الظروف التي يعيشها العالم العربي اليوم أكثر انسجاماً مع المجددين وأبعد اتفاقاً مع القدامى الذين يحافظون على اللغة والأسلوب والقواعد العربية الأصيلة الموروثة، ومن عجب أن المسؤولين في أكثر البلاد العربية يتحدثون الأحاديث الكثيرة عن ضيقهم بالشعر الحديث وتهجينهم له وينمقون الألفاظ في نقده نقداً لاذعاً، ولكنهم من جهة أخرى يفتحون أمامه كل أبواب النشر والإعلام، الأمر الذي يدعو إلى العجب والاستغراب كما يدعو إلى التفكير الدائم بهذا التناقض الذي يلوح من وراء هذه التصرفات الغريبة. لقد قال أناس كثيرون إن المجددين يحاولون، أو هم مدفوعون لمحاولة إضعاف اللغة العربية ولخلق كره عند الأجيال الحديثة لشعرهم الموروث، وإن إضعاف اللغة العربية عن طريق جعل التراث العربي مكروهاً غاية مشبوهة تحوم حولها الأقاويل والتفسيرات الغامضة المريبة. لقد قيل الكثير من مثل هذا الكلام وكان بعض هذا الكلام قابلاً للتصديق، فهناك من الأدباء من يوزع المال على زملائه الذين يسيرون على هديه ويتأثرون خطاه، وهو فقير، فمن أين جاء هذا المال الموزع باسم هدايا ومكافآت، وهناك أدباء تأخذ بأيديهم مؤسسات معينة لها ألوان خاصة، فتطبع كتبهم ويعطون الأموال ليقضوا الإجازات والسياحات الغالية الثمن، وهناك وهناك، إلى آخر هذه الأقوال التي زعزعت الاعتقاد بالأديب العربي الذي يحاول التنصّل من قيود اللغة والوزن والقافية، وقد ترى أديباً معتدلاً في كل شيء ثم تهيأ له وظيفة في بلاد بعيدة نائية، فيعود هذا الأديب بعد سنين وقد تغير شعره وتبدل نثره وتطور حديثه فأصبح يكره الأدب الشرقي والموسيقى الشرقية وأصبح في الرسم لا يقل عن بيكاسو ودالي وبراك، ويتساءل الناس قائلين، سبحان مغير الأحوال. كيف تبدل الرجل وتغير بهذه السرعة المريبة، وليس خافياً أن الاستعمار ومن حوله يحارب فيما يحاربه اليوم، اللغة العربية التي هي الدعامة الأولى للقومية العربية.

انقضى النهار الثاني من المهرجان وهذه الهواجس تروح وتجيء في مخيلة أعضاء المهرجان، ناس، وهم الأكثرون، يدعمون الشعر العربي الأصيل، ويؤيدون الوزن والقافية اللذين لا يقوم الشعر إلا بهما، وناس، جلّهم من الشباب، يقولون بالشعر الجديد والبعد عن القيود التي تقيد الشاعر. وجئت ذلك المساء إلى غرفتي، فوجدت جريدة المهرجان، وهي صحيفة خاصة يومية خصصتها وزارة الإعلام العراقية لبرامج المهرجان، وكان قد بقي اليوم الثالث للشعر، ونظرت في أسماء المتكلمين والشعراء فلم أجد لي إسماً، وأدركت اللعبة وعرفت أن في الأمر شيئاً غامضاً، وأن أصحاب الشعر الحديث وفيهم الكثير من مرافقينا في المهرجان ممن لا أذكر أسماءهم قد عمدوا إلى هذه الطريقة لإقصائي عن المسرح، ولقد عرفت منذ وطئت قدماي أرض العراق أنني عبء ثقيل على هؤلاء، خاصة وأن أحاديثي وفكاهاتي وأقاصيصي كلها كانت منصبة على تأييد الشعر العربي الأصيل، مع عدم إنكار التجديد ضمن الحدود التي تحفظ للشعر العربي طابعه الأصيل وشكله الذي لا يلتبس مع الأشكال الأدبية الأخرى. وسكت إلى الصباح وذهبت إلى مدير التلفزيون الموصلي فقلت: إن اسمي لم يرد بين الشعراء الذين سيلقون في المهرجان، مع أنني دعيت على هذا الأساس فكيف حذف اسمي من القائمة ومن الذي حذفه، إن في الأمر يداً تعبث بالمهرجان وستسبب له مشاكل لا قبل له باحتمالها، إنني شاعر منذ أربعين عاماً، شاعر دون دعاية أو تطبيل أو تصفيق، أو صور ملونة أو دواوين مبهرجة أو عناوين مكهربة غير مفهومة، أو مفهومة قليلاً وبصعوبة، وأنا أيضاً أعتبر من ناحية عملي في مجمع اللغة العربية ممثلاً لهذا المجمع في دمشق، ولقد سمع الناس وتسامعوا أنني سألقي قصيدة فكيف بترت هذه القصيدة؟ وقلت أيضاً: أنا مضرب عن حضور المهرجان وعن كل اجتماع فيه أدباء أو شعراء. وأدرت ظهري ومشيت بكل كبر وخيلاء.

وهنا حقيقة يجب أن أسجلها في هذا الحديث القصصي، فقد عجبت كثيراً من الشعراء كيف دعوا إلى المهرجان، تجلس إلى أحد هؤلاء فتجده لا يعرف الحديث ولا الرواية ولا النحو ولا الصرف، ولا يعرف لغة أجنبية وتراه لم يفتح معجماً في حياته لأنه لا يحتاج فيما يكتب أو يدون إلى المعاجم ما دامت لغته اللغة العربية أو ما هو قريب منها. ثم بعد كل هذا يأتي إلى المهرجان شاعراً يمثل بلداً عربياً، إن هذا لما يحزن ويمرض ويميت، كيف أصبح الشعر على هذه الصورة الشائهة المستغربة؟ كيف وصل الأدب إلى ما نراه اليوم من تفاهة وفسولة وضحولة؟ لقد أصبح الحديث العامي الزجلي أفضل منه بكثير لأنه يتضمن على الأقل معنى مفهوماً وكلاماً فيه منطق وفكر، في حين أن أكثر هذا الشعر الذي نسمعه أو سمعناه مجرد من المعنى واللفظ، مليء بالأخطاء والأغلاط، فكيف سمي هذا الكلام الهراء شعراً؟ وكيف سمي هؤلاء الجهلة الأغبياء شعراء وأدباء؟ قيل لنا على سبيل النكتة: إنهم عينوا بقرار، وإنهم شعراء بالأكثرية، أدباء لأن هذه المهنة لا تكلف هذه الأيام تعباً ولا علماً ولا جهداً، وهذا الكلام على تفاهته واضطرابه يوحي بكثير من الحقيقة والعبرة، فقد عرفنا بعضاً من الشعراء والأدباء ممن ظهروا فجأة كالاختراع وعرفتهم الصحافة الحديثة الإعلامية الجديدة، ولقد سألت مرة أحد محرري الصفحات الأدبية في جريدة ما عن قصيدة رأيتها في هذه الصفحة، قصيدة لا معنى فيها ولا وزن ولا قافية ولا لغة، قلت: كيف تنشرون مثل هذا الكلام الفارغ؟ وأجاب، وهذا الجواب يمثل مقداراً كبيراً من شعر هذه الأيام، قال: إنه شاب فقير جامعي جاء إلينا وليس لديه شيء من المال فكتب هذه الكلمات وأصلحناها له ثم نشرناها كي يتقاضى التعويض عنها لعله يعيش، به يوماً أو بعض يوم.

ليست هذه أحاديث مخترعة ولا جملاً منسقة وإنما هي حقائق راهنة سمعتها وشاهدتها وكنت المتحدث بها والمشير إليها.

إن ما صار إليه الأدب لأمر يقيم المرء ويقعده وإلا، فكيف يمكن لأدب في العالم كله أن يستغني عن لغته التي يكتب بها وعن قواعده وأصوله ومقوماته في سبيل أهداف اجتماعية وآراء سياسية وأفكار أكثرها بل كلها دخيل غريب مدسوس؟ كيف يستطيع أديب عربي أو شاعر يدعي الكتابة باللغة العربية أن ينسى جمال هذه اللغة وحلاوة شعرها وصفاء أسلوبها ورقة دعابتها ونكتتها؟ كيف يمكن لشاعر صحيح عربي أن يضرب صفحاً عن شعر المتنبي وأبي نواس وابن الرومي وأبي العلاء وقبل هؤلاء شعر

مجنون ليلى وكثير وجميل وذي الرقّة وابن الدمينة؟ ثم قبل هؤلاء، جرير والفرزدق والأخطل ثم الشعراء الجاهليين من مثل الأعشى والنابغة وامرؤ القيس؟ أم كيف يتسنّى لكاتب عربي يدعي الأصالة أن يهمل أسلوب عبد الحميد والجاحظ وبديع الزمان وابن المقفع وأبي حيان التوحيدي والجرجاني والأرّجاني، أم كيف يترك هذه المعاجم التي تحتوي اللفظ العربي ومجازاته واستعمالاته كما هو مبين في أساس الزمخشري ولسان ابن منظور ومخصص ابن سيدة وتاج الزبيدي ومحيط البستاني والفيروزابادي ومصباح الفيومي؟ كيف يترك الأديب العربي هذه الجواهر الثمينة والكنوز الدفينة إلا إذا كان أديباً غير عربي أو أديبا كلف الإساءة للأدب والتراث العربي بأكمله!

ولعل القارىء عاذر لي إذا وجد في هذه العبارات بعض القسوة أو شيئاً من الجرح، فأنا أعلم أن اللغة العربية هي التي حفظت لنا كياننا العربي وأن اللغة في رأيي، أهم بكثير من الأرض العربية نفسها، ولقد رأينا كيف أن الوطن العربي في المغرب عاد خلال عشر سنين إلى حظيرة العروبة بفضل اللغة العربية ودستورها القرآن الكريم، ولقد حدثنا كثيرون من سكان هذه الأقطار الشقيقة أن المستعمر كان يمنع المغربي أو الجزائري أو التونسي أو الليبي من قراءة القرآن حتى في فراشه عند نومه، لأنه كان يعتقد ـ أي المستعمر ـ أن هذا القرآن هو الذي سيحفظ عروبة هؤلاء العرب، وأنه ـ أي القرآن ـ قد حفظ فعلاً هذه البلاد من أن تنزلق في تيار الاستعمار، أفنأتي نحن، في هذه الأقطار التي خلصت من الاستعمار فنسعى لهدم هذا الكيان اللغوي القومي عن طريق أسماء مختلفة مخترعة يقصد بها المخالفة والعناد.

لقد أدرت ظهري لمن يتحدث إليّ من ممثلي المهرجان الرسميين وأظنه مدير تلفزيون الموصل، وقلت: لا بد من حملة أضعضع فيها هذه المحاولة أو المؤامرة ضد قصيدتي التي أوجسوا منها خيفة لأنها ستتعرض للشعر الحديث والأدب الجديد بكاملهما، وستعرج على المهرجان فتنتقده؛ وكأنني حين نظمت القصيدة تنبأت بما سيقع وقد صحّت النبوءة فعلاً، فالموضوعات، للخطب والقصائد، كانت كأنني اسمعها: فلسطين عبد الخالق محجوب، مصر وأحداثها، إمبريالية، رأسمالية، يسارية... الخ. أما أبو تمام فلن يناله من المهرجان إلا مقدار «طبّى» من الشعر أو النثر.

ودخلت النادي الذي يجتمع فيه المدعوون وأصحاب الدعوة، وكنت خلال الأيام التي قضيتها في بغداد والموصل تعرفت بالكثير من هؤلاء، وأصبحت لي «جماعة» تحدق بي وتسير ورائي أينما كنت، وأخذت أحمل على الشعر وأصحابه وعلى لجنة المهرجان التي استبعدتني قصداً وعن سابق تصور وتصميم، وأخذت اتهم أشخاصاً بعينهم وأشير إلى أناس بذاتهم، وخرجت من النادي بعد أن خلطت الحابل بالنابل، ووصلت إلى غرفتي في فندق المحطة البعيد، وحين فتحت باب الغرفة خطوت إلى السرير الثاني في الغرفة أعني السرير الخالي، بعد أن نزح عنه صديقي القصاص العراقي فوجدت البريد بانتظاري، ولم أكد أنزع ثيابي وأغسل وجهي حتى سمعت طرقاً على الباب وفتحت للطارق فإذا به مدير تلفزيون الموصل، فسلم ووقف بكل احترام ليقول لي: يا سيدي نعتذر عن سهو وقع في الجريدة فإن قصيدتكم أول قصيدة تلقى هذا اليوم في المهرجان فأرجو أن تحيطوا بذلك علماً، وابتسمت وشكرت، ثم انتهى الحديث وانصرف صاحبنا، وأتممت أنا ما كنت بسبيله من تهيئة نفسي للقيلولة التي لا غنى عنها، حتى في أيام الشتاء وفي الموصل. ولعل القارىء لا يعلم أنني متشائم فعلاً لا مزاحاً، فأنا دائماً أقدر أسوأ النتائج، وأنا شكوك ضعيف القلب لا تهدأ أعصابي ولا تفتر هواجسي، لقد قدّرت أن في الأمر لعبة وأن السهو عن اسمي ليس إلا مقصوداً؛ فإن بعض الشعراء والمدعوين لهم آراء بهذا الشعر الذي يعتبرونه تقليداً، خاصة وأنهم قد رأوا بأم أعينهم كيف يصفق الجمهور للشعر الموزون المقفى، وكيف يهمل أو يحار في هذا الشعر الذي يقف بين الشعر والنثر وكأنه المخلوق العجيب الذي هبط علينا من المريخ. ولم أفطن إلى أن ترتيبي الأول في الإلقاء سيسيىء إلى إلقائي وإلى القصيدة. وما كدنا نجتمع في النادي حتى حلت ساعة المهرجان، فانتقلنا إلى القاعة، ولم أكد أصل حتى أعلن عريف الحفل أنني سألقي قصيدتي، ونظرت بعد أن صعدت إلى المنبر فرأيت الناس آخذين بالدخول إلى القاعة، وأن الحضور لم يكتملوا عدداً، وكان لا بد من مقدمات قبل الإلقاء وتهيئة الجو للسماع، وهذا ما لم أفعله،

يضاف إلى ذلك أن الناس قد قرأوا في جريدة الصباح، أو جريدة المهرجان أنني غير موجود في قائمة الخطباء، وهكذا بدأت بالإلقاء في مطلع القصيدة:

أنشدت شعري في رحاب الموصل ... فأعدت للدنيا ليالي الموصلي
وأتيت أمرح بين غزلان النقا ... فكأنني أمشي بدارة جلجل
نشوان من طيب اللقاء وحسنه ... أسعى بقلب رائح متنقل
ويقول لي صحبي وقد أزف النوى ... ومشى الزمان بخطوه المستعجل
«نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول»

كان البرد قارساً، والجمهور منشغلاً باختيار المقاعد، وبالالتفات إلى الوافدين الجدد، فضاعت الأبيات الأولى من القصيدة ولم تلقَ إلا بعض التصفيق الذي لم يعجبني، وانتقلت إلى المقطع الثاني والثالث حتى وصلت إلى المقطع الذي هو قمة القصيدة كما يقال: وفيه ألمح إلى الشعراء الجدد وما يقدمون به من سعي لتغيير وتبديل أو تشويه وكأنهم قوامون على الشعر العربي والتراث العربي فقلت:

عفواً أبا تمام جئتك زائراً ... فاغفر لشعري ثورة المتطفل
إني أرى ريح العقوق عنيفة ... ترمي البيان بكل صعب مشكل
لم تحفظ العهد القديم لأمة ... خلقت من التعقيد كل مذلل
لولا السهولة لم يكن لبيانها ... أدب يحلّق في جناحي أجدل
تأبى العروبة أن يذل بيانها ... لشويعر وكويتب ومدجّل

وهنا ضجت القاعة بالتصفيق وعلت الأصوات تطالب بالإعادة، وكأني لمست من الجمهور كل ما كان يفور في صدره من نقمة وغضب على أولئك الذين يصفون الكلام الذي لا يفهم فيسمونه شعراً رغم أنف الشعر، ثم استمر الجمهور على سروره بهذا النظم العربي الأصيل وهذه الحملة على من يريد إخضاع التراث العربي الفني لإرادته أو إلى إرادة من يريدون منه ذلك، ونزلت عن المنبر بين التفات الحاضرين وابتسامهم المعجب وإشارات بالترحيب والتشجيع، وجاءني الأستاذ الصديق والأديب المرموق جبرائيل جبور يقول: لو أعطيتني قصيدتك لألقيها لك لرأيت منها عجباً، إن القصيدة جيدة ولكن إلقاءك هو الذي طفف من وزنها، ووافقته على رأيه فإن إلقاءنا في ديار الشام ليس مبنيّاً على الطريقة العلمية التي تعرف كيف تبدأ بالبيت وكيف تنتقل من بيت إلى آخر، وهذا هو سر الإلقاء في الشعر العربي.

جلست بين الجمهور وكان إلى جواري الأستاذ محمود حسن إسماعيل الذي أثنى على القصيدة هو ومن كان إلى جواره من أخواننا العراقيين ولكن هذا الإستدراك لم يكن منه بد، فقد كانت القصيدة وحيدة بلا دعاية، كالطائر بغير جناح لم تسبقها كلمة ولا مقدمة ولم يتحدث بها أحد كالذي تحدث به الناس عن قصائد بعض الأخوان من أصحاب الشهرة التي كلفت أصحابها الكثير من النفقة والسفر والرحلات. وقام شاعر سوري الأصل فألقى قصيدة من الشعر الحديث، ولقد كنت نصحت له أن يهجر هذه المنظومة وأن يحاول نظم قصيدة جديدة ذات وزن وقافية، وأن يحصر حديثه في موضوع أبي تمام، فإن الناس قد جاءوا ليسمعوا شيئاً عن شاعر الموصل، لا أن يبكوا على الشهداء والأوطان. ولكنه لم يستمع إليّ وانجر بقضّه وقضيضه صوب أصحاب الشعر الحديث من طالبي الشهرة ولو على حساب فنهم وأدبهم، صعد هذا الأخ إلى المنبر فألقى قصيدة نثرية أو ألقى نثراً «مشعوراً» كما كان المازني يسمي الشعر الحديث، وكانت المعاني بطبيعة الحال غير واضحة لأن أخوان الشعر الحديث يؤلمهم أن يكون المعنى واضحاً يريح القارىء، إنهم يريدون للقارىء أن يبذل جهداً كبيراً حين يريد أن يصل إلى المعاني «العميقة» التي تتضمنها قصائدهم، وكان الموضوع الذي طرقه صاحبنا عجيباً غريباً، لقد خطر على باله أن يبكي الشهيد الكبير سيدنا الحسين فما الذي أخطر هذا الموضوع على باله، وما علاقة المهرجان بالحسين، وما علاقة هذه الإثارة التاريخية في بلد ما زال يشكو من مثل هذه الحوادث الدامية منذ مقتل الحسين حتى الآن، ولم تمتد يد إلى التصفيق، وظلّ القوم السامعون وكأنهم في حلم، وأخذ الشاعر ينظر في وجوه الناس وكأنه يستجدي التصفيق، ولا من مجيب، وهبط عن المنبر وقد تزايل عزمه

وانحلت قوته وجلس إلى جواري وهو يجهد في بلع ريقه وازدراد إخفاقه وسقوط قصيدته، وسمعت عراقياً إلى جواري يقول: ما هذا؟ ألا يدري هذا الأخ أن هذا البلد، أي الموصل، هو البلد الوحيد الأموي في العراق، ولكن هذا الرأي، كما علمت فيما بعد لم يكن صحيحاً، فإن في الموصل عدداً كبيراً من الشيعة يكاد يكون الأكثرية.

وانتهت الحفلة وبانتهائها انتهى المهرجان، وانتقلنا إلى النادي، وجاء صاحبي الذي حرم التصفيق إليّ يشكو سوء الحال وكيف خذله الناس فلم يصفقوا له، وقلت له: نصحتك فالتمس يا ليث غيري؟ ونظر إليّ والابتسام آخذ مني فاحمرت عيناه، وقال: أتسخر؟ قلت: لا، وإنما أنت ورفاقك طالبو شهرة لا يهمكم إلا أن يصفق الناس لكم، أما الشعر وجودته، فأمر لا يهم في كثير أو قليل، واندفعت متحمساً أقول: إنك تخالف شخصك واتجاهك الصحيح، لأنك تعتقد أن الشعر «موضة» يجب أن يساير الشاعر فيها التيار ولو كان خاطئاً، ثم ما علاقة الحسين بأبي تمام؟ وكيف تقول عن كلام منثور أنه قصيدة أو شعر؟ إنك تعلم مناقضتك لنفسك، ثم لماذا تغضب وقد رأيت أن المصفقين كانوا من جهة الشعر العمودي الأصيل ولك أسوة بأحمد حجازي والفيتوري وغيرهما من شعراء الموصل الذين لم نسمع بصفقة واحدة حين ألقوا قصائدهم، وبصرت به فجأة وقد اربدّ وجهه وجحظت عيناه وكأنه ندم على ما فعل وقال وهو يرتجف: لقد صفقوا لك لأنك كبير بالسن؟ وضحكت ضحكاً عميقاً، وقلت له: ولكنهم صفقوا... وقام من مقعده وانتقل الى مقعد مجاور وأنا أكاد أنفجر من الضحك.

كان هذا الشاعر نموذجاً للشعراء الذين أمّوا المهرجان، كل واحد منهم قد هيأ مع حقيبة سفره موضوع الإثارة الذي يريد أن يطرقه ليستدر التصفيق والعطف والشهرة، وكلهم حاول التحدث في موضوع «جانبي» بعيد عن موضوع أبي تمام، وقد استثنيت في الحديث الفائت الشعراء الذين عرفوا الشعر الأصيل، أولئك الذين تحدثوا عن أبي تمام والذين لا تهمهم الشهرة لأنها تأتيهم عفو الزمن ومع الأيام حافظ جميل، محمود حسن اسماعيل، عبد الله البردوني شاعر اليمن، كل هؤلاء تحدثوا في موضوع المهرجان بشعر موزون مقفى يشتمل على النغم والمعنى والفكرة والصورة وهؤلاء هم الذين نجحوا ولعلي كنت واحداً منهم.

عدنا إلى النادي كما قلنا، وجاءني رجل لا يطيب لي حديثه وإن طاب لي بعض شعره، رجل من الذين لا تعرف لهم قياساً ولا حداً ولا شكلاً، إنه يبغض ويحب، يسكر ويصحو... ولكنه مولع بالحديث عن الناس وكان ذلك معروفاً عنه حتى لم أجد إنساناً يذكره بخير على أنه يدعي لي الصحبة ويخاطبني بكل احترام، ولكني أضيق باحترامه حتى كأن هذا الاحترام جرح أو إهانة، ولا أدري كيف ذهبت إلى تلك السهرة معه، فقد أغراني وغرني قوله الناعم، وما كنت متأكداً من قول الناس عنه: إنه حين يسكر تضيع معالمه وتتغير شخصيته وتتغضن سحنته، وينقلب كلامه الناعم إلى حديث مؤلم جارح، وجاءت سيدة الرحلة تدعوني إلى جلسة أدبية فاعتذرت وأنكرت لها أنني سأسهر مع أناس آخرين وهربت منها هروباً إلى بيت أحد الأخوان الموصليين فوجدنا أمامنا عدداً من الرفاق منهم العراقي والمصري والسوري واللبناني. وقد قدمت لنا الأشربة الطيبة والنقول اللذيذة، كما صنعت لنا «الكبة» الموصلية وهي أقراص كبيرة تسلق سلقاً أو تشوى شيًّا، وشرب صاحبنا واحمرت عيناه، ثم أخذ يوجه إليّ الأسئلة عن فلان وفلان وكلهم أعرفهم وأكره استغابتهم، فحاولت رده وإعادته إلى الحديث العادي وإلى الموسيقى التي كنا بصددها، وكان في الجلسة رجال ونساء من أصحاب النكتة الظرفاء، وكأن هذا الإنسان الشاذ قد قلب الحفل رأساً على عقب، وغضبت فلم أحتمله وأثرته بعنف وذكرته بأننا من بلد واحد وأنه لا يحق له التحدث عن أهل وطنه الأقربين، وقمت أريد الذهاب، ولكنه قام هو وصاحب البيت يسترضيني وتقلص الطرب في السهرة وجف معين اللهو، فإن إنساناً واحداً يستطيع بكلمة ثقيلة إزاحة السرور عن ألف قلب، وهكذا انقلبت الليلة من السرور إلى الحنق والكدر والإثارة بفضل هذا الشخص العجيب الذي يشتري البلبلة والحنق شراءً، كما يقال، ويسعى إليهما سعي المشوق التائق، وقمنا دون أن نحس طعماً لما مر بنا، وفي اليوم الثاني بصرت به وعاتبته، وسكت وأنكر كل ما كان منه وإنه إنما تحدث عن الناس حديثاً لا

ينبغي أن يحمل على سوء النية، فقلت: سبحان من عرفك سوء النية وأنساك سوء الهضم.

ورأيت سيدة الرحلة في اليوم الثاني فتحدثت إليها عما جرى ليلة الأمس وضحكت ضحكة الشامتين وقالت: أنت رجل حساس تعيش في مهب الرياح كالريشة، تؤلمك النسمة الرقيقة الناعمة إن غيرت شيئاً من نعومتها فكيف تزج بنفسك في معترك لا ناقة لك فيه ولا جمل، وأتبعت جملتها بقهقهة مجلجلة، قلت: أوَشامتة أنت؟ فازدادت ضحكاً، وازددت اعتذاراً لأني لم أسمع كلامها وكان من حقي أن لا أسير إلا على رأيها ما دامت هي التي هدت خطاي إلى السير في القطر العراقي الشقيق.

وفي اليوم الثاني كان موعد العودة إلى بغداد، وقبل السفر، أحيت محافظة الموصل حفلاً ساهراً للمؤتمرين حضرة المحافظ، وقد جلسنا إلى جواره وكان لطيفاً إنساناً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وقد سمعنا في السهرة شيئاً من الموسيقى العربية والعراقية وكان العزف جيداً والتمثيل حسناً، ووزعت علينا في الحفل قطع من الكبة الموصلية، هذه الأكلة التي تدخل في كل شيء حتى في الفن الموصلي. وقد تعرفت على قائد الفرقة الموسيقية وهو أستاذ في فنه يجيد العزف والإيقاع ويعزف الأوزان والضروب وقد سر كثيراً بالتعرف إليّ.

وذهبت إلى الفندق ليلاً لأجد بطاقة السفر بالقطار مع رقم الغرفة المخصصة لي وفي الصباح الباكر ذهبنا إلى الطعام «الريوق»، وجاء مدير الفندق يرجو مني أن أكتب له كلمة في سجل الفندق للزائرين، فكتبت ما شاءت القريحة ساعتذاك وقد أثنيت عليه بما هو أهله كما قال أبو تمام، شاعر الموصل الذي عرفنا الموصل ببركته.

وانحدرنا من الفندق وأنا أنظر إلى مدينة الموصل وتمثال ملا عثمان الموصلي وحي أبي تمام على ضفاف دجلة الذي يخترق المدينة من الجنوب إلى الشمال أو بالعكس. ووصلنا إلى القطار الفخم وتسلمت الغرفة وكان الوقت صباحاً والشمس مشرقة، وصفر القطار ثم استأنف سيره المعهود عائداً بنا إلى بغداد.

ولاح لي فجأة صديق السهرة في الموصل، وقد رأيته يبتسم كعادته ـ في النهار ـ وذهبت ما بنفسي إليه، فأنا رجل لا أعيش في الحقد ولا أحب الحاقدين، وأنا رجل ضعيف الذاكرة لكل ما يسيئني في هذه الحياة، لذلك فأنا أكثر الناس تعرضاً لإساءة الناس لأني أنسى إساءاتهم. ولكن شيئاً ما كان يبعدني عنه فإن فيه شيئاً يصدم الرائي ويقصيه، أو فيه ما يكلم العين فتهرب منه إلى مكان آخر، وأين النجاة وأنا في قطار يسير بسرعة مائة ميل في الساعة، لقد اجتمعت إلى الأخوين المصريين أحمد عبد المعطي حجازي ورجاء النقاش ومعهما زوجتاهما الظريفتان الطريفتان، والمرأة المصرية أعظم امرأة في العالم ذكاءً وذلاقة لسان ونكتة، ولعل أصوات الكثرة الكاثرة منهن جميلة أو مقبولة أو تؤدي نغماً صحيحاً على الأقل، ولقد تم الاجتماع في القطار وكانت غرفة أحد المصريين إلى جوار غرفتي ففتحنا الغرفتين المتجاورتين ورفعنا الحاجز بينهما فكبرت مساحتهما ومددنا الطعام والأقداح وأخذنا نغني ونمرح على إيقاع سير القطار.

وتذكرت سيدة الرحلة وتساءلت فقلت إنها لجأت إلى طريقة دبلوماسية لم يدر بها إلا الراسخون في العلم، فقد تحدثت إلى المسؤولين في الموصل واستقلت هي وزوجها الدكتور طائرة أعادتهما إلى بغداد وقلت: لعلها لم تقل لي لأن الطائرة صغيرة لا تتسع لي معهما، أو لأنها تعلم أني لا أحب الطائرة والطيران وهكذا حرمنا من صحبة السيدة المحترمة في العودة بعد أن نعمنا بهذه الصحبة الرائعة في الرواح إلى الموصل في تلك الليلة التي لا تنسى بما كان فيها من أنس وغناء ولهو ومرح، ورحم الله فؤاد عباس ثانية، الأديب العراقي الفذ الذي أنسنا به أياماً معدودات كانت ملأى بالأدب والبيان والقصة والتاريخ.

وعادت بي اللفتة إلى القطار وامتد الحديث مع الأخوين حجازي والنقاش، وكان صديق السهرة في الموصل مستمعاً هذه المرة فلم يشترك في الحديث إلا لماماً، وقد أدركت أن خطر هذا الصديق لا يتحقق إلا في الليل، أما في النهار فإن الأضواء تخيفه وتمنع صوته من الظهور.

ورويت للمصريين ما أعرفه من تاريخ الموسيقى المصرية الحديثة، أعني من زمن الحامولي إلى يومنا هذا، وأنا عليم بهذا، أعرف النغم وأروي كلمات الأغنيات كما أروي القصص الموسيقية عن حياة أساطين النغم، ولقد تغنيت بصوتي المتواضع بأغنيات خفيفة للشيخ سيد درويش وكلها من الأغنيات

المشهورة التي كاد ينساها الجيل الجديد، فجن جنونهم وأعجبوا برجل من أقصى البلاد السورية ـ السلمية بلدتي ـ يحفظ أغاني أقصى بلاد الريف المصري وتعجبوا لذاكرتي التي لا تهمل شيئاً، وقد وصلت سني إلى الستين او تجاوزتها بقليل(*) ـ وكانت رحلة هانئة لم يعكرها إلا خاطر واحد، هذا الخاطر الذي يستغرب القارىء ذكره، ألا وهو خاطر عودتي بالطائرة إلى دمشق.

لقد كان مجيئي إلى بغداد أعجوبة، وكانت تلك رحلتي الأولى بالطائرة، ولقد مرت تلك الرحلة بسلام وبقيت الآن العودة، فكيف نتدبر أمرها. كان هذا الهاجس لا يفارقني ولقد أحببت أن أطمئن إلى حديث الأخوان المجربين عن الطيران فضحكوا جميعاً وظنوا أني أمازحهم، ولكني أوضحت لهم الجد في حديثي وأن خيال الطائرة، وفكرة الطيران لا تبرح مخيلتي وهي التي تعكر رحلتي وتجعلني في هم دائم مقيم. ولكن صديقي في سهرة الموصل، اتخذ مني موقف الجد وكأنه تألم لمخيلتي الرجعية القديمة وقال: إن الطيران ركيزة عصرية من ركائز المجتمع الإنساني وهذا التفكير من جانبك سخيف وغير وارد، وقلت: إنني أنظر إلى الأمر في ضوء الحوادث الكثيرة التي تقع بين الحين والآخر، وقال: لكل حادث سبب، فإن الطائرة إذا لقيت من الصيانة ما يقيها الأحداث وإذا كان سائقها صاحب لياقة كافية، فإن الخطر في سقوطها ينزل إلى أرقام تكاد تكون الصفر. فاطمئن يا صاحبي واترك هذا الحديث، وعد إلى الغناء.

وعدت إلى الغناء، ولكن أزيز الطائرة في العودة لم يفارق ذهني أبداً حتى نزلت في مطار دمشق كما سأقص عليك.

في الموصل عرضت لنا مناظر غريبة وأشكال من المصادفات عجيبة لا بأس بأن أشير إليها ما دمت قد وصلت إلى نهاية الرحلة تقريباً.

كان الوفد اللبناني بعيداً عن موضوع المهرجان، فقد كان فيه واحد من المنشغلين بالتمثيل وبكتابة التمثيليات على الطريقة الحديثة، وكان فيه صحفي من الدراويش، صغير الجثة ضيق العينين على بريق فيهما يوحي بالذكاء والخبث، وكان في الوفد أيضاً صحفي أديب وهو ينظم الشعر كأداة ثانوية من أدواته، وقد ألقى أبياتاً ذهبت أدراج الرياح بسبب إلقائه الناعم، ولأن الجمهور لم يسمع باسم صاحب الأبيات قبل يوم المهرجان، وكان في الوفد أيضاً صاحب دار للنشر، ومصور صحفي، ليت شعري وأية علاقة لهذه المجموعة بأبي تمام وشعر أبي تمام وتاريخ أبي تمام. ولكن القائمين على الدعوات هم، كما يبدو الذين نظموا هذه ـ التشكيلة ـ العجيبة، وكان أفراد هذا الوفد الذي عددتهم لك يعيشون عيشة اشتراكية لا يكادون يختلطون بأحد ولا يكاد يسمع بهم أحد. كل أمرهم ضحك وشرب، ودخان وقهوة حتى كأنهم جاءوا لتمضية أيام من النقاهة والترويح عن النفس.

أما الوفد المصري فقد كان مزيجاً من الشعراء القدامى والجدد، وكان فيهم عالم أو عالمان في الأدب العربي؛ ولعل أبرز الأخوان فيهم قد كان ذلك المختص بدراسة أبي تمام وهو الأستاذ «البهتيتي» وقد ألقى محاضرة في المهرجان اتسمت بطابع الارتجال ولكنها، ومع ذلك، احتوت على بعض المعلومات الخاصة التي تنبىء بدراسة متعمقة للشاعر الكبير أبي تمام. وكان فيهم شاعر من النوع الحديث لم يلق شعراً ولكنه ألقى بدلوه بين الدلاء، ولم أره إلا لماماً ويبدو أنه كان شديد الحياء حتى إنه لم يترك أثراً في الموصل كلها.

ولا شك أن من الشخصيات البارزة في المهرجان قد كان الأستاذ جبرائيل جبور، الذي ألمحت إلى اسمه في أول الحديث من هذه الرحلة، كان مثالاً للأدب الكامل والعلم والأصالة، وقد نعمت بصحبته أياماً طيبة. وقد ضم الوفد العراقي الذي رافقنا إلى الموصل من بغداد عدداً من الرجال الأفذاذ في الأدب والتاريخ وخاصة الأستاذ العالم المحقق حسين علي محفوظ، كما كانت هناك آنستان ظريفتان من موظفات وزارة الإعلام العراقية، وكانت آيتين في اللطف والأنس وخفة الدم والروح، وقد كانت لي معهما جولات من المزاح تنازلت فيها عن أربعين سنة من عمري حتى وصلت إلى مستواهما، كانت إحداهما سمراء

(*) تلك كانت سنّي عام ١٩٧١

والأخرى بيضاء، أو شقراء، على وجه التقريب، وكأنهما كانت تتمّم واحدتهما الأخرى، وكان لكل منهما عمل يختلف عن الأخرى، كانت السمراء ملتفتة التفاتاً تاماً إلى راحة الوفود الضيوف في المأوى والمأكل والمشرب، وكانت تعود إليها الإدارة العامة في تهيئة الجو الطيب للوافدين، وكانت الأخرى ـ الشقراء ـ محدثة من النوع الطريف، قصيرة قليلاً، قوية الصوت، شديدة الاعتداد بنفسها، تعرف الكثير من الأدب والشعر والنقاش الحاد، وهي عصبية المزاج ولكن عصبيتها كانت تضحكني حتى القهقهة لأن هذه العصبية كانت أكبر منها ومن جرمها الصغير، كانت تتكلم عن إليوت وسان جون بيرس، وهذان الشاعران من دعائم الشعر الحديث الذي وصل إلى ديارنا مشوهاً، فقد فهمه المقلدون فهماً شائهاً، لأن شبابنا لا يعرفون من الإنكليزية والفرنسية ما يجعلهم يتأثرون بالشعر الإنكليزي والفرنسي، وكانت هذه الآنسة تحفظ هذين الاسمين وترددهما في كل مناسبة أو بلا مناسبة أحياناً. كانت تتحدث مع أحد الأساتذة المصريين المتطرفين، فقد كان أميل إلى البرود، وكان مصرياً عجيباً لأنه كان لا يتقن النكتة ولا يفهمها بل كان يسيىء استعمالها، لذلك وقد الصدام بينه وبين الآنسة الشقراء الإعلامية وأومضت عينا الآنسة واهتزت في مكانها وامتُقع لونها وصاحت به وقد خفت أن تقفز إلى وجه محدثها المصري الذي أرتج عليه هلعاً وخوفاً، فإن أخوف ما يخافه المرء معركة مع امرأة أو آنسة، ولا سيما إذا كان المُعارك مصرياً وقالت: أنا لا أسمح لك، أنا لا أسمح لك، ولم أفهم بم لم تسمح للمصري المسكين ولكني انفجرت ضاحكاً، فقد كان حنقها آية في خفة الدم والظرف. وأمسكت بكلمة ـ أنا لا أسمح لك ـ حتى اللحظة الأخيرة من إقامتي بالعراق ومن الغريب أنني واجهت هذه الآنسة في مقهى من مقاهي شارع الحمراء في بيروت بعد أشهر من عودتي فوقفت في صدر المقهى وصحت: أنا لا أسمح لك فالتفتت وابتسمت ضاحكة.

أما الآنسة الثانية السمراء فكانت إنسانة نافعة ومفيدة، كما كانت محدثة ولكن أحاديثها كلها تتناسب مع عملها الرسمي، فهي تنصح بالجلوس في المكان الرسمي وتتولى إدارة الرحلات السياحية التي قمنا بها في الموصل. وكانت هذه الرحلات كثيرة متعددة فقد درنا في أنحاء المدينة وشاهدنا المئذنة الشهرة «الحدباء» التي سميت الموصل باسمها، وقيل لنا ونحن ندخل إلى صحن الجامع أن طفلاً وقع من أعلى المئذنة فلم يصب بأذى، وابتسمنا طبعاً لأن العصفور لا بد أن يصاب بأذى لو وقع من هذا الارتفاع وسبحان مزين العقول. أما بقية الأماكن الأثرية في الموصل مثل «نينوى» و «حضر» ـ وهذا اسمها كما أظن ـ فلم أرها، ولكني شاهدت جامعة الموصل وأعجبت بمرسمها الفني وتعرفت إلى رسام نابه موفق ومازحته حين ذكرت له بيكاسّو وكرهي لطريقته في الرسم وأعجبه الحديث وأخذ يريني بعض الرسوم والصور الجميلة حقاً، وقلت لعله أن يذكرني بخير فيهديني رسماً من هذه الرسوم الكثيرة المبثوثة في القاعة الأنيقة ولكنه لم يفعل، وسبحان الله في هؤلاء البخلاء، وفي الموصل تذكرت صديقي القديم «عبد الجبار جومرد» الوزير والنائب والمحامي والمهذب الأديب، فهو صاحب الأصمعي وهارون الرشيد اللذين ألف في كل منهما كتاباً ضخماً، عدا ما ألف من كتب أخرى وقد أبلغت نبأ موته المفاجيء وأنا في الموصل وكنت أمنّي النفس أن أراه، ولكني تعرفت إلى ابنه فقد جاء إليّ يزورني وكان لهذا اللقاء أثر حزين في نفسي، فقد كان رفيقي في معهد الحقوق عام ١٩٣٢ وكانت معرفتي به أصيلة قديمة.

وفي الموصل تذكرت أيضاً صديقي القديم «أحمد نعلبند» والكلمة الأخيرة أصلها فارسي وهي تعني «البيطار»، عرفت هذا الشخص العجيب في بلدة الحسكة وذلك عام ١٩٣٨، وقد كنت جالساً مع صديق آخر في ليلة من ليالي شهر تموز على ضفاف نهر الخابور فسمعت صوتاً يأتيني من جانب النهر الآخر ورجلاً يردد هذا البيت بصوت شجي حزين:

ذكرتني تلك الطلول البوالي   أسفا دائماً وحزناً طويلا

وقد أخذت بالصوت أنا ورفيقي، وكنا في حالة سيئة من ضغط السياسة والحرمان والانقطاع عن الناس في تلك الديار الصحراوية الغريبة في كل شيء، في سكانها ومناخها وهوائها ولغاتها، حملنا، أنا ورفيقي، المنضدة التي كنا نأكل عليها وانتقلنا إلى جواره لنتحدث إليه، فإذا بصاحب الصوت رجل أشيب يبلغ الخمسين من العمر، أهرت الفم قد أضاع أكثر أسنانه وقد لبس القنباز العادي وحمل برجله الغبراء

حذاءً معلقاً بها يكاد يخرج من نفسه، وقد وضع على رأسه كوفية حمراء وعقالاً أقام في أعلى يافوخه، وكانت أمامه زجاجة من الشراب وقد شاركناه في كل شيء، في الحديث والغناء والشراب والضحك حتى كاد ينبلج الصباح، كانت هذه الليلة فاتحة صداقة قوية متينة بيني وبينه وكان يمر بالحسكة خلال رحلاته الطويلة، إذ كان تاجراً، فكان يمر بي كلما عنت الحسكة على باله، ولقد سألت عنه بالموصل فوجدته قد مات إلى رحمة الله، وقد أطلعت صديقي الدكتور «فيصل دبدوب» وهو عضو في مجمع دمشق، وقد رافقنا طوال الأيام التي عشناها في الموصل وكان دليلنا في زياراتنا الكثيرة لأرباض المدينة القديمة ودساكرها وأبنيتها الحديثة وهو الذي أعلمني بأن صهر صديقي أحمد نعلبند يعمل الآن مديراً لمشفى الموصل الكبير، وقد رجوت إليه أن يأخذ بي إلى هذا المشفى لنرى ابن أخي صديقي وصهره ولنتطلع على هذا المشفى الذي قيل لي عنه أنه شيء هام، وكان المطر وابلاً والبرد قارساً، وامتطينا سيارة الدكتور أنا والأستاذ عبد القادر عياش الصديق القديم ووصلنا إلى المشفى الكبير، وقد وجدناه كما قيل لنا فصدق الخبر الخبر، فإنه بناء واسع شاسع يتسع لأكثر من /٨٠٠/ سرير، وقد قيل لنا إنه من آثار الملك فيصل الأول العمرانية، وجلسنا عند الأستاذ نعلبند فشربنا القهوة العربية عنده ورأينا بعض الأخوان ومنهم مواطن سوري من دير الزور.

كل هذه الذكريات مرت بي والقطار ما زال في سيره متجهاً نحو بغداد والأحاديث متصلة بيننا وبين أخواننا المصريين في الغرفتين المتصلتين من غرف القطار الليلية، والمسافة بين بغداد والموصل لا تقل عن أربعماية كيلومتر، وقد وصلنا إلى بغداد بعد المغرب فنزلنا في المحطة الشهيرة الكبيرة وكانت السيارات الكبيرة بانتظارنا لتقلنا إلى فندقنا العزيز «الخيام».

كنت متعباً في جسمي وروحي، فأنا لم أذق النوم الهادىء الكافي منذ وطئت أرض العراق، لا أدري السبب ولعل الارتحال وتغيير المكان والتنقل بين جهة وأخرى، كل ذلك قد أثار أعصابي وجعل نومي غراراً، ولقد كنت أشعر بالتعب في الصباح وحين كنت أهم بالقيام من الفراش حتى إذا ارتديت ملابسي ونزلت إلى بهو الفندق واجتمعت بالأخوان زال ما بي من تعب يبخره الضحك ويزيله المرح والسرور، أما تعبي الروحي فلأن جو الموصل قد كان بارداً في كل شيء في سمائه وشعره وأحاديثه الفارغة المبتسرة ثم ما تعرضت له من إثارة في السهو عن اسمي من بين الخطباء، وما تحدث به إليّ بعض الأخوان من أن هذا السهو قد كان مقصوداً، ثم إن النقد الخفي الهامس الذي تعرضت له قصيدتي والذي وصلني منه بعض الوخز، كل ذلك قد سبب لي بعض التشاؤم وأرخى على يومي سحابة أمسي كما يقول بودلير. على أن هذا النقد لم يكن نقداً علمياً، وإنما هو لفظ وكلام من جانب بعض مدعي الشعر الذين ألقوا قصائد في المهرجان وذهبت قصائدهم في خبر كان، ليت شعري، وكيف يريد هؤلاء للجمهور أن يؤمن بكلام لا يفهمه ولا يستطيع حفظه أو رؤيته وهو خال من المعاني، كما يريد أصحاب هذا الشعر أن يكون شعرهم مجرداً من الوزن والقافية اللذين يعينان على الحفظ والرواية.

وكان شبح العودة إلى دمشق يراودني الحين بعد الآخر وركوب الطائرة يحرك أشجاني ويثير ما ركد مني، ولم يكن أحد يعينني على تحمل هذا الخوف الذي لم يكن يبارحني فكل الناس شجعان على حسابي، أقوياء أمام ضعفي وكلهم من رواد القمر، يتحدثون عن الصعود في هذا الفضاء الأزلي وكأنهم يتحدثون عن رحلة من البيت إلى المقهى، وهو والله كذب مصطنع فالخوف غريزة في الإنسان حين يتعرض لما قد ينجم عنه خطر مهما قل هذا الخطر.

وأردت السهر في بهو الفندق ولكنني سرعان ما أويت إلى فراشي مرهقاً متعباً وأخذت أتقلب ذات اليمين وذات الشمال، وأنا أنام قليلاً ثم أفيق حتى الصباح، وكان ذلك اليوم هو السادس عشر (١٦) من كانون الأول ١٩٧١، في الصباح الباكر تناولت طعام الإفطار ونزلت إلى بهو الفندق وقد درت على الرفاق مودعاً فإن هذه الرحلة الجميلة قد تركت فيّ أجمل الذكريات، وأحسست شيئاً من الغصة لفراق بغداد وأخوان بغداد وخاصة الأستاذ هشام السامرائي الذي كان مشرفاً على الرحلة، وقد أفاض عليّ وعلى الاخوان من كرمه في الكتب والمؤلفات، كما كانت الآنسة ـ السمراء ـ تهيىء لنا أسباب العودة وتشرف

على راحتنا، وقبل السفر حاولت شراء بعض الحاجيات العراقية، ثم خرجت أنا والدكتور صديقي والسيدة عقيلته لزيارة أسواق بغداد واختيار شيء مما فيها من الهدايا وخاصة سوق الصاغة الشهيرة، وقد درنا في السيارة الضعيفة الواهية التي استعرناها من السفارة السورية وهكذا إلى أن أزف وقت الغداء، وكان رفيقي على المائدة الأستاذ الصديق جبرائيل جبور، فتحدثنا كثيراً عن الرحلة وعن خلاصة المهرجان، وقد تركت معدتي شبه خاوية لأني لم أكن في حالة طبيعية من الخوف والهم الذي ركبني من السفر في الطائرة وقلت في نفسي يا ليت هذه العودة إلى دمشق العزيزة كانت بالقطار أو السيارة إذن لما انقطع حبل سروري ونشوتي وانبساطي في هذه الرحلة التي ستظل ذكراها خالدة في ذهني ايام الحياة المقبلة.

هيأت حقيبتي ساهم الوجه صامتاً ساكتاً، فإن وداع الأرض التي عرفتها ولقيت فيها الحبور والهناء ليس شيئاً سهلاً، إنها أرض عرفناها بعد أن قرأنا عنها الشيء الكثير وقد كنا فيها ننتقل من منظر إلى منظر ومن مكان إلى مكان آخر دون تعب أو مشقة وكأننا أطفال في عائلة واحدة، إن البعد عن هموم الحياة هو الحياة، وجاء خادم الغرفة وهو شاب مهذب فساعدني على نقل الحقيبة، وحين وصلت إلى البهو استقبلني المشرفون على حسابات الفندق ومديره ورجوا إليّ أن أعطيهم عنواني ونسخة من قصيدتي في المهرجان فأجبتهم إلى طلبهم شاكراً ممتناً، وأقبلت السيارات ومشينا في الطريق الذي أتينا منه أول يوم نزلنا فيه أرض العراق، وكنت أنا وسيدة الرحلة والدكتور الصديق - زوجها - والأستاذ عبد القادر عياش والدكتور عبد الكريم اليافي، ولقد مررنا في الساعة الثالثة بعد الظهر تقريباً على أرباض بغداد، واجتزنا عدداً من الجسور التاريخية التي لا أذكر اسمها ولعل منها جسر المسيّب، نسبة إلى سعيد بن المسيب، التابعي الكبير والعالم الديني الشهير، كما مررنا بأم الطبول وهي مكان أصبح له هذه الأيام ذكر في التاريخ ووصلنا المطار، ورأيتني وجهاً لوجه أمام الطائرة السورية ذات المحركات الأربعة، وقد قيل لي إنها أدعى إلى الطمأنينة من الطائرات السريعة النفاثة، ومنها الطائرة اللعينة التي جئنا بها، وصعدت إلى الطائرة ولا أدري سبب الاطمئنان الذي دخل على نفسي حين وجدت هذه الأداة الرهيبة الواسعة ليس فيها إلا عدد قليل من الركاب، وقد نزهت فيها عيوني خائفاً وجلاً، ثم تعودت على الجو فهدأت أعصابي وأخذت أتنقل بين مقعد وآخر، كما وجدت المقعد واسعاً لا ضيق فيه يسيىء إلى المسافر ويزعجه، ورأيت سيدة الرحلة تتحدث إلى امرأة كبيرة في السن باللغة الإنكليزية، فعلمت منها أنها امرأة ميسورة الحال في إنكلترا كانت تعطف على الطلاب العرب، وقد وقفت ثروتها لخدمتهم، وهي قادمة إلى سورية بدعوة من وزارة الإعلام فيها، كما كانت مدعوة في بغداد لدى الحكومة العراقية. ووقفت في أرض الطائرة غير هيّاب ولا وجل ورحت أتنزه بين المقاعد وكأنني في سينما أو في مطعم، ولم يخطر الخطر على بالي، وكان الدكتور الصديق يداعبني حيناً فيشير إلى المحركات والبريق المنبعث منها، وكنت أدير وجهي عن هذا المنظر الرهيب القاتم، رغم أنني كنت أرى نهري الفرات والدجلة وكأنهما حيتان كبيرتان أو كأنهما حبلان ثخينان ممدودان على السهل تحت الطائرة.

ولاح لنا مطار دمشق فصفق القلب وفرح، وهبطت الطائرة الهوينا فإذا نحن على التراب هادئين مطمئنين، وأنشدت بيت بشر بن أبي عوانة وأنا اخاطب الطائرة:

أنِل قدميّ ظهر الأرض إني ... وجدت الأرض أثبت منك ظهرا

وهكذا عدنا إلى الفيحاء بعد أن تركنا أرض الزوراء. فرحم الله أياماً جميلة عشناها في بغداد على شاطىء دجلة، وحفظ الله أولئك الذين هيّأوا لنا أسباب السعادة والحبور في تلك الأيام الرائعة الجميلة.

خاتمة

الآن وقد أنجزت هذه الذكريات، أراني قد نسيت بعضاً منها أو تركت جزءاً متعلقاً بها عن سهو ونسيان، ولكن أهم ما في الأمر هذه الكثرة الكاثرة من الأحداث التي لا يمكن حصرها أو كتابتها. فإن حياتي لم تكن بسيطة، ورب حياة تستطيع رسمها بصفحة أو صفحتين بينما هناك حيوات قد تستلزم كتباً ومجلدات للإحاطة بها، وحياتي لم تكن مليئة بالأحداث الكبار لأني لست ممن يعمل في مجال الأحداث الكبار التي كنت أرى فيها تعباً وتعصباً، ما كنت أرضاهما لنفسي، فإن الحياة بالنسبة إليّ، أو إلى رأيي نزهة ينبغي أن يقطعها الإنسان هانئاً مسروراً، لذلك فإن ذكرياتي أقرب إلى التسلية والعبرة والتثقيف أحياناً. فالحياة عندي فن، والفن هو الحياة، ولهذا فإني لا أؤمن بالشخص الذي لا صلة له بالفن كيفما كان هذا الفن، وحياتي كانت قصيدة طويلة من الذكريات، كل ذكرى منها بيت من الشعر. لقد شغلني في حياتي السهر وحب الجمال والطبيعة والضحك والقراءة والحديث الطليّ، هذه هي الأمور التي كانت شاغلي في حياتي، ولهذا فإن ذكرياتي ليس فيها علم عميق جاف، ولا أحداث سياسية فيها رهبة أو عبرة، إن حياتي كلها كانت سهرة جميلة أو نزهة في خميلة. لقد كنت أعجب لمن لا يجد لذة في قراءة الشعر، وهؤلاء كثيرون، مع الأسف، وكنت أرثي لمن لا يرى متعة في سماع الغناء والموسيقى وهؤلاء أكثر مما يلزم، إن كل شيء في حياة الإنسان أساسه المتعة والنشوة، وعندي أن الاستمتاع بالحياة هو الذي يفرق بين الإنسان الصحيح والإنسان السقيم، وإذا لم يفهم المرء الجمال في الفن، وإذا لم يدرك لذة الحياة في الحياة، فما يصنع في هذه الحياة؟ إنه يكون أشبه بالإنسان الآلي لا حس ولا شعور.

على هذا الأساس كتبت هذه الذكريات وقد حاولت فيها أن أحصي، على قدر إمكاني، أيام اللهو والمرح والمتعة والطرب، وأيام الاطلاع والثقافة، وكلها تدور في فلك الاستمتاع بهذه الحياة. وإنما الحياة سلسلة من الأيام والساعات، يمر بها المرء وكأنه في قطار سريع يقطع السهول والسهوب.

أرجو أن أكون وفقت إلى ما أردت بعون الله تعالى.

أحمد الجندي

١٩٩٠/٢/٢٠

فهرس الأعلام

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ن)

(هـ)

(و)

لهوُ الأيّام

مذكرات

سنوات المتعة والطرب والثقافة

كتاب ظريف لرجل ظريف عاش حياته بالطول و بالعرض وكان في شخصه صورة للظريف العربي المتمدن كما وصلتنا في كتب التراث.

المرحـوم احمد الجندي في كتابه الاول والاخير «لهو الايام» لا يؤرخ لنفسه بل يقدم صورة حقبة مديدة بالوان زاهية وبريشة محببة لا تفتئت ولا تغتاب بل تمضي على رسل الحقيقة كما عاشها صاحبها. فهو ـ على حد قوله ـ قد يكتب «ما لا يرضى عنه صاحب الفكرة او الموضوع ولكن ما حيلتي وهو الذي صوّر نفسه كما رايتها».

على ان ظرف الكتاب وروحه الجاحظي لا يشفعان للحقيقة المرّة فحسب بل ويمنحانك ايضاً القدرة على فهم سلبية الشخص المحكي عنه والنظر الى باعث الضيق بيسر وسماح.

«لهو الايام» كتاب حلو في ايام مرّة حاجتها الى هذه «الحلاوة الشامية» عظيمة.

1855130734